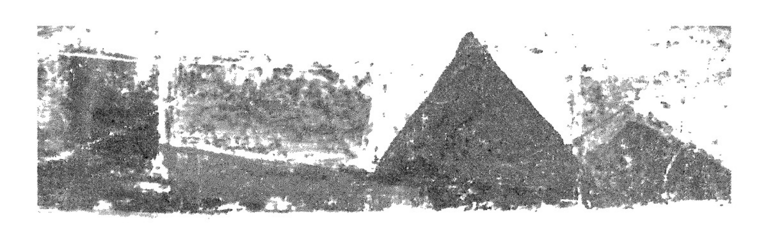


فى بعث الأمة المصرية

حافظ عثمان

فى بعث الأمة المصرية

حافظ عثمان



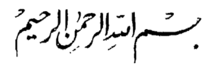
الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٤

الاخراج الفنى | تصميم الغلاف
راجيه حسين | فتحى احمد

الجزء الأول

في أسباب قيام الحضارة المصرية



مقـــــدمة

هذا الكتاب يبحث فى التساؤلات التى تثار بيننا كل يوم وكل ساعة ، كما أنه يحاول أن يجيب على هذه التساؤلات ٠

فكل منا يتساءل عن الفقر والتخلف ٠

فما السبب فى هذا الفقر والتخلف ؟

وهل السبب يرجع الى أحوال موجودة فى الطبيعة ، سواء فى الموارد الاقتصادية أو فى الطقس والتضاريس أو لون بشرتنا ٠٠٠ الخ ٠ ومن ثم فلا أمل فى تحسين الأحوال ؟

او أن السبب يرجع الى أشياء دخيلة علينا ومن ثم يمـــكن تغيير حياتنا الى الأفضل ٠

ولقد بحث الكثير من العلماء مشكلة الفقر والتخلف فى كثير من دول العالم بصفة عامة كما بحث الكثير من العلماء هذه المشكلة بالنسبة للشعب المصرى بصفة خاصة ٠

ومن العلماء من قال ان سبب الفقر والتخلف يرجع الى الجنس ، ويقصدون بذلك أن الرخاء والتقدم مقصور على الشعوب البيضاء فقط ٠

ومن العلماء من انتهى الى أن سبب المشكلة يرجع الى الطقس ، فحيث نوجد البرودة الشديدة أو الحرارة الشديدة فثمة موانع تحـــول دون الناس وممارسة انشطتهم فى العمل الجاد المثمر ٠

فهنا الأجواء تدعو الى التقاعس عن مسيرة التقدم والرخاء ٠

ومن العلماء من أبدى أن سبب الفقر والتخلف يرجع الى ما فعله الاستعمار من نهب ثروات الشعوب وما خلفه فيها من تنظيمات ومؤسسات تهدف الى استمــــرار البلاد المستعمرة على تخلفها وحتى تكون موردا للمنتجات الزراعية والمواد الخام وسوقا رائجة لمنتجاته الصناعية ٠

وقال آخرون ان السبب يرجع الى نقص الموارد الاقتصادية وعدم كفايتها وصعوبة الحصول عليها ٠

كما قال البعض أن سبب الفقر والتخلف يرجع الى جمود البيئة الاجتماعيـــة والمفاهيم الخاطئة عن الدين الاسلامى وخاصة بالنسبة للتواكل ٠

والبعض جعل من غياب الديمقراطية فى معظم البلاد النامية السبب فى تخلفها ٠

وكثير من العلماء جعل سبب الفقر والتخلف يرجع الى هذه الأسباب كلها (١) ٠

ولكن كل هذه الأسبا بـليست السبب فى تخلفنا ٠

وذلك أن الفقر والتخلف ظاهرة غريبة على الشعب المصرى وليست متأصلـة فيه ٠

فالثراء والحضارة كانا من صنع السلف من المصريين ، بل هم الرواد الأوائل للبشرية فى هذا المجال ولعدة آلاف من السنين ٠

وبهذا فلاعلاقة بموضـــوع لون البشرة أو الجنس أو الطقس أو المواقع الطبيعية فى مصر بموضوع الفقر والتخلف ٠

اما أن يكون الدين الاسلامى يدعو الى التواكل ، ومن ثم يكون هو السبب فيما نحن فيه من فقر وتخلف فلا تعرف البشرية فى تاريخها الطويل أن قوما من البـدو الرحل ، متفرقون ، متصارعون ، متنابذون ، يتم توحيدهم حول رسالة الســـماء ثم وفى خلال ربع قرن من الزمان يتغلبون على أقوى دولتين متحضرتين فى العالم ٠

هنا منتهى الايجابية وفرض ارادة تغيير مسار التاريخ على الـكوكب الأرضى لمصلحة المسلمين ولمصلحة الرسالة الاسلامية نفسها وفى أقصر فترة عرفتها البشرية ٠

وبهذا يخرج الدين الاسلامى عن كـــونه سببا من أسباب التخلف أو داعيا للتواكل ٠

اما أن يكون ما خلفه الاستعمار من نظم تهدف الى عرقلة نمو البلاد المستعمرة وما سلبه منها من ثروات فان هذا يعنى انتفاء العقل وارادة التغيير لدى الشعوب ٠

وذلك أنه بامكان الشعوب لو أرادت ، القضاء على كل المعوقات التى خلفهـــا الاستعمار والتى تكبل مسيرتها الى الحياة الأفضل ٠

وبالنسبة لغياب الديمقراطية كسبب للتخلف فالواضح أن عندنا أحزابا وصحافة حرة ومجالس منتخبة ٠

وهنا كان لا بد من البحث عن أسباب أخرى لمشكلة الفقر والتخلف ٠

وبالنظر الى هذه المشكلة سنجد أن الانسان فى جانب والموارد الاقتصادية للدولة فى جانب آخر وأن الأول (أى الانسان) عليه أن ينشط ويجد ويجتهد حتى يستثمر ويستغل الموارد الاقتصادية بأفضل ما لديه من فكر وطاقة ومال وبهذا فقط ينزاح كابوس الفقر والتخلف الى الأبد ٠

ولما كان لا يوجد عيب فى الموارد الاقتصادية فى مصر لأنها حتى لو كانت غير كافيه فانها لا تمثل مشكلة والدليل على ذلك أن كلا من سويسرا واليابان فقيرتان (نسبيا) فى الموارد الاقتصادية ومع ذلك فهما من أغنى دول العالم وأرفعها حضارة ٠

لذلك فلا يوجد عيب الا فى الانسان المصرى نفسه ٠

أى أن العيب فى أنفسنا ٠

ولما كانت عملية ازالة الفقر والتخلف لا تتطلب من الناس الا الوحدة والتعاون والتكاتف لاستغلال واستثمار مواردهم الاقتصادية الاستغلال والاستثمار الأمثل بينما نحن متفرقون عن هذه المسيرة ٠

فيكون العيب فى تفرق بعضنا عن البعض وعن الحكومة وعن قياداتنا وعن النظم والقوانين وعن قواعد الأخلاق وعن المال العام ٠

اذ لو كنا متحدين حول هذا كله لما كانت هناك مشكلة فقر أو تخلف على وجه الاطلاق ٠

ومن هنا يكون البحث فى اسباب هذه الفرقة هو نفسه البحث فى أسباب الفقر والتخلف ، كما يكون البحث فى تحقيق الوحدة بين الناس هو نفسه البحث فى تحقيق الثراء والتقدم على أرض مصر ٠

وحتى نتعرف على أنفسنا حالة وحدتها فرخائها وتقدمها لنأخذ بأسباب وحدتها ٠

وحتى نتعرف على أنفسنا حالة فرقتها ففقرها وتخلفها لنتجنب أسباب فرقتها ٠

يجب أن نتجه الى البحث فى أغوار النفس المصرية عبر تاريخها الطويل لآلاف السنين ٠

ولقد تبين من هذه الدراسة أن الشعب المصرى يتجه الى الوحدة (فالثراء والحضارة) اذا كان النظام السياسى والاقتصادى والاجتماعى مختارا منه ، اذ هنا فقط تظهر ايجابيات الشخصية المصرية فى الصدق والصراحة والشجاعة والانتماء فتلتف حول النظام وحول قيادتها فى وحدة لا تنفض ومن ثم تتولد العدالة ويشيع الاحساس بالاطمئنان والثقة بين الناس وهذه هى التربة اللازمة لنشأة الحضارات ٠

كما تبين أن الشعب المصرى يتجه الى الفرقة (فالفقر والتخلف) اذا كان النظام السياسى والاقتصادى والاجتماعى مفروضا عليه من أعلى ، وهنا تظهر سلبيات

الشخصية المصرية فى الكذب والملق والخوف والتواكل فتتفرق عن النظـــام وعن الوطن وعن قادة البطش والاستغلال التى تظهر عادة فى هذه الأجواء ومن ثم يتولد الظلم ويشيع الاحساس بالقلق والتوتر وعدم الثقة وهذه هى التربة الملائمة لازدهار الفقر والتخلف ٠

وعلى هذا فان النظام المفروض هو الذى يثمر سلبيات الشخصية المصرية ٠٠٠ فالفرقة فالفقر والتخلف ٠

كما أن النظام المختار هو الذى يثمر ايجابيات الشخصية المصرية ــ فالوحدة فالثراء فالحضارة ٠

وبهذه النظرة عن الشخصية المصرية فى ايجابياتها ووحدتها (فثراءها وتقدمها) قدمنا الجزء الأول من الكتاب حيث تم استعراض تطور النظم الاقتصادية والسياسية والدينية ونماذج من قيادات هذه المرحلة والتى انتهت سنة ٢٠٠٠ ق٠م حيث قدمت مصر أول حضارة عرفها الانسان بعد أن تحققت وحدة الجماهير حول النظم وحـول القيادة القدوة ٠

وفى الجزء الثانى من الكتاب ثم متابعة تطور النظم الدينيـــة والسياسيـــة والاقتصادية حتى ١٥ مايو ١٩٧١ مع بيان نماذج من قيادات هذه المرحلة ووسائلها فى وصولها الى السلطة وفرض النظم والقوانين وما عاد عليها من كسب مما حقق فرقة الجماهير عن النظم وعن القيادة وأثمر سلبيات الشخصية المصرية وفقرهـــا وتخلفها ٠

وفى الجزء الثالث من هذا الكتاب قدمنا أسباب فرقة الجماهير عن النظم وعن القيادات الحالية ووسيلة استعادة وحدتها وذلك بالاستفادة من تجاربنا عبر تاريخنا القومى والسابق عرضها فى الجزءين الأول والثانى من هذا الكتاب ٠

والكتاب بهذا يهدف الى أن نتعرف معا على أنفسنا حالة أفراحها ووحدتها وحالة اتراحها وفرقتهما لعلنا نتمكن من تغيير ما (طرأ) على أنفسنا من عوائق تحول دون وحدتها فرخائها وتقدمها ٠

« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ٠

وأود أن أنوه بأنى قد استعملت الألفاظ التى تؤدى مباشرة الى المعنى المقصود دون التقيد بالألفاظ الاكاديمية ضرورة أن هذا الكتاب يهدف الى أن يقرأه أكبر قدر من الناس على مختلف المستويات الثقافية لعلهم يشاركوننا فى البحث عن وسيلـــة تحقق الوحدة بيننا ٠

كما استعنت فى هذا البحث بالكثير من المراجع التى دونتها فى قائمة المراجع لعل القارىء الراغب فى الاستزادة يرجع اليها ٠

ومن هذه المراجع ما هو اقتصادى ومنها ما هو تاريخى ومنها ما هو اسلامى .. .. الخ .

وكلها مراجع لأساتذة وعلماء أجلاء .

ولقد حاولت جهدى أن يخرج هذا الكتاب مختصرا وفى حجم معقول يمكن قراءته فى أقل وقت ممكن وذلك مراعاة لظروف هذا الجيل الذى تنفر نسبة كبيرة منه من القراءة المتعمقة ولذلك اكتفيت فى كثير من الحالات بعرض نماذج من الأحداث التى تعرضت لها مصر باعتبار أنها متكررة سواء من الحاكم التركى أو المملوكى أو الاغريقى أو الرومانى .... الخ .

كما أننى راعيت فى بعض المواضع اطالة النقل من النصوص التاريخية ومن أقوال العلماء المتخصصين فى مجال البحث وذلك عند محاولة معايشة السلف فى عقائدهم التى قد لا تستسيغها معارفنا الحالية . أو عند محاولة التأكيد على الدليل الذى قدمناه ويؤيد وجهة نظرنا .

ورغم هذا الحرص على الاختصار . وعرض أقل ما يمكن من أمثلة تاريخية . خاصة فترة الحكم الأجنبى لمصر . فقد خرج الكتاب بحجم أكبر من المتوقع .

وعلى كل حال فالموضوع نفسه يحتاج الى مجلدات . أليس فيه تاريخ للشخصية المصريه وعوامل وحدتها وفرقتها عبر ستة آلاف سنة على الأقل .

وقد يندهش البعض من أن أسباب فرقتنا ترجع الى هذه الآلاف من السنين (من سنة ٢٠٠٠ ق.م) . وقد يسارع البعض الى القول باستحالة ارجاع أسباب فرقتنا الى هذه السنوات الطويلة من التاريخ . أو على الأقل أن يكون لأحداث آلاف السنين تأثير على شخصيتنا المعاصرة .

ثم قد ينبرى البعض فيتكلم عن تأثير الدين المسيحى والاسلامى فى وحدة الشعب المصرى .

ولكننا أمام الحقائق التاريخية ليس بيدنا الا التصديق والنظر بواقعيه الى أحوالنا دون الاغراق فى الخيالات .

وعلى كل حال فلسنا وحدنا الذين آن لنا أن نكشف ذلك فى أنفسنا . فلقد سبقنا الى كشف حقيقة أنفسهم الكثير من الشعوب الأخرى وان كان الشعب المصرى قد قضى أطول مدة غافلا عن نفسه لظروف القهر والارهاب التى تعرض لها عبر تاريخه الطويل .

وعلى سبيل المثال فانه فى حالة قيام نظام للتسلط على شعب من الشعوب (مثلما حدث فى مصر طوال مرحلة الحكم الأجنبى الذى امتد من سنة ٣٣٢ ق.م حتى سنة ١٧٩٨م) (فان مبدأ التسلط يميل الى اخفاء نفسه حتى ليكاد يدس نفسه

فى ثنايا اللاشعور ، وعندما ثار الفرنسيون سنة ١٧٨٩ م أوشكوا ألا يتبينوا ـ حتى ذكرهم بالحقيقة كاميل ديمولان أن طبقة الأشراف التى تحكمهم منذ الف سنة جاءتهم من ألمانيا ، وأخضعتهم لسلطانها بالقوة)(٢) ٠

ولقد ظلت أوربا لقرون طويلة تئن تحت النظم الاستغلالية المفروضة من أعلى ، ومن ثم عاشت فى فرقة وفى فقر وتخلف حتى بدأت تتلمس الحقيقة ابتداء من عصر النهضة ٠

وعلى هذا فلسنا وحدنا دون سائر شعوب العالم التى ترجع أسباب فرقتها وتخلفها الى آلاف الأعوام ثم (نسينا) أسباب ذلك فى اللا شعور (واعتقدنا) (بشرعية) الحكم الأجنبى ٠

بل لعلنا أحسن حالا من غيرنا من دول أوربا التى ليس للكثير منها ، على عظم حضارتها الحالية ، أى حضارة ماضية ٠

أما نحن فنريد أن نسترجع بوحدتنا ما فقدناه بفرقتنا ، أما هم فقد بدأوا من العدم بوحدتهم ٠

لذلك أسمينا الكتاب (بعث الأمة المصرية) ومعنى البعث هو الأحياء وبمراعاة أن روح الأمة المصرية بفرقتها وتخلفها اليوم تعد فى مرحلة الموت ، وأن وحدتها وتقدمها هى مرحلة الأحياء أى البعث ٠

(وأن لفظ الأمة يعنى فى صورته البدائية الانتماء ، والاحساس بالأمة ببساطة شديدة هو الاحساس برابطة القرابة أو صلة العرق ومعناه الصورة الموسعة للأسرة أو العشيرة ٠ وكلها الفاظ ومشتقات من لغة العائلة : صلات الدم والعرق والسلالة والجنس ٠٠ الى غير ذلك ٠

وفى حقيقة الأمر تتحول الأمة الى شىء أقرب الى صلة النوع منها الى صلة الدم تتشابه فى المقومات الحضارية والقيم أكثر من التشابه فى الملامح والشخصية البيولوجية(٣) ٠

وعلى هذا تكون ترجمة عنوان هذا الكتاب هو احياء العائلة المصرية أو الأمة المصرية بكل ما يحمل هذا الكلام من معنى الانتماء والوحدة والمصير المشترك ٠

ولسنا أول من قدم محاولة لبعث هذه الأمة واعادتها الى سابق وحدتها وحضارتها ٠

فالمغزى المستفاد من تقطيع جسد أوزوريس (ممثل مصر) يعنى فرقة هذه الأمة ، واعادته الى الحياة بمعاونة الزوجة والأخت والابن (كممثلين لمجموع الأسر المصرية) يعنى اعادة الوحدة الى هذه الأمة ٠

كما استعمل كل من سيتى الأول من الأسرة التاسعة عشرة ورمسيس الحادى عشر من الأسرة العشرين تعبيرات (تجديد الولادة) أى بعث مصر من جديد بعد أن طحنتها الفرقة والضعف والتخلف فى هذه الفترات ·

ثم يعود أبناء هذه الأمة ابتداء من ظهور الروح القومية سنة ١٧٩٨م وحتى ماقبل ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ م الى محاولة بعث مصر فينشئوا الجمعيات والأحزاب الداعية الى ذلك ·

وكان اقوى مظهر لهذه المحاولات وأبقاه على مر الزمن هو تمثال نهضة مصر للمثال المصرى العظيم مختار حيث تظهر مصر المعاصرة ، بملابس الفلاحة فى القرية المصرية ، لتوقظ الروح المصرية الكامنة فى الشكل المصرى القديم ·

ولسوف تظل فكرة بعث الأمة المصرية تراود أبناء هذه الأمة لاستعادة موقعهم فى قيادة حضارة بنى الانسان مهما طال الزمن ومهما حدثت معوقات تحول دون تحقيقها ·

ولن ييأس المصرى أبدا عن تحقيق هدفه وذلك انه فى قرارة نفسه يحس بعدم الرضا عن واقعه المحزن ويتطلع الى التغيير للأفضل كما كان عليه السلف من قبل ·

وهو هنا تملؤه الثقة فى نفسه بامكانية تحقيق أمانيه لأنه فعلا هو ما قيل عنه (انى ابن الحكماء ، ابن الملوك القدماء)(٤) ·

وليس المطلوب من القارىء الا أن يطالع هذا الكتاب باقصى مايمكن من الجدية ·

انه فى الحقيقة مطلب عسير المنال ·

اذ تكاد تكون حياتنا خالية من الجدية . فالدين وقواعد الاخلاق وقيم المجتمع الأساسية وقياداته فى شتى المجالات لم تسلم من السخرية ومن النكات الهازلة ·

ولعل هذا يشكل أخطر مظهر من مظاهر فرقتنا ، اذ ما دام لا يوجد الكثير مما ينظر اليه الناس نظرة جدية ونظرة تقديس لا تسمح لأى مخلوق بالتطاول عليها جادا أو هازلا فما الذى سيحفظ على المجتمع تماسكه ؟

اننا بحاجة الى لحظة صدق مع النفس مع جدية فى القراءة وتشكيل الرأى بعد الانتهاء من هذا الكتاب ·

لحظة صدق مع النفس تواكبها جدية فى الفكر والعمل كافية لاعلان فجر جديد للحضارة المصرية ·

ولسنا ضد الوحدة العربية أو ضد الوحدة الاسلامية فى هذا الكتاب ·

ولكننا ضد الوحدة التى يساوى كل عضو فيها صفرا فيكون مجموع الوحدة صفرا مهما كثر عدد الأعضاء ·

فاذا وقفت مصر على قدميها واستعادت مكانتها هنا يحق لها ان تبدأ فى «العمل» لتحقيق الوحدة مع من ترى فى وحدتها معه مصلحتها ·

ولا ينبغى لمصر أن تشغل بالها أو تبدد طاقاتها فى مشكلات الغير بينما بيتها بحاجة الى اعادة بناء ، الا بقدر ما تسمح به ظروفها ·

ولن يرفع الشرق رأسه أبدا ان لم تنهض مصر ·

وهذا هو قدرها على مدار آلاف السنين ·

وصدق الشاعر حافظ ابراهيم فى قوله :

أنا ان قدر الاله مماتى   لن ترى الشرق يرفع الراس بعدى

وارجو ملاحظة أن الكاتب يقدم ما عنده ، في حدود امكانياته ، لما يعتقد أنه قد ينفع الناس ·

ولا يكلف الله نفسا الا وسعها ·

والله ولى التوفيق ،،

ح· ع·

الباب الأول

فى النظام التى اتحد الشعب المصرى على طاعتها
من النشأة الأولى حتى سنة ٢٢٠٠ ق٠م٠

خطة البحث

المشكلة التى يعالجها هذا الكتاب هى فى كيفية تحقيق الوحدة والاتحاد بين أبناء الأمة المصرية باعتبار أن هذا هو السبيل الاوحد لاحلال الثراء والحضارة محل الفقر والتخلف ·

ولما كانت الوحدة داخل أى تجمع انسانى لا تتحقق الا اذا تمسك أعضاؤه بالمبدأين التاليين :

١ ــ التمسك بالمبادىء والقيم السائدة فى المجتمع ·

٢ ــ طاعة القيادة ·

وذلك أنه يستحيل تحقيق أى وحدة اذا اتخذ كل فرد من أبناء المجتمع الهه هواه وتباعد عن قياداته ·

لذلك فان البحث يدور حول بيان مواصفات النظم والقيادات التي ينقاد الشعب الى طاعتها عن رضا وعن اقتناع ·

ضرورة أن النظم والقيادات التي يجبر الشعب على طاعتها لا تثمر سوى الفرقة عنها ·

وباستعراض تاريخنا القومى من النشأة الأولى وحتى الآن تبين أن الشعب المصرى يتجه ، عن طواعية ، الى الوحدة والاتحاد ·

(أ) اذا كانت النظم والقوانين نابعة من اختياره ·

(ب) اذا كانت قياداته هى القدوة فى التمسك بالنظم وبالمبادىء وهى القدوة فى تقديم كل مبتكر وجديد لخدمة الجماعة المصرية ·

وفى هذه الأجواء تظهر ايجابيات الشخصية المصرية حيث تثمر الرخاء والحضارة ·

وعلى العكس من ذلك فانه فى حالة فرض النظم والقيادات بالقوة ودون مراعاة رضا المحكومين عنها فان الفرقة تتحقق كما تظهر فى هذه الأجواء سلبيات الشخصية المصرية ومعها الفقر والتخلف ·

ويجب أن تعلم أن سبب قيام الحضارات يرجع الى القيادة ، وأن سبب انهيار الحضارات يرجع أيضا الى القيادة ·

وفى هذا يقول المؤرخ الفيلسوف أرنولد توينبى أن العامل الرئيسى فى انهيار الحضارة هو فقدان الاقلية الحاكمة للطاقة المبدعة فيها ، تلك الطاقة التى لها من

تاثير السحر على عامة الشعب ما يدفعها الى التسامى عن طريق الاقتداء . ولكن ماذا يفعل الزمار حين يفقد مهارته ، فيعجز عن اغراء أقدام حاضرى الحفل عن الاستجابة بالرقص(٥) ·

انه يحاول فى ثورة غضبة ، أن يفرض نفسه بالقهر على الجمـــوع فيستبدل بالمزمار سوطا يلهب به ظهورهم من أجل أن يحتفظ بمركز ليس جديرا به ·

ان المجتمع فى حالة الانهيار يتشكل على النحو الآتى :

١ ـ أقلية مسيطرة فقدت قدرتها على الابداع وأصبحت تحكم بالقهر ·

٢ ـ بلوريتاريا داخلية ذليلة ولكنها عنيدة تتحين الفرصة للثورة (٦) ·

٣ ـ بلوريتاريا خارجية انشقت عن المجتمع تقاوم الاندماج فيه وتتحين الفرص للثورة ·

وأسباب تحلل هذا المجتمع (الموشك على الانهيار) ترجع الى :

١ ـ قصور الطاقة الابداعية فى الأقلية الحاكمة ·

٢ ـ عزوف الأغلبية عن محاكاة الأقلية بعد أن فقدت الأخيرة مبررات الاقتداء بها ·

٣ ـ فقدان التماسك الاجتماعى ، سواء بسبب انشقاق الخارجين أو سخط المحكومين ·

ولكن كيف تفقد الأقلية المبدعة مقومات ابداعهـا حتى تستحيـــل الى أقلية مسيطرة ؟

هناك أسباب كثيرة تفقد الابداع مقوماته ومن ثم تستحيل الأقلية الحاكمة الى قوة مسيطرة بالقهر كما تتحول الجماهير عن التأسى والافتداء اللازمين عن الاعتراف والاعجاب بالسمو الروحى والفكرى بالصفوة الممتازة الى الخضوع والولاء وما يلزم عنهما من استجابه آليه (وينتج) عن ذلك كله دخول مرحلة التدهور والانحلال ·

أما أهم هذه الأسباب فهى :

١ ـ خمر جديدة فى قوارير قديمة(٧) :

تبتدع الأقليات المبدعة أو الصـفوة الممتـازة من الأنبيـاء ورجال الفكر انظمة جديدة ، ولكن يحدث أن تصاغ الأنظمة الجديدة (بعد ذلك) فى قوالب قديمة ، وهذه طبيعتها وطبيعة كل قديم ، مقاومة الجديد ، الأمر الذى يؤدى الى تفكك النظام أو فقدان وجه الابداع والأصالة فيه ·

فالأديان ، على سبيل المثال بما فيها من سمو روحى ، صيغت فى الطور التالى لنشأتها فى قالب قديم من التعصب المقيت ·

واليهودية أوضح مثال على ذلك ، لقد ارتقى شعب مملكتى اسرائيل ويهوذا ، ابان فترة تاريخية فى طفولة الحضارة السوريانية ، وبلغ الدروة فى عصر أنبياء بنى اسرائيل بفضل عقيدة التوحيد ـ ولكن ترك اليهود لأنفسهم العنان كى يستهويهم وهم اعتبار السمو الروحى موقوفا عليهم ، وامتيازا لهم وحدهم بموجب عهد أبدى من (الله) فظنوا أنفسهم شعب الله المختار ٠

فاذا بالروح اليهودية وما انطوت عليه من تعصب مقيت تناقض تماما ما بشر به أنبياء بنى اسرائيل وأضلهم هذا الوهم فانحرفوا الى ما قادهم الى العقم الفكرى وتحجر الحضارة ٠

(ب) آفة الابداع ، جمود المبدع وافتتان الجماهير الى حد عبادة الذات ٠

يقتضى الابداع أن تظل الطاقات الكامنة فى حالة تفجر مستمر للقوى الخلاقة حتى يظل على حالة من الجدة والأصالة ، ولكن المبدع الذى رفعته الجماهير الى أسمى مكان يجد نفسه عاجزا عن مواصلة الابداع ـ ان سر توفيقه فى المرحلة الأولى أصبح يشكل عقبة فى الاستمرار فى الابداع ، تتجدد الظروف وليس لديه ما يقدمه للجماهير الا أن يستعيد لهم مواقفه السالفة بينما الاحتياجات متجددة وهو غير قادر على أن يقدم لهم ابداعا جديدا ، ليس هذا فحسب ، بل هو يقاوم ظهور مبدع جديد من الجيل الثانى ٠

وتلك آفة الابداع : من المبدع جمود ومن الجماهير افتتان وعبادة ذات ٠

ان الجماهير التى تركت عبادة الأوثان بفضل المبدع لم تتركها الى عبادة الله الحق وانما لعبادة محطم الأوثان أو بالأحرى عبادة ذات فانية ٠

ليس ذلك فى مجال الأديان فحسب ، وانما فى سائر المجالات ، توارى المبادىء خلف الأشخاص وتقديس هؤلاء بدلا من اعتناق المبادىء (وهى) سر قداستهم ٠

بل ليس ذلك فى مجال الدين أو الفكر فحسب ، بل انه كذلك فى مجال التكنولوجيا (أيضا) ـ حيث يظن الجيل القديم بما كان سر تقدمه المادى أو انتصاره الحربى افتتانا يؤدى به الى الجمود عنده ـ وعدم تطويره مما قد يؤدى الى تفوق خصمه عليه ٠

لقد خلد المماليك فى مصر الى نفس الأسلوب التكنولوجى الحربى القائم على الفروسية بعد أن هزموا الصليبيين وأسروا لويس التاسع وانتصروا على التتار مما أدى الى فشل تكتيكهم الحربى أمام المدافع التى نصبها نابليون ـ وهكذا فان آفة الابداع فى مجال التكنولوجيا تسير على هذا النحو :

اختراع ـ انتصار ـ جمود ـ نكبة أو هزيمة ٠

(ج) الحرب نزعة انتحارية والتوسع الخارجى مظهر تدهور وانحلال :

سبقت الاشارة الى أن فقدان الطاقة الابداعية فى الأقلية الحاكمة يحيلها الى أقلية مسيطرة تفرض سلطانها على الجماهير بالقهر ، أما عن البروليتاريا (عامة الشعب) فان الاقتداء يستحيل بدوره الى محاكاة آلية بادىء الأمر ، ثم تسحب هذه الأغلبية ولاءها وتعدل عن المحاكاة ، بل قد يتحول عدد منهم الى بروليتاريا (قوى خارجية) يفصلها عن الأقلية الحاكمة هوة أدبية وجغرافية ، اذ تتحاشى بطش الأقلية المسيطرة ويظل الصراع بين الأقلية المسيطرة والبروليتاريا (والقوى) الخارجية متلاحقا ٠

ولا تجد الأقلية المسيطرة حلا لمشكلاتها الداخلية مع البروليتاريا (عامة الشعب) الناقمة ، وصراعها الخارجى مع القوى الخارجية الا بالتوسع الخارجى والاتجاه الى اقامة الامبراطوريات ــ وهكذا فان الدول العالمية تقوم بعد انهيار الحضارة ونتيجة لها لا قبلها ــ وتحاول هذه الدول تحقيق الوحدة السياسية بين جماهيرها كما تسعى الى جمع الشمل ابان عملية التحلل ــ وليس الاتجاه الى التوسع من فعل الزعماء السياسيين والقادة العسكريين فحسب ، بل ان مذاهب فلسفية تقوم بدور الداعية لها وتدعمها ايديولوجيا ، وهكذا يعبر التوسع الحربى عن تدهور داخلى فى المجتمع ، كما أن قيام الامبراطوريات تغطية على حالات اضطرابات وتسكين لسخط الجماهير ونقمتها والباعث السياسى للحرب يتسق مع الباعث السيكولوجى اذ النزعة الحربية تعبير عن شهوة التدمير ــ أنها عملية انتحارية يقدم فيها بعض الأفراد نفوسا بشرية كقرابين فى معبد (مولوخ)(٨) ومع ذلك فقد لازمت الحروب تاريخ الحضارات ، غير أن التلازم لا يحول دون ادانتها (٩) ٠

(د) التقدم المادى كمسلك خداع لاستجابة ناجحة :

ليس التوسع الحربى هو وحده المظهر الخداع للتقدم والارتقاء ، وانما تشترك معه سيطرة الانسان على البيئة المادية فى شكل تحسينات فى الأسلوب التكنولوجى المادى ــ انه بدوره ليس دليلا على رقى المجتمع ــ اذ قد يحدث ذلك فى مرحلة تدهور المجتمع لأن الأسلوب التكنولوجى آلى تطبيقى ــ وليس من الضرورى أن يصاحب الابداع الروحى والفكرى وجودا وعدما ــ فالارتقاء الحقيقى للحضارة انما يتمثل فى الارتقاء الروحى) ٠

انتهى كلام المؤرخ الفيلسوف أرنولد توينبى ٠

مما سبق يتبين أن هناك عاملين أساسيين لقيام الحضارات أى لقيام الوحدة بين شعب من الشعوب وهما :

١ ــ نظام اقتصادى وسياسى واجتماعى (شاملا الدين) ينقاد الجميع الى طاعته عن طواعية وعن اقتناع ٠

٢ ــ قيادة مطاعة من الجماهير عن رضا وعن اقتداء لأنها القدوة فى طاعة النظام وفى تقديم كل مبتكر وجديد لخدمة الجماعة الانسانية ٠

فاذا تحقق لأى مجتمع هذين العاملين تحققت بالتالى وحدة الامة حول النظام وحول القيادة وبهذه الوحدة تستطيع الأمة أن تصنع ما شاءت لاحلال التراث والحضارة والرفاهية لأبنائها بعد ان ساد الاطمئنان وكافة ايجابيات الشخصية الانسانية بين الناس فى ظل آمن من سيادة القانون والقيادة القدوة ٠

ولقد انتشرت الرسالات السماوية على أيدى الرسل الثلاثة موسى وعيسى ومحمد ، صلوات الله عليهم ، بمراعاة عدم اجبار الناس على اعتناقها فضلا عن أن الرسل أنفسهم كانوا القدوة الكاملة فى تمثل هذه النظم فى تصرفاتهم وأعمالهم ٠

وتقول السيدة عائشة رضى الله عنها وهى تصف الرسول عليه الصلاة والسلام « كانت أخلاقه القرآن » ٠

كما يقول الله سبحانه وتعالى عن رسوله : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » ٠

وبالنظام القرآنى الذى عرض على الناس لاختيار الايمان به بكل ما لديهم من حرية ارادة وتصرف ٠

وبالقدوة الحسنة فى العمل بهذا النظام ، آمن الناس بالرسالة وبالرسول فتحقق ذلك الوحدة بين قبائل جزيرة العرب حيث تغلبوا بوحدتهم على القــوى [illegible] تتقاسمان السيادة على هذا الكوكب ، ثم حققوا الرخاء والحضارة لأنفسهم ٠

ويتناول هذا الجزء من الكتاب فترة وحدة الأمة المصرية من النشأة الأولى حتى سنة ٢٠٠٠ ق٠م حيث حققت الأمة بوحدتها الرخاء والحضارة ٠

وسيتم عرض موجز لتاريخ هذه المرحلة ثم بيان بالنظم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التى سادت هذه الفترة وكيفية (اختيار) الجماعة المصرية لهذه النظم وأسباب طاعة الجماهير لها ووحدتهم حولها ٠٠ كما سيتم عـــرض بعض نمـاذج للقيادات التى انقادت لها الجماهير بالولاء والطاعة مع بيان بايجابيات الشخصيــــة المصرية ، التى حققت ، بوحدتها حول النظم والقيادة الحضارة الرائدة لهذا الكوكب ٠

وفى الفصل الأخير من الكتاب سيتم بيان القوى الدافعة وراء قيام الحضـــارة المصرية ٠

ولعلنا نستطيع الافادة من هذا البحث فى العمل على استعادة مصر لموقعهــا القيادى فى حضارة بنى الانسان خاصة بعد تجنب العيوب التى أدت الى انهيـــار الحضارة المصرية والتى سيتم بيانها فى الجزء الثانى من هذا الكتاب ٠

« سوف اتكلم طويلا عن مصر ٠٠ ففى مصر من الأشياء العجيبة ما لا يوجد فى بلد آخر ٠٠٠ اشياء لا تستطيع ان تصف الكلمات مدى غرابتها » ٠

« هيرودوت »

السرد التاريخي :

ظهر الانسان (العاقل الذى نعتبره الجد الأكبر للبشرية التى تسكن المعمورة منذ حوالى ٢٠ ألف سنة ق٠م)(١٠) ٠

وفى ذلك الوقت وحتى سنة ٦٠٠٠ ق٠م (تقريبا) أى لمدة أربعة عشر آلاف سنة عاش الانسان المصرى فى قبائل متنقلة تبحث عن الرزق فى أى مكان سواء من الصيد فى البر او البحر أو من أكل الثمار وجذور النباتات ٠

وكانت السماء تمطر معظم العام والمياه تغمر الشمال الأفريقى بما فيها مصر ٠٠ ولم تكن الصحراء الغربية أو الشرقية قد ظهرت بعد وكذلك لم يكن نهر النيل قد حدد مجراه ٠

وكانت الغابات والوحوش والحيوانات والطيور والحشرات منتشرة فى كل مكان ٠

وكل يبحث عن الرزق والأمان بما فيهم الانسان المصرى الأول ٠

وهنا (اضطر) هذا الانسان الى الوحدة والتجمع مع غيره لأنه بدون وحدته مع الغير قد يفقد الروح نفسها سواء من الوحوش المفترسة أو من القبائل الأخرى التى كان من عادتها اعتبار غير أفرادها غريبا يستحلون قتله وسلبه ٠

وفى نطاق هذه الوحدة والاتحاد الاضطرارى مع الغير نشأت علاقات الأسرة والقرابة والجوار والانتماء الى القبيلة والى رئيسها ٠

كما أنه فى هذا التجمع الفطرى نشأت العادات والتقاليد التى اهتدى اليها الانسان من واقع تجاربه وتأملاته وبعد انتقائه للنظام الأصلح فى المعاملات وفقا للانتخاب الطبيعى بين النظم ٠

واهتدى الانسان فى هذا التجمع الى تحديد نظامه الاقتصادى فى الشيوعية حيث الكل يعمل ثم يوزع ناتج العمل على الجميع كل على قدر حاجته بمعرفة رئيس القبيلة ومن معه من أرباب الأسر ٠

كما اهتدى الانسان فى هذا التجمع الى نظامه السياسى حيث حدد المواصفات المطلوبة فى رئيس القبيلة وفى مجالس الشورى للقبيلة ٠

وفى هذا التجمع قامت الأم والأسرة بدور المعلم الأول للصغار بالنسبة للتقاليد والعادات والنظم التى استقرت عليها الجماعة وكان أهم من كل ذلك هو تعليم طاعة الأب واحترام الأم ومحبة الأخوة والأخوات ٠

وفى الفكر الدينى اهتدى الانسان الى تجسيم تمثال قدسة باعتباره حامى القبيلة من الشرور وجابى الخير لأفرادها ٠

وفى نطاق القبيلة اهتدى الانسان باختياره وبتأملاته الى النظام الأصلح الذى يحكم كافة معاملاته الاقتصادية والسياسية والدينية والاجتماعية وقت السلم ومع القبائل الأخرى وقت الحرب •

كما اهتدى الى نظام للتقاضى يقوم به رئيس القبيلة ومعه بعض أرباب الأسر

واصبحت هذه النظم (الغير مكتوبة) تمثل عادات وتقاليد القوم •

واخذت هذه العادات والتقاليد تأخذ حكم الغرائز فى نفوس أعضاء القبيلـــة لا يقبلون عنها حولا •

وانك لتجد من يشجع البعض على مخالفة القانون باعتباره صادرا من السلطان ، أما العادات والتقاليد فان مخالفها يتعرض للتقريع والاستهجان من أعضاء هذا المجتمع وذلك لأنها صادرة من الشعب نفسه •

وهذا هو أهم ضابط لضمان استمرار اقامة النظام وعدم مخالفته •

ولعل أقوى وحدة عرفها المصرى طوال حياته هى وحدته فى نطاق القبيلة ولمدة أربعة عشر ألف عام حيث كانت كل القبيلة تنصر أى عضو منها سواء كان ظالما أو مظلوما •

وكانت تعتبر أى اعتداء على أى فرد من أفرادها كأنه اعتداء على القبيلة كلها ، كما كانت تتضامن فى دية القاتل ان كان من بين أفرادها(١١) •

وكان تضامنها حول (طوطمها) أى حول التمثال الذى تعتقد أن به قوى خفيه تدفع عنها الشر وتجلب لها الخير لا يقل عن تضامن اتباع الرسالات السماوية فى الدفاع عن دينهم •

ولقد حققت الوحدة المصرية الأولى فى نطاق القبيلة اغراضها اذ جلبت الرزق الوفير للجميع كمـا هيأت للانسان معيشة الاطمئنان بقوتها وتضامنها ضد أى قوى خارجية وأقامت العدالة داخل القبيلة •

ومن واقع النظام الشيوعى الفطرى القبلى ظهر القادة القدوة الذين تمثلوا هذا النظام فى تصرفاتهم •

فكانت مواصفات القائد (القدوة) أنه الذى يجلب الرزق الوفير للجماعة مهما بعدت المشقة •

وقد بقى من أسماء هؤلاء الابطال اسم (اينحرت) ومعناه بالهيروغليفية الذى يحضر البعيد ولعل القدماء قدسوه ورفعوه الى مرتبة الآلهة بسبب خدمته للجماعة فى أرزاقها(١٢) •

كما أنه لا بد أن ظهر العديد من القادة القدوة فى الدفاع عن القبيلة وحمايـة

ممتلكاتها ، ولكن العهد القبلى ، كان قبل التاريخ المكتوب وقبل اختراع الكتابة ومن ثم ضاعت أسماء أبطاله فى زحمة التاريخ •

وبالنســبة للأخلاق الاجتماعية فقد كانت على الفطرة فى الصــدق والصراحة والشجاعة •

وبهذه الوحدة حول النظام المختار بالتجارب الشعبية وحول القادة القـــدوة وبايجابيات شخصية الفطرة دخل الانسان المصرى العصر التاريخى بعد استقراره على الأرض سنة ٦٠٠٠ ق•م بعد اهتدائه الى الزراعة •

وذلك أنه فى سنة ٦٠٠٠ ق•م• بدأت (على التدرج) أجواء مصر وتضاريسها تاخذ الشكل الحالى (تقريبا) فقد قلت الأمطار وجفت المياه وبدأ نهر النيل ياخذ مجراه الحالى وبدأت الصحراء الغربية والشرقية فى الظهور وبدأ الجفاف يحـــل بالغابات •

ثم بدأ الحيوان يتجه الى الجنوب حيث الغابات والأمطار(١٣) •

(واضطر) الانسان الى الاتجاه قرب مجرى النيل حيث المياه وحيث بـــدأ يكتشف الزراعة فاستقرت القبائل بحالتها بجوار النيل مكونة قرى وبنفس نظامها السياسى والاقتصادى والدينى والاجتماعى الذى كانت عليه فى العهد القبلى •

فجميع أهل القرية يعملون فى الزراعة ثم تجمع المحاصيل فى مخازن خـارج القرية ، كما تجمع الحيوانات التى تم استئناسها فى مكان خارج القرية للتسمين والتربية ، ثم يوزع الناتج على العاملين كل على قدر حاجته •

كما أصبح رئيس القبيلة هو رئيس القرية (العمدة) ومعه مجلس مستشارية من أرباب الأسر كما كان الحال فى العهد القبلى

ومهمته القضاء فى الخصومات وإعلان الحرب والمحافظة على [illegible] وأهلهـــا وثرواتهـــا •

كما ظلت هذه القرية تحتفظ (بطوطمها) كشعار حام لها مثلما كانت تفعل القبائل المتنقلـــة •

وظلت الأسرة تقـــوم بدور المعلم للنشىء للتقاليد والاعراف حتى يخرجـوا الى المجتمع حافظين لوحـــدته •

ولقد ظل الانسان ١٤ ألف سنة يعيش متنقلا مع قبيلته بحثا عن القوت ثم عند اكتشافه الزراعة سنة ٦٠٠٠ ق•م • وقيامه باستئناس بعض الحيوانات والطيـــور أصبح عنده لأول مرة مخزون من الطعام فتحقق له الاطمئنان على الرزق وأصبح عنده الكثير من الوقت للفكر والتأمل والابداع •

ولما كان الانسان المصرى فى هذه المرحلة لا يتلقى العلم من أحد ، اذ كان هو معلم نفسه ، فقد بدأ يضع نظم حياته وعلاقاته السياسية والاقتصـــادية والدينية والاجتماعية على أساس المجتمع المستقر على الأرض الزراعية ٠

ونقد تشكلت على ضفاف النيل دويلات من القبائل التى كانت متنقلة فى مرحلة الرعى ، ثم بدات هـــذه الدويلات ترى من مصلحتها الاتحـاد مع غيرها من الدويلات الاخرى لحسن الاستفادة من مياه النيل وللتعاون الذى فرضه على الناس هذا النهر فى فيضانه وفى اقلاله (١٣) ٠

وانتهت الصراعات بين هذه الدويلات الى وحدة الوجه البحرى فى دولة واحدة والى وحدة الوجه القبلى فى دولة واحدة ثم لم تلبث هاتان الدولتان أن اتحدتا فى دولـــة واحدة سنة ٤٢٤٠ ق٠م مكونين أول دولة فى التاريخ ذات تنظيم يشمل ملايين الناس٠

ثم لم يلبث هذا الاتحاد أن تفكك لتعود كل من الدولتين منفصلتين عن الاخرى الى أن يقوم الملك مينا سنة ٣١٠٠ ق٠م ليحقق وحدة الدولة المصرية من جديد ليبدأ عهد أول أسرة حكمت مصر من الأسرات الثلاثين التى حكمتها حتى سنة ٣٣٢ ق٠م تاريخ بدء الحكم الأجنبى لمصر (١٤) ٠

ولقد كانت الأجيال السابقة على بدء الأسرة الأولى . وتلك القرون الأربعة التى حكم اثناءها ملوك الأسرتين الأولى والثانية هى الفترة التى تفاعلت فيها جميع عنـاصر الحضارة فى مصر ، وكانت هى فترة التجارب والمحاولات التى قضاها شعب فتى فى مستهل أيام حضارته حتى استقر أخيرا على أوضاع خاصة ارتضاها لنفسه فى الدين والاقتصاد والسياسة والاجتماع والفن وكافة العلوم والمعارف ووجد أنها تعبر تمـام التعبير عما يريده ، فاستمسك بها وحافظ عليها لأن أساسها كان ثابت الأركان ٠

فلما تقدمت مدنيته استطاع ان يرتفع بالبناء فوق ذلك الأساس (١٥) ٠

وتنتهى مرحلة وحدة الشعب المصرى حول نظامه المختار وقيادته القدوة عنـــد نهاية الأسرة السادسة سنة ٢٢٠٠ ق٠م (١٦) ٠

وفى هذه المرحلة أصبحت وحدة الشعب المصرى لا تقل فى قوتها عن الوحدة فى نطاق القبيلة والعشيرة ٠

وقاد هذه الوحدة حول النظام المختار قادة قدوة فى شتى المجالات مثل مينا موحد مصر وأوزريس الذى كان ملكا بشرا وقدس لما قدمه للناس من خـدمات اذ علمهم أصول الزراعة وأصول المدنية والتقوى كما نشر العدالة ٠

وكان ايمحوتب الطبيب المهندس مصمم أول وأضخم بناء حجرى فى العالم هو القدوة المقدسة للمصريين لنبوغه وكذلك فعل الاغريق ٠

وقدس المصريون الملك سنفرو لمـا اشتهر به من حسن الأخلاق والوداعة

كما انقاد الناس الى ملوكهم باعتبارهم القادة القدوة فى الفكر والدين والأخلاق وذلك حسب عقيدة القوم فى هذه المرحلة ٠

وارتفع شأن الرواد الأول فى الاستكشاف مثل ميخو وسابنى وغيرهم (١٧) ٠

ويتصف القادة القدوة فى هذه المرحلة ، وفى جميع مراحل النظم المختارة من الشعب ، بتقديمهم لكل جديد مبتكر مفيد للمجتمع ٠

وذلك أن ملكات الخلق والابداع لا تظهر أبدا الا فى أجواء النظم الاقتصادية والسياسية والدينية والاجتماعية المختارة من الشعب فضلا عن أن انقياد الجماهير للقيادة لا يتم الا مع توافر ملكات الخلق والابداع فيهم ٠

ونجد تمسك القوم برابطة الأسرة واضحة فى كافة نقوشهم ، فهم يرددون دائما انهم محبوبون من الأب والأم والاخوة والملك بصفته رب الأسرة المصرية كلها ٠

وكان التقى البنوى واحترام الشباب للكبار ظاهرة لفتت أنظار العلماء (١٨) ٠

وبهذه الوحدة فى نطاق الأسرة والدولة حول النظام المختار والقادة القدوة حققت مصر الاطمئنان لنفسها والثقة بامكانياتها فاعطت أعظم حضارة ومن نتاجها أهرام الجيزة وهرم سقارة المدرج ٠

وسوف تقوم مصر باعمال عظيمة بعد ذلك ، ولكن أعظم أعمالها كان فى الدولة القديمة (أى فى أواخر هذه المرحلة) حيث الأمانة فى العمل والثقة فى النفس والايمان بالمبادىء والنظم هو السمة الواضحة فى كل نتاجها (١٩) ٠

وكان اختيار الشعب المصرى لنظامه الاقتصادى والسياسى والدينى والاجتماعى وليد تجاربه الفطرية واعتماده على نفسه فى اختيار النظام الأصلح وفقا للانتخاب الطبيعى بين النظم ، وبخاصة وقد كانت مصر منعزلة تماما عما جاورها حتى أواخر الدولة القديمة تحدها من الشرق والغرب الصحراء الشرقية والغربية والبحر فى الشمال والصحراء والشلالات فى الجنوب ٠

كما أن مصر لم تتعرض حتى أواخر الدولة القديمة لغزوات ذات خطورة من الأمم المجاورة ومن ثم نسجت بنفسها أساس وحدتها وحضارتها ٠

فى النظام الاقتصادى :

بدأت البشرية نظامها الاقتصادى باعتبار ملكية الأرض على المشاع بين الناس ، وكل ما يكسبه أى فرد من أفراد القبيلة كان يعد ملكا للقبيلة بأسرها ، (وفى المراحل الأولى من التطور الاقتصادى كانت الملكية محصورة ، فى الأعم الأغلب ، فى حدود الأشياء التى يستخدمها المالك لشخصه ، وكان معنى الملكية هذا من القوة بحيث لازمت الأشياء المملوكة لمالكها ، فغالبا ما دفنت معه فى قبره ، وأما الأشياء التى لا تتعلق

بشخص المالك ، فلم تكن الملكية مفهومة بالنسبة اليها مثل هـــذا المفهوم القوى ، فلا يكفى أن نقول ان فكرة الملكية ليست فطرية فى الانسان ، انما يجب أن نضيف الى ذلك أنها فى مثل هذه الأشياء البعيدة عن شخصية المالك ، كانت من الضعف فى أذهان الناس بحيث تحتاج الى تقوية مستمرة وتلقين مستمر ـ فتكاد تجد الأرض فى كل الشعوب البدائية ملكا للمجتمع بأسرة (٢٠) ٠

ودخل المصريون بهذا النظام الاقتصادى ، عصرهم التاريخى بعد استقرارهم على الأرض الزراعية على ضفاف النيل مع تعديل اقتضته ظروف الدولة حيث أصبح الجميع عاملين فى الحكومة ومرافقها ومصانعها ومزارعها ومؤسساتها ثم يوزع الناتج عينا كل على قدر حاجته مع تميز الجالس على العرش ثم الحاشية وكبار العاملين ٠

ومصر بانتمائها لهـذا النظـام الاقتصادى حتى نهاية الدولة القديمة انما كانت تعايش النظام الاقتصادى المختار للبشرية فى طفولتها ثم استمر مع الفكر المصرى حتى نهاية هذه المرحلة ٠

« وكانت التجارة الخارجية محتكرة للحكومة (أى الملك) ، فسفر القوافل الى النوبة أو السودان أو سير السفن لاحضار أخشاب الأرز لم يكن عملا تقوم به جماعات أو فرد من الشعب لحسابه الخاص كما هو مالوف الآن ، بل كان هـــذا العمل من اختصاص القصر فيأمر بأن تذهب تلك الحملات تحت أشراف أحد رجاله وتعود تلك التجارة فتوزع بمعرفة الملك » ٠

« وطبقت تلك الحالة أيضا فى استغلال مناجم الفيروز والنحاس فى شبه جزيرة سيناء ومناجم الذهب فى الجزء الجنوبى من الصحراء الشرقية » (٢١) ٠

وبالنسبة للصناع فقد كانت كل مجموعة منهم تتكون من عشرة أفراد يتعـامل رئيسهم مع الحكومة لتصنيع ما تأمر به ويدخل فى ذلك صناعة التماثيل وغيرها وذلك لقاء أجر عينى يتفق عليه ٠

وكان هناك تعداد لحصر دخل البلاد كل سنتين وأحيانا يتم كل سنة فتحصر الأراضى الزراعية والماشية والذهب ويقوم الموظفون بتقدير الضرائب على هذا الأساس وكانت تدفع عينا أو عملا يؤديه الناس للدولة (٢٢) ٠

وفى مقابل احتكار الدولة للزراعة والصناعة والتجارة (الخارجية) فانه كان عليها اشباع الحاجات الاقتصادية للعاملين كل على حسب حاجته وخزن الفائض لوقت الحـــاجة ٠

« كما كان عليها تولى الدفاع عن مصر وحمايتها من القبائل والشعوب المجاورة الطامعة فى خيراتها ٠

وأن تعمل على تامين زيادة رفاهية الشعب وتامين وسائل حياته وذلك بحفر الترع واقامة الجسور لتيسير فلاحة الأرض وزراعتها » (٢٣) ٠

« وترينا احدى الصور البالغة فى القدم فرعون وقد أمسك بالفأس فى يده وهو يحتفل بشق قناة للرى » (٢٤) ٠

« كما كان من الواجبات الملقاة على الدولة (الملك) العمل على بناء المعابد ، وهى منازل خاصة بسكنى الآلهة — حتى يمكن اداء الواجبات الدينية الخاصة بالآلهة فيها مما يكفل رضاء الآلهة وحمايتهم للملك والمجتمع ، وذلك بتقديم القرابين واداء الطقوس الدينية بواسطة الكهنة ٠

كما أنه اتباعا للعقيدة الدينية للقوم فى تقديس الملك وملكيته للبلاد فان بناء مقبرته كان عملا قوميا تتكفل به الدولة (٢٥) ٠

وعلى كل حال فقد كان المعروف عن ملك مصر أنه الآله الطيب — يتكفل باطعام رعاياه — والذى اكتسب شخصية حوريس آله الخير ٠

ويمكن التعرف على خصال هذا الملك من قول الوزير رخمارع فى عهد الامبراطورية :

« ماذا يكون ملك الوجه القبلى والوجه البحرى ؟ ، انه آله يتصرف فى حياة البشر ، وهو أب وام لجميع الناس ، وحيد فى ذاته لا مثيل له ٠٠٠ » (٢٦) ٠

والحقيقة فان مصر تعتبر أول بلد فى العالم طبق نظام اشتراكية الدولة واعتنق نظام التوجيه الاقتصادى والتنفيذية بجميع جوانبها (٢٧) ٠

فى النظام السياسى والدينى :

من العقائد التى انتهى اليها القوم بفكرهم وبملاحظاتهم فى واحتهم المنعزلة (بمصر) وقبل الأسرات بعدة قرون عقيدتا الملكية الآلهية وعقيدة الخلود ٠

ولقد بدأت مصر حياتها الزراعية على أساس عشائرى حيث تستقر كل عشيرة فى قرية معينة منفصلة عما جاورها ٠

وكان لكل عشيرة طوطمها وآلهتها المحلية ٠

ولما اندمجت هذه العشائر مع بعضها فى مقاطعات (دويلات) كان لها طوطم مشترك هو طوطم العشيرة الغالبة كما كان عادة القوم فى سيادة الطوطم الذى تنتصر القبيلة به ٠

« والطوطم عبارة عن نوع من الحيوان أو النبات تعتقد الجماعة أنها تولدت منه ، فهو — فى نظر تلك الجماعة ، جدها الأعلى والهها المعبود » (٢٨) ٠

(وحكام تلك المقاطعات كان يرتبط بزعامتهم نوع من القداسة لم تلبث أن تدرجت حتى وصلت الى مرتبة التاليه فى الدولة القديمة) (٢٩) ٠

وبالنسبة للبعث فقد آمن الناس أن كلا يبعث على حالته التى كان عليها فى الحياة الدنيا ، فكما أن الشمس عندما تموت (أى عندما تغرب ويحل الظلام) فانها تبعث بنفس حالتها مرة آخرى ، وكما أن النيل عندما يموت (وقت التحاريق) فانه

يبعث على حالته (عند الفيضان) ، وكما أن النبات عندما يموت ، فانه يعيد نفس حياته بشكلها ومذاقها مرة أخرى ، وكذلك الحال بالنسبة للقمر وللانسان ٠

فالملك يبعث ملكا والفلاح يبعث فلاحا وهـكذا ٠

ورغم ذلك فان الحياة المستقبلة لأى (طبقة من طبقات المجتمـــع كانت شـيئا أفضل مما كانت عليه هذه الطبقة فى الحياة الدنيا ٠ كان (الملوك) آلهة على الأرض فاصبحوا آلهة أعظم شأنا فى الحياة الثانية ، وكان النبـــلاء خداما للآله ــ الملـــك على الأرض ، فأصبحوا أحسن شأنا واسعد حالا عندما أصبحوا خداما له فى الحياة الأخرى ٠ وكان الفلاحون خداما للنبلاء على الأرض ، فاصبحوا أيضا أحسن شـــأنا وأسعد حالا كخدام لهم فى الحياة الثانية ، وبذلك يكون أمل كل انسان هو أن يحيا حياة خالده وأن حياته ستكون خيرا مما كانت على الأرض ، ولكن فى حدود مرتبته فى الدنيا (٣٠) ٠ ويحمل مثل هذا النظام فى ثناياه بذور تغييره ، فان الأمل وتوقع الجزاء وتحســين الحال فى الحياة الأولى جعلهم يعتقدون أن من الميسور أيضـا تغيير مرتبة الانسان فى حياته الثانية لو خرج من دائرته الاجتماعية ، كما جعل النبلاء يحاولون الحصول على نفس امتيازات الملك فى الآخرة ، أى أن يكونوا هم أيضا آلهة بعـــد الموت مما أدى الى نشوء الصراعات وقيام الثورة الاجتماعية الاولى التى سنتكلم عنها فى الباب الرابع (٣٠) ٠

الملـــك :

هذه هى أهم شخصية فى التاريخ المصرى كله وعلى مدى احترام الناس لهـــا وطاعتهم لأوامرها ونواهيها وتقديسهم لوضعها تزدهر الحضارة المصرية لتبلغ عنان الســـماء ٠

ثم يحل الفقر والتخلف عندما ينفض الناس عن هذه الشخصية ، مما يدلك على أن السر الأوحد لنهضة هذه الأمة يرجع الى التفافها حول قياداتها وأن السر الأوحد لتخلفها يرجع الى انفضاض الأمة عن قيادتها ٠

والملك هو الذى ينشىء الدواوين ويعين الموظفين ويتولى تنظيم الدولة بمعاونة من يعينهم من كبار الموظفين وعلى رأسهم الوزير ٠

هو الذى يقود الجيوش ، وهو القاضى الأعلى والكاهن الأكبر ٠

كلمته هى القانون وان كان ذلك فى اطار (الماعت) ٠

وكلمة (ماعت) هى أخطر كلمة فى التاريخ المصرى كله وسنجد ان حياة مصر تتوقف على رفع شأن هذه الكلمة (عملا) وان موت مصر يتوقف على عدم العمل بهذه الكلمة ٠

وماعت تعنى الأركان الأربعة التى تقوم عليها وحدة هذه الأمة والتى خصصنا لها

هذا الكتاب كله والتى سيبين أنه لا أمل فى بعث هذه الأمة الا باعادة ماعت مرة أخرى، لتأخذ وضعها السيادى فى أمور الدولة وفى أمور كل أسرة تتشرف بالانتماء الى هذه الأرض المباركة (*) .

(ماعت) تعنى :

١ ـ النظام ـ وهو هنا النظام الاقتصادى والسياسى والاجتماعى (الدين والأخلاق) والذى انتهى اليه القوم بفطرتهم وبتجاربهم وباختيارهم ثم أضفيت عليه القدسية الدينية بمرور القرون ، فأصبح هو ما تأمر الآلهة باتباعه .

فهنا ماعت تعنى التكليف الدينى بطاعة النظام فى جميع المجالات ابتداء من علاقات الأسرة حتى علاقات الدولة .

٢ ـ ماعت تعنى ، فى الجزء الثانى من أركانها ، الاعلاء من شأن الصدق والصراحة والأمانة فى الشخصية المصرية باعتبار أن ذلك كله يمثل الدعامة الوحيدة لسيادة النظام والقانون .

والا فالنظام نفسه ينهار اذا حل الكذب والملق والخيانة .

٣ ـ ماعت تعنى الالزام بالحكم بالعدل حتى يسود الاطمئنان والثقة بين الناس فيحصلون على الثمرة النفسية والثمرة المادية ثم لتنطلق بعد ذلك ملكات الخلق والابداع .

٤ ـ أما عن القيادة القدوة فى ماعت ، فان ماعت كانت تمثلها سيدة رقيقة تضع ريشة على رأسها وهى تقوم فى العالم الآخر بدور مراقبة وزن حسنات وسيئات الانسان (٣١) .

ان ماعت ، فى رقتها وفى قدسيتها المثل الأعلى فى التمسك بالنظام المقدس بصدق وبأمانة وبعدالة لتستحق أن تكون القدوة لكل مصرى فى مراعاة عدم الانحراف عن النظام ولو بما يعادل وزن ريشة الطير التى على رأسها .

وها هنا الدقة والأمانة الكاملة فى عدم الحيدة عن الصراط المستقيم .

وهذا هو ما يهمنا ، فى هذا البحث ، عن (الماعت) اذ أنها كانت تشمل أيضا نظام الكون كله الذى وضعته الآلهة وذلك بالاضافة الى نظام علاقات البشر بعضهم مع بعض وعلاقاتهم مع الدولة .

هى أيضا صفة الحكم الصالح والادارة الصالحة ، وكانت المحور الذى يدور حوله كل شىء فى حياة المصرى القديم .

(وكان من الضرورى أن يعاد تثبيت ماعت عندما يتولى عرش مصر أى ملك ـ آله . ففى المناظر المسطرة على جدران المعابد نرى الملك يقدم (ماعت) كل يوم للآلهة

(*) ـ المقصود ، بطبيعة الحال ، استعادة وضع الماعت ، أى الصدق ، العدالة ، النظام ... ، فى اطار الشرائع السماوية .

الآخرين ، كبرهان ملموس على أنه قائم بوظيفته الآلهية ، بالنيابة عنهم ، وكأنما كان هناك شيء لا يتغير ، أبدى عالى ، يحيط بالماعت ...

وعلى ذلك تكون ماعت صفة مخلوقة وموروثة كونتها التقاليد وجعلت منها فكرة للاستقرار القائم بواجبه ، لكى يتبت ويؤيد الحالة الراهنة . وخاصة استمرار حكم الملك أما الكلمات التى تؤدى ضد معنى (ماعت) فهى كلمات نترجمها بمعانى (كذب) أو (بهتان) أو (خداع) .... فكل ما لم يكن متفقا مع النظام الثابت المقبول كانوا يعتبرونه باطلا .

وكان رجال القضاء يلقبون بكهنة ماعت .

وكانت عقيدة القوم أن (الآله رع هو أول من حكم مصر بالعدل والمساواة بين الناس بقانون (ماعت) الذى سنه ولكنه تخلى عن الحكم الدنيوى لابنه (الملك) ورفع نفسه الى السماوات العلا وكان من جراء ذلك أن رفع حقل قربانه الى العالم العلوى . وأصبح مأواه الأبدى السماء ، وهناك كان ينعم ابن رع أى الملك المتوفى بعيشة راضية فى حقول قربان والده ، أما عامة الشعب فقد ترك لهم حقول القربان التى على الأرض ليتمتعوا بها .

وكان الواجب الأساسى للملك هو تثبيت العدالة على الأرض امتدادا لحكم أبيه رع . وكان على كل ملك يتولى حكم مصر أن يعيد تثبيت الماعت (٣٢) .

ولم يكن يسمح بدخول الملك جنة الخلد فى السماء مع أبيه رع الا اذا اثبت قيامه بواجبه فى اقامة الماعت على الأرض .

واستمع الى ما يقال للملك نقلا عن متون الأهرام (هل تريد أن تحيا يا حور يا من يسيطر على حربة الصدق (وهى الحربة التى لا تدع أى شخص يمر بباب الجنة غير الصادقين المبرئين أمام الله) .

(اذا كان الأمر كذلك ينبغى عليك ألا تغلق مصراعى باب السماء ويجب عليك ألا تحمى عقبة (أى عقب الباب) وخذ روح (بيبى) الى هذه السماء بين المنعمين حول الآلهة وهم يتكئون على صولجاناتهم ، وهم الذين يحرسون صعيد مصر والذين قد ارتدوا أحسن الملابس الكتانية الأرجوانية ، والذين يأكلون التين ويشربون الخمر ويتضمخون بأحسن العطور) (٣٣) .

ومن هذا النص يتبين حظر دخول جنة الخلد فى السماء الا للمبرئين الصادقين من ملوك مصر .

أى لمن أقاموا (الماعت) كما سنها رع كما تقول الأساطير أو كما سنتها تقاليد القوم عبر آلاف السنين وأضفوا عليها القدسية من الخالق نفسه .

وكان الملك هو الوسيط الوحيد بين الآلهة والناس ، حسب عقيدة القوم ، ومن

ثم فاذا أصاب الملكية أى ضرر ، فان الآلهة تفقد صلتها بالناس فمن يدفع الضر عنهم اذا حل ومن يجلب لهم الخير اذا احتاجوا اليه ·

والملك هو الكاهن الأعظم لجميع المعبودات ــ ووكل عنه فى ذلك بشرا عاديين للقيام على الخدمة اليومية لكل معبود ، يعملون بدلا منه وباسمه ·

وكان المصريون يؤمنون بان الآلهة تحتاج الى طعام كما يحتاج الانسان فى حياته ومماته الى الطعام والشراب ·

ومن فروض الشعائر الدينية والجنائزية تقديم الطعـــام للآلهـة والأموات فى مواقيت ثابتة كل يوم وفى الأعياد ··· (ثم يؤول كل ذلك للكهنة بطبيعة الحال) (٣٤)

وآمن الناس أن آله الشمس هو حليف وحامى الملك ، وهو يجعل مصر العليـا مستقرة لأجله ، ويجعل مصر السفلى مستقرة لأجله ، ويقوض لأجله حصون آسيا ، ويهدى لأجله كل الناس الذين صاغهم فى أصابعه (٣٥) ·

أى أن الاله معين للملك فى أمور وحدة مصر سياسيا واجتماعيا ودينيا ·

وبطبيعة الحال فان هذه الوحدة تكون حول القانون الذى سنه رع (الخالق) لحكم مصر ويقوم على تنفيذه الملك الاله ·

وسواء كان هذا القانون فى المجالات الاقتصادية أو السياسية أو غيرها فكلهـا نابعة من الدين أى من القانون الذى سنه رع ·

وبالنسبة للوظيفة الدينية للملك فانها لم تكن قاصرة على رئاسة الكهنة فحسب بل كان عليه تقديم القرابين اليومية من أجل رعيته ·

وابتداء من أواخر الدولة القديمة ، كان الملوك يهبون النبلاء وغيرهم من كبـار الحكام المنح المختلفة من الأراضى وهم على قيد الحياة ، كما كانوا يمنحونهم الهبات من الأرض بعد مماتهم لضمان استمرار تقديم القرابين لأرواحهم ، ولهذا فان كافة الهبات الجنائزية كانت تعد فى الواقع ، قرابين ملكية ، وهذه الهبات أصبحت عبئا على الاقتصاد القومى مما عجل بقيام الثورة الاجتماعية الأولى ، فكان الملك بحكم مركزه الكهنوتى عائلا لرعيته فى الحيـــاة ، كما كان سندا لهم فى الممات · وقدلا تكون الهبات الملكية دائما منحة من الأراضى بل ربما اشتملت على مواد غذائية تمثل قيمة ايجارات عينية لبعض مزارع الملك ، أو قيمة ايجارات عينية للملك حق الحصول عليها ، ومع ازدياد المعاملات وتعقدها تبعا لنمو سلطان المملكة صار من المستحيل أن يتصرف الملك شخصـيا فى كافة شئون الدولة · ولذلك أوكل مثـل هذه الأمـــور لكبار الكهنة) (٣٦) ومن هنا بدأ هؤلاء يكتشفون الصفة البشرية فى الملك وبدؤوا يتصارعون على السلطة ونجحوا فى ذلك فى الأسرة الخامسة كما سيأتى بيان ذلك ، ثم ظهرت شوكتهم مرة أخرى بعد فترة حكم اخناتون وأعادوا الكرة فى الاستيلاء على السلطـــة سنة ١٠٩٠ ق·م ·

(وكان الواجب الأول (للملك) هو أن يعترف بجميل الآلهة ، سادة كل شيء ، وكان من المألوف أن ينقش في بدء نصوص عدد كبير من اللوحات الرسمية أن جلالته اقام في منف او في أون (عين شمس) أو في طيبة ، مشغولا بعمل كل ما يرضى الآلهة . مثل ترميم ما تهدم وتشييد هياكل جديدة أو تقوية الأسوار التى تحيط بها وحشدها بالتماثيل وتجديد أثاثها والمراكب المقدسة وتزيين المذابح وموائد القرابين بالأزهار ، وبسخاء يفوق كل من سبقه من الملوك .

فلنستمع الى صلوات واعترافات رمسيس الثالث (سنة ١٢٠٠ ق.م) وهى تنطبق على المرحلة التى نؤرخ لها بصفة عامة وحتى نعايش القوم فى عقيدتهم : (لك التمجيد أيتها الآلهة والمعبودات ، سادة السماء والأرض والمحيط ، ما أعظم خطواتك فى فلك ملايين (السنين) الى جانب أبيهم رع الذى يفعم قلبه سرورا عندما يشاهد كمالهم فتسعد بهم أرض تومرى (مصر المحبوبة) . أنه (رع) لسعيد ... لقد استعاد شبابه عند رؤيتهم عظماء فى السماء ... أقوياء على الأرض ... يمنحون النسمة للأنوف المزكومة .

« انى ابنكم صنيع ذراعيكم .... لقد اقمتمونى ملكا له الحياة والصحة والقوة على كل الأرض . ولأجلى صنعتم الكمال على الأرض . انى أؤدى وظيفتى فى سلام ولا يألو قلبى جهدا فى البحث عن كل ما هو نافع وضرورى لصالح هياكلكم . وقد وهبتها بمقتضى قرارات سامية دونت فى كل أبهاء المعابد المنقوشة ، وعممت الرخاء فى هياكلكم التى كانت خربة من قبل ، وقد قدمت لكم قرابين مقدسة بالاضافة الى ما سبق تقديمه لكم . ولأجلكم أمرت بصياغة الذهب والفضة واللازورد والفيروز فى بيوت الذهب ، لقد أرجعت كنوزكم وأكملت ما نقص منها باشياء كثيرة .

لقد ملأت مخازن غلالكم بالوفير من الشعير والغلال . وشيدت لكم القصور والهياكل والمدن حيث نقشت أسماؤكم الى الأبد .

لقد زودت فرقكم بعدد وفير من الرجال لاكمال النقص بها ولم أسحب الرجال المخصصين لهياكلكم أو قوادهم لتشغيلهم كجنود مشاه أو لقيادة العربات ، كما فعل ملوك سابقون . أصدرت قرارات سامية لتنفيذها على الأرض حتى ينتفع بها من يأتى بعدى من الملوك . لقد خصصت لكم قرابين تتكون من الأشياء الطيبة . وشيدت لكم المخازن لأعيادكم ملئت بالطعام ولأجلكم صنعت أوانى طعمت بالذهب والفضة والنحاس بلغت الملايين عدا .

لقد بنيت مراكبكم الجنائزية فى النهر ومرساها الكبير مكسو بالذهب .

وبعد هذه المقدمة يعدد رمسيس ما فعله فى المعابد الرئيسية فى مصر . ثم ذكر فى كثير من التفصيل الهبات التى قدمها لأجل آمون سيد عرش الأرضين ، وأتوم سيد أرض أون (عين شمس) وبتاح العظيم الكائن جنوب أجداده ، وزوجاتهم .

وينطبق على كل الملوك ما جاء فى النصوص من (أنه ملك صالح اذ شيد لكل المعبودات معابدهم ونحت لهم التماثيل) (٣٧) .

ولقد تعمدنا اطالة السرد عن اختصاصات الملوك الدينية حتى يتعرف القارىء على فكر القوم وعن ايمانهم بعقيدتهم ويعايشهم ، بقدر الامكان ، فى فكر عصرهم بعيدا عن الفكر المعاصر .

وأكثر من هذا فقد كان الحاكم يعتبر هو الابن الجسدى للآله وذلك ابتداء من الأسرة الثالثة وهذا هو أكبر اتحاد بين السلطة الدينية والسلطة الدنيوية .

(وكان أول واجب على الملك بعد اعتلائه العرش منذ عهد الأسرة الأولى هـــو التفتيش على الحدود وتأمين سلطته ويطلق على هذه المهمة « الطواف حول الجدار) احياء لذكرى اتحاد الوجهين القبلى والبحرى .

وكانوا يشتركون اشتراكا فعليا فى قيادة الجيوش ولا يوجد لدينا اى دليل على أن ملوك مصر قد تخلوا عن بعض حقهم فى قيادة الجيش .

وكان الملك يقوم برحلات كثيرة يتفقد خلالها الاشغال العامة والمناجم للوقوف على مدى أمانة الموظفين وللقضاء على المساوىء والمظالم .

ولقد كانت كل ساعة من وقت الملك مخصصة لأداء واجبات شتى والقيام باعمال مفروضة لا أن ينغمس فى المتع والملذات) (٣٨) .

فى كيفية (اختيار) الجماعة المصرية للنظام :

هذه هى النظم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التى كان لها السيادة فى كل شئون المصريين حتى نهاية الأسرة السادسة .

ولم يكتشف القوم هذه النظم (فجأة) فى يوم محدد ، ولكنها تطلبت الآلاف من الأعوام والكثير من الأخطاء والضحايا والتجارب لأجل أن يتبين القوم النظام الأصلح لأحوالهم فى شتى المجالات .

وكان كل ذلك يتم فى بيئة مصرية خالصة منعزلة عما جاورها من تجارب وأفكار الشعوب الأخرى .

(ولقد سمح انعزال وادى النيل الأدنى يتقدم لم تعقه ــ بحالة خطيرة ــ الهجرات اليه ، خلال أكثر من ثلاثة آلاف سنة ــ وأنا لنجد هنا فرصة تشبه تلك التى يبحث عنها عالم الحيوان باستمرار فيما يطلق عليه ، السلسلة غير المنقطعة ، مثل سلسلة الحصان الذى تطور فى مدى بضعة ملايين من السنين من مخلوق أكبر قليلا من أرنب الى حصاننا الأليف ، فى هذا العصر .

وفى جميع شعب الحياة الانسانية ، اللغة ، الفنون ، الحكومة ، المجتمع ، والفكر والدين ، وسم ما شئت يمكننا أن نتقصى تطورات مصر ، اذ لم تؤثر فيهـا العوامل الخارجية تأثيرا جوهريا لفترة تفوق فى استطالتها اى تطور مماثل فى اى مكان آخر وصل الينا) (٣٩) .

ومنذ النشأة الأولى ، واجهت الجماعة المصرية فى حدود القبيلة والأسرة ، مثلها فى ذلك مثـل التجمعات الانسانية البدائية فى جميع أنحـاء العالم ، مشكلة النظـام الأصلح لمواجهة الحياة ٠

(كان الأمر يقتضى تغييرا ، بصورة ما ، أنانيات الفرد البدائية ٠ وكان لابد من بسط فكرتى الخوف من الأب واحترام الأم حتى تتغلغلان فى حياة الكبار ٠ وكان لابد من تخفيف غيرة الرجل الكهل الطبيعية من ذكران الجمـاعة الصـغار عنـدما يكبرون ٠ وكانت الأم هى الناصح الطبيعى والحامى الفطرى للصغار ٠ وقد تولدت الحياة الاجتماعية الانسانية عن طريق التفاعل بين الغريزة الفجة التى تدفع الصغار الى الانفصال وتكوين أزواج من أنفسهم عندما يشبون — وبين ما يتعرضون له من أخطار العزلة ومضارها ٠

أى كان هناك توفيق عقلى بين حاجات الحيوان البشرى البدائى وبين حيـاة اجتماعية آخذة بأسباب التطور) (٤٠) ٠

وبهذا أصبح للانسان (تقاليده) فى شتى مجالات الحياة سواء فى نظام الحكم او فى العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية ٠

(وان التقاليد لتكون أساسا ثابتا مكينا تراه مستقرا تحت الظواهر الاجتماعية كلها ، فهى بمثابة الصخرة الراسخة فى أسفل البناء ، وقوامها الوان الفكر وضروب الفعل التى خلع عليها مر الزمان هالة من تقديس ، وهى تمد المجتمع بشىء من الثبات والنظام اذا ما انتفى القانون أو تغير أو اضطرب ٠

فالتقاليد فيما تعطيه للجماعة من استقرار تشبه الوراثة والغرائز فيما تعطيانه من استقرار للنوع البشرى ، كما تشبه العادات بالقياس الى الفرد الواحد ، والتقاليد هى الاطراد المكرور الذى يحفظ للناس عقولهم فى رؤوسهم لأنه اذا لم تكن لدى الانسان هذه القنوات التى ينزلق فيها التفكير والعمل انزلاقا لا شعوريا يسيرا ، لاضطر العقل أن يتردد ازاء كل شىء وسرعان ما يلوذ بالجنون مهربا ، والغرائز والعادات والتقاليد والأوضاع الاجتماعية (كلها) تحدد وفق قانون اقتصادى يستغنى بالقليل عن الكثير ، لأن العمل الآلى هو أنسب طريقة يستجيب بها الانسان للمثير الخارجى اذا تكرر ، أو للموقف المعين اذا تجدد حدوثه ، أما التفكير الأصيل والتجديد فى السلوك فهو اضطراب فى مجرى الاطراد ، ولا يستطيعه الانسان الا فى الحالات التى يريد فيهـا أن يغير سلوكه المألوف بحيث يلائم الموقف الذى يحيط به ، أو فى الحالات التى يأمل فيها أن يكافأ على تجديده وتفكيره كسبا موفورا) ٠

(ومن السهل على الانسان أن يخالف القانون المكتوب ، بل قد يجد من يشجعه على ذلك أما التقاليد فانه من الصعب مخالفتها وان حدث ذلك فان المخالف يتعرض للتقريع والاستهجان من المجتمع ٠٠٠٠

وذلك أن القانون مفروض من السلطان أما التقاليد فهى تمثل العقيدة لـــدى الانســـان .

فاذا أضيف الى هذا الأساس الطبيعى ، وهو التقاليد ، تأمين يأتيه من السماء (الآله رع) أصبحت تقاليد أبائنا هى كذلك ما تريده لنا الآلهة من سلوك ، عندئذ تصبح التقاليد أقوى من القانون ، ويبعد الانســان عن حريتــه البدائيـــة بعـــدا جـــوهريا) (٤١) .

ولنا أن نتصور تغلغل الأعراف والتقاليد فى شتى المجالات الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية فى نفس فكر الانسان المصرى فى هذه المرحلة خاصة وقــد آمن بأنها صادرة من الآلة نفسه فضلا عن أن الكذب والخوف والنفاق لم يكن قـــد استشرى بعد فى الأنفس .

لقد كانت الأمور فى نظرهم صادقة تماما وان رأينـــا نحن عكس ذلك بمنظارنا المعاصر .

وكانت هذه العقيدة الدينية التى شملت كافة أنشطة الانسان وشملت الكون حوله ، كانت تجد السند فى سيادتها وفى استمرار [illegible] من الناس أنفسهم .

فهم الآمرون بالمعروف وهم أيضا الناهون عن [illegible]

ولذلك أثمرت الوحدة المرتجاة [illegible]

انما النظم التى [illegible] رقيبا على اقامتها الا الحاكم [illegible] وبقوة [illegible] الا الفرقة والفقر والنتاج اليدوى فى الزراعة وحمل [illegible]

[illegible] الوحدة (حول النظام المختار والقيادة القدوة) صنع الانســان المصرى [illegible] من [illegible]

الباب الثانى

فى القيادة التى انقادت لها الجماهير بالولاء والطاعة

ليس هناك عوامل لوحدة أى شعب من الشعوب أهم من وحدته حول قيـــادته الحاكمـــــة .

ولو لم يلتف أعضاء خلية النحل حول ملكتهم لمـا كان هناك نحل أو عســـل أو خلية وذلك للفرقة عن القيادة ..

وهكذا بالنسبة لأى مجتمع بشرى ، فان فرقته عن القيادة الحاكمة بفكره وبقلبه وبضميره لن تثمر الا ثمرة الفرقة فى الفقر والتخلف .

ولقد نعمت مصر طوال عهود حضارتها بوحدتها حول القيادة الحاكمة ، ثم شقيت مصر بالفقر والتخلف طوال فرقتها عن القيادة الحاكمة .

وفى عهود الحضارة المصرية نطالع أن مواصفات القيادة الحاكمـــة التى التف حولها الناس بفكرهم وسواعدهم وقلوبهم أن يكون الحاكم ، كما وصفه الوزير رخما رع (أب وأم لجميع الناس ، وحيد فى ذاته لا مثيل له) .

ثم هو أيضا القدوة فى التمسك بقواعد الدين والأخـلاق والقــانون والعدالة والوطنيـة والفــداء .

وقبل أن نتكلم عن بعض هؤلاء الأبطال الذين نجحوا فى قيادة وحدة الضمير المصرى لآلاف من الســنين فانه من الواجب أن نذكر أن معظم ملوك مصر وقياداتها الحاكمة والمسئولين عن كيان هذه الأمة تتشابه أعمالهم فى الدفاع عن مصر ضـد أى عدوان خارجي وتأمين حدودها فى الشرق والغرب والجنوب والشمال ثم فى العمل على وحدة الشعب المصرى داخليـا حول عقيدة دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية وأخلاقية وانسانية .

ولا تكاد تخلو سيرة معظم قيادات مصر من الجهد الذى بذله كل منهم للمحافظة على مصر وعلى شعبها من الغزو أو من التفكك شيعا وأحزابا ...

ولقد قادوا الجيوش بأنفسهم معرضين حياتهم للهلاك دون أن يهنوا أو يفزعوا .

كما أنهم جميعا بذلوا الجهد الدائب فى استخراج الكنوز من باطن الأرض فى صحراء مصر الغربية والشرقية وصحراء سيناء حيث استخرجوا النحـــاس والذهب والأحجار الكريمة وأحجار البناء وغيرها مما كان يمثل قوة وثراء للدولة المصرية ....

وكانت سفن مصر تمخر عباب النيل وشاطىء البحر الأبيض حتى الشام والبحر الأحمر حتى الصومال للتجارة والمقايضة مع الدول الأجنبية بالسلع المصرية .

كما أنهم جميعا ، وابتداء من أقدم العصور ، كانوا يهتمون بالزراعة واستصلاح الأراضى وتوسيع رقعة الأرض الزراعية وتوفير الغذاء والكساء للنـــاس وبخاصة وأن الأجور كانت تصرف عينا ومن الناتج الزراعى بصفة أساسية .

وكثيرا ما تصور الآثار الملك وهو يمسك فأسا بيده ممنحا ترعة جديدة ، ثم كثيرا ما كانت الاحتفالات تقام بمناسبة افتتاح مدينة جديدة ٠

ويقول الملك أمنمحات الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة : ـ

كنت رجلا زرع البذور وأحب آله الحصاد ٠

وحياتى فى النيل وكل وديانه ٠

ولم يكن فى أيامى جائع ولا ظمآن ٠

وعاش الناس فى سلام بفضل ما عملت وتحدثوا عنى ٠٠٠ (٤٢) ٠

أما عن الصناعة فهى لازالت باقية حتى اليوم سواء فى الأقمشة والملابس أو الأدوات المنزلية أو المبانى والمنشآت أو أدوات الحرب والقتال ٠٠٠ الخ ٠

وكلهم شجعوا ملكات الخلق والابتكار والتجديد حتى أن الملك زوسر أكـــرم المهنـــدس الحكيم ايمحوتب ، مصمم الهرم المدرج ، تكريما لم يحصـــل عليه أحـد فى عصره ٠٠٠٠٠

وكلهم أحسنوا اقامة شعائر دينهم وفق عقيدتهم الدينية فى ذلك الوقت وبذلوا فى سبيل ذلك كل جهد ومال ومنشآت ٠٠٠٠

وكان منهم من وصلت محبة النـــاس لهم الى مرتبـــة تقديسهم والاستمرار فى ذكرهم عبر مئات السنين مثل الملك سنفرو ـ الذى ظل الشعب المصرى يذكره بالخير لمدة سبعة قرون لأنه الرحيم ، المحسن ، المحبوب ـ كما كانوا يترنمون بوداعة أخلاقه وحلمه وعطفه على من حوله واستخدامه أرق الألفاظ عند الحديث معهم ٠

ويجمع المؤرخون على أن الشعب المصرى يتصف بميزة العرفان بالجميل وذلك لـــا لاحظوه عليه من تقديسه لقياداته القدوة رغم مرور مئـــــات وآلاف السنين على وفاتهـــم ٠

وقيل أن تتم وحدة الوجه القبلى والوجه البحرى سنة ٣١٠٠ ق٠م على أيدى الملك مينا ، تحققت هذه الوحدة قبل هذا التاريخ سنة ٤٢٤٠ ق٠م ٠

وعن القيادة التى حققت هذه الوحدة يتكلم المصرى ، لآلاف السنين بعد ذلـــك بكل احترام وتقديس ، فيقول عنهم (المبجلون أتباع حورس) بل ويرفعهم الى مصاف أنصاف االآلهة ٠

ويصفون قادة عهد الوحدة الأولى بالالفاظ التالية : ـ

(هؤلاء اللفيف الأول من رهط العدول الذين ولدوا قبل أن يقـــوم الصراع والصوت والتجديف والتقاتل أو التشويه المخيف الذى أوقعه (حورس وست كل على الآخر (أى تقاتل الأخـوة والاقارب بسبب الحســـــد والغيرة والطمع كما تحكى الأســـــطورة) ٠

كان هذا العصر فى نظر الأجيال التى جاءت بعده بحوالى ألفى عام هـو عصر « الاستقامة والسلام الذى لم يكن فيه موت » (٤٣) .

وظل اسم (اينحرت) مقدسا ورفع الى مصاف الآلهة فاذا بحثنا عن معنى هذا الاسم بالهيروغليفية وجدناه يعنى أنه الذى يحضر البعيد ولا شك أن صاحبه كان قائدا من العهد القبلى وأخذ هذه الشهرة وهذا التقديس بسبب ما قدمه للجماعة من خدمات رغم بعد المشقـة ...

وكل أمراء ما قبل الأسرات (أى قبل سنة ٣١٠٠ ق.م) فملوك العصر العتيق (أى فى القرون الأربعة التالية لذلك التاريخ) شجعوا ملكـات الخلق والابتكار لدى الناس) (٤٤) .

وقد ساعد على ذلك أن الناس ظلوا أطول فترة على فطرتهم فى الصدق والصراحة والأمانة حيث ظلت مصر منعزلة عما جاورها فى واحتها المستطيلة تحدها الصحراء من الشرق والغرب والبحر من الشمال والشلالات والصحراء من الجنوب ، كما لم تتعرض لغزوات خطيرة فى هذه المرحلة .

والمعروف أن المصريين اعتادوا رفع الكثير من قادتهم القدوة الى مصاف الآلهة ، مثل ايمحوتب مصمم أول بناء حجرى ضخم فى العالم (الهـرم المـدرج) والملك سنفرو — لذلك فان كثيرا من أسماء الآلهة المصرية هى أسماء لأفراد قدسوا لما قدموه من خدمات لهذا الشعب — وكلها خدمات تتصف بالجدة وبالابداع .

وسنعرض بعض ما سمح لنا التاريخ بمعرفته عن أعمال القيادة القدوة ، سواء التى ارتفعت الى مصاف الآلهة أو تلك التى لم ترتفع الى هذه الدرجة .

١ — رع :

هو أول من حكم مصر (حسب ما تحكى الأسطورة القديمة) ناشرا العـدل والمساواة بين الناس وفقا للقانون الذى سنه .

وكان الناس يقولون عنه (لقد طردت العاصفة ، وأبعدت المـطر وحطمت السحب) .

هو مرشد الأمة المصرية ، وحاكمها العظيم ، وكانت له المكانة العليـا بين الآلهة ، وكان الناس يقولون عنه (انك تنفق الليل فى مركب المسـاء ، انك تستيقظ فى مركب الصباح لأنك أنت الذى يتغاضى عن الآلهة ولا يوجد اله يتغاضى عنك .

وفى عصر الأهرام كان يحتفل بسيادته فى شئون مصر ، وهو الذى يحافظ على أرض مصر من كل شر .

ان تصور اله الشمس (رع) كملك من ملوك مصر السابقين وكأب للملك الذى يتولى الحكم ، وكحاكم وزعيم للأمة وأنه لا يزال ثم ملكا مثاليا . قد ترتبت عليه أعظم النتائج أهمية على الدين · ولقد انتقلت فى يسر . خصائص ملك مصر الدنيوى الى رع ·

ان اله الشمس (رع) الذى أصبح نوعا من انعكاس سماوى للحاكم الأرضى ، اتى للدين بأعظم فائدة ·

ان هذه الظاهرة هى بطبيعة الحال ، مجرد مثال رفيع فى تخصصه . للطريقة النسقية التى صور بها الانسان لنفسه الهه بألوان من تجاربه الدنيوية(٤٥) ·

وعلى كل حال فقد اصبح (رع) بما يمثله من الحكم بالنظام المقدس بعدالة وبمساواة هو القدوة التى يسعى للاقتداء بها كل من ولى حكم مصر ·

٢ ـ أوزيريس :

أشهر معبودات المصريين القدماء ، ولم يقدسه المصريون فحسب ، بل غزا أفئدة الكثيرين من شعوب البحر المتوسط وخاصة فى بلاد الاغريق والرومان وهما فى أوج حضارتهما · تروى أسطورته أنه كان بشرا عاش فوق الأرض وقاسى من شرورها وذهب ضحية مؤامرة انتهت بقتله ·

الا أنه استعاد الحياة بمجهودات زوجته التي دفعها الحب العميق الى عمل كل ما في وسعها لاحيائه ، فذهب هذا مثلا بين الناس واصبح كل منهم يأمل في حياة أبدية ينعم فيها بعد الموت ·

الا أن قصة أوزيريس حوت عناصر مختلفة يرجع بعضها الى أقدم عصور التاريخ المصرى · أى الى العصر الذى بدأ فيه الناس يستقرون على شاطىء النيل وفى بعض مناطق الدلتا ، ولعل أولى المناطق التى ظهر فيها هذا المعبود كانت مدينة أبو جريتا بجوار سمنود فى الدلتا ، ظهر فيها بعد أن اندمج فى معبود اقدم منه اسمه (عنجتى) ترمز صفاته الى الأصل الذى أوحى به يمثل الحاكم الذى يرأس مجموعة من البشر عاشت على تربية الماشية ويقبض بيمينه على عصا الراعى وبيساره على عصا (النخخ) ولقبه (عظيم اقليمه) ·

مثل أوزيريس الراعى الحكيم (الذى ما كاد يجلس على العرش حتى حرر الناس من حياة الهمجية وعلمهم الزراعة وشرع لهم القوانين وحثهم على التقوى واحترام الآلهة ـ ومن ثم جاس أرجاء البلاد لينشر الحضارة بين الناس اجمعين ·

« وكان نجاح أوزيريس دافعا لأخيه ست على أن يدبر له مؤامرة ، فأمر

بصنع تابوت فاخر تتفق مقاييسه تماما مع مقاييس جسم أخيه . ثم دعا لفيفا من الناس ومعهم أوزيريس الى حفل كبير وعندما عرض عليهم التابوت أبدى الجميع أعجابهم به ودهشتهم لدقته وجماله ، فابتسم ست ووعد بأهدائه لمن يملأ جسمه فراغ التابوت ، فسارع الضيوف وأخذ كل منهم يضطجع فيه ولكن لم يتفق تماما فى مقاييسه الا مع جسم أوزيريس الذى لم يكد يضطجع فيه حتى أحكم ست وأعوانه غطاء التابوت وربطوه بحبال ورموا به فى النيل وحمله التيار الى البحر العظيم (المتوسط) ثم دفعته أمواجه العالية الى شاطىء جبيل شمال بيروت حيث نبتت شجرة ضخمة احتوت التابوت فى باطنها(٤٦) .

ولكن أيزيس ، الزوجة الوفية ، تمكنت من تنشئة حورس ابن أوزريس وتهيئته للانتقام لأبيه واستعادة عرش مصر وخاض فى سبيل ذلك معركة ضارية مع عمه فقد فيها عينه .

وكان تقى حورس البنوى موضوعا تعشق خيال الشعب أن يمعن فيه الفكر عندما سار للاطاحة بأعداء أبيه وينتقم من ست . وكانوا يغنون لأوزريس (لقد أتى حورس حتى يمكنه أن يعانقك . لقد دعاه (تحوت) الى أن يرد الى الوراء أتباع ست أمامك . لقد أحضرهم كلهم اليك ، وعن بكرة أبيهم . لقد أرجع الى الوراء قلب ست أمامك لأنك أعظم منه ، لقد تقدمت قبله ، وخليفتك أمامه . لقد رأى « جب » خليفتك ، ولقد وضعك فى مكانك . لقد أحضر « جب » اليك أختيك الى جانبك ، انهما ايزيس ولفتس ، لقد دعا حورس الألهة الى عدوك الذى تقهقر أمامك . لقد ضربه ابنك حورس . لقد أخذ عينه منه ، ولقد أعطاها لك حتى تستطيع أن تصير روحا بها وتكون جبارا أمام الأرواح .

(ولقد دعا حورس الى أن تلقى القبض على أعدائك وانه يجب الا ينجوا أحد من بينهم أمامك .. لقد أمسك حورس بست . لقد وضعه لأجلك تحتك حتى يستطيع ست أن يرفعك ويرتعد تحتك كما ترتعد الأرض . لقد دعا حورس الى أنه يجب أن تتعرفه فى صميم قلبه دون أن يفلت منك . أيا اوزريس .. لقد انتقم حورس لك ، (لقد أتى حورس حتى يستطيع تعرفك . لقد ضرب ست لأجلك . لقد رده حورس الى الوراء لأجلك .. أنك أعظم منه .. أنه يعوم وهو يحملك ، أنه يحمل فيك واحدا أعظم منه . ان أتباعه يشاهدونك ، وان قوتك أعظم منه ، ولا يهاجمونك . ان حورس يأتى . انه يتعرف أباه فيك) .

ان معركة حورس مع ست قد احتدم فيها القتال بعنف حتى فقد الاله الفتى عينه على يدى عدو أبيه ، وعندما أطيح بست واستعادها (تحوت) آخر الأمر ، فان هذا الاله الحكيم بصق على الجرح وشفاه مثلما اتبع نفس الأسلوب بعد ذلك بثلاثة آلاف سنة السيد المسيح وهو يتبع عادة شعبية معترفا بها .

والآن يبحث حورس عن أبيه حتى أنه يعبر البحر فى سعيه حتى يقيم أباه.

من بين الموتى ويقدم اليه العين التى ضحى بها فى سبيل أبيه . ولقد كان من جراء هذا الاخلاص البنوى أن عين حورس التى كانت فى ذلك الحين مقدسة وحسب ، أصبح يقدم لها الاجلال مضاعفا فى تقاليد ووجدان المصريين .

لقد غدت رمزا لكل تضحية .

وفى النهاية يعرض موضوع هذا الصراع على ملك مصر على محكمة الآلهة حيث يصدر الحكم لصالح أوزوريس وترجمته بأنه (صادق أو صائب او عادل أو بار القول) .

وانتصر اوزريس وتسلم حكم مملكته من الموتى تحت الأرض . وكان كنصير وصديق للموتى . انه ظفر بمكانته العظيمة فى الدين المصرى خاصة فى الطبقات الشعبية وابتداء من أواخر الدولة القديمة حيث آمن كل فرد أن بعثه سيتم حتما بعد الموت كاوزوريس فى مملكته .

ولكن لا بد أن يستبين فى الحال ان أسطورة أوزريس عبرت عن تلك الآمال والمطامع والمثل العليا التى كانت أكثر قربا الى حياة ورغائب هذا الشعب العظيم .

لقدتجسمت فى ايزيس أنبل سمات وفاء الزوجة وأدب الأمومة بسما وجدت أرفع المثل العليا للاخلاص البنوى ، للتعبير عنها ، فى قصة حورس ، ومن هذه الجماعة التى انتظمت أبا وأما وابنا ، حاك تخيل الدهماء من الشعب الوامق ، نسجا جميلا من المثل العليا للأسرة ، نسمو سموا عظيما على مثل هذه التصورات فى أى مكان آخر . وفى أسطورة أوزريس ، وجد نظام الأسرة اقدم وأرفع تعبير له فى الدين ، انعكاسا ممجدا للوشائج الارضية بين الآلهة .

ان الكارثة وانتصار الدعوة الصادقة فى النهاية ، الذين جاءا هنا فى اسطورة عن الطبيعة هما وحى ، مؤثر فى الروع ، بالوعى الخلقى العميق الذى كان ينظر فيه المصرى ، فى عصر قصى الى العالم .

وعندما نعتبر فضلا عن هذا أن أوزريس كان الموزع الشفيق للخير الوفير والذى من يده السخية كان الملك والفلاح على السواء يتقبلان ما قسم لهما من رزق يومى ، وأنه كان ينظر هناك الى الخلف من ظل الموت ليوقظ كل من وقع فى سبات ، ليس فى آخره مباركة معه ، وأنه فى كل جماعة أسرة كانت نفس الرغائب والعواطف التى وجدت تعبيرا عنها فى الأسطورة الجميلة ، وهى تجارب كل يوم وكل ساعة ، عند ذاك يواتينا بعض السبب فى ذلك الاخلاص العام الذى كان يحس به نحو الاله الميت .

كما نلاحظ فى هذا العرض مدى عنـاية الآلهـة ليس بحكم مصر فحسب ، بل بتحديد من يتولى الحكم وهذا هو اقصى ما يمكن تصوره عن الصبغة الدينية للنظم السياسية سواء على نطاق الدولة أو على نطاق الأسرة .

ويشرح ذلك أحد النصوص (ومما كان له وقع سيء في قلب جب أن نصيب حورس كان معادلا فقط لنصيب ست « أي أن الأول اختص بملك الوجه البحرى والثانى بحكم الوجه القبلى) . ثم أعطى جب ارثه لحورس ، هذا الابن لأول ولد ولد له ، ووقف حورس في القطر ووحد هذا القطر) .

وبهذا تغلب حورس في النهاية وأعطى حكم مصر وحدة بوجهيها القبلى والبحرى من الآلهة(٤٧) .

وأصبح الملك هو حورس ، ابن أوزوريس ورع بعد التوفيـــق بين المذهب الشمسى والمذهب الأوزيرى فى نظرية واحدة فى أواخر الدولة القديمة .

٣ ـ ايمحوتب :

من نوابغ البشر ، ولد وعاش بمصر في مستهل الألف الثالث ق.م ـ وارتبط اسمه باسم الملك زوسر مؤسس الأسرة الثالثة ـ بدأ حياته معماريا كابيه . ولم يقتصر نبوغه على العمارة ، بل امتد الى نواح أخرى . بل عد الها للطب عند اليونان بسبب مهارته فيه ، وقد اكتشف هذا الرجل فن البناء بالحجر المنحوت واقبل بكل روحـه ، وبحماس شـديد على العلم ، ولكنا نعـلم أن المصريين استخدموا الحجر المنحوت في تشييد مبانيهم قبل أيام ايمحوتب بعهد طويل ، منذ أيام الأسرة الأولى ، ولكنه صاحب الفضل في كونه أول من اقام مبان كبيرة الحجم من الحجر في مصر ، بل وفى العالم كله ـ وأول من شيد المقبرة الملكية على هيئة هرم مدرج . وأول من استخدم الحجر على نطاق واسـع ، فى تشييد المعـابد ، وعلى الأخص العنـــاصر المعمارية ، التى كانت تبنى حتى أيامه بالطين ، أو بالبوص ، أو الخشب وفروع الشجر .

كانت المقابر الملكية حتى آخر أيام الأسرة الثانية تبنى من الطوب اللبن ، على هيئة بناء مستطيل كبير الحجم ، يسميه الأثريون « مصطبة » لمشابهته للمصاطب التى يبنيها سكان القرى في مصر أمام بيوتهم .

ولكن ايمحوتب أدخل شيئا جديدا عندما قرر تشييد قبر زوسر في سقارة على هيئة مصطبة كلها من كتل الأحجار ثم أخذ يزيد عليها مصطبة فوق الأخرى ، حتى بلغ عددها ست مصاطب ، وهو الهرم المدرج بسقارة ولم يكتف بذلك ، بل بنى حـول الهرم سورا ضخما بالحجر ، وبنى في داخل السور مجموعة من الهيـاكل والمبانى الأخرى ، وكلها من الحجر ، نرى فيها استخدام الحجر لأول مرة ، في بعض العناصر المعمارية ... الخ .

وعرف زوسر قدر مهندسه فاكرمه كل الاكرام ، ووكل اليه بأهم الوظائف في البلاد ، فكان مديرا لجميع الأعمال ، وكبيرا لكهنة هليوبوليس ، كما كان [illegible]

على الخزانة ، وبعبارة أخرى أصبح الرجل الأول فى البلاد بعد الملك ـ بل وذهب فى تكريمه الى أبعد من ذلك ، اذ كتب اسم مهندسه على قواعد تماثيله الملكية ، وهو شرف غير عادى ، ولم ينس المصريون ايمحوتب بعد وفاته ، فقد ظل اسمه يتردد فى كتابات الدولة الوسطى ويذكرون مع الاعجاب فضله وحكمته ، وأنه كان وزيرا لزوسر ، كما كان من عادة الكتاب فى الدولة الحديثة ، اراقة بضع قطرات من الماء قربانا له قبل ان يبدأوا فى الكتابة ٠ وفى أيام الأسرة ٢٦ اى بعد أكثر من ألفى سنة بعد موته ، زاد تقدير المصريين لنابغتهم وحتى الهوه وسموه (ابن الاله بتاح) وبنوا له معابد فى جهات كثيرة من البلاد سواء فى منف أو فى الصعيد ، أو فى بلاد النوبة أو الواحات البحرية ٠

وعندما زاد اتصال اليونانيين بمصر فى القرن السابع ق٠م ووقفوا على ما كتبه ايمحوتب فى علوم الطب ، أبوا أن يصدقوا أن مثل هذا النابغة يمكن أن يكون بشرا كسائر الناس ، بل هو اله ، وقالوا انه لم يكن الا (اسكليبوس) اله الطب عندهم الذى عاش فى مصر فى ذلك الزمن البعيد تحت اسم ايمحوتب(٤٨) ٠

٤ ـ تحوت :

وكان فى الأصل الها للقمر وحاسبا للوقت والكاتب الأول الذى علم البشر العلم والكتابة(٤٩) ٠

٥ ـ حرخوف :

ـ وينطقه البعض ـ خوف ـ حر ـ كان حاكما لألفنتين فى أيام الأسرة السادسة ورئيسا للحملات التى كان يرسلها الملوك الى الجنوب ٠

كان فى أولى حملاته الى الجنوب فى صحبة أبيه وكان ذلك فى أيام الملك (مرنرع) ويذكر بعد ذلك ثلاث حملات أخرى روى فيها تفاصيل ما حدث له وما استطاع تحقيقه من نشر نفوذ مصر بين رجال القبائل الجنوبية وما عاد به من خيرات مثل العاج والأبنوس وريش النعام وجلود الحيوانات والكثير من الأعشاب الطبية ٠

وفى الحملة الثالثة اتخذ طريق الواحات وهو درب الأربعين المعروف مستخدما الحمير ووصل الى غربى السودان (دارفور على الأرجح) واستطاع فى هذه الحملة الحصول على قزم احضره معه اذ كان ملوك مصر يهتمون بهؤلاء الأقزام اهتماما خاصا لكى يؤدوا رقصة ذات أهمية دينية ليدخلوا بها السرور على قلب الملك ٠

قص حرخوف تاريخ حياته فوق الصخر على أحد جانبى مدخل القبر ، وعلى الجانب الآخر نقش صورة من رسالة الملك بيبى الثانى الذى كان طفلا فى ذلك

الوقت كتبها بخط يده ، يحيى فيها الرحالة ويطلب فيها أن يضاعف يقظته لحراسة هذا القزم ويسرع باحضاره اليه فى العاصمة (منف) ويعده بأن يغمره بالهدايا لنجاحه فى الحصول عليه ٠

ومن تاريخ هذا الرحالة وغيره من حكام أسوان أمثال (ميخو) و (سابنى) و (بيبى تخت) و (باور رد) نرى كيف اهتمت مصر منذ أيام الدولة القديمة بمعرفة الطرق المؤدية الى قلب القارة الافريقية وانشاء الصلات التجارية معها ومعرفة قبائلها وبلادها قبل أن يذهب اليها الرحالة الأوربيون فى القرن التاسع عشر(٥٠) ٠

٦ ـ يقول رمنوكا كبير كهنة منكا ورع (٢٥٢٨ ق٠م) فى نقش على قبره :

« أنى اقمت هذا القبر لأنى كنت مقربا لدى الناس والملك ولم يحدث قط أن اغتصبت أى شيء من اى انسان لهذا القبر لأنى أذكر يوم الحساب فى الغرب ٠

هذا القبر مقابل أجور من الخبز والجعة التى أعطيتها للعمال الذين أقاموه. تأمل ـ لا نزاع فى أنى أعطيتهم أجورا من الكتان الذى كانوا يطلبونه ، وقد دعوا الله لى من أجل ذلك »(٥١) ٠

ولعلنا فى هذه الكلمات التى أمر الرجل بكتابتها على قبره نتبين مدى خشية القيادة من الحساب عند البعث ومدى حساسيتهم فى اعطاء كل ذى حق حقه وذلك قبل أن يبعث الحق تبارك وتعالى سيدنا موسى رسولا بأكثر من الف عام ٠

٧ ـ أونى (القاضى والقائد) :

أونى من الشخصيات الهامة فى تاريخ الأسرة السادسة ٠ عرفنا تاريخ حياته من لوحته التى عثر عليها فى أبيدوس ٠

ويذكر أونى أنه كان فتى يافعا عندما تولى أول وظيفة له فى عهد الملك بيبى أول ملوك تلك الأسرة (٢٤٢٠ ـ ٢٤٠٨ ق٠م) ثم وصل الى منصب مدير الزراعة والمشرف على أراضى الملك ـ ووثق فيه الملك بيبى الأول فقلده أعظم المناصب القضائية ووصلت ثقته به الى الحد الذى جعله يسند اليه اجراء تحقيق مع الملكة وغيرها من نساء القصر ، كما وكل اليه مهمة تكوين جيش عدد جنوده عشرة آلاف جمعه من بلاد النوبة ومن جميع بلاد الصعيد ابتداء من الفشن فى الجنوب حتى اطفيح فى الشمال ـ ويفتخر القائد الشاب بأن النظام كان سائدا بين جنوده وأن أحدا منهم لم يغتصب شيئا مهما قلت قيمته من أى فرد من الناس ـ ويذكر أنه قاد ذلك الجيش الى بلاد فى الشرق من مصر ونجح فى القضاء على الخارجين على النظام من أهلها وأعاد الهدوء اليها وتغنى بجمالها ووفرة أشجار التين وكروم العنب فيها مما يدل على أن تلك الحملة لم تكن ضد بدو سينا وانما كانت فى فلسطين ٠

ويذكر اونى حملة أخرى جهز لها جيشين سار أحدهما بطريق البر والثانى بطريق البحر ـ وكان أونى نفسه مع الأسطول الذى رسا عند مكان يحتمل جـدا انه عند حيفا فى سفح جبل الكرمل ثم توغل الجنود بعد ذلك الى الداخل ، حيث اتصلوا بالجيش الآخر ، وأتموا مهمتهم بنجاح ، وقمعوا ما كان فيها من عصيان ـ ويتضح لنا من هذا المصدر التاريخى ، صلة مصر بغربى آسيا فى تلك الأيام . ويجب أن لا يغيب عن ذهننا أن تلك الحملات فى ذلك العهد لم يكن هدفها اخضاع البلاد سياسيا لحكم مصر ، بل انها لم تتعد أن تكون حملات لحماية طرق التجارة وتأديب المعتدين على قوافلها اذ أن مصر كانت قد بدأت منذ الأسرة الخامسة سياسة توسيع نطاق صلاتها التجارية بالبلاد المجاورة .

ولم يستمر أونى فى نشاطه كقائد حربى بعد موت بيبى الأول حوالى عـام ٢٣٨٠ ق.م ولكن ابنه الملك مرنرع لم يهمل شأن الرجل المحنك وأراد الاستفادة من خبرته وحسن ادارته فعينه حاكما للصعيد ، وكان يطلب منه من آن لآخر ، أثناء قيامه بذلك العمل ، أداء مهمات خاصة ، مثل احضار الجرانيت اللازم لبناء هرمه ومعابده من محاجر أسوان والمرمر من محاجر حتنوب وآخر عمل هام قام به هـو شق خمس قنوات فى صخور الشلال لتسهيل الملاحة ـ ويفتخر بأنه أتم ذلك فى عام واحد ، وأن الملك مرنرع ذهب بنفسه ليرى تلك القنوات بعد الانتهاء منها وأن زعماء المنطقة ، وزعماء بلاد النوبة قدموا للملك ولاءهم .

ويختم أونى لوحته بقوله ان ما ناله من تكريم وتقدير فى حياته لا يرجـع الا الى مزاياه الشخصية فقد نشأ عصاميا وأنه كان دائما حائزا على رضـاء جميع الناس وعاش محبوبا من أبيه وأمه (٥٢) .

٨ ـ بتاح حتب :

(كان وزيرا للملك زدكارع ـ أسيس) من ملوك الأسرة الخامسة ، الذى عاش حوالى عام ٢٣٨٠ قبل مولد المسيح ، وله قبر معروف فى جبانة سقـارة ، وسبب كتابة بتاح ـ حتب للبردية التى سنتكلم عنها فيما بعد ، هو احساسـه باقتراب الشيخوخة اذ بدأت الآلام تجد طريقها الى اعضاء جسده (والفم ساكت لا يتكلم ، وضاقت العينان وأصاب الصمم الأذنين .. والقلب كثير النسيان ولا يذكر (ما حدث) بالأمس . ان العظام ينتابها الألم فى الشيخوخة ، وينسد الأنف ولا يستنشق الهواء . القيام والقعود يستويان فكلاهما يؤلم ، واستحال الحسن الى قبيح ولم يعد لشىء مذاق ، ان ما تجلبه الشيخوخة على الانسان هو أن تجعله يخطىء فى جميع الأمور .

ويطلب الوزير من سيده (الملك) أن يأمر بان تكون له (عصا للشيخوخة) وذلك بتعيين ابنه فى وظيفته فأجاب الملك سؤاله وامره بأن يعلمه حتى يكون مثالا لأبناء العظماء .

وكان هناك اقبال كبير من المصريين على نصائح بتاح – حتب لولده (حتى تنفتح الأبواب أمام النشيء المهذب فيصل الى أعلى وظائف الدولة) ★ ٠

كما تصلح تعاليم (بتاح – حتب) لاتخاذها دليلا على ازدياد طموح الأفراد ، وكعامل من العوامل التى ساعدت على ايجاد اللا مركزية فى الدولة القديمة ٠

ويلح (بتاح – حتب) على ابنه أن يبذل كل ما فى وسعه من جهد ليتقدم فى الحياة ، وأنه يمكنه أن يحصل على ما يبغيه ، باتباع القواعد ، ولكن القواعـــد ذاتها ، تتطلب من الأفراد ألا يكونوا ممن يقلـــدون غيرهم بل يكونوا هم البادئين بالعمل ، ويستطيع كل رجل طموح أن ينال الثروة والمركز والاحترام ، اذا كان ممن يكيفون أنفسهم فى العمل ، وفق الأنظمة الادارية والاجتماعية المتعارف عليها ، وأن يؤدى ما تتطلبه هذه الأنظمة من الاجتهاد والأمانة ٠ فنظام هذا الكون أعـد مكانا لمواهب الرجل الحكيم الذى يذكرونه دائما لتمييزه من الرجل الجاهل ، أما الهدف الذى كانوا يضعونه أمام اعينهم ، فهو الفائدة الدنيوية فقط ٠

وتبدأ تعاليم (بتاح حتب) « بهذه القول الحسن فى ارشاد الجاهل الى الحكمة ، والى قواعد حسن الحديث ، وهى أشـياء مفيدة لمن يتبعها ، وضـارة لمن يهملها » « يقوم الرجل العاقل مبكرا فى الصباح ، ليعد نفسه ، ولكن الرجل الأحمق يقوم مبكرا ، لكى يلهو لنفسه » « إذا استمع الابن لما يقوله له أبوه ، فلن يفشل فى عمل يقوم به ، وسينال تقدير الموظفين ٠٠ أما الأحمق الذى لا يستمع فلن يسمع شيئا ، فهو يرى الحكمة والجهل سواء ، ويرى المكسب مثل الخســـارة ، انهم يؤنبونه على كل ما يفعل ، ويرون فيه عيبا كل يوم) ٠

ويجمع النص بين طلب اتباع الارشادات التى كتبها الأقدمون ، وبين تشجيع المجهود الشخصى ، لأن حكم الماضى تترك مجالا ليظهر فيها الفرد قدرته ٠ وفى أكثر من مكان لهذه التعاليم ، نرى رفعا لشأن الفصاحة المفيدة ، وأن الانسان يجب أن يعرف كيف يتكلم فيكون لكلامه أثر حسن ، وألا يتكلم الا بالقدر المطلوب « اذا كنت شخصا ذا مكانة ، شخصا يدعى لمجالس سيده ، فادع قلبك لفعل الخير ، ٠٠٠ وتكلم فقط اذا كنت تعرف حل المشكلات ٠٠ انه فنان (صحيح) ذلك الذى يستطيع الكلام فى مجلس ، فان ذلك أصعب من أى عمل آخر) ٠ (اذا كنت ممن هم موضع ثقة ، وممن الذين يرسلهم رجل عظيم الى آخر ، فكن ممن يعتمد عليهم ، نفذ غرضه حسب ما قاله لك ، ولا تخف شيئا مما قيل لك ٠٠ تمسك جيدا بالحق ولا تزد عليه) ٠٠ (وعند مناقشة شخص آخر يجب أن يؤدى الانسان ما يلزم من احترام اذا كان معارضه أرفع منه رتبة ، وأن يكون متسامحا لطيفا مع من هم أقل

(★) تاريخ الحضارة المصرية – المجلد الأول – العصر الفرعونى – مكتبة النهضة المصرية – تاليف مجموعة من العلماء .

منه . ولكن يجب أن يواجه المساوين له بالحزم اللازم) . (لا تتوار ، ولا تلتزم الصمت عندما يسيء فى كلامه . فسيكبر السامعون عندئذ كلامك ، وتصبح سمعتك حسنه فى رأى الموظفين . (ويجب أن لا يقف الإنسان عند حد فى تطلعه الى تحسين مركزه ، فما من انسان استغل كل ما فى شخصيته من مواهب) . (لا نجعل قلبك ينتفخ بسبب علمك . ولا نبالغ فى تقدير نفسك ، لأنك رجل حكيم) . (وتحدث مع الجاهل كما تتحدث مع الحكيم) . (لا يمكن أن يصل أحد الى آخر حدود صناعته ، ولا يوجد صانع يهيئون له ما يظهر به مقدرته الكاملة) (ان الفصاحة أكثر ندرة من الزمرد ومع ذلك يمكننا أن نجدها مع الخادمات اللاتى يجلسن على حجر المسن) .

ان التزام مبادىء الماعت (العدالة والمعاملة الصحيحة والحق والصدق والأمانة) يأتى بما يطلبه المرء من جزاء ، سواء فى انماء ثروته أو فى تقدم مركزه). (اذا كنت رئيسا وتحت سلطتك مصالح الجمهور ، فاختر لنفسك من الأفعال احسنها ، حتى تكون تصرفاتك خالية من الخطأ) . ان ماعت عظيمة (العدالة والمعاملة الصحيحة والحق والصدق والأمانة) وأثرها خالد ، ... والويل لمن يجترىء على قوانينها) . (انها الطريق السوى الذى يجب أن يسير عليه كل من لا يعرف سبيله . ولم يوصل السوء يوما فاعله الى مأمن ، وربما تمكن الانسان بالغش من الحصول على المال ، ولكن قوة ماعت هى الباقية ، ويحق للانسان أن يقول – انها كانت عتاد أبى من قبل) .

ان تطبيق (ماعت) فى شئون الحياة اليومية ، وفى الأمور ذات الطابع الرسمى ، كانت سياسة عملية ناجحة ، فقد كان اقبال القاضى بوجه ملىء بالعطف على سماع الشكوى ، أكثر أهمية من اتخاذه اجراء كاملا حاسما (اذا كنت ممن يسعى اليهم الناس بالشكوى ، فكن هادئا عندما تستمع الى ما يريد الشاكى أن يقوله لك ، لا تصده ، قبل أن يفرغ كل ما فى نفسه ، أو قبل أن ينتهى من قول كل ما جاء من أجله ، فان الشاكى يحب الاهتمام بقوله ، أكثر من تحقيق ما يطلبه .. وليس من الضرورى أن تنفذ له كل ما جاء فى شكواه ، ولكن حسن الاستماع اليه يريح قلبه) . (اذا اردت أن يكون سلوكك حسنا ، وأن تباعد بين نفسك وبين الشر ، فاحذر من الجشع ، فانه مرض وسقم ولا دواء له ، ومن المستحيل أن يجد صاحبه صديقا ، اذ يحيل حلاوة الصديق الى مرارة ، ويبعد الشخص المخلص عن سيره ، بل انه يسيء الى الأب والأم والاخوة ويسبب طلاق الزوج) . (لا تكن جشعا عند القسمة ، لا تكن طماعا ، ولا تأخذ الا نصيبك) .

كان الاتجاه العقائدى للشعب المصرى حتى أواخر الدولة القديمة فى أن الأمانة سياسة ناجحة توصل صاحبها الى رضاء الملك واستحسان أصدقاء الشخص ، كما أنها توصله أيضا الى الثروة ..(٥٣) .

وكانت تعاليم بتاح ـ حتب التى لم نعرض منها الا بعض فقراتهـا ، تمثل الدستور الذى يتجه الى تنفيذه الناس عن عقيدة وعن اقتداء بقيادتهم القدوة ٠

بقول بتاح حتب (ما أجمـل طاعة الابن ٠٠٠ ان الطـاعة هى خير ما فى الوجود) ٠

ومن هنا كانت الوحدة فالتعمير والرخاء والعدالة والطمأنينة والحضارة التى استمرت آلاف السنين ولأطول فترة عرفها تاريخ الحضارات ٠

وحول أمثال هذه القيادة المتمثلة لهذه النظم فى تصرفـاتها التف الشعب المصرى واقتدى بها ٠

الباب الثالث

فى ثمرة النظم المختارة والقيادة القدوة

بسيادة (الماعت) .

أى بسيادة القانون بدعامة الصدق والصراحة والأمانة والشجاعة تحققت العدالة (والثقة بين الناس) .

فاطمأن الناس على أنفسهم وعلى أرزاقهم وعلى عقائدهم .

فتحققت الوحدة التى حقق بها الانسان المصرى رخاءه وحضارته .

وفى هذا يقول ول ديورانت (ان الحضارة تبدأ حيث ينتهى الاضطراب والقلق ، لأنه اذا أمن الانسان من الخوف ، تحررت فى نفسه دوافع التطلع وعوامل الابداع والانشاء ، وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضى فى طريقه الى فهم الحياة وازدهارها(٥٤) .

وعلى هذا يكون النتاج الحضارى الذى حققته مصر فى هذه المرحلة دليلا آخر ، يضاف الى سيادة الماعت ، على توافر الاطمئنان فى النفس المصرية مع ما يعنى ذلك من انتفاء الخوف والاضطراب والقلق .

ولقد ساعد على احساس المصرى بالاطمئنان (عدم تعرض بلاده لأى خطر خارجى ، كما لم تتعرض مصر لأى حروب داخلية فى عصر الدولة القديمة) .

وفى هذه المرحلة لم يكن الانسان المصرى مطمئنا على نفسه وعلى أرزاقه وعلى عقيدته فى الحياة وبعد الممات فحسب ، بل أصبح واثقا من نفسه مستبشرا بالحياة الدنيا وبالحياة الآخرة .

وان ما يظهر لبعض الناس من اهتمام المصريين ، بأمر الموت ، وعنايتهم بما يضعونه مع الميت من أثاث وأدوات وما يهتمون به من العناية بخدمة أرواح الموتى ، يترك أثرا فى النفس بأن المصريين كانوا شعبا سوداوى الطبع ، تتسلط عليه فكرة الموت ، يقضون أوقاتهم فى حزن وهم ، يعدون أنفسهم لليوم الذى تنتهى فيه حياتهم فى هذه الدنيا ، ولكن ليس هناك ما هو أبعد عن الصواب من ذلك الرأى . لقد صرف المصريون وقتا غير عادى ، وزمنا طويلا ، وهمة لا تكل ، فى انكار الموت ، ومخادعته ، ولكن روحهم لم تكن روحا متشائمة ، بل كانت على العكس من ذلك ، روحا ممتلئة بالبشر المرتجى ، وبالحب القوى لتذوق الحياة ، وانتظار تحقيق ما كانوا يؤملونه من استمرار الحياة فى المستقبل ، وفى هذا انتصار على فكرة نهاية الانسان بموته ، أو أن هذا الموت مقدر على الناس ليضع حدا نهائيا لحياتهم ، وهكذا كانت الثقة فى النفس والتفاؤل ، وحب الاستمتاع بالحياة سببا فى اصرار المصريين على الحصول على حياة مستمرة خالدة بدلا من أن يحصنوا أنفسهم تحصينا قويا ضد الموت .

ففى مناظر المقابر لا نلمح كثيرا من مناظر الدفن أو الطقوس الدينية الجنازية ، ولكننا نراهم يكثرون من مناظر سرورهم بالمحصول الوفير ، ومناظر شغفهم بالطبيعة واستمتاعهم بالصيد ، وما يجدونه من لذة فى الولائم والألعاب • هذه هى الحياة ، وهذا هو السعى الحثيث للحصول على حياة أجمل وأعم خيـــرا • لم يكن أولئك الناس موسوسين ، سوداويين ، يعيشون فى خوف ممقوت ، بل كانوا قوما آمنوا بأن يحيوا حياة كلها بهجة وطمأنينة ، تملؤهم الثقة بأن الآلهة كانت تسهر عليهم للعناية بهم ، وخاصة ذلك الاله الذى كان يعيش وحده على الأرض ، وكان ملكـا عليهم(٥٥) •

ولقد كان المصرى مستبشرا ومتفائلا وواثقا من نفسه ومحبا للاستمتاع بالحياة بعد أن توصل الى تفسير لكل ما يحيط به والى الايمان بنظامه فى الحياة وبعـــد الممات •

وفى هذه الأجواء المطمئنة والتى توافرت فيها للانسان احتياجاته الماديـــة والغريزية (حسب مفهوم العصر) وفى حماية النظم المقدسة للمعـــاملات توفرت التربة الخصبة لبروز ملكات الخلق والابتكار لدى الأكفاء من أبناء هذا الشعب •

وذلك أن الحضارة باعتبارها نتاج ملكات للخلق والابداع فى شتى المجالات لا توجد الا فى أجواء يسودها الاطمئنان والاحساس بالأمان على النفس وعلى الأرزاق وعلى العقيدة وعلى الفكر الحر •

أما الفقر والتخلف فهو النتاج الطبيعى للقلق والتوتر بسبب ما يصيب النفس أو الأرزاق أو العقيدة أو الفكر •

١ ــ فى ايجابيات الشخصية المصرية :

ظلت الشخصية المصرية على بداوتها (وبدائيتها) حتى سنـــة ٦٠٠٠ ق٠م٠ تاريخ الاستقرار على الأرض بعد توقف الأمطار وظهور وادى النيـــل واكتشاف الزراعة •

وبعد أن حدد النيل مجراه وظهرت الصحارى عـــلى الجانبين (واحتجزت) القبائل الأولى لتواجه مصيرها فى انشاء مصر لأول مرة واعدادها للزراعة ولاستئناس الحيوان فان هؤلاء الرواد احتفظوا بأخلاقهم وطباعهم التى كانوا عليها قبل الاستقرار على الأرض •

واستمرت هذه الطباع والأخلاق تتطور بطريقة مصرية خالصة حتى أواخـر الدولة القديمة حيث سمح انعزال وادى النيل عما جاوره من بلاد وعدم تعرضـــه لغزوات ومن ثم عدم اختلاطه بالشعوب المجاورة ، بالاحتفاظ بالشخصية المصريـة وأخلاقها وعاداتها لأكبر قدر من الزمان (ولعل كورت لانجه لم يخطىء كثيرا عندما

أدعى أن مصر ، فى واقع تاريخها القديم ، لم تخرج عن العصر الحجرى حتى آخر أيامها ..

وهذا يفسر شدة تمسك المصريين بالماضى وحرصهم عليه ، برغم كل مظاهـر التحول والتطور التى تلوح على سطح حياتهم(٥٦) .

ولقد سمح انعزال الشعب المصرى فى وادى النيل الأدنى بعد انتقاله من مرحلة البداوة الى مرحلة الاستقرار الزراعى ، مع شدة تمسكه بالماضى وحرصه عليه ، الى استمرار تمسكه بتقاليده ومنها طباع الصدق والأمانة والصراحة التى تتسـم بهـا المجتمعات الفطرية .

(فالخيانة بصفة عامة تنشأ مع المدنية واختلاط الشعوب بعضها ببعض ، لأنه فى ظل المدنية يزداد المجال الذى يتطلب دهاء السياسة اتساعا ، اذ تزداد الأشياء التى تغرى الانسان بالسرقة .. فاذا ما تقدمت الملكية بين البدائيين جاءهم فى أثرها الكذب والسرقة)(٥٧) .

كما استمر المصرى ، فى هذه المرحلة ، على أخلاق التعاون مع الجماعة المصرية ، وانتمائه اليها ، امتدادا لتعاونه مع القبيلة وانتمائه اليها .

ثم أضفيت على هـذه الأخلاق ، القدسية الدينية لتصبح هى نفسها ما تامر به الآلهة .

فالشخصية المصرية ، فى هذه المرحلة ، تتسم بالصدق والصراحة وهذا يعنى الشجاعة وانتفاء الخوف ووضوح الرؤية .

وهذا هو الذى كان سائدا بصفة عامة .

وقد نجد فى بعض تصرفاتهم ما هو كذب صريح بمفهوم العصر (ولكن يجب علينا أن نضع فى أذهاننا أن تلك الحالات كانت صادقة فى نظرهم ، وموافقة لمـا كانوا متعارفين عليه فى تلك الأيام)(٥٨) .

والصدق والصراحة ووضوح الرؤية والشجاعة فى التعبير هى الدعامات الوحيدة لسيادة القانون والنظام فالعدالة ــ فاذا انهارت هذه الدعامات وحل محلها الكـذب والخبث والخوف انهار القانون والنظام وتفشى الظلم والفوضى والفقر .

أما عن انتماء المصرى لوطنه ولعشيرته ولعقيدته الدينية ولحضارته ولنظامـه فيكفى أن المصريين كانوا يعتبرون أنفسهم وحدهم الناس أما غيرهم من الشعوب فهم دون ذلك .

وسنتكلم عن بعض ايجابيات الشخصية المصرية فى هذه المرحلة .

فى الروح العلمية (٥٩) :

انه من اللافت للنظر أن السحر أو اللجوء الى الغيبيات لم يكن منتشرا فى مصر فى هذه المرحلة ٠

ومصر صنعت نفسها بالفكر العلمى الخلاق فى شتى المجالات وبسرعة أدهشت العالم ودون اعتماد على قوى غيبية ودون اعتزاز بعجز امكانياتها عن تحقيق أطماعها ، اذ كانت تغلب الروح العلمية على الشخصية المصرية ٠

(وعلى سبيل المثال ، فقد جاء فى بردية ادوين سمث الجراحية والتى كتبت فى الدولة القديمة ما يوضح تماما صورة كاملة للروح العلمية لدى الجراح (المصرى) القديم وليس فى هذه البردية على كثرة ما بها من طرق العلاج والملاحظة ووصف لوظيفة أعضاء الجسم الا القليل من السحر وعلى سبيل المثال كان المريض يشكو من كسر مضاعف فى الجمجمة نتج عنه شق جزئى فى أحد جوانب الجسم ٠

وكانت الاشياء التى حيرت الجراح في هذه الحالة انه لم يكن هناك جرح ظاهر يسيل منه دم ٠ ومن الجائز أنه لم يستطع تشخيص الحالة لأن هذا الكسر فى الجمجمة الذى لم يره سبب شللا فى العنق والكتف واليد والرجل فى ناحيه واحدة من الجسم فقط ٠ وقد اعترف الجراح بأنه لا يستطيع مداواة هذا الكسر ، وكل ما استطاع ان يوصى به هو اتباع الراحة واستمرار الملاحظة ، ولكنه مع ذلك يكتب هذه الملاحظة الغريبة (ويجب عليك أن تفرق بينه وبين شخص أصيب بشىء يدخل من الخارج ، فهو شخص لا يستطيع تحريك راس شوكة الكتف واظافره أصبحت فى يده ، بينما يتساقط الدم من أنفه وأذنيه ، ويشكو من تصلب فى عنقه) ٠ ففى هذه الفقرة ينكر الجراح ان هذا الألم الخفى المروع كان نتيجة لضربة (أصابته من الخارج) فما الذى يعنيه من ذلك ؟ ٠ من حسن الحظ أنه توجد جملة كتبت للتعليق هذا نصها (أما عن الشىء الذى يدخل من الخارج) فانها تعنى النفس أو الريح الذى يأتى من اله خارجى أو من الموت وليس دخول شىء مما هو فى جسده) وبعبارة أخرى فان الجراح لم تؤثر على عقله اعراض تلك الحالة الغريبة فتجعله ينحرف عن روحه العلمية غير المتميزة ، فقد قال ان تلك الظواهر كانت طبيعية وليست من فعل قوة الهية او شيطانية ٠ فان الكسر الذى لا يراه والشلل الجزئى نتجا من اللحم والدم من أثر ضربة مادية ، وليس من (ريح يأتى من اله خارجى أو من الموت) ٠

ثم الروح العلمية التى بنيت على قوة الملاحظة والصبر فى التامل والتجارب التى ادت بهم الى اكتشاف التقويم ذى الثلاثمئة وخمسة وستين يوما ٠

واذا رجعنا الى العمارة فاننا نلاحظ أن الأهرام ومعابد الأهرام التى شيدت فى العصر المبكر كانت تبنى بكثير من الدقة والعناية أكثر من مثيلاتها التى شيدت فى العصور الأخيرة من الدولة القديمة بل وفيما تلا ذلك من عصور ، ولنضرب مثلا بالهرم الاكبر الذى شيد فى أوائل الأسرة الرابعة فهو كتلة هائلة من الاحجار التى

قطعت على خير ما يمكننا أن نتصوره من الدقة · وهنا نجد ستة ملايين وربع طن من الأحجار مع أحجار الكساء الخارجي التي يبلغ وزن الواحد منها طنين ونصف طن في المتوسط ، ومع ذلك فان أحجار هذا الكساء نحتت وسويت على أدق صورة وكانت اللحامات بين الأحجار لا تزيد عن جزء من خمسين من البوصة (أي نصف ملليمتر) وهو تدقيق في أناقة الصناعة جدير بحرفة الصياغة · ولم يزد معدل الخطأ في ضبط الضلعين الشمالي والجنوبي عن ٠٩ر في المائة والضلعين الشرقي والغربي عن ٠٣ر في المائة ·

وأقيمت هذه الكتلة من الأحجار على أرضية من الصخر مهدوها لهذا الغرض فلم يزد الانحراف في الزاويتين المتقابلتين عن ٠٠٤ر في المائة فقط عن الزاوية الحقيقية ، وليس في مقدورنا أن نتوقع من أي صانع مدقق مهما كانت مهارته أن يفعل شيئا خيرا من ذلك ·

وتكشف لنا هذه الأرقام المجردة عن ولاء ومحبة للعمل المادي الذي يؤدونه فوق ما تستطيعه طاقة البشر) ·

وكل هذا يتم في ظل الأنظمة الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية المختارة والمحبوبة من الناس ودون اكراه من أحد ودون الهروب الى السحر والغيبيات ·

ولا نجد في تعاليم بتاح – حتى أي نصيحة بلجوء الانسان للسحر أو التواكل ، فكلها تعاليم مادية لتحديد أفضل الطرق الأخلاقية لوصول الانسان للثروة وللموقع الوظيفي الممتاز ·

ومثال آخر عن الروح العلمية العملية التي سادت منذ ما قبل الأسرات حتى أواخر الدولة القديمة ما جاء في علم اللاهوت المنفي ·

فقد كانت هناك مسألتان : أولاهما ، من أين أتى أتوم (الخالق) والثانية ما هو السبب في خلق العالم ، وبعبارة أخرى كانوا يبحثون عن (الجوهر الأول) فقالوا في تلك الرسالة أن بتاح اله منف كان لسان الآلهة (وعقلهم) أي الفكر والارادة والعاطفة ·

فبواسطة تفكير القلب (الفكر والارادة والعاطفة) وتعبير اللسان ، ظهر في الكون أتوم نفسه وجميع الآلهة الأخرى ·

وهذا الرأي الذي يوضح لنا مبدأ معقولا يبرر خلق العالم هو أقرب ما وصل اليه المصريون من المذهب الخاص بالكلمة (في البداية كانت الكلمة ، وكانت الكلمة مع الله ، والكلمة هي الله) وذلك كما جاء في الانجيل (الكتاب المقدس – العهد الجديد) ·

وفي القرآن الكريم (انما أمره اذ أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) · ونعود الى علم اللاهوت المنفي ·

« انه هو (العقل) الذى يسبب ظهور كل رأى ، أما اللسان فهو الذى يعلن ما يفكر فيه (العقل) . وهكذا تم تشكيل جميع الآلهة ·· وفى الواقع ظهر جميع النظام الالهى بواسطة ما فكر فيه العقل وما أمر به اللسان وهكذا نال العدل كل من فعل الشىء المرغوب فيه ، والعقاب الذى يفعل الأمر غير المرغوب فيه . وأعطيت الحياة لمن يؤمن بالسلم ، وأعطى الموت الخاطىء ، وهكذا تم عمل كل مهنة . وعمل الأذرع ، وحركة الأرجل ، ونشاط كل عضو فى الجسم حسب الأمر الذى فكر فيه القلب (العقل) والذى جاء عن طريق اللسان ، والذى يعطى قيمة لكل شىء · ولهذا أصبح يقال عن بتاح (انه هو الذى فعل كل شىء وخلق الآلهة ·· وكان بتاح راضيا بعد أن عمل كل شىء بما فى ذلك النظام الالهى ·· » .

وهذا الفكر المبدع الخلاق الرائد قد كتب منذ ألفى ســـنة قبل اليونان وقبل العبرانيين بالفى عام .

ولقد كان تفكيرا شاهقا فى سموه . ولم يستطع المصريون فى جميع عصورهم ان يصلوا الى علوه فى جميع عصورهم فضلا عن أن يجتازوه وهذا يثبت بدوره أن مصر اخرجت خير ما عندها فى أول أيام تاريخها .

فى الايجابية والمادية :

لم تكن الشخصية المصرية صـــادقة صريحة شجاعة حرة تتجه اتجاها علميـا فحسب ، بل كانت أيضا شخصية عملية تتجه الى كل ماهو مفيد ماديا .

(ولقد وصف أفلاطون المصريين بأنهم محبون للثروة ·· ولكنا لا نعدو الحقيقة ان قلنا (والكلام هنا لول ديورانت مؤلف قصة الحضارة) ان المصريين هـم أمريكيو العالم القديم · فهم قوم مولعون بضـخامة الحجم ، يحبون المبانى الفخمة الكبيرة ، وهم مجدون نشطون جماعون للثروة ، عمليون حتى فى خرافاتهـم الكثيرة عن الدار الآخــرة) .

لذلك فنحن نلاحظ فى نصائح الحكيم ـ بتاح ـ حتب أنها تنصب على كيفيـة الوصول الى الثروة والمركز المرموق .

كما كان الثراء والمركز الاجتمـاعى ينتقل مع الانسان فى آخرته ، ومن ثم كان هذا هو نفسه ما تأمر به الآلهة .

وفى مجتمع تكتل فيه جميع المصريين يدا واحدة وفكرا واحدا وعقيدة دينية سياسية اقتصادية اجتماعية واحدة لانشاء مصر من العدم والوصول الى كافة العلوم والمعارف اللازمة لاقامة الدين واشـــباع حاجات الدنيا المتجددة كان لابد من ترك

الانسان على سجيته فى التعبير عما فى نفسه بصدق وبصراحة حتى يقدم عطاء الفكر الرائد فى شتى المجالات ٠

ولذلك فقد كانوا يقدرون الفصاحة ويحضون على الحكمة فيقول بتاح ـ حتب (تكلم فقط (أمام رئيسك) اذا كنت تعرف حل المشكلات ، انه فنان صحيح ذلك الذى يستطيع الكلام فى مجلس ، فان ذلك أصعب من أى عمل (آخر) ٠

وبهذه الدعوة الى تقديم الحلول والاقتراحات تقدمت مصر وأعطت للعالم باكورة حضـــــارته ٠

ويقول بتاح ـ حتب (تمسك جيدا بالحق ولا تزد عليه ، ٠٠ يجب أن لا تتوارى، ولا تلتزم الصمت عندما يسيء محدثك فى كلامه (ان كان مساويا لك) ٠

ويقول (ان الفصاحة آكثر ندرة من الزمرد ٠٠٠) ٠

ولقـد كانوا قوما نشطين ، مجدين ، قال عنهم شمبليون (لقـد كانوا يفكرون كما يفكر الجبابرة الذين تبلغ قامة الواحد منهم ستة من الأقدام) (*) ٠

ففى العصـــور الأولى ـ كانت البلاد فى حاجة الى خـــدمات الرجال ذوى المقدرة الذين يعتمد عليهم ٠ ففى مثل تلك العصور يمكن الحصـــول على الصـــناع من بين الفلاحين ويصبح خدم المنازل عمـــالا موثوقا بهم وصناعا ماهرين ٠ وهؤلاء العمـــال الحاذقون يكافأون بالممتلكات والوظائف والميـــزات وبذلك يدخـــلون فى زمـــرة الارستقراطية ٠

ولدينا الأدلة من الآثار التى تحكى (كيف تيسر لأشـخاص من عامة الشعب أن ينجحوا فى التقدم فى مجرى حياتهم وكانوا أصلا من المغمورين) ٠

(ولقـد كان النضـــوج المفاجيء الباهر للحضـــارة المصرية ، فى الأسر الأربعة الأولى ، سببا فى ظهور أعظم الكفايات ، من بين الأفراد المصريين ٠ كانت الأمة تخطو نحو الأمام سياسيا واقتصادية وماديا وفنيا وثقافيا ، وكان هذا التقدم جماعيا ٠ ولكنه كان يتمثل فى شخص الملك ، فأدى ذلك فى البداية ، الى الاعلاء من قوته ومجده ، ولكن هذا التقدم تطلب المجهودات الفردية ، من كل شخص ذى موهبة ، أو قدرة ، أو ذكاء ، أو طموح ٠ ولما تقـــوت الدولة وانتظمت أمورها ، أصـــبحت فى حاجة الى عدد كبير من الموظفين المقتدرين الذين يمـــكن الاعتماد عليهم ٠ ولما زاد عدد وظائف الحكومة ، واتسع مجال نشاطها ، كان على الموظفين أن ينفذوا ما يكلفهـــم به الملك ، وحسب ما يرونه هم أنفسهم صالحا ، أى أن تلك القوى المتجمعة ، التى كانت تعمل لتأييد حكم الملك المطلق ، كانت تنشيء فى الوقت نفسه ، قوة منحرفة مضادة بعيدة

(*) ولديورانت ـ قصة الحضارة ـ الجزء الثانى من المجلد الأول ـ الطبعة الرابعة ـ لجنة التاليف والترجمة والنشر ٠

عن الملك ، تظهر فيها شخصية الفرد · وعندما يطلب من بعض الرجال ، القيام بمهام جديدة ، فانهم يكتشفون فى أنفسهم ما فيهم من قوى شخصية ، وتحل بالتدريج الارادة الشخصية ، محل الثقة المطلقة والمفروضة عليهم للملك) (٦٠) ·

فى الطاعة والانتماء :

كانت الشخصية المصرية فى هذه المرحلة من أشد الأمم استمساكا بالقديم (وطاعته للعقائد والأفكار المتوارثة) لدرجة أن ظلت الأسس الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية بل والعلمية التى انتهى اليها القوم فى الدولة القديمة هى نفسها الأسس التى حاولوا التمسك بها عبر آلاف السنين بعد ذلك دون تغيير يذكر رغم التطور الحضارى وتجدد الحاجات الى أساليب جديدة لحل المشكلات ·

وهذا يفسر لك خطأ القيادات المصرية ، ابتداء من الدولة الوسطى ، فى اعتبار ما انتهت اليه الدولة القديمة فى شتى المجالات هو القدوة المحتذاة الواجب الأخذ بها دون تعديل الى أبد الدهر مما أوقع الفرقة والانهيار فى الدولة ·

كما كانت الشخصية المصرية أكثر الشخصيات تدينا فى العالم وكانت تعتبر نفسها هى الناس وغيرها من الشعوب فى مستوى أقل من البشرية ·

كما كانت شخصية فدائية لأى خطر يتهدد الوطن من الخارج ولعلنا نجد ترجمة لذلك فى الكلمات التى نقشها سنوسرت الثالث من الدولة الوسطى على لوح نصبه فى جنوب الوادى ختمه بوصية الى خلفائه (أى لنا ولحكام مصر الوطنيين من بعده) ان امرأ من ولدى يستطيع أن يحمى ما أقمت من حدود ، لهو ولدى من صلبى ، وانه لمثل صادق لذلك الابن الذى يحمى أباه ، ويزود عن حدوده · فاما من قعد عن ذلك ولم يزد عن حدودى ، فذلك ليس من ولدى ، لأننى لم الده · وهذا تمثالى أقمته لكم على الحدود لعله أن ينهضكم فذودوا عنه » ·

أما عن علاقة الشخصية المصرية بالسلطة فكانت تدور فى اطار الدين ومن ثم كانت الطاعة فرضا على كل مصرى ومصرية ·

فالملك هو المحور للديانة المصرية يحكم مصر بالقانون المقدس الذى سنه الاله (رع) وبصدق وبعدالة (الماعت) ·

ومن ثم كانت طاعة الملك هى نفسها الطاعة المفروضة من الخالق على مخلوقاته·

ولعل فى القصة التالية ما يوضح ذلك ·

ذكر الدكتور حسين فوزى عن المسعودى فى مروج الذهب الرواية التالية :

كان أحمد بن طولون بمصر حين بلغه ، فى سنة نيف وستين ومائتين ، أن رجلا بأعالى صعيد مصر من أرض الصعيد ، له ثلاثون ومائة سنه من الأقباط ممن يشار

اليه بالعلم من لدن حداثته ، والنظر والاسراف على الآراء والنحل من مذاهب المتفلسفين وغيرهم من أهل الملل ، وأنه علامة بمصر وأرضها .. برها وبحرها ، وأخبارها وأخبار ملوكها .. وأنه ممن سافر فى الأرض وتوسط الممالك ، وشاهد الأمم من أنواع البيضان والسودان ، وأنه ذو معرفة بهيئات الأفلاك والنجوم واحكامها ، فبعث أحمد بن طولون برجل من قواده فى أصحابه . فحمله فى النيل اليه مكرما ، وكان قد انفرد عن الناس فى بنيان اتخذه وسكن فى أعلاه ، وقد رأى الرابع عشر من ولد ولده .

فلما مثل بحضرة أحمد بن طولون ، نظر الى رجل دلائل الهرم فيه بينه ، وشواهد ما أتى عليه من الدهر ، ظاهرة ، والحواس سليمة والقضية قائمة ، والعقل صحيح ، يفهم من يخاطبه . ويحسن البيان والجواب عن نفسه .. وساله أحمد بن طولون عن الكثير فأجابه كما ساله عن الأهرام وكيفية بنائها فأجابه الرجل بنفس المعلومات التى نعرفها اليوم عن كيفية بناء الأهرام .

ولكن الرجل أنهى كلماته بجملة أحببنا ابرازها .

قال الرجل عن بناة الأهرام :

« كانوا مع هذا لهم صبر وقوة وطاعة لملوكهم وديانة » (٦١) .

الاحساس بالأمن والاطمئنان (*) :

كان المصريون فى موقع ممتاز تحميهم عزلتهم الجغرافية اذا قورنوا بجيرانهم الذين كانوا معاصرين لهم مثل سكان بلاد الرافدين ، أو أهل سوريا ـ فلسطين ، أو سكان الاناضول .

لم يكن ضروريا للمصريين أن يحتفظوا بقوة حربية كبيرة بصفة مستمرة لصد ما عساه أن يحدث من هجوم . فقد كانوا يستطيعون أن يردوا أى خطر محتمل من مسافة بعيدة ، كما أنه كان شيئا بعيد الاحتمال أن يتحمله أى شخص مهاجم ومعه قوة كبيرة أن يصل الى مصر نفسها .

المصرى لم يكن يعرف الخوف ـ فقد كان حتى الآن هو الذى يرسم بنفسه نصيبه فى الحياة وكون لنفسه حضارة متشامخة ، غنية ، وناجحة .

وقد أعطت الحضارة المصرية تلك الدمائة فى الأخلاق ، وتلك الطبيعة المستبشرة وجعلتها من مميزات تلك الحضارة . كان مرجع ذلك الى عقيدة المصريين بأنهم فى عناية خاصة ترعاهم ، وأن مصر وحدها ، من دون البلاد ، كان يحكمها اله ،

(★) الاحساس بالأمن والأمتنان والثقة بالنفس والتفاؤل عن جون ولسون ـ الحضارة المصرية ـ

وأنه الابن الحقيقي لاله الشمس يحـــكم مصـــر ويحميها الى أبد الآبدين · فما الذى يخشونه بعد ذلك ·

الثقة فى النفس :

كان المصرى يؤمن بالمبادىء العامة المفهومة ولكنه الى جانب هذه المبادىء كان يسمح بقسط كبير من الحرية التى تحفظ عليه شخصيته وكان مصدر هذه الحرية ثقته الكبيرة فى نفسه وفى دنياه وكان هذا التفاؤل ميسورا له بسبب احساســـه الى حد كبير بالأمن الذى سهله موقع بلاده الجغرافى ·

كانت الشمس تنتصر على الموت كل ليلة وتولد كل صباح ، وكان لهذا أثره فى نفس المصرى وجعله يظل على ثقة بأنه هو الآخر يستطيع أن يقهر الموت كما فعلت الشمس وكما فعل النيل ·

كانت الثقـة فى النفس أحـد العوامل التى استقرت فى نفسية المصريين ، انها الشعور بان الشخص واثق فى نفسه وأنه شخص ممتاز ، وكانت هذه الثقة لازمة لتقوية تأكد الفرد من قدرته ، وذلك من شأنه أن يجعل للحياة لذة ، ومن شأنه أيضا أن يجعل الانسان متسامحا ، اذا صادف انحرافا عن الالتزام الشديد لاتباع القـواعد التى يجب اتباعها ·

كان شعور المصريين بأنهم الشـــعب الذى أعطاه الله السـيادة على غيره من الشعوب ·

التفاؤل :

لم تكن روحهم متشائمة ، بل كان على العكس من ذلك ، روحا ممثلة بالنصر المرتجى ، وبالحب القوى لتذوق طعم الحياة ، وانتظار تحقيق ما كانوا يؤملونه من استمرار الحياة فى المستقبل وفى هذا انتصار على فكرة نهاية الانسان بموته ، أو أن هذا الموت مقدر على الناس ليضع حدا نهائيا لحياتهم ، وهكذا كانت الثقة فى النفس والتفاؤل ، وحب الاستمتاع بالحياة سببا فى اصرار المصريين على الحصول على حياة مستمرة خالدة ، بدلا من أن يحصنوا أنفسهم تحصينا قويا ضد الموت ·

٣ ـ فى الثمرة المادية للوحدة :

كانت مصر فى بداية هذه الفترة مقسمة الى جيوب أو قرى صغيرة يعيش أهلها على الزراعة والرعى وتربية الحيوان والصيد فى البر والبحر ومياه النيل والمستنقعات·

فكل قرية تملك أرضها وقوتها وناتج عملها على المشاع ·

وكان ناتج الزراعة والحيوانات المستأنسة يجمع فى أماكن خارج القرية تحت التوزيع للأهالى ·

وكان الجميع يستعملون مياه النيل والطرق البرية فى الانتقال والتجارة ٠

ولكن دوافع الرغبة والرهبة (اضطرت) الناس الى ضرورة توحيد الثروة المصرية لتشمل مصر كلها حتى يحققوا الاستغلال الأمثل للثروات المصرية ولدفع أخطار الفيضان وأخطار قلة الفيضان ٠

ومن هنا تكاتفت الجهود لضم القرى بعضها الى بعض لتشكل دويلة ثم تحاربت الدويلات لتكون دولة فى الوجه البحرى وأخرى فى الوجه القبلى سنة ٤٢٤٠ ق٠م ٠

وعلى ذلك فقد قضى المصريون حوالى عشرين قرنا من الزمان فى محاولات لوحدة مواردهم الاقتصادية ٠

كانت ثروات مصر ، فى ذلك العهد مركزة على الزراعة وفى تربية الحيوان كمورد للغذاء وللكساء ، وفى النيل كمصدر للمياه للشرب وللرى ، وفى ناتج الأرض من طمى وطوب وحجارة للمبانى ، وفى مناجم الذهب والنحاس للزينة وصنع الآلات ٠

كما كانت توجد بقايا الغابات لاستعمال أخشابها ٠

ولم تكن الثروات التى وهبتها الطبيعة للمصريين قطوفها دانية أو سهلة فى استغلالها واستثمارها ٠

كانت الأحراش والمستنقعات وبقايا الغابات منتشرة ويتعين ازالتها لاستعمال أراضيها فى الزراعة ٠

ومن أجل المزيد من الغذاء والأراضى الزراعية كان لابد من تسوية الأراضى وشق القنوات والمصارف والترع وتجفيف المستنقعات والتكاتف لاعداد جسور لمنع أخطار الفيضان واعداد الصوامع والمخازن الضخمة لتخزين الغلال ومنتجات الزراعة ٠

كما كان لابد من تنشيط التجارة لاستبدال الفائض بالسلع التى لا تنتجها البلاد مثل الأخشاب من لبنان وسن الفيل من الجنوب ٠

كانت مصر غنية بثرواتها ولكن كانت بحاجة الى جهد الرجال وعزيمة الرجال وفكر الرجال لاعداد هذه الثروة للاستعمال وللاستغلال وللاستثمار ٠

وكل هذا تحقق بوحدة الشعب حول نظامه المختار وقيادته القدوة حيث صنعت مصر لأول مرة من العدم بهذه الوحدة ٠

(ولقد كانت موارد مصر المادية ضخمة منقطعة النظير فى أزهى عصور تاريخها ، وفيما عدا سنى القحط كانت غلالها وفيرة ومحصولاتها الرئيسية الشعير ونوع آخر من القمح ثم من الخضر والعدس والفول والخيار والكرات والبصل ، ومن الفواكه البلح والجميز والتين والبرساء ــ والى جانبها ــ هبة السماء ــ العنب) ٠

ولقد عرف المصريون بحبهم للزهور وتظهر على نقوش جدران مقابرهم باقات كبيرة تزين موائد الطعام المتخمة بعديد الألوان ، ونرى الضيوف والولائم وهم يقربون اللوتس الى أنوفهم . وتحيط الخادمات رقابهم بعقود من الزهور ·

أما زهرة اللوتس الزرقاء – العطرة – فكانت تنمو – كالزهرة البيضاء – بكثرة في المستنقعات وكانت تلعب دورا له قيمته لدى المعماريين والفنانين . . بصرف النظر عن المتعة الجمالية فى الزهور ودلالتها الروحية كرموز للحياة ، فانها كانت مصدرا للعسل الذى كان يعوض النقص فى قصب السكر · وكان الكتان يزرع بكميات كبيرة وتصنع منه الخيوط التى تنسج الى أرق الأقمشة التيلية . وكان هنــاك محصــول تفردت به مصر هو نبات البردى الذى استخدم فى صناعة الحبال والحصر والصناديق والنعال والزوارق الخفيفة ·· وأهم من هذا كله سيقانه التى كانت تقطع الى شرائح رقيقة يوضع بعضها الى جانب بعض طولا وعرضا وتقرب حتى تصبح الواحا تجففها الشمس ثم يستخدمها الكتاب كأداة ممتازة للكتابة وقد ورثها فيما بعــد اليــونان والرومان ومنها اشتقت الكلمة الانجليزية الدالة على الورق – وأخيرا فهناك شــجرة كان يستخرج منها الزيت تدعى (باق) ·

وكانت هناك فصائل من الحيوانات المستأنسة أولها وأهمها سلالات عدة من الماشية الافريقية وكانت أطيب اللحوم لحوم البقر وكان الثــور حيــوان التضحية الرئيسى الذى استخدم فى الحقول لجر المحراث ·· وترى الأغنام والماعز والخنازير فى نقوش المقابر . ويفخر أصحاب اللوحات الجنائزية (ستيلا) بالعديد الذى كانوا يملكونه من هذه الأنواع وقد استخدمت الماعز – وفى النادر جدا الخنــازير – فى وطء الحبوب ·

وكانت المزارع تزخر بأسراب الأوز والبط ·

واستخدم الحجر الجيرى الرائع المستخرج من مصر الوســطى ، وخاصــة من محاجر طره ، لتشييد كل المعابد والمقابر فى العصور القديمة ·

أما القيمة المعروفة للبازلت الذى يستجلب من الصحراء عنــد قفط فتؤكدها نقوش الصخور عند وادى الحمامات · والى الشمال توجد محاجر عدة كان يؤتى منها بالمرمر ذى اللمعــة نصف الشفافة الذى كانوا يفضــلون استخدامه لصــنع الجرار والأوانى من كافة الاشكال والأحجام ولأغراض البناء الأخرى ، وكان الكوارتز الذى يميل لونه الى الحمرة يستجلب من الجبل الأحمر شمال شرق القاهرة ، وهو أكثر صلابة ويعد من أجمل أنواع الأحجار التى حاول المصريون نحتها بنجاح ·

وعلى مبعدة أربعين ميلا غرب أبى سنبل يوجد مصدر (حجر) الديوريت الذى صنع منه التمثال الرائع لخفرع فى متحف القاهرة – وهناك أحجار أخرى جميلة ، جيء بها ، من تخوم مصر ، مثل البرشيا واليشب والصوان والشمت · والحق أنه لا يوجد فى العالم من كانوا أمهر من المصريين فى معالجة الأحجار ، حتى ليعد الكمال

الذى وصلت اليه الأوانى التى لا تعد وكذا الجرار والصحاف وغيرها مما وجد بالهرم المدرج معجزة تعدل الهرم الأكبر نفسه ٠

فقد استخرجت المواد سالفة الذكر أما من بعض الأماكن فى الوادى نفسه ، أو من الصحراء التى لا تبعد مسيرة يومين ٠ وكان فى استطاعة قوم لهم هذا التنوع من الموارد أن يجروا أضخم الكتل حتى النيل ـ ومع ذلك فانه كان لا يزال هناك بضع مئات من الأميال للوصول الى الموقع المزمع استخدام الحجر فيه ٠ وكان النهر نفسه أكثر العوامل المساعدة فضلا على النظام الاقتصادى المصرى ، ذلك لأن الرحلات البعيدة فى البلاد كانت تتم بواسطة المراكب ، وكان هـؤلاء الأقدمون يبلغـون الدرجة من المهارة فى بناء السفن ، تعدل تفوقهم فى كافة الفنون العملية الأخرى ٠٠ ومع ذلك فان أخشاب بناء السفن كانت ضرورة أولى وكان عدم كفايتها معيبا ولكن الموقف لم يكن بالسوء الذى يصور به أحيانا لأنه رغم أن المناخ فى الوادى لم يتغير خلال خمسة آلاف عام فان مرتبة الكفاية فى الرى قد تغيرت ، وحيث تقوم الآن حقول فقط ، كانت هناك على الأرجح أشجار أكثر مما يرى اليوم ٠٠ ولكن الحـاجة تبـدو واضحة من ناحيـة الكيف لا الكم بالنسبة للأخشاب ، فالنخيـل مثـلا وهو شـائع فى مصر فى مختلف العصور ٠٠ كان تقريبا عديم النفع للبناء اللهم الا لصنع السـقوف كما أن أخشاب نخيل الدوم لم تكن مرغوبة كذلك ، ومن هنـا كانت أهميـة تلك الرحلات الدائمة الى بيلوس (لبنان) ٠ ونصوصنا مليئة بالاشارات الى خشب (عاش) الذى كان يؤتى به من لبنان ، ولكننا نقرأ كذلك عن سفن من السنط صنعت فى النـوبة السفلى بقصد نقل كميات كبيرة من الجرانيت عبر الجندل الأول لاستخدامها فى هرم الملك مرنوع ونحن نسمع فى مناسبة أخرى كذلك عن سفينة تم بنـاؤها على ساحل البحر الأحمر بقصد القيام برحلة الى بوينه ٠

وانا لنعلم منذ عصور بالغة فى القدم أن التملك على الذهب كان يعـد مرادفا للثراء وقد بذت مصر فى تملكه كل جيرانها وكان المعدن النفيس متوافرا فى الصحراء الشرقية ، فى الرمال الفيضية والحصا وكعروق فى صخور الكوارتز على السواء ولم يكن ضروريا على مدى عصور طويلة السعى وراء البحث عنه مبعدين جنوبا من خط عرض قفط ، ولم يحدث ذلك الا حين بدأت الكميات فى المناجم تشح أو أن العمـل أصبح بالغ المشقة والصعوبة ومن ثم انتقل التعدين الى النوبة السفلى وما وراءها ٠ وهناك بردية فى متحف تورينو تتناول بالوصف الطريق الى واحد من أقاليم الذهب وهذه هى أقدم خريطة فى العالم من غير شك ٠٠

وكان النحاس شائع الاستعمال نسبيا حتى قبـل عهـد الأسرات وبعد عصر (مينا) أصبح معدنا لا يمكن الاستغناء عنه يستخدم فى الأدوات والأسلحة ٠

وتوجد خامات النحاس مثل للدهنج والزبرجد فى الصحراء الشرقية ٠٠

وتسجل نقوش كثيرة (فى وادى مغارة وسرابيط الخادم) زيارات الحملات المصرية سعيا وراء الفيروز ٠

ولم تكن توجد بمصر أحجار كريمة بالمعنى المفهوم من هذا الاصطلاح اليوم ذلك انه كان يكفى صناعة الحلى من اللازورد والفيروز والجمشت (الياقوت ، اللاماتست) والعقيق وغيرها وربما كان استخدام هذه الأحجار أقل مبهرة للناظر وان لم يكن أقل جاذبية وذلك أنها كانت لامعة ومصنوعة بمهارة فائقة ـ وقد تم انتاج التزجيج من عصر ممعن فى القدم ويستطيع هواة المجموعات أن يدركوا القيمة العالية للقاشانى الأبيض والأخضر فى مصر . وكان الحصول على الزجاج أقل سهولة بكثير .

وقد كان من الطبيعى فى أرض بها الوفير من الموارد الطبيعية وتتطور فيهـا الحرف سريعـا بهذه الدرجة العالية من الكفاءة .. كان من الطبيعى أن يوجد بهـا الكثير الذى يصلح للمقايضة مع الأجانب .

وكانت التجارة تتم مع السوريين والنوبيين والكريتيون .

وكانت النوبة مصدر الابنوس والعاج الى جانب جلود الفهود وذيول الزراف وريش النعام والقرود ... الخ)(٦٢) .

(ونحن نعرف الكثير عن طعام المصريين وشرابهم فى العصر العتيق (الأسرتين الأولى والثانية) حيث جرت العادة أن يتركوا وجبة أكل بجوار الميت فى مقابرهم .

وفيما يلى بيان لوجبة لسيدة من الطبقة الأقل ثراء (ولك أن تقارنها بمستوى معيشتنا اليوم) .

ولقد شاء الحظ أن نعثر على هذه الوجبة كاملة . فى حالة حفظ كاملة بجوار تابوتها ، وقد بلغت من جودة الحفظ أن تمكنا من التعرف بسهولة على ما كان موجودا فى كل طبق ، ولا يعوزنا الا ادراك الترتيب الذى كان يتبع فى تناولها . وكان بعض الطعام يقدم فى أوعية فخارية خشنة ، وبعضها فى صحون جميلة وطاسات من المرو والديوريت ، ويشير ذلك الى أنواع الطعام التى كانت تؤكل سـاخنة حيث أنه من الطبيعى ان الاناء الحجرى لم يكن بذى فائدة فى تسخين الطعام ، وكانت قائمة هذه الوجبة المتقنة كما يلى :

١ ـ نوع من العصيدة من دقيق الشعير .

٢ ـ سمان مطهى ، نظيف ووضعت رأسه تحت جناحه .

٣ ـ كليتان مطهيتان .

٤ ـ طاجن حمام .

٥ ـ سمكة مطبوخة نظفت وقدمت بعد ازالة رأسها .

٦ ـ أضلاع من اللحم البقرى .

٧ ـ أرغفة صغيرة مثلثة من القمح .

٨ ـ كعك صغير مستدير .

٩ ــ فاكهة مطبوخة ، يحتمل انها تين ٠

١٠ــ فاكهة نبق طازجة من شجرة السدر ويشبه الكرز ٠

وكانت هناك مع هذه الوجبة أوان صغيرة تحتوى على نوع من الجبن كما كانت هناك أوان فخارية كبيرة للنبيذ وربما كانت للجعة ٠ وندرك من الصور التى توجد على لوحات من الأسرة الثانية أن الأوز كان أيضا يؤكل)(٦٣) ٠

وكانت الحبوب والسمك واللحوم اهم الأطعمة ، وقد عثر على بقية نقش يحدد ما يسمح للتلميذ أن ياكله ويشربه وقد ذكر فيه ثلاثة وثلاثون نوعا من لحم الحيوان والطير ، وثمانية وأربعون صنفا من الشواء ، وأربعة وعشرون نوعا من الشراب ٠ وكان الأغنياء يبلعون طعامهم بالنبيذ والفقراء بشراب الشعير المخمر (٦٤) ٠

وكان لحم الخنزير محرما أكله وكان أكل الفول مكروها من المصريين (وقارن ذلك بحالنا اليوم)(٦٥) ٠

(وكانت وجبات الطعام ثلاثا وكانوا يتناولون الطعام قبل التعرف على الموائد المرتفعة وهم جلوس على الأرض وكان الطعام يوضع على الحصير ، وحين حلت الموائد المرتفعة محل الحصير أو الموائد الخفيفة (الطبلية) اقتعدوا كراسى يتناسب ارتفاعها مع ارتفاع الموائد ٠٠ وكانوا يغسلون أيديهم قبل تناول الطعام وبعده ويستخدمون لذلك ابريقا وطشطا ٠

وكان الطعام الرئيسى الخبز وكان الشراب الجعة ٠٠ وكانت مؤونة الشخص اناءين من الجعة ورغيفين أو ثلاثة أو أربعة وكذا بعض الخضر وقطعة أو قطعتين من اللحم ان كان ذلك ميسورا ولم يمنع هذا الوانا من الترف لا تقل عما نطعمه اليوم ٠

ولعل الذ الأطعمة لديهم كان الأوز المشوى الذى تظهر له صور كثيرة ، وكان الخبز من أنواع وأشكال عديدة كما كانت الأنبذة كذلك من درجات متفاوتة)(٦٦) ٠

(وكان المصريون القدماء اذا أرادوا انشاء مدينة جديدة ، وضع لها المهندسون رسومات تبين شوارعها ومنازلها المختلفة ، وكنت الشوارع مستقيمة لا عوج فيها ومتوازية ، كما نراها فى مدينة اللاهون ، التى يرجع تاريخ انشائها الى عصر الأسرة الثانية عشرة ، وكانت منازل المدينة تختلف فى عدد حجراتها وسعة كل حجرة ،اذ كانت تتراوح بين أربع حجرات وستين حجرة ، كما كانت المنازل التى تحيط بكل شارع تختلف باختلاف الشوارع ، اذ كانت منازل كل شارع ذات حجم واحد ، كما كانت الشوارع تختلف فى طولها ، فكان فى مدينة اللاهون شارع طوله ٦٢ قدما يشرف عليه منزلان من كل جانب ، وآخر طوله ٢٣٠ قدما يشرف عليه ثمانية منازل من كل جانب وتسعة من الجانب الآخر ، وكان طول الشارع الرئيسى الذى تشرف عليه القصور الكبيرة ٩٠٠ قدما ، وكان يشرف على كل جانب من جوانبه ثمانية قصور فخمة ٠

وكان يتراوح عرض الشوارع بين ١١ و ١٢ قدما ، وكان فى وسط كل شارع قناة أشبه بالقناة التى كانت تشق فى الشوارع الانجليزية ، مبنية بالأحجار ومخصصة لتصريف المياه ٠

ولقد كان أبسط المنازل يتكون من فناء مكشوف مواجها لمدخله ، وحجرة عامة واحدة فى جانب . وفى الجانب الآخر المواجه حجرتان للتخزين . وسلم موصل الى السطح ٠

ولقد كانت البيوت المخصصة للفنيين من الصناع والمشهورين منهم بخاصة . أكثر اتساعا ، ويشتمل كل بيت منها على فناء مكشوف وأربع حجرات مفتحة أبوابها عليه . وتتصل بخمس حجرات أخرى . وكانت الحجرات جميعها مسقوفة بقوائم (عروق) من الخشب من فوقها عيدان الذرة وسيقان الغاب ، وكان لبعض تلك الحجرات سقوف مقبية من اللبن . وكانت مداخل جميع الأبواب معقودة أما سلمها فكان يتكون من مجموعتين من الدرجات عدد كل مجموعة منها اثنتا عشرة درجة ، وبينهما بسطة . وكان عرض كل درجة ٢٧ بوصة ، وكانت احدى حجرات البيت تخصص لطهى الطعام ٠ وكانت الأبواب وعتباتها تصنع من الخشب ٠

وكانت فى البيوت الكبيرة صوامع مخروطية الشكل لحفظ الغلال يبلغ قطرها نحو ستة أقدام وسمك حوائطها سمك قالب من اللبن ، وكانت تلك الصوامع تبنى بحيث تكون قريبة بعضها من بعض) ٠

(أما الأثاث كما يبدو من النماذج الخاصة بالأسرات التاسعة والعاشرة والحادية عشرة . فكان يتكون من أريكة طويلة ومقعد فى الطابق العلوى من المنزل ، ليجلس عليها أهله للتمتع بالنسيم البارد المنعش . وعلى حامل تصنف عليه جرار الماء وأكوابه، ورحاة لطحن الغلال كانت توضع على قاعدة فى أسفل ، وفى حجرة النوم مقعد يستخدم للراحة والاستجمام . يرتكز على غصن ذى شعب ، مثبت فى احدى حوائط الحجرة ٠

وكانت المدافىء فى عهد الأسرة الأولى من الفخار ، وكانت حافاتها مرتفعة لمنع الرماد من التبعثر ، وكان لبعضها حافة مصنوعة على هيئة أفعى ملتوية حول نار موقدة كما تفعل الثعابين التى تاوى الى المنازل ٠٠

وكانوا يتمسكون بالنظافة تمسكا شديدا ، وكانت ملابسهم ، وملابس الكهنة بوجه خاص من الكتان (التيل) لأن الملابس الصوفية كانت فى ملتهم واعتقادهم مرتعا خصبا للهوام والحشرات ، وكانوا يحرصون على غسل ملابسهم فى فترات قصيرة وبعناية خاصة) ٠

كما كانوا كثيرى الاستحمام ويحلقون شعر الرأس كما (كانت عملية غسل الملابس من الأعمال المنزلية التى استحقت فى نظر القدماء تصويرها بالتفصيل على جدران المقابر ٠

وقد كان المصري شديد العناية بآداب المائدة ، فقد ورد فى سفر التكوين من التوراة أنه كان لكل من كبار الموظفين المصريين ، وعامة الشعب طريقتهم الخاصة فى تناول الطعام وفى هذا يقول حكيم الدولة القديمة بتاح حتب (اذا كنت من بين الجالسين على مائدة من هو أكبر منك مقاما ، فخذ ما يقــدم لك ، ولا تأكل الا مما يوضــع أمامك ، ولا تطيل النظر الى ما وضع من طعام أمام غيرك ـ لأن ذلك مما تشمئز منه النفوس ـ وانظر بمحياك الى أسفل الى أن يحييك المضيف)(٦٧) ٠

واستمتع القادرون بممارسة هواياتهم فى الصيد والقنص والاستماع الى الغناء والموسيقى ومشاهدة الرقص واقامة الحفلات والولائم كمــا شارك جميع الناس فى الأعياد والمواكب القومية ٠

كما مارسوا الألعاب الرياضية وألعاب الحظ والفكر ٠

وأيا كانت الرفاهية التى تمتع بها الأثرياء فهى لم تكن مغلقة عليهم وحدهم ، بل كان لأى فرد من الشعب أن يترقى بعمله وبجهده ، ليصل الى مستواهم ، (ويمكننا أن نتتبع ترقى بعض هؤلاء العصاميين وصــعودهم درجــة درجــة فى السياسة وفى المجتمع ٠ مثل حالة (أونى) السابق عرض سيرته ضمن قيادات مصر القــدوة فى هذه المرحلة ـ ولقد بدأ خدمته فى وظيفة متواضعة وهى وظيفة مشرف على الممتلكات الخاصة بهرم الملك ، وكان مسئولا عن قطع الأحجار ونقلها لبناء الهرم . ثم أصبح بعد ذلك القاضى الأوحد الذى كلفه الملك بالفصل فى احدى القضايا الهامة التى كان بعض نساء حريم الملك متهمات فيها ٠ ثم ارتفع حتى أصبح القائد لاحدى الحملات الحربية التى أرسلها الملك الى آسيا ، ولم يقف عند هذا الحــد بل أصــبح حاكما للوجه القبلى ، وكان مسئولا عن نقل السلع والضرائب فى نصف المملكة وأنهى حياته بعد أن نال كل تشريف ممكن كأحد رجال البلاط وكمؤدب لأبناء الملك ٠٠) ٠

وفى عصر الفترة الأولى (عقب الثورة الاجتماعيــة) كن الكبــار يفخرون أنهم بدأوا حياتهم كرجال من العامة(٦٨) ٠٠

ويلاحظ ان الجانب الأكبر من الناس . كان يتلقى أجره عينا من الحكومة ٠

ولكل على حسب عمله واجتهاده ٠٠٠

(وكان عدد السكان يتراوح بين ستة ملايين واثنى عشر مليــونا وفقا لمــدى كفاية السلطة المهيمنة على شئون البلاد)(٦٩) ٠

(أما عند غزو الفرنسيين لمصر سنة ١٧٩٨ م فقد أصبح تعداد السكان مليونين ونصف ويستمتع الأجنبى بكل الخيرات دون المصريين ٠

وتتفشى فيهم الأوبئة وخاصة الطاعون الذى كان يفنى قرى بأسرها(٧٠) ٠

٣ ــ فى الثمرة الفكرية والحضارية للوحدة :

(ان مصر ، فى عصورها القديمة ، تيسرت لها عزلة ناعمة كأية دولة أخرى نرزق حسن الطالع حتى نستطيع أن تطور ثقافتها الفردية العالية ــ ولم تقلل هذه الظروف المسعدة من فكرتها الطيبة عن ذاتها ، فقد كان المصريون يعدون أنفسهم (الرجال) الحقيقيين وحدهم ، ويقول الكاتب (المصرى) القديم وهو يصف الآسيويين الذين يقطنون جنوب فلسطين (عامو التعساء ، ان سوء الطالع يحل حيث يكونون، ان بلادهم متعبة فيما يتصل بالماء ، شاقة بسبب كثرة الأسحار ، انها وعرة الطرق بسبب الجبال ٠٠ وانه لا يستقر فى مكان واحد ، بل يطرد الى خارجه بسبب الحاجة ٠٠ فقدماه دائمتا الحركة ، انه يقوم بالمعارك منذ عهد حورس ومع ذلك فانه لا ينتصر مطلقا وهو كذلك لا يغلب (٧١) ٠

(وخلق الاحساس بالطمأنينة فى نفس المصرى العادى احساسا بأن له كثيرا من الحرية الشخصية) (٧٢) ٠

وهذه الحرية فى الفكر وفى التعبير وفى التصرف فى اطار (الماعت) الذى آمن به المصرى وقدسه هى التى أتاحت لفجر العلم بالظهور فى مصر ٠

يقول فارنجتون (ان متبع العلم هو التجربة ٠٠ وهذه التجربة هى محك نجاحه ٠ والعلم ينشأ من خلال الاتصال بالأشياء وهو يعتمد على أدلة الحواس)(٧٣)٠

كما يقول جورج سارتن عن فجر نشأة العلوم فى مصر (ما هو العلم ؟ أليس من حقنا أن نقول كلما حاول الانسان حل معضلة بطريقة منهجية وفقا لترتيب سابق أو خطة اننا أمام منهج علمى)(٧٤) ٠

كما يصف هيرودوت المصريين بقوله (ولقد اكتشف المصريون من علامات الغيب أكثر من الشعوب قاطبة وذلك لأنه كلما حدثت معجزة خارقة ، راقبوا نتيجتها وسجلوها ٠ فاذا ما حدث شىء مشابه بعدئذ ، ظنوا أن عاقبته ستكون شبيهة بالأولى (٧٥) ٠

وهذا هو العلم الذى يقوم على التجربة والملاحظة ويضع الحلول للمعضلات بطريقة منهجية ٠

ولقد سادت الروح العلمية الشخصية المصرية طوال هذه المرحلة ٠

فبهذه الروح العلمية ، العملية ثم انشاء مصر من العدم ٠

(ولقد وصلت مصر فى أيام الدولة القديمة ، الى ذروة قوتها المادية والعقلية ، وستقوم مصر فى المستقبل بأعمال عظيمة تضيفها الى مجدها ، ولكن كل ما ستفعله لن يكون مثل الذى فعلته الفترة السابقة من تاريخها ، أى لن يوجد فيه نفس الرصانة والثقة فى النفس ٠٠

امتازت الدولة القديمة بالقوة وحسن تنفيذ الأمور والجرأة ، وهى أكثر العصور التى تحوز اعجابنا ، لأنها تمثل الروح المصرية الخالصة ، وذلك لأن المصريين القدماء فى

ذلك العهد ، كانوا يحاولون تنظيم طريقة حياتهم · وكان يسودهم شعور بالاطمئنان، وهو شعور لازم لنضوج الحضارة ، اذ لم تتعرض حدودها لأى خطر خارجى فى ذلك العهد . أو تصبها حروب داخلية · وكان من أشد العوامل أثرا ذيوع المبدأين العملى والمادى ، اذ حقق المصرى لنفسه ما أراده من قوة ، فاستولى عليه الشعور بالكبرياء ، واحس أنه من القوة بما يمكنه من مكافحة الدنيا بأسرها)(٧٦) ·

وفى هذه المرحلة لم يبدأ الأجداد فى اكتشاف الكثير من العلوم والمعارف فحسب ، بل قطعوا شوطا بعيدا فى الطريق الذى مازال العالم يسير فيه حتى الآن·

ويتفق العلماء على أن الشعب المصرى هو أول شعوب العالم فى اكتشاف الكثير من المعارف العلمية ــ وأن فجر العلم قد نشأ على أرض مصر بالذات بينما باقى شعوب العالم كانوا على بداوتهم وعلى فطرتهم البدائية بصفة عامة ·

وأعظم ما قام به الأجداد من جهود حضارية هو اختراع الكتابة التى لولاها لاستمرت البشرية فى بداوتها الأولى لآلاف السنين ·

ثم بلغ اختراع الكتابة قيمته الاجتماعية عن طريق اختراع آخر ، وهو ايجاد مادة صالحة للكتابة ، مع سهولة الحصول على هذه المادة بثمن فى متناول الأيدى وذلك بدلا من النقش على الحجر كما كانت الحال فى بلاد اليونان لعدة قرون ·

وقد تغلب المصريون على ذلك باختراع ورق البردى الذى لا زال اسمه دليلا على الورق فى كثير من اللغات الأوربية كما استمرت مصر تحتكر صناعة الورق وتصديره لدول العالم لقرون طويلة حتى انه كان من ضمن أسباب غزو الاسكندر المقدونى لمصر سنة ٣٣٢ ق·م الرغبة فى الحصول على الورق المصرى للكتابة بعد أن قل وروده من مصر ·

ولصفاء جو مصر ولطافة طقسها المنعش فى أثناء الليل ، انطلق الناس الى التأمل فى حركات الاجرام السماوية الى أن توصلوا الى الكثير من علوم الفلك ·

كما ساعدهم فيضان النيل السنوى على التعرف على التقويم السنوى ·

وتتضح قدرة الأجداد فى الفلك لا فى تقويمهم ، ولا من جداول عبور النجوم خط الزوال ، ولا من جداول ظهورها فحسب ، بل من بعض أدواتهم الفلكية ، من المزاول الشمسية البارعة وتركيبة المطمار على العصا الفرجونية التى مكنتهم من تحديد سمت البداية ·

وفى مجال العمارة والهندسة ، فان الأبنية الضخمة (كالأهرامات) والتى أقيمت منذ ٤٩ قرنا مضت تثير مشاكل فنية متعددة ، فلا يزال مما يحير الفكر مثلا كيف تمكن المعماريون أيام خوفو من ابتكار تصميم هذا البناء ، وكيف تمكنت رعيته من اقامته ·

ذلك أن أدواتهم الهندسية ـ بالغة ما بلغت من التقدم بالقياس الى أدوات الشعوب المتأخرة ـ كانت بدرجات كثيرة دون الادوات المستعملة حاليا ·

وتوجد (معجزات) أخرى يصعب تفسيرها . ذلك أنه من السهل أن نتحدث عن حشد ٣٠ ألف رجل للقيام بعمل شاق (كبناء الهرم الأكبر) ولكن كيف حدث ذلك بالضبط ؟ ان عدد الرجال الذين يمكن حشدهم للافادة منهم في عمل معين في مكان محدود يتطلب أن يكون عددا محدودا . ومع التسليم بأن من المستطاع أن تستخدم عددا كبيرا ـ عشرات الآلاف مثلا ـ من العمال معا في وقت واحد فان الاشراف على مثل هذه الاعداد من العمال يحتاج الى مهارة كبيرة وتدبير . كما ان اطعامها من جوع وسد حاجاتها الأخرى يستلزم خبرة ادارية ومهارة بالغة في شئون التموين سواء أكانت القوة اللازمة لعمل من الأعمال مستوردة من محرك آلى أم من كتلة بشرية ، فان ترتيب هذا العمل وتنفيذه يتطلب معرفة وذكاء وتنسيقا بين العمل والعمال ··

ولقد وضع الأجداد أقدم مؤلفات رياضية معروفة وكانوا أول من صنع الزجاج كما كانوا من الرواد الأول في صناعة المنسوجات وغيرها(٧٧) ·

وما يهمنا ابرازه في هذا المجال هو ازدياد نشاط الافراد واحساسهم بالحرية في الفكر والتعبير وسيادة الروح العلمية قوية ومبدعة لكل جديد وبدون أى قيود ·

ويذكر هيرودوت في تاريخه عملا هندسيا ضخما قام به (مينا) وهو تحويل مجرى النيل (مينا هو أول حاكم على مصر وهو الذى أوجد موقع منف بتحويل مجرى النهر ·· ولكن مينا ـ بادئا من أعلا ـ كون بوساطة السدود الحنية التي تقع الى الجنوب من منف بمقدار مائة سنار (= ٦٠٠ قدم = ١٨٥ر٣ متر) وهكذا جفف المجرى القديم ، وحول النهر عن طريق قناة حتى يجعله يفيض بين الجبال ··

وتحويل مجرى نهر في حجم النيل يبين أن المصريين في عهد الأسرات كانوا قوما قد بلغوا من التقدم في العلوم الهندسية حدا كبيرا لم يسبقهم فيه أحد ·



الباب الرابع

فى عوامل الفرقة فى أواخر الدولة القديمة

حدث ما جعل الشعب المصرى يقوم بأول ثورة عرفتها البشرية فى نهاية الأسرة السادسة حيث حطم وأحرق ما قدر على تحطيمه من منشآت وأوراق وضرب بكل القيم الدينية المتوارثة عرض الحائط مما سنتكلم عنه بالتفصيل بعد ذلك ٠

ولكن هذه الثورة لم تكن وليدة وقتها فى نهاية الأسرة السادسة (٢٢٠٠ق٠م) ولكن أسبابها الحقيقية ترجع الى ما قبل ذلك . أى الى عام ٢٥٦٠ ق٠م من أواخر الأسرة الرابعة التى بنى أبطالها الأوائل اهرامات الجيزة ٠

وترجع أسباب الثورة الى عوامل اقتصادية والى الصراعات الدينية والسياسية ٠

أى لمخالفة (الكبار) للماعت ٠

والماعت تعنى طاعة النظام (المختار بالتقاليد ثم أصبح مقدسا) بصدق وبصراحة وبأمانة وبعدالة فاذا حاد الملوك عن ذلك خرج الشعب عليهم ويراجع فى ذلك ما ذكرناه عن الماعت ص ٢٧ ٠

ونذكر فيما يلى أسباب الثورة :

١ ـ فى الأسباب الاقتصادية :

ان أول ما يلاحظ فى أسباب الثورة وفرقة الشعب المصرى عن قياداته هو النواحى الاقتصادية اذ أنها بطبيعتها . أول منبه للثورة ٠

ولما كان الشعب يحصل على مقابل عمله عينا من الحكومة سواء على شكل حبوب ولحوم ومنسوجات ومشروبات وغيره ٠

فان أى اقلال فى هذه الأجور سوف يتأثر الناس به فورا وذلك بعكس حالة ما اذا صرف للناس أجورهم نقدا ٠

اذ فى هذه الحالة يمكن للعامل ، ان قل أجره ، أن يستبدل سلعة بأخرى أرخص منها ٠

أما فى حالة الاقلال من الأجور العينية المنصرفة فهذا وضع يثير المشاكل بطريقة فورية ٠

والذى حدث أن القوم . وكان هدفهم الخلود دائما ، قد استزادوا من الأسباب والوسائل المادية المؤدية الى الخلود كما دخل كل من شغل منصبا كبيرا فى تكلفة الدولة فى الاعداد للخلود وعلى حساب أقوات وأرزاق القاعدة الشعبية ٠

ـ كما حدث التطاحن بين الكبار على المناصب وعلى المادة وبأى وسيلة ـ

ففى العصر السابق ، عندما كانت المركزية قوية الجانب ، كان الملك وحده هو الذى يتوقع أن ينال أتم أنواع الحياة فى المستقبل لأنه كان الها ، وسيستمر فى ألوهيته ، أما خلود النبلاء والفلاحين ومدى نجاح حياتهم المقبلة ، فقد كان موقوفا فى جميع الحالات على صلتهم بسادتهم فى الحياة الدنيا واستمرارهم فى خدمتهم فى الحياة الأخرى ·

ولقد ظل الملوك يشيدون أعظم المقابر لأنفسهم ثم يقوم كل جيل منهم بتشييد مقبرة أعظم مما سبقها من المقابر مع وقف غلات الكثير من الأراضى للانفاق على الطقوس الدينية لهذه المقابر وعلى معابد الآلهة ·

وكان هذا كله ، رغم قسوته على الاقتصاد القومى ، ينفق وعقيدة السلف ·

وعلى سبيل المثال ، أصدر الملك (بيبى الأول) من الأسرة السادسة بالنيابة عن سلفه الملك (سنفرو) مؤسس الأسرة الرابعة ، أمرا ملكيا لصالح مدينتى هرميه ، أى بشأن القرى الزراعية التى كانت تمد هرمى سنفرو بالرجال والمال للصرف منها عليهما : (أمر جلالتى بأن تعفى هاتان المدينتان الى الأبد من أداء أى عمل للقصر . ومن أى عمل بالقوة ، لأجل المقر الملكى الى الأبد ، ومن أى سخرة يأمر بها أى انسان الى الأبد) ·

ويستمر الأمر الملكى بعد ذلك فيعطى أمثلة لأنواع الابتزاز التى يمكن ان نطلب من هاتين المدينتين ، ويذكر الأشخاص والأملاك ، والخدمة التى يجب حمايتها من هذا الابتزاز ، فقد أعفاهم من تأدية أى خدمة لشخصه أو للعائلة المالكة أو لموظفيه · وعلى هذه الصورة كانوا يحرمون الدخل القومى لمصر من أراضى وأشخاص ، كانوا ملكا لملك عاش قبل ٣٥٠ عاما ، وكأن (بيبى الأول) كان يثبت قسوة يد الموت ، التى كانت عبئا ثقيلا على كاهل البلاد ·

ولدينا مثل آخر من هذه الأوامر الملكية ، بخصوص الاعفاءات الكثيرة التى منحت لمعبد الاله مين فى قفط ، فى الوجه القبلى (رئيس ووكيل ورئيس كهنة الاله مين فى قفط) · وجميع عبيد الأرض العاملين فى بيت مين ، وسدنة المعبد واتباع وحراس مين وعمال المصنع ، ومهندسا المعبد اللذان يقيمان هناك . لا يسمح جلالتى أن يطلب منهم أى شىء للملك (يعنى للحكومة) . وكذلك قطعان الماشية ، أو أسراب الحمير ، وقطعان الماشية الصغيرة ، أو يطلب اليهم تأدية عمل لبعض الوقت ، أو عمل قهرى يسأل عنه معبد الى الابد ، انهم معفون من أجل مين سيد قفط ، ابتداء من اليوم ، وهو شىء جديد صدر بأمر من ملك الوجه القبلى والوجه البحرى (بيبى الثانى) (من الأسرة السادسة) الى أبد الآبدين · أما فيما يتعلق باى حاكم للوجه القبلى يجرؤ على استدعائهم الى مكتب ادارة الملفات الملكية أو الى مكتب رئيس المراجعة . أو الى أى مكتب فيه ختم (رسمى) ليفرض عليهم عملا للقصر (المقصود للحكومة) فانه شخص حلت عليه اللعنة ، وتحق عليه كلمة الخيانة)(٧٨) ·

والمفروض ، حسب عقيدة السلف ، أن تستمر مقابر الملوك واهرامهم خالدة أبد الدهر وان يستمر تموينها بالمواد الغذائية وتقديم القرابين والانفـاق على المـواسم الدينية الى الأبد .

ومن هنا لم يتكلف الاقتصاد القومى تكاليف اقامة هرم ضخم لكل ملك جديد مع التجهيزات اللازمة لحياة مخلدة مرفهة . بل أيضا فى رصد غلات ما يوقف من أراض ومصانع لهذه المقابر فضلا عن تكاليف ما يوقف من أراض ومنشآت للانفاق من انتاجها على معابد الآلهة .

ثم بدأ يشارك الملوك فى هذه التكاليف والأعباء الملكات والنبلاء وعلى حسـاب أقوات الناس بطبيعة الحال .

ولقد كان واجب كل ابن بأن يجهز معدات أبيه المادية للحياة الآخرة ــ وكان واجبا يحس به بصفة طبيعية عامة ــ حتى انه أخذ طريقه ــ بصفة غير اختيارية ــ من حياة الشعب الى الأسطورة الأوزيرية كواجب حورس نحو أبيه أوزيس ــ لقـد كان التزاما يقابل بالوفاء حتى فى وجه أى عقبة أو خطر عظيم ، كما حدث عنـدما وصـــل الى (سابنى) ــ مواطن (جزيرة فيلة) ــ نبأ موت أبيـه (ميخو) فى السودان ، وسرعان ما ارتحل مع حرس من الجند ليتوغل فى قطر القبائل الجنوبية الخطرة وينقذ جثمان أبيه .

وكان الدافع بطبيعة الحال لمثل هذه التضحية الذاتية هو الرغبة فى استرداد جثمان الأب حتى يمكن أن يحفظ ويصان ، لكى لا يفقد الرجل الهرم كل أمل فى حياة الآخرة . وعلى هذا فقد حدث أنه عندما اقترب الابن من التخم فى عودته ، انه بعث رسلا الى القصر يحملون أنباء ما حدث ، ولذلك فانه عندما دخل مصر العليا راجعا ، قابله لفيف من القصر يتـألف من محنطين وكهنـة جنازيين ونائحين يحملون الزيت ذكى الرائحة والصموغ العطرية والتيل الرقيق حتى يمكن القيام بمراسم التحنيط والدفن كلها ، وكذلك المعـدات الـكاملة للآخرة . فى الحـال ، قبل أن يأتى على الجثمان مزيد من تلف .

وكانت اقامة القبر واجبا واضحا على الأبناء والأقارب ، الا اذا كان ذلك الابن، فى الواقع ، وثيق الارتباط بأبيه الراحل ، وكان يريد أن يكون مثواه فى قبر أبيه كما يخبرنا شريف من القرن السادس والعشرين ق.م أنها كانت رغبته . انه يقول (والآن عملت على وجـوب دفنى فى نفس القبر مع جاو (اسم أبيـه) ، هذا حتى أستطيع أن أكون معه فى نفس المكان ، وليس سبب هذا ، اننى لم أكن فى موقف يسمح لى بعمل قبر آخر ، ولكن فعلت هذا حتى يمكننى أن أرى جاو هذا كل يوم ، حتى يمكن أن أكون معه فى نفس المكان) .

ان هذا الابن التقى يستطرد (لقد دفنت أبى الشريف جاو ، الذى يفوق بهاؤه وصلاحه بهاء وصلاح أى ند له) .

ومنذ القرن الرابع والثلاثين قبل الميلاد ، كما يتبين من قبور الأسرة الأولى فى أبيـدوس ، كان قد أصبح من المعتـاد أن يدفن الموظفين المقربين وأشياع فرعون فى الجبانة الملكية ، وبذلك يكونون نوعا من الحاشية الجنازية حول الملك الذى كانوا قد خدموه فى الحياة ٠

وعلى التدرج ، أصبح الملك يتورط تورطا شديدا لا ينى يتزايد فى التزامات معينة ليعاون اشرافه على تشييد قبورهم وأن يضيف من الخزانة الملكية الى بهاء جنازاتهم وانجازها على وجه الكمال (وبالمخالفة للماعت) ٠

ان طبيب الملك المقرب اليه ، يتسلم من الملك أمرا الى الخزينة والمحاجر الملكية للقيام بما يتطلبه من عمل ونقل ، امداده بباب وهمى عظيم غالى الثمن ، مصنوع من الحجر الجيرى الضخم ، لقبره ٠ وينبئنا بالواقعة فى رضى عظيم وبتفصيل كثير فى نقوش قبره ٠

اننـا نرى (الملك) فى المحفة الملكيـة على الطريق الصـاعد من الوادى الى الهضبة الصحراوية التى ارتقى عليها ليجرى التفتيش على هرمه الذى يرتفع الآن فى بطء على حافة الصحراء التى تشرف على الوادى ٠ وهنا يعثر على قبر (دبحن) غير التام ، وكان (دبحن) هذا أحد مقربيه وربما كان قد خطر له فى لحظة رضى ملكى أن يلفت النظـر الى حالته غير التامة . وفى الحال يعين الملك خمسـين رجلا للعمل فى القبـر ٠

وبعد ذلك يأمر المهندسين الملكيين ورجال المحاجر الذين يعملون فى معبد على مقربة ، ليجلبوا (لدبحن) سعيد الحظ ، بابين وهميين من الحجر وكتلا لواجهـة القبر ، وكذلك تمثالا (لدبحن) على شكل صورته ، ليقام هناك ٠

ويخبرنا أحد زعماء الأشراف فى ختام القرن السـابع والعشرين ق٠م٠ فى ترجمته الذاتيه ، كيف لقى انعاما مماثلا (لقـد التمست من جـلالة الملك أن يحضر لأجلى (ناوسا) من الحجر الجيرى من طره « المحاجر الملكية » وقد أمر الملك بأن يعبر أمين خزانة الاله (أمين خزانة الملك) الى هناك ومعه فصيلة من البحارة تحت امرته ليحضر لى هذا الناوس من طره ، وقد وصل به فى مركب عظيم يملكه القصر « أى احدى السفن العظيمة الملكية التى تسير بالمجاديف ، ومعـه غطاؤه والبـاب الوهمى ولوح قرابين » ٠

وفى مثل هذه الحالات ، وفى الواقع حدث هذا كثيرا ، كان المتوقع من الملك أن يقدم معونة لتحنيط ودفن شريف مقرب ٠ ولقد رأينا كيف أن (الملك) أرسل لفيفا من موظفيه الجنازيين والكهنة والمحنطين لمقابلة (سابنى) وهو عائد من السودان بجثمان أبيه ، وعلى هذا المثال ، أرسل أحد قواده لانقاذ جثمان شريف ، عاثر الجـد كان قد قتله ــ هو وحرسه العسكرى عن بكرة أبيهم ــ البدو المقيمين على شـواطىء البحر الأحمر بينما كان يشيد مركبا لأجل الرحلة الى بنط ، الساحل الصومالى) ٠

ومن الواضح أن (الملك) كان يريد الحصول على جثمان هذا الشريف أيضا حتى يجهز على الوجه الصائب للآخرة ، ومثل هذه العناية الفائقة لا يمكن الا أن ترجع الى صلة الملك الشخصية بموظف مقرب ٠

ان هذا جلي تماما في حالة (واش فتاح) أحد وزراء الأسرة الخامسة حوالى ٢٥٦٠ ـ ٢٤٢٠ ق٠م ، فقد كان الملك واسرته والحاشيه يوما يفحصون بناء جديدا أثناء تشييده تحت اشراف (واش فتاح) لأنه بالاضافة الى أنه وزير ، فانه كان المهندس المعماري الأكبر ٠ واذ الكل يعجبون بالعمل ، ويستدير الملك ليثني على وزيره الأمين فيلحظ أن (واش فتاح) لا يسمع كلمات التعطف الملكي ، وتبعث صيحة الملك الفزع في رجال الحاشية ، وسرعان ما يحمل الوزير المصاب الى القصر ، وفي عجل يستدعى الكهنة وكبار الأطباء ٠ ويأمر الملك باحضار عقارات طبية ولكن كل شيء لا جدوى منه ، ويعلن الأطباء أن حالته ميئوس منها ٠ ويلم بالملك حزن ويأوى الى غرفته حيث يقدم الصلاة الى (رع) ، ثم بعد ذلك يتخذ كل الاجراءات لدفن (واش فتاح) ويأمر بصنع تابوت الأبنوس وبأن يمسح الجثمان بالطيب في حضرته ، ثم وكل أكبر أبناء الشريف المتوفى اقامة القبر الذى جهزه الملك وأجرى عليه وقفا ٠

ان الشريف الذى أراد ابنه التقى أن يكون مثواه في نفس القبر معه (ص ٧٤) كان يستمتع بنفس العطف على يدى الملك ويقول ابنه (لقد التمست ، كتكريم من جلالة سيدى ملك مصر ، بيبي الثاني الذى يعيش الى الأبد (الأسرة السادسة) أن يجلب تابوتا وملابس وعطر أعياد لأجل (جاو) هذا (أبيه الميت) ، وقد أمر جلالته بأنه يجب على حارس الأملاك الملكية أن يحضر تابوتا من الخشب ، وعطر أعياد ، وزيتا ، وملبوسات ، ومائتي قطعة من تيل من أجود صنف ومن تيل الجنوب الرقيق ٠٠ تؤخذ من البيت الأبيض (الخزانة الملكية) التابع للقصر ، لأجل جاو هذا) ٠

ولما كان دفنه ، على هذا النحو ، في بهاء ملكي وقد جهز بالأثاث غالى الثمن فان القيام على حاجات الراحل من الوجهة النظرية ، على الأقل خلال الزمن بطوله ، كان مسئولية لم يجسر على أن يكلها بصفة شاملة الى أسرته الباقية على قيد الحياة ، أو في نهاية الأمر ، الى خلف لابد أن اهتمامهم بشأنه يستمر في التناقص وأخيرا يتوارى بكليته ٠ وعلى هذا فان الشريف كان يقوم بوضع وصايا مبراث في عناية ، ويرصد أوقافا بوصية يخصص دخلها بصفة شاملة للمحافظة على القبر وتقديم الطهور من البخور والطيب ، والطعام والشراب والملابس في كميات وفيرة وفي فترات متعددة ٠ ويمكن أن يكون مصدر هذا الدخل ما تغله أراضي الشريف الخاصة أو ايرادات وظائفه والحقوق التى ترتبط بمرتبته التى كان يمكن أن يحول منها كلها ـ بصفة دائمة ـ نصيبا للقيام على حاجات القبر وفروضه ٠

وفي عدد من الحالات ، نقشت الوثيقة القانونية التى تقرر هذه الأوقاف ، كضمان لصونها ، على الحائط الموجود داخل مصلى القبر نفسه ، وعلى هذا حفظت

لنا ، وفى أسيوط يرك حبجيفى ـ أحد نبلاء الأقاليم ـ عشرة عقود مفصله على الحائط الداخلى فى مصلى قبره ، الغرض منها ادامة الخدمة التى كان يريد أن يؤديها بانتظام فى القبر أو تؤدى نيابة عنه ·

وكان مقدار الوقف ـ احيانا ـ عظيما لدرجة تدعو الى العجب ·

وفى القرن التاسع والعشرين ق·م· رصد على قبر الأمير (نى كاورع) ابن الملك خفرع من الاسرة الرابعــة ، من ثروة الامير الخاصــة ، لا أقل من اثنتى عشرة مدينة كان يصرف دخلها بصفة شاملة للقيام على مطالب القبر · ولقد عين وكيلا فى القصر فى زمن (اوسر كاف) فى (الاسرة الخامسة) ثمانية كهنة جنازيين لخدمة القبر . ورصد شريف من مصر العليا ، بعد ذلك بقرنين ونصف قرن لقبره ، دخــل احدى عشرة قرية وضيعة · وكان دخل كاهن جنازى فى مثل هذا القبر فى احدى الحالات ، يكفى لمعاونته على رصد وقف على قبر ابنته ، بنفس الطريقة ، وبالاضافة الى مثل هذه الموارد الخاصه ، فان موت شريف كان يترتب عليه فى الغــالب مزيد من فضل من جانب الملك الذى كان اما أن يزيد الوقف الذى كان الشريف قد رصده أثناء حياته أو يقدمه بأكمله من الموارد الملكية كما حدث مع الوزير واش فتاح ·

ان المزايا التى كان يكسبها الميت من هــذه الأوقاف ، بينما كان الغرض منها وقايته ضد أى عارض من جوع أو عطش فى حياته المستقبلة ، فانه يظهر أن أهم خصائصها ، كان معاونته حتى يسهم فى أهم أعياد واحتفالات السنة ·· وعلى غرار الشرقيين كلهم ·· كان المصرى يبتهج بهجة عظيمة بالاحتفالات الدينية ، والمراح العظيم الذى كانت تزخر به هذه المناسبات ، ولهذا كان لا يرضى مطلقا أن يتخلى عنها عندما يرحل من هذا العالم ، وعلى ذلك ، كان تقويم الأعياد مسألة لها أعظم شأن بالنسبة له ، وكانت تجتاحه رغبة لتحويل موارد وفيرة لمعاونته على الاحتفال بكل أيامها الهامة فى الآخرة ، كما كان يفعل (مرة) ، فى مثل هذا السخاء بين أصحابه ، فى الحياة الدنيا ، وزيادة على هذا فانه كان يتوقع حقا أن يحتفل بهذه المناسبات البهيجة بين أصدقائه فى المعبد كما كان ديدنه أن يفعل ·

ولتحقيق هذا كان يعمل على اقامة تمثال له فى فناء المعبد ·

وأحيانا كان الملك ـ كتكريم خاص يضفيه على رجــل ذى نفــوذ من رجال الحاشية ـ يأمر المثالين الملكيين يصنع تمثال كهذا ويقيمه داخل باب المعبد ، وكان الرجل العظيم فى عصر الاهرام ينصب كذلك فى قبره تمثالا ذاتيا لنفسه من حجر باهظ التكاليف يخفيه فى غرفة سرية مستخفية فى كتلة البناء الحجرى ، وكثيرا ما كان الملك يقدم مثل هذه التماثيل أيضا الى زعماء النبلاء فى الحكومة والقصر ـ وكان يظن كما هو جلى ، ان هذا التمثال الذى يحمل صورة ذاتية ـ وهو اقدم ما لنا علم به من فن ـ يمكن أن يؤدى مهمة جسم الميت الذى انتزع منه جسمه ، وبهــذا يمكنه أن يستمتع على الأقل بمظهر حضور جسدى فى مصلى القبر حيث يستطيع أن يجد أشكالا أخرى تمثل جسمه فى الغرفة السرية المكفية من المصلى (٧٩) ·

ولقد راعينا اطالة السرد لأجل معايشة عقيدة القوم فى امكانيـــة شراء الخلود المرفه بالمال والمنصب المرموق ٠

وكان كل هذا يمثل عبئا على الاقتصاد القومى حيث أصبحت الدولة تشـــارك فى الانفاق على مقابر النبلاء بعد الممات ٠

ومما يضاعف أعباء هذه التكلفة على أرزاق الناس واقتصاد الدوله أن الملكات والنبلاء حصلوا على الحق فى أن يكون بعثهم ، مع الملك ، فى الآخرة الشمسية وذلك بعد ان كانت قاصرة على الملك وحده ٠

أما عامة الشعب ، دون الملك والملكات ، فقـد ظلوا على عقيـدة أن آخـرتهم أرضية ، فى صقع تخيم عليه الظلمة فى الغرب ، حيث المملكة السفلية التى يحكمها الآلهة الجنازيون القدامى الذين تزعمهم أوزريس ٠

ثم شعر النبلاء والاشراف وكبار القوم بامكانياتهم الشخصية التى لا تقل عن الملك وذلك بعد ظهور ملكات الابداع مع التطور الحضـارى المفـاجىء فى الدولة القديمة ، ومن ثم أصبحوا ينشئون مقابرهم فى أقاليمهم بعيدا عن مقر مقبرة الملك بأميال ودون الحاجة الى واسطة الملك مع الآلهة ، كما كانت العقيدة من قبل) (٨٠) ٠

اذ أصبح اتصالهم بالآلهة اتصالا مباشرا لا يقلون فى ذلك عن الملك نفسه ٠

وكل هذا مضاعفة للاعباء على الاقتصاد القومى وبالمخالفة للماعت ٠

فى الخلافات الدينية :

منذ ما قبل الأسرات ، كانت عبادة الاله حورس (الصقر) منتشرة فى الوجه البحرى ويتغلب نفوذه على ما عداه من الآلهة الأخرى ٠

وحورس يعنى اله المسافات البعيدة ٠

كما كانت عبادة الاله ست منتشرة فى الوجه القبلى ويتغلب نفوذه على ما عداه واسم ست يرمز الى العواصف والأمطار ٠

والمعروف ان أسماء هذه الآلهة اما انها خاصة ببشر تم تأليههم أو انها أسماء لطواطم عندما كان الانسان يعيش حياته متنقلا فى قبـائل ولمـا استقر على الأرض للزراعة استمر على عباداته (الفطرية) لهذه (الآلهة) ٠

وبعد وحدة مصر (شمالها وجنوبها) أصبح الاله حورس هو الاله الرسـمى للدولة . بل أصبح الملك هو الممثل لحورس على الأرض أثناء حياته ٠

وبطبيعة الحال لم يعجب كهنة ست أو اتباعه سيادة حورس على الدولة كلهـا ولذلك استمر هؤلاء يتحينون الفرص لجعل السيادة لمعبودهم ست ٠

ورغم أن مصر تبذل أقصى طاقتها ، منذ نشأتها ، لتوحيد الشعب حول مذهب ديني واحد الا أنه (يوجد فى كل زمان فئة من المحافظين الذين يتطلعون الى القديم ويرون فيه المثل الأعلى ، وفى كل زمان أيضا يوجد الرجعيون الذين يعز عليهم ادخال أى تغيير طالما يؤثر ذلك على مصالحهم الشخصية . ويوجد كذلك فى كل زمان ومكان بعض رجال الدين الذين يأبون أن يروا انصراف الناس عنهم ويحاولون استثارة كامن العواطف بين مختلف طوائف الشعب ليبقى لهم نفوذهم وثراؤهم .

ولقد نجح اتباع ست وكهنته فى حمل الملك (برى - اب - سن) من ملوك الأسرة الثانية (٢٩٨٠ - ٢٧٨٠ ق٠م) على أن يعلنها حربا صريحة على حورس فيحذف اسمه من القابه ويضع بدلا منه منافسه القديم المعبود (ست) - بل يذهب الى أبعد من ذلك ويفعل ما لم يفعله أحد من قبله أو من بعده وهو وضع رمز (ست) فوق اسمه المكتوب داخل رسم يمثل واجهة القصر وهو المعروف فى اللغة المصرية باسم (سرخ) ويعلن أنه هو رمزه ، وانه قد نمثل فيه ويذكر فى بعض آثاره أن ست معبود نويت (مدينة أومبوس فى محافظة قنا) هو الذى سلم اليه البلاد .

ولم يقف (برى - اب - سن) عند ذلك الحد بل عاد مرة أخرى الى الصعيد ، وأبى الا أن يعود الى التقليد القديم وهو تشييد مقبرة فى أبيدوس وليس فى سقارة (كعادة من سبقه من الملوك) .

وما من شك فى أن الكثيرين من أهل الصعيد ، وكهنة ست خاصة ، رحبوا بهذا التغيير وان كان مما لا شك فيه أن أهالى الدلتا قاوموا هذا التغيير الذى كان صدمة قاتلة لعقيدتهم وللعقيدة المصرية بصفة عامة حيث أن (حجر الزاوية فى استمرار الحضارة المصرية كان قائما على الوهية الملك الذى أصبح منذ توليه أمر البلاد هو حورس . وكان يعبد من شعبه على هذا الأساس .

وأتى من بعد (برى - اب - سن) ملك يسمى (خع سخم) عاد الى عبادة حورس وتمجيده ولا شك ان هذا أيضا لم يعجب اتباع ست وكهنته فجاء من بعده ملك آخر يسمى (خع سخموى) اتخذ لنفسه شعارا المعبودين حورس وست مجتمعين ، وكان يضعهما سويا فوق اسمه ، وتقدمت مصر فى عهده تقدما كبيرا زاد فيه استعمال الحجر فى المبانى ، واستقرت مصر على أوضاعها الفنية الخاصة بها ، واستكملت أكثر مقومات حضارتها وهذا بلا شك يرجع الى الوحدة الدينية التى حققها هذا الملك حيث امتاز عهده بالهدوء والتقدم فى جميع مرافق الحياة)(٨١) .

ثم جاء الى الحكم الملك زوسر (٢٧٨٠ ق٠م) مؤسس الأسرة الثالثة ليعلن الوهيته وبهذا أصبح الجالس على العرش لا ينتمى الى الشمال او الى الجنوب ، بل هو ينتمى الى عالم السماء ، رضى أن ينزل الى الأرض ليحكم اهلها . ولن يلبث أن يعود الى عالم الآلهة حين يموت ، واطلق على نفسه اسمين (زوسر) أو المقدس و (ونترخت) اى صاحب الجسد المؤله - وتكملة لهذا التغيير شيد لنفسه مقبرة على هيئة هرم (مدرج بسقارة) وهو يرمز لعبادة الشمس(٨٢) .

ويجب أن يلاحظ القارئ ان الفوارق بين أهالى الصعيد وأهالى الدلتـا (فى ذلك الوقت) كانت هائلة وليست محصورة فى العقيدة الدينية فحسب بل شملت أيضا لون البشرة ولغة الكلام التى كان الناس يكادون يحتاجون الى مترجم عنـد تعاملهم مع أهالى (الوجه الآخر)(٨٣) ٠

وفى هذه اللحظة كان للاله حورس (ممثل السماء) السيادة فى أمور الدولة ويمثله ملك مصر ، الذى أصبح ابنه ، كما سبق البيان ٠

ومنذ ما قبل العصر التاريخى تقدمت مدينة هليوبوليس جميع المدن المصرية فى توصل علمائها الى تفسيرات معينة للكون وللاسرة الالهية التى تمثل القوى الطبيعية التى يمكن أن تدخل فى تكوين العالم(٨٤) ٠

وابتداء من العصر التاريخى دخل حورس ، اله الدولة والذى اسمه مشتق من كلمة (البعيد) ويمثل السماء وعيناههما الشمس والقمر وعلى شـكل صـقر يلمس طرفا جناحيه آخر حدود الأرض ٠

دخل الاله حورس فى مجموعة الاسرة الالهية التى ابتدعها كهان مدينة أون (هليوبوليس) ـ ابتداء من ذلك التاريخ وبذلك كان لكهان عين شـمس ميزة على جميع كهان الآلهة الأخرى ٠

ثم تشكلت مجموعة الآلهة التى تشمل رع اله الشـمس وكبير الآلهـة والذى أنجب أولادا وأحفادا منهم أوزريس وزوجته ايزيس واله (الشر) ست والحفيـد حورس ابن أوزوريس وايزيس وذلك بناء على أفكار كهنة (هليوبوليس) ثم يحاول كهنة هذه المدينة فرض مذهبهم الدينى ، بعد أن شمل جميع الآلهه المشهورة ، على الدولة باعتبار أن الملك هو حورس (ابن أوزوريس) وعند وفاته يبعث ثانية مثل أبيه أوزوريس ولكن عند (جده) الاله رع فى السماء ٠

وبطبيعة الحال كانت هذه (النظرية) قاصرة على الملـوك وحـدهم دون باقى الشعب الذى كان مصيره جميعا ، بلا استثناء ، الآخرة الأرضية ٠

وابتداء من السنوات الأخيرة للاسرة الرابعة أخذ نفوذ كهنة عين شمس يعظم ويزداد ، ولم يصبح اسم الاله رع جزءا من أسماء الملوك وأمراء البيت المالك للتيمن به فحسب ، بل أخذ الاسم الخامس للملوك وهو اسم (ابن رع) يظهر أيضا ابتداء من عهد الملك خفرع ـ ثم رأى الملك شبيسكاف بعد ذلك أن يضع حدا لهـذا النفوذ والسطوة للكهنة فترك بناء قبره على شكل هرم لصلة ذلك بعبادة الشـمس ، وأراد اهماله فبنى قبره على شكل تابوت كبير(٨٥) ٠

كانت هناك دون شك حركة (حكومية) ضد كهنة رع ، ولكن شبيسكاف لم يعمر طويلا ليحقق ما كان يهدف اليه كما أن من أتى بعده من الملوك تنازعوا وتصارعوا على العرش مما مهد لفوز أحد كهنة عين شمس (أوسركاف) بارتقاء عرش مصر مكونا الأسرة الخامسة (٢٥٦٠ ـ ٢٤٢٠ ق٠م) ٠

وفى هذه الفترة المضطربة روج كهنة عين شمس قصة طويلة الفوها ونسبوا حوادثها الى عصر الملك خوفو وجعلوها تتضمن أسماء بعض الملوك السابقين الذين يكن لهم الشعب احتراما وتقديرا مثل زوسر وسنفرو (وخوفو) ليعطوها اهمية خاصة ٠

وكذلك ليضفوا الشرعية الدينية على استيلائهم على العرش ٠

تتلخص قصة خوفو والسحرة فى أن الملك خوفو جمع يوما من الايام أولاده وطلب من كل منهم أن يقص عليه قصة عما يستطيع السحرة أن ياتوا به من معجزات ، وبدأ أولهم بقصة عن زوسر وتلاه آخر بقصة من عهد الملك نبكا وثالث بقصة عن الملك سنفرو ، ولم تكن هذه القصص الا مقدمات أو تمهيدا فقط لما سيأتى بعد ذلك اذ يقول أحد أبناء خوفو لأبيه أنه يعيش فى أيامه ساحر عظيم يستطيع ان يأتى بالمعجزات أمام الملك ومنها اعادة الحياة الى بعض الحيوانات بعد ذبحها وفصل رأسها عن جسدها ٠ ويتم احضار هذا الساحر فى حضرة الملك ٠

ثم يطلب خوفو من ذلك الساحر أمرا فيرد عليه بأنه لا يستطيع ولكن الذى يمكنه القيام بذلك هو أكبر اطفال ثلاثة فى بطن زوجة لكاهن حملت بهم من الاله رع نفسه وان الاله رع أخبرها بأنهم سيتولون عرش البلاد وان أكبرهم سيكون الكاهن الأعظم فى مدينة (أون) اى هليوبوليس ٠ ويضطرب خوفو ولكن الساحر يطمئنه بأن ذلك لن يكون قريبا وأنه لن يحدث فى عهده ، بل ان ابنه سيحكم من بعده ثم يحكم ابن ابنه ، ثم يأتى بعد ذلك واحد منهم ، وتستمر القصة فتذكر حمل زوجة الكاهن وما تلا ذلك من ظهور عجائب ومعجزات وكيف حضرت آلهات الولادة مولدهم ٠ الى آخر القصة ٠

كان الهدف من هذا التاليف هو اقناع الناس بأن استيلاء كهنة الشمس على عرش البلاد انما كان شيئا مقدورا منذ عهد بعيد وأن هؤلاء الذين جلسوا على العرش ولم يكن يجرى فيهم الدم الالهى الملكى ، انما كانوا خيرا ممن سبقهم من الملوك لأنهم كانوا أبناء الاله رع من صلبه ٠

وبطبيعة الحال فهذا كذب ، ومخالف للاخلاقيات التى أمرت بها الماعت ٠

وقد ترتب على استيلاء رجال الدين الشمسى على الحكم ، اغداق الجالس على العرش الهبات والعطايا والأوقاف على كهنة عين شمس وعلى معابد الشمس والاله رع دون سائر كهنة ومعابد الآلهة الأخرى مما حمل الدولة تكاليف باهظة واشعل نار الصراع بين اتباع وكهنة الآلهة الأخرى وبين اتباع وكهنة عين شمس ومنهم الملك نفسه ٠

وعلى سبيل المثال فقد كان (رع ـ ور) من كبار موظفى الملك نفر ار كارع (٢٥٢٩ ـ ٢٥٢٧ ق٠م) وكاهن الهة الوجه القبلى وكاهن آلهة الوجه البحرى ، وكان عدد حجرات قبره لا يقل عن خمسين ، ولو عددنا ما بقى من أجزاء تماثيله لتأكدنا أنه كان منها أكثر من مائة فى هذه المقبرة ، ولو القينا نظرة على الأحجار التى شيدت

بها جدرانها . وعلى الأخص أحجار الواجهة لأدركنا ثراء الكهنة الذى لم يكن يضارعهم فيه الا الملوك . ولو قارنا قبر (رع - ور) بقبور أبناء سنفرو أو خوفو أو خفرع لرأيناه يفوقها فى عدد الحجرات والردهات وفخامة المبانى .

وليس قبر رع ور هو القبر الوحيد الذى تلمح فيه ثراء كبار الكهنة والموظفين بل نجد امثلة كثيرة بين مقابر صير والجيزة وسقارة . لقد اصبح كبار رجال الكهنة والموظفين على شىء كبير من الثراء والنفوذ ، واصبحوا يبنون لأنفسهم مقابر تزيد فى حجمها وفخامتها اضعاف ما كانت عليه مقابر أبناء الملوك فى الأسرة الرابعة .

أما الشعب نفسه الذى تركه زعماؤه وقادته الدينيين وغير الدينيين ليلحقوا بالملك فى آخرته السماوية فقد اتجه الى مذهب دينى آخر بزعامة الاله أوزريس حيث (مكافاة المحسن الطيب القلب الذى لا يفعل السوء دون نظر الى فقره أو غناه) .

ولم يكن أوزريس العادل الرحيم وهو ملك فى دنيا الأموات يأبه الا بالحق والعدل ولا ينعم بجنته الا من تطهر قلبه وحسنت سريرته ونواياه وابتعد عن أذى الناس ، لا يفرق بين غنى وفقير ، كان كل انسان يلاقى ما فعله حاضرا ، وكانت الجنة لمن أحسن وأتقى ولم يظلم الناس أو يأتى بخائنة ، والعذاب والجحيم لمن سولت له نفسه عمل السوء لا تشفع له أمواله أو صلوات كاهن ، أو قرابين يقدمها أهله وذووه .

والمعروف أن البعث ، حسب العقيدة الأوزيرية ، فى الأرض وليس فى السماء .

وكل هذا بعكس عقيدة الشمس التى أصبحت تشمل الملك والملكات وكبار العاملين وكبار رجال الدين والنبلاء الذين يتوقف مستقبلهم السعيد فى الآخرة السماوية على الثراء والنفوذ ، والمقبرة الضخمة وحبس الأرض للانفاق عليها وتقديم القرابين .

وكل هذا سبب صراعات دينية وصراعات على السلطة وصراعات على دخل الدولة وكان ضحيتها دائما وحدة الشعب وموارده الاقتصادية كما أصبح الشعب نفسه يتجه اتجاها دينيا غير الاتجاه الحكومى .

فى الخلافات السياسية :

كان النضوج المفاجىء الباهر للحضارة المصرية ، فى الأسر الأربع الأولى ، سببا فى ظهور أعظم الكفايات ، من بين الأفراد المصريين ، كانت الأمة تخطو نحو الامام سياسيا واقتصاديا ، وماديا ؛ وفنيا ؛ وثقافيا ؛ وكان هذا التقدم جماعيا ، ولكنه كان يتمثل فى شخص الملك ، فأدى ذلك فى البداية الى الاعلاء من قوته ومجده ، ولكن هذا التقدم تطلب المجهودات الفردية ، من كل شخص ذى موهبة ، أو قدرة ، أو ذكاء ، أو طموح . ولما تقوت الدولة وانتظمت أمورها ، أصبحت فى حاجة الى عدد كبير من الموظفين المقتدرين ، الذين يمكن الاعتماد عليهم ، ولما زاد عدد وظائف الحكومة

واتسع مجال نشاطها ، كان على الموظفين أن ينفذوا ما يكلفهم به الملك ، حسب ما يرونه هم أنفسهم صالحا ، أى أن تلك القوى المتجمعة التى كانت تعمل على تأييد الحكم المطلق ، كانت تنشىء فى الوقت نفسه ، قوة منحرفة مضادة بعيدة عن الملك ، وتظهر فيها شخصية الفرد ، وعندما يطلب من بعض الرجال ، القيام بمهام جديدة ، فانهم يكتشفون فى أنفسهم ما فيهم من قوى شخصية ، ونحل بالتدريج الارادة الشخصية ، محل التبعية المطلقة ، المفروضة عليهم للملك • كانت هذه الفكرة تعمل عملها خلال الدولة القديمة ، ببطء وبطريقة تطورية (الى أن بلغت منتهاها بعد ذلك)•

(ويندر أن نجد من عصر الأسرة الرابعة جبانة فى الأقاليم ولكن ما ان جاءت الأسرة السادسة حتى أصبح وجود الجبانات فى الأقاليم هو القاعدة المتبعة • فقد صار كبار الموظفين ونبلاء الأقاليم واثقين من أن لهم فرصة كبيرة ليحيوا حياة أبدية بدافع من أنفسهم وليس عن طريق تعلقهم الملحف بالملك ، والتصاقهم به ، فاستمروا يؤكدون له الطاعة التامة ، ولكنهم بنوا لأنفسهم منازل أبدية على بعد مئات الأميال منه •

لقد اكتشف النبلاء ، ما كانوا عليه من قوة ، عندما عاونوا فى تشييد وتوسيع الدولة المصرية ، وفى انتاج المظاهر المختلفة للحضارة المصرية •• ونرى فى سير حياتهم التى كانوا ينقشونها على جدران مقابرهم ، شعورا بالفخر عندما يتحدثون عما قاموا به وما نجحوا فيه ، ويعبرون عن رضاهم برفع مرتبتهم بفضل مواهبهم الشخصية ، ويمكننا تتبع ترقى بعض هؤلاء العصاميين وصعودهم درجة درجة فى السياسة وفى المجتمع (ويراجع فى ذلك ص ٤٤ عن سيرة المهندس أونى) (٨٦) •

وبهذا ، تعاون كهنة عين شمس ، ذوو الأفضال على صاحب العرش ، مع النبلاء على أضعاف سلطة الملكية وفى مقابل ذلك حاول الملوك شراء ولاء الكهنة بالاغداق عليهم بالعطايا والمقابر والأوقاف والمناصب حتى أصبحت الوظيفة التى كان يقوم بها موظف واحد ، يحمل لقبها أفراد متعددون فى وقت واحد ، مثل وظيفة حاكم الوجه القبلى مما يدلك على الفوضى التى مهدت للثورة •

الثـــورة :

وصلت حالة مصر الى الحضيض فى أواخر أيام الأسرة السادسة من الدولة القديمة وعمت الفوضى ، فلما طفح الكيل لم يجد الشعب أمامه طريقا غير الثورة على تلك الأوضاع ، والانتقام ممن كانوا عليه سوط عذاب •

لقد انقلبت البلاد الى عصابات ، ولم يعد الناس يحرثون حقولهم وأضرب الناس عن دفع الضرائب ، وتوقفت التجارة الخارجية وهجم الناس على مخازن الحكومة ونهبوها وعلى مكاتب الدولة فبعثروا محتوياتها ، بل ان الملوك المدفونين قد اعتدوا عليهم أيضا وبعثرت أشلاؤهم وأصبحت أهرامهم خالية مما كان فيها ، وصب الشعب انتقامه على الأغنياء فنهبوا القصور وحرقوها وصار أصحابها محزونين يبكون ، بينما

كان عامة الشعب يفرحون ويحتفلون ، وأصبح الذين كانوا يملكون الرقيق يسيرون فى أسمال بالية ، وأولئك الذين لم يملكوا شيئا فى حياتهم يرفلون فى ملابس من خير أنواع الكتان ٠٠ ويسخر الكاتب مما يراه فيقول ان الأصلع الذى لم يكن يستخدم الزيت أصبح يمتلك الأوانى والملابس وخير أنواع العطور – وأن الذى لم يمتلك صندوقا صغيرا فى حياته أصبح مالكا لصندوق كبير . والفتاة التى كانت تذهب الى الماء لترى وجهها فيه اصبحت مالكة لمرآة ٠

ويا ليت الأمر وقف عند هذا الحد فقد صب الناس نقمتهم على أطفال الأغنياء فصاروا يقذفون بهم الجدران ، وترك الناس أطفالهم الذين تمنوا ولادتهم ، ألقوهم فى الطريق عساهم أن يجدوا من يمد اليهم يده ٠

حتى رجال الأمن الذين كان الناس ينتظرون منهم أن يوقفوا تلك الأحداث أصبحوا فى مقدمة الناهبين . وانهارت الحكومة المركزية وأصبح الأغنياء فى حزن وغم بينما كان الفقراء فرحين ، وكانت كل مدينة تقول « فلنطرد بعضا منا » ومما زاد الحالة سوءا أن عصابات البدو الذين كانوا يسكنون على حدود مصر فى الشرق ، وربما أيضا فى الغرب ، انتهزوا هذه الفرصة فأخذوا يتدفقون على قرى الدلتا وينهبون ما يجدونه مع الناس -- ولم يعد أخ يثق فى أخيه أو صديق فى صاحبه) (٨٧) ٠

ولقد وصف هذه الثورة كل من ايبور ونفرتى ومن يقرأ وصفهما للثورة يكاد يحس أنها وصف لما حدث فى بعض مناطق روسيا فى أكتوبر سنة ١٩١٧ رغم الاختلاف الكبير فى المكان والزمان وطبيعة كل من الشعبين (*) ٠ (٨٨)

(★) ابيور حكيم مصرى عاش فى أواخر الدولة القديمة (الأسرة السادسة) وواجه آخر ملوك هذه الأسرة بالحالة التى وصلت اليها البلاد بشجاعة — ونفرتى حكيم مصرى من عصر الدولة الوسطى (بعد الثورة) وصف احوال البلاد وما آلت اليه من تفكك وانقسام لن تنجو منه الا على أيدى مؤسس الأسرة الثانية عشرة ٠

(لقد خلقت اربعة اشياء عظيمة فى داخل بوابة الأفق، خلقت الرياح الأربع التى يستطيع أن يستنشقها كل انسان كزميله الذى يعيش فى زمانه ، هذا هو العمل الأول ، وخلقت الفيضان العظيم ، وللفقير فيه حق مماثل لحق الرجل الغنى وهذا هو العمل الثـانى وخلقت كل رجل مثل زميله ولكن قلوبهم هى التى أفسدت ما قلت وهذا هو العمل الثالث ، وجعلت قلوبهم تفكر فى الغرب (أى فى الآخرة) ، ولم آمر بانهم يعملون السوء وهذا هو العمل الرابع) ٠

عن العقيدة الدينية المصرية منذ أربعة آلاف سنة

ان الباطل لايتقدم ، ان الذى يغنى بالباطل لا أولاد له ، وما من احد من ورثته يبقى على الأرض أما ماعت (النظـام ـ الصدق ـ العدل) فهى باقية الى الأبد وتصحب من يفعلها الى القبر ٠ وعندما يموت ويدفن لن يمحى اسمه من الأرض بل يذكر باعماله الحسنة هذا هو المبدأ الذى امر به الله ٠

من أفكار الفلاسفة المصريين
فى الثورة الاجتماعية سنة ٢٢٠٠ ق٠م

الباب الخامس

فى النظم المختارة والقيادة القدوة التى اتحد الشعب المصرى حولها عقب الثورة الاجتماعية الأولى وحتى سنة ٢٠٠٠ ق.م.

استمرت الثورة حوالى ستون عاما تمكنت فى أعقابها أسرة قوية فى اهناسيا من جمع شمل المصريين فى معظم الوجه البحرى وحتى مصر الوسطى . كما تمكنت أسرة أخرى فى طيبة من السيطرة على الأمور فى مصر العليا ·

وما يهمنا فى هـذا البحث هو الفتـرة التى حكمت فيهـا الأسرة الاهناسية معظم مصر حيث تبنت هذه الاسرة المبادىء التى تمخضت عنهـا الثورة المصرية وان كانت الأسرة الطيبية قد تغلبت فى النهاية على أسرة اهناسيا موحدة مصر تحت قيادتهـا ومكونة الدولة الوسطى ·

وكان من الممكن أن تنتهى مبادىء الثورة المصرية عند الغاء كافة النظم التى فرضها القادة على الشعب خروجا على نظام الماعت الذى استقر فى الفكر وفى الأنفس منذ القدم·

كان يمكن ذلك ، ولكن الثورة لم تنتهى الى شىء من ذلك ، بل انها قضت على (معظم) النظم الدينية والسياسية والاقتصـادية المقدسـة المتوارثة وقدم الشعب نظاما آخر ليفرضه على الحكومة لأن فيه مصلحته فى الدنيا وفى الآخرة ·

وسوف نلاحظ أن المبادىء التى تمخضت عنها الثورة قد عالجت الأسباب التى أدت الى قيامها ·

وبهذه المبادى عاد الشعب المصرى الى وحدته ·

كما يجب أن نلاحظ أيضا أن المبادىء والنظم التى حققت وحدة الشعب المصرى فى هذه المرحلة قد نبعت من تفكير علمى وتجارب مع أنظمة مقدسة متوارثة ثبت عدم صلاحيتها للاستمرار مع التطور الحضارى وتقدم العلوم والفنون وتغير الأنفس عن فطرة الصدق والصراحة والأمانة ·

وحتى أواخر الدولة القديمة كان الاعتقاد الشـائع بين الناس أنه من الميسور شراء الخلد فى العالم الآخر بمقبرة قوية مجهزة بكل اللوازم المادية للحياة الأبدية للمتوفى مع تحنيط الجثة تحنيطا فاخرا ·

ولكن الانسان المصرى لاحظ ، فى أواخر الدولة القديمة وفترة الثـورة بقـاء (الموتى) على حالهم دون أن يغيروا من المقابر على ضـخامتها وقوتها كالأهرامات أو يتحركوا ليغيروا من الأثاث الجنائزى أو المؤن الى أتخمت بها المقبرة ·

(لقد ترتب على الحكم على المطالب الخلقية (فترة الثورة) ، تأمل ذاتى ، وبدأ الانسان لأول مرة فى التاريخ يتأمل نفسه ، وكذلك مصيره ، أى (أن يبتعد منطلقـا عن مشهد الانسان هذا) (٨٩) ·

انه عصر ناضج ، وفى قيامه بهذا تجاوز حد قبول المعتقدات التقليـدية قبولا لا تردد فيه ، كما ورثه الآباء · والتشكك معناه مراث طويـل بالمعتقدات الموروثة ،

وتقليب وجوه الفكر فيما كان حتى ذلك الحين موضع قبول دون تفكير . انه الاعتراف الواعى بالقدرة الشخصية على الاعتقاد أو عدم الاعتقاد . وفى هذا خطوة واضحة الى الأمام فى تطور الوعى الذاتى والابتكار الشخصى · انه فقط الشعب الذى وصل الى مدنية ناضجة هو الذى يقوم فيه التشكك . انه لا يوجد أبدا فى أحوال بدائية . وعلى هذا ، كانت ناحية هامة ، من التقدم العقلى ، تلك التى كان يمثل هؤلاء المتشككون فى (الفترة الأولى) منتهاها . ان اتجاههم العقلى يجد التعبير عنه فى اغنية حداد (بكسر الحاء) ، كانت تردد كثيرا ، دون ريب ، فى الجبانة . ونقتطف منها بعض الأبيات — وهى على كل حال على غرار رباعيات الخيام :

ما أعظم رخاء هذا الأمير الطيب
انه مصير خير ، أن الجسوم تتضاءل
وتذهب ، بينما يبقى غيرها
منذ أيام السلف ·

الآلهة الذين كانوا فى الماضى
الذين يستقرون فى أهرامهم
النبلاء والأمجاد ، رحلوا كذلك
مقبورين فى أهرامهم ·

أولئك الذين ابتنوا معابد (قبورهم)
لا يوجد بعد لهم مكان
شاهدوا ما يفعل داخلها
لقد سمعت كلمات امحوتب وحرجدف (*)
كلمات ذاعت ذيوعا عظيما على أنها نطقاتهم

شـــاهدوا أمكنتهم
لقد هدمت حيطانها

لا توجد بعد أمكنتها
كأنها لم تكن أبدا

لا يأتى أحد من هناك
حتى يخبرنا عن حالهم

حتى يخبرنا عن حظوظهم
حتى يدخل السكينة الى قلبنا

الى أن نرحل نحن (أيضا)
الى المكان الذى ذهبوا اليه

(★) امحوتب وحر جدف من حكماء الدولة القديمة ·

شدد عزيمة قلبك على نسيانه
اجعله ممتعا لك أن تتبع هواك
وأنت عائش
ضع المر على رأسك
وارتد ثيابا من رقيق الكتان
وقد تشبعت بالأشياء المترفة
أشياء الآلهة الحقة
زد كثيرا مباهجك
لا تدع للتراخى سبيلا الى قلبك
اتبع هواك وما هو صالح لك
كيف أمورك فى الدنيـــا
وفق أوامــر قلبـــك
الى أن يحل يوم النواح عليك ، ذلك
عندما لا يسمع ساكن ـ القلب نواحهم •
أو ذاك الذى فى القبر يحضر الحداد

* * *

احتفل باليوم البهيج
لا تكن متعبا فيـــه
ها كم ـ لا يأخذ انسان سلعة معه
بل ، لا يعود أحد مرة ثانية ،ذاك الذى ذهب هناك

* * *

وبعد ذلك بآلاف الأعوام يقول عمر الخيام :
غريب ، أليس كذلك أنه من بين الجمـــوع
الذين اجتـــازوا قبلنـــا بـــاب الظـــلام
لا يعود واحـــد ليخبرنا عن الطـــريق
التى ، للكشف عنها ، يجب ان نقطعها ايضا •

* * *

ان ما تنادى به أغنية الحداد هذه هو نوع من ألواع المادية ولكنه مختلف الى حد ما عما كان يؤمن به المصريون من قبل ، أنه ينادى بأنه طالما نحن لا نعرف شيئا عما وراء الموت ، فلنتمتع بحياتنا ، ولنعط أنفسنا أكبر نصيب ممكن من الملذات الحسية •

لقد كانت الصدمة قاسية على الشخصية المصرية فى أهم وأقدس معتقداتها المتوارثة منذ آلاف السنين اذ تنهار مرة واحدة فلم تعد كما كانت ثابتة وخالدة ٠

وكان ثمة اتجاهات تدعو الى اليأس الذى جعل بعض الناس يفكرون فى انهاء حياتهم بالانتحار . وهذا آخر ما يمكن أن يفكر فيه المصرى الذى كان سعيدا فى تعلقه تعلقا شديدا بالحياة ، وأحاط الموت بطقوس كثيرة ذات روعة ٠

ولكن اليأس والزهد لم يكونا الحلين الوحيدين لمشكلة الألم التى سادت ذلك العصر ، ولم يكونا بأى حال من الأحوال ، ردا حاسما ، فى أى وقت من الأوقات ٠ أن السبب الذى يجعلنا ننظر الى عصر الفترة الأولى وأوائل الدولة الوسطى بأنها عهد زاهر فى تاريخ التقدم الانسانى هو أن المصريين اكتشفوا فى ذلك العهد أن القيم الأخلاقية العليا يجب أن تحل مكان القيم المادية المحطمة ٠ فقد ارتبكوا عندما رأوا أن ما يقع تحت أبصارهم من مقابر وهبات ووظائف فى القصر ليست أشياء خالدة بل أمورا مؤقته ، وأخذوا يتلمسون الآراء هنا وهناك . ولكن دون الوصول الى رأى قاطع حاسم ٠ فاعتقدوا أن الأشياء التى لم يروها ربما كانت خالدة ، والخلود هو هدفهم الذى كانوا يسعون اليه ٠ فاذا استطاعوا أن يجعلوا اكتشافهم الذى وصلوا اليه ذا اثر فعال فى الحياة اليومية ، وأنه يوصل عددا كبيرا من الناس الى الرفاهية ، فان مصر تكون بذلك أول أمة عرفت القيم التى فى الانسان العادى ، ولم يقف الأمر فى مصر عند هذا الحد ، بل أن هذه المعرفة كانت تهدف فى محاولاتها الى أن يتمتع عدد كبير من الناس بحياة أفضل ٠

وعلى هذا فان الشخصية المصرية فى هذه المرحلة كانت تحس بالانتماء الى هذا الوطن بما فيه من نظم ومؤسسات ٠

فلم تكن شخصية تعيش على هامش الاحداث ٠

ثم هى تتناول بفكرها العلمى الحضارى الواعى مسالة من أخطر المسائل فى حياة أى أمه ، انها مسالة تدخل فى صميم الدين المصرى القديم وتعد دعامته الأساسية الا وهى مدى فائدة التحنيط والأثاث الجنائزى والأهرامات والأوقاف والوظائف والثروة فى الحياة الآخرة ٠

وهنا تظهر ايجابية الشخصية المصرية وتفاعلها مع الأحداث العامة وتباعدها تماما عن التواكل والاستسلام فتهدم أهم العقائد الدينية المتوارثة ، بكل شجاعة واصرار ، لترسى بدلا منها القيم الأخلاقية العليا كوسيلة للخلود الحسن فى الآخرة بدلا من القيم المادية المحطمة ٠

ولم تقف شجاعة الشخصية المصرية فى هذه المرحلة عند هذا الحد فحسب ، بل وأعلت من شأن الفصاحة والنقد والرأى الآخر ٠

فهذا هو المتنبىء (ايبور) يتجرأ على الملك ويتهمه أنه السبب فيما حدث من فوضى فى مصر ، بل ويبين له مسئوليات وظيفته بأن يكون راعيا لشعبه ، وأن يسهر

على حياتهم ورفاهيتهم ، ويقول أبيور للملك (تتجمع فيك السلطة وشدة الاحساس والعدل ، ولكنك لا تنشر فى البلاد غير الفوضى وضوضاء المنازعات ٠

ثم يتهم ايبور الملك بالكذب ، فهل نزل الغضب الالهى على رأس ايبور جزاء جرأته فى السباب ، أو أن الملك ألجمه وألزمه مكانه بما دفع به وقدمه من حجج دامغة ، وهو الذى كان أحكم الحكماء ، وأقوى الأقوياء وأصلح الصالحين ، ان ما حدث هو العكس فقد رد الملك على هذا الاتهام بالتذرع بأنه حاول حماية شعبه بالوقوف فى وجه الأجانب الذين كانوا يهاجمون البلاد ٠ ونظر ايبور عند ذلك الى مولاه بشىء من العطف ، وقال بأن الملك أحسن القصد ولكنه لم يصل الى الغرض بسبب جهل الملك وعدم كفاءته (اذا كنت تجهل ذلك ، فانه أمر محبب الى القلب ، لقد فعلت ما هو حبيب الى قلوبهم لأنك جعلت الناس يعيشون بسبب ما فعلته ، ولكنك تغطى وجوههم خوفا من الغد ٠

وبهذه الشخصية الايجابية ، المتسمة بالانتماء للوطن والتفاعل مع آلامه ، يتقدم رجل من عامة الشعب ، بكل شجاعة ، للملك منتقدا تصرفاته وليفهمه المسئوليات (القانونية) لوظيفته كملك فى هذه الأمة ٠

وفى قصة الفلاح الفصيح التى تقص قيام أحد كبار الموظفين بالاستيلاء عنوه على المحاصيل الزراعية التى كان صاحبها الفلاح فى طريقه لبيعها فى السوق فيقوم هذا الفلاح بعرض شكايته بصوت مرتفع يسمعه كل من حوله بما فيه الوزير ولمدة تسعة أيام متوالية وبطريقة انشائية حيث تختلف صياغة كل شكوى عن الأخرى ٠

ويقوم الوزير بابلاغ الملك بفصاحة هذا الفلاح فيأمر الملك بتأجيل رد حقه اليه حتى يحصل على كل ما فى جعبة هذا الفلاح من فصاحة ٠

هنا نجد (الدولة) تشجع الناس على ابداء شكاياتهم والتعبير عما فى أنفسهم بدون خـــوف ٠

كما نجد أن الفلاح نفسه يرفع صوته كل يوم بشكواه وينتقد الحاكم ويوجهه الى اقامة العدل ٠

وفى تعاليم بتاح ــ حوتب رأينا كيف كانوا يقدرون الفصاحة تقديرا كبيرا ، وقالوا بأنها من الجائز أن توجد لدى الخادمات الوضيعات اللاتى يعملن على أحجار المســـن ٠

وفى قصة الفلاح الفصيح نرى أن هذه الفكرة مازالت سائدة ، وأن أقـــل المصريين شأنا كان يستطيع أن يتكلم وأن يكون لكلامه الأثر المرجو ، وأنهم أعجبوا بفصاحته وجعلوه يستمر فى الكلام ، مرة بعـــد أخرى ، وأن الملك ورجاله كانوا مسرورين من تلك الفصاحة وأخيرا نال ما يستحقه (وردت اليه أمواله) عندما انتهى ما فى جعبته من كلام ٠

وكذلك تلقى (مريكارع) من أبيه النصيحة الآتية :

(كن فنانا فى الحديث حتى تصبح قويا فاللسان كالسيف للرجل ، والحديث أكبر قوة من اى حرب ، لا يستطيع أحد أن يخادع الشخص الذكى القلب ٠٠ ان ماعت تاتى اليه ، وهى مصفاة (تماما) ، كما جاء فى أقوال السابقين ٠

وانى أود ان ألفت النظر الى التكريم البالغ الذى اغدقه ذلك العصر على الشخص الذى يستطيع أن يحسن بنفسه الافصاح عما يريده ٠

وسنرى فى الجزء الثانى من هـذا الكتاب أن الانهيار للروح المصرية جلب عصر (السكوت) الذى سيستمر حتى يلاحظه علماء الحملة الفرنسية عندما غزوا مصر سنة ١٧٩٨ م) ٠

ولقد حققت الشخصية المصرية ، فى هـذه المرحلة ، بايجابيتها ، تعديلاً فى الأنظمة المتوارثة (المقدسة) وأعلت من شأن القيم الاخلاقية العليا ، وفرضت المساواة بين الناس فى الدنيا والآخرة وبأن لكل فرد حقه الشخصى فى معاملة عادلة ٠

ويعترف أحد ملوك اهناسيا اعترافا مليئا بالتواضع غير المألوف ، لأنه أخطأ ، واستحق العقاب من الآلهة (ان مصر تحـارب حتى فى الجبـانة وذلك بتكسيرها للقبور ـ اننى فعلت الشىء نفسه ، وحدث لى نفس الشىء الذى يحدث لمن يخالف أوامر الآله) ٠ (أنظر ، لقد حدثت مصيبة فى عهدى . لقد تحطمت مناطق ثين ، وكان ذلك فى الحقيقة بسبب ما فعلت ، وعلمت بذلك (فقط) بعـد حدوثه ، (انظر ـ ان ما فعلته هو سبب ما جوزيت به) ٠

وكما نزلت منزلة الآله ـ الملك الى مستوى البشر العاديين ، ارتفعت منزلـة النبلاء ومعهم آخرون من عامة الشعب الى مسـتوى الحـاكم الالهى وذلك بالنسـبة للمصير فى الحياة الأخرى ٠

وفى احدى الفقرات فى التعاليم الموجهة الى (مريكارع) بأنه لا يصح أن يكرم الرجل لأجل نسبه ، بل يكرم بعمله ٠

وفى هذه المرحلة ، استجابت السماء لتطلعات الشخصية المصرية فى المساواة ، حيث تبنتها مبادىء الثورة ٠

ونعرض فيما يلى فقرة يجب أن نقف عندها ، وفيها يذكر الاله الخالق (أنه خلق جميع الناس متساويين فى الفرص ، وأنه اذا اعتدى على هذه المساواة فان ذلك يكون من خطـأ الانسان ٠

لقد خلقت اربعة أشياء عظيمة فى داخل بوابة الأفق ، خلقت الرياح الأربع التى يستطيع أن يستنشقها كل انسان كزميله الذى يعيش فى زمانه ، هذا هـو العمل الأول ، وخلقت الفيضان العظيم ، وللفقير فيه حق مماثل لحق الرجل الغنى ، وهذا هو العمل الثانى ، وخلقت كل رجل مثل زميله ، ولم آمر بأنهم يعملون السوء ،

ولكن قلوبهم هى التى أفسدت ما قلت ، وهذا هو العمل الثالث • وجعلت قلوبهم، تفكر دائما فى الغرب (أى الحياة الأخرى) حتى يستمر تقديم القرابين الآلهية لآلهة الاقاليم ، وهذا هو العمل الرابع •

هذا ويلاحظ أن هذا النص غير العادى عن حقوق الانسان تكرر ست مرات ، ولكنه لم تتكرر كتابته بعد الدولة الوسطى • وان اقتصار هذه الحقيقة الهامة عن المساواة فى الفرص لكل انسان على ذلك العصر فقط ، أمر له دلالته ، لأنهم كانوا فى ذلك العصر أقرب ما يكونون الى تحقيق الديمقراطية •

وفى ذلك العصر الذى عمت فيه المساواة الاجتماعية استطاع ايبور أن ينتقد الملك وهو مطمئن . وكذلك نرى الفلاح العادى (الفصيح) يقـــدف كبير الحجاب بتهم أقذع لأنه لم يأبه لتطبيق مذهب الحق ــ لقد قارن مثل ذلك الموظف بالتاجر الذى لا حسنة له ، والذى يركز همه فى الكسب فقط (أنظر ، انك غاســل ثياب تعس ، جشع فى اضرارك بالصديق ، يترك شريكه لأجل عميل •• أنظر ، انـــك معداوى ، لا يعدى الا من كان معه أجر ، انك تاجر بارت تجارته •• أنظر ، انك ساقى ، لذته فى القتل ، وتشويه ما ليس مسئولا عنه) ، (أنظر ، انك مدينـــة لا عمدة لها وشركة لا رئيس لها ، انك مثل سفينة لا ربان فيها وتحالف بلا زعيم •

لقد عينوك لتكون سندا للمتألم تحافظ عليه من الغرق ولكن انظر انك أصبحت البركة التى يغرق فيها الناس •

ويستمر الفلاح فيقول انه من الجائز أن ينجح « الباطل » فى اكتساب بعض المال ولكن الى مدى بسيط ولكن « ماعت » خالدة وهو أمر أحبه المصريون دائمـــا « اذا مشى الباطل يضل الطريق انه لا يعدى فى قارب التعدية انه لا يتقدم ان الذى يغنى بالباطل لا أولاد له وما من أحد من ورثته يبقى على الأرض أما « ماعت » فهى باقية الى الابد وتصحب من يفعلها الى القبر • وعندما يموت ويدفن لن يمحى اسمه من الارض بل يذكر بأعماله الحسنة هذا هو المبدأ الذى أمر به الله » •

ولا تعنى ما عت فى نصوص هذا العصر ما كان لها من معنى عادى ، يتضمن النظام الثابت ، فلم يعد الملك يقدم ماعت للآلهه كرمز الى أن النظام الذى منحتـــه الآلهة مازال ثابتا ولا يتغير ــ بل أصبحت ماعت ، فى هذا العصر ، قوة ايجابيـــة للعدل الاجتماعى ؛ ورمزا على شفقة الانسان ، ان ذلك المعداوى الذى يحمل فى قاربه الأرملة دون أن يطالبها بأجر ، يشـــبهونه بالقاضى ، وكان الملك يشـــبهونه بالراعى الذى يشق على نفسه لأجل قطيعه ، وفى ذلك العصر حديث العهد بالديمقراطية لم يكن الأمر الأهم هو حقوق الحاكم بل كانت حقوق المحكوم •

واصبحت ماعت (أى النظام ــ الصدق ــ العدل) والاستقامة وحسن المعاملة على درجة من الأهميـــة للحصول على الجزاء الأعظم ، ونيـــل السعادة الأبدية فلقد نصح الملك (مريكا رع) ابنه قائلا •

« انت تعلم ان المجلس الذى يحاكم الشخص غـير الكامل لا يظهر رفقا فى الموضوع الذى يحاكمون فيه الشخص الشقى ساعة تادية واجبهم ·· لا تثق فى طول السنين لأنهم ينظرون الى العمر الطويل كانه ساعة واحدة يبقى الانسان بعد الموت وتكوم أعماله الى جانبه وعلى كل حـال فالموجود هنا (موجـود) الى الأبد ·· ان من يصل اليه دون ان يفعل السوء سيعيش هناك كاله ويخرج كما يشاء كارباب الأبدية » بينما كان الذين يعيشون فى مصر قبل ذلك العهد يحاولون شراء الخلود بتشييد المقابر الكبيرة وتخصيص الهبات العظيمة للصرف من ريعها على القرابين بصفة مستمره ولكن هـذا الاتجاه الجديد لا علاء شـان الاخـلاق نقل مركز الاهمية من قوة الثروه الى العمل الصالح ·

وفى التعاليم الموجهة الى « مريكارع » جاء الحث على نبذ المادية فى ثلاث فقرات « لا تكن شريرا فالصبر خير · اجعل بيت ذكراك خالدا بحب الناس لك » وذلك عند مقارنه هذا الامر باقامه بيت الذكرى من الحجر « اجعل الناس يحبونك فى الدنيا كلها ان الخلق الحسن ذكرى » للانسان » والفقرة الثالثة تقول بصراحة ان الآلهة يفضلون الاستقامة عن القرابين التى يستعطفون بها الآلهة « ان خلق الرجل المستقيم القلب اقرب قبولا من ثور الرجل الشرير » اى الثور الذى يقدمه كقربان ·

ظهرت موجه من التقى بسبب أيام البؤس وظهور الشعور الجديد بان الانسان سيحاسب أمام الله عن أعماله وهو ما لم يكن له وجود فى الدولة القديمة ، كان الكثير من ذلك التقى طقسيا ومن بين النصائح التى القيت على الملك « مريكارع » ان قيامه بعمل ـ الكاهن وزيارته للاله فى المعبد واكثاره من القرابين « مفيد لروحه » ولكنه مع ذلك نصح بان « يحترم الآلهة » فقط والحقيقة التى يجب أن نضعها نصب أعيننا هى ان الفقرة التى اقتبسناها عن تفضيل الاخلاق الكريمة على القرابين أمر له دلالته واهميته العظيمة ·

وذكر « ايبور ـ ور » أشياء قليلة عما يجب أن يفعله الانسان فى المعبد أو فى مادبة ولكنه أعقب ذلك مباشرة بوصفه للحاكم المصلح بأنه راع ذو ضمير حى يسهر على مصالح الناس ويرعاها : « وسيحدث انه سيجلب الهدوء للقلب وسيقول الناس : « وبالرغم من قلة عدد قطيعه فانه قضى اليوم حادبا عليهم » ان فكرة تفضيل الراعى الصالح على صاحب القطيع الغنى الذى يعيش بعيدا عنه حولت فكرة الملكية وحق الامتلاك الى فكرة المسئولية أمام الواجب ، فللشخص حق معترف به فى ملكيته ولكن المالك مضطر لأن يبذل كل ما فى جهده ليحمى ويطعم قطيعه ·

وفى وصية الملك اخنوى لولده مريكارع يحدد فيها له وظيفته من بعده فى اتباع الحق واقامة العدل واعطاء كل ذى حق حقه وعدم ظلم الأرامل بل ورعايتها وألا يحرم شخصا من ثروة أبيه والا يطرد الموظفين من وظائفهم وألا يعاقب الناس دون خطأ جنوه وأن لا يقتل لأن ذلك لن يجديه شيئا ·

ثم نلاحظ أن الرجل ينصح ولده بالشورى الصادقة فيقول له (أن يعلى من

شأن رجاله ويقويهم لأن الغنى فى غير حاجة لمحاباه غيره . أما الفقير فانه لا يقول الحق الذى يؤمن به وانما يحابى من يملك شيئا يعطيه له .. ما أشجع الملك الذى يكون له رجال بلاط . وما أعظم وأقوى الذى يكون له نبلاء كثيرون .

وأكثر من هذا فان هذا الملك يهدف الى أن تتصل المحبه بين الراعى والرعيه اذ يوصى ابنــه أن يكثر من قراءة كتب الحكمة وألا يفعل الشر وأن يتحلى بالصبر ويترك وراءه ذكرى حسنه من حب الناس له ويحذره من الطمع وينصحه بتثبيت حدود مصر وحمايتها من اغارات الغزاة فى الشرق .

وفى هذا العصر ظهرت فكرة محاكمة الآلهة للأموات قبل دخولهم الجنة .

وظهر اله الشمس رع وهو يرأس المحكمة الالهية وكانت عملية وزن القلب تسمى « حساب الأخلاق » وهناك اشارة الى « ميزان رع الذى يزن فيه ماعت » كانوا يؤمنون بأنه عندما يموت الانسان يكون له سيئات كما يكون له حسنات ومن شأن « حساب الأخلاق على الميزان » أن تحصى السيئات ولكن اذا زادت عنها الحسنات تمحى السيئات ويسمح للمتوفى ان يذهب ليكون فى صحبة الآلهة « سيصل الى مجلس الآلهة الى المكان الذى يوجد فيه الآلهة ومعه « كا » وأمامه قرابينه وسيزكى صوته فى حساب ما يزيد وبالرغم من عده لسيئاته فانها ستمحى له أمام كل ما سيذكره » ، » ستمحى سيئاتك وسيغفر ذنبك أمام كفتى الميزان فى يوم حساب الأخلاق وسيسمح لك بأن تكون فى عداد أولئك الذين فى سفينة (اله الشمس) » ومنذ الآن فصاعدا يلقب المتوفى بأنه « صادق الصوت » أو « الظافر » ويعنى هذا بأن محكمة الموتى حكمت له بأنه شخص مستقيم .

وانه اذا كان المصريون قد أنشأوا مصر من العدم بعد استقرارهم عليها سنة ٦٠٠٠ ق . م فان المصريين قد أعادوا انشاء مصر . مرة أخرى ، من العدم بعد الثورة الاجتماعية الأولى التى أطاحت بكل شىء وباهم القيم الدينية .

وفيما يلى نعرض مبادىء الثورة التى دخلت قصور الملوك حيث يقوم الملك بالقاء الخطاب التالى لكل وزير جديد يوجهه فيه فى عمله وهذا الخطاب نابع من مبادىء هذه المرحلة وان كانت صياغته تمت بعد ذلك .

قاعدة موضوعة للوزير س . أوصل المجلس الى بهو استماع (الملك) له الحياه والرخاء والصحة (أمر الملك) أن يدخل الوزير س ــ الذى عين حديثا (★) .

وقال له الملك ــ أرع وظيفة الوزير ــ كن يقظا على كل ما يجرى فيها ــ انظر ــ انها الدعامة الوطيدة لكل البلاد .

انظر ، فيما يتعلق بالوزارة ، انها ليست حلوة ، انظر ــ انها مرة .

(★) يوضع مكان (س) اسم الوزير الذى يتم تعيينه . ومع ملاحظة اننا اكتفينا بعرض بعض فقرات من الخطاب .

انها (الوزارة) ليست اظهار ــ الاحترام للأشخاص ، للأمراء والمستشارين ، ليس ليتخذ لنفسه عبيدا من أى شعب ٠

ان الوزير يجب أن يكون مواليا للملك ٠

عندما يجيء مقدم التماس من مصر العليا أو السفلى حتى البلاد كلها ، وقد أعد شكايته ، فراع الأمر ببحث أن كل شيء يفعل طبقا للقانون وأن كل شيء يفعل وفقا للعادة التى جرى عليها (معطيا) الى كل انسان حقه ٠

انظر ــ ان الأمير فى مكان ظاهر والماء والريح يخبران فيما يختص بكل ما يفعله لأن ما يفعله لا يبقى أبدا غير معروف ٠

وعندما يتناول مسألة لأجل مقدم التماس طبقا لقضيته فيجب عليه (الوزير) الا يبدأ السير بقول ضابط مصلحة (أى ضابط ينتمى الى موظفى الوزير ويكون قد سمع المسائل المبلغ عنها ، مرة أخرى لئلا ينتج سوء تفاهم عندما يعالج الوزير الموضوع أو يسير فى قضايا محكمة أخرى ٠

ولكن يجب معرفتها من قول شخص يعينه الوزير ويدلى بها بنفسه فى حضور ضابط مصلحة بالكلمات (ليس لى أن أرفع صوتى ولكن أرسل مقدم الالتمـاس (طبقا لقضيته) الى محكمة أخرى أو أمير وعندئذ لا يساء فهم ذاك الذى فعله) ٠

انظر ، ان ملاذ الأمير هو أن يعمل طبقا للقاعدة بأن يفعل ما يقال له ، ان مقدم الالتماس الذى حكم فى التماسه (لا يقول) ان حقى لم يعط لى ٠

انظر ، انه قول كان موجودا فى (النصب الوزارى) فى ممفيس فى نطقـه الملك وهو يحض الوزير على الاعتدال ٠٠ (احترس) من ذاك الذى يقال عن الوزير خيتى ، يقال انه فصل ضد بعض الناس من ذوى قرابته (لصالح) غرباء خشية أن يقال عنه انه (حابى ذوى قرابته) (من غير أمانه) وعندما استأنف واحد منهم ضد الحكم الذى ظن أنه (يوصمه) فانه لزم فصله ــ والآن ، انه أكثر من عدالة ٠

لا تنسى أن تحكم بعدالة ٠ انه ممقوت لدى الاله اظهار التحيز ٠

هل يمكنك أن تعمل وفقا لهذا الأمر الذى يصدر اليك ــ أنظر ــ انها طريقة النجاح ــ الى جانب توجيه التفاتك الى أراضى التاج والقيام على توطيدها ٠

واذا حدث أنك تقوم بالتفتيش ، فحينئذ يجب أن ترسل للتفتيش المشرف على قياس الأرض ، وعسس المشرف على قياس ــ الأرض ــ واذا كان يوجد شخص يقوم بالتفتيش قبلك ، فحينئذ يكون عليك أن تقول له (راع القاعدة) التى وضـعت على عاتقك ٠

ان أهم توكيد فى كل وثيقة الدولة الرائعة هذه هو عن العدالة الاجتماعية ، أن منصب الوزير ليس الغرض منه اظهار أى تفضيل للأمراء والمستشارين أو استعباد أى أفراد من الشعب ٠ ان كل قضاء يجرى يجب أن يكون وفقا للقانون فى كل حالة ،

بدون أن ينسى أن موقف الوزير هو موقف ظاهر للعيـــان "كل الظهور حتى أن كل اجراءاته معروفة على نطاق واسع بين الناس ، حتى الأمواه والرياح تبلغ افعاله للجميع _ وليس معنى العدالة أن يوقع الجور على أولئك الذين قد يكونون في مراكز عالية كما في قضية خيتي وزير منف القديم ذائعه الصيت ، ذاك الذى أصدر قرار ضد ذوى قرابته على الرغم من وجود حق أو باطل ملازمين ، فى القضية ، ان هـذا ليس عدلا ٠

ومن الجهة الأخرى فان العدالة تعنى عدم التحيز فى دقة تامة ، أى المعاملة دون تفرقة بين المعروف وغير المعروف ، بين ذاك الذى يجاور شخص الملك وذاك الذى لا يستمتع بأية صلة بالملك _ ان ادارة مثـل هذه ، ستضمن للوزير بقاء طويلا فى الوظيفـة ٠

وبينما يجب على الوزير أن يظهر أعظم تبصر فى سورة غضبه فيجب أن لا يقلل من شأن نفسه لكى يضمن احترام الجمهور وحتى خوفه ٠

ولكن هذا الخوف يجب أن يكون أساسه الوحيد هو النهوض بالعدالة دون تحيز لأن الخشية الحقة من الامير تكون فى أنه يقيم العدالة ٠

ان هذا البرنامج عن الرفق الاجتماعى والعدالة الذى فيه يحب الملك الخائف الذى لا عون له أكثر من القوى اللئيم ، دافعه دينى كما يتجلى بوضوح ، ويقول الملك انه ممقوت لدى الاله اظهار التحيز ٠

ان الملك يلقى وصايته بما لا لبس فيه ، على الوزير ، ولكن فى نفس الوقت لا شبهة فى رفع الأمر الى محكمة أعلى _ يجب على الوزير أن يقيم العدالة لأن الاله العظيم يخفس الجور ، ليس فقط لأن الملك أمر بها ٠

ولنترك القصر ونيمم شطر الأقاليم والمقاطعات حيث نجد على باب قبر حاكم مثل أينى (فى بنى حسن) البيان التالى عن سياسته الادارية كسيد للأقليم (لم تكن توجد ابنة مواطن أسأت اليها ، لم تكن توجد أرملة أوقعت عليها خطبا ٠

لم يكن يوجد فلاح أبعدته (انتزعت ملكه) _ لم يكن يوجد راعى قطيع طردته ٠
لم يكن يوجد مشرف على خمسة أخذت أهله من أجل الضرائب (التى لم تدفع)٠

لم يوجد تعس فى مجتمعى ٠ لم يكن يوجد جوعان فى عهدى ٠ وعندما حلت سنوات المجاعة حرثت كل اقليم المهاة (ضيعته) حتى تخمه الجنوبى وتخمه الشمالى وحافظت على حياة الناس وقدمت طعاما حتى لم يكن يوجد فى عهدى جوعان ٠ وكنت أعطى الأرملة كما كنت أعطى ذات البعل ، ولم أرفـع الرجل العظيم فـوق الرجل الوضيع فى كل شىء أعطيته _ ثم جاءت أوقات ازداد فيها النيل ازديادا عظيما مستحوذا على الحنطة وكل الأشياء ٠ ولكن لم أجمع متأخرات الحقل) ٠

انه يمكننا أن نتبين تحولا عظيما _ ان التشاؤم ، الذى كان يرى فيه رجال عصر الاقطـاع الباكر الحياة الدنيوية وهم يشاهدون جبانات عصر الأهرام المهجورة

أو عندما كانوا يجيلون الفكر فى الآخـرة ، وخيبة الأمل فيهـا ، التى كانت تراود بعضهم ، فوبلا بتيار مضاد متواصل فى انجيل الاستقامة والعدالة الاجتماعية الذى كانت له السيادة ، والذى عرضته فلسفة المفكرين الاجتماعيين الاكثر تفاؤلا ، التى يشيع فيها الرجاء ، الرجال الذين كانوا يرون بالامل فى الجهد الايجابى الذى يبذل فى سبيل أحوال أفضل ٠

١ ـ فى النظام الاقتصادى :

كان لظهور الطبقة المتوسطة وما انتهت اليه مبادىء الثورة ظهور الملكية الخاصة والنشاط الخاص للطبقة المتوسطة وهذا يبين من استعراض أبطال قصـــة الفلاح الفصيح حيث نجد فيها المالك والتاجر والموظف ٠

كما انه عثر على رسائل لمواطن يسعى حقا نحت يتبين منهـا مزاولته لأعمال التجارة فضلا عن ملكيته الخاصة لبعض الأراضى فى الوجه القبلى والبحرى وفى نفس الوقت يشغل وظيفة كاهن لروح الوزير ايبى ويدخل فى اختصاصه ادارة الأملاك التى أوقفها ذلك الوزير للصرف من ريعها على مقبرته (٩٠) ٠

وعلى كل حال فقد ظهرت شخصية الفرد فى هذه الفترة مما لا يتأتى الا عن طريق تحرره من العبودية للغير فى الأرزاق بصفة أساسية ٠

وبذلك تحرر الانسان من اعتماده على مصدر واحد فقط فى لقمة العيش وهو الملك ، كما نجا الانسان بنفسه من الاعتماد على الغير فى أرزاقه خاصة بعد أن نبين أن هذا الغير قد احتجز لنفسه وللمقربين منه ، فى حياتهم ومماتهم ، معظم اقتصاديات مصر ٠

٢ ـ فى النظام السياسى :

انتهت مبادىء الثورة الى عدم احتكار الملك لكافة السلطات ووزعت الكثير من سلطاته على حكام الأقاليم مع استمرار ولائهم للملك ٠

وفى هذا اتجاه الى اللا مركزية (دون تفتيت وحدة الدولة) وهو نفس الشىء الذى تسعى الى تحقيقه النظم المعاصرة ٠

ولقد نشأت الطبقة المتوسطة فى هذه الفترة ، ولأول مرة فى التاريخ المصرى حيث كان المجتمع مقسما قبل ذلك الى طبقتين فقط ، طبقة عليا من الملك وأسرته وحاشيته وكبار موظفى الدولة وأمراء الاقاليم وكبار رجال الدين ، ثم طبقة دنيا تتكون من عمال الزراعة والصناعة والصيادين والملاحين والرعاة والخدم وجميع أصحاب الحرف الذين يعملون فى الخدمات العامة والخاصة (٩١) ٠

ولكن الثورة التى كان المحرض الأساسى لها هى الطبقة المتوسطة الوليدة ، قد أتاحت المناخ الملائم لظهور هذه الطبقة وأن تأخذ وضعها القوى المؤثر فى الاحداث ٠

وكان قوام هذه الطبقة صغار الموظفين والتجار وأصحاب الحرف الممتازة وصغار رجال الجيش ٠

وكان أفراد هذه الطبقة أحرارا أى غير مستعبدين لغيرهم ٠

ومن هذه الطبقة قفز أفراد لتولى حكم مصر سواء فى الدولة الوسطى أو فى الدولة الحديثه مثل أى وحور محب ورمسيس الأول ٠

وفى هذه الفترة التى نؤرخ لها دخلت الطبقة المتوسطة الى المعترك السياسى مما جعل للرأى العام وزنا فى جميع ميادين النشاط العام وكان الملوك يسعون الى تأييدهم ومساندتهم ومن ثم نشأ أدب للدعاية (٩٢) ٠

وبهذا لم يعد الصراع على المغانم والمناصب قاصرا على القلة المسيطرة ٠

تحولت فكرة السلطة المطلقة الى ناحية انسانية ، بفعل اصلاحات ملوك مشرعين (فى دولة اهناسيا) وكان سلطان الملك فى الدولة القديمة عقيدة منزلة من السماء ، فنفذها (الملوك) فى دقة وصرامة ، ورضى المحكومون بها دون تردد ـ (ولكن مبادىء الثورة تمخضت عن تعاليم تحاول أن تكون انسانية ، تقوم على حكم العقل ، ويصبح دار الملك مثابة للقانون ، ولم يكن قانون تعاقـدى ، يطبق فى العلاقات السياسية والتجارية ، وانما هو قانون اجتماعى ينشىء العلاقات بين الشعب والملك على أساس من العدالة الالهية فى العالم الآخر ٠ فلا يحسب الملك أنه يضعف من سلطاته اذا أشرك الشعب فى ادارة أملاكه ٠ وبذلك يتطور نظام الحكم الى شىء قريب من نظام اشتراكية الدولة ٠ والهدف دائما هو خير الجميع) (٩٣) ٠

وليس عندنا تعقيب عن هذه المرحلة أفضل مما كتبه جون ولسون فى كتابه عن الحضارة المصرية وهو ٠

« كان ذلك العصر ، هو العصر الديمقراطى فى مصر القديمة ٠ ونرى من الواجب توضيح ما قصدناه من هذا التعبير ، لأن تعبير الديمقراطية له أكثر من معنى واحد ، وأصبح له فى عصرنا الحاضر رنين مثير ٠ ففى سياق حديثنا لم نقصد بالديمقراطية نوعا من أنواع الحكومة ، تسود فيه ـ أو يظنون أن تسود فيه ـ قوى الشعب الى أكبر حد ، ولكننا قصدنا المعنى الثانوى المعروف الذى يعبر عن المساواة الاجتماعية ، دون التفات الى الحواجز السياسية أو الاقتصادية ، فى الايمان بأن جميع الناس متساوون فى الحقوق ، ومتساوون فى الفرص ، أو مفروض أنهم ذلك » ٠

(أصبح) هناك ايمان بالعدل الاجتماعى لكل شخص عاش فى ذلك الزمن ، حتى أفقر الناس كان صاحب حق فى عطايا الآلهة لأن الآلهة الخالق (خلق كل انسان مثل زميله) ٠ على أى حال ، فان المســاواة الاجتماعية لم تعن الديمقراطية السياسية ، وحكم الأغلبية ٠

فقد ساوى الاله الخالق بين جميع الناس ، فى حصولهم على الهواء والماء ، وعلى

حكم صـــالح يقيمه الاله ــ الملك ، أو من ينوبون عنه ، ولكن (ماعت) أى سيادة القانون والصدق والعدالة ظلت أمرا خاصا بالآلهة ، وكانت من بين ما منحته للملكية ، وكانت تعبد كالهة . ولكن هذا العصر أصر على أنه يجب أن تنزل (ماعت) لتعانق كل مصرى ، مهما كان وضيع المركز ، وكان لهذا المصرى الحق فى الاصرار على أن يكون له مثل هذه المعاملة الديمقراطية من حكامه .

ومما يوضح لنا القوة الروحية فى الحضــارة المصرية فى ذلك العصر ، هو أن الدولة عاشت بعد مرضها الأول الشديد (فترة الثورة) وخرجت منه ، وهى أشد هزالا ، ولكنها أكثر يقظة ورافعة رأسها تيها ، متطلعة نحو الأمام .

كانت الحالة فى عهد الدولة القديمة ، حياة مرحة ملأى بالسرور ، وكان الناس يعيشون فى دنيا تسيطر عليها المادية ، والنجاح الاجتماعى ، تراءت لهم تلك الحياة ثابتة كالأهرام ، فلما انهارت ، وكان انهيارها عنيفا ، ولم تخلف غير الاضطراب بين انقاض خرائبها ، وكان على المصريين أن يعيدوا التفكير فى تقدير قانون قيم الأشياء . فهل كان من الأمور المشرقة لهم ، أنهم خرجوا من تلك المحنة بشىء ايجابى ، وملىء بالتفاؤل ، وهو حق كل انسان فى الوصول الى خير أعم ؟ .

ظل المصريون كما كانوا من قبل ، على احساسهم القوى بنصيب بلادهم وتطلعهم للخلود ، فلم يتركوها ، ولم يضحوا بمبادئهم العملية أو المادية ، ولم يفرطوا فى المبدأ الذى كان يسيطر على الدولة ، وهو أن الحكم كان من نصيب الاله ــ الملك ، لم يتركوا شيئا من ذلك كله ، بل احتفظوا به ، رزادوا عليه مبادىء المساواة الاجتماعية ، والعدل الانسانى .

واذا قدرنا أنهم آمنوا بتلك الآراء وطبقوهــــا قبل أن تظهــر بين العبرانيين واليونانيين بأكثر من ألف سنة ، وجب علينا أن نشيد بفضلهم لهذا التفكير السامى .

وسنرى فى (الجزء الثانى من الكتاب) أن هذا التفكير ، ولد من جراء المحنة الوطنية ، ولم يكن فى استطاعته أن يعيش فى أيام رخاء البلاد ، وعودة المادية من جديد فلما تعرضت البلاد (لاحتلال الهكسوس) وثلثهــا الروح الوطنية التواقة للتوسع (الامبراطورى) .

أصـــــبحت وحدة الدولة أهم بكثير من حقوق وفرص الأفراد ، واختفت فكرة المساواة والعدل الاجتماعى .

تلك هى قصة شعب رأى مرة صورة واضحة ، لكنها بعيدة للأرض الموعودة ، ولكن انتهى به الأمر بأن يظل تائها فى البرية) .

ولكن ... الى متى ... ؟ ...

هذا ما سنقدم الرد عليه فى الجزء الثالث من هذا الكتاب باذن الله .

٣ ـ فى الثمار المادية والفكرية للوحدة :

انتهت مبادىء الثورة الى مسئولية الحاكم باعتباره الراعى لشعبه ، عن توفير كل المطالب المادية للناس .

ونرى خروج هذه المبادىء الى خير التنفيذ الفعلى فيما قام به ملوك الدولة الوسطى ، من استصلاح ٣٠ الف فدان بمنطقة الفيوم مع ما ترتب على هذا المشروع من اقامة المدن والقرى وزيادة الانتاج الزراعى مما كان له أثره على اشباع حاجات الناس .

كما نرى أن كلا من حكام المقاطعات (المحافظات) يتباهون فى نقوش قبورهم انه لم يكن فى عهدهم جائع أو عريان وأنهم أشبعوا حاجات مواطنيهم المادية وحاجاتهم فى العدالة والاطمئنان .

اذ بهذا فقط كان يستحق الحاكم رضـــا الهه فى العالم الآخر فضلا عن رضا المحكومين .

أما عن الثمار الحضارية للوحدة حول النظام المختار فى الدين (والاقتصـــاد والسياسة والاجتماع) وتحت قيادة القادة القدوة فكان يتمثل فى ما قدمته مصر للبشرية من التعرف لأول مرة على طلوع فجو الضمير الذى لا يقل فى الأهمية عن طلوع فجر العلم (بمصر القديمة والعصر العتيق) .

وقدمت مصر فى هذه الفترة ، لأول مرة الى البشرية مبادىء ونظما فى الأخلاق وفى نظام الحكم (الديمقراطى) وفى الحرية الاقتصادية وحرية الكلمة وحرية التعبير واحترام كرامة الانسان .

وقدمت مصر الى البشرية ، لأول مرة ، انسانا حرا يعبر عن فكره وعواطفه بصدق وبصراحة وبدون خوف ، فكان انتاجه فى الأدب وفى الفن مصورا للطبيعة وللحقيقة دون الجمود عند خطوط معينة .

وقبل أن تكبر هذه الحضارة وتشتد لمواجهة الأعاصير ، تغلبت الأسرة الحاكمة فى طيبه فى الصعيد على دولة اهناسيا وهدمت ، بالتدريج ، كل منجزات الثورة ولتحل محلها نفس النظم التى ثار عليها الشعب فى أواخر الدولة القديمة وذلك ابتداء من الأسرة الثانية عشرة سنة ٢٠٠٠ ق . م) .

الباب السادس

فى القوة الدافعة للحضارة المصرية

١ – فى توضيح بعض المفاهيم الخاطئة عن السلف :

وبهذا المناسبة فانه من المهم ايضاح بعض الموضــوعات الأساسية فى الديانة المصرية القديمة وقد تغيب حكمتها عن بعض القراء فيسخرون من أجدادهم فى مواضع يتحتم عليهم الفخر بها .

وهذه الموضوعات هى ، البعث ، وعبادة الحيوانات ، والمعابد .

وبالنسبة للبعث فقد كان يمثل حقيقة واقعة عند كل مصرى مثلما يمثل غياب الشمس مساء فى نظرة معنى الموت وشروقها فى الفجر معنى البعث والحياة .

انه من المهم حتى نتعرف على الحقيقة ان نؤمن تماما بأن القوم كانوا جادين فى الايمان بحتمية البعث مثل ايماننا نحن اليوم بحتمية عودة الشمس للحياة فى فجر اليوم التالى .

وعن عبادة الحيوانات فان القوم لم يكونوا يعبدونها لذاتها أبدا . بل لأنها فى اعتقادهم ، أصلح الأشكال وأصفى المرايا لظهور الاله .

فالمصريون صنعوا تمثالا للعجل على أنه أنسب الأشكال ليتقمصه الاله أبيس وفى الوقت نفسه كانوا يأكلون لحم العجول ويذبحونها ولم يحرموها .

كما قدسوا التمساح ولم يمنعهم ذلك من قتله دفاعا عن النفس .

وقدسوا البقرة على أن الالهه حتحور تتقمصها ولم يحل هذا التقديس بينهم وبين ذبح البقر وأكل لحمه .

ويؤيد هذا أن المصرى عندما اختار بقرة معينة لعبادتها واحتفظ بتمثال لها فى معبد خاص لاقامة الطقوس لها ، لم يطلق عليها الاسم الحيوانى المعروف به وهو (أوات) أو (أحث) بل أطلق عليها الاسم الربانى (حتحور) وهكذا فى سائر العبادات (٩٤).

انما هى عزلة القوم عن غيرهم ، وقدرهم فى أن يكونوا روادا فى الفكر ولم يجدوا فى البيئة من حولهم الا هذه الأشكال حيث يانس آلهة الخير والشر والكون فى التواجد (بأرواحها) فى هذه التماثيل بالذات بعد طقوس معينة تقام فى المعبد .

وهم على كل حال كانوا فى عهد تجسيم الأديان ولم تترق الانسانية الا بعد آلاف السنين لأجل أن تؤمن بالقيم المجردة وبالغيبيات .

وبالنسبة لموضــوع العبادة والمعابد (فقد اعتبر المصريون المعبد سكنا خاصا للاله الذى يحتاج الى مجموعة من الناس يقومون على خدمته كسيد مهاب ، له أن يتمتع فى مسكنه بما يتمتع به من تميز بالسلطة والرئاسة) .

وبعد بضع طقوس معينه ، يقوم الكاهن بوضع القرابين الطازجة فوق مائدة القرابين ثم يغلق باب قدس الأقداس على التمثال والطعام .

فاذا ما حلت روح الاله فى الجسد (اى التمنال) أصبح الاله موجودا فى المعبد ويأخذ الكاهن فى معاملته كما يعامل الملوك فى قصورهم ٠

واذا ما رضى اله بالخدمات التى نؤدى له ، يمنح الملك حياة أبديه وسعادة وصحة طيبه ونصرا ، سواء فى أعماله الداخلية أو فى معاركه التى يقودها ضد أعداء البلاد ٠

وبما ان الملك هو الوسيط الوحيد بين الالهه والشعب فكل ما يصيب الملك سيصل أيضا الى الشعب ٠

وبهذا يكون ارضاء الالهة باقامة المعابد لها وعمل التماثيل للحيوانات والطيور وغيرها التى هى فى اعتقادهم ، حسب بيئتهم وعصرهم أصلح الأشكال لتحل روح الآلهة بها مع اثرائها بالقرابين ، هو مسألة أساسية فى حياة الأجداد والا فمن يدفع عنهم الضر اذا حل ومن ذا الذى يجلب الخير لهم اذا أعوزهم ومن ذا الذى يطمئنهم على مسيرة الكون ونظامه ان لم يطمئنوا على رضاء خالق الكون وسيدهم ؟ (٩٥) ٠

ومن هنا أيضا يتعين ملاحظة أن الذى يأكل القرابين وينعم بخيرات الأوقاف الضخمة للمعابد والآلهة هم الكهنة ٠

ولهذا لا ندهش أن أصابهم الصرع والترف وكانوا معاول هدم للحضارة المصرية٠

كما يعتقد بعض الناس أن فى تاليه المصريين لمليكهم سبة فى جبين أجدادهم هم منها براء ٠

والحقيقة التى يجب أن لا نغيب عن الأذهان أن الدين الاسلامى قد أطلق على البشر الذين عاشوا قبل الرسالات السماوية وأولها الديانة الموسوية اسم أهل الفترة وأنهم لا يحاسبون دينيا على ما انتهوا اليه بفكرهم من تاليه بعض الأشخاص أو تقديس بعض التماثيل أو تعدد الآلهة والى غير ذلك مما حطمته الأديان وذلك مصداقا لقوله تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) حيث نفت الآية بصريح اللفظ أن يكون من الله تعذيب الى غاية هى أن يبعث رسلا ، وقال فى آية أخرى بعد أن قص علينا ايحاءه للرسل (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل)

بين العلة فى ارسال الرسل وهى قطع الحجة للناس على الله بعد الارسال فتكون الحجة بدون ذلك الارسال ثابته (٩٦) ٠

وعلى هذا فلا حساب على الشعوب التى قدست ملوكها أو أشركت بالله بغير علم أو أقامت تماثيل من الحجارة على أشكال انسانية أو حيوانية وقدمت لها القرابين المقدسة وتضرعت لها لتدفع عنها ضررا أو لتجلب لها منفعة ٠

ولا ملامة ولا حساب على ما انتهوا اليه بفكرهم من شعائر وعقائد دينية قبل الرسالات السماوية ٠

هذا من ناحية العقيدة الاسلامية وما يقره العقل السليم ٠

أما من الناحية التاريخية فليست مصر وحدها التى ألهت ملوكها ٠

وذلك أن شعوبا كثيرة كانت تسبغ صفات الألوهية على ملوكها مثل الرومان واليابانيين بل والانجليز حتى عصر شارل الثانى : اذ ساد الاعتقاد بأن الحاكم الآعلى يحرز طاقات خارقة لأن الدماء الملكية تفترق فى بعض النواحى عن دماء عامة الناس ، والا لما تمايز الملوك عن بقية الخلق ٠

ولا شبهة فى أن النظرية المصرية عن تأليه ملوكها لا تزال تجد صداها فى البلاد التى لا تزال تحتفظ بالنظام الملكى ٠ اذ يلقب الحاكم الأعلى ب (الملك) وينادى ب (صاحب الجلالة) ويلقب أعضاء الاسرة الحاكمة بلقب (صاحب السمو) ٠٠ كما تفرض الحكومة مراسم خاصة للتعامل مع حكامها تبلغ ذروتها فى الدول ذات النظام الملكى العريق (٩٧) ٠

أما عن ما هو شائع بين غـير المتخصصين من أن ملوك مصر كانـوا فراعنة ومتجبرين مستندين فى ذلك الى ما جاء عن فرعون مصر فى قصة سيدنا موسى عليه السلام فى القرآن الكريم فحقيقة الأمر أن كلمة فرعون قد أتت من اللفظ المصرى القديم (برعو) أى القصر العظيم (قارن فى ذلك الباب العالى والبيت الأبيض) (٩٨)٠

ولم يستعمل المصريون لفظ فرعون للدلالة على ملك مصر الا ابتداء من الاسرة الثامنة عشرة سنة ١٥٧٠ ق ٠ م ٠ وعندما ظهر سيدنا موسى بعد ذلك بعدة قرون كانت مصر تحتضر فى العصر الذى سنتكلم عنه فى الجزء الثانى ٠ وفى هذا الوقت أصبحت كلمة فرعون تدل على معنى البطش والتجبر فضلا عن دلالتها على ملك مصر ٠

وذلك أن مصر كانت تمر فى هذه المرحلة بفترة الضعف والتفكك والانهيار والفقر فوقعت ، نتيجة لهذا التجبر (والفرعنه) تحت الحكم الأجنبى لما يزيد على عشرين قرنا من الزمان مما سنتناوله فى الجزء الثانى من الكتاب ٠

وهذا هو ما يتفق تماما مع القرآن الكريم ٠

وصدق الله العظيم ٠

أما عن صلة القرابة بين الأجيال المعاصرة وبين المصريين القدماء فالثابت علميا أنه لا يوجد فى التاريخ شىء اسمه الجنس النقى أبدا ، فجميع البشر اختلط بعضهم ببعض وخاصة أن المعروف أن النساء ظلت مشاعه بين الرجال فى القبائل الأولى لآلاف السنين كما أن صلة الرجل بعملية الانجاب ظلت غير مفهومة لآلاف السنين (٩٩)٠

وعلى كل حال فان المصريين الأوائل هم خليط من الجنوب الذى أتى من أفريقيا ومن الشمال الذى أتى الى الدلتا من الغرب الافريقى والشرق الأسيوى بما فيها ما أصبح يسمى جزيرة العرب والشام ٠

والمعروف أن معظم الغزاة الذين اختلطت دماؤهم بالدماء المصرية جاءوا من هذه الجهـــات ٠

أما عن اهمية هذه الدراسة ومدى انتفاعنا بها فنعرض ما قاله جون ولسون فى كتابه عن الحضارة المصرية ٠

(اننا نبذل الآن كل ما فى وسعنا لنحيا حياة أفضل ، ولهذا يهمنا أن نعرف شيئا عن أية حضارة سادت بين الناس فى وقت من الأوقات ، وخاصة اذا كانت تلك الحضارة قد نجحت واستمرت قرونا عديدة ، ونستفيد فائدة كبرى اذا ما استطعنا ادراك الأسباب التى جعلت من تلك الحضارة شيئا ناجحا أثناء تلك الفترة الطويلة ، والوصول الى الأسباب التى أثرت على تلك الحضارة وحالت دون استمرارها » ٠

٢ ــ فى القوة الدافعة للحضارة المصرية

آمنت مصر بأن كافة نظمها السياسية والاقتصادية والاجتماعية انما هى نابعة من عند الاله الخالق نفسه ٠٠ وأن كل عمل لاقامة هذه النظم وسيادتها انما هو عمل يرضى عنه الاله ٠

وعلى العكس من ذلك فان الناس تجنبوا أى مخالفة لهذه النظم والاحق عقاب الخالق ٠٠

كانت القوة الدافعة وراء الحضارة المصرية كامنة فى الدين وفى الايمان المطلق به من الكافة ٠

ولقد فعلت قوة الايمان بالدين ما هو أقرب الى المعجزات ٠٠

(فما حدث فى عصر ما قبل الأسرات فى مصر أشبه بتفاعل كيميائى بطىء انتهى برد فعل فجائى ، وكأنما كانت هناك قطرات كيماوية تتساقط خلال زمن طويل فى محلول دون أن تحدث أى تغيير فى تركيب المحلول ، ثم حدث أن المحلول تغير سريعا فى وقت قصير نسبيا ، فوجدناه فى الوعاء مادة مختلفة فى التركيب (١٠٠) ٠

وكان الايمان العميق بالدين وبقدسية النظم هو القوة الدافعة وراء هذه النهضة الحضارية السريعة على أرض وادى النيل ٠

وقد ظلت مصر ، دائما ، فى شغاف قلبها مجتمعا دينيا يتعلق بكل جوارحه بالتقاليد المقدسة ٠

(فنظم الادارة والأدب والفن والدين ٠٠٠٠ الخ كانت كلها من النظم المقدسة) (١٠١) ٠

كانت الدعامة الأساسية فى ذلك النظام هى بطبيعة الحال المذهب القائل بأن الدولة كانت ملكا للحاكم الذى كان الها ٠ كان المصريون بالرغم من المظاهر السطحية

للأساطير والمراسيم الخفية ، شعبا عمليا يعنى بما ينفع • فنظام الحياة ، والوطنية التى كونوها لأنفسهم كانت فى نظرهم صالحة الى أبعد حد • فأعطوها صفة الهية بأنها أتت من شخص الاله الذى كان مالكا وحاكما للبلاد (١٠١) •

(بل ان مصر فى أوائل أيامها لم تنتج شيئا ذا طابع دنيوى محض ، فليس هناك أدب يرمى الى التسلية الرخيصة ، ولم تنتج فنا من أجل الفن نفسه • بل كان لكل من الأدب والفن هدف عملى ، وكان هـذا الهدف متصـلا اتصـالا وثيقـا بالدين) (١٠٢) •

(وفى أيام الدولة القديمة ، كانوا ينظرون الى مكاتب الحكومة كأنهـا حرم مقدس ، فلما انهارت الحكومة المسئولة (فى الفترة الأولى) صاح حكيم مصر قائلا (حقا لماذا يقرأ الناس كتابات الديوان المقـدس •• أن مكان الأسرار أصبح مكشـوفا للجميع •• فلماذا تفتح المكاتب وما الذى يدعو لقراءة التقارير •• لماذا نقلوا كتابات الكتاب الذين كانوا يجلسون على الحصير •• ولماذا ألقوا بقوانين الديوان فى الطريق ، ان الناس يمشون فوقها فى الشوارع •• ويمزقها العامة فى الطرقات) (١٠٣) •

الدين فى العلاقات السياسية

يقول برستيد (فى العهد الذى جاء بعد سنة ٤٠٠٠ ق • م بدأت الحكومة فى (النظام السياسى) الذى كانت البلاد تحكم به فى عهد الاتحادين المتعاقبين (بين الوجه القبلى والبحرى) ، تحوز مكانه فى أذهان القوم بجانب ما حازته دنيا المظاهر الطبيعية ، وهذان الاتحادان اللذان يعدان أقدم ما عرف من الأنظمة القومية العظيمة فى تاريخ الانسان قد وضعا أمام أعين الناس صورا خلابة لمظاهر الحكومة ، فكان لذلك على ممر الزمن أعمق أثر فى الدين ، ومن ثم بدأت المظاهر الحكومية تنتقل الى عالم الآلهه حتى صار الاله العظيم يسمى فى بعض الأحيان ملكا •

ومن خطبة الفلاح الفصيح الى الحاكم حيث يوجهه الى واجباته ومسئولياته فى الحكم (مولاى) ، انك (رع) رب السماء مع حاشيتك ، ان أقوات بنى الانسان منك لأنك كالفيضان ، وأنت اله النيل الذى يخلق المراعى الخضراء ويمد الاراضى القاحلة ، ضيق الخناق على السارق ، واحم التعس ، ولا تكونن كالسيل ضد الشاكى ، احذر ، فان الأبدية تقترب ، وفضل أن تعمل حسب المثل القائل (ان نفس الأنف اقامة العدل أو الحق) (الماعت) ، ونفذ العقاب فى من يستحق العقاب ، وليس هناك شىء يعادل استقامتك ، هل يخطىء الميزان ! وهل تميل عارضة الميزان الى أحـد الجانبين •• لا تنطق كذبا لأنك عظيم (وأنت بذلك مسئول • لا تكن خفيفا لأنك موزون ، ولا تتكلم بهتانا لأنك الموازين ، ولا تحيدن لأنك الاستقامة • افهم أنك والموازين سيان ، فاذا مالت فانك تميل (كذبا) ولسانك هو المؤشر العمودى للميزان ، وقلبك هو المثقال وشفتاك هما ذراعاه) •

وهذه المقارنات بين أخلاق (الحاكم) وبين الموازين تظهر مرات متكررة فى خطب ذلك الفلاح . والعبرة التى تؤخذ من ذلك واضحة ، اذ أن مفتاح الطريق الى الحق بأيدى الطبقة الحاكمة فاذا هم أخفقوا فى اتباعه ففى أى مكان اخر يمكن الحصول عليه ! اذ كان المرجو منهم آن يوازنوا بين الحق والباطل ثم يفصلوا بقرار عادل كالموازين الدقيقة التى لا تخطىء . وبتلك الكيفية كانت الموازين تؤلف رمزا شاع تداوله فى الحياة المصرية حتى صارت كفتا الميزان تظهران فى (النقوش) بمثابة رمز مجسم لتصوير محاكمة كل روح فى الحياة الاخرة .

وقد وجدت الموازين فى ذلك المقال لأول مرة فى تاريخ الأخلاق . وقد بقيت صورتها وهى منصوبة فى يد آلهة العدالة العمياء رمزا لذلك الى يومنا هذا . ولذلك بدأت المشاعر الباطنية (للضمير) تسمع صوتها للانسان . ولأول مرة صار الانسان يدرك القيم الأخلاقية كما نعرفها الآن . وعلى ذلك أصبحت قوة الانسان الظاهرة المنظمة ، وقوة الوازع الخلقى الباطنية فيه ، تؤلفان قوتين مكرتين فى تشكيل الديانة المصرية . وتدل المصادر التى وصلت الينا على أن الوازع الخلقى قد شعر به المصريون الأقدمون قبل أن يوجد الشعور به فى أى صقع آخر .

الدين فى العلاقات الاجتماعية :

(وفى الوقت نفسه كانت علاقات (الحياة الاجتماعية) تؤثر تأثيرها فى الدين من زمن بعيد أيضا . فوصلت دائرة حياة الاسرة الى درجة سامية من الرقى تزينها العواطف الرقيقة التى أوشكت على التعبير عن مظاهر الرضى أو السخط ، وأفضت الى تصورات عن السلوك الحميد .

ويؤكد بتاح حتب فى حكمه التأكيد القوى على وجوب مراعاة حسن الذوق واستعمال الذهن ، وأحسن الصفات القيمة التى يجب على الشباب أن يتحلى بها أن يكون قادرا على الاصغاء أو الطاعة ، فنجده يقول (ان المستمع هو الذى يحبه الاله ، أما الذى لا يستمع فانه هو الذى يبغضه الاله والعاقل هو الذى يجعل صاحبه مستمعا أو غير مستمع ، ان ثروة المرء العظيمة هى عقله ... فما أفضل الابن عندما يصغى لأبيه ، والابن اذا وعى لما يلقيه عليه والده فانه لن يخيب فى مشروع من مشروعاته . وعليك أن تعلم من يستمع اليك كأنه ابنك ، ما أكثر المصائب التى تنزل بمن لا يستمع ، والرجل العاقل يبكر فى الصباح ليصلح من شأن نفسه ، أما الجاهل فانه يصبح فى حالة ارتباك كما أن الأحمق الذى لا يستمع ، فانه لم يسىء اليه أحد ، بل هو يعتبر الحكمة جهلا ، وما يفيد كما لا نفع يرجى منه ، والابن المطيع (الذى يستمع) ... يصل الى الشيخوخة وينال الاحترام . وهو يتكلم بدوره لأولاده معيدا لهم نصائح والده ... فهو اذن يتحدث لأولاده وهم بعد ذلك يتحدثون الى أولادهم ..

من ذلك يتضح انه منذ القرن السابع والعشرين ق . م كان السلوك قد أصبح أمرا تقليديا وحكمة ذات معيار يرثها الابن عن أبيه .

وعن علاقات الجوار أو الطائفة اخذ السلوك الحسن يتسع حتى صار يشمل الجيرة أو الطائفة قبل عصر الأهرام بزمن طويل ٠ فمن ذلك أننا نجد أن أحد الموتى يقص علينا فى نقوش قاعدة تمثال جنازى له منصوب فى قبره ، وقد صوره المثال بصورة ناطقة له كأنها هو : (لقد طلبت الى المثال أن ينحت لى هذه التماثيل ، وقد كان مرتاحا للأجر الذى دفعته اليه) ٠ كما يقول مدير ضيعة يدعى (منى) فى نقوش مأخوذة من مقبرته التى من عهد الأسرة الرابعة (٢٦٨٠ ـ ٢٥٦٠ ق ٠ م) أما فيما يخص كل رجل عمل هذا لى (أى ساهم فى اقامة هذا القبر) فانه لم يكن قط غير مرتاح ، سواء أكان صانعا أم حجارا ، فانى قد ارضيته) ٠ فمن الواضح جدا أن كلا من ذينك الرجلين أراد أن يعلن أنه حصل على معداته الجنازية عن طريق شريف وأن كل من عمل فى اعدادها قد تسلم أجره كاملا غير منقوص ٠٠

وينصح الحكيم بتاح حتب بوجوب احترام أهل بيوت غيره ولو كانوا من غير ذوى قرباه ، فنجده يحذر الزائر تحذيرا شديدا من محاولته الاقتراب من النساء بل يحتم عليه أن يتباعد عنهن بقدر المستطاع ، فيقول (اذا أردت أن تحافظ على الصداقة فى بيت تدخله سواء أكنت سيدا أم أخا أم صاحبا ، فاحذر من النساء ، فان المكان الذى يكن به ليس بالحسن ، ومن الحكمة اذن الا تحشر نفسك معهن ، ومن أجل ذلك يذهب ألف رجل الى الهلاك بسبب متعة برهة قصيرة تضيع كالحلم ولا يجنى الانسان من معرفتهن غير الموت) ٠

وعن علاقات المجتمع نجد كاهنا من الدولة القديمة يقول (انى لم ارتكب أى عنف ضد أى انسان ، وبعد ذلك بقرن أيضا نجد كذلك مدنيا رقيق الحال قد أقام نصبا على واجهة قبره ليقرأه الأحياء منقوشا عليه الخطاب التالى (أنتم أيها الأحياء الذين على وجه الأرض المارون بهذا القبر ، جودوا بقربان جنازى مما عندكم فيؤتى به الى لأنى كنت انسانا محبوبا من الناس ، فلم أجلد قط فى حفرة أى موظف منذ ولادتى ، ولم أستولى على متاع أى شخص قسرا ، وكنت أفعل ما يرضى جميع الناس) ٠ ونرى مثل ذلك فى نقش قبر آخر لانسان كان على ما يظهر موضع اهتمام جيرانه اذ يقول (لقد فعلت ما كان يحبه الناس ويرضى عنه الآلهه حتى يجعلوا بيت أبديتى (أى قبره) يبقى واسمى موضع الحمد على ألسنة الناس) ٠

ونجد مرارا وتكرارا أن أولئك الناس القدماء الذين مضى على زمنهم نحو ٤٠٠٠ أو ٥٠٠٠ سنة يؤكدون لنا براءتهم من عمل السوء فيقص علينا رئيس أطباء الملك (سحورع) فى منتصف القرن الثامن والعشرين ق ٠ م ما يأتى ٠

(انى لم آت أى سوء قط ضد أى انسان) ٠٠

ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام (المسلم من سلم الناس من يده ولسانه) ٠

وعن الاحسان ومساعدة المحتاج فقد ترك لنا أحد حكام المقاطعات ممن عاشوا فى القرن السابع والعشرين ق ٠ م البيان التالى عن حياته الصالحه حيث يقول (لقد أعطيت خبزا لكل الجائعين فى (جبل الثعبان) ـ (ضيعته) وكسوت كل من كان

عريانا فيها وملأت الشواطىء بالماشية الكبيرة وأراضيها المنخفضة بالماشية الصغيرة ، وأشبعت كل ذئاب الجبل وطيور السماء بلحوم الحيوان الصغير ٠٠٠ ولم أظلم أحدا قط فى ممتلكاته حتى يدعوه ذلك الى أن يشكونى لاله مدينتى . ولكنى قلت وتحدثت بما هو خير ٠ ولم يوجد انسان كان يخاف غيره ممن هم اقوى منه حتى جعله ذلك يشكو للاله . ولقد كنت محسنا لأهل ضيعتى بما فى حظائر ماشيتى وفى مساكن صيادى الطيور ٠ وانى لم أنطق كذبا لأنى كنت امرأ محبوبا من والده ، ممدوحا من والدته ، رفيع الاخلاق مع أخيه وودودا (لأخته) ٠

وتحتوى نصوص الأهرام أيضا على أدلة قاطعة لا تقبل الشك على أن طلبات (العدالة) و (الحق) كانت قوتهما أقوى من سلطان الملك نفسه ٠

وكان الاله الذى يعمل الملك على ارضائه هو (رع) وهو نفس الاله الذى كانت تعمل الرعيه على ارضائه ٠

واليك ما جاء فى أحد النقوش (لا توجد سيئة اقترفها الملك (بيبى) وهذه الكلمة ذات وزن فى نظرك يا (رع) ٠

ونجد فى القرن الثامن والعشرين ق ٠ م أن أحد ألقاب الملك (وسركاف) الرسمية لقب (مقيم العدالة) ٠

ولقد كان المتوفى فى اعتقاد القوم يطلب للمحاسبة فيما بعد الموت عن أى خطأ يكون قد ارتكبه أو ظلم اقترفه أثناء حياته الدنيوية ، فيقف هناك أمام اله الشمس الذى كان يجلس بصفته القاضى الأعلى لمحكمة العدل أسوة بمحاكم عالم الدنيا ٠

ويرى الملك الحكيم ملك دولة اهناسيا أن الحياة الصالحة فوق الأرض هى العماد الأعظم الذى ترتكز عليه الحياة الآخرة ، اذ يقول فى ذلك (أن الروح تذهب الى المكان الذى تعرفه ولا تحيد فى سيرها عن طريق أمسها) ٠ ولا شك أنه يقصد بذلك طريقها المعتاد للخلق الكريم ٠ على أن القبر كان فى نظره فى الوقت نفسه من الأشياء الهامة ، حيث يقول (زين مثواك « يعنى قبرك » الذى فى الغرب ، وجمل مكانك فى الجبانة بصفتك رجلا مستقيما مقيما للعدالة « يعنى ماعت » لأن ذلك هو الشىء الذى تركن اليه قلوب أهل الاستقامة) ٠

ويقول حكيم اهناسيا (يمر الجيل أثر الجيل الآخر من الناس والله العليم بالأخلاق، قد أخفى نفسه ٠٠٠ (وهو الذى لا يعبأ بما تراه الأعين ، فاجعل الاله يخدم بالصورة التى سوى فيها ٠٠٠) ٠

ويقول (ان الله قد عنى عناية حسنة برعيته . فقد خلق السماوات والأرض فوق رغبتهم واطفأ الظمأ بالماء وخلق لهم الهواء حتى تحيا به أنوفهم ، ٠٠٠٠٠٠ وخلق النبات والماشية والطير والسمك غذاء لهم ، ٠٠٠ وصنع النور حسب رغبتهم ، وكذلك أحاطهم بسياج من حمايته ، وهو يسمعهم عندما يبكون وجعل لهم حكاما وهم فى الأرحام ليحموا ظهر الضعفاء منهم) (١٠٤) ٠

ويقول الدكتور حسين فوزى :

(كانت نظم الحكم التى مرت بها مصر : مجتمع على الشيوع أيام العشائر ، وحكم مطلق مؤسس على الحق الالهى أيام الدولة القديمة ، واشتراكية ملوكية بعد الثورة .

وبرغم قصور هذه الأدوار وحدودها . فان النظام الذى ظل المصريون مخلصين له ـ وأساسه الفكرة الدينية فى أصول الحكم ـ أظهر بحيويته وطول بقائه ورخائه . قدرة حكم حصيف على أن يسوس الناس ، مستندا الى محكومين جبلوا على النظام .

فالحضارة المصرية ، بأوضاعها المتعاقبة ، توحى الينا بصورة شعب متماسك تناسق فى أصله ومنبته وروحه ، شعب ، وان قل عدده ، ينبىء بالقوة فيما أبدعته عبقريته الخارقة المدمرة ، وفنه القوى العنيد ، ونظامه العقلى ، وايمانه بالبعث ، ومثله فى العدالة (١٠٥) . (*)

نعم ، ان الدين ، والدين وحدة بما فيه من ايمان بان ثمة خالق وأن هذا الخالق قد وضع نظاما للبشر للسير بموجبة فى مسيرة حياتهم على الأرض وأنه هو الحسيب على اقامة هذا النظام يوم البعث هو السر الكامن وراء القوة الدافعة للحضارة المصرية ابان ازدهارها .

(*) سندباد مصرى ـ للدكتور حسين فوزى .

مراجع وحواشي الجزء الأول

١ ـ د ٠علي لطفي — دراسات في تنمية المجتمع طبعة ١٩٧٩ ـ مكتبة عين شمس ص ٧٦ وما بعدها ٠

٢ ـ ول ديورانت — قصة الحضارة ـ ج ١ ـ المجلد الاول ـ ص ٤٥ ـ الطبعة الرابعة ـ لجنة التاليف والترجمة والنشر ٠

٣ ـ د٠ محمد حجازي — الجغرافيا السياسية ـ طبعة القاهرة عام ١٩٧٧ ـ ص٦ ٠

٤ ـ جون ولسون — الحضارة المصرية ـ ترجمة د٠ أحمد فخري ص ٥١ ـ مكتبة النهضة ٠

٥ ـ د٠ أحمد محمود صبحي — في فلسفة التاريخ ـ مؤسسة الثقافة الجامعية سنة ١٩٧٥ ص ٢٧١ وما بعدها ٠

٦ ـ استمعل مؤلف المرجع السابق لفظ البروليناريا والمقصود بها ، في هذا المجال ، هي قوى الشعب العامل البعيدة عن موقع السلطة ومفهوم البلوريتاريا عند توينبي عامة الشعب في مقابل الاقلية الحاكمة مبدعة أو مسيطرة ، فمقابل البروليتاريا في مواجهة الأقلية ليس كمقابل البروليتاريا في مواجهة الرأسمالية عند ماركس على أساس الملكية وانما على أساس فارق روحي وفكري يتخذ في حالة الأقلية المسيطرة طابع الفارق الاجتماعي ، المرجع السابق ص ٢٧١ ٠

٧ ـ العبارة مقتبسة من الأنجيل اصحاح ٩ (١٦ ـ ١٧) يجعلون خمرا جديدة في زقاق عتيقة لئلا ينبثق الزقاق فالخمر تسكب والزقاق يتلف ، يحملون خمرا جديدة في زقاق جديدة فتحفظ جميعا ـ المرجع السابق ص ٢٧٣ ٠

٨ ـ صنم كان يعبده الفنيقيون ويقدمون له قرابين بشرية ٠

٩ ـ كما كانت مسئولية نشوب الحروب والتوسع الخارجي تقع عادة على أفراد من الساسة أو القواد أكثر مما تقع على مجتمعات فان توينبي يدينهم أيضا : ان النصر يثير فيهم شهوة التمادى في العنف تماما كالنمر الذي يتذوق لحم الانسان يفضله على غيره فيصبح من آكلي لحوم البشر ، ومصير النمر أن تفادى الرصاصة مات بالجرب ، كذلك الذين تتملكهم شهوة التوسع يتعذر عليهم اغماد السيوف التي شهروها فلا يرعون حرمة شعب آمن ولا يتسامحون

حتى مع شعوبهم ولكن ان استطاعوا أن يفعلـوا شيئا بالحـراب ، فانهم لا يستطيعون الاستقرار على أسنتها والذين يتخـذون السيف ، فبالسيف يموتون ــ المرجع السابق ــ ص ٢٧١ ٠

١٠ ــ مجموعة من العلماء — الموسوعة المصرية ــ تاريخ مصر القديمـة وآثارها ــ المجلد الأول ــ الهيئة العامة للكتاب٠ ــ مع رجاء ملاحظة ان بيان تاريخ السنين تم بطريقة تقريبية وذلك لاستحالة تحديد تاريخ محدد لأى حدث سواء قبل التاريخ المكتوب أو بعد ذلك وحتى الدولة الحديثة ٠

١١ ــ د٠ صوفى أبو طالب — تاريخ النظم القانونية والاجتماعية ــ مكتبة النهضة المصرية ــ ١٩٥٤ ٠

١٢ ــ مجموعة من العلماء — الموسوعة المصرية ــ المرجع السابق ٠

١٣ ــ يراجع فى شأن المجتمع
أ ــ جون ولسون — الحضارة المصرية ــ مكتبة النهضة ــ ص ٣٥ وما بعدها ٠
ترجمة د٠ أحمد فخرى
ب ــ د٠ أحمد فخرى — مصر الفرعونية ــ الطبعة الرابعة ــ مكتبة الأنجلو المصرية ــ ١٩٧٨ــ ص ٣١ وما بعدها٠
جـ ــ د٠ نبيله محمد عبد الحليم — مصر القديمة ــ تاريخها وحضارتها ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب بالاسكندرية ــ ١٩٧٧ ــ من ٢١ وما بعدها ٠

١٤ ــ مجموعة العلماء — الموسوعة المصرية ــ المرجع السـابق ــ واحمد فخرى ــ المرجع السابق ص ٤٩ ٠

١٥ ــ د٠ أحمد فخرى — المرجع السابق ص ٨٧ ٠
مع ملاحظة أننا اخترنا تاريخ اتحاد الوجهين بعام ٣١٠٠ ق٠م حيث يختلف المؤرخون فى حدود قرن أو قرنين قبل ذلك ٠

١٦ ــ اخذنا تحديد تاريخ سقوط الدولة القديمة وفقا لما أنتهى اليه جون ولسون فى المرجع السابق ص ١٣٣ وهو سنة ٢٢٠٠ ق٠م ٠

١٧ ــ د٠ أحمد فخرى — المرجع السابق ص ١٠٦ و ١٥٧ ٠

١٨ ــ جيمس هنرى برستيد — فجر الضمير ــ مكتبة مصر ــ ص ١٣٠ ــ ترجمة د٠ سليم حسن ٠

١٩ ــ جون ولسون — المرجع السابق ص ١٨٥ ٠

٢٠ ـ ول ديورانت ـ ترجمة د٠ زكى نجيب محمود	قصة الحضارة ـ المرجع السابق ـ ج ١ من المجلد الأول ص ٣١ ٠
٢١ ـ د٠ عبد الحميد زايد	مصر الخالدة ـ مقـــدمة فى تاريخ مصر الفرعونية منذ أقدم العصور حتى عام ٣٣٢ ق٠م ـ دار النهضة العربية سنة ١٩٦٦ ٠ ص ٢٦٤ ٠
٢٢ ـ ول ديورانت	المرجع السابق ج ٢ من المجلـد الاول ص ٨٧ ٠
٢٣ ـ د٠ نجيب ميخائيل ابراهيم	مصر والشرق الأدنى القديم (٤) الحضارة المصرية القديمة ـ الطبعـــة الأولى ١٩٥٩ ـ مؤسسة المطبوعات الحديثة ص ٨٦ ٠
٢٤ ـ والترب امرى (ترجمـــة) راشد محمد نوير ومحمد على كمال الدين	مصر فى العصر العتيق ـ مجموعـــة الألف كتاب ـ دار نهضة مصر ـ ١٩٦٧ ص ٢٣٤ ٠
٢٥ ـ د٠ نبيلة محمد عبد الحليم	المرجع السابق ص ٨٩ ٠
٢٦ ـ والترب امرى	المرجع السابق ص ٩٧ ٠
٢٧ ـ مجموعة من العلماء	تاريخ الحضارة المصرية ـ العصر الفرعونى ـ المجلد الأول ـ مكتبة النهضة المصرية ـ ص ١٢٤ ٠
٢٨ ـ د٠ صوفى أبو طالب	المرجع السابق
٢٩ ـ د٠ نبيلة محمد عبد الحليم	المرجع السابق ص ٨٢ ٠
٣٠ ـ جون ولسون	المرجع السابق ص ١٦٠ ٠
٣١ ـ مجموعة من العلماء	الموسوعة المصرية ـ المرجع السابق ٠

٣٢ ـ موضوع (الماعت) وارد فى معظم المراجع التاريخية مثله فى ذلك مثل الكثير من الموضوعات الواردة فى هذا الكتاب ـ ويراجع فى ذلك ، على سبيل المثال ـ جون ولسون ـ المرجع السابق ص ١٠٠ ٠

٣٣ ـ مجموعة من العلماء	تاريخ الحضارة المصرية ـ المجلد الأول ـ المرجع السابق ـ ص ٢١٨ و ٢٢٠ ٠
٣٤ ـ مجموعة من العلماء	الموسوعة المصرية ـ المرجع السابق ٠

٣٥ ـ جيمس هنرى برستيد ترجمة زكى سوس — تطور الفكر والدين بمصر القديمة ـ دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع ـ ١٩٦١ ص ٤١ ·

٣٦ ـ سيرو · م · فلندرز بترى ترجمة حسن محمد جوهر وعبد المنعم عبد الحليم — الحياة الاجتماعية فى مصر القديمة ـ الهيئة العامة للكتاب ـ ١٩٧٥ ـ ص ٨٧ ·

٣٧ ـ بيير مونتيه ـ ترجمة عزيز مرقص — الحياة اليومية فى مصر فى عهد الزعامة ـ الدار المصرية للتاليف والترجمة ـ ص ٢٦٠ ·

٣٨ ـ سيرو · م · فلندرز بترى — المرجع السابق ـ ص ٨٨ ·

٣٩ ـ جيمس هنرى برستيد — المرجع السابق ص ٢٩ (تطور الفكر والدين) ·

٤٠ ـ هـ· ج· ويلز ـ ترجمة عبد العزيز توفيق حامد — موجز تاريخ العالم ـ مكتبة النهضة المصرية ص ٤٧ ·

٤١ ـ ول ديورانت — قصة الحضارة ـ المرجع السابق ـ المجلد الأول ـ جـ ١ ص ٧٤ ·

٤٢ ـ ول ديورانت — قصة الحضارة ـ المرجع السابق ـ المجلد الأول ـ جـ ٢ ص ٧٤ ·

٤٣ ـ جيمس هنرى برستيد — تطور الفكر والدين ـ المرجع السابق ـ ص ٢٤٠ ·

٤٤ ـ تولت حكم مصر ثلاثون أسرة وذلك فى الفترة من سنة ٣١٠٠ ق·م تاريخ وحدة الوجهين القبلى والبحرى على يد الملك مينا حتى سنة ٣٣٢ ق·م تاريخ تغلب الاغريق على مصر وبداية الحكم غير الوطنى الذى استمر حتى مايو سنة ١٨٠٥ م تاريخ تولية محمد على حكم مصر وانشاء الدولة المصرية الحديثة ·

ويسمى عهد الأسرتين الأول والثانية والذى استمر حوالى أربعة قرون بالعصر العتيق أو عصر الاسرات المبكر ، كما يسمى عهد الاسرات الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والذى استمر حوالى خمسة قرون بالدولة القديمة ·

والاسرات من السابعة الى العاشرة تسمى بعصر الفترة الأولى واستمر حوالى قرنين وتاريخها فيه الكثير من الغموض حيث تفككت عرى الدولة بعد الثورة الاجتماعية التى قامت فى أواخر الدولة القديمة ·

والدولة الوسطى تشمل الأسرتان الحادية عشرة والثانية عشرة واستمرتا **حوالى ثلاثة قرون** ونصف حيث بدأ عصر الاضمحلال الثانى (الفترة الثانية) **وشمل الأسرتان** الثالثة عشرة والرابعة عشرة ولم يستمر عهدهما أكثر من **قرن واحد حيث** تغلب الهكسوس واحتلوا مصر لما يقرب من قرن ونصف من **الزمان وحكمت** مصر خلالها الأسرتان الخامسة عشرة والسادسة عشر من **الهكسوس** ·

وعلى أيدى الأسرة السابعة عشرة الطيبية تم طرد الهكسوس حيث بدأت **الدولة الحديثة** ، التى شملت عهد الامبراطورية بالأسرة الثامنة عشرة حتى **الأسرة العشرين** ، حين بدأ عصر الاضمحلال الأخير من سنة ١٠٨٠ وحتى نهاية الحكم الوطنى سنة ٣٣٢ ق·م شاملا الأسرات من الواحد والعشرين حتى **الثلاثين** ·

٤٥ ـ **جيمس هنرى برستيد** — تطور الفكر والدين فى مصر القديمة ـ المرجع السابق ـ ص ٤١ و ٤٧ ·

٤٦ ـ **مجموعة من العلماء** — الموسوعة المصرية ـ المجلد الأول ـ المرجع السابق ·

٤٧ ـ **جيمس هنرى برستيد** — المرجع السابق ص ٦٠ ·

٤٨ ـ **مجموعة من العلماء** — الموسوعة المصرية ـ المجلد الأول ـ المرجع السابق ·

٤٩ ـ **مجموعة من العلماء** — الموسوعة المصرية ـ المجلد الأول ـ المرجع السابق ·

٥٠ ـ **مجموعة من العلماء** — الموسوعة المصرية ـ المجلد الأول ـ المرجع السابق ·

٥١ ـ **د· نبيله محمد عبد الحليم** — المرجع السابق ـ ص ١٣٥ ·

٥٢ ـ **مجموعة من العلماء** — الموسوعة المصرية ـ المجلد الأول ـ المرجع السابق ·

٥٣ ـ **جون ولسون** — الحضارة المصرية ـ المرجع السابق ـ ص ١٦٩ ·

٥٤ ـ **ول ديورانت** — قصة الحضارة ـ ج ١ ـ المرجع السابق ص ٣ ·

٥٥ ـ **جون ولسون** — المرجع السابق ص ١٤٧ ·

٥٦ ـ د. حسين فوزى — سندباد مصرى ـ دار المعارف الطبعة الثانية ـ ص ٣٤١ .

٥٧ ـ ول ديورانت — قصة الحضارة جـ ١ المجلد الأول ـ المرجع السابق ص ٩١ .

٥٨ ـ جون ولسون — المرجع السابق

٥٩ ـ جون ولسون — المرجع السابق ص ١١٠ وما بعدها .

٦٠ ـ جون ولسون — المرجع السابق ص ١٦١ .

٦١ ـ د. حسين فوزى — المرجع السابق ص ٢٢١ .

٦٢ ـ سير آلن جاردنر ترجمة : د. نجيب ميخائيل ابراهيم — مصر الفراعنة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٧٣ ص ٥٤ وما بعدها .

٦٣ ـ والترب . امرى — مصر فى العصر العتيق ـ المرجع السابق ص ٢٣١ .

٦٤ ـ ول ديورانت — المرجع السابق جـ ٢ ـ ص ٨٣ .

٦٥ ـ هيرودوت ترجمة محمد صقر خفاجة — هيرودوت يتحدث عن مصر ـ دار المعلم ١٩٦٦ ـ ص ١٢٦ و ١٤٤ .

٦٦ ـ د. نجيب ميخائيل نعيمة — مصر والشرق الأدنى القديم (٤) الحضارة المصريةالقديمة ـ مؤسسةالمطبوعات الحديثة ـ ـ ١٩٥٩ ـ الطبعة الأولى ص ٢٥ .

٦٧ ـ سير .و.م. فلندرز بترى — المرجع السابق ـ الحياة الاجتماعية فى مصر القديمة .

٦٨ ـ جون ولسون — المرجع السابق ـ ص ٢٣٩ .

٦٩ ـ سير .و.م. فلندرز بترى — المرجع السابق ص ٧٨ . الحياة الاجتماعية فى مصر القديمة .

٧٠ ـ علماء الحملة الفرنسية ترجمة : زهير الشايب — وصف مصر ـ الطبعة الثانية سنة ١٩٨٠ ـ مكتبة الخانجى بمصر ـ المصريون المحدثون .

٧١ ـ سير آلن جاردنر — المرجع السابق ـ ص ٥٤ .

٧٢ ـ جون ولسون — المرجع السابق ـ ص ١٤٢ و ١٤٩ .

٧٣ ـ د. عبد العظيم أنيس العلم والحضارة (الحضارات القديمة واليونانية) دار الكاتب العربى ـ ١٩٦٧ ـ ص ٢٨ .

٧٤ ـ جورج سارتون ـ ترجم باشراف ومراجعة مجموعة من العلماء تاريخ العلم ـ الجزء الأول ـ دار المعارف ـ الطبعة الرابعة ـ ١٩٧٩ ـ ص ١٢٠ .

٧٥ ـ هيرودوت المرجع السابق ص ١٨٩ .

٧٦ ـ جون ولسون المرجع السابق ص ١٨٥ .

٧٧ ـ جورج سارتون تاريخ العلم ـ المرجع السابق .

٧٨ ـ جون ولسون المرجع السابق ـ ص ١٧٩ .

٧٩ ـ برستيد ـ تطور الفكر والدين ـ المرجع السابق ـ ص ١٠٣ وما بعدها ـ ويلاحظ أننا دأبنا على احلال كلمة ملك محل كلمة فرعون فى الأصل وذلك عندما يكون الحديث عن ملوك مصر قبل الأسرة الثامنة عشرة ـ اذ لم يستعمل اسم فرعون للدلالة على ملك مصر الا بدءا من هذه الأسرة .

٨٠ ـ جون ولسون المرجع السابق ـ ص ١٧٣ .

٨١ ـ د. أحمد فخرى المرجع السابق ـ ص ٨٢ وما بعدها .

٨٢ ـ جموعة من العلماء الموسوعة المصرية ـ المرجع السابق .

٨٣ ـ جون ويلسون المرجع السابق

٨٤ ـ مجموعة من العلماء الموسوعة المصرية ـ المجلد الأول ـ المرجع السابق .

٨٥ ـ المرجع حتى نهاية هذا البحث ـ د. أحمد فخرى من المرجع السابق ص ١٢٥ وما بعدها .

٨٦ ـ جون ويلسون المرجع السابق ـ ص ١٦١ .

٨٧ ـ أحمد فخرى المرجع السابق ـ ص ١٥٩ .

٨٨ ـ مجموعة من العلماء الموسوعة المصرية ـ المجلد الأول ـ المرجع السابق .

٨٩ ـ المراجع حتى نهاية هذا البحث والبحث التالى مأخوذة من :

١ ـ جون ولسون ـ المرجع السابق ـ ص ١٨٥ وما بعدها .

٢ ـ هنرى برستيد ـ تطور الفكر والدين ـ المرجع السابق ـ ص ٢٥٦ وما بعدها .

٣ ـ أحمد فخرى ـ المرجع السابق ـ ص ١٦٠ وما بعدها .

٩٠ ـ أحمد فخرى — المرجع السابق ـ ص ٢٠٢ وجون ويلسون ص ٢٢٠ .

٩١ ـ د. أحمد بدوى ود. محمد جمال الدين مختار — تاريخ التربية والتعليم فى مصر جـ ١ الهيئة العامة للكتاب ـ ١٩٧٤ ـ ص ٤٨ .

٩٢ ـ جان يويوت ترجمة ـ سعد زهران مراجعة ـ د. عبد المنعم أبو بكر — مصر الفرعونية ـ الألف كتاب ـ مؤسسة سجل العرب ـ ١٩٦٦ ـ ص ٧٥ وما بعدها .

٩٣ ـ د. حسين فوزى — المرجع السابق ـ ص ٣٠١ .

٩٤ ـ مجموعة العلماء — الموسوعة المصرية ـ المرجع السابق

٩٥ ـ مجموعة العلماء — الموسوعة المصرية ـ المرجع السابق

٩٦ ـ الشيخ محمد الخضرى — أصول الفقه ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ الطبعة الخامسة ـ ١٩٦٥ ص ٢٦

٩٧ ـ فؤاد محمد شبل — الفكر السياسى ـ دراسات مقارنة للمذاهب السياسية والاجتماعية جـ١ ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٧٤ ص ٤٨ .

٩٨ ـ د. سيد توفيق ود. سيد محمد على الناصرى — معالم وتاريخ حضارة مصر من أقدم العصور حتى الفتح العربى ـ دار النهضة العربية ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٧٧ ـ ص ٤٩ ر٩٢ و١٨٣
كما يراجع جون ولسون ـ المرجع السابق ص ١٨٣ .

٩٩ ـ د. قبارى محمد اسماعيل — الأنثروبولوجيا الاجتماعية ـ منشأة المعارف بالاسكندرية سنة ١٩٧١ ص ١٥٩ .

١٠٠ـ جون ولسون — المرجع السابق ص ٨٢ و ٨٩ .

١٠١ـ جون ولسون — المرجع السابق ص ١٣٨ .

١٠٢ـ جون ولسون — المرجع السابق ص ١٤٦ .

١٠٣ـ جون ولسون — المرجع السابق ص ١٩١ .

١٠٤ ـ جيمس هنرى برستيد — فجر الضمير ـ المرجع السابق .

١٠٥ ـ د. حسين فوزى — سندباد مصرى ـ المرجع السابق

الجـزء الثـانى

فى أسباب انهيار الحضارة المصرية

مقـــدمة

فى الجزء الأول من هذا الكتاب تم عرض عوامل قيام الحضارة المصرية فى المرحلة التى انتهت فى سنة ٢٠٠٠ ق٠م ٠

ولقد قامت الحضارة المصرية ، كما سبق بيان ذلك فى الجزء الأول من الكتاب ، لأن النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية كانت مرتضاه من الجماهير ونابعة من اختيارهم وتجاربهم عبر آلاف السنين فضلا عما اضفى على هذه النظم من القدسية الدينية ٠

ويضاف الى ذلك القيادة التى كانت قدوة فى تمثل النظم فى تصـرفاتها وفى تقديم كل فكر وتضحية لمصلحة الأمة ٠

وكل هذا حقق وحدة الأمة وايجابيات الشخصية المصريــة مما أثمـر الثراء والحضارة ٠

ويتناول هذا الجزء من الكتاب المرحلة من سنة ٢٠٠٠ ق٠م حتى ١٥ مايو ١٩٧١م حيث فرضت على الجماهير المصرية النظم والقيادات مما حقق فرقة الأمة وظهور السلبيات فى شخصيتها فاثمر ذلك الفقر والتخلف ٠

وسيتم عرض موجز عن : تطور النظم الدينية وبيان بالنظم السياسية والاقتصادية التى فرضت فى هذه المرحلة مع بيان عن القيادات المفروضة ٠

كمـا سيتم عرض ثمرة النظم والقيـادات المفروضـة فى الفرقة وفى سلبيات الشخصية المصرية وفى الفقر والتخلف ٠

ح٠ع٠

« سعيد من يتحدث عن مآسيه بعد مضيها »
السندباد المصرى حوالى ٢٠٠٠ ق٠م٠

الباب الأول

فى النظم التى تفرق الشعب المصرى عن طاعتها من من سنة ٢٠٠٠ ق٠م٠ حتى ١٥ مايو ١٩٧١ م ٠ (١)

السرد التاريخي :

استمرت الثورة المصرية حوالى ستين عاما تمكنت خلالها أسرة قوية فى اهناسيا من لم شمل جزء من الشعب المصرى وتحقيق وحدته حول مبادىء الثورة وتصدت لتحقيق هذه المبادىء ومن ثم دان لها بالولاء الكثير من اقاليم مصر فى الوجه البحرى وحتى مصر الوسطى ٠

والحقيقة فان ملوك اهناسيا لو قدر لهم النجاح فى السيطرة على الأراضى المصرية كلها لتغير تاريخ البشرية ولتطورت مبادىء الثورة التى تبناها هؤلاء الملوك ولسبقنا الاغريق فى ديمقراطيتهم وفى فلسفتهم وفى نظام الحكم والسياسة ٠

الا أنه كانت هناك أسرة قوية حاكمة فى طيبة تمكنت من فرض الوحدة على الشعب المصرى بالقوة وهزمت ملوك اهناسيا وحلفاءهم من أمراء الأقاليم الأخرى ومن ثم بدأت الدولة الوسطى ٠

ولقد استعمل ملوك الاسرة الثانية عشرة (من الدولة الوسطى) القوة والبطش لاقتلاع حكام الاقاليم ولاحتكار كافة السلطات السياسية والاقتصادية والدينية فى أيدى المجالس على العرش مع استعادة الوضع المقدس للملوك كما كان عليه الحال فى الدولة القديمة وتابعهم فى ذلك جميع من ولى حكم مصر حتى نهاية الحكم الوطنى سنة ٣٣٢ ق٠م٠(٢) ٠

وكانت الثمرة فى فرض النظم التى ثار عليها الشعب ثورته الاجتماعية الأولى هى الفرقة عن هذه النظم وعن القيادات التى تم فرضها بقوة البطش والارهاب ٠

ولهذا لم يجد الهكسوس مقاومة تذكر عند غزوهم لمصر واحتلالهم لها لما ينيف على قرن من الزمان ٠

وكانت منطقة طيبة محكومة بأسرة مصرية قاومت الاحتلال الهكسوسى الى أن تم طردهم على أيدى الملك أحمس سنة ١٥٧٥ ق٠م٠ ٠

ولما تم طرد الهكسوس ، استمر ملوك مصر فى احتكار كافة السلطات الدينية والسياسية والاقتصادية امتدادا لما كان عليه الحال من قبل ، وعلى عقيدة فى التمسك بالقديم لا تتزعزع وهى العمل بما كان عليه (السلف) فى الدولة القديمة ٠

ويجب أن نلاحظ أن مصر ، حكومة وشعبا ، كانت ترى ، على الدوام ، أن خير أيامها كانت فترة الدولة القديمة ومن ثم كانوا يحاولون ، عند التعثر فى المسيرة ، استعادة تطبيق كافة النظم والأعمال التى كانت سارية فى الدولة القديمة دون أن

يفطنوا « ان نظام الدولة القديمة يستحيل استعادته بجميع دقائقه وتفصيلاته لتغير الزمان ولتغير العلوم والمعارف ولتغير الحاجات وأهم من ذلك كله ، لتغير الأنفس » ٠

وعلى كل حال فلم تكتف مصر بطرد الغازى فحسب ، بل انها وسعت حدودها جهة الشرق لتكون امبراطورية لها تشمل ما يسمى الآن اسرائيل وفلسطين ولبنان وسوريا والأردن وأجزاء من العراق ٠

ومن طبيعة الحال أن يكون لانشاء هذه الامبراطورية وقع سار على نفس كل مصرى الذى تمكن ليس من طرد الغازى الذى استذله لقرن ونصف من الزمان فحسب ، بل انتقم منه بتتبع فلوله الهاربة جهة الشرق ٠

لقد خرج المصرى من قاع الذلة والانكسار الى قمة الزهو والانتصار لانشائه أول امبراطورية عرفها التاريخ ٠

وكان الناس يقولون (جيشنا) مما يعبر عن مشاركة كل القوى الشعبية فى هذه الأعمال (البطولية) ٠

وكما لم ينعم الشعب بفرحة الاستقرار والرخاء الا فترة قليلة فى ظل الحكم المفروض من الأسرة الثانية عشرة ٠ كذلك لم ينعم الشعب فى ظل الامبراطورية الا بفرحة مؤقتة من الرخاء الذى حققته الامبراطورية ثم عادت الأمور كما كانت وكما ستظل طوال التاريخ الوطنى كله ومن بعده فى ظل الحكم الأجنبى ٠

فقد تكونت بطانة مستفيدة من النظام المفروض بالاضافة الى الملك والحاشية تضم كبار رجال الدين والكهنة الذين حصلوا على نصيب الأسد من غنائم الامبراطورية٠ حيث أوقفت غلة عشرات المدن ومئات الألوف من الأفدنة على المعابد عدا ما كان يخصص لها من ذهب وغيره ٠

كما أقطعت الأراضى لرجال الجيش ، ومنهم الأجانب حيث تولوا أكبر المناصب ٠ وأصبحت الوظائف الكبيرة وراثية فى عدد محدود من الأسر(٣) ٠

وبذلك تكونت من الملك والحاشية وطائفة الكهنة وكبار رجال القوات المسلحة وشاغلى الوظائف العليا فى الدولة قوة مستفيدة بكل خيرات مصر وضاغطة على التطلعات الشعبية فى الحياة الأفضل ، مما فرق الأمة وعجل بموت الروح المصرية ٠

ثورة اخناتون (من ١٣٦٧ ـ ١٣٥٠ ق٠م) :

كان منظر مصر عند بداية حكم أخناتون يتلخص فى وجود مجموعة من المنتفعين الجشعين ومنهم أجانب من ناحية ، ومن الناحية الأخرى الشعب المصرى الذى أصبح محروما من الكثير من حقوقه المادية والسياسية ٠

كما دخلت الى البيئة المصرية آلهة مستوردة من الشام لتضاف الى مجموعة الآلهة المصرية الوطنية حيث يتكسب الكهنة بأى وسيلة ٠

وفى هذه الأجواء كانت الصراحة والصدق (أندر من الزمرد) وخاصة اذا عرفنا أن آمون ، آله الامبراطورية ، كان يعنى (الخفى) وكان تمثاله يوضع فى أقصى مكان فى المعبد (قدس الأقداس) فى الظلام وتحيط به الأسرار ٠

وحاول الرجل انقاذ مصر باعادتها الى العبادة المكشوفة الصريحة الواضحة كالشمس والاعلاء من شأن الصدق والتعبير الحر النابع من حقيقة النفس ٠

وقد طلب اخناتون من الناس أن يجعلوا (ماعت) تحت أعينهم وأن يسموا الأشياء بأسمائها وعدم اللجوء الى النفاق والمداهنة ٠

وقضى الرجل على عشرات الآلهة المحلية والمستوردة من آسيا وغيرها ليعبد الناس الها واحدا تظهر قوته فى ضوء الشمس ـ (رمز الحياة) ٠

وقضى الرجل على الكهانة وسحرها وتدليسها وأسرارها وظلامها بأن جعل المعابد مكشوفة بلا قدس أقداس أو حركات مفتعلة فى الظلام ٠

ورفع من شأن النظام والصدق والعدالة وشجع عليها فى كافة الأعمال والتصرفات ووسائل التعبير حتى تعود الوحدة بين الشعب وبين قياداته ٠

كما قضى على كافة الامتيازات التى كانت تحصل عليها مراكز القوى على حساب قوت الشعب ، وخاصة فى الكهنة والجيش ٠

ولكن ، رغم نبل هذه المبادىء وسموها وحاجة مصر اليها لاستعادة ايجابيات الشخصية المصرية فوحدتها الا أن هذا النظام فشل ليس لأنه مفروض من أعلى فحسب ، بل لأن كافة القوى التى أضيرت منه قد حاربته بكل الوسائل ، كما كان من الصعب اقتلاع ما اعتاد عليه القوم دفعة واحدة ٠

وهكذا فشلت آخر محاولة لاستعادة ايجابيات الشخصية المصرية ووحدتها حول النظام وحول القيادة الحاكمة ٠

ما بعد اخناتون حتى نهاية الحكم الوطنى لمصر (١٣٥٠ ـ ٣٣٢ ق٠م) :

ظهر من بين ملوك مصر من اعاد لمصر (امبراطوريتها) لفترة فى الشام الا أنه ابتداء من الأسرة العشرين سنة ١٢٠٠ ق٠م أخذ مركز فرعون فى الضعف حيث اعتمد ملوكها على المرتزقة من شراذمة وغيرهم ، وبدأ الانحلال والفساد يسرى فى مرافق البلاد من جديد وقد طمع فى البلاد كل ذى قوة ، وتعددت غارات الليبيين وشعوب البحر المتوسط حيث تمكن الجيش والأسطول المصريان من صد تلك الغزوات ٠

وضعفت هيبة فرعون حتى تآمرت احدى زوجات رمسيس الثالث لايصال ابنها الى العرش ، كما عجزت الحكومة عن حراسة قبور الموتى التى كثرت سرقتها ونهبها ، الى فساد الادارة واختلال الأمن وضياع هيبة الحكومة ٠

وفى نهاية الأسرة (العشرين) تلاشت سلطة فرعون تماما وازدادت قوة كهنة آمون حتى تمكن كبيرهم (حريحور) من الاستيلاء على العرش سنة ١٠٩٠ ق٠م كما فعل سلفه كاهن رع فى أواخر الدولة القديمة ـ وبذلك بدأت الأسرة ٢١ ٠

وانقسمت مصر الى مملكة فى الشمال يحكمها (سمندس) ومملكة فى الجنوب يحكمها حريحور من طيبة كما كان الوضع قبل الملك مينا ٠

ثم تصاهر الحكام وأصبحت مصر كلها تحت قيادة (باى نجم الأول) واستمر الانهيار السياسى والثقافى والاقتصادى حتى نهاية الحكم الوطنى لمصر ٠

ووصلت مصر فى هـذه الفترة الى دور انحلال لم تفق منه الا لفترات متقطعة قصيرة ٠

وفى هذه الفترة تمكن الليبيون الذين استعانت بهم الحكومة كجنود مرتزقـة فى الجيش وسمحت لهم بالاستيطان فى مصر ـ تمكن واحد منهم من الاستيلاء عـلى العرش سنة ٩٤٥ ق٠م مؤسسا الأسرة الثانية والعشرين الليبية ٠

وانقسمت البلاد بين الأمراء الليبيين والى عدة امارات حربية ، وانفصلت النوبة عن مصر لتكون مملكة مستقلة اتخذت اسم نيانا ٠

واستمر التفكك والانقسام والضعف حتى نهاية الأسرة (٢٤) حيث تمـكن ملوك النوبة سنة ٧٢٠ ق٠م من الاستيلاء على مصر كلها مؤسسة الأسرة (٢٥) ، ولكن سلطة هذه الأسرة كانت ضعيفة فى الدلتا لأن عددا من الأمراء المحليين الأقوياء كانوا ينازعون ملوكها السلطة ٠

ولم يحكم النوبيون مصر الا بضع عشرات من السنين ، ففى ذلك الوقت كانت الدول المجاورة لمصر آخذة فى النهوض ، وكانت دولة الأشوريين قد اتسعت حتى ضمت اليها فلسطين ٠ ثم اصطدمت بمصر الضعيفة المفككة ، التى لقيت على يديهـا الهزيمة ، فاستطاع الملك (آ شور بانيبال) فتح مصر وطرد النوبيين وغدت مصر ولاية أشورية ٠

ولكن الأمير (أبسماتيك) أمير سايس انتهز فرصة انغماس آشور فى صراع مع بابل وتمكن من طرد الحامية الآشورية ، وأخضع أمراء الأقاليم وأعلن نفسه ملكا على البلاد سنة ٦٦٣ ق٠م مؤسسا الأسرة (٢٦) ٠

وقد حاول ملوك ذلك العصر أن ينهضـوا بالبلاد عن طريق احيـاء ماض كان زاخرا بالقوة والازدهار فقلدوا آداب وفنون الدولة القديمة التى عدوها العصر الذهبى فى تاريخ مصر ٠

كذلك أعاد هؤلاء الفراعنة تنظيم الجيش وحاولوا احياء مجد مصر الحربى ، ولكن حلمهم تبدد بهزيمة الفرعون (نخاو) هزيمة تامة فى فلسطين على يد البابليين ٠

وفى ذلك الوقت كان ركب الحضارة قد بدأ يتحول من المشرق الى المغرب قاصدا بلاد الاغريق ، ففتح فراعنة الأسرة (٢٦) أبوابهم للاغريق وشجعوهم على الاستيطان بمصر ، مما أدى الى ثرائهم وازدياد نفوذهم وسيطرتهم اقتصاديا على البلاد(★) .

ولكن هذه الانتعاشة لم تدم طويلا ، اذ أن ظهور (كورش) الفارسى وانتقاله من تصر الى نصر كان نذيرا بالخطر الذى تحقق حين غزا قمبيز الفارسى مصر سنة ٥٢٥ ق.م وضمها الى الامبراطورية الفارسية دون عناء كبير .

وقد عامل قمبيز المصريين بقسوة ، وحقر معبوداتهم مما أوغر صدور المصريين ضد الفرس ، فثاروا عليهم عدة مرات . وكانت الأخيرة منها فى شكل ثورة عامة تحولت الى حرب تحرير وانتهت بالاستقلال بعد سنة ٤٠٤ ق.م حيث اعتلى زعيم الثورة (آمون حر) عرش مصر مؤسسا الأسرة (٢٨) .

ثم تلتها الأسرة (٢٩) الوطنية التى اتصفت بعداء الفرس ومودة الاغريق ثم تولت العرش الأسرة (٣٠) .

فترة الحكم غير الوطنى (من ٣٣٢ ق.م – ٢٣ يوليو ١٩٥٢ م)

ولكن المصريين لم يمكنوا من الاحتفاظ باستقلالهم طويلا ، اذ لم يلبث الفرس أن عادوا الى مصر مرة ثانية سنة ٣٤١ ق.م ليحكموها بضع سنوات ثم يدخل الاغريق مصر سنة ٣٣٢ بقيادة الاسكندر المقدونى ويضمها الى ملكه الواسع (أ.هـ)(٤) .

وبعد وفاة الاسكندر المقدونى تمكن احد قواده المدعو بطليموس من الاستقلال بمصر منشئا الأسرة المالكة البطلمية التى ظلت تحكم مصر لما يقرب من ثلاثة قرون . اذ استمرت الأسرة البطلمية الاغريقية (نسبة الى مؤسسها القائد العسكرى بطليموس الأول) تحكم مصر من سنة ٣٣٢ ق.م حتى أول اغسطس سنة ٣٠ ق.م عندما اقتنصها الرومان من البطالمة بالقوة العسكرية حيث ظلت مصر محتلة منهم حتى ١٧ سبتمبر سنة ٦٤٢ تاريخ فتح العرب لمصر بقيادة عمرو بن العاص وأصبحت مصر منذ ذلك التاريخ جزءا من الدولة الاسلامية تحت حكم الخليفة العادل عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان ثم على بن أبى طالب ثم (خلفاء) الدولة الأموية التى سقطت فى اغسطس سنة ٧٤٩ م تحت هجمات الأسرة العباسية المنتصرة والتى أصبحت مصر ضمن ولاياتها حتى سنة ٨٦٨ م .

وفى هذا التاريخ ينتهز احد قادة الجيش العباسى (أحمد بن طولون) الفرصة فيستقل بمصر مقابل دفع مبلغ من المال سنويا للخليفة العباسى ويستمر حكم الأسرة الطولونية لمصر حتى سنة ٩٠٤ م لتعود مصر ولاية عباسية بعد حروب بين الخليفة العباسى والطولونيين .

(★) لعل القارىء يلاحظ تطور وقوع مصر فريسة للاجنبى الذى استمرت له السيادة فى امور مصر الاقتصادية والسياسية والفكرية حتى القرن الحالى – وسيجىء مزيد من البيان عن ذلك فى الباب الثالث من هذا الكتاب .

ثم يحاول البعض ، عن طريق الحروب ، الفوز بولاية مصر وكل يحاول تحقيق أطماعه بأى وسيلة وبخاصة بالقوة المسلحة الى أن تمكن القائد العسكرى أحمد بن طغج بالرشوة آنا وبالقوة العسكرية آنا آخر من الاستيلاء على ولاية مصر من الدولة العباسية واستمرت أسرته تتوارث الحكم حتى ٩٦٩ م حيث سقطت الأسرة الاخشيدية ومصر فى قبضة الأسرة الفاطمية الغازية القادمة من المغرب ·

وبهذا انفصلت مصر عن الدولة العباسية نهائيا ·

وحكم الفاطميون مصر الى سنة ١١٧١ م أى لمدة تنيف على القرنين الى أن تمكن القائد العسكرى صلاح الدين الأيوبى سنة ١١٧٦ م من الاستقلال بمصر والشام منشئا الأسرة الأيوبية التى استمرت فى الحكم حتى ١٢٥٠ م حيث بدأ الجند المماليك (الأتراك) يتولون حكم مصر فيما بينهم مكونين دولة لهم من ١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م حيث استولى عليها الأتراك العثمانيون وضموها الى الولايات التابعة لتركيا ·

واستمر الحال على ذلك حتى مجىء الحملة الفرنسية الى مصر سنة ١٧٩٨ م ·

وينشىء محمد على مصر الحديثة ابتداءا من أوائل القرن التاسع عشر وتظل أسرته تتوارث الحكم حتى تجىء ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ لتطيح بالأسرة العلوية الحاكمة وبآخر أحفاد محمد على وهو الملك السابق فاروق ·

ويستولى الجيش على الحكم بقيادة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ويظل حاكما لمصر حتى وفاته فى سبتمبر سنة ١٩٧٠ ليحل محله نائبه المرحوم محمد أنور السادات الذى توفاه الله فى أكتوبر سنة ١٩٨١ بعد أن قاد فى مايو سنة ١٩٧١ ثورة ناجحة ضد حكم الفرد ومراكز القوى وحقق السلام واستعاد الأرض المسلوبة فى سيناء ·

وبتولى محمد نجيب وجمال عبد الناصر فأنور السادات حكم مصر ابتداء من يوليو ١٩٥٢ عاد الحكم لأبناء مصر بعد غيبتهم عن هذا الموقع منذ سنة ٣٤١ ق·م ·

فماذا فعـلوا ؟؟؟

هذا ما سيتم بيانه فى الأوراق التالية ··

● الفصل الأول

فى تطور النظم الدينية

(أ) ما قبل المسيحية :

استمر الاله رع سيد الأمة المصرية ومرشدها العظيم طوال الدولة القديمة وحتى فترة حكم ملوك اهناسيا .

والاله رع ، كما سبق البيان فى الجزء السابق ، كان اله الشمس ولهذا فان معابده مكشوفة تسمح لضوء الشمس بالدخول فى كل مكان .

ولقد استقرت عبادة الاله رع فى أنفس الشعب المصرى ، باعتباره كبير الالهة وأول من حكم مصر بعد اله وفقا للقانون الذى سنه .

ورغم أن الأسرة الالهية ، وعلى رأسها الاله رع ، استمرت لها المكانة الأولى فى أنفس الشعب المصرى وفى عقيدته الدينية لعدة قرون ، الا أنه تم (فرض) مذهب دينى آخر وهو مذهب الاله آمون .

وقصة أمون تبدأ عندما تولى أمنمحات الأول ملك مصر سنة ١٩٩١ منشئا الأسرة الثانية عشرة وكان حكمه سببا فى ارتفاع شان اله كاد يكون مجهولا قبل أيامه ، أو على الأقل لم يكن له نفوذ سياسى فى مصر ، هذا الاله هو الاله آمون ، الذى يدخل فى تركيب اسم أمنمحات .

(ويجب أن لا يغيب عن البال أن الثورة التى أعطت الانسان الحرية كاملة فى أن يتصل بمعبوده بطريقته الخاصة بدون واسطة الملك واستمر الحال كذلك الى أن جاءت الدولة الوسطى ، حيث أراد (الفراعنة) استعادة هيبتهم واسترجاع نفوذهم ، لا عن طريق القدسية المطلقة كأسلافهم من ملوك الدولة القديمة ، ولكن عن طريق القوة والبطش ، فنجد مثلا أن الكلمات التى امتدح بها سنوهى ملكه سنوسرت الأول (أنه سديد الرأى قوى العضلات) يستخدم ذراعه ، انه رجل عظيم الهمة ، وليس هناك من يدانيه) (٥) .

ولقد استمر آمون متربعا على عرش الدولة المصرية حتى ما بعد الحكم الوطنى الذى انتهى سنة ٣٣٢ ق.م باحتلال الاغريق لمصر حيث ادعى الاسكندر الأكبر بنوته

للآله آمون وذلك عدا الفترة التى حاول فيها الملك اخناتون (فرض) مذهبه الدينى كما سبق البيان ٠

والى جانب مذهب الآله آمون (اله الدولة) الذى حل بالقوة محل الاله (رع) كانت توجد معابد للاله رع وللاله بتاح وللاله مين وغيرهم ٠٠ وكل له كهنته واتباعه ٠

وفى سنة ٣٣٢ ق٠م تمكن الاغريق من احتلال مصر وانهاء الحكم الوطنى الذى استمر منذ فجر التاريخ وحتى تاريخ غزو الاغريق فيما عدا فترات قليلة تعرضت فيها مصر للغزو الهكسوسى والآشورى والفارسى ٠

وعندما استقر بطليموس الأول فى حكم مصر بدأ يفكر فى (صنع) ديانة جديدة يتمكن بها من (صنع) الوحدة بين المصريين والأغريق بدلا من (النفور والفرقة بينهم) ٠

وكان الاله سيرابيس كبير آلهة هذه الديانة وهو نفسه اله منف المصرى اوزريس أبيس الذى قدم للاغريق فى صورة أغريقية ٠ بينما استمر المصريون يعبدونه فى صورته الأصلية وباسمه الأصلى كعادة أهل مصر فى عدم قبول النظم المفروضة من أعلا وخاصة فى المجال الدينى(٦) ٠

والحقيقة فقد ازدحمت مصر فعلا بكثير من الآلهة المستوردة من آسيا ومن روما ومن بلاد الاغريق وذلك فضلا عن الالهة المحلية مثل آمون ورع وبتاح ٠٠ الخ ٠

وبهذا قام الحاكم الاغريقى (بفرض) ديانة جديدة من صنعه على الشعب المصرى والذى سبق أن فرضت عليه ديانة آمون من قبل ٠٠

ولم يكتف المحتل الاغريقى بصنع ديانة جديدة فرضها على الشعب المصرى ، بل فرض أيضا عبادة الملوك الاغارقة وزوجاتهم ٠٠ بل وعشيقاتهم رغم أن فضائحهم الغير اخلاقية كانت رائحتها تزكم الانوف(٧) ٠

وكان الرومان ، قبل انتشار المسيحية ، يقاومون السحرة والمشعوذين المصريين الذين كانوا يدعون تمثيل الديانة المصرية فى الخارج ، كما اعتبروا عبادة سيرابيس وايزيس من المؤثرات الضارة فى المجتمع الرومانى ٠

بل ان ملوك البطالمة وقياصرة روما تعمدوا الابقاء على السخافات والمساخر الدينية ، عن سوء قصد ونية ، وأصروا على الأمعان فيها ، وهم فى قرارة أنفسهم يحتقرونها بكل جوارحهم ٠

وفى احدى المرات دعى قيصر ذات مرة للاشتراك فى الاحتفال بالعجل أبيس ، فأجاب الداعين بنصف أنفه (درجت على عبادة الالهة لا الثيران)(٨) ٠

ولقد سبق توضيح الفكر المصرى الدينى القديم فى الجزء الأول من هذا الكتاب حيث كان المصرى لا يعبد الحيوانات أو التماثيل لذاتها أبدا ، بل هو يعبدها بعد طقوس معينة فى المعبد ، باعتبارها أصلح الأشكال ليتقمصها الاله ٠

انما الذى غير من هذا كله وجعل الشعب يتجه الى عبادة الأوثان والحيوانات هم مجموعة الكهنة الجشعين الساعين الى الكسب بأى وسيلة ٠

ثم يتجه الشعب المصرى الى المسيحية تدريجيا ابتداء من منتصف القرن الأول الميلادى فلا يلبث الحاكم أن (يفرض) على هذا الشعب مذهبه الوثنى وتحريم اعتناق المسيحية وتعذيب من يتمسك بها حتى الموت ٠

ثم يحدث أن يعتنق الحاكم نفسه الديانة المسيحية (ويفرضها) على من لم يعتنقها بالقوة المسلحة سنة ٣٩٤ م ٠

ثم بعد أن اعتنق الحاكم نفسه المسيحية و (فرضها) بالقوة المسلحة على من لم يعتنقها ، اذ به (يفرض) مذهبا معينا فى المسيحية (الكاثوليكية) على الشعب المصرى بقوة البطش والأرهاب فتحدث مجازر وتزهق مئات الألوف من الأرواح ٠

وقبل أن نودع دين مصر الذى كان يمثل القوة الدافعة لأول حضارة وأطول حضارة عرفها بنو الانسان ٠

تلك الحضارة وقوتها الدافعة كانت فى الدين الذى عجل بنشأة الحضارة المصرية فى أقصر زمن عرفه التاريخ لتجعل من كل مصرى ومصرية يدا واحدة وقلبا واحدا وفكرا واحدا للخلق والابتكار والعمل والبذل والعطاء ٠

قبل أن نودع دين مصر الذى نشأ فى البيئة المصرية الخالصة ، ومن الفكر المصرى وحده وقبل الرسالات السماوية بآلاف الأعوام ليمهد للبشرية قبول الايمان بهذه الرسالات عن طريق اكتشافه أن ثمة خالق وان هذا الخالق قد وضع نظاما للحياة على الأرض يلزم الجميع باتباعه بصدق وبعدالة وان الناس ستحاسب على المخالفة بعد البعث حيث يكافأ المستقيم ويعاقب المذنب ٠

هذا الدين الذى لم تخرج الديانات السماوية عن اطاره الأساسى والذى يعبر عن اعجاز الله سبحانه وتعالى فى خلقه بامكانية اكتشافهم لخالقهم ولنظامه حتى بدون رسل وكان يمثل الحقيقة التى لا تقبل أى جدل مع الاجداد فى يوم مجدهم وقبل اختلاطهم بالغير ٠

هذا الدين الذى انحدر عن جوهره ليكون فى عصور الاضمحلال وموت الروح المصرية عبارة عن وثنية وحركات آلية لاقامة شعائره والذى فقد كل معنى امام رسالة السماء على أيدى السيد المسيح يحق لنا أن نستمع ، قبل طى صفحاته ، الى المرثية التى تقطع نياط القلب ، يتلوها واحد من آخر الحكماء الذين تعلموا بمدرسة

الاسكندرية . وعند هذا الحكيم ان زوال وانحلال آخر مجتمع كان يعيش الناس فيه مع آلهتهم كأسرة واحدة ، ليس معناه نهاية مصر فحسب ، بل هو بمثابة انتهاء العالم . وما أشدها لوعة نحس بها اليوم ، يفيض بها الوداع الذى يودع به اسكليبوس (فى القرن الرابع الميلادى) حضارة كانت فى زمانها خيرة مجيدة ، وهى تسير دون رجعة فى طريقها المحتوم الى الزوال .

« سيجىء زمان يظهر فيه كان المصريين حافظوا ، دون جدوى ، على طقـــوس الآلهة ، بروح العباد البررة ، والصالحين المؤمنين . وما دام الصـــــلاح والعبادة والايمان لم تؤد الى شىء ، فقد أورثتهم خيبة الأمل القنوط واليأس . سنرتفع الالهة عن أرض مصر ، وستهجرها الى سماواتها العلى ، فتخلو أرض الرسالات . وتغدو يتيمة من آلهتها ، لأن الغرباء تكتظ بهم تلك البلاد والدنيا الواسعة . ولن تهمل أركان الدين فحسب ، بل ان المؤمنين به سيحل بهم العقاب ، وذلك بحكم القوانين التى تجعل من صلاحهم وعبادتهم أمرا محظورا ، وهذا أقسى ما يرزؤها به القدر . وحينذاك ستتحول تلك الأرض القدسية ، مثوى المعابد ومعرش الالهة ، الى أجداث وأرماس .

يا مصر . أى مصر ، لن يبقى من أصول دينك سوى أحاديث خرافة مسطورة على ألواح من الحجر ، تحكى قصة ايمانك ، لا يأخذها الخلف مأخذ الجد ، ولا يجدون فيها مبنى ولا معنى(٩) .

« وكما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا انتم أيضا بهم هـكذا وان احببتم الذين يحبونكم فاى فضل لكم » .

السيد المسيح ـ عليه السلام
انجيل لوقـــا

ب ـ المسيحية فى مصر :

ولم تنتشر المسيحية فى مصـر بسهولة ، بل عاشت الوثنيـة المصرية خمسة قرون بعد ميلاد المسيح ، وقد أصابها من النصرانية الظافرة الاضطهاد نفسه الذى ذاقته المسيحية على أيدى الوثنية .

ولقد حوربت المسيحية من الأباطرة والحكام الرومان ومن المتمسكين بالديانة المصرية القديمة واستشهد كثير من المسيحيين كما توفى الكثير من الوثنيين .

وهذا يعنى ، من وجهة نظر هذا الكتاب ، **أن الحـــاكم يفرض نظامه الوثنى** بالمخالفة لكثير من الرغبات الشعبية التى اتجهت الى اعتناق المسيحية .. **فكـــانت** الفرقة عن الحاكم وعن نظامه (**الدينى**) وعن قياداته ..

وعندما اعتنق الحاكم الرومانى المسيحية ، دارت الدائرة على اتبـــاع الديانة القديمة (**الوثنية**) .

فكانت الفرقة أيضا .

وعنـدما أصـدر الامبراطور المسيحى تيودسيوس سنة ٣٩٤ م مرسومة بحظر اجراء الطقوس الوثنية فى أية جهة من جهات الامبراطورية (ومنها مصر بطبيعة الحال) توقف الكهنة المصريون عن ممارستها علنا . وانهال بطريرك الاسكندرية تاوفيلوس على معبد سرابيس الأعظم بالاسكندرية يهدمه ، وينكس الصنم الكبير ، ويأمر بتدمير ما يستطاع من المعابد المصرية فى طول البلاد وعرضها ، وتفرق الكهنة المصريون فى الأرض . وقد هجروا ما بقى من معابدهم تنعى من بناها الا فى جزيرة فيلة فى أسوان ، وفى هذا يقول ماسبيرو .

(**عاشت الوثنية المصرية خمسة قرون بعد ميلاد المســيح ، ثم انتصرت عليها النصرانية الا معبد ايزيس بجزيرة فيليه** ، الذى تمكن من البقاء أطول زمن ممكن بعد نهاية الآلهة والمعابد الكبرى . **ومرد ذلك الى تمسك أهالى النوبة وشـــمال السودان** بهذه الآلهة ، **وتمسك جميع الشعوب القاطنـــة** باعالى النيــل ، المتخلفة عن مملكة

مروى . فعندما استولى البليميون أسلاف البجاويين والبشاريين والعبايدة ومن اليهم) على النوبة ، فى منتصف القرن الثالث الميلادى ، خضعوا لسحر ايزيس فعبدوها ، وظلت حمايتهم مبسوطة على معبدها فى جزيرة فيليه ، على الرغم من مرسوم ثيودسيوس القاضى باقفال المعابد . ولم يكن مسيحيو فيليه بتشجيع من مطارنة اسوان ليجدوا فرصة أنسب يطبقون فيها المرسوم على معبد ايزيس ، لولا خوفهم من بطش البليميين لذلك بقى تمثال ايزيس مرفوع الرأس فى مواجهة المسيح الظافر . وبعدما قضى الغربيون على البليميين فى حكم بوستنيانوس (٥٢٧ ـ ٥٦٥م) حيث تمكن تيودوروس أسقف أسوان ، وأخيرا ، من أن ينكس صنم الالهة ، ويدك مذبحها . ثم يحول معبدها الى كنيسة .

ونستطيع أن نتخيل فى هذا القرن الأخير للوثنية المصرية (القرن السادس الميلادى) ظروف حياة كهنة المعبد المساكين . فقد تحولت أغلب رعيتهم الى النصرانية، ولم يبق حافظا للديانة العتيقة سوى بعض بواقى الأسر الكهنوتية العريقة ، يتوقعون فى كل آونة أن يهجم عليهم الشعب المتعصب لديانته الجديدة ولكنهم عرفوا بعض فترات الهناء والسعادة ، عندما كان يجيئهم القاصد الرسولى لملك البليميين ، على رأس بعثة تنزل ببر الجزيرة فى احتفال عظيم ، تحمل العطايا والهدايا والقرابين . وكان الكهنة حينئذ يرفلون فى أبهى حللهم الكهنوتية ، ويخرجون تمثال الآلهة من قدس الأقداس ، ويفتحون بوابة المعبد على مصراعيها ، ويقفون فى جوسق الملك ، كان منظرا يوحى بالعصور الغابرة ، عندما كانت ايزيس حقا سيدة العالم) (١٠) .

والحقيقة أن مصر لم تهنأ ابتداء من اعتناق بعض الناس للمسيحية حتى سيادة المسيحية فى كل أرجاء مصر الا بفترات قليلة من الهدوء ـ وذلك فضلا عن الاضطرابات التى عاشتها مصر من قبل المسيحية تحت نير الاحتلال الرومانى والاغريقى .

وسوف نعرض (بعض) النماذج للصراعات والخلافات التى مزقت أبناء الوطن الواحد وأبناء هذا الوطن مع القوة العسكرية الغاصبة وذلك نقلا عن الأستاذ أحمد حسين فى كتابه القيم (موسوعة تاريخ مصر) (١١) .

يعزى الى الأنبا تيوفيلس المصرى أنه أقنع الامبراطور ثيودسيوس (الذى ألزم رعاياه باتباع المذهب الأرثوذكسى المصرى) بتحويل المعابد الوثنية الى كنائس مسيحية .

وقد راقت هذه الفكرة للامبراطور وأصدر أمره على الفور بتنفيذها . وكان أول هيكل استولى عليه البابا السكندرى لتحويله الى كنيسة هو هيكل باكوس اله الخمر . فنزع منه التماثيل وراح يعرضها وسط الازدراء والسخرية فى شوارع الاسكندرية فأهاج هذا التصرف الوثنيين ، رغم قلة عددهم . فتجمهروا وأحاطوا بمعبد سيرابيس للدفاع عنه .

واذ كان المعبد أشبه ما يكون بالقلعة حيث كان مبنيا فوق هضبة ويرقى اليه

بمائة درجة . فقد استعان ثيوفيليس فى الهجوم عليه بالجيش الرومانى . فجرى الاصطدام بينه وبين الوثنيين الذين اضطروا فى النهاية الى الاحتماء بالمعبد الكبير .

فصدرت الأوامر بتحطيم المعبد فوق رءوس المقيمين به . فجرت الدماء أنهارا ، واشتعلت النار فى المعبد فأتت على مكتبته التى كانت تضم ٧٠٠ ألف كتاب .

وهكذا تحول المضطهدون بالأمس الى مضطهدين لمخالفيهم فى الرأى .

ويقول صاحب المنارة التاريخية (وهنا يجرنا الانصاف الى القول بأن كل اضطهاد دينى هو ممقوت ، سواء أكان واقعا من وثنيين أو مسيحيين ، لاسيما وهو يتصب فى الأغلب على أحرار الناس أكثر من سواهم ، فالذين اضطهدهم أسقف الاسكندرية كانوا من علماء ذلك الزمان وأحدهم وهو أوليميوس كاهن معبد سيرابيس كان مع كبر سنه ومقامه رجلا وديعا حليما عاقلا لا عيب فيه كأفضل شهداء المسيحيين ، بل ان الفرق بين الاضطهادين بعيد جدا . لأن الوثنى كان يضطهد عن سياسته واقتصادياته ، أما المسيحى فهو يضطهد غلوا فى دين أساسه الرحمة والوداعة ، لا يحب بسط اليد بالأذى ولا التطاول باللسان وقول الهجو) .

وقد زاد هذا الحادث الجديد فى تدهور مركز الاسكندرية الثقافى فوق تدهوره المستمر ، فقد هجرها كثير ممن كانوا بها من رجال العلم والفلسفة والذين كانوا يشرفون على مدارسها ، باعتبارها مركزا للفلسفة اليونانية .

واذ لا يوجد حد يقف عنده التعصب للرأى اذا أخذ سبيل العنف ، فسرعان ما وجدنا بتوفليس يختلف مع رهبان وادى النطرون ممن كانوا يعجبون بأوريجانوس) . ويصدر قرارا يعتبر فيه الأوريجانية ، بدعة مسيحية ، فاحتكم الرهبان الى أسقف القسطنطينية وهو يوحنا فم الذهب الذى كتب للأنبا بتوفليس يسترضيه على الرهبان وأوريجانوسى فلم يزد ذلك تيوفليس الا غضبا على يوحنا فم الذهب نفسه .

وفى سنة ٣٩٤ حمل الامبراطور مجلس الشيوخ الرومانى على أن يصدر تشريعا بالغاء الوثنية فى جميع صورها وأشكالها فى أرجاء الامبراطورية ووضع العقوبات الصارمة لكل من يعبد الها غير المسيح أو يرتد عن الدين أو يلحد فيه .

وظلت السلطة الحقيقية فى مصر فى يد (الأنبا) تيوفيلس ، الذى كان عدوا للاريوسيين مذهبا وللاغريق سياسة ، ولذلك فقد كان المصريون ينظرون اليه نظرتهم لا الى زعيم روحى بل الى قائد ورئيس سياسى .

وشاءت الظروف أن تعمل على تدعيم سلطاته أكثر وأكثر ، فوقع خلاف بين يوحنا فم الذهب أسقف القسطنطينية والامبراطور أركاديوس لمهاجمة يوحنا لزوجة الامبراطور (أودكسيا) فأصبح تيوفيلوس هو القاضى الذى رأس مجمعا من الأساقفة المصريين ليحكم بحرمان يوحنا فم الذهب وطرده من منصبه وعاد تيوفيلس الى الاسكندرية فازداد ضراوة فى محاربة مخالفيه لا من الوثنيين بل من المسيحيين ، وكان

الخلاف معه فى الرأى لا يؤدى الى الكفر والالحاد فحسب ، بل واعتبار المخالف خارجا على سلطة الامبراطور نفسه ٠

ويقول المؤرخ الانجليزى (ملن) : امتد تاريخ مصر منذ هذه اللحظة حتى خمسين سنة قادمة ، لايخرج عن تاريخ بطارقة الاسكندرية ، والخلافات بين الأساقفة وأتباعهم ، بحيث أصبحت الحياة وكأنها لم تعد شيئا الا مناقشة اللاهوت ٠

وقد وصف أحد الأساقفة الذين زاروا القسطنطينية فى هذه الفترة ما يمكن أن يصدق على مدينة الاسكندرية كذلك قال : ان جميع عمال هذه المدينة وعبيدها يشتغلون باللاهوت فاذا قصدت صرافا لاستبدال قطعة نقود أوقفك ليروى لك أوجه الخلاف بين الابن والاله والأب واذا ذهبت لشراء رغيف أخبرك صاحب المخبز أن الابن يجب أن يكون دولة الاله الأب واذا طلبت من الحمامى أن يعد لك الحمام أجابك أن الابن وجد من لاشىء (٠٠٠٠) ٠

ويقول ملن أن تيفيلوس اصطحب كتيبة من الجند وحطم زوايا الرهبان فى وادى النطرون لمخالفتهم اياه فى الرأى ، وكان ذلك مظهر جمع السلطة الدينية الى السلطة الزمنية ، والذى لم يلبث أن يصل الى ذرونه العليا على يد باباوات روما ٠

وبعد وفاة الأنبا تيوفيلس سنة ٤١٢ م اختار الشعب والاكليروس الأنبا كيرلس الثانى ٠

على أن اختياره لم يتم بيسر وسهولة كاختيار من سبقه من الباباوات ذلك أنه بتعاظم خطورة صاحب هذا المنصب فى النفوذ والسلطان ، فقد بدأت القوى الحاكمة تتدخل فى اختياره ، فيقول (ملن) أن قائد القوات الرومانية فى مصر بذل جهدا كبيرا فى انجاح مرشح له يمثل المذهب الآريوسى ، وعمت الاسكندرية المجادلات والمشاحنات والمضاربات ، ولكن ارادة الشعب والكنيسة المصرية هى التى انتصرت فى نهاية الأمر باختيار كيرلس الذى لم يقل بغضا للآريوسية عن سلفه ٠

وفى سنة ٤١٥ قام الشعب فى المدن والرهبان الوافدون من الصحارى الغربية بثورة ضد اليهود بالاسكندرية والمدن ، فانتهب العامة أموال اليهود وممتلكاتهم وأجلوهم عن بيوتهم واضطرب حبل الأمن بالمدينة حتى عمتها الفوضى وعبثا حاول الحاكم الرومانى أن يعيد الأمن والنظام ، فقد كانت قواته أضعف من التغلب على الشعب الهائج ، بل لقد وقع هو نفسه فريسة للاعتداء اذ قذفه البعض بقطعة من الحجر أوجعته ٠

وكان كيرلس هو سيد الموقف الوحيد ٠

وسكر الرهبان وعامة الشعب بهذا النصر ، فقرروا أن يقتلعوا من مدينة الاسكندرية ما تصوروه آخر معالم الفلسفة اليونانية التى كانت تتمثل فى هذا الوقت فى الفيلسوفة هيباثيا ابنه العالم تيون وزوجة الفيلسوف ايزادور والتى كانت تعتبر

من أئمة المدرسة الأفلاطونية وتمثل ذروة الجمال والوداعة والرقة النسائية فتربص لها البعض أثناء مرورها فى عجلتها بأحد شوارع المدينة . وانقضوا عليها وجروها على الأرض حتى كنيسة قيصر . وهناك جردوها من ثيابها ورجموها حتى ماتت ثم مزقوها اربا وحملوها خارج المدينة حيث أحرقوها فى أحد الأفران .

ومنذ التبشير بالمسيحية على أيدى مرقص الرسول فى الاسكندرية سنة ٦١ م وحتى سنة ٣٩٤ م تاريخ فرض المسيحية بالقوة على جميع العالم الرومانى بما فيه مصر وذلك بقرار من الامبراطور ، والمسيحية المصرية فى صراع يكاد يكون مستمرا ضد الحاكم الرومانى الوثنى والأهالى ، خاصة من الفلاحين وكثير من الأجانب الذين ظلوا على عقائدهم القديمة .

وفى عهد الامبراطور قسطنطين الذى اعتنق المسيحية سنة ٣١٢ م بدأ يضاف الى أطراف الصراع الخلاف بين المسيحيين أنفسهم ، اذ اتجهت المسيحية المصرية وجهة فى الدين غير الوجهة التى أيدها الامبراطور ورجال دينه ولم يهدأ هذا الخلاف (الدموى) الا بعد دخول العرب مصر سنة ٦٤٠ م .

ولقد بدأ الخلاف سنة ٣٢٥ م بين أثناسيوس (المصرى) وآريوس وهما من كبار رجال الدين المسيحى واليك ترجمة لكل منهما وبيانا ببداية الخلاف الذى انتهى الى انفصال الكنيسة الرومانية عن الكنيسة المصرية ليصبح بعد ذلك أتباع الاولى يسمون الكاثوليك ويصبح أتباع الثانية يسمون الأرثوذكس منذ سنة ٤٥١ م .

غير أن هذا الخلاف فى نطاق الدين المسيحى والذى بدأ فى عهد كل من آريوس واثناسيوس أضيفت اليه خلافات أخرى بين الكنيستين خلال احتلال روما لمصر ادت الى مجازر دموية راح ضحيتها الآلاف من المصريين المتمسكين بمذهبهم وبوجهة نظرهم فى تفسير الدين المسيحى .

ونعرض فيما يلى ترجمة لهذين الرجلين .

آريوس (٢٥٦ ـ ٣٣٦ م) :

أحد رجال الكنيسة بالاسكندرية . ولد فى ليبيا حوالى سنة ٢٥٦ وانتقل الى مدينة الاسكندرية حيث انخرط فى سلك الكهنوت ، وتلقى تعليمه الدينى فى اللاهوت بأنطاكية . أثار جدلا كبيرا فى العالم المسيحى بآرائه الدينية ، وخاصة فى تفسيره للعلاقة بين المسيح الابن والاله والأب ـ وكان ذلك حوالى سنة ٣١٨ وهو كهل كبير ـ عندما أعلن آراءه حول هذه المسألة ـ فقال بأن المنطق يحتم وجود الأب قبل الابن . ولما كان المسيح الابن مخلوقا للاله الأب فهو اذا دونه .

ولايمكن بأى حال أن يعادل الابن الاله الأب فى المستوى والقدرة . وبعبارة أخرى فان المسيح مخلوق لا اله بالمعنى المطلق لهذه الكلمة والا فان المسيحيين يصبحون متهمين بعدم التوحيد وبعبادة الهين .

وانبرى لمعارضة آريوس رجل آخر من رجال الدين بالاسكندرية هو أثناسيوس الذى تمسك بالوهية المسيح المطلقة (١٢) .

أثناسيوس :

زعيم من زعماء الكنيسة ، ولد بالاسكندرية عام ٢٩٦ م تقريبا من أبوين وثنيين وجمع الى ثقافته الوثنية ثقافة مسيحية وتتلمذ على القديس أنطونيوس . وتصدى لمقاومة آراء آريوس . وكان آريوس قد نادى بأن المسيح مخلوق لا اله بمعنى الكلمة ، والا فان المسيحيين يصبحون متهمين بعدم التوحيد وبعبادة الهين . ولكن أثناسيوس انبرى لمعارضته فى الاسكندرية وقال بأن فكره الثالوث المقدس تحتم بأن يكون الابن مساويا للاله الأب تماما فى كل شىء بحكم أنهما من عنصر واحد بعينه .

وعندما وجد الامبراطور قسطنطين العظيم أن الخلاف بين آريوس وأثناسيوس تحول الى صراع بين حزبين ، وخرج من الاسكندرية ليهدد وحدة العالم المسيحى عقد مجمع نيقيه سنة ٣٢٥ م - وهو أول مجمع مسكونى عالمى ، لبحث هذا الخلاف وأدان هذا المجمع آريوس والآريوسيه وتقرر نفيه . وبذلك خرج أثناسيوس منتصرا من هذه الجولة .

ويبدو أن احساسه بانتصاره جعله يتطرف فى معاملة بعض الآريوسيين ، فى الوقت الذى كانت أخت الامبراطور قسطنطين القريبة الى قلبه تميل الى الأريوسية ، الأمر الذى جعل الامبراطور يعفو عن أريوس ويعقد مجمعا فى صور سنة ٣٣٤ م أدان أثناسيوس وتقرر نفيه لأكثر من عامين الى تريف فى جنوب فرنسا ، حتى عفا عنه قسطنطين الثانى عام ٣٣٨ م .

وقضى أثناسيوس بقية حياته متنقلا . فقضى فترة فى روما حيث حظى بعطف الكنيسة الغربية ، ثم عاد الى الاسكندرية ، ولكنه لم يستطع أن يسترد مكانته فيها ، فطرد منها سنة ٣٥٦ .

فقضى بقية حياته سائحا متنقلا بين مجتمعات الرهبان الذين رحبوا به فى كل مكان حتى توفى عام ٣٧٣ م .

وكان أثناسيوس رائدا من رواد الكنيسة وقائدا من قادتها فى مرحلة من أخطر المراحل التى مرت بها . وقد تركت آراؤه أثرا عميقا فى الفكر المسيحى فى القرون التالية ، الأمر الذى جعل الكنيسة ترفعه الى مرتبة القديسين (١٣) .

ومنذ سنة ٣٢٥ وحتى دخول الاسلام مصر سنة ٦٤٠ م ولم تهدأ الخلافات بين الكنيسة المصرية والكنيسة الرومانية الا لفترات قليلة وكان أساسها أن الحاكم الرومانى يريد فرض نظام دينى معين على الشعب المصرى بالقوة كما يريد أن يفرض زعامة هذا المذهب (الرومانى) بدون النظر الى ارادة هذه الأمة .

وهنا تظهر فرقة الشعب عن النظام المفروض وعن قادة البطش والارهاب .

ويزيد هذه الفرقة اشتعالا أن النظام الدينى المفروض جاء من لدن المحتمل الأجنبى الغاصب .

وتعددت الأسباب للخلافات بين الكنيستين أى بين الشعبين بعد الخلاف على طبيعة المسيح التى أثارها آريوس وكل طرف يتمسك بمذهبه ثم لا يملك الطرف الأقوى (المحتل الرومانى) الا أن يستعمل القوة المسلحة فتسيل دماء الوطنيين أنهارا وهم مصممون على (وطنيتهم) .

وابتداء من سنة ٥٣٦ م بدأ يظهر خلافات داخل المذهب المصرى نفسه (المونوفيزى) حول جسد المسيح بعد صلبه وهل يتطرق اليه الفساد كبقية الأجساد أولا يتطرق .

وحدثت مجازر دموية راح ضحيتها مئات الألوف من الشهداء نتيجة تمسك السلف بمبدؤهم وبرئيسهم الدينى .

كما يقول ساويرس الأشمونى أن ما حدث وقتذاك لم يكن له مثيل حتى فى زمن الوثنيين .

وربما تكون هذه الاجراءات قد نجحت فى تخويف المصريين الموحدين ولكن كان هناك أثر آخر وهو ازدياد المصريين تمسكا بمبدئهم ، واصرارا على زعامة بطريركهم (المنفى) المنتصر ثيودسيوس .

وبعد ذلك دأبت القسطنطينية على ارسال بطريرك ملكانى الى الاسكندرية وفى نفس الوقت يقوم الشعب باختيار بطريرك يعقوبى تكون له المكانه فى القلوب المصرية بصفة عامة .

وفى هذه الفترة (٥٨٧ م) أصبحت مصر تندفع نحو حالة من الفوضى ، فأصبحت الحكومة فى جانب والشعب فى جانب آخر ، وكل من الطرفين يفعل ما يحلو له ، بينما وقفت حكومة القسطنطينية مترددة وعاجزة عن حسم الأمور بينما كان النبى محمد عليه الصلاة والسلام قد أتم السابعة عشرة من عمره وعندما بلغ عليه الصلاة والسلام التاسعة والأربعين فتحت الاسكندرية أبوابها لجيش الفرس (الوثنى) املا من الشعب السكندرى (الأرثوذكسى) أن يتيح له هذا الوضع القبول فى السلطة الحاكمة ، وتدعيم الكنيسة المونوفيزية وانتصار بطريركهم .

وان كان القرآن الكريم نزل فى سورة الروم عن هذه الواقعة يبشر بانتصار الروم وهزيمة الفرس وهو ما حدث فعلا بعد ذلك .

وفى أثناء هذه المعاناه والاضطهادات الدينية فى مصر أرسل الرسول عليه الصلاة والسلام رسالة الى المقوقس حاكم مصر يدعوه الى الاسلام .

ثم يعود الاضطهاد على أشده للكنيسة المصرية سنة ٦٣١ عندما أرسل الامبراطور

مندوبه المطران قيرس الى مصر ليقوم بمهمة توحيد المذهبين اليعقوبى والملكى (الأرثوذكسى والكاثوليكى) ٠

ولم يكد الأنبا بنيامين (بطريرك) مصر يسمع عن مقدم قيرس وعن المهمة التى عهد اليه بها ، حتى أسرع بعقد مجمع فى مدينته الاسكندرية للقساوسة والرعية والقى فيهم خطابا حرضهم فيه على أن يثبتوا على عقيدتهم الحقة حتى يوافيهم الموت ٠ وكتب الى الأساقفة يامرهم بالهجرة الى الجبال والصحارى ٠ ريثما يرفع الله عنهم غضبه ونقمته ٠ وبعد أن قام بهذه الاجراءات أسرع بمغادرة الاسكندرية ، متوجها نحو الجنوب ٠٠٠٠ نحو الصعيد ٠

ولما وصل قيرس الى الاسكندرية سنة ٦٣١ ، وحاول ان يشرح للناس فى رفق وكياسة حقيقة المذهب الجديد ، مذهب وحدة الارادة (المونوثلينى) أى الارادة الواحدة والقضاء الواحد للسيد المسيح ٠

وانه لا يختلف عن جوهر مذهب الكنيسة المصرية ، لم يلق من عامة الشعب أذنا صاغية ، فعقد فى الاسكندرية مجمعا من الأساقفة والقساوسة الملكيين الذين أسرعوا الى اقرار النحلة الجديدة ، ولكن ذلك لم يزد الناس الا نفورا ٠

وهنا بدأ قيرس يتنكر للناس ويشرع فى حملة من الاضطهادات استمرت على رقاب العباد لمدة عشر سنوات ، ولم يوقفها الا دخول الاسلام الى مصر على أيدى عمرو بن العاص سنة ٦٤٠ م ٠

ويحوى تاريخ الكنيسة القبطية الكثير من قصص التعذيب والاضطهاد والتى تعيد للذاكرة أسوأ ما تعرض له المسيحيون فى تاريخهم الطويل ، ويسوقون الأمثلة على ذلك أولها ما أصاب منياس شقيق الأنبا بنيامين ٠ (حيث سلطت نيران المشاعل على جسده فأخذ يحترق حتى سال دهنه من جبينه على الأرض ــ ولكنه لم يتزعزع عن عقيدته وايمانه فنزعوا أسنانه ، ثم وضعوه فى حقيبة بها رمل ، وتوغلوا به فى البحر وأخذوا يعرضون عليه الحياة اذا هو آمن بالكاثوليكية ، فلما أصر على الرفض رموا به فى البحر فمات غرقا) ٠

وليس هذا الا قصة من عشرات ومئات القصص ٠

ويجمع المؤرخون الأوربيون ، على أن هذه الحماقة من جانب قيرس ٠ (وما قبلها من اضطهادات عبر القرون الماضية) هى التى مهدت السبيل لفتح المسلمين لمصر فقد كره الأقباط الحكم البيزنطى الذى سلط عليهم قيرس ، ودعو الله أن ينجيهم من شروره وآثامه ٠٠٠ فلما جاء المسلمون الى مصر استقبلهم المصريون ، كما يستقبلون المخلصين والمحررين من رسل السماء ٠

وسمع الرهبان فى مخابئهم الصحراوية ، وصوامعهم الجبلية ، بأمر قوم جاءوا من الشرق ليقضوا على الروم المارقين ، فاحتشدت حشودهم ، ووفدت على القائد عمرو ، فى جماعات كثيرة ، تحييه ، ومستبشرين بقدومه ، وهو معجب بتلك الوجوه

السمراء ، والشعور الشعثاء ، والمسوح المهلهله . لا تكاد تغطى اجسادا أوهنها الزهد ، وضمرتها العبادة فيستقبلهم أعظم استقبال ويحقق آمالهم كما عبر عن ذلك يوحنا النقيوس (من عظماء الاكليروس القبطى فى ذلك الزمان) فيقول (احترم عمرو أملاك الكنيسة ، ولم يقترف عملا يعاب عليه ، فحيا أهل البلاد عهد السلام الدينى . واعادت انشاء الكنيسة الوطنية ، وأديرة النطرون ، ودير أنبا مقار ، وجاء الرهبان أفواجا يؤكدون اخلاصهم للقائد العربى (١٤) .

« واتقوا يومـــا ترجعـون فيه الى اللـه ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » .

قرآن كريم

(ح) فى مصر الاسلامية :

لعلنا لاحظنا فى الأوراق السابقة مدى الفرقة والتفكك التى عاشها الانســان المصرى عبر هذه القرون الطويلة وخاصة بدءا من سنة ١١٠٠ ق.م التاريخ الذى حدده المؤرخون لموت الروح المصرية واضمحلالها حتى مجىء العرب الى مصر .

وأكثر من ذلك ، فان الجهاز الحاكم ، خاصة الأجنبى ، قد تعمد بث الفرقــة بين الناس بعضهم وبعض حتى لا يتحدوا على طرده ــ وسيجىء مزيد من البيان عن ذلك .

وكان المتوقع أن تجىء المسيحية ومعها الوحدة النابعة من محبة الناس لبعضهم ونزع الغل والحقد من أنفسهم واتجاههم جميعا الى المحبة والسلام .

ألم يقصر المسيح ، عليه السلام ، الا ثابة على من يحب أعداءه .

اذ لا أثابة على حب الانسان لأحبائه ، انما الاثابة الحقة هى النابعة عن مجاهدة النفس ومقاومة نزوات الشيطان فينقلب الناس أحبــاء ، متعاونين ، متحدين حتى مع أعدائهم فيخفق مجتمع المحبة والسلام على الأرض .

ولكننا لم نلاحظ فى مصر المسيحية شيئا من ذلك ، بل لاحظنا الدماء تنزف أنهارا من رقاب المسيحيين بأيدى الوثنيين مرحلة ، ثم فى مرحلة أخرى تنزف الدماء من رقاب المسيحيين المصريين بأيدى المسيحيين الرومان .

ثم ينجح الرومان المسيحيون فى بث الفرقة بين المسيحيين المصريين فيتقاتلون ويتصارعون .

وشقيت مصر بفرقتها ، سواء فى ظل المسيحية أو قبلها ، وهذا هو ما يهمنا فى هذا الكتاب .

يقول المقريزى يصف شعب مصر عند الفتح الاسلامى :

(اعلم أن أرض مصر لما دخلها المسلمون كانت جميعها مشحونة بالنصارى على

قسمين متباينين في أجناسهم وعقائدهم · أحدهما أهل الدولة وكلهم روم من جند صاحب القسطنطينية ملك الروم ، ورأيهم وديانتهم بأجمعهم ديانة المسيحية الملكية ، وكانت عدتهم تزيد على ثلاثمئة ألف رومي ، والقسم الآخر عامة أهل مصر ، ويقال لهم القبط . وأجناسهم مختلفة لا يكاد يتميز منهم القبطي من الحبشي من النوبي من الاسرائيلي الأصل . من غيره وكلهم يعاقبه فمنهم كتاب المملكة ، ومنهم أهل الفلاحة والزراعة ومنهم أهل الخدمة والمهنة ، وبينهم وبين الملكيين أهل الدولة — من العداوة ما يمنع زواجهم ويوجب قتل بعضهم بعضا) (١٥) ·

هذه هي صورة مصر عندما جاءها الاسلام على أيدي السلف من العرب

فما هو دور الاسلام بالنسبة لوحدة الأمة المتفرقة عن رسالة السماء ·

بالنسبة لفرض الدين الاسلامي بالقوة على المسيحيين أو اليهود فهذا محظور تماما تنفيذا لقوله سبحانه وتعالى (لا اكراه في الدين) ، (لكم دينكم ولي دين) ، (افانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) ·

بل وأكثر من هذا فان الاسلام لا يريد الحرية لأتباعه وحدهم ، انما يقرر هذا الحق لأصحاب الديانات المخالفة ويكلف المسلمين أن يدافعوا عن هذا الحق للجميع ، فيأذن لهم في القتال تحت هذه الراية ، راية ضمان حرية العبادة لجميع المتدينين وذلك انصياعا لقول الحق تبارك وتعالى (اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا : ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوي عزيز · الذين ان مكناهم في الأرض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور) ·

ومع ان النص يكشف عن السبب المباشر في الأذن للمسلمين بالقتال ، فان بقيته تبين حكما عاما في مشروعية القتال · وغاية الله من نصر من ينصرهم فيه · وذلك هو ضمان حرية العقيدة عامة للمسلمين وغير المسلمين وتحقيق الخير في الأرض والصلاح ، فهو يقول : انه لولا مقاومة بعض الناس وهم المؤمنون لبعض الناس وهم الظالمون ، لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد) والصوامع معابد للرهبان والبيع كنائس للنصارى ، والصلوات كنائس اليهود ، والمساجد مصليات المسلمين ، وهو يقدم الصوامع والبيع والصلوات في النص على المساجد توكيدا لدفع العدوان عنها ، فهي اذن دعوة الى ضمان حرية العبادة للجميع واحترام أماكن العبادة جميعا ثم وعد بالنصر الذي يؤدي الى تمكين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، العابدين لله ، الباذلين أموالهم للزكاة (١٦) ·

وعندما جاء عمرو بن العاص ليحكم مصر من قبل الخليفة العادل عمر بن الخطاب

سنة ٦٤٠ م جمع جنوده عقب الفتح موصيا خيرا بأهل مصر فيقول (واستوصوا بمن جاورتموهم من القبط خيرا ، ويروى لهم حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ــ ان الله سيفتح عليكم من بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فان لكم منها صهرا وذمة)(١٧) ٠

ويقول محمد بن أبى بكر لما ولاه الامام على مصر ــ بعـــد قراءته كتاب الامام بولايته على أهل مصر :

(الحمد لله الذى هدانا واياكم لما اختلف فيه من الحق ، وبصرنى واياكم كثيرا مما كان عمى عنه الجاهلــون ٠ الا أن أمير المؤمنين ولانى أمركم وعهد الى ما ســمعتم (من أمر ولايته)٠ وما توفيقى الا بالله عليه توكلت وليه أنيب ، فان يكن ما ترون من امارتى واعمالى طاعة الله فاحمدوا الله على ما كان من ذلك ، فانه هو الهادى له ، وان رايتم لى عاملا عمل بغير الحق فارفعوه الى وعاتبونى فيه فانى بذلك أسعد وأنتم جديرون ٠ وفقنا الله وأياكم لصلاح الأعمال برحمته)(١٧) ٠

ولكن قدر لهذه الأمة ، خاصة بعد انتهاء حكم الخلفاء الراشدين ، أن يقوم بعض الحكام بعمل تصرفات (غير اسلامية) ٠

وعلى سبيل المثال فقد حدث فى العهد العباسى (٧٧٤) أن ولى على مصر موسى ابن مصعب الذى راح يتشدد فى جمع الخراج ، وضاعف فى قدره ، ولقى الناس منه شدة وعنفا ، وساءت سيرته وارتشى فى الأحكام ٠

وفرض الضرائب على أهل السوق والدواب ، فكرهه الجند وكرهته الرعيــة ولذلك ، انتهزوا فرصـــة تصــديه لحرب عرب الحوف فانهزموا عنه وخلوا بينه وبين محاربيه فسقط قتيلا ٠

وقد بلغ من قسوة استلاب الأموال من المصريين فى صورة ضرائب أو غيرها فى عهد المأمون أن ثار الناس ثورة عارمة مما حمل المأمون على الحضور الى مصر ومقاومة الثورة بعنف حتى لقد قتل الكثير من الرجال وسبى النساء والأطفال ٠

ومن الألفاظ التى عنف المامون بها واليه بمصر (ان هذا الحدث لم يكن الا من فعلك وفعل عمالك ، حملتم الناس ما لا يطيقون وكتمتم الخبر عنى حتى تفاقم الأمر واضطربت البلاد) (١٨) ٠

ودخل الكثير من المصريين تحت لواء الاسلام ٠

ولكن هل انتهى الأمر بعد أن أصبحت غالبية الشعب المصرى تدين بالاسلام الى خلق مجتمع اسلامى متكامل تكون السيادة فيه للكلمة الواحدة الصادرة من الحــق تبارك وتعالى ؟ ٠٠

لو حدث هذا لتحققت وحدة الأمة المصرية منذ قرون طويلة ، ولكن الذى حدث

أن تصرف (كل) من ولى أمر مصر بعد الخلفاء الراشدين على خلاف ما تقضى به شريعة السماء .

وعلى سبيل المثال ، فانا نرى أن الله سبحانه وتعالى يأمر بأن تكون تولية الحاكم باختيار الناس ووفقا لرضائهم .

وهذا ثابت من طريقة اختيار أبى بكر رضى الله عنه فى بيعته فى سقيفة بنى ساعدة وغير ذلك .

ولكن الحكام فرضوا أنفسهم على الناس بدون النظر الى ارادتهم ابتداء من حكم بنى أمية ؛

ثم ان الله سبحانه وتعالى أوجب الشورى فى الحكم وقام بالعمل بها الرسول عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين ، ولكن الحكام حادوا عن ذلك ولم يعملوا لرأى الناس قيمة .

ثم ان الاسلام لا يعرف توارث حكم البلاد ، أى لا يعرف القيصرية أو الملكية ، ولكن حكام مصر احتجزوا حكمها لأنفسهم دون سائر الأمة .

ويأمر الاسلام بالمساواة ، ولكنهم تعالوا على هذه الأمة وكلهم نظروا الى المصريين نظرة استعلاء ، بل واذلال .

ويأمر الاسلام بعدم السكوت على الباطل ، بل يأمر بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وخاصة بالنسبة للحكام والا كان الانسان آثما .

ولكن الحكام عملوا على اخافة الناس حتى لا يتكلموا .

ويقول عليه الصلاة والسلام (خير الجهاد كلمة حق أمام حاكم جائر) .

ونستطيع أن نجد الفرق بين جوهر الاسلام فى هذا المجال ، وبين ما فعله المتسبون الى الاسلام اذا نظرنا الى موقف عمر بن الخطاب حينما خطب فى الناس قائلا (أن رأيتم فى أعوجاجا فقومونى — فرد عليه بعض الحاضرين قائلا — والله لو وجدنا فيك أعوجاجا لقومناك بسيوفنا) ففرح عمر بهذا الموقف وحمد للرجل شجاعته وايمانه .

ثم أنظر بعد ذلك الى موقف عبد الملك بن مروان حينما خطب فى الناس بعد مقتل عبد الله بن الزبير فقال : ولا يأمرنى أحد بتقوى الله بعد مقامى هذا الا ضربت عنقه .

وليس هذا بموقف غريب على الرجلين فقد كان عمر بن الخطاب خليفة ولم يك ملكا ، وكان عبد الملك بن مروان ملكا ولم يك خليفة .

ولما قامت دولة الأمويين وبلغت الدولة العربية أقصى اتساعها .. أعطيت

للولاة سلطة مطلقة ويتجلى لنا ذلك حينما ننظر الى سياسة زيـــاد بن أبيه أو عبيد الله بن زياد أو الحجاج بن يوسف الثقفى وكيف كانوا يزهقـــون الأرواح ويسفكون الدماء ويقتلون من يشاءون فى سبيل تدعيم الأمن واقرار النظام(١٩) ٠

هذا عن بعض النواحى السياسية فى النظام التى خالفها من أتوا بعـــد على ابن أبى طالب فى مصر ٠

أما عن مخالفاتهم للنظم المالية فى الاسلام ، فقد جعلت رسالة السماء الناس أحرارا فى كسب معاشهم دون احتكار من الحاكم أو من أى جهة أخرى ، فالناس مستخلفون فى الأرض فى مال الله ثم يردون جزءا من مال الله الذى أتاهم لنبع الزكاة ، لرده على من لم تسعفه ظروفه للسعى والكسب مثلهم ٠

ولكنهم قبضوا على أموال الناس فى أيديهم ، كما سبق لهم القبض على الرقاب ولم يحترموا الملكية الخاصة بصفة عامة ، بل كانوا كثيرا ما يصادرونها لأنفسهم ٠

وفى النواحى الدينية ، لم يعدموا الافتاء لصالحهم ولصالح شهواتهم ٠

ولأجل أن نعطى صورة من هذه الفتاوى ، فقد حدث ، بعد أن انتصر السلطان سليم على سلطان مصر المملوكى طومان باى ، فقد استند السلطان العثمانى الى فتوى من المفتى على جمال أفندى وذلك لاضفاء الشرعية على أعماله نعرضها فيما يلى :

السؤال الأول (من السلطان سليم طبعا) ـ اذا نادى أحد سلاطين الاسلام (يقصد نفسه) بالجهاد لابادة المارقين (من العجم ولم يكونوا كفرة بأى حال) ، فصادفته عوائق بسبب المساعدة التى يبذلها لهم سلطان آخر من سلاطنة المسلمين (يقصد طومان باى) فهل تبيح الشريعة الغراء لأولهما أن يقتل الثانى ويستولى على مملكته ؟

أجاب جمال أفندى ـ من نصر كافرا فهو كافر ـ ٠

السؤال الثانى ـ اذا كانت أمة من الأمم التى تدين بالاسلام (يقصد المصريين) تؤثر زواج بناتها من الكفار (يعنى المماليك الجراكسة وكانوا مســـلمين) بدلا من تزويجهم بالمسلمين ، فهل يجوز مقاتلة هذه الأمة ؟

أجاب جمال أفندى ـ بلا مبالاة ولا مقاضاة ٠

السؤال الثالث ـ اذا كانت أمة تنافق فى احتجاجها برفع كلمة الاسلام ، فتنقش آيات كريمة على الدراهم والدنانير ، مع علمها بأن النصارى واليهود يتداولونها هم وبقية الملاحدة ، فيدنسونها ويرتكبون أفظع الخطايا بحملها معهم اذا ذهبوا الى محل الخلاء لقضاء حاجتهم ، فكيف ينبغى معاملة هذه الأمة ؟

أجاب المفتى العثمانى ـ ان هذه الأمة ، اذا رفضت الاقلاع عن ارتكاب هـــذا العار ، جاز ابادتها(٢٠) ٠

ويدخل فى هذا السياق أيضا أن وزير الأوقاف فى عهد وزارة الوفد (حسين الجندى) رفع الى الملك فاروق يوم ٥ مايو سنة ١٩٥٢ ، أى بعد اقالة الوزارة الوفدية بأكثر من ثلاثة أشهر ، تقريرا اشترك فى وضعه مع نقيب الأشراف وقتئذ (محمد الببلاوى) أثبتا فيه كذبا نسب فاروق الى السلالة النبوية ، وزعما أن نسبه من جهة أمه ينتهى الى الامام الحسين رضى الله عنه ابن السيدة فاطمة الزهراء ، بنت سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم « بالشهرة والتواتر » .

وكان هذا التقرير مبنيا على الافك والبهتان ، ولم يقصد منه الا التملق لفاروق .

ومن عجب أن يختلق نسب الملك فاروق الى السلالة النبوية عن طريق والدته ، فى الوقت الذى أستفاضت فيه أنباء فساده ومغامراته النسائية وانغماسه فى الشهوات ولعبه الميسر علنا فى الاندية الليلية ، ثم ما استفاض من مفاسد والدته نازلى فى مصر والخارج ، ومع ذلك ينسبونه وينسبونها الى السلالة النبوية ـ وأعجب من ذلك أن يعلن هذا النسب المختلق بعد أن أصدر فاروق ذاته أمرا بتجريد والدته من اللقب الملكى ، فهل من كانت غير جديرة باللقب الملكى تصبح زورا جديرة بالنسب النبوى(٢١) .

ولكن لا زال موضوع الدين لم يجد له حلا محددا حتى الآن .

فثم قول يحرم الخلط بين الدين والسياسة بينما الدين الاسلامى تناول أمور سياسية واقتصادية واجتماعية .

وثم قول يجعل الدين مصدرا أساسيا للتشريع .

وثم أفكار دينية متطرفة ، متعصبة ، تدور فى فكر الكثير من الشباب .

وكل هذا يعنى فى نظر البعض أن النظم والقوانين الغير مستقاة من الشريعة الاسلامية فهى نظم وقوانين مفروضة من أعلى يحل لهم مخالفتها .

وهذا يعنى فرقة هذا البعض عن النظم والقوانين وعن القيادة الحالية .

ولكن يجب أن تعلم أن القوة الدافعة للحضارة المصرية كان أساسها الدين كما سبق عرض ذلك فى الجزء الأول من هذا الكتاب .

وعلى كل حال فسيتم استكمال هذا الموضوع فى الجزء الثالث من هذا الكتاب انشاء الله .

فى النظم السياسية المفروضة

ا ـ من سنة ٢٠٠٠ ق٠م ـ ١٧٩٥ م

اتجهت سياسة الملوك منذ بداية الأسرة الثانية عشرة ثلاثة اتجاهات ، فأولا ـ كان الواجب كبح جماح الامارات القديمة وتدعيم الوحدة السياسية للبلاد ، وثانيا الاسراع باعادة انعاش البلاد وذلك بخلق جهاز ادارى طيع وفعال ، ومن ثم توفير الاستقرار الاجتماعى وترتيبه فى هيكل عام يشبه مثيله فى الدولة القديمة(٢٢) ٠

واعلن بناة الأهرام الجدد تعلقهم صراحة بالايديولوجية الملكيـــة التى ستكون ـ بعد أن يتم لها النجاح ـ عنوانا أدبيا للمجتمع الجديد فى الدولة الوسطى ويعود الأمر كما فى الدولة القديمة ، يحيط البيت الملكى نفسه بحاشية دينية تلتف حـول شخصية الملك الالهية ولا يتردد الملك فى تسخير الأدب لأهداف الدعاية على غرار ما فعل ملوك اهناسيا (عقب الثورة) ـ وتؤكد هذه الكتابات أن الملك هو مصدر كل سلطة وسبب كل رخاء ٠

وقد بدأ هذا العهد بإقرار نظام بوليسى محكم فى البلاد مع أن مصر لم تكن تعرف قبل ذلك نظاما للشرطة حسب ما ذكره ول ديورانت فى كتابه عن قصة الحضارة مما يدلك على أن المصرى لم يكن بحاجة الى رقيب لمراقبة تنفيذ النظـــام فى الدولة القديمة(٢٣) ٠

ولأول مرة ينشأ جيش نظامى قائم بعد ان كان الجنود يستدعـــون لتدريبهم وتنظيم صفوفهم اذا دق خطر الغزو الخارجى لمصر فى الدولة القديمة ٠

ولقد تتبعنا فى الأوراق السابقة ما حدث فى مصر من تفكك المركـــزية ، ثم تحطيم نفوذ الملك ونشاة استقلال الفرد ومحاولاته فى ذلك ، ثم ظهور المطالبة بالعدل الاجتماعى لجميع الناس ، وكان هذا الانحراف فى الميل وتوزيع القوى من مميزات عصر الفترة الأولى ، واستمر حتى الدولة الوسطى ، ولكنه اخذ يتحول فيصبح ميلا الى المركزية ، وتجميع القوى عندما حكم مصر ملوك الأسرة الثانية عشرة)(٢٤) ٠

وبهذا تم فرض النظام الدينى والاقتصادى والسياسى والاجتماعى الذى ثار عليه

الشعب المصرى فى ثورته الاجتماعية الأولى وترتب على ذلك آثار اجتماعية فى الشخصية المصرية لا زالت تعانى منها حتى اليوم ٠

وذلك أنه لما نجح ملوك الأسرة الثانية عشرة فى تكوين الدولة ، واستعادوا صفتهم الالهية ، أصبحوا مرة أخرى وسطاء ماعت ، والذين يوزعونها بين الناس ٠ **ووافق المصريون على ذلك ، فقد كان الشبع يملأ بطونهم وكانوا مشغولين ، ومتطلعين الى الفرص التى يتقدمون بها فى الحياة ، فقد كان هذا العصر أحسن بكثير من الفوضى** فى الفترة السابقة عليه ٠

أما المذهب القائل بأن الاله خلق وصنع كل رجل مساويا لأخيـــه ، واصرار الفلاح الفصيح على أنه كان لأفقر الناس حقوق طبيعية ، فقد أصبحت أشياء باهتة ونسيها الناس فى غمرة الرخاء الذى عم البلاد ٠ لم يعد الملك فى حاجة لأن يقضى الليل ساهر جائعا فى حدبه على قطيعه ، فقد أصبح القطيع سمينا الى الحد الذى تمنعه سمنته من أن يتحرك فيضل طريقه بعيدا عن العرش(٢٥) ٠

وعملية اصرار الحكام الوطنيين على فرض النظام الدينى والسياسى والاقتصادى والاجتماعى الذى كان سائدا وقت ازدهار مصر فى ظل الدولة القديمة مارسها جميع الحكام (وهم يواجهون مشكلات الحاضر ، وكانوا اكيدى الثقة بامكانية استعادة مجد مصر الغابر فى الدولة القديمة عند تطبيق نفس النظم التى كانت سارية فيها ٠

كما كان الازدهار الذى بلغته مصر حتى الدولة القديمة هو الهدف الذى ظل يراود جميع المصريين ، حكاما ومحكومين ، طوال الحكم الوطنى ، فى امكانية استعادة تحقيقه عند اصابة مصر بأى نكسة فى أى فترة من فترات تاريخها ٠

ونلاحظ بعد الاضمحلال الذى حل بمصر بعد فترة من وفاة اخناتون أن الملك سيتى الأول (١٣٠٩ ق٠م) يحدد أن هدفه هو اعادة نهضة مصر (لتسترد مكانتها الزاهرة التى كانت عليها فى الدولة القديمة) ٠

وكان المصريون يؤمنون فى ذلك الوقت ايمانا قلبيا بأنهم قد بدأوا عهدا جديدا ، سيعيد اليهم مجدهم الامبراطورى ٠ وأرخ سيتى حكمه بأنها سنى النهضـــة فمثلا (السنة الثانية من عهد تكرار ولادة سيتى الأول) وتعبير تكرار الولادة ليس الا ذات الألفاظ التى نترجمها بكلمة النهضة ٠

وفى الأسرة العشرين (١١٩٥ ــ ١٠٨٠ ق٠م) أيضا ظهرت فى البلاد فكـرة لتطهير الدولة من أدرانها وسميت هذه الفترة بعصر النهضة (تجديد الولادة) وقد بدأ ذلك فى عهد رمسيس الحادى عشر ٠

(وربما كان الموحى بهذه الفكرة هم كهنة آمون الذين ارادوا لمصر أن تبدأ عهدا جديدا أساسه الحكم الدينى) ٠

وعندما نجح بسمانيك الأول من الأسرة السادسة والعشرين (٦٦٣ – ٥٢٥ ق٠م) فى طرد الأشوريين من مصر واستقلت البلاد ، عاد الناس الى محاكاة انتاج الدولة القديمة والأسرة الثانية عشرة فى الفن والأدب ، وما هذا التقليد أو المحاكاة الا صدى للشعور بالألم الذى أخذ يحس به الكهنة والفنانون المصريون عندما رأوا اليونانيين الذين استخدمهم فراعنة مصر كمرتزقة فى الجيش وتجار، يقيمون بين ظهرانيهم فخشوا على تراثهم القديم من الضياع اذا هم تركوا للداعين الى التجديد ثغرة ينفذون منها ، ولهذا جاءت هذه المبالغة التى نحسها فى العودة الى القديم فى كل شىء ٠ ولكن هذه العودة فى ذاتها دليل على أن الحيوية الكامنة قد بدأت فى الذبول ، اذ أنه ما من شعب فى الارض ينظر دائما الى الوراء ويحاول تقليد آبائه واجداده ، ويعيش فى جو كالذى عاشوا فيه رغم مرور الأجيال ، الا وكان ذلك ايذانا بتدهوره لانه خالف سنة الحياة(٢٦) ٠

وقد ظلت مصر تعتمد على جهد وفكر الاكفاء من أبنائها دون تفرقة بينهم حتى اواخر الدولة القديمة ومرحلة الثورة حتى أوائل الدولة الوسطى والمرحلة الأولى من الامبراطورية ٠

وعندما بدأ الجهاز الحاكم يقصر الوظائف على طوائف معينة كالكهنة وبعض العائلات القوية ورجال الجيش والأجانب بدأ الانهيار ٠

وتتمثل خطورة حجب الوظائف العليا والهامة عن الطبقة المتوسطة أو القاعدة الشعبية مهما ظهر من كفاءتها وفى مجتمع يقبض فيه شاغلو الوظائف العليا على كل الارزاق وكل السلطات فى أن هذه الفئات تكون ، على المدى الطويل ، طبقة منفصلة عن الشعب يكون لها كل المزايا وكل السلطة وعلى حساب أقوات الناس وكرامتهم فى بلادهم ٠

ومن ناحية أخرى فانها تشكل طبقة ضاغطة ذات مصلحة مشتركة ، مهما اختلفت فيما بينها ، على المصالح الشعبية ، وذلك فضلا عن حرمان الأمة من الفكر المصرى الأصيل الخلاق الذى أعطى كل مقومات الحضارة المصرية فترات ازدهارها ٠

ومنذ ما قبل الأسرات وحتى الأسرة الرابعة كانت البلاد محتاجة الى خدمات الرجال ذوى المقدرة الذين يعتمد عليهم ٠ ففى مثل تلك العصور يمكن الحصول على الصناع من بين الفلاحين ويصبح خدم المنازل عمالا موثوقا بهم وصناعا ماهرين ، وهؤلاء العمال الحاذقون يكافأون بالممتلكات والوظائف والميزات وبذلك يدخلون فى زمرة الارستقراطية (٢٧) ٠

كان النضوج المفاجىء الباهر للحضارة المصرية ، فى الأسر الأربعة الأولى ، سببا فى ظهور أعظم الكفايات ، من بين الأفراد المصريين ، كانت الأمة تخطو نحو الأمام سياسيا واقتصاديا ، وماديا ، وفنيا ، وثقافيا ٠٠ وهذا التقدم تطلب المجهودات الفردية من كل شخص ذى موهبة ، أو قدرة ، أو ذكاء ، أو طموح ٠٠

يقول المهندس المعمارى (نخبو) من الدولة القديمة (وجد فى جلالته بنــاء عاديا ، ثم رقانى جلالته كبناء متنقل ، ثم الى وظيفة بناء ممتاز ، ثم رئيس فرقة ، (وبعد ذلك رفعنى جلالته الى وظيفة مصمم وبناء ملكى ٠ ثم الى وظيفة ملحق ملكى ، ثم مصمم ومعمارى ملكى ٠٠ لقد فعل جلالته كل هذا لأنه كان يعطف على كثيرا) ٠

وعندما صحبت أخى رئيس عمال الانشاء ٠٠ كنت أقوم بوظيفة كاتب ، وكنت أحمل أدوات الكتابة ، فلما عين فى وظيفة بناء متجول ، كنت أحمل له عصا القياس ٠ ولما عينه الملك بناء ممتازا ، كنت (أيضا) فى صحبته ، فلما عين فى وظيفة مصمم وبناء ملكى ، كنت أنوب عنه فى حكم مدينة (العمال) ، وعملت كل شيء باتقان فيها ٠ وكان كل من له عمل معى ، كنت أنا الذى يرضـــيه ، ولم أذهب أبدا الى الفراش وأنا غاضب من أحد ٠

لقد كان ذلك العصر عصرا نشطا ، مليئا بالحركة ، وفيه مجال لظهور نشــاط الأفراد(٢٨) ٠

ثم جاءت مرحلة الثورة حيث قضى على أى تفرقة بين الانسان وأخيه الانسان وانفتح الطريق على مصراعيه لجميع المصريين لتولى الوظائف بدون استثناء ٠

بل أن الملوك أنفسهم فى الدولة الوسطى بداوا يفخرون بأن أصلهم من العامة ٠

ومن الممكن أن نوضح موضوع انحصار الوظائف بين عائلات قليلة ممن يثق فيها الملك (فى هذه الفترة) ، وما كان بين الوظائف الكبرى من تشابك ، باعطاء مثلين أو ثلاثة ٠ كان حابورسنب وزيرا للملكة حتشبسوت فى الوجه القبلى ، وكان جده يشغل الوظيفة نفسها قبله ، وكان حابورسنب أيضا كبيرا لكهنة آمون كما كان جده من قبله ٠

وهناك أيضا رخميرع وزير الوجه القبلى فى أيام الملك تحوتمس الثالث ، فقد خلف عمه فى هذه الوظيفة ، وكذلك شخص آخر يدعى تحوتمس تولى وزارة الوجه البحرى ، وأصبح ابنه بتاح ـ موسى كبيرا لكهنة بتاح فى منف ٠

وفى بعض الحالات نجد موظفا محبا للأبهة ويجمع كثيرا من وظائف الدولة فى يده ليكون مهيمنا على كل شيء ، مثل سنموت الذى كان عزيزا على الملكة حتشبسوت ، والذى كانت له سلطة غير عادية دون أن يتولى واحـــــدة من الوظـــائف الأربعة الرئيسية(٢٩) ٠

ولقد احتاج تشييد الامبراطورية الجديدة ، والمحافظة على حدودها الواسعة ، الى الوحدة الوطنية ، وكانت هذه الوحدة موجودة عندما هاج فى نفس المصريين حب الانتقام من الهكسوس ، ووحد بينهم الاخلاص فى الحماس لطرد العدو ، ومع ذلك

فان عبء المحافظه على تلك الامبراطورية لم يكن له وقت محدد ينتهى فيه ، كما أن الثمرات التى جنوها من الامبراطورية لم يستفد منها الجميع · ولا شك أن الثروة التى كانت تتدفق على مصر ، كان لها تأثيرها على كل شخص الى درجة ما ، ولكنها خلفت فجوة ، ثم وسعت تلك الفجوة بين الطبقه الحاكمة والطبقة المحكومة · وزادت سلطة وثروة الذين تزعموا الحركة الوطنية زيادة كبيرة ، ولكن مع مرور الأيام لم تكن هناك ضرورة ملحة ليخرجوا مع الجيش ، واضطروا للبقاء فى البلاد للاشراف على ثرواتهم المتزايدة · ونظرا لما كان على كواهلهم من أعباء محلية ، أمكنهم أن يستأجروا موظفين ليقوموا بالمهام المضنية ، وهكذا نرى أن عدد الوكلاء المحترفين أخذ يتزايد ، وكان من بينهم المشرفون على الأعمال الداخلية والجنود المرتزقة(٣٠) ·

وعندما سمن واثرى حكام مصر ، أصبح أولئك الأجانب القديرون المصدر الأول للنشاط ، وكانوا يكثرون من استخدامهم فى الجيش وفى الأعمال الهامة ، سواء فى الوظائف المدنية أو لادارة أملاكهم الواسعة ، فجاءوا بالتحسيو والمازاى من الجنوب ، والشاسو من الشرق ، والمشواش من الغرب ، وكذلك الشردان وشعوب البحر ، وكان الكثير من أولئك الأجانب أرقاء فى القصر أو أملاك النبلاء أو ضياع المعابد (٣١) * ·

وكان هناك أجانب آخرون جاءوا الى مصر أحرارا ، مثل اتباع الأميرات الأجنبيات ، وذلك البقال اليونانى فى تل اعمارنة ، وابنة قائد المركب السورى (بن عنث) التى تزوجت أحد أبناء رمسيس الثانى ، وكان فى بلاط مرنبتاح رئيس للمبعوثين اسمه (بن عوزن) — ونعرف أن عددا من هؤلاء الأجانب كانوا يشغلون مناصب ذات مسئولية فى القصر الملكى ، وذلك من نصوص المحاكمة التى حوكم فيها المتآمرون فى الحريم فى عهد الأسرة العشرين · فكان أحد القضاة ، وهو أحد سقاة الملك رمسيس (مهر — بعل) وهو اسم سامى الأصل ، وكان ساق آخر يسمى « ينينى »(٣٢) ·

وذكروا أن أحد المجرمين كان ليبيا ··· الخ ·

كما يمكن أن نذكر غير هؤلاء كثيرا وكثيرا ·

وعلى أى حال فلم يكن الرق فى تلك الأيام على الصورة التى نعرفها من العصر الحاضر ، والتى تجعل من الأرقاء طبقة ذات وضع قانونى محدد ، فكان الرقيق الذى فى المنزل يعيش حياة أفضل من حياة الفلاح المصرى · فاذا كان ساعيا فى أحد المكاتب الحكومية ، أو خادما خاصا لأحد النبلاء ، أو تابعا فى الحريم الملكى ، أو جاويشا فى احدى الفرق المرتزقة ، فقد كان أمام الرقيق فرص كثيرة ، ليجعل من نفسه شخصا لا يمكن الاستغناء عنه ، ويجمع بين أيديه شيئا من السلطة ، وما أن

(★) المرجو من القارىء تتبع وقوع مصر فى براثن الأيدى الأجنبية والتى بدأت فور وفاة حتشبسوت التى كانت ضد اختلاط المصرى بالأجنبى وسيجىء عن ذلك مزيد من البيان فى الأوراق التالية وفى الجزء الثالث من هذا الكتاب ·

جاءت أواخر أيام الامبراطورية ، حتى رأينا من بين الأجانب من وصل الى وظائف ذات سلطات مستقلة من السقاة الملكيين ، أو أمناء السراى ، أو رسل مكاتب الحكومة أو ضباط فى الجيش ، أضف الى ذلك أن مركز الوكيل المأجور لأصحاب الأملاك ، كان من بين الطبقة الحاكمة صاحبة الثروة التى شغلها الكثير من الأجانب ٠

وتحولت سلطات الموظفين المدنيين ورجال الدين والجيش الى منظمات خاصة محددة بينما هوت منزلة أبناء البلاد من الفلاحين المصريين وتدهور مستواهم الاجتماعى والسياسى والاقتصادى ، اذا قيسوا بحكامهم الوطنيين ، وموظفيهم الأجانب ٠

ولم يعد فى الامكان ، سواء من الناحية النظرية أو عن طريق الاستثناء — أن يرتفع شخص من طبقته الى طبقة أعلى منه ، وأصبحت تلك القيمة العالية التى كانت للفرد العادى فى مصر ، حتى ولو كان من الفلاحين العاديين ، فى مرحلة الثورة وأوائل الدولة الوسطى ، شيئا من آثار الماضى البعيد ٠

وهكذا تحولت الوحدة الوطنية الى تفرقة ذات آثار سيئة(٣٣) ٠

واستمر هذا الوضع الى ما بعد تولى محمد على باشا حكم مصر ٠

واصطبغت فترة ما بعد الامبراطورية بالاعتماد على الجيش منذ بدايتها ٠

وبدأ دخول الأجانب الى السلطة (والذى استمر حتى حكم الملك فاروق) عن طريق المصاهرات التى ابتدأ الفراعنة فى ذلك العصر يعقدونها مع شعوب آسيا ، اذ أخذ بعضهم يتزوج من أميرات سوريات أو ميتانيات ، وهؤلاء كن يأتين للبلاط المصرى ومعهن جواريهن وحواشيهن ، ومن ثم ظل التأثير الأجنبى يزداد وضوحا حينما بدأ هؤلاء يستعينون بالأرقاء الأجانب الذين أسروهم فى الحروب ، أو جاءوا مع الأميرات ، وقد بدأ هذا بسيطا فى أول الأمر ، ولكنه اشتد وقوى بحيث أمدتنا النصوص بأسماء عدد كبير من الموظفين الأرقاء الأجانب يتولون مناصب عالية ويعتمد عليهم الملك المصرى بحكم خدمتهم له ٠ ولعل خير مثال لهؤلاء كان هو المدعو (دودو) ذو المكانة المعروفة فى بلاط اخناتون والذى يفهم من رسائل تل العمارنة صلته الوطيدة باخناتون ، ودوره الحقيقى الذى يشتم منه أنه كان يعمل لصالح بنى جلدته ٠ وقد كان من جراء نفوذ أمثال (دودو) أن تضاءلت الأملاك المصرية فى عصر اخناتون وتقلص النفوذ المصرى فيها ٠ وكان لتغلغل الروح الأجنبية الجديدة التى تختلف عن الروح المصرية الأصيلة الواضحة فى أول عصر الأسرة الثامنة عشرة أثر واضح ، اذ أخذت الجذوة المشتعلة التى بنت الامبراطورية المصرية تفترشيئا فشيئا ٠

على أن هناك عنصرا أجنبيا آخر كان له أثره الفعال فى الجهاز الحكومى ، ألا وهو الجنود المرتزقة من الليبيين والشردان وبقية الأجناس ، وقد بلغ عدد هؤلاء المرتزقة فى أحد الجيوش المصرية ذات مرة ٣١٠٠ جندى بينما كان عدد الجنود المصريين جميعهم ١٩٠٠ جندى فحسب ٠

وكان من الطبيعى أن يصبح هؤلاء المرتزقة فيما بعد قوة خطيرة تتسلط على بعض النواحى فى البلاد ، ويحسب لها الحكام حسابا كبيرا ، بل وتمكن بعضهم من تولى بعض المناصب العالية فى الجهاز الحكومى حتى استطاعوا آخر الأمر أن يحكموا البلاد فى عصر الأسرة الثانية والعشرين حوالى سنة ٩٤٥ ق٠م٠(٣٤) ٠

وانتهى الأمر بتسلط الأجنبى على مقدرات مصر الاقتصادية وعلى رقاب وأنفس أهلها بدءا من الاحتلال الاغريقى سنة ٣٦٢ ق٠م وحتى القرن العسرين بعد الميلاد ٠

ولا جدال فى أن الاغريق كانوا يكونون طبقة منفصلة عن سكان البلاد تفصلهم فوارق شاسعة عن أهليها ويستمتعون بكل الخيرات والميزات ويعتبرون أنفسهم أهل حضارة رفيعة دونها كافة الحضارات الأخرى ، ويعيشون فى أوساط خاصة بهم ، ويحيون حياتهم التى أعتادوا عليها فى بلادهم ، بينما المصريون يؤلفون الطبقة السفلى ، ويشعرون أنهم سلبوا كرامتهم كما سلبوا خيرات بلادهم ٠

والحضارة الهلينية التى دخلت مصر تحت حكم البطالمة وخلفائهم الرومان لم تكن الحضارة الأصيلة التى ترد على خاطرنا كلما ذكرنا تلك الأسماء الخالدة : بركليس وأفلاطون وسوفوكليس ٠ لا ، لم يكن شىء من هذا ، فالبطالمة لم يسمحوا بانشاء النظم الحرة بين رعاياهم الاغريق ولم يتيحوا لرعاياهم المصريين فرصة المواطنة الحقة فى دولة ذات قومية حقيقية ، بل على العكس من ذلك ، بقى الاغريق منعزلين وظلوا طائفة مميزة ، وهو أسوأ ما يمكن ان يحيق ـ آخر الأمر ـ بأية طبقة من طبقات الشعوب ، وظل المصريون يعملون ـ كما يقول التعبير الانجليزى ـ حطابين محتطبين ومالئى الدلاء ، يعاملون معاملة الأجناس المستعبدة ، يكدون ويكدحون حتى يسقطوا من الاعياء ، حرموا من أن ينهض بينهم زعماء منهم ، وتركوا نهبا لقساوستهم المتعصبين (أى لرجال الدين قبل المسيحية) ٠ وقد أبقى الملوك البطالمة وقياصرة روما على السخافات والمساخر الدينية ، عن سوء قصد ونية ، وأصروا على الامعان فيها ، وهم فى قرارة أنفسهم يحتقرونها بكل جوارحهم(٣٥) ٠

فلنتصور الحالة على وجهها الصحيح (بعد غزو الاغريق لمصر سنة ٣٣٢ ق٠م) حكام أجانب وجاليات أجنبية ، تحيا حياتها الهلينستية ، وتنظر الى الأهالى نظرة تشبه الى حد كبير نظرة الجاليات الأجنبية الى المصريين فيما بين القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ٠ نظرة فيها تعال واستهتار ، لا يحدهما الا مجرد الاحترام الظاهرى لعقائدهم وطقوسهم ، ولم يكن أولئك الأجانب يعنون لا باللغة الوطنية ، ولا بالتاريخ الفرعونى(٣٦) ٠

ولو سئل أباطرة الرومان عن قيمة مصر لهم لأجابوا توا : الغلال والجزية ـ فلم يشترك المصريون فى الجحافل الرومانية ، ولا كانت لهم كلمة بين حكام الامبراطورية ، بل لقد منعوا من أن يكونوا مواطنين رومانيين ، على خلاف المعمول به فى الولايات الرومانية ، وبالأولى لم ينتخب منهم أعضاء بمجلس الشيوخ (السناتو) ، ولم ينبغ

من المصريين تحت الحكم الرومانى علماء وأهل ثقافة ، مثلما حدث فى ولايات آسيا الصغرى واليونان ، ومع أن الرومان كانوا يتعجبون من الديانة المصرية العتيقة ، ويعتقدون بأن الكهانة المصرية مستودع أسرار خفية ، فان نظرتهم الى طقوس الشعب المصرى ، واغراقه فى عبادة الحيوانات ، كانت مليئة بالاحتقار(٣٧) .

فماذا كانت نتيجة كل ذلك ؟

كانت نتيجته تكوين مصر كما يصفها المؤرخ الرومانى (تاسينوس) بقوله :

(هى ولاية من العسير الوصول اليها ، تنتج الغلال ، مشتتة الفكر والخواطر وسريعة الاستجابة لدواعى الفتن تحت تأثير الخرافات والفوضى ، تجهل القانون ولا تعرف خطط القضاء والحكم(٣٨) .

وجاء الى مصر يوفينال ، الشاعر الساخر الهجاء ، ضابطا فى جيش الاحتلال الرومانى ، بمعسكر أسوان ، فعرف بأمر خناقة بين أهل دندرة وكوم أمبو على عبادة التمساح ، وراح يتندر ، فى احدى قصائده ، بالمصريين وعبادتهم للبهائم .

وممن سخر بمصر ، من كتاب الرومان بروكوبيوس ، ويوحنا الليدى ، وأنسطاس ، وأوناب ، وكانوا يقولون بأن الأهرام ليست سوى شنشنة كلفت أموالا باهظة ، وجهودا مضنية ، وكانوا يحتقرون هذا الجنس المصرى الذى لا يخرج من بين صفوفه أديب ، وعلمائه اللاهوتيين الذين لا قدرة لهم على التفكير العميق .

وعندما أصدر الامبراطور كارا كلا مرسوم عام ٢١٢ م ، الذى أوسع فيه مدى التمتع بالرعوية الرومانية ، طبق على سكان مصر .. فيما عدا المصريين .

وتجىء النصرانية الى مصر ، لا لتغير من حال أهلها ، ولا لتجعلهم أقدر على القتال بل لتكون ذريعة جديدة للامعان فى اذلالهم ، وانزال الهوان بهم فوق كل هوان .

ولقد تعذب السلف من القبط واضطهدوا على يد حكام بيزنطة المسيحيين ، أشد بكثير مما عرفوا من مهانة وتقتيل واستشهاد أيام الأباطرة الوثنيين ساويرس ودقيوس ودقلديانوس ، لا لسبب الا لأنهم حرصوا على عقيدتهم المسيحية ، التى أقرها أعظم المجامع الكنسية ، وأولاها بالاحترام ، وهو المجمع المسكونى الأول المنعقد بمدينة نيقيا فى آسيا الصغرى سنة ٣٢٥ م(٣٩) .

(★) ولعل القارىء يلاحظ نجاح الأجنبى فى حمل المصريين على نسيان أصلهم ونسيان تاريخ عظمتهم وحضارتهم ولنسيان قوميتهم ، بل ونسيان لغة بلادهم الأصلية بعد ذلك كما حرمهم من التحصيل والعلم الى درجة أن العرب عندما فتحوا مصر لم يجدوا من المصريين من يعرف معنى كلمة فرعون ولم يجدوا أحدا يعرف اللغة المصرية القديمة أو تاريخ مصر وحضارتها الزاهرة .

(★) ولم يعرف المصريون تاريخ وطنهم الا ابتداء من القرن الماضى فقط عندما تمكن العالم الفرنسى شامبليون من معرفة أسرار اللغة الهيروغليفية .

وكانت العصبية العربية هى السمة البارزة التى كانت يتميز بها حكم بنى أمية وقد تجلى ذلك فى معاملتهم للمسلمين من غير العرب وهى معاملة كانت تختلف الاختلاف كله عن معاملتهم للعرب المسلمين ، فكانوا يسمونهم (الموالى) وهى تسمية تشعر بسيادة العنصر العربى ، وكانوا لا يسوون بين العربى وغير العربى فى العطاء ولا فى وظائف الدولة وينظرون الى غير العرب (ومنهم المصريون بالطبع) نظرة احتقار وازدراء ممزوجة بالكراهية ٠

ولا شك أننا لو تتبعنا تاريخ الخلفاء والولاة الأمويين وجدناهم ــ فى مجموعهم ، متشبثين بالعصبية العربية التى تتجافى مع الأصل القرآنى الذى جاءت به الآية الكريمة فى قوله تعالى « ان أكرمكم عند الله أتقاكم) وقوله سبحانه (انما المؤمنون أخوة) والنتيجة الحتمية لوجود هذه العصبية العربية أن تسوء حالة الموالى ، كما قدمنا ، ويستبد الظلم بهم ٠

ويروى أن نافع بن جبير بن مطعم قدم رجلا من الموالى يصلى به ، فلامة العرب فى ذلك أشد اللوم فقال : انما أردت أن أتواضع لله بالصلاة خلفه ٠ وفى رواية أخرى أنه كان اذا جلس فى مجلس الموالى قال ــ أردت التواضع لله بالجلوس اليكم ٠

وكان نافع بن جبير هذا اذا مرت به جنازة قال : من هذا ؟ فان قالوا قرشى قال : واقوماه ، واذا قالوا عربى قال : وابلوتاه ، واذا قالوا مولى قال : هذا مال الله يأخذ ما شاء ويدع ما يشاء ٠

وفى المعارك والحروب التى كان يشترك الموالى فيها مع العرب ، كان العرب يركبون الخيل ولا يسمحون للموالى بذلك بل يرغمونهم على القتال راجلين ٠

وواضح أن السر الى ذلك أنهم يأنفون أن يتساوى الموالى معهم ، ومن ناحية أخرى يضنون بالدم العربى ويريدون أن دارت الدائرة عليهم أن يفنى الموالى قبل العرب وألا يتمكنوا من الهرب (٤٠) ٠

ولقد كان هناك طبقتان متميزتان كل التميز فى الدولة العباسية ، فالخليفة ورجال دولته وأهلوهم واتباعهم طبقة خاصة ، وهم عدد قليل بالنسبة لمجموع الأمة ، وبقية الناس ــ وهم الأكثر ــ طبقة العامة من علماء وتجار وصناع ومزارعين ورعاع ، وأغلب هؤلاء فقراء الا من اتصل منهم بالخلفاء والأمراء ٠

وكما كان اليونان فى العصور القديمة يعتقدون بسمو كل ما هو يونانى حتى أن أرسطو بنى نظريته فى الرق على أساس أن الرقيق لا بد أن يكونوا من عنصر أجنبى عن اليونان ٠

فهكذا كان العرب فى هذا العصر الذى تؤرخة يعتقدون أنهم خلقوا للسياسة والسيادة وأن غيرهم خلق للخدمة والمهانة ٠ حتى أنه ليروى أن عربيا تخاصم مع مولى بين يدى ابن عامر صاحب العراق فقال له المولى : لا كثر الله فينا مثلك ٠ فقال

له العربى : بل كثر الله فينا مثلك ـ فقيل له : أيدعو عليك وتدعو له ؟ قال : نعم . يكسحون طرقنا ، ويخرزون خفافنا ويحوكون ثيابنا .

ولم تكن نظرة العربى للموالى نظرة ازدراء فحسب . ولكنها كانت ممتزجة بكثير من البغض والكراهية . ويروى ابن سعد فى ذلك أن الشعبى مر ومعه صالح بن مسلم فوجدا حمارا بالمسجد وحوله أصحابه من الموالى ولهم ضوضاء وأصوات فقال : والله لقد بغض الى هؤلاء هذا المسجد حتى تركوه أبغض الى من كناسة دارى(٤١) .

أما عن سـائر الشعب (المصرى وغيره) فهو فقير لا يعتز بمـال ولا نسب ولا جاه ، ويصفهم ابن الفقيه بأنهم (زبد جفاه وسيل غثاء لكع ولكاع ، وربيطـة اتضاع ، هم أحدهم طعامه ونومه) .

وليسوا كما قال ، بل هم عماد الأمة وسوادها الأعظم ، ومقياس الرقى الحقيقى لها وما ذنبهم أن همهم طعامهم ونومهم وهم يجدون ثم لا يجدون .

لقد كان التوازن الاجتماعى فى هذا العصر مختلا فى الناحية المالية ، فلا تقارب ، وما نجـده من وصف الامعان فى الحضـارة والاسراف فى الترف على حساب امعان السواد الأعظم فى البؤس . وفى الناحية الخلقية تجد انحلال بين الأغنياء ، وتكبرا وتجبرا من الساسة وأولى الأمر ، وذلة وضعة فى الفقراء البائسين ، وما يروى لنا من عزة واباء ، وتمسك بالحق وبالفضيلة ، فصفات الأقلية النادرين (٤٢) .

واستمر حكم الفرد الأجنبى فى العصر المملوكى اذ كون المماليك من أنفسهم طبقة خاصة تتحكم فى حكم مصر وفى مقدراتها الاقتصادية ، بل وفى أنفس أهلها .

وظل (المعممون) فترة محترمين فى العصر المملوكى بسبب مكانتهم الدينية .

على أنهم لم يحظوا بهذه المكانة باضطراد طوال العصر المماليكى ، بل تخللت ذلك العصر ـ وبخاصة منذ النصف الثانى للقرن الثامن الهجرى ـ حـوادث ظهر فيها حقد المماليك على العلماء بسبب قربهم من السلاطين . وهكذا أخذ المماليك يتعرضون للعلماء بالنقد ويتهكمون عليهم فى مجالسهم ، مما أثار سخط المقريزى ، وكان المماليك لم تعجبهم أن تشاركهم طائفة أخرى فى ركوب الخيل ، فثاروا واشترطوا على السلاطين المناداة بشوارع القاهرة أن متعمما لا يركب فرسا ، كما حدث سنة ٧٨١ وسنة ٧٩١ وعندئذ يضطر السلاطين الى الاذعان لطلبهم وكثيرا ما انسابت جموع المماليك فى شوارع القاهرة للاعتداء على الفقهاء والمعممين وانزالهم عن خيولهم وسلبهم أياها بعد ضربهم ، كما حدث سنة ٨٥٤ وسنة ٨٥٨ هـ .

ويبدو أن المرتبات العينية التى كانت تصرفها (الدولة) للفقهاء (والمتعممين) قاطبة صارت موردا أساسيا يعتمدون عليه فى حياتهم ، حتى أنه عندما قطعت عنهم هذه المرتبات سنة ٨٧٣ هـ (حصل لهم غاية الضرر والبهدلة) . ولعل هذا الحادث كان مما دفع بعض القضاة والفقهاء الى عدم الاعتماد على (ما تجـود) به عليهم

(الدولة) من مرتبات وأرزاق ، فحاولوا الكسب عن طريق اعطـــاء بعض أموالهم للتجار حتى يشغلوها فى التجارة سرا ، ولكنهم فى هذه الحالة تعرضوا لنقمة السلاطين اذا اكتشف أمرهم .

ونفس هذه (البهدله) تعرض لها أهل الذمة من الأديان الأخرى .

أما الفلاحون ـ وهم السواد الأعظم من أهل البلاد ـ فيبدو أن نصـــيبهم فى المجتمع المماليكى لم يكن سوى الاحتقار والاهمال . ومما قاله ابن خلدون عن الفلاحة وأهلها (أنها معاش المستضعفين ويختص أهلها بالذلة) وهذا الحكم الذى أصدره ابن خلدون على الفلاحين يعبر عن نظرة معاصريه اليهم .

وموقف المماليك من الفلاح المصرى ونظرتهم اليه (الاحتقار) .

فاذا صادف وارتقى رجل أصله من الأرياف الى بعض وظائف الدولة (الكبيرة)، غضب المماليك وصاحوا (ما كان فى مماليك السلطان من يعتمد عليه الا هذا الفلاح) واذا تجرأ أحد العوام على بعض المماليك صاحوا فيه (أخرس يا فلاح يا كلب) .

واذا ولى أحد أمراء المماليك المتشددين على بعض الأقاليم ، فانه لا يسمح لأحد الفلاحين أن يلبس مئزرا أسود أو يركب فرسا أو يتقلد سيفا ، أو حتى يحمل عصا مجلبة بالحديد .

ويبدو أن هذه المعاملة أثرت فى نفوس أهـــل الريف ، حتى أصيبوا بمركب الشعور بالنقص ، ومن ذلك أن أحد علماء الأزهر فى القرن العاشر الهجرى تزوج قاهرية فلما قدمت أمه من الريف لزيارته تنكر لها لئلا تعرف زوجته أن أمه فلاحه وهددها بالضرب أن علم أحد أنها أمه .

وهكذا عاش الفلاح المصرى فى عصر سلاطين المماليك مربوطا الى الأرض التى يفلحها ويفنى حياته فى خدمتها وليس له من خيراتها الا القليل ، لأن أراضى مصر الزراعية ظلت نهبا موزعا بين السلاطين والأمراء ومماليكهم وأوقافهم .

ولم يكن لهم سوى العمل والسخرة ودفع الأموال وهم صاغرون . لذلك لم يكن عجبا ألا يجد الفلاح ما يستتر به عورته ، وأنه فى أفخر مأكولاته لا يأكل الا الشعير والجبن القريش والبصل(٤٣) .

واليك وصفا موجزا عن المماليك ، سادة المصريين بقـوة السـلاح عنـد مجىء الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨م .

(عندما نتأمل قوة المماليك وتقـدمهم الذى ظلوا يحتفظـون به على الدوام على قوات الباب العالى فسوف نجد مما لا يدع مجالا للشك أن قوتهم العسـكرية الرائعة لا تعود الى تعدادهم بقدر ما تعود الى قدراتهم وكفاءاتهم ، فتعدادهم ليس شيئا بالمرة اذ لا يكاد يصل مجموع عددهم ـ سواء الذين حرروا منهم أو الذين مازالوا أرقاء ـ

الى ثمانية أو تسعة آلاف رجل ـ وبرغم ذلك فقد توصلوا بفضل جرأتهم وشجاعتهم ومزاجهم العسكرى الى تنمية نشأتهم العسكرية ، وكذلك بسبب من الذكريات الرائعة والطموح الذى لا يعرف لنفسه حدا ،**توصلوا الى قيادة شعب كبير مع تقييده بسلاسل من خوف وسحقه تحت وطاة اسمهم ـ المماليك ، وهو الذى يمكن أن يقال بأنه أصبح مثيرا للرعب بسبب كثرة ما أحرز من انتصارات** ٠

وللمماليك عادات ترجع الى مزاجهم وتربيتهم ، فهم لا يشـاهدون مطاقا بدون سلاح . بل انهم لا يتوجهون الى حفلة طعام دون أن يرتدوا كافة سلاحهم ، ذلك أن الخيانات المستمرة فيما بينهم تفرض مثل هذا الحرص ، وكانت الموائد والاحتفالات الكبرى على الدوام هى المناسبة والوسيلة لتنفيذ عمليات الاغتيال أو الانتقام ، انهم يتمسكون بمناصبهم باحتياطهم ضد هذه المكائد)(٤٤) ٠

والمماليك هم أفراد تم شراؤهم وهم أطفال عادة من أسواق تجارة الرقيق فى أوربا وآسيا وأنشئوا على اعتناق الدين الاسلامى وتم تدريبهم على القتال منذ الصغر٠ ولكنهم أصبحوا فيما بعد أداة نهب وسلب الشعب المصرى فى ماله وفى كرامته ٠

يقول عز الدين أيبك أحد سلاطين المماليك فى كتاب الى سلطان سلاجقة الروم ، يحذره من الأمير علم الدين سنجر الباشقورى ، زعيم المماليك الحجمدرية الصالحية، الذين فروا من وجه أيبك ، ولجأوا الى سلطان السلاجقة ، قال :

(٠٠ المماليك البحرية قوم مناجيس أطراف ، أى لا يبقون على صحبة انسان ، ولا يقفون عنـد الايمان ، ولا يرجعون الى كلام من هو أكبـر منهم ، وأن استأمنتهم خانوا ، وان استحلفتهم كذبوا ، وان رفقت بهم غدروا ، فتحر منهم على نفسـك ، فانهم غدارون مكارون خوانون ، ولا آمن أن يمكروا عليك)(٤٥) ٠

ولعل ما سبق يوضح النظم السياسية المفروضة حتى سنة ١٧٩٥ م ٠

ب ـ فى اليقظة (من ١٧٩٥ حتى اغسطس ١٨٠٥) :

فى سنة ١٧٩٥ بدأت بشائر لأول ثورة شعبية فى القاهرة ، وقد بدأت هـذه الحركة بشكوى تلقاها الشيخ عبـد الله الشرقاوى شـيخ الأزهر من أهالى بلبيس ، يتظلمون من عسف محمد بك الألفى وتكليفهم بما لا يطيقون ، فحمل الشيخ الشرقاوى شكوى الفلاحين الى حاكمى مصر الفعليين ابراهيم بك ومراد بك فلم يحركا ساكنا ، فما كان من الشـيخ الشرقاوى الا أن جمع المشـايخ فى الأزهر وتداولوا فى الأمر ، فقرروا أن يحملوا الأمراء على الاصغاء الى صـوتهم والنزول عنـد مطالبهم ٠ فدعوا جماهير التجار الى الاضراب العام بغلق المتاجر والحوانيت واعتصموا هم من ناحيتهم بالجامع الأزهر ، واستجابت الجماهير لندائهم ـ واحتشـدت الألوف حـول الأزهر ساخطة هائجة مائجة ٠ واستمر هذا الحشد حول الأزهر طوال الليل ، وفى اليـوم التالى سارت هـذه الجموع فى مظاهرة كاملة حتى وصلت الى بيت الشـيخ السادات

وهو مجاور لقصر ابراهيم بك ، فهالته رؤية هذه الجموع الغاضبة ، فأرسل مندوبه يسأل عن أسباب التظاهر والاضراب ، فقال الناطق باسم الشعب ــ نريد العدل ورفع الظلم والجور واقامة الشرع وابطال الحوادث والمكوسات التى ابتدعتموها واحدثتموها ·

فقال ممثل المماليك : لا يمكن الاجابة الى هذا كله ، فاننا ان فعلنا ضاقت علينا المعايش والنفقات ·

فقال الناطق باسم العلماء ــ ليس لهذا عذر عند الله وعند الناس وما الباعث على الاكثار من النفقات وشراء المماليك والأمير لا يكون أميرا الا بالعطاء لا بالأخذ ·

وحاول الأمراء أن يستخفوا فى بادىء الأمر بهذه القضية الشعبية ولكنهم خافوا من عواقب ذلك ، فاجتمعوا بممثلى الشعب فى حضرة القاضى وهم الشيخ السادات والسيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى والشيخ البكرى ، وتم الاتفاق على أن ابراهيم بك ومراد بك واتباعهما قد تابوا ورجعوا ، والتزموا بما شرطه عليهم العلماء · من رفع المظالم المحدثة ، والغاء كل الضرائب من نوع الكشوفيات ــ والتغاريد والمكوس ــ وأن يكفوا اتباعهم عن امتداد أيديهم الى أموال الناس ، وأن يسيروا فى الناس سيرة حسنة ، ويدفعوا لأصحاب الحقوق المتأخرة سبعمائة وخمسين كيسا وأن يرسلوا غلال الحرمين والأموال الموقوفة عليهما، ويصرفوا غلال الشون وأموال الرزق·

وقد كتب هذا التعهد فى حضرة القاضى ، ووقع عليه الباشا ، وختم عليه ابراهيم بك ومراد بك ، وانجلت الفتنة ورجع المشايخ وحول كل منهم وأمامه وخلفه حشود من العامة وهم ينادون ــ حسب ما رسم سادتنا العلماء فان جميع المظالم والمكوس والحوادث بطالة من المملكة المصرية ·

ويقول الجبرتى تعليقا على هذا الحادث ــ وفرح الناس وظنوا صحته ، وفتحت الأسواق وسكن الحال على ذلك نحو شهر ، ثم عاد كل مما كان ذكر وزيادة)(٤٦)·

ولكن الأيام أخلفت ظن الجبرتى ، اذ لم تلبث هذه القوى الشعبية ، وبهذه القيادات وبغيرها أن قاومت الغزو الفرنسى على مصر حتى الجلاء ثم فرضت ارادتها على الحكومة العثمانية فى الآستانة لتعيين من ارتضته حاكما على مصر وهو محمد على ·

ثم تشترط ، هذه القوى الشعبية ، على الحاكم نظامها المختار فى الحكم وفى الوحدة ·

أى الدستور ·

وجاء فى الأمثال (رب ضارة نافعة) ·

وذلك أن أى دولة تتعرض للغزو الأجنبى لهو ضار قطعا بها وبشعبها ·

ولكن الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨ كانت نافعة للشعب المصرى أكثر من أى أضرار ترتبت عليها ·

وذلك أن هذه الحملة أيقظت الشعور القومى وأقامت الشعب المصرى من رقدته ليقف على قدميه وليصنع مصيره ومصير أمته بنفسه بعد أن ظل غائبا عن هذا الدور طوال القرون التى سردناها فى الأوراق السابقة ٠

وقد بدأ العامل القومى يظهر على مسرح الحوادث السياسية خلال الحملة الفرنسية على مصر ، وذلك حين نهضت الأمة لمقاومة الاحتلال الفرنسى بكل ما أوتيت من حول وقوة ، وجادت بكل تضحية ، واحتملت ضروب العنت وصنوف الأذى لتتخلص من احتلال الفرنسيين . وظل العامل القومى محتفظا بقوته بعد جلاء الجيش الفرنسى ، فلم يستطع الترك ، ولا المماليك ، ولا الانجليز أن يهزموه أو يقهروه ، أو يبعدوه عن الميدان ، وكان من نتائجه بعد انتهاء الحملة الفرنسية ثورة الشعب على حكم المماليك ، ثم على الوالى التركى ، ثم المناداة بمحمد على واليا مختارا على مصر ، ثم اخفاق الحملة البريطانية التى جردتها انجلترا لتحقيق أطماعها فى وادى النيل وهزيمتها فى (رشيد والحماد)(٤٧) ٠

ومنذ أن سمع أهالى الاسكندرية بقدوم الحملة الفرنسية ، أخذوا يعدون العدة للمقاومة ، فحملوا السلاح وانضم اليهم المغاربة من ضواحى الثغر وتحصنوا بالأسوار بينما كان أربعمائة من الفرسان يجوبون الضواحى استعدادا للقتال ٠

وعندما اقترب الجيش الفرنسى وقبل أن يبدأ هجومه (على الاسكندرية) ، رأى نابليون أهالى الاسكندرية محتشدين بأعلى الأسوار مشاة وركبانا ، رجالا ونساء ، كبارا وصغار ، ومعظمهم مسلحون بالبنادق والرماح ٠

ولكن نابليون دخل الاسكندرية مع جيشه (وكانت مقاومة الأهالى قد فدحتهم بالخسائر) ، فهاجموا الناس فى بيوتهم ، فدافع هؤلاء عن أنفسهم وأخذوا يطلقون الرصاص من البيوت على الجنود والمهاجمين ، وكاد نابليون نفسه يصاب برصاصة قاتلة ، لولا الحظ الذى نجاه من الموت ٠

وكتب الجنرال برتبيه فى رسالته الى وزارة الخارجية الفرنسية بتاريخ ٦ يوليو سنة ١٧٩٨ يصف احتلال الفرنسيين للاسكندرية فقال (ان الأهالى دافعوا عن أسوار المدينة دفاع المستميت ، وقد أصيب فى هذه الموقعة الجنرال كليبر بعيار نارى فى جبهته ، فجرح جرحا بليغا ، وأصيب الجنرال مينو بضربة حجر أسقطته من أعلى السور فنالته رضوض شديدة ، وأصيب الأرجودان جنرال اسكال بجرح بليغ فى ذراعه من عيار نارى ، وقتل اللواء ماس وخمسة ضباط آخرون ٠

وكتب الجنرال مينو الى نابليون (ان الجنود يستحقون الثناء العظيم على ما بذلوه من الاقدام والهمة والذكاء وسط المخاطر العظيمة التى كانت تحيط بهم لأن الأعداء (الأهالى) قد دافعوا عن المدينة بشجاعة كبيرة وثبات عظيم)(٤٨) ٠

ثم يوالى الشعب تضحياته بالنفس وبالمال حتى طرد الفرنسيين ثم الانجليز من مصر بعد أن انتهزوا الفرصة لمحاولة الحلول محل الغازي الفرنسي ٠

وطوال وجود الحملة الفرنسية فى مصر لم يكف الشعب المصرى عن مقاومتها والتضييق عليها حتى أرغمها على الجلاء ٠

وتعتبر الفترة التى تلت جلاء الفرنسيين عن مصر ، الى أن استتب الأمر لمحمد على (من سنة ١٨٠١ الى ١٨٠٥) بتوليته من قبل السلطان أسوأ فترة مر بها الشعب المصرى منذ عدة قرون ، سواء فى ذلك أهل الريف أو أهل المدن ــ حيث تعددت القوى المتصارعة على الانفراد بحكم مصر وحلب الشعب المصرى ٠

وكان الشعب بمختلف طوائفه يدفع تكاليف هذا الصراع من أمنه ومن ماله ومن دمه ومن عرضه ، فكل طائفة من الطوائف المتصارعة تحتل هذا الجزء أو ذاك من أرض البلاد وتفرض على سكانه الضرائب والعلوفات ، وتعذب وتضرب وتقتل وتنهب ، لتنهزم أمام قوة أخرى ، تحل محلها فيما كانت ترتكبه من آثام ، لتجىء قوة ثالثة ، لتطردها بعد قليل القوة الأولى وهكذا دواليك ٠

وغرقت البلاد فى هذه المأساة أربع سنوات كاملة يطالع الانسان تفاصيل ما وقع فيها شهرا بعد شهر ويوما بعد يوم وساعة بعد أخرى ، فى تاريخ الجبرتى فتصاب نفس المطالع بالغثيان بحديث الدم والبغى والطغيان ، ويناله السأم لتشابه الوقائع وتكرار القصة ٠ ويستبد بالانسان العجب ، كيف لم تخرب مصر نهائيا ويباد شعبها عن آخره ، وسط هذه الفوضى والفتن والويلات ٠

ولن يلتقط المطالع أنفاسه الا بعد أن يستتب الأمر لمحمد على لا لأن الظلم قد رفع عن الشعب ، بل لقد تضاعف هذا الظلم من حيث تعدد الضرائب وتضاعف قدرها ، ولكنه على كل حال أصبح ظلما منظما ٠

ولنعرض الآن لهذه القوى المتصارعة ٠

الاتراك العثمانيون :

عاد الأتراك العثمانيون لاحتلال البلاد بجيوشهم ، وقد أبوا أن يعودوا الى الوضع القديم السابق على الحملة الفرنسية حيث لم يكن للدولة العثمانية سوى سلطان شكلى على مصر ، وقرروا أن يكون حكمهم لها حكما مباشرا ، ولم يكن من ذلك من سبيل الا بابادة المماليك ، وكانت هذه هى الأوامر المعطاه لكبار رجالهم الذين وفدوا على مصر ٠

المماليك :

والمماليك من ناحيتهم كانوا يعتبرون أنفسهم أصحاب مصر وملاكها ، وأنهم وقد عادوا اليها (بعد الحملة الفرنسية) فليس للعثمانيين فيها الا الاسم وأن يتلقوا ما اعتادوا أن يتلقوه من جزية سنوية ، على أن يكون حكم مصر المباشر ومغانمها بين المماليك أنفسهم ٠

الانجليز :

وكانت تحاول جذب المماليك اليها للسماح لهم باحتلال مصر(٤٩) .

ولكن هذه القوى لم تعمل للشعب المصرى (كالعادة) أى حساب .

كان الوالى التركى خورشيد باشا قد استجلب جيشا من الدلاة (أى المجانين) لأن أفراده من عنصر كردى اشتهر بالتهور والبسالة .

وقصد من هذا الجيش مناوأة محمد على الذى بدأت تظهر أطماعه فى الفوز بولاية مصر .

ولم يكد هذا الجيش يدخل القاهرة ، حتى تصرف فيها تصرف الغزاة الفاتحين ، فاستولى رجاله على ما شاءوا من البيوت ليقيموا فيها ، وطردوا منها أصحابها ، ثم عمدوا الى أبواب هذه البيوت ونوافذها ينزعونها ويتخذون منها وقودا لنيرانهم كما استولوا على كل ما وجدوه فى هذه البيوت من مال ومتاع ، ثم شرعوا يعتدون على الأعراض ، لا أعراض النساء فحسب ، بل والذكور أيضا . واستغاث الشعب بالوالى، وكان أضعف من أن يفعل شيئا لكبح جماح هؤلاء المجانين .

فانفجرت الثورة فى أنحاء القاهرة فى ٢ مايو سنة ١٨٠٥ واحتشدت جموع الشعب فى الأزهر ، وتوقف الشيوخ عن القاء الدروس ، ونودى باغلاق المتاجر وطالب الشعب بجلاء الدلاة عن القاهرة وأعطوا الوالى مهلة ثلاثة أيام . وعندما ارسل كتخدا للتفاهم مع الشيوخ والعلماء رجمه الصبيان بالحجارة .

اندلاع الثورة :

لم يستطع خورشيد باشا أن يجلى الدلاة عن القاهرة فى الأجل المضروب ، وأعلن الدلاة من ناحيتهم انهم لن يجلوا الا اذا قبضوا مرتباتهم ، وراحوا يهجمون على القرى ويتملكون كل ما فيها حتى النساء والاطفال ويبيعونهم فيما بينهم ورد الشعب على ذلك باعلان الثورة الشاملة ليس فقط على خورشيد باشا أو الدلاة ، بل على الحكم العثمانى كله ــ وبذلك فقد تحولت صيحاتهم الى مثل القول (يارب يا متجلى اهلك العثمانلى) ..

وفى يوم الأحد ٢ مايو سنة ١٨٠٥ اجتمع زعماء الشعب فى دار المحكمة بينما أحاط بها الجماهير ، وطلبوا من القاضى أن يرسل لاستدعاء وكلاء الوالى ليحضروا مجلس الشرع فأرسل يستدعيهم فحضروا على عجل فتقدم ممثلو الشعب بواحد وعشرين مطلبا كان من أهمها :

١ ــ عدم مرابطة القوات العسكرية فى القاهرة ووجوب جلائها الى الجيزة .

٢ ــ عدم السماح لأى جندى أن يدخل القاهرة حاملا سلاحه معه .

٣ ـ الامتناع عن فرض أى ضريبة على سكان القاهرة بدون موافقة المشايخ والأعيان.

٤ ـ فك الحصار الذى فرضه المماليك على القاهرة واعادة المواصلات بين القاهرة والوجه القبلى .

وقد أطلق الفرنسيون والانجليز المعاصرون لهذا الحادث على هذه المطالب بأنها (وثيقة الحقوق)(٥٠) .

ورفض الوالى التركى اجابة هذه المطالب ، وكان هذا الرفض معجلا لسير الحوادث فاجتمع وكلاء الشعب من العلماء ونقباء الصناع فى اليوم التالى ١٣ مايو بدار المحكمة ليتداولوا فى الموقف واحتشدت الجماهير فى فناء المحكمة وحولها يؤيدون وكلاءهم . وهناك اتفقت كلمة نواب الشعب وأجمعوا رأيهم على عزل خورشيد باشا وتعيين محمد على واليا بدله ، وعندئذ قاموا وانتقلوا الى دار محمد على لتنفيذ قرارهم ، وأبلغوه ما اتفقوا عليه وقالوا :

اننا لا نريد هذا الباشا واليا علينا ولابد من عزله من الولاية .

ونادى السيد عمر مكرم بالنيابة عنهم وقال :

اننا خلعناه من الولاية .

فقال محمد على ـ ومن تريدونه واليا .

فقال الجميع بصوت واحد ـ لا نرضى الا بك واليا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير .

ويمتاز هذا (الانقلاب) بانه لم يكن مقصورا على مجرد انتخاب وكلاء الشعب لولى الأمر ، بل كان مشروطا بأن يرجع اليهم فى شئون الدولة ، فوضعوا بذلك قاعدة الحكم الدستورى فى البلاد ـ وفى ذلك يقول الجبرتى عن ولاية محمد على (تم الأمر بعد المعاهدة والمعاقدة على سيره بالعدل واقامة الاحكام والشرائع والاقلاع عن المظالم وألا يفعل أمرا الا بمشورته ومشورة العلماء وانه ان خالف الشروط عزلوه .

وثمة ميزة أخرى أكسبت ذلك الانقلاب بهاء وجلالا ، ذلك أنه تم فى دار المحكمة، فى ساحة القضاء . فاتخذ معنى الاحتكام الى العدالة والتمسك بالحق .

وعندما ذهب وفد من زعماء الشعب الى القلعة لابلاغ الوالى خورشيد باشا بقرارهم أجابهم بقوله (انى مولى من طرف السلطان فلا أعزل من الفلاحين ولا أعزل من القلعة الا بأمر من السلطنة) .

وقد حرر زعماء الشعب محضرا بعزل خورشيد وتولية محمد على مكانه وذكروا فى هذا المحضر العبارة التالية :

« ان للشعوب طبقا لما جرى عليه العرف قديما ولما تقضي به الشريعة الاسلامية

الحق فى أن يقيموا الولاة ولهم أن يعزلوهم اذا انحرفوا عن سنن العدل وساروا بالظلم لأن الحكام الظالمين خارجون على الشريعة » .

واستمر الوالى على عناده ، فأخذ عمر مكرم يحرض الناس على الاجتماع والاستعداد للقتال ، ولبى الأهالى الدعوة متطوعين حاملين ما وصلت اليه أيديهم من الأسلحة والعصى . فأقاموا المتاريس والاستحكامات بالقرب من القلعة وتحصنوا بها (وحمل السلاح كل قادر على حمله ، وخلت مخازن الأسلحة مما فيها من آلات الكفاح) واشتركت جميع طبقات الشعب فى حمل السلاح على اختلاف أعمارهم ومراكزهم وطوائفهم ، وبلغ عدد الثوار أربعين ألفا حاملين الأسلحة والعصى . وكان الفقراء من العامة يبيعون ملابسهم أو يستدينون ويشترون الأسلحة) .

ويقول الجبرتى (انتصر محمد على بالسيد / عمر مكرم النقيب والمشايخ والقاضى وأهل البلدة والرعايا) ويقصد الرعايا جمهور الشعب .

واستمرت الحرب سجالا بين الوالى وجيشه المحصورين فى القلعة وبين الشعب بقيادة زعمائه وأخصهم عمر مكرم .

وفى ١٢ يونية سنة ١٨٠٥ حضر كتخدا (وكيل) محمد على وجرجس الجوهرى والشيخ الامير والقاضى ، وتشاوروا واتفقوا على مضاعفة الجهد لاجبار خورشيد باشا على تسليم القلعة ، فمن ذلك أنهم قرروا زيادة عدد المخافر فى الاستحكامات والمتاريس وعهدوا الى السيد عمر ارسال المؤونة والماء كل يوم الى المقاتلين المرابطين بالمقطم .

وقد فطن الكتاب الافرنج الى ما فى ثورة مايو سنة ١٨٠٥ من معان سياسية كبيرة ، فلم يفتهم أن ينوهوا بها فيما كتبوه عن وقائعها ؛ قال (فولابل) فى كتابه مصر الحديثة :

« ان الحوادث التى سردناها تسترعى النظر ، فلأول مرة وقع تغيير سياسى خطير فى ولاية من ولايات السلطنة العثمانية بارادة الشعب وباسم الشعب ، ولا جدال أن المطالب التى فرضها الشيوخ على خورشيد باشا تدل على ما يجيش بصدورهم من الاحساس بالحرية وما يشعرون به من الحاجة الى أخذ الضمانات الكافية التى تكفل مراقبة الحكومة . ولقد كان هذا الشعور الى ذلك العصر مجهولا فى الشرق ، واذا كانت انظار الشعب قد اتجهت فى تلك الآونة الى محمد على وأجمعت آراء زعمائه على تقليده سلطة الحكم فما ذلك الا لأن (محمد على) قد دعا الى مبادىء الحرية وأعلن فى كل لحظة دفاعه عن حقوق الشعب ومصالحه ونادى بأن علة المحن التى حلت بالبلاد راجعة الى سوء سياسة الولاة الاتراك وعدم وجود أية رقابة على الحكومة » .

ويقول كلوت بك فى كتابه لمحة عامة الى مصر — وكان من أصدقاء محمد على وأخص مستشاريه (لقد أغرى الشيوخ . محمد على) بتقلد زمام الأحكام ، وهم بما لهم من النفوذ الأدبى والدينى والسلطة التقليدية كانوا بالبداهة نواب الامة ووكلاءها،

وغنى عن البيان أنه لو لم يستوثق محمد على من تأييد الجمهور له لسقط تحت أعباء المهمة التى أخذ على نفسه القيام بها ٠

وظلت الحرب بين الشعب والوالى سجالا الى أن جاء القاهرة من الاستانة يوم ٩ يولية سنة ١٨٠٥ رسول يحمل فرمانا يتضمن تثبيت محمد على واليا على مصر (حيث رضى بذلك العلماء والرعية وأن خورشيد باشا معزول عن ولاية مصر) ٠

فبطل الضرب من القلعة ، وأبطل الثوار الضرب من الجبل مع استمرار الحصار وبقاء المتاريس ومرابطة الثوار بالجبل الى أن أذعن خورشيد باشا وسلم القلعة يوم الاثنين ٥ أغسطس سنة ١٨٠٥ ونزل منها ثم رحل عن البلاد فكان بذلك آخر والى عثمانى حكم مصر بارادة الاستانة وأوامرها ٠

وبذلك توجت الثورة بفوز الامة واستقر الحكم بمن اختاره نواب الشعب وليا للامر ٠

وكان زعماء الشعب فى هذه الحركة السيد / محمد السادات والشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ مصطفى الصاوى والشيخ محمد الامير والشيخ محمد المهدى والسيد / أحمد المحروقى كبير التجار والسيد / جرجس الجوهرى والشيخ سليمان الفيومى ٠

وكانت القيادة الحقيقية للسيد عمر مكرم نقيب الاشراف)(٥١) ٠

« الآن قد طابت لى مصر »

محمـــد عـــلى

« عندما علم بوفاة منافسيه على ملك مصر البرديسى والالفى »

« ســـنة ١٨٠٦ و ١٨٠٧ »

ج ـ فى النظم السياسية المفروضة من ١٨٠٥ م حتى بدء الاحتلال البريطانى سنة ١٨٨٢ م :

مهما قيل عن محمد على من أنه منشىء مصر الحديثة وعن الجهد الذى بذله فى اعادة صياغة الدولة المصرية بعد أن ران عليها الجمود من بعــد انتهاء الحكم الوطنى سنة ٣٣٢ ق٠م فان خيانته لرغبات الجماهير ونظام الحكم المرتضى منهم لا يمكن ان تغتفر أبدا اذ لا زلنا وسنظل ندفع ثمن هذه الخيــانة غاليا من دخل كل أسرة ومن مستوى معيشة الأمة المصرية كلها ٠

ولعل الذين يتساءلون عن أسباب الفقر والتخلف لهذه الأمة يجدون الجواب فيما تكلفته الأمة بسبب انفراد فرد واحد فقط بالتسلط على رقاب كل الناس وعلى أرزاقهم وناتج عملهم ٠

وذلك أن محمــد على كان فى أول أمره ، حسب الاتفـــاق ، يرجع الى زعماء الجماهير ، فمن ذلك أنه كلما احتاجت الحكومة الى تقرير اتاوة جديدة رجع اليهم فى بادىء الأمر وأوضح لهم الحاجة الملجئة اليها ، وخاصة اذا كان الغرض منها دفـــع رواتب الجند فينال اقرارهم وموافقتهم ٠ لذلك ساندہ الشعب عندما أرسل السلطان العثمانى أسطولا لعزله واعادة حكم المماليك ٠

ولما استوثق محمــد على من معاضدة الســيد عمر مكرم ، عزم على مقاومة الباب العالى وأخذ يتأهب للحرب والقتال ، وكتب العلماء رسالة الى قائد الاسطول العثمانى يذكرون فيها (ان محمد على باشا كافل الأقاليم وحافظ ثغوره ومؤمن سبيله وقاطع المعتدين ، وان الكافة من الخاصة والعامة والرعية راضية بولايته وأحكامه وعدله ، والشريعة مقامة فى أيامه ، ولا يرتضــون خلافه لما رأوا فيه من عدم الظلم والرفق بالضعفاء وأهل القرى والارياف ، وعمارها بأهلها ورجوع الشاردين منها فى أيــام المماليك المعتدين الذين كانوا يعتدون عليهم ويسلبون أمــوالهم ومزارعهم ويكلفونهم بأخذ الفرض والكلف (جمع كلفة) الخارجة عن الحد أما الآن فجميع أهل القطــر المصرى مطمئنون بولاية هذا الوزير ٠

وحدث قتال بين الشعب والمماليك الذين كانوا يطمعون في استعادة سلطانهم وانتهت الأمور بحبوط مؤامرة العزل وتثبيت محمد على فى حـــكم مصر ومن ثم بدأ يعمل على تفتيت الوحدة الوليدة للأمة المصرية ليتسلط وحده على الناس والأرزاق ٠

قال الجبرتي في هذه الأيام نوفمبر سنة ١٨٠٥ (وقعت بين أهل الأزهر منافسات بسبب أمور وأغراض نفسانية يطول شرحها ، وتحزبوا حزبين ، حزب مع الشيخ عبد الله الشرقاوي ، وحزب مع الشيخ محمد الأمير وهو الأكثر ، وجعلوا الشيخ الأمير ناظرا على الجامع (الأزهر) وكتبوا له تقريرا بذلك من القاضي وختم عليه المشايخ والشيخ السادات والسيد عمر أفندي النقيب ـ وكانت النظارة شاغرة من أيام الفرنسيس ، وكان يتقلدها أحد الامراء (المماليك) فلما خرج الامراء من مصر صارت تابعة لمشيخة الأزهر لوقت تاريخه ، فانفعل لذلك الشيخ الشرقاوي ·

وفي هذه الايام كان بين مشايخ العلم منافسات ومناورات ومحاسدات وتعصبات بسبب مشيخة الجامع ونظر أوقافه وأوقاف عبد الرحمن كتخدا ، فاتفق أن الشيخ عبد الرحمن السجيني عمل وليمة ودعاهم اليها فاجتمعوا في ذلك اليوم وتصالحوا في (الظاهر) ·

وبطبيعة الحال لم يخف أمر هذا التنافس على محمد على ، بل ابتهج به خاصة وقد عزم على استغلاله (لينفرد بالحكم) ويتخلص من تلك الرقابة الشعبية ·

وكان محمد على عند فرضه الضرائب الجديدة على القرى والالتزامات قد راعى خاطر الشيوخ ليضمهم اليه ، فأعفى أملاكهم وضياعهم وما دخل في التزامهم من دفع ضريبة (الفائض) وكذلك شمل بهذا الاعفاء أملاك من ينتمون اليهم فاعتز الشيوخ بهذا التميز في المعاملة ، وأكثروا من شراء الحصص من أصحابها المحتاجين وتركوا الدنيا تفسد من طباعهم ـ ويقول الجبرتي (وافتتنوا بالدنيا وهجروا مذاكرة المسائل ومدارسة العلم الا بمقدار حفظ الناموس مع ترك العمل بالكلية ، وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد الأمراء (المماليك) واتخذوا الخدم والمقدمين والأعوان وأجروا الحبس والتعزير والضرب وصار ديدنهم واجتماعهم ذكر الامور الدنيوية والحصص والالتزام وحساب الميرى والفائض والمضارب والرماية والمرافعات والمراسلات ··· زيادة عما هو بينهم من التنافر والتحاسد والتحاقد على الرياسة والتفاقم والتكالب على سفاسف الأمور وحظوظ الأنفس على الاشياء الواهية) ·

ولم يربأ بنفسه عن كل هذا التهالك الا السيد عمر مكرم الذي لم يغير مبادئه ولهذا لم يتركوه بل عملوا مؤامرة ، بمساعدة محمد على ، حتى جرد من نقابته للاشراف ونفى الى دمياط (٥٢) ·

وأغدق محمد على على المتآمرين وانفرد بحكم مصر بدون معارضة ·

ومما وأد روح المعارضة لدى الشعب ، بالاضافة الى فرقة زعمائه وتكالبهم على منافعهم الشخصية وتواطؤهم مع ولى النعم ، ما حدث في مذبحة القلعة اذ بثت الخوف في الأنفس بعد أن شاهد الناس خيانة محمد على لزعماء المماليك بعد أن جمعهم في القلعة ثم أغلق جنوده عليهم الأبواب وقتلوهم عن آخرهم ·

وفي هذا يقول المؤرخ عبد الرحمن الرافعي (٥٣) ·

(ولم يعد ممكنا الى زمن طويل أن تعود الشجاعة والطمأنينة الى نفوس الناس ، والشجاعة خلق عظيم تحرص عليه الامم الطامحة الى العلا ، وهى قوام الاخلاق والفضائل القومية ، فاذا فقد الشعب الشجاعة وحلت الرهبة مكانها كان ذلك نذيرا بانحلال الحياة القومية وفسادها ، فالرهبة التى استولت على النفوس بعد مذبحة القلعة كان لها أثرها فى اضعاف قوة الشعب الخلقية والمعنوية ، وتلك خسارة قومية كبرى ، فانما الأمم أخلاق وفضائل ، أضف الى ذلك أن هذه الحادثة وقعت فى الوقت الذى كانت فيه النفوس قد تطلعت الى مراقبة ولاة الأمور ودبت فيها روح الحياة الديمقراطية ، وتعددت مظاهر هذه الروح من اجتماعات الشعب واحتجاجاته على المظالم .

فنحسب أن مذبحة القلعة قد قضت على هذه الروح الى زمن طويل ، وأحلت فى مكانها روح الرهبة من الحكام ، ولعل هذه الروح الجديدة قد جعلت محمد على باشا أكثر اطمئنانا على انفراده بالحكم ، فلم يبد الشعب فى خلال السبع والثلاثين سنة التى قضاها فى الحكم بعد تلك الحادثة روح معارضة أو محاسبة أو انتقاد) .

وفى النهاية احتكر محمد على السلطة بدون منازع (كالعادة) ..

واستمر حكم الفرد فى ولدى محمد على وهما عباس وسعيد الى أن جاء عصر الحفيد اسماعيل .

وكان اسماعيل قد أنشأ فى بداية حكمه مجلسا أسماه مجلس شورى النواب وأراد أن يجعل منه هيئة استشارية تزيد من رونق حكمه وبهائه دون أن يتخلى قيد شعره عن دكتاتوريته وحكمه المطلق (٥٤) .

ثم أن تأسيس هذا المجلس من غير أن تسبقه حركة مطالبة من الأمة (بعد أن وأد محمد على الحركة الشعبية وتابعه فى ذلك من جاء بعده) جعله يأخذ شكل المنحة ، ومن هنا نشأت سلطته ضئيلة ، ونفوذه يكاد يكون شكليا ، ومن جهة أخرى فنظام الانتخاب كان له أثر بالغ فى تكوين هذا المجلس ، ذلك أنه حصر حق الانتخاب فى العمد والمشايخ مما أسفر عن انتخاب معظم النواب من العمد وأعيان البلاد ، حتى صار جديرا بأن يسمى (مجلس الأعيان) .

أما طبقة التجار والصناع فلم يكن لهم ممثلون الا النزر اليسير الذى لا يؤثر فى طابع المجلس ، وكذلك خلا من الطبقات المتعلمة التى تخرجت من المدارس والبعثات العلمية منذ عهد محمد على ، فهؤلاء لم يكونوا ممثلين فيه ، لأن نظام الانتخاب فى ذاته لا يجعل لهم حظا فى عضوية المجلس ، أضف الى ذلك أن هذه الطبقة كانت الى ذلك العصر منصرفه الى مناصب الحكومة ، ولم تتجه الى الحياة الحرة ، ولم تالفها بعد ، فكانت بحكم هذه الظروف ، جزءا من الأداة الحكومية ؛ وبذلك حرم المجلس تلك العناصر الحرة المثقفة التى ترسل الى الهيئات النيابية نورا من الحياة والحرية

والاستقلال فى الرأى ، وتبعث فيها روحا من الشعور بالواجب ، والشجاعة الأدبية والتطلع الى المثل الأعلى .

ولم تكن فى البلاد حين تأسس المجلس صحافة تنبه الأفكار ، وترشد النواب الى واجباتهم ، وتبصرهم بحقائق الأمور ، وتنشر مداولاتهم ؛ وتستثير اهتمام الكافة بمباحثهم ، ولا ثمة جمعيات سياسية تبث أفكارها ومبادئها القومية فى نفوس النواب، ويتألف منها ومن الصحافة رأى عام يراقب المجلس ويوجهه الى الوجهة التى ينشدها .

ومن ناحية أخرى لم تكن فى البلاد ضمانات نظامية أو قانونيـــة أو قضائية أو فعلية تحمى حرية الآراء وتكفلهـا ، كل هذه الظروف كان لها أثرها فى تضييق حياة المجلس وتحديد مواقفه وخططه وأعماله .

أما بعد سنة ١٨٧٦ (تاريخ عدم تمكن مصر من سداد ديونها للدول الأجنبية وبدء التدخل الأجنبى السافر فى شئون مصر) ، فقد اتجه أعضاء هذا المجلس اتجاها آخر متفاعلين مع النكبة التى حاقت بالوطن وبالأمة المصرية .

ونحن ننقل هنا جواب هذا المجلس على خطبـة العرش فى ٦ يناير سنة ١٨٧٩ حيث يتبين للقارىء تطور الأحداث .

(نحن نواب الأمة المصرية ووكلاؤها ، المدافعون عن حقوقها ، الطالبون لمصلحتها التى هى فى نفس الأمر مصلحة الحكومة ، نرفع الى مقام الحضرة الخديوية الفخيمة الشكر الجميل ، حيث عنيت بتشكيل مجلس شورى النواب ، الذى هو أساس المدنية والنظام ، وعليه مدار العمران ، وهو السبب الموجب لنـــوال الحرية التى هى منبع التقدم والترقى ، وهو الباعث الحقيقى على بث المساواة فى الحقوق ، التى هى جوهر العدل وروح الانصاف .

ونكرر الشكر لهـذه الحضرة الجليلة حيث شكلت مجلس وزارة جعلته مسئولا كاملا أمام الأمة تأييدا لمجلس النواب . وتتميما له ، ولذلك حينما تعلقت ارادتهـا السامية بأن ينظر الوزراء فى أمور المالية والأشغال الداخلية ، دعت نـواب الأمة ليتداولوا معهم فى ذلك ، حفظا لحقوق الرعية ، ومصلحة الحكومة .

وأنا نبث أيضا عن الأمة عموما ، وهنا خصوصا ، مزيد الثناء على هذه الحضرة المعظمة ، لما تعطفت به من تشريف ركابها الرفيع لافتتاح هذا المجلس احتفالا به فى يوم ستجنى الأمة من غرسه ثمار الرفاهية والراحة .

ونعلن من صميم الفؤاد سرورنا وكمال ابتهاجنـــا بما تشرفت به مسامعنا من خطاب جلالتكم الذى أنبأ عما انطوت عليه تلك السريرة الطاهرة الذكيـة من الميل الغريزي الى اصلاح الأمة المصرية ، والرغبة الخالصة فى صعودها على معارج التقدم وترقيها الى ذروة السعادة ونيلها الحرية فى تصرفاتها قولا وفعلا ، حيث أبانت عظمتكم أن الغرض من اجتماع هذا المجلس هو المذاكرة مع نظار حكومتكم فى المسائل المتعلقة بالمالية والأشغال الداخلية .

فبعث فينا ذلك الخطاب روح العصر الجديد ، وأحيا آمال هذه الأمة التى لا تزال راجية أن تنال شرفها التليد الذى شهدت به التواريخ وأنبأت به الآثار بمساعى الحضرة الخديوية وهممها العالية .

وأنا لا نألو جهدا فى دقة النظر والعناية بما فيه منفعة الوطن ومصلحة الحكومة قياما بأداء واجباتنا التى هى فى الحقيقة مقاصد ولى النعم .

فليحى الخديو المعظم ، وأنجاله الكرام ، ولتحى الحرية تحت ظل رعايتــه وحمايته ، آمين) .

ونود أن نلفت نظر القارىء أن هذا الخطاب ، جاء خلوا (تقريبا) من عبارات الملق والتذلل والعبودية التى دأب الناس على مخاطبة الحاكم بها ، كما أنه يلاحظ منه استرواح نسيم المبادىء الدستورية والحياة الوطنيــة ، فانظر الى ما فيه من دقة النظر والمرمى البعيد فى قول النواب أن تأليف الوزارة المسئولة أمام الأمة هو تأييد لمجلس النواب ، وتتميم له ، فان هذا المعنى ينطوى على مبدأ المسئولية الوزارية أمام المجلس النيابى ، ذلك المبدأ الذى هو قوام النظام البرلمانى ، ثم تأمل فى مخاطبة النواب للخــديو اسماعيل بلفظ (جلالتكم) متخطين اســـمه الرسمى (صاحب السمو) ، فكأنهم أرادوا أن يجعلوا مصر فى مرتبة الدول المستقلة استقلالا تاما ، وعلى رأسها ملك يلقب بصاحب الجلالة ، وهذا يطالعك بروح العظمة الوطنية التى يستلهم منها النواب جوابهم ، وتأمل ما يجيش بصدورهم من الآمال الكبار فى احياء مجد مصر وعظمتها الخالدة (التى شهدت بها التواريخ وأنبأت بها الآثار) .

ولعلك قد لاحظت أن هذا الخلف لا يختلف فى شىء فى تطلعــه لاحياء مصر الحضارة عن أجداده فى الدولة الوسطى وما بعدها .

ثم لاحظ تقديمهم مصلحة الوطن على مصلحة الحــكومة ، وهتافهم للخديو ، ثم هتافهم للحرية ، نجد أن هذا الجواب آية فى الوطنية والبلاغة السياسية .

ثم لاحظ أيضا ما أصبح داخلا فى سلطة نواب الشعب من المذاكرة فى الأمور المالية والشئون الداخلية للدولة نتيجة للنكبة التى حلت بها جراء الديون والاستدانة من الخارج وبدء سيطرة الأجانب على شئون مصر واقتصادياتها .

وبهذا يعيد الشعب المصرى طلباته الســابق له ابداؤها فى مايو ســـنة ١٨٠٥ ، فى شكل جديد ، وبنفس الجوهر ، الذى عبر به عند توليه محمد على حكم مصر .

فبهذا فقط ، أى بوضع الشعب نظام حياته على هذه الأرض ، تتحقق وحدته فى خاؤه .

وتطورت الأحداث وكلها تؤكد تجاهل مجلس شورى النواب ، اذ تبين من مسلك وزارة توفيق باشا (ابن اسماعيل) أن الوزيرين الأوربيين (الذين عينا من قبل فرنسا وانجلترا لمراقبة المالية المصرية) هما صاحبا الكلمة النافذة فيها وفى شئون الحكومة

جمعاء ، واشتد التدخل الأجنبى ، وفقدت الوزارة الصبغة القومية ، ودل موقفها تجاه مجلس شــورى النواب على أنهــا تريد التخلص منه ، فقد بادرت الى فض المجلس ، ولما يمض عليها خمسة أيام ، كما أنها أصرت على انتهاء مدته مع عدم تحديد موعد لاجراء انتخابات جديدة ، كل ذلك يدل على أنها تبغى حـــكم البلاد بمطلق ارادتها ، أى بارادة المستعمرين ، ولم يكن غائبا عن الأذهان موقف الســيد ريفرس ويلسن وزير المالية فى عهد وزارة نوبار وامتناعه عن الحضور رغم استدعائه أكثر من مرة ، فان هذا الموقف ينم على ما يحمله من الذراية بالهيئة النيابية .

أما دى بلنيير فهو وان كان أقل غطرسة من زميله ولكنه كان ينفذ اللوائح التى وضعها قبــل أن يتعرف رأى المجلس فيهــا ، ثم أن تخويل الوزيرين الأوربيين حق (الفيتو) جاء ضغثا على ابالة ، لأنه بمثابة الغــاء لسلطة مجلس النظـــار وتخويل الوزيرين الأجنبيين سلطة دكتاتورية(★) .

وجاء الأمر بفض المجلس مما لا يدع مجالا للشك فى نيات السوء التى يضمرها الوزيران الأجنبيان الانجليزى والفرنسى ، وتجاريهما فيها الوزارة (التى يرأســها ابن الخديو الذى تحالف مع الانجليز لاحتلال مصر) .

وزاد الحالة سوءا أن السيد ريفرس ويلسن وضـــع لائحة تتضمن مشروع تسوية مالية تجعل مصر فى حالة عجز عن ســداد ديونهــا ، ومعنى ذلك وضــعها على الدوام تحت الرقابة الأجنبية وبقاء الوزارة الأوربية تتولى الحكم على ما تهوى وتريد .

فلا جرم أن ثارت الخواطر واضطربت الأفكار ، وقويت فى النفوس فكرة الكرامة القومية ، واتجه شعور الناس الى التخلص من التدخل الأجنبى واســـقاط الوزارة الأوربية ، التى امتهنت كرامة الأمة وانتهكت حقوقها ومصالحها ، فاخذ قادة الأفكار من النواب والأعيان والعلماء والتجار ، يكثرون الاجتماع ويتشاورون فى انقاذ البلاد من الهاوية التى (أرادهم فيهـــا حاكم دكتاتور محتكر للسلطات ولمعظم اقتصاديات الدولة) .

واجتمع الأحـــرار فى دار الســيد على البكرى نقيب الاشراف ، ثم فى منزل راغب باشا وزير المالية السابق ورئيس مجلس شورى النواب فى أول نشأته وعقدوا بداره (جمعية وطنية) ــ تضم صفوة كبراء البلاد وأصحاب الرأى فيها ، واتفقوا على وضع بيان بما استقر عليه رأيهم ويتضمن مشروع تسوية مالية يعارضون به مشروع ريفرس ويلسن ، ويجعل البلاد قادرة (بضمانتهم) (وكفالتهم) على وفاء ديونها ، والمطالبة بتأليف وزارة وطنية مستقلة واقصاء الوزيرين الأوربيين عنها ، وتقرير نظام دستورى للبلاد قوامه جعل الوزارة مسئولة أمام مجلس النواب .

وفى اليوم الثانى من ابريل سنة ١٨٧٩ اجتمع الأحرار من الأعيــان والنواب والعلماء والمامورين بدار اسماعيل راغب باشا ، وكان فى مقــدمة الحاضرين شريف

(★) وللقارىء أن يتامل فى مآل تصرفات الحاكم عند غياب الرقابة الشعبية ثم يدفع العــامة الثمن بعد ذلك ــ أى ثمن ملذات وشهوات اسماعيل باشا ، ويدفعونه من مستقبل وتاريخ أمة .

باشا وشاهين باشا وحسن باشا راسم وجعفر باشا والسيد على البكرى والشيخ الخلفاوى والشيخ العدوى ، واتفقوا على وضع لائحة ضمنوها مطالبهم وسميت (اللائحة الوطنية) .

وهاك نص العريضة التى قدم بها مشروع الميزانية فى اللائحة الوطنية .

(صار اطلاعنا على المشروع المقدم من سعادة ناظر المالية (ريفرس ولسن) ووجدناه لا يوافق لوطننا ، فلأجل سد الخلل وتدارك الأمر قبل فواته ، فمن بعد المذاكرة بيننا ، رأينا وجوبا أن نقدم مشروعا حافظا لحقوق الأمة داخلا وخارجا . مع احترام الشرائع المقدسة . والقوانين المؤسسة . وها هو المشروع المذكور مرفق مع هذا . ولكن هذا المشروع ما صار أعماله وتحريره الا بعد حصول علم اليقين لدينا بأن ايرادات بر مصر هى كافية لسداد الديون المطلوبة من الحكومة حسبما هو موضح بالمشروع المذكور . فلأجل ذلك نحن عن أنفسنا ، ونيابة عن أبناء وطننا صممنا حزما على بذل مجهودنا فى تأدية ديون الحكومة وبذل كافة ما فى وسعنا وطاقتنا فى اجراء ذلك . وبذا صار ختم هذا اعلانا بتصديق ذلك . وبأننا متحدون اتحادا تاما قولا وفعلا فى الاجراء) .

تحريرا بمصر فى ٢ أبريل سنة ١٨٧٩ (التوقيعات)

أما طلب تعديل نظام مجلس شورى النواب فقد ختمت به اللائحة الوطنية ، وانا ذاكرون هنا هذه الخاتمة . لأنها أول طلب جماعى تقدم من زعماء الشعب بتقرير مبدأ المسئولية الوزارية أمام مجلس النواب ووضع نظام دستورى على أحدث المبادىء العصرية ، وهاك بيانها .

(لقد تحرر هذا المشروع ببيان معضلات ما هو مقتضى اجراؤه فى تسوية ايرادات الحكومة وتسوية تسديدات ديونها ومصاريفها على وجه ما توضح به ، بحيث أن الحضرة الخديوية تمنح شورى النواب الحرية التامة وجميع الحقوق فى كافة الأمور المالية والداخلية كما هو جار فى بلاد أوربا . وأما انتخاب أعضائه فيكون بموجب لائحته الموجودة . انما يلزم تعديلها بكيفية انتخاب النواب المماثلة له فى أوربا .

وبمعرفة مجلس النظار يصير تنقيح لائحة النواب الأساسية والنظامية ، وعند التئام مجلس النواب تعرض عليه . ومن بعد مذاكرته فيها واقراره عليها تعرض للاعتاب الخديوية للتصديق عليها . أما مجلس النظار (الوزراء) فيكون تعيين رئيسه بأمر الحضرة الخديوية . والرئيس ينتخب النظار (الوزراء) . وبعد استصوابهم وقبولهم من طرف الحضرة الخديوية تتشكل هيئة النظارات التى تتكون منها هيئة مجلس النظار (الوزراء) . وهذا المجلس يكون مفوضا تفويضا تاما فى جميع اجراءاته ومسئولا أمام مجلس النواب فى جميع اجراءاته المختصة بالداخلية والمالية . ولزيادة تأمين الديانة (الدائنين) نطلب تعيين مفتشين أوروبا وبين (الرقيبين لايرادات ومصروفات المالية) .

وقد وقع على اللائحة الأشـــخاص البارزين فى الهيئة الاجتماعية المصرية من الأعيان والذوات والعلماء والنواب والتجار والموظفين وضباط الجيش .

وبلغ عدد الموقعين عليها ستين من أعضاء مجلس شورى النواب ، وستين من العلماء والهيئات الدينية ، وفى مقدمتهم شيخ الاســلام وبطريرك الأقباط وحاخام الاسرائيلين و ٤٢ من الأعيـــان والتجار ، و ٧٢ من الموظفين العاملين والمتقاعدين ، و ٩٣ من الضباط .

وقبل الخديوى اللائحة الوطنية رغم احتجاج الوزيرين الأوروبيين وكلف شريف باشا بتاليف الوزارة والاستجابة لطلبات نواب الأمة .

وابتهج الناس لقبول الخديو اللائحة الوطنية ، وتاليف وزارة شريف باشا ، واجتمع يوم الثلاثاء (٨ أبريل) بدار الســيد البكرى جمع كبير من علمــاء الديار المصرية والأعيان والتجار ، وتوجهوا بعد الظهر الى سراى عابدين لتقديم واجب الشكر للخديو ، فاستقبل أولا العلماء ومعهم بطريرك الأقباط ، وتلقاهم بالرعاية والاكرام ، وحثهم على التضافر والتعاون ، ثم ألقى السيد البكرى خطبة قال فيها :

(اننا بلسان الوطن والأمة نرفع الى مقام الجناب الخديوى الأسمى أجزل الشكر والثناء على عنايته بانهاض الوطن من سقطته وانقاذه من سوء ادارته ، حيث تفضل بقبول وتنفيذ طلباتنا الوطنية المقدسة المبنية على أســاس العدل الذى يترتب عليه عمران البلاد ونظام أحوال العباد ، داعين لجلالته بالعز والتأييد ، متخذين هذا اليوم الذى يجعل ذكر الحضرة الخديوية غرة فى جبهة التاريخ ، عيدا للوطن والحرية) .

وتلاه الشيخ الخلفاوى ، فالقى أيضا كلمة شـــكر وجيزة ، وبعد ذلك قام الخديو وقال (ان شــاء الله ننال بدعواتكم الصالحة غاية المرام ، وتتوطد الراحــة والنظام) . ثم استقبل التجار وحضهم على بذل المساعدة والمعاونة على توطيد الأحوال وتحقيق الآمال .

واقيمت الأفراح والحفلات ابتهاجا بالعهد الجديد ، وأقام السيد على البكرى فى داره مادبة كبرى يوم ٩ ابريل سنة ١٨٧٩ حضرها الكبراء والعظماء وفيهم بطريرك الأقباط ، وممثلو طبقات الأمة ووجوه البلد وأعيانه ، واشترك فيها الخديو اسماعيل ، اذ حضرها ليلا ، وجلس بالدار خمسا وعشرين دقيقة ، يؤانس العلماء والكبراء .

وأقام ابراهيم بك المويلحى ، ومحمود بك العطار شاه بندر التجـــار والسيد محمد السيوفى وغيرهم زينات أمام منازلهم .

واستجابة لمطالب الأمة قدمت وزارة شريف باشا مشروع الدستور (سنة١٨٧٩) الى مجلس شورى النواب لاقراره ، وقد خول هذا الدســتور مجلس النواب سلطة البرلمانات الحديثة ، وقوامها حق اقرار القوانين واقرار الميزانيــة ، وجعل الوزارة مسئولة أمامه ، ومن أهم مبادئه تخويل السودان حق انتخاب ممثلين عنهم فى مجلس

النواب أسوة بسائر سكان المملكة المصرية ، وهى فكرة جليلة تدل على سداد نظر شريف باشا وصدق وطنيته ، لأنها تثبيت وتوكيد لما بين مصر والسودان من الروابط القومية والسياسية ، وتأييد لاعتبار السودان جزءا لا يتجزأ من الدولة المصرية ، يتمتع سكانه بالحقوق السياسية التى يتمتع بها المصريون .

على أنه يلاحظ فى المادة ٢٦ من (مشروع) هذا الدستور أنها تنص على (عند أول اجتماع لمجلس النواب يجب على مجلس النظار أن يقدم له جميع اللوائح والقوانين والمنشورات الجارى العمل بها فى الحكومة لينظر فيها وينقحها ويصدر قراره عليها ويجرى التصديق عليها من الحضرة الخديوية لتكون دستورا للعمل) .

وبهذا النص استعاد الشعب المصرى سلطاته فى مراجعة كل النظم والقوانين المعمول بها ابتداء من عصر محمد على ، ليلغى منها ما يشاء وليبقى على ما يشاء وليعدل ما يشاء اذ بهذا فقط تتم وحدة الشعب المصرى حول نظامه المختار .

وبهذا أيضا استعاد الشعب المصرى سلطاته فى أمور بلده .

ولكن الاستعمار كان بالمرصاد ليقف حائلا دون تحقيق وحدة هذه الأمة اذ أن نياته كانت مبيته على احتلالها واحتلال قناة السويس وتقسيم منطقة الشرق الأوسط، بل كل الامبراطورية العثمانية بين دولتى فرنسا وانجلترا .

هذا وقد أخذت اللجنة الدستورية تراجع نصوص الدستور ولائحة الانتخاب ، ولكن وقع ما حال دون صدور المرسوم الخديوى بهما ، ذلك أن الدول الأوربية ائتمرت بالخديو اسماعيل وسعت فى خلعه من العرش حتى تم لها ما أرادت ، وتولى توفيق باشا مسند الخديوية ، ثم اجتمع مجلس النواب فى ٦ يونيه ١٨٧٩ برآسة مصطفى بك وهبى وتليت افادة وزارة الداخلية ومضمونها أن النظر فى اللائحتين يقتضى زمنا طويلا ولذلك ترى الترخيص لحضرات الأعضاء (بالتوجه الى بلادهم وبعد تاريخه ينظر فيما يلزم) أى أن الحكومة قررت فض مجلس النواب ، .... ثم تعطلت الحياة النيابية فى أوائل عهد توفيق باشا نحو سنتين .

وقبل عزل اسماعيل كان الشعب المصرى والحاكم فى جانب واحد ضد اتجاهات ونوايا الأجانب .

هنا كانت وحدة الشعب المصرى فى أبهج مناظرها ، فلم يكن هناك بين الشعب اتجاهات معارضة أو أحزاب لها رأى آخر يختلف عن الاتجاهات الشعبية فى سلطة الشعب على الوزراء وفى اختيار نظامه بنفسه .

وكان الجيش ، كما هو واضح من توقيع ٩٣ ضابطا على المطالب الوطنية ، متحدا مع المطالب الشعبية مثله فى ذلك مثل الموظفين والأعيان والتجار ورجال الدين الاسلامى والمسيحى والاسرائيلى .

على أنه كان للشعب وللحاكم عدو واحد هو التدخل الأجنبى ولأجل القضاء عليه تسلم الشعب بموافقة الحاكم وباتحاد معه ، لواء المقاومة بالطرق الدستورية .

ولم يكن ليخفى على أطماع الدول الاستعمارية معنى هذه الوحدة أبدا .

فلو كانت هذه الدول قد انتظرت الى ما بعد اقرار الدستور وقيام الشعب بانتخاب نوابه على هذا الأساس ، لما تمكنت انجلترا من أن تحتل مصر ؛ أو حتى من عزل اسماعيل .

وذلك ، أنهـا فى هذه اللحظة ؛ ستجد مقاومة شعبية يقودها نواب الأمة الدستوريون .

أى أنها كانت ستجد أمة متحدة حول نظامها وحول قياداتها .

ولا تتمكن أى دولة مهما بلغت من القوة والجبروت ما بلغت أن تهزم شعبا ، مهما كان أعزل ، ما دام متحدا حول نظامه وبقيادة قادته القدوة .

ومن هنا كان أهم ما يشغل بال المستعمر هو هذه الوحدة المصرية المتوقعة وكيفية تشتيتها عن النظام وعن القيادة وعن نفسها .

اذ بهذا فقط سيجد مصر ليست بحاجة الى مجـرد طلقة واحدة من مدافعه لدخولها .

ولم يكد شريف باشا يعرض مشروع القانون الأساسى (الدستور) فى بداية حكم توفيق حتى وقعت أزمة سياسية (افتعلتها) الدولتان الاستعماريتان انجلترا وفرنسا ، واتفاقهما على دس الدسائس والقاء أسباب الفتنة والانقسام بين الخديو (توفيق) والنواب ، تمهيدا لتحقيق أطماعهما فى البلاد ، وذلك أنه خلال يناير سنة ١٨٨٢ قدم وكيلا انجلترا وفرنسا الى الخديو مذكرة من دولتيهما تتضـمن اتفاقهما على تأييد سلطة الخديو عندأى صعوبات من شأنها عرقلة مجرى الأعمال العامة فى مصر . وأن الحوادث الأخيرة بالديار المصرية وأخصها صدور المرسوم الخديوى بعقد مجلس النواب قد هيأت الفرصة للحكومتين لاتفاقهما على منع ما عساه أن تستهدف له حكومة الخديو من أخطار .

وقد أثارت هذه المذكرة سخط الأمة ، واعتبرها الزعماء والنواب تدخلا من الدول الأوربية فى شئون مصر الداخلية ، واعتداء على استقلالها وتحريضا للخديو على مقاومة الأمة ، وذهبت أفكار الناس مذاهب شتى فى الباعث على ارسال تلك المذكرة ، وتبين أن غرض الدولتين خلق أسباب غير مشروعة للعبث بالدستور قبل أن يتم وضعه ، فقد أعقب المذكرة اعتداء آخر ، وهو طلب الدولتين أن لا يخول مجلس النواب حق تقرير الميزانية ، وفى خلال ذلك كانت اللجنة التى ألفها مجلس النواب لفحص القانون الأساسى (الدستور) تتولى مهمتها .

ووقع الخلاف (المتوقع) بين شريف باشا رئيس الوزراء الذى رأى درءا للأزمة السياسية ، أن لا يبت مجلس النواب قراره النهائى فى المادة المتعلقة بالميزانية ويرجئها حتى تنجلى الأزمة ، وبذلك يتفادى التدخل المسلح من جانب انجلترا وفرنسا ، غير أن محمود سامى البارودى ، وكان وزيرا فى وزارة شريف باشا ويطمع فى رئاسة الوزارة، بل فى العرش نفسه ، زين للعرابيين أن يتشبثوا برأيهم ، ويرفضـوا التأجيل ، ويقروا مادة الميزانية فورا ، كما وضعتها اللجنة ، وقد رتب البارودى على هذه الخطة وصوله الى رآسة الوزارة ، لأنه كان مفهوما أن رفض النواب رأى شريف باشا يؤدى طبعا الى استقالته ، فيدعى البارودى الى تأليف الوزارة الجديدة ، وقد كان ما رتبه فاستقالت وزارة شريف فى ٣ فبراير سنة ١٨٨٢ وفى عهـدها تلاحقت الأحداث ، ثم استقالت هى أيضا ، وأعقبتها وزارة راغب باشا ، وفى عهدها ضرب الاسـطول الانجليزى مدينة الاسكندرية بالمدافع يوم ١١ يوليه سـنة ١٨٨٢ م فكان ذلك اليوم المشئوم بدء الاحتلال .

ولعل الخديو توفيق وجد ضالته فى الاحتلال البريطانى لايقـاف التطلعات الشعبية فى فرض نظامها المختار فى الاقتصاد والسياسة وكافة أمورها على الحـاكم وعلى كل أعضاء المجتمع المصرى حيث كان الرجل يميل كأسلافه ، الى التسلط وحده على الشعب المصرى وعلى مقدراته ويدلك على ميـول هذا الرجل حواره مع السـيد جمال الدين الأفغانى الذى كان صديقا للخديو قبل ولايته .

ففى اجتماع تم بين الخديوى توفيق وجمال الدين الأفغانى قال الخديوى :

مع الأسف أن أكثر الشعب خامل جاهل ، لا يصلح أن يلقى عليه ما تلقون من الدروس والأقوال المهيجة ، فيلقون بانفسهم والبلاد فى تهلكه .

فقال السيد / جمال الدين مجاوبا (ليسمح لى سمو أمير البلاد أن أقول بحرية وأخلاص أن الشعب المصرى كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده ، ولكنه غير محروم من وجود العالم العاقل . فالنظر الذى تنظرون به الى الشعب المصرى وأفراده ينظرون به لسموكم . وان قبلتم نصـح هـذا المخلص ، وأسرعتم فى اشراك الأمة فى حكم البلاد على طريق الشورى فتأمرون باجراء انتخاب نواب عن الأمة لسن القوانين وتنفذ باسمكم وبارادتكم ، يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم .

فاسرها الخديوى فى نفسه ، وترقب أقرب فرصة للخـلاص من السيد جمال الدين الأفغانى) (٥٥) .

د ـ فى النظم السياسية المفروضة فترة الاحتلال البريطانى :

تمتد هذه الفترة من تاريخ احتلال انجلترا لمصر سنة ١٨٨٢ حتى ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ .

غير انه يعن لنا أن نتساءل عن أسباب هزيمة الجيش المصرى أمام القوات الاستعمارية الانجليزية بالرغم من انتصار المقاومة الشعبية المصرية على الغزاة الفرنسيين والانجليز ؟

وسوف تجد أن السبب الأوحد ، أو الأساسى لهذه الهزيمة هو الفرقة والانقسام .

هذا هو الداء المميت لهذه الأمة ولو برأت منه لظهر العجب .

ولقد نجح الاستعمار فى بث الفرقة فى صفوف الأمة المصرية قبل أن يطأ أرض مصر ، كما أن القيادات نفسها تطاحنت وتصارعت ولم تتحد .

وفى هذا يقول الأستاذ عبد الرحمن الرافعى (٥٦) .

(وأول العوامل لفشل الثورة العرابية هو الانقسام الذى وقع فى الصفوف بين الخديو والعرابيين ، فان هذا الانقسام جعل من البلد معسكرين متحاربين ، معسكر الثورة ، ومعسكر الخديو ، فوقع الاصطدام بينهما ، وتفاقم أمره ، وانتهز الانجليز الفرصة فى وجوده ، وما أدى اليه من ضعف وتخاذل ، فحققوا أغراضهم الاستعمارية بالتدخل فى شئون البلاد ثم احتلالها ، ولو عولجت أسباب الفرقة والانقسام بالحكمة وحسن السياسة لسارت الثورة على صراطها المستقيم ونجت البلاد من الاحتلال .

صحيح أن الثورة فى ذاتها بدأت بالتصادم مع الخديو ، فما واقعة قصر النيل ، ثم واقعة عابدين الا من مظاهر هذا التصادم وذلك الانقسام ، فكيف يمكن اذن تعليل اخفاق الثورة بالانقسام وهو هو منشأ الثورة ؟

نقول نعم ، ان الثورة ظهرت أول ما ظهرت بالتصادم مع الخديو ، وهى وليدة هذا التصادم أو هذا الانقسام ، ولكن الحكمة كانت تقتضى بعد اجابة مطالب العرابيين فى واقعة عابدين ونزول الخديو على ارادتهم أن يعالجوا الشئون العامة بالأناة والتريث ، ويعملوا على رأب الصدع ، وتوحيد الكلمة ، وازالة أسباب الخلاف بينهم وبين الخديو ، ولكنهم على العكس لم يأبهوا لهذه الناحية ، وداخلهم الشىء الكثير من الغرور ، وعدم النظر فى العواقب ، فأخذ الخلاف يتسع ويتفاقم ، حتى كان من أمره أن أعتزم العرابيون خلع الخديو وتحدثوا فى ذلك علنا ، وهذا أقصى مظاهر التنازع والشقاق بين أبناء البلد الواحد .

كان لهذا الانقسام من العواقب الوخيمة ما لا يغيب عن البال ، فقد أدى الى التخاذل فى ساعة الخطر ، وتضعضع قوة المقاومة ، بل هو السبب المباشر فى الاحتلال الانجليزى ، اذ أن الانجليز تذرعوا لهذا الاحتلال بدعوى تأييد سلطة الخديو ، وحماية العرش ، فجاسوا خلال الديار ، وحاربوا العرابيين ، وفى صفهم معسكر الخديو والحكومة ، وكان يجدر بزعماء الثورة أن يتداركوا هذه الحالة ، ويتلافوا أسباب الانقسام ، تفاديا من التدخل الأجنبى ، ولم يكن لهم عذر فى أن يجهلوا المطامع

الاستعمارية التى تكتنف مصر ، فان حوادث ذلك العصر ، والعصر الذى سبقه ، تكشف عن نيات انجلترا ، فى تطلعها الى احتلال وادى النيل ، وقد تجلت هذه النيات منذ أن حاربت نابليون فى مصر ، سنة ١٧٩٨ ، وحين أسس محمد على الدولة المصرية الحديثة ، وما فتئت تعمل على تحقيق أغراضها الاستعمارية فى عهد محمد على وخلفائه ، وكان شراؤها أسهم مصر فى قناة السويس سنة ١٨٧٥ ، الخطوة الأولى نحو الاحتلال ، فهذه الحوادث ، وغيرها ، كان من شأنها أن تبصر العرابيين بالخطر الذى يتهدد البلاد ، وتدعوهم الى تلافى أسباب الانقسام ، الذى لا شك فى أنه يوهن قواها فى ساعة الخطر ، وكان لهم من احتلال تونس سنة ١٨٨١ ، نذير بما تستهدف له مصر من مطامع الاستعمار الأوروبى عامة ، ولكنهم لم يتبصروا فى العواقب ، فمهدوا بقصر نظرهم السبيل الى اخفاق الثورة ووقوع الاحتلال .

فالانقسام هو أول العوامل فى اخفاق الثورة .

ثم يأتى بعد هذا العامل افتقار قيادات الثورة للكفاءة الحربية مما مكن الانجليز من الانتصار ، وافتقار هذه القيادات أيضا الى البطولة والتضحية فى معظم زعمائها . فعرابى ذاته لم يشترك فى واقعة واحدة من وقائع الحرب ، ثم كان التسليم والخضوع من أكبر العوامل فى اخفاق الثورة وانحلالها لأن الأمم تتأثر حتما بنفسية زعمائها ومواقفهم ، فمواقف التضحية والبطولة تبعث فى الأمة روح التضحية والبطولة ، ومواقف التسليم والخضوع تقضى على هذه الروح حتى فى النفوس التى كانت مشربة بها ، أو مستعدة لها ، فالزعامة : تطبع الأمة بطابعها ، ان خيرا فخير ، وان شرا فشر ، ولذلك لا تعجب من ضعف المقاومة التى لقيها الانجليز حين احتلالهم مصر ، فان زعماء الثورة كانوا أول من استسلم فى ساعة الخطر ، وكانوا القدوة السيئة للأمة فى الخضوع والاستسلام ، وقد ظهر ضعفهم النفسى فى المحاكمة ، اذ أخذ كل منهم يتنصل من تبعة الثورة .

قارن بين معركة (التل الكبير) سنة ١٨٨٢ ومعركة الأهرام سنة ١٧٩٨ فى أول عهد الحملة الفرنسية ، نجد الفرق بينهما كبيرا ، وكلتاهما انتهت بالهزيمة ، وقد فاز فيها الغزاة المحتلون ، لكن المقاومة التى بذلها المصريون فى معركة الأهرام (ضد الحملة الفرنسية) تعد آية فى البطولة ، على حين كانت معركة التل الكبير وصمة فى تاريخ مصر ، وقارن أيضا بين سلسلة المعارك والثورات التى هبت فى وجه الفرنسيين ، رغم انتصارهم فى موقعة الأهرام ، وبين الانحلال الذى أطبق على البلاد بعد معركة التل الكبير نجد الفرق بين العهدين عظيما ، فالقاهرة قد ثارت فى وجه الفرنسيين مرتين تحملت فى خلالهما ما تحملت من الضحايا والأموال ، ونشبت المعارك مدى سنتين فى الوجه البحرى ، والوجه القبلى ، ولم يستطع الفرنسيون ترسيخ أقدامهم طوال عهد احتلالهم ، على حين كانت واقعة التل الكبير خاتمة المقاومة فى سنة ١٨٨٢ .

قد يختلف الباحثون فى أسباب هذا التباين الكبير موقف الأمة سنة ١٨٨٢ ، وموقفها من الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ ، ولكن لا شك أن أهم سبب لانحلال المقاومة فى أوائل عهد الاحتلال الانجليزى ، هو روح الخضوع والاستسلام الذى بدأ من زعماء الثورة ، فان هذه الروح قد تسربت من نفوس الزعماء الى صفوف الأمة بتأثير الزعامة ، فركنت الأمة الى الخضوع والاستسلام ، وظلت هذه الروح غالبة عن الأمة سنين عديدة ، فهزيمة التل الكبير وما ظهر فيها من الجبن والاستسلام لم تكن هزيمة عسكرية فحسب ، بل كانت كارثة قومية . وهزيمة معنوية للأخلاق والوطنية ، ولم تقتصر نتائجها على احتلال الانجليز العاصمة دون أية مقاومة بل كان من آثارها سريان روح الخضوع واليأس فى نفوس المصريين ، والقضاء على روح البذل والتضحية ، التى كانت الأمة مستعدة لها . ومن هنا جاء الانحلال الوطنى العام الذى أصاب البلاد عقب اخماد الثورة العرابية وبقى مخيما عليها نيفا وعشر سنوات ، حتى أيقظتها صيحة زعيم الوطنية الأول مصطفى كامل رحمه الله .

ويضاف الى هذه الأسباب خيانة الخديو توفيق وانضمامه الى الانجليز ، ثم الخيانة (وهى أسوا صور للفرقة) وبخاصة فى موقف الجيش ، اذ تأثر فريق من الضباط بأوامر الخديو وتزعزعت ميولهم نحو الثورة ، وجاءت على أثر ذلك خيانة طائفة منهم وطائفة أخرى من الأعيان والبدو مما هيأ للانجليز التغلب على الجيش المصرى فى معركة القصاصين وواقعة التل الكبير .

ثم لا يخفى أن الاحتلال نفسه كان يكمن فى نوايا الانجليز .

وبطبيعة الحال كان أول عمل للانجليز . هو ايقاف العمل بالدستور والتمثيل الشعبى ومجلس النواب وأنشئوا مجلسا أسموه مجلس شورى القوانين يتكون من مجموعة من الموظفين ، أو ممن يدينون بوجودهم فى المجلس لرضاء المحتل .

وكان هذا المجلس مؤلفا من ثلاثين عضوا منهم أربعة عشر عضوا تعينهم الحكومة وفيهم الرئيس وأحد الوكيلين ، وأعضاء منتخبون من الحكومة وعددهم ستة عشر ، ومنهم أحد الوكيلين ، وكان انتخابهم على ثلاث درجات اذ كان مجلس المديرية (المحافظة) هو الذى يتولى انتخاب عضو مجلس شورى القوانين عن المديرية (المحافظة) ذاتها ، ولم يكن لهذا المجلس سلطة قطعية فيما يعرض عليه من الشئون .

وبهذا تم واد حركة حكم الشعب نفسه بنفسه التى ظهرت فى أواخر عصر اسماعيل وأصبح الأجنبى هو الحاكم بأمره عن طريق موظفيه الذين اطلق عليهم خديو أو نظار (وزراء) .... الخ .

وينجح المرحوم مصطفى كامل فى ايقاظ النعرة الوطنية والقومية المصرية بخطبة وباخلاصه وبالتوعية التى مارسها فى كل من اتصل به وفى الصحافة خاصة فى جريدة اللواء .

ويجيء من بعده محمد فريد وسعد زغلول ليقودا التوعية الشعبية مما ينتهي الى ثورة الشعب الجماعية سنة ١٩١٩ ٠

وهذه الثورة شملت القطر المصري كله واستمرت عدة أشهر وقدمت مصر فيها كل تضحية وفداء وانى أنقل هنا ملخصا لمشاهد هذه الثورة كما كتبه الأستاذ عبد الرحمن الرافعي لأن هذه الثورة هي رد للكرامة المصرية التي جرحت عند احتلال الانجليز لمصر دون مقاومة تذكر فضلا عن أنها ثمار غرس هؤلاء القادة الذى لم يهنوا أو يتزعزع ايمانهم فى قيادة مسيرة الأمة المصرية لتحقيق آمالها فى الحياة الأفضل(٥٧) ٠

(تتبعت منذ نوفمبر سنة ١٩١٨ حركة تاليف الوفد المصرى الذى تقرر تشكيله من بعض الزعماء بقيادة سعد زغلول للتفاوض مع الانجليز على الجلاء) ٠

وسعيت جهدى مع الساعين فى التوفيق بين الوفد والحزب الوطنى ، وعلى أن يمثل الحزب فى هيئة الوفد ، وجرت مفاوضات بينهما فى هذا الصدد ، وذهبت يوما لمقابلة المغفور له سعد باشا زغلول ، للتحدث اليه فى هذا الشأن (بصحبة بعض قيادات الحزب الوطنى) ٠ وقبل الحزب مبدأ تمثيله فى هيئة الوفد ، ولكن وقع الخلاف بينه وبين الوفد على أشخاص الأعضاء الذين يمثلونه ، وانتهى الأمر الى عدم الاتفاق على أشخاصهم ، واختار الوفد من تلقاء نفسه مصطفى النحاس والدكتور حافظ عفيفى باعتبار أنهما يمثلان مبادىء الحزب الوطنى ؟

وكنت منذ اشتداد الحركة اقضى معظم الأيام بالعاصمة ، وشهدت وقائع الثورة الأولى ، وامتدادها الى الأقاليم ، فرأيت بعثا جديدا ، رأيت روح الاخلاص والتضحية تعم طبقاتها ، بعد أن كانت من قبل محصورة فى دائرة ضيقة ٠

(حدث الاضراب فى المدارس يوم ٩ مارس سنة ١٩١٩ ، وخرج الطلبة من معاهدهم متظاهرين ، محتجين ، ومنادين بالحرية وبالاستقلال ، فانتعشت لذلك نفوسنا ، اذ رأينا فى هذا الشباب جيش الاخلاص الذى يغضب لمصر ، ويثور من أجلها ٠

(حقا لم يكن هذا أول اضراب من نوعه ، فقد شهدت من قبل اضراب طلبة الحقوق ، وكنت منهم — فى فبراير سنة ١٩٠٦ احتجاجا على نظام التضييق الذى وضعته لهم وزارة المعارف وقتئذ ، وكان هذا الاضراب موجها ضد سياسة الاحتلال فى التعليم ، وهو أول اضراب من نوعه ، ولكنه اقتصر على طلبة الحقوق ، ولم يشاركهم فيه طلبة المدارس الأخرى ، واكتفوا باظهار العطف عليهم ، وانتهى برجوع طلبة الحقوق الى مدرستهم فى مارس من تلك السنة ، لقاء وعد من المستشار القضائى لوزارة الحقانية بالنظر فى طلباتهم ٠

(وشهدت بعد ذلك وقف الدراسة فى جميع المدارس يوم تشييع جنازة الزعيم (مصطفى كامل) وخروج الطلبة جميعا من معاهدهم فى ذلك اليوم المشهود (١١

فبراير سنة ١٩٠٨) اظهارا لشعورهم . فكان أول اضراب عام حدث في مدارس العاصمة جميعها ، وكان جزءا من المظاهرة الهائلة التي تجلت في موكب الجنازة ، واشتركت فيها طبقات الشعب كافة ، توديعا وتقديرا لزعيم الوطنية الأول .

(وقد رأيت في اضراب ٩ مارس ١٩١٩ صورة مصغرة من اضراب ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ ، فكأن شباب سنة ١٩١٩ قد تلقى وحي الوطنية من مشهد ذلك اليوم العظيم .

(عادت بي الذكرى الى مظاهرات اشتركت فيها ، واخرى شهدتها منذ سنة ١٩٠٨ ، كمظاهرة طلبة الحقوق سنة ١٩٠٨ ، لمناسبة عرض جيش الاحتلال في ميدان عابدين . وموكب الذكرى الأولى لوفاة مصطفى كامل (١١ فبراير سنة ١٩٠٩) ، ومظاهرات الاحتجاج على تقييد حرية الصحافة واعادة قانون المطبوعات (مارس - ابريل ١٩٠٩) ومظاهرات المعارضة في مشروع مد امتياز قناة السويس (يناير - ابريل ١٩١٠) ومظاهرات الاحتجاج على الكولونيل تيودور روزفلت الرئيس الأسبق للولايات المتحدة لمناسبة خطبته في مناصرة الاحتلال (مارس ١٩١٠) ، ومظاهرات الشباب تكريما للمرحوم محمد فريد (ديسمبر ١٩١٠) ، ومظاهرات المطالبة بالدستور سنة ١٩١٠ و ١٩١١ ومواكب الذكريات السنوية لوفاة مصطفى كامل ، وغير ذلك من المظاهرات الوطنية . وأخذت أقارن بينها وبين مظاهرات سنة ١٩١٩ ، فرأيت أن غرس الوطنية قد نما واشتد على تعاقب السنين . اذ أن مظاهرات سنة ١٩١٩ وان كانت استمرارا للمظاهرات السابقة ، الا أنها في مجموعها أضخم منها ، وأكثر جموعا وجنودا ، ولم تقتصر على العاصمة ، بل عمت مدن الوادي وقراه ، وبدا لي فيها أن روح التضحية والفداء قد تغلغلت في نفوس الشعب، أكثر مما كانت من قبل ، وكان هذا دليلا على تطور روح الوطنية ، واتساع مداها ، فقد انتهت مظاهرة ٩ مارس باعتقال نحو ثلثمائة من الطلبة . وكان الذين يسيئون الظن في وطنية هذه الأمة يعتقدون أن هذا الارهاب كفيل باخماد الحركة في مهدها ، وأخذوا في صحفهم المناصرة للاحتلال يزجون الى الشباب نصائح معكوسة ، بحثهم على الخضوع والاستسلام ، تحت ستار الاشفاق على مستقبلهم ، ولكن هذه الظنون تلاشت أمام استمرار الاضراب ، واتساع المظاهرات ، واستمرارها في الأيام التالية ، بالرغم من أن السلطة العسكرية قد تصدت لها باطلاق الرصاص على المتظاهرين منذ يوم ١٠ مارس ، فلم يرهب الناس القتل ، وأخذوا يألفون رؤية الدم المسفوك في الشوارع ، وتقبل الشعب ، شبابه وسائر طبقاته ، التضحية ، بلا خوف ولا تراجع . فكان لهذه التضحية وهذا الاجماع الرائع أثرهما في رفع صوت مصر عاليا مدويا ، في أرجاء العالم ، بعد أن كان خافتا طيلة سني الحرب (العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٩) .

وأخذت الصحف التي كانت تمالىء الاحتلال ، وتزدري الأمة طوال السنين ، تغير من أسلوبها ، وتتملق الشعب ، وتكتب عنه وعن مطالبه الوطنية بلهجة جديدة ، ملؤها التقدير والاعجاب .

(رأيت الجماهير يشتركون فى المظاهرات ، ولا يبالون ما يستهدفون له من الأخطار ، كانوا يواجهون رصاص البنادق والمدافع الرشاشة بشجاعة لا تقل عن شجاعة الجند فى ميادين القتال ، وسقط كثيرون منهم قتلى أثناء المظاهرات ·

(كان اذا سقط رافع العلم فى مقدمة موكب المظاهرات مضرجا بدمائه ، تقدم غيره ورفع العلم بدله ، مناديا بحياة الوطن ، فيردد اخوانه نداءه ·

(كان الجرحى منهم لا ينفكون ينادون بحياة مصر ، والدم ينزف منهم ، وكثيرا ما شاهد المارة مركبات الاسعاف تحمل جريحا فى مظاهرة يسيل دمه ، ومع ذلك يرفع ستار المركبة وهى تسير الى مركز الاسعاف ، ويطل على الناس وينادى (نموت ويحيا الوطن) ·

وتبدلت حالة الشعب النفسية بتأثير الثورة ، وحاكى فى التضحية أرقى الأمم وطنية واخلاصا ·

ويتصل بهذا السياق ان رجال البوليس قبضوا فى احدى المظاهرات على جماعة من الطلبة المتظاهرين ، وساقوهم الى القسم واعتقلوهم به ، فلم يكد يرى اخوانهم هذا المشهد حتى تقدموا جميعا الى القسم وطلبوا أن يقبض عليهم كلهم ، لأنهم قد اشتركوا مع اخوانهم المعتقلين فيما يسميه البوليس جريمة ، وانهم شركاء معهم فيها ولا يريدون أن يختص زملاؤهم بشرف التضحية والألم فى سبيل الوطن ، فكان لهذا التضامن البديع وهذه التضحية أثر بالغ فى نفوس الشعب ·

(كانت هذه المشاهد وغيرها دليلا ناهضا على أن الحركة الوطنية قد خطت خطوات واسعة الى الامام وقوى فيها عنصر الاخلاص الذى هو أساس الوطنية الحقة ، فان هؤلاء الذين استهدفوا للقتل والأذى لم يكونوا ينتظرون جزاء — ولا مكافأة على جهودهم ، بل كانوا يشعرون ، وهم يجودون بحياتهم ، انهم يؤدون واجبا نحو بلادهم فحسب ، وتلك لعمرى أقصى درجات الاخلاص والبطولة ·

ومن المشاهد التى أثرت فى نفسى مناظر جنازات الشهداء ، فقد كانت هائلة حقا ، كانت الجموع تسير فيها دون أن تعرف شخصية الشهيد أو الشهداء الذين تشيع جنازاتهم ، بل دون أن يعرف المشيعون بعضهم بعضا ، كان يكفى أن يذاع أن جنازة أحد الشهداء ستشيع فى ساعة ما ، من مكان ما ، حتى يجتمع الألوف من الناس من مختلف الأوساط والطبقات يسيرون فيها ، يعلوها الحزن العميق ، لم تكن تسمع فيها عويلا أو نحيبا ، بل كنا نرى جلالا وخشوعا ، وحزنا رهيبا ، يتخلله الهتاف بين آونة وأخرى بحياة الشهداء والتضحية ، وضحايا الحرية ، فكانت هذه الجنازات مظاهر رائعة لتقدير الشعب معانى التضحية والبطولة ، كانت بعثا جديدا، لحياة جديدة ·

كان الظن عندما وقعت حوادث الثورة الأولى أنها مقصورة على العاصمة ، ولكن لم تلبث أن غمرتنا الأنباء من مختلف الأقاليم ، بأن مظاهرات فيها ، على غرار مظاهرات القاهرة ، وزاد عليها قطع السكك الحديدية ، وشهدنا بأعيننا قطع المواصلات بين

العاصمة والأقاليم ؛ كما انقطعت بين أحياء القاهرة نفسها . فأدركنا اننا أمام ثوره عارمة شملت البلاد من أدناها الى أقصاها وفى الحق اننى مع ما أشعر به من ميل دائم الى التفاؤل . لم أكن أتوقع أن تقوم فى البلاد ثورة فى مثل هذه الظروف . وبمثل هذا الاتساع ، وبتلك السرعة والقوة والروعة التى تجلت فى سنة ١٩١٩ . ولم أكن أنا وحدى فى هذا الشعور . بل ان (فريدا) رحمه الله . حين بلغته وهو فى منفاه أنباء الثورة ، عدها من الحوادث المفاجئة ، وقال عنها فى مذكراته (من الأمور التى كانت غير منتظرة ما حصل فى مصر فى شهرى مارس وابريل من هذه السنة (١٩١٩). وهى قيام ثورة عامة اشتركت فيها الأمة بجميع طبقاتها ، وقال عنها أيضا (ان هذه الحركة لم تكن فى الحسبان ، وأن ما أظهره ، المصريون من التضامن والاتفاق ما كان أحد يحلم به) .

(تابعت حوادث الثورة ، وارتسمت فى ذهنى صورة واضحة عنها ، وأدركت مع الأيام عظم مداها .

(شعرت أمام هذه المشاهد بغبطة كبيرة تتملكنى ، اذ أدركت أن روح الحياة قد سرت فى الأمة ، وانها أخذت تنفض عنها أكفان الخضوع والاستسلام ، ورأيت فى اتساع الحركة ، واتحاد الصفوف تحت لوائها ، تحقيقا للوحدة التى طالما كنا ننشدها ، كما رأيت تعدد مظاهر التضحية نجاحا لدعوة الاخلاص فى الجهاد ، تلك الدعوة التى هى أساس كل نهضة قومية ، وسبيل النجاح لكل أمة تريد لنفسها الحياة والعزة .

(ولما حدثت مظاهرة المنصورة يوم ١٨ مارس سنة ١٩١٩ ، تلك المظاهرة الدامية التى أطلق فيها الرصاص على المتظاهرين ، وقتل تسعة عشر منهم ، كنت فى القاهرة . وعلمت وأنا بها أن قائد القوة العسكرية البريطانية فى تلك المنطقة أنذر سكان المدينة بأنه اذا حدثت مظاهرة أخرى ، فانه سيلقى مسئوليتها على عاتق أربعة منهم عينهم بأسمائهم ، وهم ــ محمود بك نصير ، والدكتور محمود سامى ، والأستاذ عبد الوهاب المدعى وأنا ، وانه سيأمر بضربنا بالرصاص فى حالة قيام أية مظاهرة .

وكانت المواصلات منقطعة ، وكنت معتزما العودة الى المنصورة ، لأتعهد الروح العامة فيها ، (وكانت السكك الحديدية مقطوعة مما اضطرنى الى الذهاب الى المنصورة بطريق النيل فى احدى المراكب .

(وأثناء سفرنا) شاهدنا على الجانبين معالم الثورة ومظاهرها ، وما أحدثته من تغيير فى نفسية الشعب ، فكنا نرى الأهلين فى كل ناحية ، نساء ورجالا ، شيبا وشبانا ، يحيوننا على الجانبين ، دون أن يعرفوا اشخاصا ، وينادون بهتافات لم نعهدها من قبل فى الطرق الزراعية ، وعلى شواطىء الترع ، فكنا نسمع نداء : لتحى مصر ، ليحى الاستقلال ، لتحى الثورة . واسترعى سمعى بوجه خاص نداء كنت أسمعه بين حين وآخر ، (ليحى العدل) ، وقد تساءلت أولا عما يقصد القوم من هذا

النداء ، وهل ظنونا قضاة جئنا لنحكم بينهم بالعدل ؟ ثم أدركت شعورهم الحقيقى . وأنهم لا يطلبون العدل لأنفسهم ، بل يطلبونه لمصر ، فان مصر لم تكن تطالب الا بالعدل والمساواة بينهـا وبين الأمم الحرة المستقلة ، وليس من العـدل فى شىء أن تهـدد حريتها ، وتسلب حقوقها . فأكبرت هذا الشعور تفيض به نفوس القرويين ، ويدل على فطرتهم السليمة .

هذه الروح التى شاهدناها على طول الطريق ، هى غرس الثورة ونتيجتها ، وهى من ناحية أخرى عتادها وعدتها ، وهى علامة الحياة فى شعب نهض نهضة قوية يطالب بحقوقه المهضومة .

(كانت نفوسنا تفيض بشرا وفرحا ، اذ شاهدنا هذا التغير فى نفسية الشعب ، وشعرت بأن آمالا قديمة كانت تجول فى نفسى ، قد بدأت تتحقق ، وانه لا يحق لنا أن نيأس من هذه الأمة ، بل هى من أكثر الأمم استعدادا للرقى ، وانما ينقصها أن توجه دائما توجيها صادقا ، نحو المثل العليا ، وهى مستعدة لتلبية كل دعوة صالحة صادقة ، والعيب الذى نشكو منه أحيانا لا يرجع الى جمهرة الشعب ، بل هو عيب الخاصة أحيانا ، والعامة أيضا ، فى انصرافهم فى كثير من المواطن عن المثل العليا ، الى الأغراض الشخصية ، وهذا العيب يزول بالقدوة الصالحة ، يبدأ بها الخاصة أولا ، ثم يقلدهم فيها العامة ، فالخاصة هم أول المسئولين عن حالة الأمة ، وعلى الخاصـة أن ترفع من مستواها الأخلاقى ، وأن تصلح نفسها ، ثم تعمل على اصـلاح أخلاق الشعب وتهذيبه وترقيته ، فانهم المطالبون بهذا الاصلاح) .

وقد يكون السبب المباشر لثورة ١٩١٩ هـو اعتقال سـعد زغلول وصحبه ، ولكن أسبابها الأصلية ترجع الى عدة سنوات مضت ؛ ولا يمـكن القول بأن اعتقال سعد زغلول هو السبب للثورة ، فقد اعتقل للمرة الثانية فى ديسمبر سنة ١٩٢١ ، وكانت منزلته من الشعب قد عظمت وعلت ، ومع ذلك لم تقم فى البلاد ثورة للافراج عنه ، فاعتقاله أول مرة لم يكن السبب الوحيد لثورة سنة ١٩١٩ . وانما كان بمثابة الشرارة التى أشعلت النار فى بركان الثورة .

كانت ثورة سنة ١٩١٩ ثورة سياسية بكل معانى الكلمة ؛ فأهدافها سياسية ؛ وتطوراتها سياسية ، ومن هنا كانت أسبابها العامة سياسية أيضا .

صحيح أن لها الى جانب ذلك أسبابا أخرى اقتصادية واجتماعية ، ولكن كانت أهم الأسباب هى الأسباب السياسية .

(فقد ظل الشعب المصرى السنين الطوال يعانى احتلالا أجنبيا ، أصيبت به

البلاد منذ سنة ١٨٨٢ ، والاحتلال الأجنبى فى ذاته يدعو الى السخط والتبرم عند كل أمة تشعر بشىء من الكرامة والحياة ٠

شهد الاحتلال على أن تعاقب الأعوام يوطد أقدامه ، ويتغلغل فى شئون الحكومة ، كبيرها وصغيرها ٠

شهد السعى لفصل السودان وسلخه عن جسم الوطن ، واستئثار انجلترا بحكمه ، وتقطيع أوصال الدولة المصرية التى امتدت على طول مجرى النيل العظيم ٠

شهد الغاء الجيش المصرى ، والبحرية المصرية ، وتجـريد البـلاد من كل قوة حربية ٠

شهد تعيين المستشارين الانجليز فى مختلف الوزارات ، واستئثارهم بالحكم والنفوذ ، واسناد كبرى المناصب الى البريطانيين ، فى مختلف المصالح والدواوين ٠

شهد مصرع الحكومة الأهلية ، واهدار الاستقلال ، شهد الغاء مجلس النواب وابطال النظام الدستورى الذى ناله من قبل ، والذى كان أداة لمقاومه التدخل الأجنبى والحد من سلطة الفرد ، فقد ألغاه الاحتلال سنة ١٨٨٣ ، وانشأ بدله نظاما صوريا قوامه مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ، ثم الجمعيـة التشريعيـة سنة ١٩١٣ ، وكلهـا هيئات شورية صورية لا حول لها ولا قوة ، ففقدت البلاد فى عهـد الاحتلال استقلالها ودستورها ، ورزحت تحت نظام حكم استبدادى خاضع للسيطرة الأجنبية ؛ فاجتمع عليها الاستبداد والاحتلال الأجنبى معا ، وهما شر ما تبتلى به الأمم فى حياتها القومية) ٠

انتهى كلام المؤرخ عبد الرحمن الرافعى ٠

لكن هل نجحت ثورة الشعب سنة ١٩١٩ وحققت أغراضها أم لم تنجح ؟ ٠

لقد قامت الثورة العرابية فى أوائل سنة ١٨٨١ لتقـرير النظام الدسـتورى أساسا للحكم فى البلاد وتحريرها من الحكم المطلق وكذلك لحماية البلاد من التدخل الأجنبى (بسبب الديون التى حملها لميزانية البلاد الخديو اسماعيل) ٠

ولكن الثورة العرابية فشلت بسبب الدسائس الاسـتعمارية وفرقة القيـادات وانتهت الأمور بالغاء الدستور وضياع الاستقلال معا ، وحل محلهما الاحتلال الأجنبى والحكم المطلق ٠

وفى ضوء الحقيقة التى يبحث عنها هذا الكتاب وهو كيفية تحقيق الوحـــدة بين جماهير الأمة المصرية لا فرق فى ذلك بين رجل وانثى أو بين حاكم ومحكوم أو بين صغير وكبير أو بين فقير وغنى أو بين جاهل ومتعلم ٠٠ الخ ٠

فى ضوء ذلك ، فان ثورة سنة ١٩١٩ لم تثمر وحدة الأمة المصرية ٠٠

فليس الدستور غاية للامة ، وانما الدستور هو وسيلة الشعوب لتحقيق وحدتها، اذ فى اطاره المختار ، يتم للشعب اختيار النظم التى يرتضيها فى مسيرة الحياة .

كما أن طرد المحتل ليس هدفا فى حد ذاته ، انما هــو وسيلة لتحــرير ارادة الأمة فى ممارسة سلطاتها واختصاصاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية بدون أى عوائق .

فاذا كان معيار رقى الأمم أو تخلفها هو فى مدى وحدتها أو فرقتها فان مصر ظلت فى فرقة بعد ثورة سنة ١٩١٩ تبعا للفرقة والصراعات بين قياداتها وبين القصر وبين أذناب القصر وأذناب الاستعمار حتى ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ .

أما أن يقال ان مصر حققت الدستور سنة ١٩٢٣ وأبرمت معاهدة سنة ١٩٣٦ لطرد الاحتلال ، فان دستور سنة ١٩٢٣ قد أشعل نار الفرقة والبغضاء والصراعات بين الأحزاب المختلفة لتنافسهم على الحكم فى ظل الاحتلال الأجنبى .

كما أن معاهدة سنة ١٩٣٦ قد احتفظت بالقوات البريطانية فى قناة السويس ثم لم تلبث هذه القوات أن انتشرت فى مصر كلها ابان الحرب العالمية الثـانية وفقا للمعاهدة المشئومة .

كما لم يعد السودان الى مصر .

ومن يتصفح تاريخ مصر بعد ثورة سنة ١٩١٩ لن يجد الا كلاما عن المفاوضات مع الانجليز ، ويتكرر فشل هذه المفاوضات ، حتى توقيع معــاهدة (الاحتــلال ســنة ١٩٣٦ ، كما لن يجد الا صراعا بين القصر والكثير من الوزارات والتدخل الانجليزى فى الحكم فى ظل معاهدة سنة ١٩٣٦) .

ولا أدل على سرقة الزعماء لثـورة الشعب ســنة ١٩١٩ وخيانتهم لمطالبها ، أن نفس الحزب (حزب الوفد) الذى سمى معاهدة ســـنة ١٩٣٦ معــاهدة الشرف والاستقلال هو نفس الحزب الذى قرر انهاء هذه المعاهدة سنة ١٩٥١ ثم يقوم الشعب بحرب غير متكافئة ضد القوات البريطانية فى منطقة قناة الســويس حيث يقــدم أرواحه فداء لتحرير وطنــه من الاحتــلال ، ثم يضرب العاملون المصريون عن معاونة الجيش البريطانى ويتركون أعمالهم به رغم ما كانوا يحصلون عليه من أجور كبيرة ، ثم تستمر هذه الحرب ضد قوات الاحتلال الى أن يرغم البريطانيون ؛ فى عهد جمال عبد الناصر ؛ على توقيع اتفاقية الجلاء عن مصر سنة ١٩٥٥ .

هذا من ناحية استمرار الاحتلال فعلا ، أما عن تأثير الاحتلال على الحكم قبــل معاهدة سنة ١٩٣٦ وما يعهدها فهو لا يخفى على أحد وكان رضى السفير البريطانى أو غضبه على الوزارة كاف لبقائها أو عزلها وما حادثة فبراير سنة ١٩٤٢ حيث فرض الانجليز على الملك تولية مصطفى النحاس رئيسا للوزارة ببعيدة عن الأذهان .

ومع ذلك فلم يأل الكثير من قادة هذه الأمة اى جهد لتوعيتها بحقوقها ، فقــد سخر الشيخ محمد عبده قلمه وفكره فى اصلاح عقيدة أفراد الشعب ، وتنقيتها من

الشوائب وتوعية النـاس وتثقيفهم · وبث الخلق القويم فى أنفسـهم ، وتشخيص آلامهم ووصف العلاج · وتنبيههم الى حقوقهم وواجباتهم ، وبيان مزايا الشورى ومضار الاستبداد ، ووجوب سيادة القانون والتزام الناس بنصوصه وروحه ·

وفى خطبـة للزعيم المرحوم محمد فريد يوم ١٩٠٨/٤/١٧ أنحى فيها باللائمة على الوزارة لاسـتسلامها للمحتلين (الانجليز) وأعلن أن الدسـتور والجـلاء هما المطلبان الأساسيان للبلاد ، ولكن لا دستور ما دام الانجليز رابضين فوق صدر مصر · ودعا الى الاتحاد والتضامن والتكاتف وأن تكون الأمة يدا واحدة وقلبا واحدا عندئذ يلين لها كل صعب ، وتنال أمانيها ومآربها ·

ولكن المحتل كان يرى أن الشعب المصرى متأخر ولم ينضج بعد حتى تسـلم له السلطة ·

فقام محمد فريد ، دفعا لهذه الاهانة : باستكتاب الشعب عرائض يطلبون فيها الدستور ترفع الى الخديوى ·

وقد بلغت التوقيعات على الدفعة الأولى من تلك العـرائض ٤٥٫٠٠٠ توقيع ، وعلى الدفعة الثانية ٤٥٠٠ توقيع ، رفعت كلها للحاكم ·

وقامت المظاهرات للمطالبة بالدستور ·

وكان المتظاهرون يوزعون منشورات للمطالبة بالدستور ·

وساهم الطلبة فى هذه الحركة ، فارسل طلبة الحقوق الى الخديوى فى نوفمبر سنة ١٩٠٨ ، لمناسبة عودته الى العاصمة ، برقية تهنئة ، ضمنوها رجاءهم اليه اعلان الدستور ومنح الأمة مجلسا نيابيا ، وحدثت فى محطة طنطا مظاهرة وطنية ، أثناء مرور الخديوى بها ، فى عودته الى العاصـمة ، حيث طبع الشـباب أوراقا صغيرة ، كتب عليها (تكرموا بمنحنا الدستور) وأطاروها فوق الرؤوس ، ووصل الصالون الخديوى جملة منها ، وأطلع عليها (الحاكم) وبدا عليه الاستياء ، وتظـاهر الطلبة فى العاصمة ، حين مرور الركب الخديوى ، هاتفين له وللدستور ، وكانوا ينادون الدستور يا أفندينا)(٥٨) ·

وقد سجن محمد فريد ونفى وشرد ولم يهن أو يضعف عن رفع صوت الشـعب فى الحصول على كل السلطات من الحكم المطلق ·

أى الدستور ·

وأخيرا (منح) الملك أحمد فؤاد هذا الدستور للناس سنة ١٩٢٣ ·

أى ، أنه من الوجهة النظرية ، تنازل عن كل سلطاته (تقريبا) ووضعها بين أيدى الشعب عن طريق ممثليه فى مجلس النواب ·

ولكن الحقيقة أن هذا الدستور الصادر مدة الاحتلال الأجنبى انما كان بموافقة الانجليز أنفسهم الذين عمدوا الى صرف جهود (ممثلى الشعب) عن المطالبة بالاستقلال .

وذلك أن الأحزاب السياسية تشكلت وتصارعت على الوصول الى كرسى الحكم ثم لحيازة المغانم لأنصارها بينما الشعب متفرق عنهم وغارق لأذنبة فى مشكلة الفقر والتخلف الى أن قامت ثورة يولية سنة ١٩٥٢ .

« قل العدالة ، اصنع العدالة ، لأن العدالة قوة قادرة لأنها عظيمة ، لأنها أبدية »

نصيحة من مصر القديمة

● الفصل الثالث

فى النظم الاقتصادية المفروضة

ا ـ فى النظم الاقتصادية المفروضة حتى عصر اسماعيل :

اتجه الشعب المصرى فى ثورته الاجتماعية الأولى سنة ٢٢٠٠ ق٠م وعصرملوك اهناسيا الى توزيع القوى السياسية والاقتصادية والدينية بعد أن كانت كلها مركزة فى أيدى الجالس على العرش ٠

وسبق أن لاحظنا اتجاه النظم المالية فى هذه المرحلة الى الحرية الاقتصادية والملكية الخاصة كما يستدل على ذلك من قصة الفلاح الفصيح حيث يتكون أبطالها من المزارع والتاجر والموظف كما تدلنا رسائل المواطن ـ حقا نخت أنه كان موظفا (كاهنا) ويمتلك بعض الأراضى الزراعية كما كان يقوم بالتجارة ٠

وتتبعنا بعد ذلك ، ما قامت به الاسرة الثانية عشرة من اعادة (فرض) تركيز كافة السلطات السياسية والاقتصادية والدينية فى أيدى الملك أى الحكومة واستمرار ذلك حتى نهاية الحكم الوطنى سنة ٣٣٢ ق٠م ٠

وبهذا أصبح الشعب المصرى عاملا بالجهاز الحاكم سواء بطريق مباشر أو بطريق غير مباشر ٠

صحيح أنه كان هناك أوقاف للمعابد وللمقابر كما كانت هناك بعض الملكيات الخاصة للأراضى الزراعية الا أن الأرض كانت مملوكة للملك من الناحية (النظرية) الدينية ٠ فالملك هو مالك مصر خلفا (لأبيه) الاله (آمون ـ رع) ٠

وعلى كل حال فان (فرض) هيمنة الجهاز الحاكم على اقتصاديات الدولة مع قصر الوظائف العليا والميزات المادية الهائلة على الملك ورجال الدين وكبار رجال القوات المسلحة وأسرات معينة وطنية وأجنبية ، قد أثمر تكالب هذه القيادات (المفروضة) على الثروة المصرية بطرق غير أخلاقيـــة مما جعل الشعب العامل يزداد نفورا من هذه القيادات ومن النظام المالى نفسه خاصة بعد ما أصابه من فقر ومن مجاعات ٠

وذلك أن الروح التى أملت الوحدة لبناء الهرم الأكبر كانت قد ماتت تحت وطأة النظم والقيادات المفروضة من أعلى ٠

فحدثت الفرقة .

بل لقد حدث ماهو أكثر من الفرقة ، اذ انقلب الناقمون على الجهاز الحاكم يهددونه بالاضراب عن العمل وشل حركة الانتاج طلبا لأجورهم المتأخرة خاصة بعد ارتفاع الأسعار ، وان كان هذا يعد أول اضراب عن العمل فى العالم انما هو فى ذات الوقت يعبر أيضا عن أقصى درجات فرقة الجماهير المصرية عن النظم المالية المفروضة وعن قيادات ما قبل الحكم الغير وطنى .

ولقد انصرف رمسيس الثالث عن تقوية ملكه واستمع الى نصيحة من أحاطوا به من الأجانب والمتملقين حتى صار من بين الأحد عشر أمينا فى القصر خمسة غير مصريين. أحب الاستماع الى نصيحتهم له فى الاكثار من الاستعانة بالجنود المرتزقة الأجانب ليكونوا عونا له ضد المصريين الذين أخذوا يئنون من الحالة . وبخاصة من الأزمات الاقتصادية التى سببت ارتفاعا كبيرا فى أسعار الحبوب بصورة لم يكن للشعب عهد بها من قبل . وساءت الحالة الاقتصادية حتى اضطر عمال الجبانة فى طيبة الى الاضراب عن العمل لأن مقرراتهم لم تصرف لهم لمدة شهرين فى العام التاسع والعشرين من حكم الملك . توقف العمال عن عملهم وحاولوا أن يلفتوا نظر رؤسائهم الى حالتهم دون جدوى . وفى اليوم التالى تجمعوا وهاجموا مخازن معبد الرمسيوم وهم يصيحون بأنهم جائعون . وعند ذلك اضطر كبار الموظفين الى محاولة تهدئتهم ، وتكرر الاضراب بعد ذلك مرات حتى اضطر الوزير أن يتدخل لاعطائهم ما يستحقونه . وتعطينا هذه الوثيقة فكرة عما آلت اليه حالة البلاد من فوضى كما تعطينا أيضا فكرة عن (عدم) رحمة كهنة المعابد بالفقراء من الناس الذين كانوا على وشك الموت جوعا بينما تكدست الحبوب وأكوام الذهب فى مخازن آمون . كان الكهنة أول من يسمع صياحهم دون أن تتحرك فيهم ذرة عطف ، بل اننا نعرف من هذه الوثيقة نفسها أن رجال الدين كانوا سوط عذاب على الفقراء . ففى أحد أيام الاضراب تجمع المتظاهرون خلف معبد بتاح وأخذوا يصيحون (نحن جائعون) ، وتصادف أن مر عمدة المدينة فوعدهم بالمساعدة وأرسل اليهم خمسين غرارة من الحبوب من مخازن معبد الرمسيوم ليسعفوا بها أنفسهم حتى يأمر الملك بصرف استحقاقاتهم لهم ، ولكن بعد أيام قليلة وصلت شكوى ضد هذا العمدة من كبير كهنة آمون بأنه قد أخذ دون وجه حق من ممتلكات معبد رمسيس الثانى ليطعم المضربين ، ووصف كبير الكهنة عمله (ان ما فعله جريمة كبرى) وهكذا كانت الأمور تسير ، فالكهنة يكدسون الأموال ويظلمون الشعب . والموظفون يستغلون كل موارد الدولة ، ولهذا لا ندهش اذا قام أحد وزراء رمسيس الثالث بثورة ضده فى الدلتا كان مركزها فى بنها ولكن الثورة لم تنجح) (٥٩) .

ونلاحظ فترة الاحتلال الاغريقى ، خاصة بعد وفاة بطليموس الأول تدهور طبائع الملوك تدهورا سريعا ، فقد انهمكوا فى ملاذ الأكل والشرب والنساء وتركوا أزمة الحكم فى أيدى السفلة الذين ابتذوا كل درهم من الفقراء .

وكان أهم ما يفهمه البطالمة من الاشتراكية أنها نظام للانتاج الكثير لا للتوزيع الواسع النطاق ـ فقد كان الفلاح ينـــال من محصوله ما يكفيه لحفظ حياته ، ولكنه لا يكفي لتشجيعه على عمله أو اعانته على تربية أسرته ٠ وزاد مقدار ما تنزعه الحكومة منه جيلا بعد جيل ، ولم يعد الناس يطيقون سيطرة الدولة على كل صغيرة وكبيرة ٠٠٠ وقد هرب الفلاحون وبارت مساحات واسعة من الأراضى ، وعمـــال المناجم يضربون بانسياط ولا يعطون ما يقيم أودهم ، وكثر الاضراب بين عمال المناجم والمحاجر ورجال القوارب والفلاحين والصناع والتجار ٠

وكان الدافع ليس زيادة الأجور لأن الكادحين يئسوا من هذه الزيادة ، بل كان الدافع اليه هو الاعياء واليأس ٠

وضعفت قدرة الأرض على الانتاج عاما بعد عام لخروج النـــاس على القانون ، وقلة أمانتهم وعجزهم ويأسهم ، ولانعدام المنافسة بينهم ولضعف الهمم والدوافع التى تبعثها الملكية الخاصــــة فى النفوس ، وذوى غصن الآداب ، وقضى على الفن المبدع الخلاق) (٦٠) ٠

(ولا جدال فى أن الاغريق كانوا يكونون طبقة منفصلة عن سكان البلاد تفصلهم فوارق شاسعة عن أهلها ويستمتعون بكل الخيرات والميزات ويعتبرون أنفسهم أهل حضارة رفيعة دونها كافة الحضارات الأخرى ، ويعيشون فى أوساط خاصة بهم ، ويحيون حياتهم التى اعتادوا عليها في بلادهم ، بينما المصريون يؤلفون الطبقة السفلى ، ويشعرون أنهم سلبوا كرامتهم كما سلبوا خيرات بلادهم) (٦١) ٠

(ولقد ساد الأمة روح عدم المبالاة ٠٠ كانوا عبيدا يطيعون طاعة عميـــاء ليس لهم ارادة ولا حيوية وطنية ، قد ركزت أفكارهم كلية فى مشاكل حصولهم على قوت يومهم ومصالحهم الاقتصادية ٠٠ وقد غرق الموظفون الاغريق فى أوحال البيروقراطية والرشوة ٠ وكان عبء العبودية ثقيلا على الشعب ٠ ومع ذلك فان الاحتجاجات كانت نادرة ، وكان عدم الرضا يتخذ شكلا أصبح طابعا لهؤلاء العبيد ، فعندما يرى مئات من الرجال أو المزارعين أو العمال أو البحارة أو الموظفين أن الأحوال أصبحت لا تطاق كانوا يصرخون قائلين (لم نعد نحتمل) ويهربون الى المعابد طالبين حماية الآلهة لهم ، أو يختفون فى مستنقعات الدلتا ٠٠٠ وقد أصبحت هذه الاضرابات منذ بداية القرن الثالث ق٠م٠ أمرا شائع الحدوث ٠ وكانت مصـــدر رعب دائم للموظفين ، اذ كانت القوة لا تجدى مع النفوس التى خيم عليها يأس شديد ٠ وكانت الحكومة غنية ماليا ، بيد أن روح البلاد المعنوية كانت منحطة ، وقلما عرفت البلاد السعادة ٠ وفى الحقيقة كانت البلاد تثور من وقت لآخر تحت لواء الآلهة القديمة والمعابد وتحت تأثير الشعور القومى ٠ ولكن هذا العصيان كان ينتهى دائما بمذابح ولا تعود الطمأنينة والأمان ، ولا لمنح عفو عام للذين يعيشون بعد ذلك الا حين تهلك العناصر القوية فى الثوار) ٠

وقد تابع الرومان سياسة البطالمة بجعل البلاد ضـــيعة خاصــــة للامبراطور

ولم يثر هذا الامر نقدا او تدخلا من جانب السناتو (مجلس الشيوخ الرومانى) وزاد عن المصاعب التى سببها النظام البطلمى غيبة مالك الأرض . لأن البلاد كان يحكمها وال باسم الامبراطور وكانت الضرائب تجمع لتكدس فى خزائن أباطرة روما أمثال كاليجولا ونيرون .

ورغم أنه كان هناك مظهر للتقدم فى مصر بالاسكندرية وفى البلاط الملكى ، الا أن البلاد كانت تسرع فى الانهيار نحو البربرية (٦٢) .

(ولم تبذل أى محاولة ما لتحضير السكان ، فقد كانت وظيفة مصر فى الامبراطورية الرومانية أن تكون المورد الذى تستمد منه روما ما يلزمها من الحبوب .

ولهذا السبب انتزعت من الكهنة مساحات واسعة من الأراضى وأعطيت للممولين الرومان أو الاسكندريين وجعلت ضياعا واسعة يعمل فيها الفلاحون ويستغلون بلا رحمة) (٦٣) .

ولقد قاد عملية استنزاف أموال الشعب المصرى وتحطيم نفسيته وعقائده مجموعة من الحكام الجبابرة يتمثل فى تصرفاتهم أحقر وأدنا ما عرفته البشرية على وجه الاطلاق فما بالك وقد مارسوا هذه السفالة بين شعب مصر صاحب المثل العليا فى الأخلاق والضمير منذ آلاف السنين .

ولكن هذه هى محنتنا عبر التاريخ ، ومع الأسف فانك سترى تشابها غريبا بين جبابرة الاغريق قبل الميلاد بثلاثة قرون وبين جبابرة المماليك بعد الميلاد بسبعة عشر قرنا ...

وكان تضمين الأراضى لمستغليها بمصر الاخشيدية يجرى ، كما كان فى عصر الولاه ، فى المسجد الجامع كل أربع سنين فينادى على البلاد صفقات فى جامع عمرو أمام صاحب الخراج أو من يقوم مقامه ومعه المختصون من الكتاب والموظفين .

وكان خراج مصر مليونى دينار فى السنة .

وكانت الضرائب ثقيلة ونظام الاحتكار لازال سائدا فى بعض مرافق الحياة .

وكان ينص فى عقود الايجار (للأراضى) على دفع الخراج حتى على الأرض التى يتركها الزراع بورا .

واشتهر عن الاخشيد اقباله على نكبة عماله وأغنياء دولته وفرضه الأموال عليهم (اى المصادرة) وكانت المصادرة مألوفة فى الخلافة العباسية فى ذلك الوقت . وقد مر بها كثير من الوزراء والعمال وعلية القوم . وكما كان الناس فى دار الخلافة يتوقعون المصادرة ويعملون على اخفاء أموالهم وخداع أولى الأمر كذلك كان القوم فى مصر الاخشيدية يبتدعون الوسائل لاخفاء ثرواتهم) (٦٤) .

ويعطى الأستاذ أحمد أمين صورة عن النظام المالى فى القرن الرابع الهجرى وهو صورة لجميع العصور فيقول :

وعلى الجمله فالحياة المالية (كانت) مضطربة أشد الاضطراب ، فمع سوء التوزيع والاختلاف الشديد بين درجتى الفقر والغنى ، والبذخ وشدة الحاجة نرى عدم الطمأنينة على المال من عدم احترام الملكية ، وذلك بسبب شهوات الحكام وطمعهم فيما فى أيدى الناس ، فالوزير اذا عزل صادر أمواله من يخلفه ، والتاجر الكبير الثرى عرضة لمصادرة أمواله من الوالى ، والغنى اذا مات كانت أمواله عرضه للنهب والسلب ٠ اما بادعاء أن ليس له ورثة معروفون ، ووضع العقبات فى سبيل اثبات الوراثة أو المجابهة بالمصادرة من غير ذكر الأسباب ٠ فالاخشيد فى مصر كان اذا توفى قائد من قواده أو كاتب من كتابه تعرض لورثته ، وأخذ منهم وصادرهم ، وكذا كان يفعل بالتجار المياسير ٠ والوزير المهلبى لما مات قبض معز الدولة تركته وصادر عياله ، وكذلك فعل بابن العميد ـ وهكذا ٠ ثم ان اضطراب الحالة المالية وعدم أمن الناس على أموالهم ينتج حتما عدم انتظام الدخل والخرج فتسوء حالة الدولة ، فيعالجونها بفرض الضرائب القاسية ، والامعان في المصادرات والنهب لكثرة ما يطلب من نفقات الجيوش وأمثالها ، فيكون ذلك علاجا يضاعف المرض ٠ وهو ما حدث فعلا ، وكلما ساءت الحال أكثر العزل والتولية ، وقرب الى الخلفاء والسلاطين من ضمن تعادل الميزانية ، وانما يضمن ذلك بالعسف الذى يؤول الى الخراب) (٦٥) ٠

وفى عهد سلاطين المماليك لم تكن القاهرة واسواقها على حال ثابت من الهدوء والسكينة ، بل كثيرا ما تأثرت المدينة بعوامل اقتصادية وسياسية أدت الى زعزعة الحالة فى الأسواق واثارة القلق فى النفوس ٠ مما ترتب عليه تعطيل الحركة واغلاق الحوانيت بين حين وآخر ٠

وقد عدد المقريزى العوامل الرئيسية التى أدت الى القلق الاقتصادى فى عصره ، فكان أولها زيف النقود المتداولة بين الناس ٠ ذلك أن بعض السلاطين أكثروا من ضرب الفلوس ، واختلفوا فى تقديرها بالوزن ، فحينا يكون الرطل منها بستة دراهم ، وأحيانا باثنى عشر درهما أو بدرهمين ونصف ٠ وفى جميع هذه الأحوال أرغم التجار والأهالى على التعامل بها وفق القيمة التى تحددها (الحكومة) ، مما يضطر كثيرين الى اغلاق حوانيتهم خوفا من بخس بضائعهم ، ويصحب هذه الحالة ارتفاع الأسعار وقلة الخبز فيتزاحم العامة على الحوانيت (جريا على عادتهم فى مثل ذلك) ٠

ومن عوامل القلق الاقتصادى كذلك كثرة المنازعات والفتن بين أمراء المماليك وأحزابهم ، فكثيرا ما قام المماليك بثورات (فيوالون الاجتماعات الليلية وتأسيس العصابات السرية للهيجان) ثم ينتشرون فى الطرقات والأسواق لنهب الحوانيت وخطف العمائم وانتزاع الخيول من أصحابها ، بل أحيانا يهجمون على النساء فى بيوتهن وفى الحمامات فيخطفونهن ٠

وفى هذه الأحوال يغلق التجار حوانيتهم ويسرعون الى منازلهم كما تغلق الأبواب التى تفصل بين أحياء المدينة ودروبها ٠ وربما استمر الحال على ذلك أسبوعا يقاسى

الناس طواله أنواع الجوع والفوضى والفزع ٠ وكان يكفى أن يرجف بموت سلطان أو هزيمة جنوده حتى تضطرب أحوال القاهرة على النحو السابق هذا كله بالاضافة الى العامل الطبيعى المرتبط بانخفاض فيضان النيل فى بعض السنوات ، وما كان يترتب على ذلك من نقص الأقوات وارتفـــاع الأسعار وانتشار الأوبئة كما حدث سنة ٦٦٢ هـ) ٠

وكانت كثرة الثروة فى أيدى التجار جعلتهم دائما مطمع سلاطين المماليك فغالوا فى فرض الرسوم عليهم كما أكثروا من مصادرتها ، ومن هذه الرسوم ما يؤخذ من التجار عند خروج الجند للغزو ، فاذا لاح خطر مفاجىء واحتاج السلطان الى الأموال لاعداد الجيوش فليس أمامه فى هذه الحالة سوى التجار ليقترض منهم ما يحتاج اليه بضمان وشهود كما حدث سنة ٧٩٦ هـ ــ أو يصادر نصف أموالهم أو ثلثها كما حدث سنة ٨٠٣ هـ ــ أو أن يفرض عليهم مبلغا معينا يتعاونون فى جمعه ودفعه فى الحال كما حدث سنة ٨٩٢ هـ ٠

وهكذا بلغ من قسوة هذه المطلوبات الغاشـــمة ان (دعا) بعض التجار (على انفسهم أن يغرقهم الله حتى يستريحوا مما هم فيه من الغرامات والخسارات وتحكم الظلمة فيهم) وهذا هو تعبير المقريزى) (٦٦) ٠

ثم كان لاهمال ولاة الأمور فى اقامة السدود على جانبى النيـــل لمنع غوائـــل الفيضان ، أو فى مراعاة تخزين المواد الغذائية احتراسا لانخفاض النيل وعدم كفاية مياهه لرى الأراضى الزراعية أن تعرضت البلاد للكثير من الخراب والمجاعات وبطريقة تكرارية طوال العهد العثمانى ٠

بل ان بعض الولاة استغلوا هذه الأحوال للمتاجرة باقوات الناس فى مجاعتهم ٠

وفى سنة ١٧٠٤ توقف النيل عن الزيادة فضج الناس وابتهلوا بالدعاء وطلب الاستسقاء ، واجتمعوا على جبل الجيوشى وغيره من الأماكن المعروفة باجابة الدعـاء فاستجاب الله لهم ٠ فروى بعض البلاد وهبط سريعا فحصـــل الغلاء ٠ وبلغ سعر الأردب من القمح ، والفول ٢٤٥ فضـــة ، والعـدس ٢٠٠ نصف فضـــة ، والشـــعير ٢٠٠ نصف فضه ، والأرز ٤٠٠ نصف فضة ، واللحم الضانى الرطل ٣ أنصاف فضة، والجاموس والبقرى بنصف فضة ، والسن القنطار بستمائة نصف فضة ، والزيت بثلاثمئة وخمسين ، والدجاجة بثمانية أنصاف فضـــة ، والبيض كل ثلاث بيضات بنصف ، والرطل الشمع الدهن بثمانية أنصاف فضة ، وكثر الشحاذون فى الأزقة كما استمر الغلاء فى العام التالى) ٠

ثم تجىء آفة الآفات على الناس وهو انتشار الأوبئة والطواعين بسبب القذارة والاهمال والجهل والفقر ٠

(ولقد اعتبرت الدولة العثمانية الاهتمام بالصحة العامة للشعب ، أمرا خارجا

عن اختصاصها ، ونتيجة لذلك فانه كثيرا ما كانت الأوبئة الفتاكة تهاجم الشعب وتهلك الكثير من أفراده ، وقواه العاملة والمنتجة حتى أنه فى بعض الحالات نظرا لكثرة من يموتون فى اليوم الواحد . أمر الوزير على باشا السلحدار بعدم الكشف على الموتى ، وصلى فى أحد هذه الأوبئة على ألف فى كل يوم فى الجامع الأزهر وحده ولمدة خمسة وثلاثين يوما ، وفى عهد قرا حسين باشا (بلغت الصلاة على الأموات فى الجامع الأزهر فى اليوم ستمائة نفس ، وفى بعض الأحيان كان انتشار الطاعون يتسبب ، فى فراغ كثير من الالتزامات ، وعرض هذه الالتزامات فى المزاد ، بل أن بعضها كان يباع ثلاث مرات فى خلال مدة الطاعون وان كان ذلك يضر باقتصاد البلاد فانه كان يتسبب فى حصول الباشا على كثير من الأرباح من وراء هذه (المحاليل) ووصل الأمر فى بعض الحالات أنهم لم يجدوا للميت لا مغسلا ولا عدة (من كثرة الازدحام على الحوانيت) ـ وفى كثير من الأحيان كان الوباء يصيب الشباب والصبيان ، أى الجيل القادر على العمل والجيل التالى له ، مما كان يؤثر على اقتصاديات البلاد ولفترة طويلة ، واستمرت عمليات انتشار الأوبئة ومداهمتها للبلاد بين فترة وأخرى) (٦٧) .

ذكر الجبرتى عن حوادث سنة تسع وتسعين ومائة وألف ذكر منها صورة نابضة بالظلم قال (وقعت فتنة بين عربان البحيرة وحضر منهم جماعة الى ابراهيم بك وطلبوا منه الاعانة على أخصامهم فكلموا مراد بك فى ذلك ، فركب ليلا وهجم على المستعينين ونزل الى البحيرة ، فتواطأ معه الأخصام وأرشوه ـ فركب ليلا وهجم على المستعينين به وهم فى غفلة مطمئنين فقتل منهم جماعة كثيرة ونهب مواشيهم وابلهم وأغنامهم ثم رجع الى مصر بالغنائم) .

ان هذه الصورة تبين نوعا غريبا من الحكام المتسلطين طبعة الجشع وانعدام القيم والخيانة ... كما تبين نوعية النظم الاقتصادية التى سادت طوال هذه المرحلة .

ولا يقف الظلم عند هذا الحد وعند غيره من المظالم . بل ان (الجند فرضوا على الناس كثيرا من المظالم ، منها الضرائب غير الشرعية التى أصبحت تعرف باسم العادات ويطلق عليها فى السجلات الرسمية اسم (البرانى) .

ثم يضاف الى هذه المظالم قيام الكثير من الولاة بغش العملة ، وقد تكررت هذه العملية عدة مرات فاشتد الحال على الناس ، وزاد الكرب ، وتضاعفت الأسعار .

وكان محمد على يهدف الى زيادة ايرادات الحكومة حتى يستطيع تمويل غزواته الحربية والقيام بالاصلاحات الداخلية ، لذلك ، وبخاصة أن الفلاحين كانوا فى حالة اعسار مالى ، قرر محمد على احتكار الزراعة . وقد بدأت سياسته الاحتكارية عام ١٨١٦ وذلك باحتكار بعض الحاصلات الزراعية . وما ان جاء عام ١٨٢١ حتى كان الاحتكار يشمل كافة الحاصلات الزراعية تقريبا . وطبقا لهذا النظام كان الفلاح ملزما ببيع محصوله الى محمد على بالسعر الذى تحدده الحكومة على أن يخصم من هذا الثمن مبلغ يعادل مقدار الضريبة وثمن ما قدمته الحكومة الى الفلاح من بذور أو خدمات .

فعلى سبيل المثال ، فى عام ١٨٣٦ بلغت كمية القطن التى اشترتهـا الحكومة من الفـلاحين ١١٠ر١٤٠ بالة دفعت ثمنهـا ٤٨ر٦٤٩ر٦٠٠ قرشـا وباعتها بمبلغ ١٠٧ر٠٢٩ر١٣٠ قرشا محققة بذلك ربحا قدره ٥٨ر٣٧٩ر٥٢٠٥ قرشا ٠

وقد اختلفت نسبة الربح من محصول لآخـر وبلغت الأرباح فى نفس العـام (١٨٣٦) حوالى ٢٥ فى المائة من مجموع ايرادات الدولة ٠

ومما لاشك فيه أن سياسة الاحتكار الزراعى التى اتبعها محمد على قد حرمت الفلاح المصرى من حرية التصرف سواء من حيث اتباع ما يراه من وسـائل الزراعة أو من حيث اختيار المحاصيل أو من حيث الحصول على سعر مناسب عند بيع انتاجه ٠ لذلك لا نكون مبالغين اذا قلنا ان الفلاحين فى مصر خـلال النصف الأول من القرن التاسع عشر كانوا جميعا عمالا فى مزرعة محمد على) (٦٨) ٠

(وقد التهم محمد على لنفسه ولأسرته ولحاشيته التركية وخبرائه الأجانب مساحات هائلة من هذه الأراضى) ٠

وبالتدريج ، ومع حاجة محمد على الى الاعتماد على المثقفين المصريين ، بعد أن خانه الأجانب أو كلفوه غاليا ٠٠٠ ومع استطاعة البعض منهم أن يثبت كفاءة عالية ، بدأت الانعامات السامية تنهـال عليهم لتكون منهم طبقـة جديدة من ملاك الأرض المصريين ٠

ويقدم لنا زكى باشا مبارك فى الخطط التوفيقية نماذج لهؤلاء المصريين ، الذين عملوا فى سلك الخدمة المدنية فى عهد محمد على فأصبحوا ملاكا كبارا ٠

فهناك رفاعة رافع الطهطاوى وهو من أسرة فقيرة (أنعـم) عليه محمـد على ب ٢٥٠ فدانا فى طهطا ثم يأتى سعيد باشا (ليمنحه) ٢٠٠ فدان أخرى ثم اسماعيل باشا (ليمنحه) ٢٥٠ فدانا ثالثة ٠

ويشترى رفاعة ٩٠٠ فدان ويقيم المبانى والعمائر وفى عام ١٨٨٠ يكون ورثته مالكين لـ ٢٥٠٠ فدان ٠

وقدم لنا على مبارك نموذجا آخر هو ابراهيم بك النبراوى ٠

(الذى ترقى فى الرتب الديوانية الى أن بلغ رتبة المتمايز ، وفى أول أمره أرسله أهله الى مكتب بلده وتعلم فيه الخط وبعض القراءة ثم تعلق بالبيع والشراء وترك المكتب وأرسلوه مرة الى المحروسة يبيع بطيخا فلم تربح تجارته بل لم يحصل على راس المال فخاف من أهله ولم يرجع لهم ودخل الأزهر واشتغل بالقراءة ، وفى تلك المدة طلب من الأزهر شنبان برغبتهم لتعلم الحكمة فرغب ودخل مدرسة أبى زعبل فأقام بها مدة وترقى الى رتبة ملازم ثم تعلقت الارادة السنية بارسال جماعة الى بلاد فرنسا فسافر هناك) ٠

وبعد عودته ترقى الى رتبة يوزباشى بوظيفة خوجة (معلم) بمدرسة الطب فى القصر العينى ٠٠ ولنجابته وحسن درايتـــه فى فنه اختـاره العزيز محمد على باشا (حكيمباشى) لنفسه وقربه وتخصص به وبلغ رتبة أميرالاى وكثرت عليه اغداقات العزيز وانتشر ذكره وطلبته ألفا ميليات والأمراء ٠

ولما مات خلف ألفا وسبعمائة فدان ٠

وهنا يبدأ التاريخ الحقيقى للطبقة الجديدة من ملاك الأرض المصريين الذين قدر لهم أن يلعبوا دورا كبيرا فى الثورة العرابية وما بعدها ٠

والغريب أن الأسماء ٠٠ تبقى كما هى نفس الأسماء تتردد منذ محمد على حتى اسماعيل ٠٠ حتى الثورة العرابية ٠٠ حتى ما بعد الاحتلال البريطانى ٠٠ بل وحتى أيامنا هذه ٠

نفس الأسماء ٠

فعلى البدراوى كان مجرد تاجر عطور منحه محمد على عهدة سمنود (أى يتعهد بجمع الضرائب منها وتسليمها للوالى) ، ثم جاء سعيد (ليمنحه) ٤٠٠ فدان أخرى فى سمنود ومكنه ثراؤه من أن يشترى مساحات أخرى من الأرض ، وعنـدما مات سنة ١٨٦٧ كان يمتلك ٤٠٠٠ فدان ٠

وفى سنة ١٩٥٢ استولى الاصـــلاح الزراعى من عائلة البدراوى على ١٦٫٠٠٠ فـــدان ٠

وسالم باشا السلحدار كان حاكم الصعيد أيام محمد على ، أخذ عهدة البلينا ، وعهدة قرية فازارة (٢٢ كم جنوب منفلوط) ، وفى سنة ١٩٤٥ كان وقف حنيفـــة السلحدار يمتلك ٦٢١ فدانا فى البلينا و ٧٩٠ فدانا فى فازارة ٠

وثمة اسم ثالث لازال موجودا حتى الآن ٠٠ الشواربى منحه محمد على عهـــدة قايوب ، ومنح اسماعيل ابنه محمد بك الشواربى مزيدا من الأرض ، وفى نهـــاية القرن الثامن عشر كانت ٤٠٠٠ فدان من مجموع زمام قليوب البالغ ٧٠٠٠ فـــدان مملوكة لأسرة الشواربى وحدها ، ولعبت أسرة الشواربى دورا هاما ضـد الثـــورة العرابية ، ففى أيام الثورة كان قصرها مركزا للثورة المضادة ٠

وللحقيقة فان أحدا لا يعرف بالضبط مساحة الأراضى العهـــدة ولكن (باير) يؤكد وفقا لحسابه أن مساحتها لم تكن تقل أيام محمد على عن ١٫٢٠٠٫٠٠٠ فـــدان منها ٣٠٠٫٠٠٠ فدان لأفراد أسرة محمد على ٠

والمساحة الباقية توضح حقيقة المجال الذى كانت تمارس فيه الطبقة الجديدة نشاطهـــا ٠

ولكن السلم الطبقى الحديث التكوين كان يحتوى على مراتب عديدة ، فبعـــد المتعهدين (كبار الملاك) كان هناك مشايخ البلد الذين اعتمـــد عليهم محمد على فى

جهازه الادارى ومنحهم (مسموح المشايخ) (وهى الأراضى التى أعطاها محمد على لهم بواقع خمسة أفدنة عن كل مئة فدان تقريبا فى زمام بلدتهم معفاه من الأموال الأميرية لمساعدتهم على القيام بخدماتهم للحكومة وما يتطلبه ذلك من نفقات مثل ايواء جباة الأموال الأميرية الذين كانوا يمرون ببلادهم) ٠

(واذا كان المتعهدون أناسا طارئين على القرية ، فان المشايخ هم رؤساء الأسر الغنية المرموقة فى الريف وذات المكانة الاجتماعية التى منحها محمد على مزيدا من المكانة والهيبة بما منحها من أرض ونفوذ ادارى ٠

ويورد على مبارك فى الخطط التوفيقية أسماء كثير من هؤلاء المشايخ ، أسماء ظلت هى الأخرى تتردد عبر سنوات عديدة لتصل الينا وهى تحتفظ بمزيد من الرنين والنفوذ ٠

أبو محفوظ شيخ بلدة الحواتكة (أسيوط) وقد ظلت هذه الأسرة معروفة طوال عدة أجيال متتالية ولها املاك شاسعة تبلغ عدة آلاف من الأفدنة من الأراضى الخصبة وكان أهل القرية فى قبضتهم ٠

ثم عائلة أبو حشيش فى المرصفا قليوبية ٠

وعبد الحق من الايوانه أسيوط ٠

الشريعى من سمالوط المنيا ٠

فلما جاء اسماعيل أبقى على مشايخ البلاد لكنه جعل فوقهم فئة من أكثرهم ثراء هى العمد ٠

والعمدة ليس فقط أكبر مالك للأرض (فى قريته) ، لكنه أيضا ممثل الجهاز الادارى بكل جبروته وقوته : السخرة ، القرعة العسكرية ، الضرائب ٠

وفى سنة ١٨٧٩ كتب بورج وهو نائب أحد القناصل يقول (لقد سمعت من مصادر متعددة فى القليوبية أن الفلاحين يعانون من ضغط المشايخ عليهم الى الحد الذى يدفعهم الى ترك ملكياتهم الصغيرة ليشتغلوا كعمال لدى أحد الذوات أو الأوربيين على أمل أن يعيشوا فى كنف حمايته ٠

ومرة أخرى نعود الى الأسماء فهى أكثر دلالة من أى شىء آخر فان باير يلاحظ أن كثيرا من الأسر ظلت تحتكر منصب العمدة لسنوات عديدة ويحشد مجموعة من الأسماء ٠

الشريف من أبيار (غربية) الهوارى من ترسا (الفيوم) الجيار من حزبنا (بحيرة) شعير من عشما (منوفية) الأتربى من أخطاب (دقهلية) ٠٠٠

ويقول باير ان كثيرا من العمد كانوا ذوى ملكيات كبيرة جدا ويورد أيضا أمثلة

كثيرة فعلى محمود عمدة الرحمانية (بحيرة) كانت مساحة الأراضى التى وقفها سنة ١٨٧٠ (١٠٦١ر١) فدانا .

واحمد الشريف عمدة ابيار (غربية) وقف سنة ١٨٦٦ (١٠٦٧) فدانا وحبيب سالم عمدة شجرة الشعراء (دقهلية) وقف فى سنة ١٨٨٠ (٨٧٥) فدانا .. وهكذا .

واذا كنا قد تعمدنا أن نذكر كثيرا من الأسماء فان ذلك لم يكن لمجـــرد تذكير القارىء أنها الى حد كبير هى الأسماء التى تتردد حتى الآن .

ونفس هذه الأسماء هى التى سيطرت على الهيئات النيابية حتى تاريخ الثـورة العرابية ، وهى التى سيطرت على مجلس النواب الذى شكل سنة ١٨٨١ ، وهـو المجلس الذى لعب فى تاريخ مصر ، وفى مجريات الأمور أكبر الأثر .

ولنستعرض الآن أسماء النواب .

محمد بك الشواربى ، ابراهيم أبو حشيش (القليوبية) ، على بك شـــعير ، السيد الفقى حسين أبو حسين (المنوفية) ، أحمد بك الشريف ، مصطفى أبو العـز (الغربية) سليمان أباظه ، أحمد بك أباظه (الشرقية) ، خليفة الهوارى (الفيوم) ، السيد عبد الحق ، محفوظ رشوان (أسيوط) ، حسن باشـــا الشريف (المنيا) ، محمد أبو سحلى (قنـــا) ....

أليست هى نفس الأسماء .

لكن الأرض لم تكن وقفـا على هؤلاء وحـدهم ، ففى بلد كمصر حيث الأرض هى المصدر الأساسى بل الوحيد للسلطة والجاه نجد أن كثيرا من الأسر ، لا تلبث أن تتجه نحو تملك الأراضى بمجرد أن تكون لنفسها بعضا من الثروة .

ويورد مبارك أمثلة لهذا الاتجاه .

فهناك مثلا أسرة الهجين ، فالحاج مصطفى الهجين كان فى مطلع القرن تاجـرا كبيرا شديد الثراء وكان يمتلك كثيرا من الأموال والأملاك (لاحظ الفرق بين الأمـلاك والأطيان) وكان ابنه الحاج محمد الهجين هو الآخر أحد التجار المعتبرين ، أما حفيده الامير حسن بك الهجين الذى توفى فى أعقاب تولى اسماعيل للعرش فقد كان أكثـــر ثراء وشهرة من جده وكان يمتلك كثيرا من الأموال والأملاك ، والأطيان ، وكان هو الذى أضاف (أطيانا) الى أملاك الأسرة .

وقبل أن يتوفى وقف أملاك وأطيان .. وفى سنة ١٩٥٠ كان وقف الهجين يضم ١٤٢٥ر١ فدانا فى البحيرة والدقهلية والغربية بالاضافة الى عقارات كثيرة بالقاهرة .

ويصف مبارك منفلوط فى سنة ١٨٨٠ فيتحدث عن حسن الطرزى وهو تاجر ثرى كان والده واحدا من التجار المحترمين وقد زاد حسن من ثروة أبيه وكان هو الذى ضم أطيانا كثيرة الى أملاك الأسرة .

وفى سنة ١٩٥٥ كان وقف الطرزى يضم ٢٫٣٧٩ فدانا ٠

ولا ننسى بجانب هؤلاء أملاك الأسرة العلوية وكبار الرسميين الأتراك والجوارى والاتباع وكانوا يستحوذون على أملاك هائلة ٠

ويقدم لنا باير فى كتابه تاريخ الملكية الزراعية فى مصر كشفا بأملاك بعض أسرة محمد على أيام اسماعيل ٠

الأميرة الوالدة	١٤٤٫٩٢٧ فدانا ٠
محمد توفيق باشا	٣١٫٠٩٧ فدانا ٠
حسين كامل باشا	٢٥٫٢١٨ فدانا ٠
الأميرة توحيدة هانم	٢٠٫٠٩١ فدانا ٠
الأميرة فاطمة هانم	٢٨٫٤٧٧ فدانا ٠
الزوجة الأولى للخديوى	٢٠٫٣٨١ فدانا ٠
الزوجة الثانية للخديوى	٤١٫٦٠٥ فدانا ٠
الزوجة الثالثة للخديوى	١٦٫٣١٢ فدانا ٠

ويمضى الكشف ليصل المجموع الكلى ٤٢٥٫٧٢٩ فدانا فاذا أضيف اليها ٥٠٣٫٦٩٩ فدانا وهى مساحة الأرض المملوكة للخديوى اسماعيل اتضحت ضخامة المساحة التى كانت تملكها الأسرة المالكة وحدها (٦٩) ٠

وبهذا يكون محمد على قد وضع الأساس فى تميز القلة بمعظم الأراضى الزراعية واستمر هذا التميز قاصرا على هذه القلة حتى جاءت ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ لتجد عدد ٢١٣٦ من الملاك الذين لا يكونون الا ٨ ٠ ر من مجموع الملاك ، يملكون فيما بينهم ١٫١٧٦٫٨٠١ فدانا أى حوالى ٢٠ فى المائة من جملة مساحة الأرض وأن ٧ فى المائة من الملاك يمتلكون ثلثى مساحة الأرض كلها ٠

ومنذ تدهور نفوذ محمد على نتيجة أحداث ١٨٤٠ ـ ١٨٤١ ٠ أخذت الحكومة البريطانية فى استخدام الضغط الدبلوماسى لجعل مصر مصدرا للمواد الخام الرخيصة ، وسوقا مربحة لبيع مصنوعاتها ، دون أية رعاية لمصالح الحكومة المصرية أو رفاهية الشعب المصرى ٠ فقد حملت الحكومة المصرية على الاستمرار فى تصدير القمح رغم نقصه فى السوق المحلى ، وذلك لمصلحة التجار البريطانيين ، ولأن محصول القمح فى انجلترا كان دون المتوسط ٠ كذلك كان اصرارها على بيع القطن بالمزاد العلنى لرغبتها فى تخفيض أسعاره أجباريا لمصلحة أصحاب مصانع القطن فى لانكشير ٠ وقد كان الحاحها فى تنفيذ مشروع السكة الحديدية لتقريب أمد الطريق البرى من جهة ، وللمساعدة فى بيع المعدات البريطانية والخاصة بالمشروع من جهة أخرى ٠

ولقد سمح سعيد باشا بالملكية الخاصة للفلاح ٠

وهذا التحول الى الملكية الخاصة والاقتصاد النقدى لم يكن برمته لصالح الفلاح

أو الاقتصاد المصرى بصفة عامة . فمن الناحية الفعلية فان ذلك كان يعنى أن كثيرا من الأراضى الزراعية قد أخذت تخرج من يد الفلاح الصغير عن طريق البيع ، أو عن طريق نزع الملكية بسبب الرهن كما حدث فيما بعد . وفى الوقت الذى ظلت ملكية الفرد المتوسط صغيرة . وتزداد صغرا بسبب زيادة عدد السكان وعامل الأرث طبقا للشريعة الاسلامية . كانت الأمور تسير نحو نمو الضياع الكبيرة نتيجة لانتزاع الأرض من صغار الفلاحين الذين استغلوا حريتهم الجديدة فى الاستدانة بضمان عقاراتهم . التى كانوا مضطرين الى بيعها فى النهاية تسديدا لهذه الديون .

ولقد ظهر عدد كبير من المرابين الذين كان بعضهم من الأوربيين ، أفرادا كانوا أو بنوكا ، وكانوا يقرضون الفلاحين بفائدة ضخمة بهدف انتزاع أراضيهم فى النهاية .

وفى أواخر القرن كان ما يقرب من ٤٠ فى المائة من الأراضى الزراعية يملكها ١٢٫٠٠٠ من الملاك ، كثير منهم من الأجانب الذين كانت ملكية الفرد منهم تزيد على ٧٠ فدانا .

هذه الحرية الخطرة تقريبا التى حصل عليها صغار الفلاحين ، غذت من سير العملية الاستعمارية الأوربية التى بدأت مع بداية الضغط الدبلوماسى على مصر ، بعد هزيمتها عسكريا (سنة ١٨٤٠) ، لانهاء نظام الاحتكار . ولقد أدى انهاء نظام الاحتكار الى ظهور الاقتصاد الحر ، وفيه تمكنت الأقطار الأوربية من شراء المواد الخام ومواد الطعام من مصر ، خصوصا القطن والحبوب ، بأبخس الأثمان ، ولم تكد تستقر هذه السوق الحرة تماما ، حتى بدأت المرحلة الثانية ، وهى مرحلة الضغط الدبلوماسى من أجل بيع السلع الأوربية فى مصر .

أما المرحلة الثالثة ، فتتمثل فى استخدام الضغط الدبلوماسى للحصول على امتيازات المرافق العامة المختلفة . وفى ذلك كان أصحاب هذه الامتيازات يتمتعون بحصانة كبيرة يستمدونها من نظام الامتيازات الأجنبية التى كان يتمتع بها الأوربيون فى مصر . ويعتبر امتياز قناة السويس مثلا طيبا على ذلك . أما الأمثلة الأخرى والتى يوجد منها الكثير منذ عام ١٨٥٤ فصاعدا ، فتتمثل فى امتيازات الغاز والكهرباء والمياه والترام والخطوط الحديدية الضيقة ، ومن الصور المشينة لاصطياد هذه الامتيازات ، والتى يوضحها أيضا امتياز قناة السويس ، الحصول على عقد امتياز لمشروع خيالى ، ثم التنازل عنه كلية أو جزئيا مقابل تعويض يتم ابتزازه أيضا عن طريق استخدام الضغط الدبلوماسى . أما المرحلة الرابعة من الاستعمار . فتتمثل فى استخدام الضغط الدبلوماسى لحمل الحكومة المصرية على قبول القروض الأجنبية طويلة الأجل ، بضمان موارد الدخل ، وذلك لتمويل مشروعات التنمية من الناحية النظرية ، وكانت هذه القروض عادة يتم التعاقد عليها بشروط باهظة ، دون أن يحاول المقرضون التحقق من سلامة المشروعات التى ينوون تمويلها أو ربط تسديد هذه القروض بقدرة مصر على الدفع .

وفى الحقيقة أن القروض التى تم تحصيلها قد أنفقت ، لا فى تمويل مشروعات رأسمالية تنمى الدخل ، وانما فى جميع أنواع الاسراف والتبذير . بما فى ذلك دفع التعويضات عن عقود الامتياز المفسوخة أو دفع الديون التى سبق التورط فيها .

وكانت النتيجة المحتومة هى ازدياد الضغط الدبلوماسى لحمل الحكومة على تحصيل الضرائب الكافية لتسديد القروض ، وهى التى كانت فوائدها فى الحقيقة تبتلع أكثر من نصف الدخل الاجمالى لمصر . ومن ثم فقد اخذ المراقبون يشاهدون هذا المشهد الكريه ، مشهد ممثلى الدول ، الذين كان بعضهم قد سبق ان أبدى جزعه من الناحية الانسانية لاستخدام السخرة فى حفر قناة السويس ، وهم يقبلون ، بل يحرضون الحكومة المصرية على جلد الفلاحين بالسياط لانتزاع الضرائب المتزايدة أبدا منهم ، وذلك لدفع فوائد القروض التى سبق أن شجعوا الحكومة على اقتراضها . .

ولقد كان من بين اشكال الضغط الدبلوماسى الذى استخدم فى ذلك الحين التهديد بسحب التمثيل القنصلى ، ومعنى ذلك قطع العلاقات الدبلوماسية ، وكذلك التهديد بانزال جنود سفينة حربية فى ميناء الاسكندرية عادة أو قريبا منه حسب متطلبات الظروف . وذلك لتعزيز أية مفاوضات يكون القنصل طرفا فيها . وقد كانت من هذه الأشكال أيضا طرق أكثر دهاء ، مثل التهديد باحداث متاعب للوالى فى القسطنطينية .

وبعد وفاة عباس الأول وتولى سعيد الحكم ، ولم يكد نبأ الوفاة يصل الى أوربا ، حتى اخذت تتدفق على مصر جموع الأفاقين من كل الأنحاء ، كما لو كانت كاليفورنيا جديدة ، واخذت أكثر المشروعات غرابة وأشد الخطط سخفا تنهال على صاحب السمو ، الذى كان من الواضح أنه يخطىء باعارتها أى . . . اهتمام وانه ليلوح ميالا تماما لأن يدع نفسه تتأثر بالمشروعات الخلابة التى يهمس بها فى أذنه دون انقطاع .

واقترض سعيد من الأجانب مبلغ ٢٠٫٧٠٠٫٠٠٠ فرنك ، وسرعان ما أنفق هذا المبلغ فى دفع التعويضات التى وعد بها وفى الانعامات السامية على أقارب الوالى ، وعلى تسوية الديون ، بما فيها مرتبات الجيش المتأخرة منذ أحد عشر شهرا . . . وعند منتصف سنة ١٨٦١ كانت الخزانة قد أصبحت خاوية (من جديد) . وبدلا من أنه ينخفض الدين السائر زاد الى ٧ مليون جنيه .

ولقد ترتب على هذا النهب الذى كان يتم على نطاق عالمى كبير ، أن أخذ تدخل القناصل المحدود لصالح أصحاب التعويضات ، فيتحول تدريجيا الى تدخل دبلوماسى تقوم به حكومات الدول لصالح أصحاب السندات الأوربية .

وأصبح (نهب المصريين) الذى بدأ فى شكل عمليات نصب يقوم بها المغامرون الأوربيون كأفراد معاونة مجموعة من القناصل (التجار) سيئى السمعة . وكان يلقى الاستنكار من القناصل (المحترفين) المحترمين ـ أصبح مصدرا رئيسيا للربح لنصف البيوت المالية فى أوربا ، بمعاونة غالبية حكومات الدول العظمى .

كمـا تعرضت الثروات التى لا تقدر بمال من الآثار المصـــرية لعمليات السطو والنهب بطريقة لم يسبق لها مثيل قبل القرن التاسع الميلادى ٠

ويقول جون مارلو ان علماء جادين أبدوا اهتماما بثرواتنا القومية (فى الآثار المصرية القديمة) كما أبداه رحالة يذرعون الأرض ، كما أبداه أثرياء مولعون بالفنون الجميلة ٠ وقد أدى ذلك كله الى قيام سوق عظيم للآثار المصرية القديمة لتلبية حاجات المتاحف وجامعى الاثار ، وقام كثير من الأوربيين المقيمين بمصر ، ومنهم معظم قناصل الدول بتكـوين مجموعاتهم الخاصـة وتمويل هذه الســـوق ٠ وكثير من الاوربيين الزائرين ، ابتداء من العلماء ، وانتهوا بالباحثين عن الثروة وبينهم عدد من السادة الذين انضموا اليهم لمجرد التسلية ، وفدوا الى مصر لمشاهدة ما يمكن مشاهدته ، وحمل ما يمكن حمله الى بلادهم ، أو الاكتفاء بوصفه أو رسمه اذا لم يتيسر حمله ٠ ويقال أن الأب جيرامب وهو راهب ترابى قال مداعبا والى مصر سنة ١٨٣٣ ـ يخيل الى يا سمو الأمير أن الانسان لن يكون جديرا بالاحترام اذا هو عاد من مصر الى أوربـــا دون أن تكون فى احدى يديه مومياء وفى الأخرى تمساح) ٠

ولقد كانت نظرة الحكومة المصرية الى هذه العملية من عمليات النهب نظـــرة تسامح ، فلم يكن فى وسعها أن تدرك أية فائدة أو قيمة لتلك الأحجار المنقوشة فيما عدا استخدام أصلبها للبناء ! كما لم تكن تستطيع أن ترى أية فائدة أو قيمة للفائف البردى أو صناديق المومياوات ، اللتى كان عـدد كبير جدا من المقيمين والســائحين الأوربيين يعلقون عليها أهمية كبيرة ٠ ولسنين عديدة لم تضع الحكومة اية عقبـــات فى وجه هؤلاء الأوربيين الذين كانوا يفعلون ما يحلو لهم بهذه الآثار ، بما فى ذلك حملها معهم خارج القطر ، ولقد كان نتيجة لذلك ، كما كتب أرنسب رينان فى سنة ١٨٦٥ (أن ظلت الآثار المصرية تنتهب لمدة تزيد على نصف قرن ، وأخذ متعهدو تزويد المتاحف بالآثار يجتاحون البلاد (كالوندال) للحصول على بقية رأس أو قطعة من نقش ٠ وعمد البعض الى فك بعض الآثار الثمينة الى أجزاء صغيرة ! وكان هـــؤلاء المخربون الجشعون ، الذين كانوا يحصلون بصفة دائمة تقريبا على تأييد قناصلهم ، يعاملون مصر كما لو كانت ملكيتهم الخاصة) ٠

ولقد مضت عملية الأبحاث وتقييم الآثار المصرية جنبا الى جنب مع عملية نهبها وجمعهـــا (٧٠) ٠

ويقول المستر (كيف) الذى عهد اليه اسماعيل ببحث مالية مصر سنة ١٨٧٥ (ان المبالغ الحاصلة من ميزانية مصر عن المدة الواقعة بين سنة ١٨٦٤ وسنة ١٨٧٥ بلغت ٩٤٫٨٣١٫٤٠٠ جنيه ، وان مقدار المنصرف فى هذه المدة على نفقات الحكومة وعلى الجزية المدفوعة لتركيا وعلى أعمال العمران ، بلغ ٩٧٫٢٤٠٫٩٦٦ ، ومعنى ذلك أن ايرادات الحكومة أقل بقليل مما اقتضته مصروفاتها وأعمال العمران التى قـامت بها ، فالديون الجسيمة الحالية كانت بلا داع أوجب اقتراضها ، فيما عدا ما اقترض

لقناة السويس ، وكل المبالغ المقترضة والديون السائرة ضاعت فى سبيل الفوائد الربوية والاستهلاك ٠٠٠) ٠

وقد استنفدت فوائد الديون معظم دخل الخزانة ، فقد كانت ايرادات الحكومة سنة ١٨٧٧ (٩٫٥٨٩٫٠٠٠) خصص منهـــا لحملة الأسهم نحـو ستة ملايين من الجنيهات ، أى أن مخصصات الديون ابتلعت معظم الميزانية ، وظهر فى ميزانية تلك السنة عجز مقداره ١٫٣٨٢٫٢٠٠ جنيه ، نشأ عن فداحة مخصصات الديون ٠

ولا يمكن أن تستقيم شئون دولة تفقد توازنها المالى بهذه الحالة المخيفة ٠

وزاد الحالة الاقتصادية سوءا ضروب الاسراف التى ابتدعها اسماعيل ، فانهـــا اقتضت خروج أموال البلاد الى غير أهلها ، ســواء أكانوا داخل البـلاد أم خارجها ، ولا عجب فان مادة الاسراف وصنوفه ومظاهرة كانت أجنبية (وارد أوربا) ففقدت البلاد ملايين الجنيهات تسربت الى الخارج فى وقت هى أحوج ما تكون اليها فيه ، ونقص بذلك راس مال الثروة القومية ، أضف الى ذلك تلك الملايين التى انفقهـا اسماعيل على ضفاف البوسفور ، فقد فقدتها البلاد وابتلعتها تلك العاصمة النهمة الى المال سواء للبذخ أو لتقديم الهدايا والرشا لرجال الاستانة لتحقيق مطالب الخديو ، وكم أنفق فيها على اقامة الحفلات والولائم ، وكان لا يكاد يمر عام الا ويقضى الخديو بالاستانة أو أوربا ردحا من الزمن ينفق فيه الأموال بغير حساب ، وكانت سياحاته ورحلاته فى العواصم والمدن الأوربية تكلف البلاد الآلاف بل الملايين من الجنيهات(٧١)٠

(كتبت السيدة الوس دف جوردن وهى اسكوتلندية أرستقراطية أقامت بمصر العليا خلال العقد السادس من القرن التاسع عشر أى ســنة ١٨٦٥ بعـــد عامين من اعتلاء اسماعيل العرش وقبل أن يبلغ نشاط جباة الضرائب ذروته فى تحصيـــل العوائد والمكوس تقول (أخذ الكرباج يهوى على ظهـــور جيرانى وأقدامهم طـــول الصباح ٠٠٠ وقد بلغ السلب والنهب بالجملة مدى يصعب تجاوزه ٠٠ اننى لفعمة بالحزن ٠٠٠٠ للعذاب اليومى الذى يعانيه الفلاحون المساكين الذين يضطرون الى انتزاع لقمة العيش من أفواه أسرهم التى تتضـور جوعا ليتبلغوا بهـا وهم يكدحون لمصلحة رجل واحد (الخديو اسماعيل) ٠ ان مصر عبارة عن مزرعة واسعة لسيد يسخر فيها عبيده دون أن يطعمهم) وبعد عامين ، أى فى سنة ١٨٦٧ كتبت تقول (اننى لعاجزة عن أن أصف لك البؤس المقيم هنا الآن ٠ بل ان مجرد التفكير فيـــه لأمر شاق حقا ٠ ففى كل يوم تفرض ضرائب جديدة ٠ وقد أصبح كل حيوان الآن تتقاضى عليه ضريبة ٠ سواء كان جملا ، أو بقرة ، أو شاه ، أو حمارا ، أو حصانا ٠ ولم يعد فى مقدور الفلاحين أن يأكلوا الخبز ، فهم يعيشون على وجبة شعير مخلوط بالماء وبعض النباتات الخضراء المطهوة ٠٠ وها أنا أرى جميـــع معـارفى يضمرون وينحلون شيئا فشيئا ، وترث ثيابهم ويركبهم الهم (٧٢) ٠

وقد وصف المسيو جابرييل شارم هذه الحالة التى شاهدها بنفسه وصفا مؤثرا قـــال فيـــه :

(ان الحالة التى تسترعى النظر هى مسألة الملكية الزراعية . فان الأطيان والمتاجر أخذت تنتقل من عدة سنوات (كتب هذا سنة ١٨٧٩) الى أيدى الأوربيين . ذلك أن الأرهاق فى فرض الضرائب على الفلاحين جعل بقاء الأرض فى أيديهم أمرا بعيدا من الامكان .

(وكان الفلاح فى عهد سعيد باشا يؤدى الضرائب فى غير مشقة . اذ كان يوفر من غلة أرضه ، ويبقى له بعد ذلك ما يقوم بأوده ، ويعيش به عيشة رغدا .... وفى أوائل عهد اسماعيل كان الفلاح أحسن حالا ورغدا ، فان ارتفاع أسعار القطن الناشىء عن الحرب الأمريكية جعل ايراده يبلغ الضعف ، وما كان يبيعه من قبل بثلاثة جنيهات صار يبيعه بثمانية أو عشر جنيهات . ولم ير الفلاح يسرا ورخاء مثلما رآه فى ذلك العهد . ولكن هذا اليسر ما لبث أن تبدل عسرا وضنكا . فقد هبطت أسعار القطن بعد انتهاء الحرب الأمريكية ، وهبط الدخل هبوطا جسيما ، وفى الوقت نفسه زادت مطالب الحكومة ، وأخذت الضرائب فى ازدياد ، فاضطر الفلاح الى أن يجود بكل ما كان مدخرا أو مخبوءا عنده ، ولم يبق لديه الا ارضه ، فاذا أرهقته الحكومة فى طلب الضرائب اضطر أن يلجأ الى أحد المرابين الأجانب ليقرضه بالربا الفاحش ، ويرتهن أرضه ، فاذا ما تأخر فى الوفاء سيق الى المحاكم (٧٣) .

وتستمر النظم المالية المفروضة التى ميزت القلة من الأسرة الحاكمة والباشاوات والامراء والنبلاء والبكوات والأجانب بمعظم الدخل القومى بينما تباعد عنها الشعب وهو غارق فى الفقر والتخلف حتى ثورة يوليو ١٩٥٢ .

ب ـ فى النظم الاقتصادية والسياسية المفروضة قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ :

(قبل الثورة كان عدد قليل من الملاك يستأثرون بنحو ثلث الأراضى الزراعية . وكانت هناك مظاهر للاحتكار فى الصناعة منها الاحتكار المعزز من الحكومة التى تمتعت به شركات السكر والدخان والطيران والملاحة . وفضلا عن ذلك كان عدد قليل من الشركات الكبرى فى صناعات الغزل والنسيج والأسمنت والمشروبات يملك التأثير فى الأسعار ويؤلف انتاجها نسبة عالية من المعروض المحلى وراء سياج عال من الحماية الجمركية . ونظرا لقلة عدد أرباب الأعمال كانت بينهم اتفاقات لتحديد الأسعار والانتاج وتقسيم السوق ومن ذلك اتفاقية أسعار الخدمات المصرفية . وكانت هناك اتفاقات مماثلة بين شركات الحليج فى الوجهين القبلى والبحرى وبين شركات الكبس الكبيرة . وكانت تسيطر على القطن عشر بيوت بلغ نصيبها ٨٠ و ٩٠ فى المائة من مجموع الصادرات .

وفى مراحل التصنيع الأولى كانت الشركات تتمتع باحتكار فعلى نظرا لقلة عددها أو لتعضيد الحكومة لها . وكانت الشركات الصنايعة والمالية ترتبط مع الاحتكارات العالمية بوشائج وثيقة وتشترك معها فى انشاء مشروعات مشتركة ومن أمثلة ذلك اشتراك شركات التامين العالمية (بورنج واسيكارا زيونى) فى انشاء شركة مصر للتامين واتفاق شركات براد فورد وكاليكو وكوهوون مع بنك مصر لانشاء شركات غزل القطن وصباغته وتصنيع الحرير الصناعى بقصد تخطى التعريفة الجمركية) .

ويقول الدكتور عصمت سيف الدولة :

(نستطيع ـ بسهولة ـ أن تحول هذه الفقرة الى أرقام مذهلة ليرى الجيل الجديد الذى لم يعاصر تلك المرحلة السوداء كيف كانت القوة الاقتصادية لمجموعة محدودة من الناس تسيطر على مقدرات شعب مصر أو كيف كانت تحكم مصر . ويكفى أن نلفت الانتباه الى قول الدكتور على الجريتلى (عدد قليل من الملاك يستأثرون بنحو ثلث الأراضى الزراعية) . (كان ٦١ مالكا يملك كل منهم أكثر من ٢٠٠٠ فدان ومجموع ملكياتهم ٢٧٧ر٢٥٨ فدانا و ٢٨ مالكا يملك كل منهم أكثر من ١٠٠٠ فدان الى ١٥٠٠ يملكون ١١٢ر٢١٦ فدان و ٩٢ مالكا يملك كل منهم أكثر من ٨٠٠ فدان الى ٦٠٠٠ فدان يملكون ٨٦ر٤٧٢ فدانا ،ويعنى ذلك أن ١٨٠ مالكا يملكون ٥٨٣ر٤٠٠

فدانا أى أن واحدا من مائة الف من الشعب يملكون ١٠ فى المائة من الأرض ، أما الذين تزيد ملكيتهم عن ٥٠ فدانا فقد كانوا ١١٣٤٨ شخصا يملكون ٢٫٠٤٣٫٢٧٠ فدانا أى حوالى ٣٤٫٢ فى المائة من المساحة المزروعة بمتوسط ١٨٠٫٥ فدانا بينما بلغ عدد الذين تقل ملكياتهم عن خمسة أفدنة ٢٫٦٤١٫٨٧٨ شخصا كانوا يملكون ٢٫١٢١٫٨٦٤ فدانا أى حوالى ٣٥٫٤ فى المائة للفرد ٠ هذا بينما بلغ عـدد العمال الزراعيين الذين لا يملكون شيئا أكثر من مليون شخص) (٧٤) ٠

(هذا عن التفاوت الصارخ فى الدخول نتيجة تملك الأراضى الزراعية) ٠

أما الاحتكارات فنلفت الانتباه الى قوله (كانت تسيطر على القطن عشر بيوت بلغ نصيبها ٨٠ فى المائة و ٩٠ فى المائة من مجموع الصادرات) (كان القطن يمثل ٥٠ فى المائة من الدخل الزراعى و ٨٩ فى المائة من الصادرات) ، وقوله (الاحتكار المعزز من الحكومة) و (سياج عال من الحماية الجمركية) و (احتكار فعلى ٠٠٠ نتيجة تعضيد الحكومة) ، هى مظاهر السيطرة الرأسمالية على السلطة ٠ (فرضت الحكومة الحماية الجمركية لحماية الاحتكار من المنافسة الخارجية عام ١٩٣٠ فى عهد وزارة اسماعيل صدقى ، ولم تفرض على الرأسماليين أية ضرائب من أى نوع كانت حتى عام ١٩٣٩) ٠

لذلك اتجهت الثورة الى تحقيق اثنين من مبادئها الستة : (القضاء على الاقطاع) و (القضاء على سيطرة رأس المال على الحكم) ٠ فالقضاء على الاقطاع يعنى تحرير الفلاحين من التبعية للملاك وبالتالى مقدرتهم على ممارسة حرياتهم السياسية ٠ والقضاء على سيطرة رأس المال على الحكم تعنى وضع الحكم فى خدمة الشعب)(٧٥) ٠

ويقول الدكتور عاصم الدسوقى :

وكان تركيب البرلمان المصرى (مجلس النواب والشيوخ) خلال المدة من ١٩٢٤ (أول برلمان بعد اقرار دستور سنة ١٩٢٣) و ١٩٥٠ (آخر برلمان قبل ثورة ١٩٥٢) من حيث نسبة أصحاب المصالح الزراعية فيه الى اجمالى الأعضاء ونسـبة أعضـاء مجالس ادارات الشركات الى اجمالى الأعضاء أيضا ، ثم نسبة الأعضاء الذين يجمعون بين هاتين الصفتين كالآتى :

بلغ عدد الأشخاص الذين كانوا أعضاء فى البرلمان بمجلسيه خلال تلك الفترة ١٥٧٠ شخصا مع الأخذ فى الاعتبار أن شخصا معينا قد يتـكرر انتخابه أو تعيينه أكثر من مرة ٠

ويتضح أن ٧٨٩ شخصا من اجمالى الأعضاء (١٥٧٠) كانوا من ملاك الأراضى الزراعية وخاصة كبار ومتوسطى الملاك فوق ال ٥٠ فدانا ، أى بنسبة ٥١ فى المائة تقريبا ، بينما أن ٢٢٣ عضوا كانوا من أعضاء مجـالس الشركات أى بنسـبة ١٤ فى المائة تقريبا للاجمالى ٠

أما الذين كانوا يجمعون بين المصلحتين اى الملكية الزراعية وعضوية مجالس ادارة الشركات ، فكانوا ١٥٧ عضوا أى بنسبة ١٠ فى المائة - واذا ما أخذنا فى الاعتبار ضم الملاك الزراعيين تحت ال ٥٠ فدانا وحتى عشرة أفدنة ، وضم المساهمين المؤسسين للشركات والمؤسسات التجارية والصناعية فان النسبة السابقة لابد وأن ترتفع بنحو ٢٠ فى المائة تقريبا لكل منها)(٧٦) ٠

وبهذا يصبح الطبقة صاحبة القرار السياسى والاقتصادى والاجتماعى فى شئون الشعب المصرى فى العصر الحديث هى طبقة الأثرياء من أصحاب الأراضى الزراعية وأصحاب المصانع وأصحاب الشركات أو المساهمين فيها ٠

كان الحكم للأغنياء ٠

وفى معظم سنى العصر الحديث كان الحكم للجالس على العرش وحده مع الأجنبى ٠

ثم يشارك الأغنياء الأجنبى والجالس على العرش فى سلطتهما ابتداء من دستور سنة ١٩٢٣ وان كانا ينجحان فى معظم الحالات فى أبعادهم عن قراراته ٠

ويستمر هذا الحال حتى ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ ٠

وابتداء من سنة ١٨٤٠ ، تاريخ فرض سياسة الباب المفتوح على مصر لتكون سوقا رائجة للمنتجات الأجنبية ، خاصة البريطانية ، يبدأ الأجانب فى المشاركة فى فرض النظم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية على الشعب المصرى الفقير الكادح الذى ليس له صوت يسمع ٠

وبالنسبة لحكم القلة الثرية فى داخل مجلس النواب والشيوخ ابتداء من تاريخ نشائهما سنة ١٩٢٤ حتى آخر برلمان ما قبل الثورة سنة ١٩٥٠ ٠

(لم يكن هناك تناقض أساسى بين أصحاب المصالح الزراعية) الملاك الزراعيين، وأصحاب المصالح الصناعية والتجارية (أصحاب الشركات والمصانع) ٠ ولكن التناقض كان ويكون بين هؤلاء جميعا وبين الطرف الآخر فى الانتاج ، وهم مستأجرو الأرض الزراعية وعمال الصناعة ٠ وفى هذا الخصوص نذكر على سبيل المثال موقفا واحدا لأصحاب تلك المصالح فى مناقشة مسألتين مختلفتين فى البرلمان٠ الأول مشروع القانون الخاص بتخفيض ايجار الأطيان الزراعية عن السنة المالية ١٩٣٢/١٩٣١ حيث نجد ان مقرر لجنة الحقانية المسئولة عن المشروع يطالب المجلس بالموافقة على رفض المشروع قائلا (لصالح البلد لا لصالح بعض المستاجرين الذين لا يستغنون عن الملاك كما لا يستغنى الملاك عنهم ٠٠) وعضو آخر يقول ان (هذا التشريع هو أول خطوة تحمل معنى التحدى للملاك ويعنى اعتداء المستأجرين على حقوقهم بل هو الخطوة الأولى فى المبادىء الاشتراكية) ثم يقول (ان كان الغرض جعل القوانين اشتراكية فليظهر من يريد ذلك بهذه النية ليعرف كل انسان حده ٠٠) ثم يقول أيضا (اذا ما تكلمنا مناقضين لهذا المشروع فانما ندافع عن نظام البلد وعن قوانينه وعن هدوئه ٠٠) ٠

وأما المسألة الثانية فهى الموقف من تكوين النقابات العمالية ومحاولة رفض المشروع بوسائل برلمانية من تأجيل النظر الى جلسات تانية أو الاعتذار بحجة غياب مقرر اللجنة المختصة أو مرضه أو بحجة غياب الوزير المسئول وانشغاله ٠٠ الخ) وحتى عندما صدر فى عام ١٩٤٢ أخذ باليسار ما أعطاه باليمين ٠

كما كانت مجالس المديريات تمثل مصالح كبار ملاك الأراضى الزراعية بدرجة كبيرة) (٧٧) ٠

أما القول بانه كان هناك دستور اعتبارا من سنة ١٩٢٣ وكان هناك وزارة مسئولة امام مجلس النواب وانتخاب وديمقراطية وحرية ٠٠ الخ ٠ ففى هذا يقول الدكتور عصمت سيف الدولة :

(فيكفى أن نذكر تاريخ دستور سنة ١٩٢٣ ، ٠٠ أنشأته لجنة من ثلاثين قيل عنها انها لجنة الأشقياء ٠ وأصدره الملك فؤاد عام ١٩٢٣ ٠ وخرقه خرقا مشينا عام ١٩٢٤ ٠ وعطله محمد محمود عام ١٩٢٨ ٠ والغاه اسماعيل صدقى عام ١٩٣٠ وعاد عام ١٩٣٥ ليعطل قطعيا عام ١٩٣٩ باعلان الأحكام العرفية ووضع مصر ــ شعبا وارضا ــ فى خدمة الحلفاء فى الحرب الأوربية الثانية (١٩٣٩ ــ ١٩٤٥) وأهدرت أحكامه اهدارا مشينا عام ١٩٤٢ حين فرض (حزب) الوفد بقوة سلاح الانجليز ، واهدرت أحكامه اهدارا مشينا حين تآمرت أحزاب الأقلية مع الملك فتولوا الحكم فى مرحلة ما بعد الحرب ، واهدرت أحكامه اهدارا مشينا حين دفع حزب الوفد ثمن استرداد موقعه الشرعى فى الحكم صلحا مع الملك ٠ وأهدرت أحكامه اهدارا مشينا حين أقيل حزب الأغلبية من الحكم بعد حريق القاهرة فى يناير سنة ١٩٥٢ لتأتى تلك الوزارات مقطوعة الصلة بالشعب ويكون آخر قرار يصدر منها هو القرار الذى أصدره مرتضى المراغى وزير الداخلية يوم ١٢ ابريل سنة ١٩٥٢ بايقاف الانتخابات، بعدها سقط الدستور بثورة يوليو سنة ١٩٥٢) ٠

ويستطرد الدكتور سيف الدولة :

لقد كان (النظام الذى يسود مصر قبل سنة ١٩٥٢ ليبراليا سياسيا واقتصاديا٠ فى هذا النظام كانت للمصريين حقوق سياسية وفيرة (الجانب السياسى) ولكنهم كانوا مجردين من المقدرة الفعلية على استعمالها بفعل الرأسمالية السائدة (الجانب الاقتصادى) ٠ ذلك لأن القانون الأساسى للنظام كله ، وهو المنافسة الحرة ، كان يبيح لكل شخص أن يكسب معركة الديمقراطية كما يشاء ٠ فكانت المقدرة الاقتصادية تلعب الدور الحاسم ــ بعد استيفاء كل الطقوس الشكلية لتحديد من يحكم ولمن ارادة التشريع والتنفيذ . ففى القمة لا يرشح نفسه الا القادرون ماليا ٠ كان يشترط فى أعضاء مجلس الشيوخ أن يكونوا من بين الوزراء ، الممثلين الدبلوماسيين . رؤساء مجلس النواب ، وكلاء الوزارات ، رؤساء ومستشارى محكمة الاستئناف أو أية محكمة أخرى من درجتها أو أعلى منها ، النواب العموميين ، نقباء المحامين ، موظفى

الحكومة من درجة مدير عام فصاعدا سواء فى ذلك الحاليون والسابقون ، كبار العلماء والرؤساء الروحيين ، كبار الضباط المتقاعدين من رتبة لواء فصاعدا ، النواب الذين قضوا مرتين فى النيابة ، الملاك الذين يؤدون ضريبة لا تقل عن مائة وخمسين جنيها فى العام (حوالى ١٥٠٠ جنيها بسعر العملة الحالى) ، من لا يقل دخلهم السنوى عن ألف وخمسمائة (١٥٠٠٠ جنيها بسعر العملة الحالى) من المشتغلين بالأعمال المالية أو التجارية أو الصناعية أو بالمهن الحرة (المادة ٧٨ من دستور ٢٣) ٠ أما النواب فكان يشترط للترشيح دفع ١٥٠ جنيها (حوالى ١٥٠٠ جنيه بالسعر الحالى) (المادة ٥٥ من قانون الانتخاب) ٠ وقد اشترط هذا المبلغ عمدا لقصر حق الترشيح على القادرين ماليا ٠ فقد كان الاتجاه الأول عند وضع قانون الانتخاب الى اشتراط أن يكون المرشح من بين كبار الملاك أو ذوى الدخول الكبيرة فلما لم يؤخذ بهذا الاتجاه اشترط أن يدفع أمانة كانت فى وقتها جسيمة ٠

هذا فى القمة ، أما فى القاع حيث يقبع الشعب ــ أغلبية الشعب التى يحتكم اليها المتنافسون ــ فان الشعب كان مرتبطا بأمعائه ــ منذ البداية ــ بالمسيطرين عليه اقتصاديا القادرين على وصل الأرزاق وقطعها ٠

كان الفلاحون أقنانا أو فى مرتبة الاقنان بالنسبة لملاك الأراضى ٠ فحرية الارادة ، أو حرية التعاقد ــ ذلك الطوطم المقدس ليبراليا ــ كانت تعنى أن الفلاحة ، مزارعة أو ايجارا ، كانت خاضعة خضوعا تاما فى انعقادها واستمرارها وانهائها وسعرها لارادة مالك الأرض وحده ٠ وأسعار المحاصيل كانت خاضعة خضوعا تاما لمضاربات الرأسماليين فى السوق ٠ وفى المتاجر والمصانع كان عقد العمل خاضعا خضوعا تاما فى انعقاده واستمراره وانهائه وقيمة الأجر فيه والجزاءات التى تقتطع منه ، لمالك المتجر أو المصنع وحده ٠

وكانت النخاسة المقنعة التى يسمونها (توريد الأنفار) سوقا رائجة من فرط البطالة وفيها يبيع المصريون أنفسهم بأبخس الأثمان لكى يعيشوا ، ويدفعون من الثمن البخس قدرا معلوما لمن يجد لهم العمل أو يضمن لهم الاستمرار فيه ٠ وكان مطلوبا من كل هؤلاء الاقنان الأجراء العاطلين أن يستعملوا حقوقهم السياسية وأن ينافسوا غيرهم فى سباق الديمقراطية الليبرالية ٠ ولم يكن ذلك ممكنا ٠ كان أجدى عليهم ، وأكثر واقعية ، أن يبيعوا حرياتهم السياسية لمن يشتريها أو أن يتنازلوا عنها مقابل الاستمرار فى الحياة ٠ ولقد كانوا ــ كما لا شك يذكر كل الذين عاصروا تلك المرحلة ــ يبيعونها أو يتنازلون عنها صفقة واحدة لكل عائلة فى كل قرية ، وسيطها رئيس العائلة أو عمدة القرية ليكسب هو أيضا ٠

قال جان جاك روسو منذ قرنين ــ قبل أن يعرف أحد الاشتراكية ــ ان الغنى الفاحش والفقر المدقع متلازمان وعندما يوجدان فى مجتمع ما ، تباع فيه الحرية وتشترى ، يبيعها الفقراء ويشتريها الأغنياء ، ولم يلم روسو أحدا ولكنه نقد النظام ٠ فاذا كان يسمى الأغنياء طغاة فانه يسمى الفقراء أعوان الطغاة لأن الأولين يشترون الحرية والآخرون يبيعونها (٧٨) ٠

ج ـ فى النظم السياسية والاقتصادية المفروضة من ثورة يوليو ١٩٥٢ الى ١٥ مايو ١٩٧١ :

يقول الأستاذ طارق البشرى (٧٩) :

« تبدو سمات النظام السياسى الذى قام بعد ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ فى مصر ، فى ثلاث نقط أخذت فى التبلور فى بداية سنة ١٩٥٣ مع الغاء الأحزاب القائمة ومنع قيام أحزاب جديدة ونشوء هيئة التحرير كتنظيم شعبى للنظام الجديد وصدور الدستور المؤقت فى فبراير سنة ١٩٥٣ ٠

وهذه النقط الثلاث هى :

السمة الأولى للنظام السياسى فى ظل الثورة هى الدمج بين سلطات الدولة التنفيذية والتشريعية والقضائية فى سلطة واحدة ٠ وقد تم هذا الدمج لحساب السلطة التنفيذية ، ويبدو ذلك فى الدستور المؤقت الصادر عام ١٩٥٣ ، الذى يتكون من ١١ مادة انصرفت ٦ منها الى المبادىء العامة أما الخمس الأخرى فقد تعلقت بتنظيم سلطات الدولة كلها ٠ وهى تطلق يد قائد الثورة فى اتخاذ ما يراه لازما لحمايتها ، وتعيين الوزراء وعزلهم ، وتخويل مجلس الوزراء السلطة التشريعية والسلطةالتنفيذية معا ، وتشكيل مؤتمر عام من مجلس الوزراء ومجلس قيادة الثورة يتولى رسم السياسة العامة للدولة ، هذا الى جانب مادة خاصة تقرر أن السلطة القضائية مستقلة ٠

ويبدو من هذا العرض أن مجلس الوزراء الذى يتولى السلطة التنفيذية قد صار هو الذى يشرع القوانين أيضا ــ (أى أن قلة من كبار العاملين ورجال القوات المسلحة تفرض ما تراه من كافة النظم والقوانين على الشعب المصرى) .

وهذا (يدل) على ان السلطة التشريعية لم تفقد استقلالها فقط بل فقدت وجودها كذلك ٠

كما يبدو أيضا أن المؤتمر العام المكون من اعضاء مجلس الثورة ومجلس الوزراء اصبح يتولى الوظيفة الحزبية التى كانت مفتقدة فى هذا النظام ، أما بالنسبة للسلطة القضائية فمن المسلم به أنها تستمد استقلالها من قيامها وعملها بين سلطتين مستقلتين الى جانبها ، فاذا سيطرت السلطة التنفيذية على الوظيفة التشريعية سار جهاز القضاء (مستوعبا) ومحاصرا حتى ولو جرى ترتيب ضمانات أو حصانات خاصة بأعضائه ٠

ولقد استمر الوضع على هذا النحو حتى تم اعلان دستور سنة ١٩٥٦ الذى تبنى النظام الرئاسى بانتخاب رئيس الجمهورية عن طريق الاستفتاء العام ، وله

صلاحيات واسعة أيضا تشمل رئاسة السلطة التنفيذية وتعيين الوزراء ورئاسة مجلس الوزراء ووضع السياسة العامة وقيادة الجيش ، كما تضمن هذا الدستور أيضا انشاء مجلس نيابى هو مجلس الامة يضع القوانين ويملك رئيس الجمهورية **سلطة حله ، ومن الجدير بالملاحظة أن مجلس الامة وان كان يشكل بالانتخاب الا أن الترشيح له كان لا يتم الا من خلال الاتحاد القومى ٠ وهو التنظيم السياسى الوحيد فى الدولة حينئذ بحكم نص الدستور وكان هذا التنظيم يتكون بقرار من رئيس الجمهورية الذى تولى السلطة التنفيذية ٠**

وبهذه الوسيلة استطاعت السلطة التنفيذية استيعاب السلطة التشريعية فى ظل دستور ١٩٥٦ ٠

وقد ألغى هذا الدستور مع اعلان الوحدة بين مصر وسوريا فى فبراير ١٩٥٨ وأعلن عن دستور مؤقت تولى بموجبه رئيس الجمهورية السلطة التنفيذية ومنح صلاحيات تعيين مجلس تنفيذى لكل من مصر وسوريا وتعيين مجلس الأمة بقرار منه ٠ ثم جرى تعطيل مجلس الأمة بعد انفصال سوريا عن مصر عام ١٩٦١ ٠ وظل رئيس الجمهورية يمارس سلطات واسعة حتى صدور دستور مارس ١٩٦٤ الذى أبقى سيطرة السلطة التنفيذية على السلطة التشريعية ثم جاء دستور ١٩٧١ متبعا فى الأساس ذات المبدأ الخاص بدمج السلطات مع قدر من الاختلاف يتمثل فى اضفاء صفة الحكم بين السلطات على رئيس الجمهورية ، الى جانب توليه السلطة التنفيذية ٠

وفى هذا الصدد تجدر ملاحظة أن الأحكام العرفية بما تفرضه من هيمنة جهاز الادارة على غيره من سلطات الدولة قد استمرت منذ قيام الثورة حتى يونيو ١٩٥٦ ، ثم ما لبثت أن (فرضت) من جديد فى أكتوبر ١٩٥٦ واستمرت حتى مارس ١٩٦٤ ، ثم حل محلها قانون باسم قانون أمن الدولة يتيح لرئيس الجمهورية سلطات الأحكام العرفية ، وبحدوث حرب يونيو ١٩٦٧ عادت الأحكام العرفية علاوة على هذا القانون ٠

ومن واقع استعراض تلك التصرفات يبدو الى حد كبير تميز النظام السياسى بالدمج بين السلطات على نحو الأمر ما يمكن تسميته (حكومة الادارة) حيث انيطت بالجهاز التنفيذى صلاحيات واسعة فى مجال رسم السياسة وتقريرها فضلا عن وظائفه الرئيسية التقليدية ، وبحيث كان الأسلوب الادارى هو الطابع العام للعمل السياسى ٠

والسمة الثانية لهذا النظام هى المركزية الشديدة فى بناء أجهزة الدولة حتى قمة الهرم السياسى متمثلا فى شخص رئيس الجمهورية ، وليس غريبا أن يبنى جهاز الادارة على هذا الشكل ٠ وأن تتدرج فيه المستويات ٠ ولكن المهم هو ارتباط الظاهرتين الخاصتين بدمج السلطات ، وتركيزها فى يد رئيس الجمهورية وبذا جمع رئيس الجمهورية سلطات ذات طبيعة تشريعية وتنفيذية ، وظهر باعتباره مصدر الشرعية فى المجتمع ومنبعا للسلطة فى كافة المجالات ، ولايجاد سند سياسى دستورى ، يسوغ

هذه السلطة القابضة كلها ، كان مبدأ الاستفتاء العام على شخص رئيس الجمهورية الذى كان يعد العملية السياسية الدستورية الأساسية ·

وتبدو هذه المركزية بوضوح أكثر اذا عرفنا أن مصر قد شهدت منذ سنة ١٩٥٢ حتى الآن سبعة من الدساتير والبيانات الدستورية صدرت فى أعوام ١٩٥٣ ، ١٩٥٦ و ١٩٥٨ و ١٩٦٢ و ١٩٦٤ و ١٩٧١ ، وذلك فى ظل رئيسين للجمهورية فقط · بمعنى أن تعدد الأنظمة الدستورية قد فاق تعدد الرئاسات ومن بين تلك **الدساتير لم يصدر من خلال استفتاء شعبى عام سوى اثنين فقط هما دستورا ١٩٥٦ و ١٩٧١ ، اما البقية فقد صدرت بقرارات من رئيس الجمهورية** · ومن حيث المضمون نجد أن النظام المصرى قد تبنى الأسلوب الرئاسى للحكم بصورتهالتقليدية ، الا انه أضاف اليه ثلاث مسائل أخرى أولها أن اختيار الرئيس يتم بالاستفتاء لا بالانتخاب · وثانيا ان الرئيس يملك حل البرلمان فيما عدا دستور ١٩٧١ ، وثالثها انه من حق الرئيس دستوريا رئاسة التنظيم الشعبى ·

وعادة ما توخى أن تجىء نتيجة الاستفتاء على رئيس الجمهورية شبه جماعية وذلك تاكيدا لوضعه ولأن الكشف عن وجود قلة ذات وزن لا تعطيه تأييدها قد يبرر طلب اجراء انتخابات على منصب الرئاسة · وقد يبرز بالتالى مطالبة تلك الأقلية بحق الوجود السياسى ·

أما السمة الثالثة للنظام بعد ثورة ٢٣ يوليو فهو الاستغناء شبه الكامل عن الأحزاب السياسية ·

وبمتابعة كافة التنظيمات السياسية منذ ١٩٥٢ ، ابتداء من هيئة التحرير ثم الاتحاد القومى ، وأخيرا الاتحاد الاشتراكى ، وبرغم كافة التعديلات فى التشكيل والتنظيم والوظيفة ؛ **فانه لم يقدر لاحداها القيام بنشاط حزبى مستقل له وجود فعال · وليس أدل على ذلك من أن أهم القرارات السياسية مثل تأميم القناة ١٩٥٦ ، او وحدة مصر وسوريا ١٩٥٨ أو اجراءات التاميم ١٩٦١ · أو قرار الدخول فى حرب اليمن ١٩٦٢ ــ وغيرها قد اتخذت فى غياب التنظيمات السياسية ·**

واذا كانت أهم معالم الوظيفة الحزبية أساسا فى صنع القرارات السياسية وفى نقل الاتجاهات الرئيسية فى وسط الرأى العام الى القيادة والدعوة للسياسات والقرارات التى تتخذها القيادة لدى قواعد التنظيم ، فان جهاز الدولة السياسى والادارى فى مصر كان يقوم بجميع هذه الوظائف · وانحصر دور التنظيم السياسى فى كونه سندا لجهاز الدولة أو واجهة له · وعن هذا الطريق أمكن مقاومة الدعوة للاحزاب وبواسطة التنظيم السياسى أمكن النفاذ الى الهيئات والتنظيمات الجماهيرية المختلفة مثل النقابات والجمعيات ، والسيطرة على الصحافة والتحكم فى تكوين المجالس الشعبية النيابية) أ·هـ ·

وهكذا استمرت النظم المفروضة من أعلى وفى غياب القاعدة الشعبية مما يفسر

لك السبب فى استمرار الفرقة والانقسام وكل سلبيات الشخصية المصرية وأهمها التواكل واللامبالاة وعدم الانتماء .. الخ .

وأيا كان الشعار الذى أطلقته القيادة الحاكمة فترة الراحل عبد الناصر عن نظام حكمها من أنه اشتراكى واتحاد قوى الشعب العاملة وملكية الشعب لوسائل الانتاج والاستهلاك .. الخ .

فان هذا يعنى قيام (الحكومة) والقيادات الحاكمة ، وهى قلة بطبيعة الحال بالانفراد بحكم مصر والتحكم فى اقتصادياتها وفى الأرزاق وفى أنفس شعبها امتداد لتاريخ مصر منذ سنة ٢٠٠٠ ق.م .

ويقول الدكتور على لطفى عن مساوىء سياسة الانغلاق الاقتصادى فى التجربة الاشتراكية التى مرت بها مصر من ١٩٥٢ ـ ١٩٧٠ .

(انها تتمثل أساسا فى عدم تشجيع القطاع الخاص على الاسهام فى عملية التنمية بل واتباع سياسة تؤدى الى اضعافه ، والاعتماد على من أطلق عليهم أهل الثقة دون أهل الخبرة عند تعيين القيادات فى القطاع العام ، وعزل الاقتصاد المصرى عن التقدم التكنولوجى فى العالم ؛ وعدم مواجهة الأمية بشكل فعال ؛ والتوسع فى انشاء صناعات جديدة لا تتوافر لها مقومات النجاح بدلا من التوسع الرأسى فى الصناعات التى تتوافر مقومات نجاحها ، وعدم اتباع سياسة سليمة فى مواجهة التزايد السريع للسكان .

والى جانب السلبيات من الناحية الاقتصادية كانت هناك سلبيات من الناحية السياسية فنذكرها هنا باختصار لانعكاسها على الناحية الاقتصادية .

فالحرية السياسية قد انعدمت تماما خلال تلك الفترة حيث لم تتوافر للمواطنين حرية الاجتماع أو حرية التعبير عن الرأى أو حرية النقد أو حرية النشر فى حدود الضوابط القانونية . لقد كانت القيادات الحاكمة فى تلك الفترة تستخدم أسلوب القسوة والارهاب فى تكميم الأفواه وكبتت أصوات المعارضة . ولم تتردد فى الالتجاء الى أساليب الفصل التعسفى ومصادرة الاموال وفرض الحراسة والاعتقال لكل من تسول له نفسه أن يوجه نقدا أويقدم رأيا معارضا .

وهكذا سادت الدكتاتورية وظهرت مراكز القوى التى اصبحت تتحكم فى مقدرات الشعب .

وهذه البيئة السياسية الفاسدة انعكست على الناحية الاقتصادية مما ساعد على بقاء البلاد فى حالة من التخلف الاقتصادى)(٨٠) .

واستكمالا لصورتنا فى هذه الفترة نعرض ما كتبه بعض العلماء الأمريكان عنها .

يقول ب.ج فانيكيوس فى كتابه عن الصراع فى الشرق الأوسط .

« يلاحظ المرء فى الشرق الأوسط عموما وخاصة فى منطقة القلب العربيـة ، وجود سمتين رئيسيتين للحياة السياسية ·

أولهما : ضعف المؤسسات السياسية كما نفهمها فى الغرب ، بل وعدم وجودها فى أغلب الأحيان ·

ثانيهما : انخفاض مستوى المجتمع السياسى أو عدم وجوده على الاطلاق ·

ولذا يتحتم على من يدرس السياسـة فى الشرق الأوسط العربى أن ينظر الى سمات الحكم والسلطة من وجهة نظر الجماعات القيادية الحاكمة · وفي حالة غيـاب المؤسسات الثابتة النظامية فانه لابد من البحث عن تفسيرات لسلطة الحاكم والقيود عليها ، على مستوى آخر أو عدة مستويات ·

وهاتان الظاهرتان للحياة السياسية ، ترتبطان ارتباطا عمليا فى دائرة مفرغة فهما بدورهما يجعلان من الصعب ، بل ومن المستحيل ، وغير المفيد فى أغلب الأحيان الوقوف فى وجه المواقف الشخصية الضيقة الأفق ، والرغبات والصراعات · وكان من النتيجة النهائية على المستوى العام ، **وجود نوع من عدم الثقة المتبادلة بين الدولة** والمواطنين ، وبين الحكام والرعايا ، وبين الحكام والمحكومين وبين المواطنين أنفسهم ·

وكان من المحتم بان يؤدى انعدام الثقة الى القضاء على الجهود العامة سواء فى المجالات الاجتماعية أو الاقتصادية أو العسكرية » ·

ولهذا حل الفقر وازداد التخلف ومدت مصر يدها تسأل الغير المعونة ·

وفى هذا يقول بول هاموند فى كتابه عن القوى المحركة للسياسة فى الشرق الأوسط :

« وأصبح أهم أهداف الدبلوماسية المصرية الحصـول على القروض الأجنبية ، فكانت السياسة الخارجية تدور بطريقة تهدف الى تسهيل هذه الفروض ، أما عن طريق القاء مصر فى أحضان احدى الدولتين العظمتين والاعتماد على رعايتها ، واما عن طريق استخدام تكتيـكات اللعب على الحبلين ، وذلك باثارة آمال أو مخـاوف موسـكو وواشنطن ، وبذلك تدفعهما الى كسب رضاء مصر بتقديم المساعدات لها » ·

ولهذه الأسباب قام المرحوم محمد أنور السادات بثورة ١٥ مايو التى قضت على مراكز القوى كما قام أيضا بتلافى احتكار الحكومة لمقدرات الناس بالسماح بالانفتاح الاقتصادى تشجيعا للملكية الخاصة وللانشطة الخاصة الوطنية والاجنبية وفى جميع المجالات الزراعية والصناعية والتجارية والمهنية وغيرها ·

وبهذا تهيأت الأجواء لظهور الرأى الحر لأول مرة بعد ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ هذا الرأى النابع من ملكية الانسان الخاصة لوسائل رزقه ·

وعالج الرجل · بكل امكانياته ، المساوىء التى ظهرت فى تجربة ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، اذ شجع المعارضة والرأى الآخر بقيام الأحزاب السياسية ·

كما نادى الرجل ، رحمه الله ، بعـدم الخوف وتشجيع الملكيات الخاصـة حتى يشعر الانسان بالشجاعة وهو يقول لا ان لزم قول هذه الكلمة للحاكم فى أو وقت .

بل وأكثر من هذا ، فقد دارت مناقشات علنية حرة وعلى صفحات الجـرائد والمجلات عن بيع القطاع العام .

والمعروف ان القطاع العام هو الدعامة الوحيدة للاشتراكية .

وبدأنا نسمع ونقرأ المجـادلات الجـادة والتى منهـا ما يهاجم سياسة الحكومة نفسها .

وأغلقت المعتقلات وأنهى الرجل ، رحمه الله ، عمليات التجسس على النـاس والقبض عليهم واعتقالهم بدون محاكمة أو حتى بدون اذن من النيابة العامة .

وحاول الرجل جهده أن يصلح من أخطاء الحكم المطلق خاصة ما أدى اليه فى مأساة يونيو سنة ١٩٦٧ فاستعاد سيناء كلها .

واستفتى الشعب على الدستور وعلى الكثير من المسائل القومية فساهم بذلك مساهمة فعالة فى اشراك الشعب فى حكم نفسه بنفسه .

ونشأت الصحافة الحرة المختلفة الميول كما بدأت الصحافة الدينية فى الظهور .

ولا يوجد عهد بدون أخطاء .

فاذا رؤى الحكم على عصر السادات رحمه الله فمن الأفضل مقارنة عهـده بما سبقه من عهود سبق توضيحها فى هذا الكتاب .

ويكفى السادات أنه لم يكلف هذه الأمة أخطاء كالتى عانت منها بسبب (كل) من حكموا مصر من قبله .

بل لقد نجح الرجل فى اصلاح أخطاء كثيرة ارتكبت قبل عهده خاصة بالنسبة لاستعادة سيناء وانهاء تخريب الاقتصـاد المصرى والانسـان المصرى فى حـروب غير متكافئة مع اسرائيل التى يساند وجودها القوى العظمى .

ولكن الفرقة لازالت موجودة عن النظم الحالية — فلماذا ؟ .

هذا ما سيتم بحثه فى الجزء الثالث والأخير من هذا الكتاب .

« ان أمراء تانيس أصبحوا أغبياء ، وصار أمراء منف مضللين »

النبى/ أشعيا يصف حكام مصرفى الأيام الأخيرة المحزنة
من التاريخ المصرى

الباب الثانى

فى القيادة التى تفرقت عنها جماهير الأمة المصرية

نماذج للقيادات المفروضة
ووسائلها فى بلوغ السلطة والاحتفاظ بها

تتبعنا فى الجزء الأول من هذا الكتاب بعض نماذج من القيادات التى انقادت لها الجماهير بالولاء والطاعة ٠

ويلاحظ أن هذه القيادات تجمعها بعض الظواهر المشتركة فيما بينها ٠

فهى تتميز بتقديم كل مبتكر وجديد فى خدمة الجماعة المصرية أو فى خدمة نظامها الدينى أو الاقتصادى أو السياسى أو الاجتماعى ٠

لاحظنا ذلك على سبيل المثال : فيما عرف عن أوزوريس من أنه (أول) من علم (الناس) الزراعة وأصول المدنية ٠٠ ثم جاس بينهم يعلمهم تقوى الالهة والحكم بعدالة ٠٠

وايمحوتب ، الذى تربع على فكر وقلوب المصريين لألفى عام لأنه (أول) من صمم أكبر بناء حجرى فى العالم ثم هو المبتكر لكثير من علوم الطب ٠٠

والقاضى خيتى الذى أصبح تشدده فى العدالة لقضائه ضد أقاربه حتى لا يتهم بالتحيز لهم ظلت حادثته تروى لأكثر من ألف عام ٠

وسواء كان (الاله) رع الها أسطوريا أو بشرا تم تاليهه لما قدمه من خدمات فان أساس (تقديسه) ليس لأنه خلق مصر فحسب ، بل لأنه (أول) من حكم بعدالة وفقا للقانون الذى سنه ٠

ثم انظر الى القيادة النسائية التى ظلت قدوة لكل المصريين فى حدب الأمومة ووفاء للزوجة المتمثلة فى شخصية ايزيس ٠

وبتاح ــ حتب التى ظلت حكمته وارشاداته الأخلاقية وفى أصول الحكم والعلاقات الاجتماعية منارة يهتدى بها الأحفاد لأكثر من ألف عام ٠

وتأمل فى وطنية ايبور وتحسره على ما آلت اليه أمور وطنه من فوضى وتفكك ٠

وكان سقننرع الثانى أحد ملوك الأسرة السابعة عشرة فى طيبة عندما أرسل اليه ملك الهكسوس الذى اتخذ من صا الحجر فى الدلتا عاصمة له ، أرسل اليه رسالة استفزازية يبلغه فيها أن أفراس البحر التى تسبح فى نهر النيل فى الأقصر تقلق

نومه فى قصره فى أفاريس (بالدلتا) ويطلب منه اسكاتها كما يطلب منه أيضا ضرورة تغيير دينه المصرى المنتمى الى آمون رع ويعبد بدلا منه ديانة المحتل الهكسوسى.

وجمع الملك كبار رجاله واستشارهم قائلا « اريد أن أعرف ما هى فائدة قوتى، فهناك ملك فى أفاريس وآخر فى كوش (النوبة) وها أنا ذا أحكم بين أسيوى ونوبى وكل منا يحكم جزءا من مصر وأنا لا أستطيع الوصول الى منف لأنه (أى ملك الهكسوس) يحتل مدينة الأشمونين ، والتعب حل بالناس بسبب خدمتهم للآسيويين، سأحاربه حتى أبقر بطنه ، ان رغبتى هى أن أنقذ مصر وأسحق الآسيويين » .

وقاد الملك سقننرع المصرى الشجاع القوات المصرية بنفسه وحارب الغزاه الى أن استشهد فى أحد معاركه ، وعثر على موميائه وبها آثار جروح مميتة فى صدره ورأسه فواصل ابنه الملك كامس الشجاع المعركة حيث تلقف العلم من أبيه ويقول (لقد هزمته ودمرت جدرانه وذبحت رجاله .. وكان جنودى كالأسود مع فريستهم فاقتسموا فيما بينهم ممتلكاتهم فأصبح لهم عبيد وماشية ولبن ودهن وعسل وامتلأت قلوبهم بالفرحة) .

وغنم كامس من الهكسوس ٣٠٠ سفينة ثم واصل تقدمه فى الدلتا حتى وصل فيما يحتمل الى مشارف أواريس ولكن موته المفاجىء منعه من الاستيلاء عليها ،فأكمل أخوه الملك أحمس المسيرة حتى طرد الهكسوس من مصر .

. وننتقى من نساء هذه الأسرة العظيمة القدوة فى الوفاء والتضحية من أجل مصر ما كتبه الأجداد عن الملكة اعح حوتب زوجة الملك سقننرع تاعا (الشهيد) وأم الملك أحمس الاول « سيدة المصريين وسيدة جزر البحر المتوسط .. وزوجة ملك وأخت ملك وأم ملك .. العظيمة التى تهتم بشئون المصريين .. هى التى جمعت الجيش وحمت الناس وأعادت الهاربين وجمعت المهاجرين ، وهى التى هدأت ثورة المصريين فى الصعيد وهى التى قضت على العصاة فى مصر .. الزوجة الملكية اعح حوتب لها الحياة » .

ونحن نردد أيضا اليوم معهم أن لها الحياة أن فعلت كل ذلك من أجل مصر(٨١)

ونشبت ثورة المصريين الأولى سنة ٢٤٦ ق.م ضد الحاكم الأجنبى البطلمى بسبب قسوة الضرائب والاتاوات والقسوة البالغة فى تحصيلها من الأهالى مما اضطر الفلاحين الى الهجرة (أى الهروب) وترك أعمالهم وأماكن اقامتهم وأقفر الكثير من البلاد والقرى من ساكنيها .

وقام الأجنبى باخماد الثورة بالقوة المسلحة .

وفى ٢٢/٦/٢١٧ ق.م ، اضطر البطالمة الى الاستعانة بالمصريين فى الجيش حيث أن من عادة الحاكم الأجنبى عدم الاستعانة بالمصريين فى الجيش خوفا من انقلابهم عليه .

وفى ذلك التاريخ حقق البطالمة نصرا على أعدائهم فى الشام بقوة الجندى المصرى وشـــجاعته ٠

فأعاد هذا النصر الثقة الى المصريين وأذكى روح الوطنية الكامن فى نفوســهم فلم تنقطع ثوراتهم ضد البطالمة منذ هذا النصر ٠

وتعتبر هذه المعركة (معركة رفح) درة فى جبين تاريخ الجيوش المصرية وبداية النهاية لدولة البطالمة ٠

وفى أثنـــاء الحـكم الأجنبى (البطلمى) روج المصــريون عدة نبؤات الغرض منها ايقاظ الشعب وتحريكه للثورة ضد الأجنبى وطرده وذلك على يد قائد مصرى سيظهر من بين الشعب لقيادة عملية اعادة مصر لأبنائها ٠

وأشهر هذه النبؤات نبوءة صانع الفخار ٠

نبوءة صانع الفخار :

(تتحدث عن نبوءة أوحى بها الى صانع فخار ونطق بها أمام الملك أمينوفيس من ملوك الأسرة الثانية عشرة ـ ويتناول حديثه ما سيحل بمصر من أيام عصيبة تقع فيها تحت حكم الأجانب ثم يعقب ذلك ظهور شخصية مصرية تخلص البلاد ٠

ثم هناك اشارة طريفة تتحدث عن مدينة الاسكندرية ، على هذا النحو (وسوف تصبح المدينة التى بجوار البحر مكانا يجفف فيه الصيادون شــباكهم ، لأن الألهــة سوف تغادرها الى منف ، بحيث يقول عنهـــا من يمر بها : كانت هذه المدينة الا الرؤوم للعالم ، فكل شعوب الأرض وجدت لها مستقرا بها ٠

وفى نبوءة أخرى يدعى مؤلفهـا انهـا ترجع الى عصر الملك تاخوس عام ٣٦٦ ـ ٣٦٠ ق٠م من ملوك الأسرة ٣٠ ، أى قبل الفتح المقدونى ، ثم يتناول بأسلوب التنبؤ تاريخ مصر منذ تاخوس ، وما تعرضت له من غزو وحكم أجنبى على يد الفرس أولا والاغريق بعد ذلك ٠ ثم تنتهى النبوءة ببشرى للمصريين بأن يوم الخلاص قريب وأنه سيظهر واحد من أبناء أهناسيا المدينة ، يقوم بتحرير مصر وطرد الأجانب والأيونيين (أى الاغريق) ٠

وواضح أن المغزى من هاتين النبوءتين واحد ، وأن قدمهما التاريخى ادعاء قام به دعاة الثورة حتى يضفوا على دعواهم صفة الصدق الدينى وبعث روح الثورة بين الجماهير ـ كما يصور هذان النصان وأمثالهما أحسن تصوير حالة المصريين النفسية ومقدار ما شعروا به من كراهية تجاه الأسرة البطلمية ٠ ويبدو أن كلا من الاسكندرية ومنف اتخذ فى العقلية المصرية معنى رمزيا ـ فالاسكندرية المدينة التى بجوار البحر كانت رمزا لحكم الأسرة البطلمية الأجنبية ، وقلما أطلق عليها المصريون اسما آخر غير اسمها القديم (رع كدت) (راقودة) ٠

أما منف فقد بقيت رمزا للوطنية المصرية وأصبحوا يتطلعون الى اليـوم الذى تعود فيه الآلهة واقامة الملك بالعاصمة القديمة منف) (٨٢) ٠

(وقد تجـددت الثـورة فى عهـد بطليموس التاسع وكانت مثـل سابقاتها وليدة عوامل (دينية و قومية و اقتصادية) ٠

وقد تفاقمت الحال فى منطقة طيبة الى حد أن بطليموس التاسع رأى أن الطريقة المثلى لقطع دابر الثورة هى القضاء على طيبة لأنهـا كانت دائمـا مهد الثورات ومعقل الثائرين ، ولذلك فانه بعد حرب دامية دامت ثلاث سنوات استولى على طيبة وخربها تخريبا شديدا عام ٨٥ ق٠م ٠

ويبدو أن تخريب طيبة قد قصم ظهر الثورة لكنه لم يقض عليها قضاء مبرما ، اذ تشير الدلائل الى حدوث اضطرابات فى عام ٧٨/٧٩ وفى عام ٦٤/٦٣ وكذلك فى عام ٥٨ ق٠م ٠

وقد خرج المصريون من كفاحهم الطويل يجرون أذيـال الخيبـة بسبب افتقارهم الى ما امتازت عليهم قوات البطالمة من النظام والأسلحة والعناد والأموال ، وبسبب عدم اتحادهم ، **فان فريقا من المصريين بدلا من أن يشتركوا فى مناهضـة الحـكم الأجنبى الجائر اشتركوا فى مناهضة مواطنيهم ، أو على الأقل وقفوا منهم موقفا سلبيا، وذلك اشباعا للأحقاد الشخصية وسعيا وراء مصالحهم المادية ، فكانوا بذلك مطيـة للأجنبى وجزءا من أداة تنفيذ سياسته الاستعمارية)(★)(٨٣) ٠**

(ورغم الفشل المرير الذى انتهى اليه كفاح المصريين ضد البطالمة ، وبرغم القوة الكبيرة التى وضعهـا الرومان فى مصر فانه لم تكد تمضى شـهور قليلة على الفتح الرومانى حتى هب المصريون ثائرين على الغزاة الجدد ، وقد رفع لواء الثـورة منطقة طيبة ، ويبدو أن الثورة بلغت من الخطورة حدا اضطر معه أول حاكم رومانى لمصر الى تجريد حملة قوية لقمعها ، ويبدو أن الثورة لم تقتصر على مصر العليا بل أسهمت فيها الدلتا أيضا ٠

ولا تذكر المصادر القديمة نشوب ثورات عامة بين المصريين بعد ذلك (فى عهد الرومان) الا الثورة المعروفة (بحرب الرعاة) التى وقعت عام ١٧٢ م فى منطقة الدلتا الساحلية شرقى الاسكندرية ٠ وقد تزعم الثورة كاهن مصرى يدعى أسـيدوروس واشترك فيها جموع كبيرة من المزارعين تمكنوا من القضاء على الحامية الرومانية التى تصدت لهم ، حتى خيف من وقوع الاسكندرية فى قبضتهم مما اقتضى استدعاء نجدة من سوريا ٠ **وقد لجأ القائد الرومانى الى حيلة المفاوضات حتى نجح فى بث الفرقة بين صفوف الثوار ثم قاتلهم متفرقين وانتصر عليهم)(٨٤) ٠**

(★) لعل القارىء يلاحظ المآسى التى ترتب على فرقـة الأمـة فى ظل الأنظمة المفروضـة من أعلى ، وستتكرر نفس هذه المشاهد عبر التاريخ المصرى كله وخاصة عند احتلال الانجليز لمصر فى العصر الحديث وما بعد الاحتلال أيضا ٠

وتأمل فى القيادة القدوة فى العصر المسيحى خاصة قيادة الأنبا أثناسيوس حيث التقت الجماهير المصرية حول قيادته رغم ما نالها من اضطهاد من جراء ذلك ٠

ثم يعود الشعب للالتفاف حول الرجال الذين رفعهم لقيادته مثل السيد عمر مكرم وجرجس الجوهرى وأحمد عرابى ومصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول والشيخ محمد عبده وغيرهم ٠

وكل هذه القيادات لها سمات مشتركة وهى أنها القدوة فى تمثل النظم والقوانين والمبادىء التى ارتضتها الجماهير فضلا عن تقديمها لكل جهد ولكل تضحية ولكل فكر جديد فى خدمة الأمة المصرية ٠

واليك بعض نماذج القيادات المفروضة بدءا من نهاية الأسرة الثانية عشرة ٠

عندما تولى الملك أمنمحات الرابع الملك سنة ١٧٩٨ ق٠م (فى الدولة الوسطى) وكان ضعيف الشخصية ولم يستمر فى الحكم سوى تسع سنين وأربعة أشهر ثم تولت بعده الحكم الملكه سبك نفرو ولم تستمر فى الحكم غير ثلاث سنوات وأربعة أشهر ثم انهارت الأسرة الثانية عشرة والدولة الوسطى ومعها مصر بسبب الصراع على الحكم حيث تنافس عليه أمراء الأقاليم وأفراد الأسرة المالكة وكبار رجال الدولة ٠

(والآثار تؤكد وجود شقاق فى الحريم الملكى حيث كانت الأمهات يؤملن أن يصبح أبناؤهن على العرش ، كما ظهر لكل جهة متصارعة أنصار لعلهم يحصلون على المنافع فى حكومتهم المستقبلة) (٨٥) ٠

(واستولى كل كبير على ما قدر أن يستولى عليه من أقاليم مصر والاستقلال به وأصبحت هناك أسرات قوية تحكم فى طيبة وقفط وغيرها)(٨٦) ٠

(وتفرقت البلاد وضعفت الملكية الى الحد أن الملك لم يكن قادرا على التغلب على المناوئين لسلطانه فاتجه الى (لون من ألوان السحر لمقاومتهم وذلك بأن يأتى بأوانى فخارية أو تماثيل صغيرة غير مفككة تمثل شكل انسان ، وكانت تملأ هذه الآثار بنصوص فيها أسلوب اللعنة ، وتحطم فى احتفال خاص ، وهو بلا شك عمل رمزى لتحطيم كل من يعارض الملك) (٨٧) ٠

كما لا يخفى أن الاله آمور الذى كان الها محليا لطيبة ويكاد يكون مجهولا قبل الدولة الوسطى أصبح يعلو شأنه ليصبح اله الدولة الرسمى بدلا من الاله (رع) فيحوز كهنته معظم الخيرات والهبات والقرابين والأوقاف وعلى حساب الاله رع وكهنته فى الوجه البحرى (فى عين شمس) وهذا يثير بالقطع نوعا آخر من الصراع الذى يتخذ الشكل الدينى وهو فى جوهره صراع على السلطة والمكانة والمكاسب المادية بين كهنة رع وكهنة آمون ٠

واستمرت الفوضى والتفكك بعد انهيار الأسرة الثانية عشرة لمدة (قرن من الزمان) حيث وجد الهكسوس مصر لقمة سائغة فدخلوها محتلين بدون مقاومة تذكر أثنـــاء انشغال قادة الأمة بصراعاتهم ٠

واستمر الاحتـلال الهكسوسى حـوالى (قرن ونصف من الزمان) حيث تمكن المصريون فى طيبة بقيادة عائلة الملك أحمس من طردهم ولم يمض على طرد الكهسوس سوى ربع قرن من الزمان حيث بدأت مصر فى انشاء امبراطوريتها ٠

ولقد كانت الفترة التى أمضاها الهكسوس محتلين لمصر فترة اذلال للمصريين سواء فى عقيدتهم الدينية أو فى عزتهم الوطنية أو فى حاجاتهم الاقتصادية ٠

وبعد أن تم طرد الهكسوس واستقرار الحكم نشب الصراع بين الملكة حتشبسوت وزوجها وكل يريد الانفراد بحكم مصر وكل له حاشية تؤيده ، وظلت كفة حتشبسوت راجحة لمدة ثمانية عشر عاما الى أن تمكن حزب زوجها من الانفراد بحكم مصر بعد موت حتشبسوت أو بعد قتلها (الله أعلم) ٠

ولم يكن تحوتمس الرابع (١٤١١ ـ ١٣٩٧ ق٠م) وليا للعهد يجب أن يؤول اليه العرش بعد وفاة أبيه بل كان من بين اخوته من الذكور من هو أقرب الى الملك منه ، وانما تولى الملك عقب نزاع بينه وبين غيره من اخوته ٠

وقد دخل فى هذا النزاع حزبى كهنة آمون وكهنة عين شمس ، فكهنـة آمون أيدوا ولى العهد الشرعى وكهنة عين شمس كانوا فى جانب تحوتمس الرابع مما أوجد فجوة بينه وبين كهنة آمون وحقق تقاربا بينه وبين كهنة عين شمس جعله يتجه نحوهم ويبذل ما استطاع لاحياء عبادة الشمس (رع) على حساب عبادة آمون ٠

بل نجـد أنه شجع عبادة قرص الشمس آتون وكان أول من أمر برسمه وهو يعطى الحياة ، كما نرى ذلك فيما بعد فى عهد حفيده اخناتون ٠

وبالرغم مما بناه أمنحوتب الثالث (١٣٩٧ ـ ١٣٦٠ ق٠م) من معابد باسـم آمون رع فان كهنـــة آمون رع لم ينظروا بعين الرضى الى احيـاء عبادة الشمس ، ولم ينظروا أيضـــا الى تحلل الحيـاة الاجتمـــاعية تقليدا لفرعون الذى استخف بكل التقاليد ٠

وقصة آمون تبدأ عندما تولى أمنمحات الأول ملك مصر سنة ١٩٩١ ق٠م منشئا الأسرة الثانية عشرة وكان حكمه سببا فى ارتفاع شأن اله كاد يكون مجهولا قبل أيامه ، أو علَى الأقل لم يكن له نفوذ سـياسى فى مصر ، هذا الاله هو الاله آمون ، الذى يدخل فى تركيب اسم امنمحات ٠

وكان آمون قوة لم تلبث حتى امتدت فصار لها سلطان واسع ، ثم زاد فأصبح فى النهاية سلطانا عاما ، ومعنى كلمة آمون (الخفي) أي أن آمون كان كائنا لا يمكن رؤيته ، أي أنه اله مقيم في كلِ مكانٍ ٠

وقبل تولى امتمحات الأول حكم مصر كان آمون الهــا محليا لمدينة طيبة وكان رع ، اله الشمس هو الاله الرسمى للدولة المصرية ومرشدها العظيم ٠

الا أن آمون أخذ منذ سنة ١٩٩١ ق٠م يتخذ طريقه ليحل محل الاله رع وتم تطعيمه باسمه فأصبح يسمى آمون ــ رع (ملك الآلهة) ٠

وبعد أن أصبح آمون الها للأمة المصرية كان مقدرا له أن يكون الاله الامبراطورى العظيم أثناء حكم الامبراطورية ، وبذلك صار الها ذا صفة عالمية ٠ بنوا له أعظم المعابد فى جميع الأزمان ، وهو معبد الكرنك ، الذى ظل الملوك المصريون يعنون به ويزيدون فيه نحو ألفى سنة ، وشيدوا فيه من المبانى ما غطى أفدنة وأفدنة ، ابتداء من الدولة الوسطى حتى العصر الرومانى ، وقبيل أواخر الامبراطورية أصبح أغنى قوة فى العالم، وكانت قوة رئيس كهنته منافسة لقوة الملك ٠

وارتفاع شأن آمون يرجع الى العقيدة المصرية بانه كان صاحب الفضل الأول والأخير فى انتصار طيبة ، تحت زعامته وتأييده وبركته بصفته الهها المحلى فى اعادة الوحدة الى مصر فى الدولة الوســـطى ثم فى طرد الهكســـوس من مصر فانشــاء الامبراطورية المصرية ٠

لذلك كانوا يعزون الفضل فى ايجاد الامبراطورية الى الهين ، هما الاله ــ الملك الذى قاد الجيوش والاله الذى بارك تلك الحروب (آمون) فقد تعطف آمون رع ، واذن باحدى الحملات ضد الآسيويين ، وأعار سيفه وعلمه الالهى الى الملك ، لكى يقود طريقهم فى المعركة ، وكان على الجيوش أن تدفع ما عليها من دين لآمون بعد أن تنتصر، وأن تعطيه نصيبه العظيم من الغنيمة لأنه رعاها وحماها من الخطر ، وكان عليهم أيضــا أن يزيدوا من القرابين التى يقدمونها اليه اعترافا بجميله ٠ ومع مضى الأيام زادت ثروة آمون زيادة كبيرة ، اذ كان كل نصر للجيش فى معركة من المعارك يزيد شــيئا الى موارده ، ٠٠٠ وهكذا كانت العـــلاقة الســـائدة بين اله الامبراطورية وبين الأمة ٠

لم تكن علاقة من يزهد فى الحصــول على فائدة ، ولكنها كانت اشتراكا الهيا فى أمور دولة مقدسة ٠

وأخيرا ، أصبح الصراع بين الملك (اخناتون) وبين كهنة آمون واقعا لا محالة ٠

(ولم يكد يتولى هذا الملك حكم مصر حتى ثار على دين آمون وعلى الأساليب التى يتبعها كهنته ، فقد كان فى الهيكل العظيم بالكرنك طائفة كبيرة من النســـاء يتخذن سرارى لآمون فى الظاهر ، وليستمتع بهن الكهنة فى الحقيقة) ٠

وكان الملك الشاب فى حياته الخاصة مثلا للطهر والأمانة ، فلم يرض عن هذا العهر المقدس ، وكانت رائحة دم الكبش الذى يقدم قربانا لآمون كريهـــه نتنــه فى

خياشيمه كما كان اتجار الكهنة فى السحر والرقى ، واستخدامهم نبوءات أمون للضغط على الأفكار باسم الدين ، ولنشر الفساد السياسى ، مما تعافه نفسه ، فثار على كل ذلك ثورة عنيفة ، وقال فى هذا (ان أقوال الكهنة لأشد اثما من كل ما سمعت حتى السنة الرابعة (من حكمه) وهى أشد اثما مما سمعه (والده) الملك أمنحوتب الثالث ٠

وثارت روحه الفتية على الفساد الذى تدهور اليه دين شعبه ، وكره المال الحرام والمراسم المترفة التى كانت تملأ الهياكل ، وأحفظه ما كان لطائفة الكهنة المرتزقة من سيطرة على عبادة الأمة ٠ ثار الرجل على هذا كله ثورة الشعراء ، فلم يقبل تراضيا ولم يقنع بأنصاف الحلول ، وأعلن فى شجاعة أن هاتيك الآلهة وجميع ما فى الدين من احتفالات وطقوس كلها وثنية منحطة ، وأن ليس للعالم الا اله واحد هو ــ آتون ٠

ورأى اخناتون ، كما رأى أكبر فى الهند من بعده بثلاثين قرنا ــ أن الألوهية أكبر ما تكون فى الشمس مصدر الضوء وكل ما على الأرض من حياة (٨٨) ٠

وبطبيعة الحال وقف بجانب اخناتون فى ثورته كهنة رع فى عين شمس بصفة خاصة وكهنة الآلهة الأخرى التى كانت تحسد كهنة آمون على سطوتها وعلى ترفها ٠

ووقف الجيش بجانب الملك لدوافع فى نفس قائده آى لعله يستفيد من هذا الصراع فيلى حكم مصر وهذا ما حدث فعلا بعد ذلك ٠

كما وقف بجانب الملك كل من يجد فائدة من وراء هذا الصراع سواء فى وظيفة يتولاها أو فى مال يصل اليه ودون أن يكون عندهم ايمان بالعقيدة الجديدة ٠

وأيا كانت حقيقة الصراع ، فاننا لا نملك الا أن نحس بالفخار لأن هذا الرجل حاول أن يقضى على كل العيوب التى كانت تعانى منها مصر وذلك باحلال الوحدة فى الدين بدلا من الفرقة ، وباحلال الصدق والصراحة والعدالة بدلا من أكاذيب الكهنة وسحرهم وتضليلهم وجشعهم وظلم الانسان للانسان فى قوته وفى نفسه ٠

كان الرجل سابقا لعصره بأكثر من ألف عام وكان أول انسان يكتشف وحدانية الخالق ويؤمن بالمساواة التامة لجميع المخلوقات أمامه ٠

كان الرجل معول هدم لكل ما يحجب نفسيات الناس وأفكارهم عن بعضهم ، حتى يتعارفوا على الصدق وعلى الصراحة ، فيتآلفوا ٠

ولذلك ألغى الكهانة وألغى الأسرار الكهنوتية ، وألغى عمليات السحر والابتزاز والدجل التى كانت تتم فى الظلام فى أقصى مكان من معابد آمون ليجعل بدلا منها معابد آتون المضيئة المكشوفة للشمس مثل قلوب الناس المكشوفة لبعضهم ولالههم الأوحد بدون حجاب ٠

فكانت كلمات الصدق والصراحة والمساواة والعدالة تعبر عن حقيقة اتجاهاته بينما استعملها غيره ادعاء وكشعارات دون أن تدل على الحقيقة في شيء ٠

وانتهى هذا الصراع (بموت) اخناتون ثم باعادة ديانة آمون وتحطيم كل أثر لأول محاولة للتعرف على وحدانية الخالق ٠

ثم يستفيد الجيش من هذا الصراع فيستولى قائده آى فحـور محب على ملك مصر ليستمر الصراع على العرش من بعدهما وليستعيد آمون وكهنته سطوتهم السابقة على العرش وبصورة أعنف مما سبق ٠

وقد ولى الملك توت عنخ آمون الحكم بعد اخناتون وتوفى وهو فى العشرين من العمر ورأت أرملته الشابة أن الملك سيخرج من بيت أبيها فكتبت الى ملك خيتـا تقول له (مات زوجي وليس لى ابن ، ويقولون عنك أن لك أبناء كثيرين ، فاذا أرسلت الى ابنا لك فانه يستطيع أن يصبح زوجى ٠ ولن أقبل بحال من الأحوال أن أتزوج واحدا من رعاياى فان ذلك شيء أمقته) ، ولقد دهش ملك خيتا لهذه الرسالة – وعلى كل حال فقد قام المصريون بقتل ابنه قبل وصوله الى مصر ٠

ولقد أصدر الملك حور محب – الذى تولى حكم مصر بعد عدة سنوات من وفاة اخناتون مرسوما ذكر فيه أنه قضى الليل والنهار فى التفكير فيما يمكن عمله لاصلاح مصر وأنه أخذ قرطاسا من البردى وقلما وكتب بعض التشريعات الاصلاحية (٨٩) ٠

ويلاحظ ان لانتهاكات التى صدر هذا المرسوم لمعالجتها (تتضمن) اغتصاب الموظفين أو الجنود لممتلكات المواطنين العاديين أو تسخيرهم للعمل بالقوة ، وما كان يأتيه هؤلاء الموظفون والجنود من حرمان الدولة مما يستحق لها من السلع أو مجهود الأفراد ، ويلوح أنه كان هناك نشاط كبير فى محاولة التقوية والتطعيم فى مصر – فالآن أمنت الدولة على حقوقها القانونية فى الضرائب والسـخرة ، وعملت على حماية ممتلكات (الفقراء) من نهب الجنود ، أو من جامعى الضرائب المحبين للسرقة ، ونرى العقوبات التى قرروا تطبيقها فى الحالات البسيطة من النهب أو الفوضى على جانب كبير من القسوة ، وذلك لأن الانتشار المخيف لعدم الأمانة بين الموظفين ، استدعى تطبيق أقصى العقوبات ، ولم يصبح ميسورا أن تعود الماعت (العدالة النظام ، الصدق) الى ما كانت عليه البلاد الا بتنفيذ أقسى وأشد ما يستطيع أن يفعله القانون ٠

وانه من الضرورى التوضيح انه بالرغم من أن (الرجـل الفقير) كان الهدف المقصود بالحماية من الظلم والنهب ، فاننا لا نرى فى المرسوم عناية كبرى بالرخاء الاجتماعى ، ولكنه كان يقصد فقط أن يحمى الضرائب بحماية مصادرها (٩٠) ٠

وهكذا يحرم المرسوم على الموظف أن يستولى على القارب الذى يستخدمه أحد العامة لدفع ما عليه من ضرائب ، ويحرم على الجيش أن يستولى على جلود الحيوانات التى يريد أن يدفعها العامة فى الضرائب التى عليهم ، ويحرم أخذ نبات خاص يستعمل

فى الصباغة وبعض الأعشاب التى كان يتحتم على هؤلاء العامة أن يقدموها للحكومة ، كما تحرم على بعض جامعى الضرائب ، من أن يطففوا فى كيـل الضريبـة لفائدتهم الشخصية ، فلم يكن العامة واثقين من حماية ممتلكاتهم اللهم الا ما كان مستحقا منها للدولة ، لأن موارد مكاتب الحكومة كان الهدف الأول فى ذلك المرسوم الرجعى ٠

ولا تتناسب شدة العقوبات بأى صورة من الصور مع الذنوب ٠ فاذا أخذ أحد القارب الذى يستخدم لتسليم الضرائب (يوقع عليه العقاب بقطع أنفه ونفيه الى ثارو) وثارو التى كانوا ينفون اليها مثـــل هذا الشخص كانت منطقة موحشة ، لا يحبها الناس ، يطبقون فيها نظاما قاسيا ، لأنها كانت الحصن الذى على الحدود على خط السويس ٠٠ (اذا قامت فصيلتان من الجيش المحارب ، واحدة فى المنطقة الجنوبية والثانية فى المنطقة الشمالية بالاستيلاء على الجلود فى البلاد ٠٠٠ بأن يذهبوا من منزل الى منزل ، يضربون وينهبون (الفلاحين) ٠ وعلى ذلك لا يستطيع جامع الضـــرائب الحصول على الجلود (فان ذلك أيضا من الأشياء المهمة ، ويجب أن يحقق فيها على هذا الأساس) ، أما الجندى المتهم ٠٠ (فابتداء من اليـوم ، توقع عليـه العقـوبة بضربه مائة عصاه ، ويفتح فى جسمه خمسة جروح ، ويؤخذ منه الجلد الذى اغتصبه كما لو كان مسروقا) ٠

وهذا عمل قاسى رجعى ، وضع لايقاف الخيانة المحزنة التى كان يقترفها رجال الحكومة ٠ يرينا ذلك القضاء فى العقوبات القديمة فى الدولة المقدسة التى كانت تقوم فيها كلمة الملك مقام العدل ، وها نحن نرى بوضوح كيف بدأوا يكتبون التعليمات غير الشخصية لتحل محل سلطة الملك الشخصية ٠

كما يرينا ذلك المنشور الفرق الهائل بين الحرية والديمقراطيـة والعدالة فى فترة الثورة الاجتماعية وحتى منتصف عهد الأسرة الثانية عشرة وبين ما آلت اليه الامور فى هذا المنشور ٠

وبعد حورمحب جاءت الى الحكم عائلة جديدة (الأسرة ١٩) وكان ثانى ملوكها سيتى الأول الذى أعلن صراحة عزمه على انهاض مصر من كبوتها وأرخ سنى حكمه بأنها سنى النهضة فمثلا (السنة الثانية من عهد تكرار ولادة سيتى الأول) وتعبير تكرار الولاده ليس الا ذات الألفاظ لكلمة النهضة ، وقد استخدمها المصريون فيما بعد كتعبير يقصدون منه التصميم على العودة الى الأوضاع القديمة ٠

ولكن وسيلة سيتى الأول لتحقيق نهضـة مصر كانت هى نفســـها وســـيلة حور محب ، وكانت هى نفسها وسيلة اخناتون (مع نبل مقاصدها) ووسيلة من بعده أيضا اذ التجأ الى القسوة والعنف والعقوبات الصارمة ٠

ولأجل حماية مؤسسة دينية فى أبيدوس ضـــد اغتصاب او استغلال موظفى الحكومة لممتلكاتها ، فقد أصدر سيتى الأول هذا المرسوم والذى يوضح ضعف النظام بين موظفى الدولة كما أوضحها مرسوم حور محب منقبل ٠

فاذا أذنب أى موظف فنقل حدود الحقول التابعة لتلك المؤسسة فان عقابه هو قطع الأنف والأذنين ، وأن يعمل كفلاح تابع للمؤسسة . وكل شخص يأخذ بالقوة ، وبدون وجه حق ، راعيـا من رعاة المؤسسة ، فيتسبب عن ذلك خسارة فى الماشية ، فانه يعاقب بضربه مائتى عصا ، وأن يدفع غرامة كتعويض عن الماشية المفقودة وذلك مائة ضعف المفقود ، واذا أخذ أحد الرعاة شيئا من الماشية لنفسه فانه يوضع فوق وتد ، وان يأخذوا زوجتــه وأولاده كأرقاء ، وعلى من اشترى الماشــية أن يعيدها مائة ضعف .

فما الذى جعل مراسيم حور محب وسيتى الأول أقسى فى توقيع العقاب مما كان عليه الأمر من قبل (أيام الدولة القديمة وحتى ما قبل الأسرة الثانية عشرة) .

ولماذا تضيف عقوبات قاسية وتوقيع غرامات فادحة ذات نسبة عالية زيادة عن الفصل من الوظيفة ومصادرة الأملاك ؟

ويمكننا أن نعقد مقارنة بين شدة هذه الجزاءات وما كان يوقع فى العصــور السالفة . ففى وثيقة من الأسرة الخامسة (من الدولة القديمة) لحماية كهنة أبيدوس من السخرة نرى أن الموظف الذى يجرؤ على مخالفة الأمر يعاقب بفصله من وظيفته وأن يأخذه المعبد ليسخره فى أى عمل من الأعمال ، ومع مصادرة خدمه وأملاكه . وينص مرســوم من الأسرة السادسة ، وضع لأجل حماية معبد قفط ، على الفصل من الوظيفة فقط .

بل لقد صدر مرسوم من الأسرة السادسة عشرة (فترة الكفاح الوطنى لطــرد الهكسوس من مصر) بشأن جرائم عديدة خطيرة ارتكبها أحد كهنة معبد قفط منها الخيانة العظمى ، فان العقوبة التى وقعوها عليه كانت الفصل من الوظيفة ومحو اسمه من الوثائق الرسمية (أى حرمانه من حقوقه السـياسية) ومصــــادرة ما يمتلكه فى المعبد .

ونعود للتساؤل ، ما الذى جعل مراسيم حور محب وسيتى الأول (ومن سيأتى بعدهم من الملوك والحكام الوطنيين والأجانب وحتى ما بعد ظهور السيد / عمر مكرم)، أقسى فى توقيع العقاب مما كان عليه الأمر من قبل ؟

لقــد كان منطق القوة والبطش الذى ساد فى الدولة الوسطى ثم كان احتلال الهكسوس للبلاد واحتياجات الامبراطورية ، وثورة اخناتون ، كانت كلها من العوامل التى أدت الى الاستئثار بالسلطة المطلقة (فى الحكم والاقتصاد والدين) ولكن هذه السلطة المطلقة لم تعد فى يد الملك بل أصبحت السلطة فى يد الدولة .

فلم يعــد لفرعون ما كان له من الرهبة والاحترام اللذين كانا (للملك الاله الطيب الرؤوف الرحيم) فى الأيام السابقة عندما كانت الدولة أكثر قدسية .

وهكذا حل قانون عام مكان ذلك النظام القديم المبنى على قبول طاعة الاله ـ الملك .

وفضلا عن ذلك ، فان مصر لم تظل على ما كانت عليه من أمن وثقة فى النفس ، وتسامح ، بل أصبحت أكثر عصبية ، وتعسفا ، وابتزازا ، ولم يعد للأفراد فى الدولة ما كان لهم من حرية وارادة ولكنهم كانوا مقيدين بخدمة الدولة تقييدا دقيقا ·

ونرى فى مرسوم سيتى الأول ، نقطة أخرى هامة ، وهى الالتجاء الى السحر لمعاونة القانون ، ففى تلك الوثيقة التى صدرت لأجل حماية مؤسسة أبيدوس ، والتى سبقت الاشارة اليها ، نقرأ عن الموظف الذى يتهم ، ولم يستطع تبرئة نفسه ، انهم كانوا يعاقبونه بالفصل من وظيفته وان يعمل كفلاح فى الحقل ، ويضربونه مائة عصا · ومثل هذه التهمة يمكن اثباتها فى التحقيق ، ولكن ما الذى كان يحدث فى حالة شخص عادى يعرف بوقوع جريمة ولا يبلغ عنها ، كان الآلهة فقط هم الذين يستطيعون معرفة هذا التدليس ، وهكذا كان الاله أوزيريس (يطارده هو وزوجته وأولاده ، ليقضى على اسمه ، ويحطم روحه ، ويمنع جثته من أن تستقر فى الجبانة) ·

وهناك مرسوم آخر ، يشبه ذلك المرسوم فى دعوته للآلهة لينتقموا (أما من يتجاهل هذا الأمر ، فان أوزيرس سيطارده ، وستطارده ايزيس زوجته ، وسيطارد حورس أولاده ، وسيحاسبه الآلهة العظام ــ سادة الجبانة) ·

ومما شمله مرسوم سيتى ، استنزال اللعنة على الفراعنة ، الذين لا يعملون بما جاء فيه ، فان هؤلاء الفراعنة مسئولون عنه أمام الالهة الذين (سيحمرون غضبا مثل شعلة من النار ، ويحرقون جسد الذين لا يستمعون الى · انهم سيهلكون من يجترىء على أعمالى ، وسيقدمونه لقاعة الحساب فى العالم السفلى) · لم يعد ميسورا للملك أن يصدر كلمته ذات القوة العظمى لأن ألوهيته كانت فوق كل شىء (فترة النظام المختار) ولا يجرؤ أحد على مناقشتها ــ وها هو أصبح يلتجىء الى الآلهة الأخرى يسألهم انزال اللعنة ، حتى يحتفظ بنفوذه ، ان الرهبة التى كانت من حقه وحده دون سواه ، أصبحت فى حاجة الى تعزيزها بالسحر ·

ولقد كان السحر دائما جزءا من الحياة المصرية ، وكانت التمائم معروفة منذ العصور المتأخرة الغابرة ، ونصوص الأهرام التى كتبت فى الأسرة السادسة (بهرم وتيس) ملأى بالتعاويذ التى تساعد على نيل المطالب أو للحماية من المخاطر (بعد الموت) ·

ولكن فى هذا العصر الذى نحن بصدده زاد الاعتماد على أنواع السحر المختلفة (فى الحياة الدنيا) ، فقد زادت حالة عدم الطمأنينة بسبب تشوق الناس الى حماية أعظم تأتيهم من قوى خارجية · وولى الناس وجوههم نحو الأحجبة السحرية والتماثيل التى تقيهم الشرور ، وكانوا يقومون بطقوس منظمة عند تلاوتهم للتعاويذ · انهم أرادوا أن يفعلوا شيئا ضد ما كتبه عليهم قضاؤهم وقدرهم فى الحياة بطلبهم من الآلهة أن يعينوهم فيمدوهم بعون سحرى ، اذ لم يعد للانسان الثقة فى أنه يمتلك فى نفسه القوة الكافية (٩٠) ·

وقد سبق لبعض الملوك اللجوء الى السحر بكتابة أسماء أعوانهم على الأوانى ثم كسرها ليموتوا وذلك عند انهيار الدولة الوسطى الذى ادى الى غزو الهكسوس لمصر ٠

واستكمالا لهذه العقوبات الصارمة واستخدام الدين والسحر فى عمليتى الابتزاز والقهر لمصلحة القلة فان القضاة كانوا من الكهنة وكانت أقسى العقوبات توقع على ما يمس مصالحهم ومصالح القلة الحاكمة فى النواحى المالية والوظيفية ٠

بل ان (الجرائم) التى يرتكبها الشعب الفقير الضعيف المغلوب على أمره ضد مصلحة القلة المسيطرة وخاصة الكهنة ، قد دخلت فى هذه الفترة لتضم الى الجرائم التى يحاسب عليها الميت فى الآخرة فيقول المتوفى عند الحساب على ذنوبه بعد الموت :

« انى لم أفعل ما يمقته الاله ، وانى لم أنقص قربان الآلهة ، وانى لم اغتصب طعاما من قربان الموتى ، وانى لم أنصب الشباك لطيور الآلهة ، وانى لم أتصيد السمك من بحيراتهم ، وانى لم أستول على قطعان هبات المعبد ، وانى لم أتدخل مع الاله فى دخله ، انى لم أسب الآلهة ، انى لم أذبح الثور المقدس ، انى لم أسرق هبات المعبد ، انى لم أنقص طعام المعبد ، انى لم أعب فى الذات الملكية » (٩١) ٠

وتوفى الملك مونبتاح سنة ١٢١١ ق٠م وجاء بعده مغتصب للملك يدعى (آمون س) ولا يعرف كيف استولى على العرش ، وفى ذلك دليل على اضطراب الأمور فى البلاد لأن (آمون س) لم يلبث حتى خلعه مغتصب آخر اسمه (مرنبتاح سابيتاح) فانتقم منه وخرب قبره فى وادى الملوك ٠ وقد حكم سابيتاح ست سنوات تمكن خلالها من عمل قبر عظيم له ، ثم خلعه عن العرش الملك سيتى الثانى الذى حكم هو الآخر ست سنوات مات بعدها ميته طبيعية ثم خلفه على العرش وريثه الشرعى (رمسيس سى بتاح) ولكن لم يكن فى استطاعته أن يعمل شيئا ، ولهذا ظل بضع سنوات ثم اختفى من العرش وتمزقت البلاد شر ممزق وأخذ الحكام يحاربون بعضهم بعضا ، وأعلن كثيرون من كبار حكام الأقاليم استقلالهم ، وفى تلك الأيام العصيبة تمكن شخص من أصل سورى اسمه (ارسو) من الوصول الى العرش ونهب ممتلكات الناس ثم تمكن الملك (ست نخت) من تولى حكم مصر منشئا الأسرة العشرين ٠

وقد وصف رمسيس الثالث (١١٩٢ ــ ١١٦٠ ق٠م) حالة البلاد المحزنة التى أنقذها منها أبوه (ست ــ نخت) فقال (ان مصر غزيت من الخارج وظل الناس عدة سنوات دون حاكم عليهم ومرت سنوات اضمحلال كان الرجل فيها يذبح جاره ، فتمكن هذا السورى من تنصيب نفسه ملكا على مصر ونهب ممتلكات الناس وأهمل المعابد فغضبت عليه الآلهه وسلطت عليه رجلا اختارته وكان هذا الرجل هو (ست ــ نخت) ٠ وذلك بعد أن وصل التفكك فى مصر الى أسوأ الحالات ٠

وحكم رمسيس الثالث اثنين وثلاثين عاما كانت فى الواقع فترة صحوة بين عهدين من عهود الضعف ، وعندما تقدمت به السن بدأت عوامل الانحلال مرة أخرى تظهر من جديد ٠

وفى أواخر عهده دبرت احدى زوجاته مؤامرة لقتله لأنها أحست أن الملك لا يريد أن يجعل من ابنها بنتاؤور وليا للعهد ، ولهذا صممت على قتل الملك العجوز واعلان ابنها ملكا ، وكان يعاونها فى تدبيرها اثنـان من كبار موظفى القصر كانت مهمتهما جمع الانصار فى البلاط وخارج القصر .

وبعد قتل الملك قبض على المتآمرين وكان مع الملكة (تتى) وبنتاؤور والموظفين الكبيرين فى البلاط عشرة آخـــرون من الموظفين وكذلك ست نساءكن واسطة بين الملكة وشركائها فى الخارج .

وكان من بين الأربعة عشر موظفا الذين تكونت منهم المحكمة أربعة من (الأجانب) وظهر أثناء نظر القضية أن ثلاثة من القضاة قضوا سهرة تناولوا فيها الخمر ومعهم ضابطان من الشرطة فى منزل أحد المتهمين حيث اجتمع هناك نساء بعض المتآمرين ، وكانت نتيجة هذه السهرة أن انتقل القضاة الثلاثة من كراسى القضاة الى قفص الاتهام، أما الأحكام التى صدرت عليهم فان الأمير بنتاؤور وثلاثة من المتآمرين حـكم عليهم بالاعدام ، وكانوا يتركون وحدهم فى غرفة المحاكمة لينهوا حياتهم بأيديهم ، وبرىء أحد القضاة أما القاضيان الآخران وضابطا الشرطة فحكم عليهم بجدع الأنف وصلم الأذنين فانتحر أحد القضاة عندما سمع الحكم عليه ، أما المتآمرون الآخرون ومنهم الملكة (تتى) فلا يعرف العقاب الذى وقع عليهم .

وبهذا انتهت حياة آخر ملوك مصر العظام الذى أعاد لمصر مجدها مؤقتا فى هذه الصحوة ، ونفســه مملوءة بالحسرة على جحود النـاس وتلاه على عرش مصر ابنــه رمسيس الرابع (٩٢) .

وكانت وفاة رمسيس الثالث فى عام ١١٦٠ وكانت نهاية الأسرة العشرين فى عام ١٠٨٠ أى أن خلفاء رمسيس الثالث وهم من رمسيس الرابع حتى رمسيس الحادى عشر حكموا ثمانين عاما . ولقد رأينا مبادىء الانهيار فى الجزء الأخير من حكم رمسيس الثالث فلا عجب بعد ذلك أن تسير الأمور من سىء الى أسوأ ، وأن يظل سلطان الملوك يتضاءل شيئا فشيئا حتى أصبحوا ألعوبة فى يد الكهنة .

وأخيرا حدث ما لابد من حدوثه وهو استيلاء الكهنة على العرش وتأسيسهم للأسرة الحادية والعشرين ، واعلان كبير كهنة آمون ، وكان اسمه (حريحور) ملكا على مصر ليبدأ عصر الاضمحلال وانهيار الروح المصرية حتى تلقفها الغزاة فى هــذه الفترة لقمة سائغة لا تجد شعبا يدافع عنها انما بضعة من الحكام الوصوليين المتنازعين يعاونهم عسكر من الأجانب (٩٣) .

ومن قادة البطش والاستغلال فى الاحتلال الاغريقى أجاثوكليس وهو رجـــل نفعى لا ذمة له ولا ضمير . كان هو وأخته أجاثوكليا وأمهما أوينانتى ندماء بطليموس الرابع .

وقد سيطرت هذه الأسرة على الملك وتغلغل نفوذها فى الدولة الى حد طغى على نفوذ الملك الذى أفرط فى عبثه ومجونه ، وتوفى فى مقتبل العمر سنة ٢٠٤ ق٠م وأخفى أجاثوكليس والوزير سوسيبيوس نبأ وفاة الملك ، حتى قتلا الملك وزيفا وصية أسندت اليهما الوصاية على الملك الصبى ٠

ولم يمض وقت طويل حتى كان أجاثوكليس قد انفرد بالوصاية ، وتخلص من الشخصيات الكبيرة التى قد تسبب له المتاعب ، باسناد مهام لها فى الخارج وجمع حوله أسوأ العناصر ، ووزع بينهم أرفع المناصب ، وأسرف هو وأخته وأمهما فى مجونهم وجورهم ٠ وتزايدت كراهية الناس لهم يوما بعد يوم ، حتى لم يعد فى وسع الاسكندريين الصبر على ما كان يقع من المظالم والمفاسد ، فهبوا ثائرين واقتحموا القصر وجروا فى الشوارع أجاثوكليس وأخته وأمه وأقاربهم وخدمهم وقطعوهم أربا عام ٢٠١ ق٠م (٩٤) ٠

وكان سوسيبيوس بن ديوسكوريدس وزيرا للمالية بطليموس الثالث منذ عام ٢٤١ ق٠م وكاهن عبادة الاسكندر والبطالمة قبل أن يصبح حاكم دولة البطالمة الحقيقى فى عهد بطليموس الرابع ٠

واذا صح أن تبوجنس كان وزيرا للمالية منذ العام الخامس من عهد بطليموس الرابع فليس من المستبعد أن يكون سوسيبوس قد آثر منذ ذلك الوقت الاكتفاء بدور مستشار الملك ، ولم يلق هذا الرجل الداهية الطموح مشقة فى السيطرة على ملك عابث مستهتر ٠

وعاث فى الدولة فسادا ، وتلقى عليه تبعة قتل أم بطليموس الرابع وعمه وأخيه ، وفى مستهل عهده ٠٠٠٠ نشط فى القضاء على الثورات القوية وفى ٢٨ نوفمبر سنة ٢٠٣ أعلن أن بطليموس الرابع قد توفى هو وزوجته ، وان العرش آل الى طفل ٠

وكان أخيلاس ــ عندما توفى بطليموس الثانى عشر الزمار وخلفته على العرش كليوباترا السابعة وأخوها الصغير بطليموس الثالث عشر ــ أحد ثلاثة من رجال البلاط يريدون الاستئثار بالسلطة ، على حين كانت كليوباترا مصممة على ممارسة حقوقها كاملة ٠

وقد أوغروا صدر الاسكندريين ضدها ، باتهامها بممالأة الرومان وبمحاولة اغتصاب الملك من أخيها ، فثاروا عليها فاضطرت الى الفرار من مملكتها ، وتولى قيادة جيش بطليموس الثالث عشر ضد كليوباترا ، ثم ضد يوليوس قيصر فى حرب الاسكندرية حتى أعدمته أرسينوى أخت كليوباترا سنة ٤٨ ق٠م (٩٥) ٠

وهكذا كان جميع ملوك الاغريق بلا أى استثناء ، يقتلون بعضهم بعضا بالمؤامرات والدسائس فى سبيل فوز القاتل أو صاحب المكيدة أو التزوير بعرش مصر ليتسلط ويشرب الخمر ويلهو مع النساء ويتلذذ بالمال والذهب والثراء ٠

ولولا تخوفنا أن يستشعر القارىء الملالة من عرض الفضائح الأخلاقية والاجرامية

لجميع من حكموا مصر من الاغريق لعرضناها بالتفصيل ويرجع من يشاء الى كتب التاريخ فهى زاخرة بهذه الفضائح وبهذا الاستغلال ٠

وتكاد تكون أعمالهم الاجرامية فى سبيل الفوز بعرق هذا الشعب والتسلط عليه متشابهة ولا فرق بين ملك وآخر ، واليك نموذجين من قيادات الرومان ٠

كلاوديوس الأول (تيبريوس كلوديوس نيرون جرمانيكوس) ٠

امبراطور رومانى عام ٤١ ــ ٥٤ م

زاد من كراهية السناتو له السلطة التى تمتعت بها زوجاته وسكرتيروه ٠ وقد تزوج أربع مرات وأوعز بقتل ثالثة زوجاته ، مسالينا ، وكانت امرأة مستهترة عابثة أنجبت له ابنته أو كتافيا ، وابنه بريتانيكوس ٠

ويعزى الى زوجته الرابعة أجريبنيا الثانية ابنة أخيه ، أنها دست له السم بعد أن احتالت عليه حتى اختار ابنها نيرون خليفة له بدلا من ابنه بريتانيكوس ٠

كاليجــــولا :

امبراطور رومانى عام ٣٧ ــ ٤١م :

وكان حكمه أكثر استبدادا من حكم الأباطرة الذين سبقوه ، ومال الى الصرامة والعنف والقسوة وقد وقعت فى عهده منازعات شـــــديدة بين الاغريق واليهود فى الاســـــكندرية ٠

وروى عنه أنه أسف لأنه ليس للناس جميعا رقبة واحدة يمكن اطاحتها بضربة سيف وقيل أيضا أنه عين حصانه أنكيتاتوس عضوا فى مجلس الســـــناتو ورشـحه لتولى القنصلية ٠ وقد انتهى عهده البغيض بمقتله) (٩٦) ٠

واليك بعض النماذج من قيادات العصر العباسى وما بعده حيث ســبق عرض بعض نماذج من قيادات الفترة السابقة على ذلك ٠

(وكان من مظاهر فساد النظم السياسية فى العصر العباسى الثانى أن عمالة الأقاليم كانت تقطع اقطاعا فتمنح لأحد القواد أو المقربين من السلطان يتصرف فيها كيفما يشاء على شرط أن يؤدى للخليفة خراجا معلوما ــ وكان هؤلاء العمال المقطعون لا يريدون أن يبرحوا عاصمة الدولة (فى بغداد) أما تمسكا بمفاتن العاصمة وأما خوفا من أن يؤدى ابتعادهم الى تنمر أعدائهم وخصومهم ٠ وكان يكفى أن يختار أحدهم وكيلا يرتاح اليه ويأمن من جانبه فيبعث به الى المصر وكيلا عنه يصرف الشئون باسمه ويجبى المال ويرسل اليه منه ما يبيح له أن يسـكت المعارضين وأن يرشــو الحجاب والكتاب ليبقى فى منصبه أطول فترة ممكنة ــ لذلك لم يشأ باكباك أن يبرح العاصمة فتصرف كما تصرف السابقون عليه وأحب أن يختار وكيلا ، فلم يجد خيرا من أحمد بن طولون يختاره للنيابة عنه فى مصر ٠٠ وفى سبيل التمكين لنفسه من الاستقلال

بمصر كان يعمل فى ميدانين ، الميدان الأول خارج حدود مصر ، فى عاصمة الخلافة نفسها ، وكان هذا الميدان بالنسبة لابن طولون بالغ الأهمية فهو الذى كان يكيف له وسائله ، فقد كان فى ضوء ما يشيع فى العاصمة من فتن يرسم لنفسه الطريق الذى يريد وقارن فى ذلك ما فعله الخديوى اسماعيل بعد ذلك فى القرن التاسع عشر ٠

وكانت من وسائل العمل فى هذا الميدان الاستعانة بالجاسوسية الدقيقة وأحكام الرقابة على عاصمة الخلافة ليكون على علم بخفاياها ويتخذ هؤلاء الجواسيس رسلا لذوى النفوذ والسلطان ٠ وكانت له أسلحة أخرى تستخدم فى هذا الميدان ، اذ كان يستعين بالعطايا والهدايا لتنفيذ ما يريد ، واستطاع بهذا الاسلوب أن يكسب عطف كبار الشخصيات بقصر الخليفة مثل الحسن بن مخلد الذى أصبح وزيرا للمعتمد ، واستطاع أيضا أن يلغى أمرا صدر من المعتمد (الخليفة العباسى) بنقله من ولاية مصر ، حتى التجار لم يغفل ابن طولون عن تسخيرهم لتنفيذ مآربه ، لشراء ذمم ذوى النفوذ واستمالة القواد الذين كانت الخلافة تسيرهم لحربه ٠

وقدر للظروف أن تجرى كما كان يتمنى ويشتهى ، فقد أراد الخليفة أن يتحرر من نفوذ الأتراك لاقرار الأمن فى البلاد فحال الأتراك دون ما يبغى فثاروا عليه بزعامة باكباك وقتلوه ٠

وخلفه المهتدى الذى أفلح فى أن يتحرر من عصبة باكباك الا أن زعيما تركيا آخر برز الى مقدمة الصفوف ، وأصبح حظيا عند الخليفة الجديد ، فمنحه اقطاع مصر ، ذلكم هو باركوج ــ ومن غريب الاتفاق أن يكون هذا الزعيم الجديد صاحب اقطاع مصر الرسمى هو صهر أحمد بن طولون ٠ فقدر له أن يستفيد من باكباك زوج أمه ، وباركوج أبى زوجته فى سنين متقاربة ٠

وعندما آلت الخلافة الى (المعتمد) أحب أن يعزل أحمد بن طولون ، فبعث اليه رسولا محملا بالهدايا واستطاع بفضل باركوج وغيره من أصدقائه أن يثبت فى مصر ٠

وبعد وفاة خمارويه ابن أحمد بن طولون اجتمع الساخطون من رجال الجيش الطولونى (فى مواجهة المستفيدين من جيش خمارويه) وجابهوا الأمير بالعدوان وطالبوه بالاعتزال ليولوا عمه بدلا منه فقام الأمير (جيش) من وقته ودخل على عمه نصر وكان فى محبسه فضرب عنقه ورمى برأسه الى الجند وقال ــ خذوا أميركم ــ فقرروا عزله من الامارة واحلال أنفسهم من البيعة التى فى أعناقهم ٠

ولم يجد أنصار (جيش) والمؤيدون له بعد أن تورط على هذا النحو بدا من أن يتخلوا عنه فخلع وقتل ٠

وبعد مصرعه أطلق سراح السجينين من أبناء أحمد بن طولون واشتد حماس الثائرين فنهبوا داره وأحرقوها وأمعن أنصار خمارويه فى سياسة تولية الصبيان الضعفاء وولوا هارون ابن خمارويه ولم يكن قد أتم الأربعة عشر ربيعا ٠

وكانوا يهدفون الى تحقيق غرضين ، أن تكون لهم الكلمة الأولى فى شئون الدولة يصرفونها بصور أتم مما كان لهم فى عهد (جيش) وأن يقضى على أنصار بن طولون من أعمام الأمير قضاء تاما فلا تكون لهم كلمه فى أمور البلاد ... (الخ) .

وينتهى الأمر فى سنة ٩٠٥م بعودة مصر كولاية ضمن ولايات الدولة العباسية بعد اندثار الطولونيين وتولى الولاية على مصر أبو موسى النوثرى من قبل الخليفة العباسى وذلك فى نهاية الدولة الطولونية .

وألقيت البلاد فى هوة من الفوضى وعدم الاستقرار .

وفى هذه الفترة جمع الفاطميون جيوشهم فى المغرب وهاجموا مصر ، كما جمعت الخلافة العباسية جيوشها .

وأصبحت مصر مرتعا للجيوش العديدة التى وفدت عليها من بغداد لقتال الفاطميين والدفاع عن مصر وطبيعى أن أهل مصر كانوا يقاسون الأمرين من عسف الجنود وما يقومون به من السلب والنهب . وقد أدى ذلك كله الى اضطراب الأحوال المالية فى البلاد .

ثم يتمكن الاخشيد من ولاية مصر بمراعاة غمر الخليفة فى بغداد بالهدايا . النفيسة من المال والجواهر والطيب والمنسوجات والدواب ... الخ ..

ثم ، وبعد وفاة الأخشيد ، يستولى عبده كافور على حكم مصر بصفته وصيا على ابن الأخشيد الطفل (أونجور) .

ويذهب بعض المؤرخين أن كافورا تخلص من أونجور ثم من أخيه (على) بالسم ، وبعد أن توفى على لم يعد هناك الا ابنه أحمد ، وكان صبيا فى التاسعة من عمره ، فازاحه كافور ودعا لنفسه على المنابر وأصبح أمير مصر .

وبعد أن توفى كافور اجتمع (رجال الدولة) وولوا أحمد بن على بن محمد بن طفج الأخشيد وتولى أموره أبو الفضل جعفر بن الفرات ، وكان أحمد فى الحادية عشرة من عمره لا يستطيع أمرا ، وقد أساء ابن الفرات وصادر بعض الناس وفى جملتهم يعقوب ابن كلس وكان من سروات الناس ، ففر الى المعز لدين الله وأخذ يحرضه على دخول مصر سنة ٩٦٨ ليبدأ عهد الدولة الفاطمية الذى استمر حوالى قرنين من الزمان) (٩٧) .

ومن أمثلة الصراع للوصول الى السلطة بين قادة البطش والاستغلال واقعة قتل السلطان قطز منقذ العالم الاسلامى والشرق بأسره من التتار ثم يحل القاتل محله فى السلطة .

وهى صورة عادية للاستيلاء على السلطة فى عصر المماليك والاغريق وغيرهم .

ففى الوقت الذى استعدت القاهرة لاستقبال بطل عين جالوت وأقيمت الزينات فى الطرقات والأسواق والحوانيت تحيه له وتكريما لبطولته اذا بالأمور تتطور بسرعة حتى انتهت بمقتل قطز وقيام بيبرس فى السلطنه .

ذلك ان الأمير بيبرس كان يأمل ان يجد من قطز حظا من التقدير بعد ما أبداه من شجاعة فى محاربة التتار فطلب من قطز أن يوليه نيابة حلب التى كان السلطان قد وعد فعلا بمنحها اياه ولكن قطز امتنع وتنكر للجميل وبذلك أظهر قصر نظر واضح لأن المكانة التى أحرزها بيبرس فى ذلك الوقت كانت أعظم من أن يتجاهلها انسان ٠٠ ولو كان قطز حكيما لألهى بيبرس بنيابة حلب وبذلك يأمن منافسته له فى مصر ولا يخفى علينا ان البحرية ـ ومنهم بيبرس ـ لم ينسوا لقطز انه شارك فى قتل كبيرهم اقطاى زمن ايبك وبمعنى آخر فان البحرية أحسوا دائما ان لهم ثأرا فى عنق قطز ولذا لم يكونوا فى حاجة الى مزيد من التحريض فى الاستثاره ضد قطز ٠

وكان ان صمم بيبرس على الانتقام من قطز فدبر مؤامرة مع زملائه من زعماء البحرية لقتل قطز فى أول فرصة مناسبة وسرعان ما حانت الفرصة عندما وصل ركب السلطان الى الصالحية فى طريقه الى القاهرة ذلك ان قطز أظهر رغبته فى الصيد فلما فرغ من رياضته تقدم منه الأمير بيبرس وطلب امرأة من سبى التتار فأجابه السلطان الى طلبه وانعم عليه بما أراد وقد تظاهر بيبرس برغبته فى تقبيل يد السلطان وكانت اشارة بينه وبين شركائه المتآمرين فقبض بيبرس على يد قطز ليمنعه من الحركة فى حين انهال عليه بقية المتآمرين بسيوفهم وبمقتل قطز على ذلك الوجه فى أواخر أكتوبر سنة ١٢٦٠ خلا الجو للبحرية وزعيمهم بيبرس ٠

وكان طبيعيا ان تؤول السلطنه بعد مقتل قطز الى قاتله الأمير ركن الدين بيبرس بوصفه أقوى الأمراء البحرية من ناحية وصاحب الفكرة فى قتل قطز من ناحية ثانية فضلا عن مواقفة المشرفة فى محاربة المغول من جهة ثالثة وتروى المراجع ان الأمراء البحرية الذين قتلوا قطز ساروا بعد تنفيذ مؤامرتهم الى الدهليز السلطانى بالصالحية وقد أجمعوا امرهم على سلطنة بيبرس وعندما قابلهم الأمير فارس الدين اقطاى الاتابك عند باب الدهليز أخبروه بما فعلوا من قتل السلطان قطز وعندئذ سألهم الاتابك « من قتله منكم » فقال بيبرس « أنا » فنظر اليه الاتابك وقال «ياخوند» اجلس فى مرتبة السلطنه وبمثل هذه السهولة والبساطة حل القاتل مكان القتيل فاستدعى العسكر فى الحال ليحلفوا للسلطان الجديد قبل ان تجف دماء ضحيته ٠ وكان القاضى برهان الدين قد وصل من القاهرة ليستقبل قطز ويهنئه بانتصاره فى عين جالوت فاستدعى القاضى نفسه ليقوم بتحليف العسكر للملك بيبرس الذى تلقب بالملك القاهر ٠

وبعد ان تمت تلك الاجراءات المبدئية فى الصالحية قال الأمير اقطاى لبيبرس ٠ لا تتم السلطنة الا بدخولك قلعة الجبل لذلك أسرع بيبرس ومعه صحبه الى القاهرة التى كانت قد زينت لاستقبال المظفر قطز بطل عين جالوت فاذا بالمنادى ينادى فى طرقات القاهرة ترحموا على الملك المظفر وادعوا لسلطانكم الملك القاهر ركن الدين بيبرس (وهكذا شق بيبرس طريقه الى قلعة الجبل فلقيه الأمير عز الدين أيبك نائب السلطنة وكان قد خرج للقاء قطز فأخبره بيبرس بما حدث وعندئذ حلف نائب السلطنة للسلطان الجديد وتقدمه للقلعة حيث أعلن الأمراء ولاءهم لبيبرس واستقر السلطان الجديد فى قلعة الجبل قاعدة الحكم في البلاد) (٩٨) ٠

ومما يستحق النظر أن العلماء والفقهاء ، بله من دونهم مرتبة فى العلم أو من لا علم عنده مثل الحسين بن عيسى ، كانوا يتهافتون على ولاية القضاء فى عصر الطولونيين والأخشيديين حتى أنهم كانوا يعمدون فى سبيل الوصول الى هذا المنصب الى رشوة الأمراء وذوى النفوذ ، والى رشوة أولى الأمر فى الخلافة ولا سيما قاضى قضاة بغداد ...

ولعل هذه الظاهرة ترجع الى أن القاضى كان يستطيع أن يستغل منصبه فى جمع الثروة وذلك بقبول الرشوة أو بوضع يده على ما يريد من أموال الناس .

وكان بعض القضاة فى هذا العصر ، شديدا فى الحق بينما كان بعضهم مستهترا) (٩٩) .

وبطبيعة الحال كان يوجد لمحات نادرة من المسئولين ممن يراعون ضمائرهم ولكنهم قلة لا تؤثر فى مجرى الأحداث .

وعاش العوام فى العاصمة والمدن فى ضيق وعسر ولاحظ بعض الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر فى عصر سلاطين المماليك ــ أن بالقاهرة عددا كبيرا من العوام بلا مأوى فى النهار والليل سوى الطرقات ، يهيمون فيها وأجسادهم شبه عارية . وتفاوتوا فى تقدير ذلك العدد بين خمسين ألفا ومائة ألف . كذلك دهش برنارد دى بريد نباخ لكثرة عدد الشحاذين بالقاهرة . وقال أنهم اندفعوا حوله من كل جانب طالبين الاحسان . وكان أن دفع الضيق والجوع والعرى هذه الطوائف الى انتهاز الفرص للنهب والسلب وخطف كل ما تصل اليه أيديهم .

وكان اذا مات أحد الولاة الظالمين دفنته (الدولة) فى مقابر النصارى (خوفا عليه من العامة أن تحرقه لظلمه وعسفه) .

كذلك لم تحتمل العامة ظلم والى المحلة سنة ٨٥٤ هـ فهجموا عليه فى منزله ونهبوه ، ثم أخرجوه وضربوه واستصحبوه الى الجامع وهو عريان حيث مات من الضرب) (١٠٠) .

ولقد عنى سلاطين المماليك بالسجون ، فاهتم السلطان محمد بتجديدها سنة ٧٢٩ هـ وكذلك السلطان المؤيد شيخ سنة ٨٢٠ هـ ــ وذكر المقريزى عدة سجون بالقاهرة المماليكية ، فوصف بعضها بأن أمرها مهول (من الظلام وكثرة الوطاويط والروائح الكريهة والقبائح المهولة) ...

ويبدو أن المسجونين فى عصر المماليك قاسوا الكثير من الشدائد والأهوال ، ليس فقط بسبب سوء أحوال السجون ، بل بسبب نسيان السلطات الحاكمة ، اياهم حتى كانوا يقضون أحيانا ثلاثة أيام كاملة دون أن يذوقوا شيئا ، مما دفعهم فى احدى المرات سنة ٨٥٠ هـ الى قتل سجانهم وخروجهم من السجن عن آخرهم . أما المحكوم عليهم بالسجن المؤبد فكثيرا ما كانت تأخذ الشفقة السلاطين ويطلقون سراحهم بعد مدة من الزمن (ظنا أن فى ذلك قربه بالله المستعان) فاذا حكم على سجين بالاعدام

سلم للمشاعلى لتنفيذ الحكم فيه بواسطة السيف . والواقع ان عملية تنفيذ عقوبة الاعدام انطوات على كثير من العنف والقسوة فى ذلك العصر .

فكثيرا ما أخطا المشاعلى عنق المحكوم عليه فى أول ضربه فيضربه بالسيف ثانية وثالثة حتى يصيب عنقه . فاذا لم ينفصل الرأس عن الجسد ، لجا المشاعلى الى حز الرقبة عدة مرات حتى ينجز مهمته . ثم يطوف المشاعل بعد ذلك بالراس المقطوعة فى أنحاء المدينة حتى يراها كافة الناس للعظة والاعتبار . واستخدم السلاطين أحيانا طريقة الاغراق لتنفيذ الاعدام ، فيؤخذ المحكوم عليه الى النيل حيث يغرق فى المياه .

وهناك طرق أخرى كثيرة للعقاب ـ عدا السجن والاعدام ـ تفنن الحكام فى تنفيذها . ومن هذه التشهير والتجريس ، وهى أن يطاف بالشخص على حمار أو ثور ويضرب الجرس على رأسه والمشاعلية تنادى عليه ليجتمع الناس حوله ، وأحيانا تزفه المغانى (ويوضع فى عنقه ماشه وهون) . وفى نهاية المطاف يضرب وسط الناس بالسياط عقابا له على ذنبه ـ ومن هذه العقوبات كذلك العصر بالمعصرة . وهى آلة تتكون من خشبتين مربوطتين بحبل يوضع بينهما وجه المعاقب أو رأسه أو رجلاه أو عقباه ، ثم تشد الخشبتان شدا وثيقا مما يؤدى فى كثير من الأحيان الى كسر العظام المحصـــورة بين الخشبتين . وقد استخدمت هـذه الوسيلة غالبا لاجبـار المذنب على الاعتراف بذنبه .

أما عقوبة التسمير فتعنى دق بعض أعضاء المذنب فى لوح من خشب بواسطة مسامير غلاظ ، وأحيانا يوضع وهو بهذه الصورة على جمل ليشهر بالقاهرة ، فاذا حصلت له شفاعة نزعوا المسامير من على جسده . أما اذا لم تحدث له شفاعة فينتهى أمره غالبا بأن يوسط ، ومعنى التوسيط ضربه بواسطة السيف بقوة قرب وسطه ، أسفل السرة ، فينقسم جسمه الى نصفين .

واستخدم الضرب كذلك فى عقاب المذنبين ، ويكون الضرب على أى جزء من أجزاء الجسم سواء الرأس أو الجسد أو القدمين ، وتستعمل فيه المقرعة أو العصا أو الدرة أو الضفيره الخوص . وبلغ من قســوة هذا الضرب أحيانا ما يحكى عن السلطان قايتباى أنه أمر سنة ٨٧٢ هـ بضرب أحد الأشخاص . فضربه بعض الخدم ضربا لم يعجب السلطان ، فقام قايتباى وأخذ العصا وضربه بنفسه بحيث (أن كل ضربة صارت تدمى فى الحال وتلوث جماعة من الحاضرين بالدم) . على أن الضرب مهما بلغت قسوته وشدته فانه بلا شك أخف كثيرا من أنواع التعذيب الوحشية التى استخدمت فى عصر سلاطين المماليك . ومن هذه الأنواع قلع أضراس المذنب وأسنانه ثم دقها فى رأسه ـ وغرس خازوق فى الأرض لرفع المذنب على قمته ، وتسخين طاسة من المعدن والباسها للمذنب ، أو تسخين دست واجلاسه عليه . ومنها كذلك قطع بعض أجزاء من جسد المذنب كالأنف أو الأذن أو اللسان أو تكحيل عينيه بالنار ، ونعل الشخص فى قدميه كما تنعل الخيل ، أو تعليقه من يديه وربط أثقال فى قدميه حتى تنخلع أعضاؤه) (١٠١) .

وقد حرص السلطان سليم العثمانى ، منذ تغلبه على مصر سنة ١٥١٧ م أن تستمر الفرقة والصراعات بين من أسند اليهم حكم مصر وهم الوالى الذى كان يعين من قبل الخليفة العثمانى ومتوسط مدة حكمة سنتان ، وقيادات جيوش الاحتلال العثمانى ، والمماليك ٠

وذلك أعمالا للمبدأ المعروف (فرق تسد) ٠

وعلى سبيل المثال حدث فى الربع الأخير من القرن السادس عشر (أن بدأ العصر المملوكى يسود ، وبدات فتنة جند السياهية تتعدد ، حتى وصل بها الأمر الى حد التعدى على الولاة العثمانيين فقتل محمود باشا فى يناير سنة ١٥٦٧ م وهوجم أويس باشا وهو فى الديوان فى اغسطس سنة ١٥٨٩ م . ومع قسوة بعض هؤلاء الولاة وظلمهم للسكان المحليين ، فانهم وقفوا عاجزين أمام فتن الجند ، وانعكس أثر ذلك على الرعايا من أبناء الشعب المصرى ، ووصل الأمر الى ذروته فى الصراع بين الولاة والجند حينما تعدى هؤلاء الجند على الوالى ابراهيم باشا ، وقتلوه فى سبتمبر سنة ١٦٠٤ واستمر الجند فى عنادهم وظلمهم للرعايا ، حتى كان عهد محمد باشا ، سنة ١٦١١ ، حيث استطاع القضاء على أضخم فتن جند السباهية ، وابطال مظالمهم وقتل رؤوسهم ، ونفى وشرد عدد كبير منهم ، ويتضح مشاركة العنصر المملوكى فى هذه الفتن ، مما مهد السبيل أمامهم للبروز على وجه الحياة السياسية والعسكرية فى مصر ، وسيطرتهم على معظم المناصب الادارية سواء فى الادارة المركزية ، أو فى الادارات المحلية فى الريف ، كما سيطروا على معظم الادارات المالية من ادرات الجمارك ، والتزام الأراضى الزراعية ، فقد كان معظم الملتزمين من عناصر مملوكية ٠ حتى الملتزمين المنتمين الى الاوجاقات العسكرية ، كانوا من عناصر مملوكية ، مما يوحى أن الادارة العثمانية أصبحت اسما أكثر منها واقعا ، بل أصبحت الادارة العثمانية نفسها تعترف بالنفوذ المملوكى وتقره بدليل أن أحد الولاة العثمانيين خاطب الأمراء المماليك بقوله (انتم أمن للسلطان فى أرضه والبلاد ، وأما نحن فناس ضيوف عندكم ، وبلاد السلطان لا يسأل عليها الا منكم) ٠

(ولقد أصبح تاريخ مصر السياسى) عبارة عن صراعات مستمرة بين البيوت المملوكية والولاة العثمانيين الذين أصبحوا عرضة للعزل والمحاسبة من جانب المماليك وبازدياد النفوذ المملوكى ، دخلت البيوت المملوكية فى صراع فيما بينها من أجل الاستحواذ على السلطة ، والمناصب الادارية والاشرافية الكبرى ، وكأن مصر قد أصبحت ملكا مشاعا تتقاسمه البيوت الغالبة من هؤلاء المماليك ٠ حتى أصبحوا يطلقون على القرى والبلاد التى تقع فى دائرة التزامهم (قراهم) و (بلادهم) وأصبحت الحامية العثمانية بوجاقاتها المختلفة تسير فى فلكهم ، والباشا العثمانى لا يفعل شيئا بدون مشورتهم ، بل كان لا يستطيع أن يبدى رأيا مخالفا لرأيهم) (١٠٢) ٠

وحتى مجىء الحملة الفرنسية الى مصر سنة ١٧٩٨ م كان الناس ، من ذوى المكانه ، يسيرون وأمامهم خدم ، يسبقونهم سائرين على الأقدام وحاملين عصا لابعاد الجمهور وليهيئوا لسادتهم مكانا ، ويسمى هذا الخادم من هذا النوع ـ القواس ـ وهم

ينقلون أوامر سيدهم في داخل المدينة والى القرى المجاورة ـ ويختار لهذا العمل فلاحون ورجال من أبناء الريف لأن مظهرهم وقامتهم أكثر مهابة من مظهر وقامة سكان المدن . ولا يدفع للقواس أجر ، ولا يحصل هو الا على الخبز . لكنه يعوض هذا الغرم الى حد كبير ، على حساب الذين يحمل اليهم أوامر سيده . أو رسائله وبخاصة . اذا كان لسيده نفوذ كبير . وليس ثمة أى نوع من المغارم أو الاتاوات الا ويحصلها لحسابه . والقواس عند الكبار هو الذى يقوم لحسابهم بارتكاب أحداث السلب والانتقام ، وهو الذى يهوى بعصاه على من يريد سيده أن يعاقبه أو يهينه . كما أنه الذى ينزل الشخص الذى يخضع لهذه الاهانة من فوق ظهر حصانه .

وهم يرتدون ملابس من قماش خشن من الصوف الأسود ، ويرتدون شالا من الصوف أو ملاية تتدلى على كتفهم ، ويغطون رؤوسهم بلبدة بيضاء ، ثم بطربوش أحمر ، وهم يحرصون على أن يضعوا بينهما كثيرا من الورق وقطعا من أقمشة رديئة لتمتص ضربات العصا التى تنهال عليهم عادة من ساداتهم ، ويسمى رئيس هذه الطائفة من الخدم ــ مقدم ــ ويفرض هؤلاء الرؤساء عددا كبيرا من الاتاوات ويغتنون بسرعة

وكانت (القوانين التى يحكم بمقتضاها كلها مكتوبة ، وتستخلص أصولها من القرآن ، والسنة بعد دخول الاسلام مصر (★) .

واذا ما تأملنا لحظة نمط الأنظمة القضائية العثمانية وطريقة اختيار رجال القضاء فاننا سنجد فى هذه الوقائع نفسها منبع المساوىء التى كان ينبغى أن تنجم عن هذه الوقائع بالضرورة ، وفى الواقع ، فان رجال القضاء الغرباء (المعينين من قبل السلطان العثمانى فى تركيا) بجهلهم لغة البلاد التى ذهبوا اليها ليرسموا قدر وكرامة ونمط مواطنيها ، لم تكن تحركهم أية عواطف من تلك التى تفرض نزاهة القضاء ، كما أن اعتبارات المواطنه واعتبارات القربى التى لها على الدوام تأثير كبير على القلوب ولم يكن لها على الاطلاق وجود عندهم ، وحيث أنهم قدموا قبضات من الذهب (للمسئولين فى تركيا) مقابل توليهم أمر محكمة ما ، فمن الطبيعى ألا يكون سيف العدالة الذى يضعه القانون بزيدهم سوى أداة للاثراء ، فكانوا يستخدمونه وسيلة لتعويض الأموال التى أنفقوها ، بل ولتكوين ثرواتهم الخاصة ، ووجهت الوسائل الكبرى التى فى حوزتهم نحو نفس الغرض ، غرض تكديس الأموال ،لذلك فانهم لم يدعوا أية فرصة تفلت دون أن يستغلوها لتنمية ثرواتهم ، أما أولئك الذين يخفف حب العدل والانسانية عندهم من جموح ذلك التعطش الى المال ، فقد كانوا أكثر ميلا للعدالة بينما لم يكن يكبح جماح الآخرين الا الخوف من تدهور سمعتهم ، وفضلا عن ذلك فان العادة التى سادت فى مصر ، عادة بيع أو تأجير وظائف بمثل هذه الدرجة من الخطورة من شخص لآخر ، هى واحدة من تلك المساوىء الشيطانية التى لا يمكن

(★) لا يعنى ذلك ، بطبيعة الحال ، اتفاق جميع القوانين المكتوبة مع جوهر الشريعة الاسلامية ؛ والا فأين مبادىء المساواة والشورى وتكافؤ الفرص والتكافل الاجتماعى والحرية الاقتصادية والاخلاق الاجتماعية و (الديمقراطية) السياسية التى جاءت بها الشريعة الاسلامية طوال حكم آل عثمان وما قبله ؟!

لاية حكومة عاقلة أن تتساهل فيها ، اذ هى نوع من الحث أو الخيانة لا يسمح بقيامها الا البرابرة ...

وفى أقاليم مصر يستطيع القاضى أن يستوثق من صداقة وحماية البك حاكم الاقليم عن طريق تقديم الهدايا أو أية وسيلة أخرى ، وبذلك يكون حرا من كافة القيود وهو يقوم بتقدير رسم يفوق بكثير ذلك الرسم القانونى ، ومع ذلك فمن الصحيح أيضا أنه حتى فى هذه المناسبات ، كان القضاة يستطيعون كبح جماح جشعهم ، وكانوا فى بعض الأحيان يتظاهرون بفرض رسوم لصالح كتابهم ومرؤوسيهم ، على الرغم من أن هؤلاء لم يكونوا يحصلون مطلقا الا على قدر ضئيل من هذه الرسوم ، وكان هؤلاء يلجئون فى معظم الأحيان الى وسائل مشابهة .

ولاحظ علماء الحملة الفرنسية انه لم يكن للقوانين الوضعية ـ لا الدقة ولا الفاعلية التى للمؤسســات والأنظمة الأوربية ، ويمكن القول بأنه ليست للقــانون المكتوب ـ على ضفاف النيل ـ الا أهمية ثانوية ، بينما يرسم العرف أوامر وأحكام رجال القضاء ، كما أنه هو الذى يبرر تلك الابتزازات الاجرامية للرجال القادرين من كل الطبقات ، ونتيجة لهذه الصورة البربرية فان الفلاحين يعيشون فى شكل عبودية أكثر بكثير مما ينبغى ، فاقدارهم تحت رحمــة نزوات الملتزم الذى يستطيع حسبما يتراءى له أن يؤدى بهم الى حالة من البؤس المفزع أو أن يهيىء لهم عيشا رغدا ، ان هذه الاوضاع الشيطانية فى مجموعها ليست أقل سوءا من بقية الأمور التى تستوجب نظاما تشريعيا جديدا فى مصر) (١٠٣) .

وقد سبق بيان قيام محمد على بتدبير مذبحة القلعة (ص ١٦٩) وما أدى اليه هذا العمل من عودة الخوف والاستكانة الى النفس المصرية .

ولقد وصف ادوارد لين صورة من صور الظلم فى عهد محمد على فقال (كان محمد على يتمتع بسلطة لا حد لها فهو يستطيع أن يقضى على أى فرد من رعاياه بالموت دون محاكمة أو تعيين سبب ، وكفاه أن يحرك يده حركة أفقية بسيطة ليتضمن ذلك حكم الاعدام .

وقد دفعه طموحه المطلق الى جميع الأعمال ، فكان يجلب لنفسه المدح تارة أو الملامة تارة أخرى) (١٠٤) .

وفى مايو سنة ١٨٤٨ ، وبســبب حالة محمد على الصحية اجتمع الديـوان (مجلس الوالى) اجتماعا خاصا ، وقرر اسناد ادارة البلاد الى ابراهيم باسم والده . وقد صدق السلطان فيما بعد على هذا القرار ، وأصدر (خط شريف) بتعيين ابراهيم واليا . ولكن ابراهيم أيضا كان على وشك الموت ، وكانت مسألة من يخلفه تسبب كثيرا من القلق . وقد كتب مرى تقريرا يقول فيه (اننى على يقين من أن بقاء وراثة العرش فى هذه الأسرة بعد موت ابراهيم باشا ليس من الصواب فى شىء . فان اخوته وأولاده وأبناء اخوته هم جميعا وبدرجة متساوية مكروهون وغير أكفاء ، كما أنهم جميعا على خــلاف مع بعضهم البعض ، وعند موته فان الفوضى والحروب

الأهلية لن يمكن تجنبها الا عن طريق تدخل عسكرى من الخارج) ثم مضى يقول أنه يوجد أشكال ممكنة من التدخل : اما باعادة مصر الى الحكم المباشر للباب العالى ، أو باحتلالها بقوات فرنسية (تستولى على استحكامات الاسكندرية التى قام الفرنسيون منذ وقت طويل بتصميمها وبنائهـا لهذا الغرض) أو عن طريق احتلال بريطانى للمحافظة على سلامة المواصلات الانجليزية ـ الهندية ٠

ويصف (مرى) عباس بأنه كان أنانيا وطاغيه وعرف بانهماكه فى الشهوات التى حطمت من مقامه الى حد كبير ٠

وعلى الرغم من أنه لم تكن هناك معارضه مكشوفه لتولى عباس الحكم ، الا أنه لم يمض وقت طويل حتى قامت المؤامرات فى وجهه ٠ فقد كان أقرباؤه يغارون منه ، وكان أشدهم خصومه له نازلى هانم ، ابنة محمد على الأثيرة لديه ، والأرملة التى كانت تعتبر فى حياة أبيها السيدة الأولى فى مصر ٠

وفى القسطنطينية ، أخذ الوزراء الذين طردهم عباس من خدمته ، مع نازلى هانم يوغرون صدر الباب العالى على عباس ٠

وقد أتبع ما أصبح تقليدا عثمانيا فيما بعد ، بدعوة عدد من أعضاء أسرة الوالى للاقامة فى القسطنطينية وتكون نواة لمعارضة مستمرة ومركز للمؤامرات ضد الوالى الحاكم ٠

وهنا تنتهز انجلترا هذه الفرصة ، عن طريق قنصلها فى مصر المسمى (مرى) بالتعهد بالدفاع عن عباس ضد المؤامرات التى تحاك ضده عند الباب العالى فى مقابل السماح لها بمد نفوذها الى مصر عن طريق انشاء الخط الحديدى بين الاسكندريه والقاهرة حيث يمكن تنشيط حركة التجارة والمواصلات بينها وبين الهند عن طريق الاسكندرية ، القاهرة ، السويس ، البحر الأحمر ٠

وهكذا نشأ عن تبعية مصر للخلافة العثمانية بتركيا واستمرار الدسائس ضد حاكمها هناك أن اضطر حكام مصر الى الاستعانة بالأجانب لصد شراسة الحاكم التركى ٠

ومات عباس مقتولا بأيدى اثنين من خدمه وقيل أن المحرض على القتل هى نازلى هانم ٠

(وتقول الروايات عن تدبير اسماعيل مصرع أخيه الأكبر أحمد عام ١٨٥٩ عن طريق انقلاب عربة السكة الحديد التى يستقلها فى النيل ، حيث لقى حتفه غرقا لعدم معرفته السباحة ٠ وذلك لكى يخلو له الطريق الى اعتلاء العرش ٠ وكيف ضبطت اثنتان من محظياته مشتركتين فى احدى المؤامرات ٠ فجرى خنق عاشقيهما أمام أعينهما ثم جلدتا بالسياط حتى الموت ٠ وكيف أن أربعا من هـذه المحظيات اكتشفت خيانتهن فوضعن أحياء فى غرارات مقفلة وألقى بهن فى النيل ، وكيف دبر اسماعيل اغتيال صديق طفولته ووزير ماليته الوفى ، حتى يصرف النظر عما ارتكبه هو نفسه من مخالفات مالية ٠

والحقيقة فلا يوجد أدنى شك فى مسالة تدبيره مصرع أخيه أحمد ٠

(وكان فى اسماعيل جانبه الشرقى كما كان فيه جانبه الغربى ٠٠٠٠ كان فيه شخصية الطاغية الشرقى القاسى ، المداهن ، المنتقم ، الكتوم ، المخيف ، المنغمس فى الجريمة ومؤامرات القصور ، والذى يوجد تحت امرته ادوات القتل من حبال الخنق والخناجر وكئوس السم ، والقادر على اصدار الأوامر بالتعذيب التسنيع ، ثم مشاهدة التنفيذ أيضا) (١٠٥) ٠

واليك نماذج من قيادات فترة الاحتلال البريطانى من ١٨٨٢ ـ ١٩٥٢ ٠

وقد عبر الانجليزى سيد وليفرد ولسون عن احتلال انجلترا لمصر بقوله حينما كان يؤيد مشروع قرار قدم الى البرلمان بشأن استدعاء القوات الانجليزيه من مصر فورا سنة ١٨٨٧ ٠

(لقد عملنا على زيادة دين مصر من ٠٠٠ر٠٠٠ر١٠ جنيه الى ٠٠٠ر٠٠٠ر١٠٠ جنيـــه ، وذبحنا عدة آلاف من المواطنين وكممنا المجلس الوطنى ، وضربنا المدينة الرئيسية للبلاد (الاسكندرية) بالقنابل فى ظروف غاية فى الفظاعة ورفعنا قيمة الضرائب ، ونشرنا الدعارة والفجور فى العاصمة ، وبذرنا بذور الشقاق بين الخديوى والشعب ، وسحقنـــا أول بوادر الاســتقلال التى ظهــرت فى الأمم الشرقية منــذ أجيال) (١٠٦) ٠

وسيطر الانجليز على مرافق البـلاد واداراتها ، وأصبح المعتمد البريطـانى هو حاكم مصر الحقيقى ، يستمد الخديو والوزراء منه السلطة ، وينفذون أوامره ويسبحون بحمده ، واستأثر الانجليز بالمناصـب السـياسية والادارية الكبرى ، فزاد عدد الانجليز فى الوزارات والمصالح الحكومية ، وتقاضوا مرتبات كبيرة ، كما كان لسائر الاجانب نصيب كبير فى مناصب الدولة ، وابعد الانجليز المصريين عن الوظائف ومنعوهم من الاضطلاع بمسئوليات الحكم ٠

وأتبع الانجليز سياسة الارهاب ، ففرضوا القوانين التى تقيد الحريات ، وامتلأت السجون بالوطنيين ٠

وحتى لا توجد قوة تناوىء الاحتلال ، فقد عملوا على أضعاف الجيش المصرى بعد ان سيطروا عليه ٠

(وفى ٢ ابريل سنة ١٩١٩ كتبت احـدى الكاتبات الانجليزيات وتدعى مس درهام مقالا فى جريدة ديلى نيوز قالت فيه (بلغ من جهل الجنود الانجليز أن كانوا يظنون أن مصر بلاد انجليزية وأن المصريين قوم دخلاء ويعجبون كيف سمح لهؤلاء العبيد أن يأتوا لهذه الديار وقد سمعت غير واحد من الاستراليين يقول لو كان الأمر بيدى لما أبقيت على واحد من المصريين فى هذه البلاد) وتستطرد الكاتبة بعد أن بينت بعض مخازى الانجليز وفضائحهم فى مصر فتقول (وأقسم لو كنت مصرية لما ترددت فى بذل النفس والنفيس لطرد الانجليز من مصر وانى والحق يقال كنت أخجل أشد الخجل من انتسابى لبـلادى) كما نشرت جريدة رائد العمـال البريطانية فى ٣ أبريل سنة ١٩١٩ بعض هذه الفظائع فتقول :

(وضع نظام للتطوع ظهر عدم كفايته فصدرت الاوامر باخذ العمال من الحقول بالاكراه وطريقته أن يدخل رجال الحكومة القرية وينتظرون رجوع الفلاحين الى منازلهم عند الغروب فيحدقون بهم كالأنعام وينتقون خيرهم للخدمة فاذا رفض أحدهم هـذا التطوع الاجبارى جلد حتى يقر بالقبول وعلى هذا النحور ساقوا أطفالا من سن ١٤ سنة وشيوخا فى سن السبعين وكانت تساق هذه الجموع المريضة من هؤلاء المساكين لتادية الأعمال الحربية والكرباج كفيل بتسخيرهم ـ وأصبح الجلد من الأعمال اليومية العادية ثم ان سوء الغذاء ورداءة الكساء وقلة العطاء فضلا عن عدم وجود الخيام حيث يلتحف هؤلاء المساكين السماء ويفترشون الغبراء جعل هؤلاء الأدميين فريسة الأمراض الوبائية كالتيفوس وغيره عدا الجوع والبرد فكانوا يموتون كالذباب فى الصحراء ، وبجانب مصادرتنا لهؤلاء الناس أعددنا مصادرة جمالهم وحميرهم ودوابهم فأصبحت الأعمال الزراعية متعذرة ، وارتفع ثمن الحاصلات والحاجات ، فعم الغلاء وأصبح العيش متعسرا وساءت حالة الفقراء والعمال بدرجة عظيمة ٠ فهل بعد هـذا يستغرب اذا بلغ الكره لنا والحقد علينا مبلغهما فى قلوب المصريين) (١٠٧) ٠

وقارن ذلك بما حدث أثناء حفر قناة السويس من سخرة وهوان وجوع وأمراض وموت للآلاف مما أثار الضمير العالمى نفسه ٠

وفى احدى المظاهرات التى قامت ضـــد الانجليز بسبب اصرارهم على عدم مشاركة الشعب فى حكم نفسه (الدستور) والتى قامت سنة ١٩٣٥ ، فوجىء الطلبة بالرصاص ينطلق عليهم (من الانجليز) دون سبب فيصيب منهم قتلى وجرحى . وكان فى مقدمة الشهداء الشهيد عبد المجيد مرسى الطالب بكلية الزراعة الذى أطلق عليه الضابط الانجليزى ليز أربع رصاصات خر بعدها والدم ينبثق من صـــدره وعنقه وما كاد يسقط على الأرض حتى أخرج منديلا من جيبه وبلله بدمه ثم سلمه الى أحد زملائه وهو يقول تذكروا هذه الدماء وأسلم روحه فحمله زملاؤه على عربة كارو واتجهوا به الى مستشفى القصر العينى ٠

وعند ذلك تقدم زميله محمد عبد الحكم الجراحى الطالب بكلية الآداب وواجه الضابط الانجليزى ليز وخاطبه بشجاعة وثبات قائلا له (أمن الشجاعة أن تضرب بالرصاص شابا أعزل فتقتله ، وهو فى الوقت نفسه أقوى منك وأنت معك سلاحك) فتعجب ليز وقال له مهددا : أتود أن تلحق به ٠ فما كان من عبد الحكم الا أن تقدم منه قائلا ـ أتريد أن تضربنى أنا أيضا ٠ هل هذه هى شجاعتكم التى تتشدقون بها ٠ هاك صدرى اننا لسناء جبناء مثلكم ٠

فما كان من الوغد الانجليزى الا أن أطلق عليه الرصاص ، فسقط عبد الحكم على بعد خطوات من المكان الذى سقط فيه زميله عبد المجيد منذ دقائق خلت) (١٠٨) ٠

ولقد تعمد المحتل البريطانى بث روح القناعة والاستكانة بين افراد الشعب عن طريق صحفه المأجورة ، كما حارب التعليم والثقافة وشجع على التباعد عن القيم

الدينية والاجتماعية وبث بذور الفرقة والانقسام بين أبناء الوطن الواحد ليسهل عليه حكمهم وسلبهم كما عمل على تخويف الناس باصدار القوانين ذات العقوبات الرادعة ·

واليك بعض النماذج الدالة على ذلك ·

فى بث روح القناعة والاستكانة :

شجع المحتل الانجليزى الصحف الموالية له والمؤيدة لوجوده وكان أصحابها غالبيتهم من غير المصريين ، اذ كانوا من الشام أو من الأرمن ، على بث روح القناعة والاستكانة بين الناس ·

ونحن نعرض بعض مقتطفات من أقوال هذه الصحف الصادرة عقب الاحتلال البريطانى ·

(يا أيتها النفوس المطمئنة ان بعد العسر يسرا ، وان الشدة مؤذنة بالرخاء ، بالصبر تنقاد الأمانى وتدنو المعالى وتنال النفوس ما به تطمئن ، فاخفضوا الطرف ، الصالح الخاص بمصاحبة رأى سديد وعزم قوى ، وهى السر الذى لم يطلع على خفاياه عقول المصريين أو أنها الحقيقة التى لا تدركها حقائق ادراكاتهم) ·

وتمتزج الدعوة الى الاستكانة بمعارضة الآراء المطالبة بالجلاء (فلا يصح لعاقل أن يصغى لقول الجهال ان الانجليز ترغب فى اضافة مصر اليها ، بل ان مقصدها تأييد سلطنة الراحة والنظر فى مصالح الأهالى محبة منها وكرامة لهم) — وتدعى جريدة الزمان إن القدر قد أرسل انجلترا لتساعد المصريين وتعاونهم وتدبر شئونهم)·

وتميزت جريدة الأهرام باستخدام عناوين مقالاتها فى هذا الصدد ببراعة محاولة اجتذاب انتباه القارىء · بمثل (ما أجمل اللين ، فانجلترا لا تتدخل فى أمور الديانة وهى تعامل أهالى مستعمراتها باللين ، وبسبب ذلك حصلت على اتحاد الأمم الكثيرة معها ، فتراهم من جهات الكرة الأرضية الأربع يهرعون الى معاضدتها بالقلب والجسم)· ومقال (ان الله لا يستحى من الحق ، فان عقلاء الأمة والخبيرين بأغوار السياسة لا يكرهون احتلال الانجليز لا حبا فى ذاتهم بل لما يرونه من المنافع لبنى جنسهم مما يحصل بأيدى الانجليز ودفع المضرات أيضا التى لا يمكن دفعها بدونهم) · وفى نفس المعنى مقالات (ان الله يأمر بالعدل والاحسان) ، (اعدلوا هو أقرب للتقوى) ، (ما فرطنا فى الكتاب من شىء) ·

وتتحدث الأهرام فى أوائل الاحتلال عن عدم الرغبة فى زيادة عدد الجيش الانجليزى فى مصر (لأن الأمن سائر فى جميع أنحاء البلاد وليس ما يخشى منه الاخلال بالراحة العمومية · وأنا لفى يقين من أن عقلاء البلاد عارفون صعوبة المركز الحالى وأن السكينة والمواظبة على حفظ الأمن من أخص واجباتنا ولا تنال الرغائب الا بالتمسك بهذه المبادىء الشريفة حفظا لحقوقنا السياسية) ·

والدعوة الى الاستكانة يصحبها من ناحية أخرى دعوة الى عدم الاقدام على العمل والرضا بالواقع والقناعة بما عليه المرء . ومما يدعو النظر بعين الاهتمام ان يتولى هذه الدعوة الحاخام مزراحى صاحب جريدة الحقيقة اليومية الســياسية ومحررها فيكتب المقالات العديدة ضد المال (ذلك الجبار السائد والملك الظافر الذى انقادت له القلوب . فغدا أربابه يغترون كبرا ويعيشون ظلما حتى جعلوا الحق باطلا والصدق ختلا . وكم من الناس سفكوا الدماء حبا للمال . وكم انصرفوا بعيدا عن الأحبـة والاصدقاء طمعا فيه . ومحبو المال كالأسرى فى أيدى الشياطين . ثم ان المال يحمل صاحبه على الظلم ، والمال لا يوطن نفس صاحبه بل يحدث فيها اضطرابا وتهويلا بعكس الفقير ، فهذا بالكاد يسند رأسه على مخدة النوم فيرقد مستريحا ، أما ذاك فيحيا الليل تائها فى بيداء الأفكار) .

ويحاول محرر جريدة الحقيقة أن يتلاعب بمشاعر القراء فيتحدث عن (حسن الصيت) وأنه أفضل من المال المجموع ، (لذا فالواجب على المرء أن يجاهد للحصول على حسن السمعة والصيت ، وعدم العناية بجمع المال) . ثم يعقد مقارنة بين العلم والمال ويحاول اثبات أنهما (عدوان طالما قام الخصام بينهما وعظم الخطب ، فنحث أفراد الناس على اقتناء العلم فانه أشرف مقتنى) .

وتظهر هذه المقالات التى تبعث على الخمول والتكاسل فيركن الناس الى ما هم فيه وتخرج أجيال خائفة تنعدم فيها روح الاقدام ، وينال الاحتلال بغيته ويعمل أجهزته الأخرى على تنفيذ أهدافه والشعب سادر فى حالة من القنوط والخنوع .

أما صحيفة المقطم فكانت صفحاتها تفيض بالدعوة التى رسمتهـا الصحف الاحتلالية الأخرى (فالقنوع من ربى نفسه على الرضا والسرور ، فيرى البهجة والحبور فى نور الشمس وضياء القمر وتلألؤ الكواكب ، واذا أردت أن تعيش العيش الرغد ناعم البال فاطرد الهم من قلبك ، وانظر الى نعم الله التى لا تحصى ...

وانعـــم بعيشــك فالحيـــاة حــلوة
صـــاف لمن لم يقصـد الأقـدارا

وشجع الاحتلال البريطانى الزراعة وعدم صلاحية المصريين لامتهان مهنة أخرى غيرها ـ فتقول الصحيفة الزراعية (فاذا نظرنا الى جزيرة انجلترا وتأملنا فى موقعها وجوها وعلائق جوارها ، نحكم ، من أول وهلة ، أنها ليست بلدا زراعيا ، بل لو وقف أهلوها كل اهتمامهم على الزراعة وأعرضوا عن التجارة والاستعمار ، لما كان لهم ولبلدهم عشر هذه العظمة التى هم فيها ، وما نراه من ثروة الأهلين لا يمكن أن يأتيهم من الموارد الزراعية ، وقد عرف حكماء الأمة الانجليزية خواص بلدهم حق المعرفة وخضعوا لها وكل الحكمة فى هذا الخضوع) .

وهكذا كان على المصريين ـ وفقا لرأى مجلة الزراعة ـ أن يخضـعوا للعمل الزراعى وألا يبحثو عن مورد آخر مهما ضاقت بهم سبل الرزق) .

وانه وان كانت مصر قد تمكنت من دخول مجال الصناعة بعد ذلك فانها دخلته

مقلده دون أن تكون مبتكره ، كما أنه لا زالت الأجيال تتوارث عقدة الخواجه وتتوارث القناعة والاستسلام للفقر والتخلف والرضا بالواقع ٠

محاربة التعليم والثقافة :

وجد الانجليز فى مصر عند وقوع الاحتلال نهضة ورغبة مشتركة من جانب الشعب والحكومة فى سبيل النهوض بالتعليم بمختلف مراحله ، وكانت المجانية تشمل جميع هذه المراحل ، الابتدائية ، والثانوية ، والعالية ٠ وكانت اللغة العربية هى أساس التعليم بأكمله ما عدا مدرسة الحقوق حيث كانت المواد تدرس باللغة الفرنسية ، وكانت الحكومة ترسل فوجا من الطلبة كل عام الى أوربا للتخصص فى بعض العلوم ، ولم يكد يخلو مركز من مدرسة ابتدائية ، وكانت المدارس الثانوية فى عواصم المديريات الى جانب مدارس حربية ٠

وقامت سياسة الاحتلال على أساس اهمال التعليم العالى وانصرفت الى نشر التعليم الأولى ، ومن أجل ذلك شجعوا بكل ما ملكت أيديهم على نشر الكتاتيب ٠ وكان أول هم لانجلترا فى مصر اقفال المدارس وكانت النتيجة سلب الأمة معارفها وحرمانها من التربية والتحلى بالعلوم والآداب لتصل بذلك الى اضعاف قواها وجعلها غير قادرة على المقاومة ٠ وتبعا لذلك انخفضت المبالغ المخصصة للتعليم فى ميزانية الدولة من حوالى ١٠٠ ألف جنيه سنة ١٨٨٣ الى ٧١ ألف جنيه فى عام ١٨٨٨ ووصلت الى ٩٠ الف فى عام ١٨٩٢ ٠ وألغت الحكومة التعليم المجانى ، ويبرر كرومر هذه السياسة بانها قامت للتشجيع على التعليم (وذلك لأن من يريد أن يتعلم عليه أن يثبت ذلك بدفع نفقات تعليمه) ٠ ويدافع المقطم (وهى جريدة يومية تمالىء الاحتلال البريطانى) عن هذه السياسة بأنها تمت بعد بحث طويل وأن يعقوب أرتين وكيل المعارف يرى أن يقل عدد الطلبة الذين يتعلمون مجانا ما أمكن ، وأن تلغى المدارس التجهيزية التى فى غير العاصمة ٠ ويتبين من ميزانية مصر خلال الخمس والعشرين سنة الأولى من سنى الاحتلال أن مجموع الايرادات التى حصلتها الحكومة المصرية بلغ ٢٥٨ مليون جنيه أنفق منها على التعليم ٢٫٨٠١٫٠٠٠ جنيه فقط أى حوالى ١ فى المائة من مجموع الايرادات ٠ بل انه فى عام ١٨٧٢ بلغ عدد تلاميذ المدارس الابتدائية ٩٠٫٠٠٠ تلميذ أى ١٧ فى المائة من سكان القطر الذين بلغوا ٥٫٢٥٠٫٠٠٠ نسمه ٠ وبعد ربع قرن من الاحتلال الانجليزى انخفضت نسبة التلاميذ الى ١٦ فى الألف من تعداد السكان الذى بلغ أكثر من ١١ مليون فى العقد الأول من القرن العشرين ٠

فى تشجيع التباعد عن القيم الدينية والاجتماعية :

(ولا نزاع فى أن الاحتلال مسئول من الوجهة الاجتماعية عن حالة طبقات الشعب ، فالطبقة الخاصة من الأغنياء والكبراء والمثقفين قد اتجهت فى مجموعها جهة الولاء للاحتلال والحياة النفعية ، فخلت الحياة من المفاخر لأن الولاء للحكم الأجنبى يتولد عنه صغار فى النفوس يتنافر مع كل ما هو نبيل ٠ واجتمع الى ذلك الاسراف والبذخ والرغبة فى الظهور الكاذب واقتباس مفاسد المدنية الغربية دون محاسنها ،

فصارت هذه الطبقة فى مجموعها عنوان الانحلال فى الوطنية والأخلاق ، وأداة الأجنبى فى البلاد . وتقطعت الروابط بين الطبقات ، لانصراف أفرادها الى المنافع الشخصية دون الحياة القومية) .

أما الطبقة المتوسطة فى اليسار والعلم ، فهذه انصرفت أيضا الى الحياة النفعية تبتغى بلوغ مراتب الطبقة الخاصة ، ومحاكاتها فى مظاهر الأبهة والبذخ ، فلم يعد على البلاد من جهودها أية فائدة .

والطبقة الفقيرة من الفلاحين والعمال ، وهم غالبية الشعب قد ازدادت حالتهم سوءا فى عهد الاحتلال ، فحرموا نور العلم والتربية الأخلاقية والدينية ، وساءت حالتهم المادية والمعنوية ، وفقدوا مع الزمن صفات الصدق والعرفان وحب الخير والبر والاحسان .

وقد فوجىء النديم بعد ظهوره من مخبئه (بعد أن مرت على البلاد تسع سنوات تحت سيطرة الاحتلال) ، بموجة من الانحلال الخلقى فى البلاد التى غرقت فى الموبقات ، فالخمور انتشرت ويكاد لا يخلو منها زقاق ، والمواخير والأجنبيات تنشر فيها الفسق والفجور ، وشعور النساء بالحرية دفعهن الى التبرج ، وغير ذلك الكثير من الأدواء الاجتماعية ، فوجد النديم لزاما عليه اعلان الحرب عليها حتى يخلص البلاد من مفاسدها وذلك فى مجلته (الأستاذ) .

يقول كرومر (بمرور الوقت سيخلق المسلمون دينا لا يقوم على الاسلام الأول ، انه سيقوم على مبادىء جديدة . وهكذا فان المصرى المتحضر بالحضارة الأوربية هو الحجر الأول وليس الأخير فى المجتمع الاسلامى المتطور) وفى الوقت نفسه ينصح كرومر رجال السياسة الأوربيين بالابتعاد عن كل ما من شأنه أن يعد تحقيرا للعقيدة الاسلامية (ولندع هؤلاء الذين يقودون دفة الدولة على حذر يدكون ، فى مكر ، الصرح الروحى للمجتمع الاسلامى . فان ازدراء العقيدة الدينية للشعب بأسره أمر على جانب كبير من الخطورة سياسيا واجتماعيا) .

وهكذا رسم المعتمد البريطانى الطريق للوقوف فى وجه الاسلام كعقيدة الى حد أن (أقبل فريق من المسلمين المتأثرين بالحضارة الغربية على كل ما هو غربى وتركوا ماضيهم وتاريخهم ، وأصبحوا لا يكترثون لشئون دينهم الذى ولدوا فيه ولا يهابون التصريح بالالحاد) .

فى تشجيع الفرقة والانقسام وتجريم الوحدة :

بدأ محمد على باشا هذه العملية بعد أن فتت وحدة زعماء هذه الأمة فانقلبوا على قائدهم السيد عمر مكرم رحمه الله ثم اختلفوا وتصارعوا فيما بينهم فسهل له ذلك الانفراد بحكم مصر خاصة وقد سبق له أيضا الايقاع بين زعماء المماليك وتفتيت وحدتهم بوسائله غير الأخلاقية .

ثم نجح الانجليز فى بث الفرقة بين الخديو توفيق وبين القيادات الشعبية قبل أن تطأ أقدامهم أرض مصر كما سبق البيان ،

(واقتضت سياسة الانجليز عقب الاحتلال من اطلاق الحرية للصحافة فى بعض الأحوال الى ظهور جماعات من الكتاب والمحررين تدرجوا حتى أصبحت تدور حولهم وحول صحفهم أحزاب سياسية تؤيد الاحتلال أو تعارضه . ذلك ان اعتماد الاحتلال على صحف بعينهـا وظهور صحف أخرى مناوئة خلق سبيلا الى نشأة الأحزاب فى دور هذه الصحف ...

ونشأت على سياسة المقطم ، ما يسميه قسطاكى ، الحزب الوطنى الحر الذى يقوم على مسالمة الانجليز والسعى فى نيل ثقتهم والاتفاق معهم ، ونشأ فى دار المؤيد وحول على يوسف حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية مؤيدا الخديو معتمدا على الوعود التى أعلنتها بريطانيا ومطالبتها بتحقيقها . ثم ظهر الحزب الوطنى وقام على سياسة جريدة اللواء لمصطفى كامل ، وحزب الأمة على سياسة صحيفة (الجريدة) لأحمد لطفى السيد وزملائه (ثم تضاعف عدد الأحزاب بعد ذلك) . وفى ذلك يقول حافظ ابراهيم ناعيا فوضى الرأى :

وصـحف تطن طنين الذباب	وأخرى تشن على الأقـــــرب
وهذا يلوذ بقصر الأمـــــير	ويدعـــو الى ظلـــه الأرحب
وهذا يلـــوذ بقصر السفـــير	ويطنب فى ورده الأعــــذب
وهذا يصـــيح مـع الصائحين	على غير قصـــد ولا مــــأرب

وهكذا كانت الأحزاب ثمرة من ثمرات الصحافة ونتيجة من نتائجها فيجتمع الأفراد حول شخصية غالبا ما تكون شخصية صحفية لها آراؤها فى اصلاح المجتمع ثم تستطيع عن طريق الصحيفة أن تقنع هؤلاء الأفراد برأيها ، وذلك على عكس أمم العالم المتمدن اذ تشكل الأحزاب السياسية ولكل حزب وجهة أو خطة وينشىء كـل حزب منها جريدة أو عدة جرائد يجعلها لسان حاله للدفاع عن سياسته .

واستطاع الاحتلال بذلك أحداث نوع من الاستكانة والخضوع والتفكك ووجدت بعض العناصر فى الغزاة الجدد اسنادا يمكن الاعتماد عليها لتحقيق مآربها فتنكروا للحركة الوطنية ، وعمل رجال الاحتلال كذلك على توطيد هذه الحالة النفسية متلمسين لأنفسهم العون ولحكمهم الأنصار والمؤيدين حتى تضاءلت الروح الوطنية بين جمهرة أبناء الشعب وشاعت بينهم أسباب الفرقة والخلاف (١٠٨) .

وفى ١٨ أكتوبر سنة ١٩١٤ صدر قانون منع التجمهر أى منع الوحدة وتجريمها .

ويقول هذا القانون أنه اذا زاد عدد المجتمعين عن خمسة فهو تجمهر . ويفرض العقاب على المتجمهرين اذا أمرهم رجال السلطة بالتفرق فلم يفعلوا (المادة ١٥) أو اذا كان غرضهم التأثير على السلطات فى أعمالها ..

وفى سنة ١٩١١ حدث خلاف بين المسلمين والمسيحيين ، وقد قيل أن يد السيد الدون جورست المعتمد البريطانى ، لم تكن بعيدة عن هذا الخلاف .

وفى ١١ نوفمبر سنة ١٩١٩ تالفت وزارة يوسف وهبه باشا (مسيحى) ·· وقد قوبل تاليف هـذه الوزارة بالسخط العـام . لان تاليفها على أثر صدور بلاغ الحماية كان اقرارا منها للسياسة البريطانية ومعاونة لها على تنفيذها ، فى الوقت الذى ثارت الأمة فيه ضد هذا البلاغ ، وضد تلك السياسة . فكان تاليفها خذلانا وتحديا للأمة ·

واذ كان رئيس الوزراء قبطيا ، فقد استاء الاقباط من موقفه ، وأقاموا اجتماعا كبيرا صباح يوم الجمعة ٢١ نوفمبر فى الكنيسة المرقصية الكبرى ، برئاسة القمص باسليوس وكيل البطريركية ، أعلنوا فيه سخطهم على وهبه باشا ، وعلى قبوله تاليف الوزارة (ولم يكن المرسوم بتاليفها قد صدر بعد) وخطب فى هذا الاجتماع الكثير من زعماء الأقباط وأرسلوا البرقية التاليه الى يوسف وهبه باشا :

الطائفة القبطية المجتمع منها ما يربو على الألفين فى الكنيسة الكبرى تحتج بشدة على اشاعة قبولكم الوزارة اذ هو قبول للحماية وللمناقشة لجنة ملنر ، وهذا يخالف ما أجمعت عليه الأمة المصرية من طلب الاستقلال التام ، ومقاطعة اللجنة ، فنستحلفكم بالوطن المقـدس وبذكرى أجدادنا العظـام أن تمتنعوا عن قبـول هذا المنصب الشائن (١٠٩) ·

ويقول الدكتور زاهر رياض فى كتابه عن المسيحيين والقومية المصرية (ظهرت وحدة الأمة صافية نقية بعد ثورة سنة ١٩١٩ وبدت مظاهر هذه الوحدة حين وقف شيوخ الأزهر على منابر الكنائس كما وقف القسس ورجال الدين الأقباط على منابر المساجد مباركين هذه الوحدة ، مندين بالمحتلين · يحرضون على التضحية والفداء من أجل الوطن ، كما ظهر الصليب يعانق الهلال على الأعلام المصرية · وبدت مظاهـر هذه الوحدة أكثر من ذلك حين أخذت تبرعات المسلمين تنهال على الجمعيات القبطية في المناسبات المختلفة فقد أقامت جمعية التوفيق القبطية معرضا لمدارسها كانت لجنته العليا مكونة من فتح الله بركات وعبد الرحمن فهمى ومصطفى النحـاس ، وعاطف بركات ومحمـد محمود خليل الى جانب سنموت حنـا وصادق حنين ومرقص حنـا وغيرهم · كما أقامت الجمعيـة الخيرية القبطية سوقا آخر كانت لجنته مكونة من السيدات هدى شعراوى وشريفة رياض الى جانب استر فهمى ويصا وروجينا خياط ·

واذا ما احتفل الحزب الوطنى بجنازة المرحوم محمد فريد اشترك جميع المصريين بها احتفالا شعبيا هائلا كما طافت لجنة الوفد المصرى بالبلاد لجمع التبرعات لنفقة أعضاء الوفد وكانت مكونة من فتح الله بركات ومرقص حنا وسينموت حنا ومصطفى النحاس وويصا واصف وحافظ عفيفى والأب مرقص سرجيوس ·

فجمعت من مدينة الاسكندرية فى يوم واحد أربعة عشر ألفا من الجنيهات ومن مدينة فاقوس ثمانية آلاف جنيها ·

وكان من أثر هذا التضامن أن نشر المستر بوند القاضى السابق بالمحاكم المختلطة

بيانا ينصح فيه حكومتـــه بالتسليم بالمطالب المصرية . بعد أن اتحدت جميع عناصر الأمة هذا الاتحاد المبين .

ولقد عرف اللورد كرومر وهو الاستعمارى الأصيل والذى كانت سياسة التفرقة بين المسيحيين والمسلمين أهم ما يميز عصره . ما فى اتحاد أبناء الوطن الواحد من تأصل حين قال « ان الفرق الوحيد بين الأقباط والمسلمين فى مصر انما هـــو ان الأولين مصريون يتعبدون فى كنائس بينما الآخرون مصريون يتعبدون فى مساجد » (١١٠) .

فى حكم الارهاب :

« وفى ٤ يولية سنة ١٩٠٩ صدر القانون المعروف بقانون النفى الادارى ، الذى رجع بالبلاد الى الوراء سنين عديدة ، اذ جعل من حق السلطة الادارية نفى الأشخاص الذين ترى أنهم خطر على الأمن العام ، الى جهة نائية بالقطر المصرى ، وقد أخذ الكثير من الأبرياء بهذا القانون ، وكان وسيلة لانتقام بعض العمد ورجال الادارة من خصومهم الشخصيين ، واختارت الحـكومة الواحات الداخلة منفى لمعظم من قضت لجان النفى الادارى بادانتهم » .

« وفى ٢٦ يونية سنة ١٩١٠ صدر قانون لمعاقبة الاتفاقات الجنائية ولو لـم يتوافر فيها أركان الاشتراك فى ارتكاب الجريمة ، وهذا القانون وضع لمحاربة الحركة الوطنيـــة وحدها وفيه مجال فسيح لتلفيق التهم للأبرياء ، والاعتساف فى اسناد نيات اجرامية اليهم ، دون أن يبدو منهم أى عمل ما » (١١١) .

« ومنذ عام ١٩١٠ ، ..... ، كانت هذه المادة هراوة السلطة التى أرهبت بها كل الجماعات والجمعيات والأحزاب والتحركات التى فكرت مجرد تفكير فى مقاومة الاستبداد ، وأفسدت بها الضمائر وعلمت الناس الخوف من مجرد الحوار خوفا من أن يؤدى الحوار الى اتفاق ، وشككت الناس فى أقرب الناس اليهم خوفا من التبليغ عما يتحاورون به أو يتفقون عليه حتى فى جلساتهم العائلية الخاصة » (١١٢) .

ومن نماذج حكم الارهاب ما حدث فى صبيحة يوم ٢٢ أبريل سنة ١٩١٩ اذ أذاع الجنرال اللنبى منشوره للموظفين ، أنذرهم فيه بالعودة فورا الى أعمالهم ، (بعد ثورة سنة ١٩١٩) والا تشطب أسماؤهم من سجلات موظفى الحكومة .

وبعد ثورة سنة ١٩١٩ لم تكف السلطة العسكرية عن اضطهاد الأهلين ، بل استمرت تتفنن فى ضروب القسوة والاعتساف .

وأعلنت الاحكام العرفية بمناسبة الحرب العالمية الأولى فى نوفمبر ١٩١٤ بقرار من القائد العام لجيش الاحتلال البريطانى وتولتها السلطة العسكرية الانجليزية وهذا هو النص الذى أعلنه قائد الجيوش البريطانية فى ذلك الوقت .

« ليكن معلوما أنى أمرت من حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى بأن آخذ على عاتقى

مراقبة القطر المصرى العسكرية لكى يضمن حماؤه ، فبناء على ذلك صار القطر المصرى تحت الحكم العسكرى من تاريخه أى من ٢ فبراير سنة ١٩١٤) ٠

وبهذا تم حكم مصر وشعبها حكما عسكريا بقوة السلاح حتى ٥ يولية سنة ١٩٢٣ تاريخ انهائها بقرار من القائد العام للقوات البريطانية ٠

وفى سنة ١٩٣٩ طلبت السفارة البريطانية من الحكومة المصرية تنفيذة للمادة السابعة من معاهدة سنة ١٩٣٦ اعلان الأحكام العرفية ، وطلبت اليها أيضا وضع الرقابة على المطبوعات باعتبارها أثرا من آثار النظام العرفى ٠

فلم يسع الحكومة الا أن تبادر باعلان الأحكام العرفية ، وأصدرت بذلك مرسوما فى أول سبتمبر سنة ١٩٣٩ ٠ وذلك بسبب الحرب العالمية الثانية (١١٣) ٠

واستمر الحكم العسكرى لغاية أكتوبر سنة ١٩٤٥ بعد انتهاء الحرب ، ثم اعلانها مرة ثانية فى ١٣ مايو سنة ١٩٤٨ بسبب حرب فلسطين الى أول مايو سنة ١٩٥٠ ، **ثم اعلانها مرة ثالثة فى ٢٧ يناير سنة ١٩٥٢** (عقب حريق القاهرة) (١١٤)٠

والمعروف انه فى حالة وجود الحكم العسكرى تحت عنوان الأحكام العرفية تصبح للحكومة سلطة مطلقة لا حدود لها من دستور وقانون ولا مجال فيها لأى نوع من الحريات السياسية والمدنية ولا رقابة عليها من أية هيئة تشريعية أو قضائية) ٠

بمعنى أن الانسان المصرى يجد نفسه ، وحده ، فى مواجهة أمزجة السلطة الحاكمة بدون أى حماية وفى هذا مدعاة لاخافة الناس حتى ولو لم تستعمل الحكومة هذه السلطة الاستثنائية فعلا ٠

ومن نماذج خضوع القيادات للاحتلال البريطانى :

أنفقت الحكومة المصرية منذ نشوب الحرب العالمية الأولى لحساب الحكومة البريطانية ولأغراضها السياسية والعسكرية مبالغ طائلة فى مختلف المصالح ، وقيدت هذه المبالغ فى حساب العهد على الحكومة البريطانية (أى دين عليها) ، وقد خص معظم هذه النفقات مصلحة السكك الحديدية ووضع السير ويليم برونيت المستشار المالى بالنيابة كشفا فى أوائل سنة ١٩١٨ بالمبالغ التى أنفقتها الحكومة فى هذا الصدد لغاية ٣١ ديسمبر سنة ١٩١٧ قاربت على ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ جنيه ، مع تقدير مبلغ نصف مليون جنيه آخر . كان منظورا صرفه حتى آخر تلك السنة المالية ، أى أن ما أقرضته الخزانة المصرية للحكومة البريطانية بلغ ثلاثة ملايين جنيه ، كان على هذه أن تؤديها لها ، ولكن الحكومة المصرية أظهرت سخاءا هائلا فى شأن هذا القرض ، فقد اجتمع مجلس الوزراء برأسة السلطان (أحمد فؤاد) يوم ٩ مارس سنة ١٩١٨ ، وقرر من تلقاء نفسه أن تتحمل الخزانة المصرية المبالغ المذكورة لغاية ثلاثة ملايين جنيه اعترافا بجميل بريطانيا العظمى التى حمت البلاد من خطر الغارات) وقرر أيضا

أن تدرج وزارة المالية نصف مليون جنيه آخر للقيام بالمصروفات التى من هذا النوع فى السنة التالية . فبلغت المنحة ثلاثة ملايين جنيه ونصفا ..

(وكله على حساب مستوى دخل كل أسرة ومستوى معيشتها من أفراد هـــذا الشعب وبطبيعة الحال لم تتأثر مالية السلطان أو وزراؤه وأعوانه وحاشيته بذلك ، انما الغارم دائما هو الشعب البعيد عن رقابة مثل هذه الأمور) .

ويعلق اللورد ملنر فى تقريره عن هذه المنحة بقوله (ان حكومة السلطان أيدت رجال السلطة البريطانية بأعظم تعاون حى ، والدلائل على ذلك كثيرة منها تنازلها عن ثلاثة ملايين جنيه انجليزية (ذهبية بطبيعة الحال) من حساب الأمانات والعهد التى كانت قد أقرضتها أياها ، وكان يحق لها المطالبة بها (١١٥) .

وننتقل الى ما قبل يوليو ١٩٥٢ ..

ولعل فى كتاب جبهة الأحزاب المعارضة ضد حزب الوفد الحاكم الموجه الى الملك فاروق فى أكتوبر سنة ١٩٥٠ ما يوضح أسلوب القيادات فى الاستيلاء على الحـكم قبل الثورة .

يا صاحب الجلالة .

ان البلاد لتذكر لكم أياما سعيدة كنتم فيها الراعى الصالح الرشيد ، وكانت تحف بكم أمة تلاقت عند عرشكم آمالها ، والتفت حول شخصكم قلوبها ، فما واتتها فرصة الا دلت فيها على عميق الولاء بالوفاء ، وما العهد ببعيد بحادث القصاصين ، ولقد أنقذكم الله من مخاطرة وهو أرحم الراحمين .

واليوم تجتاز البلاد مرحلة قد تكون من أدق مراحل تاريخها الحديث ، ومن أسف انها كلما اتجهت الى العرش فى محنتها حيل بينه وبينهـــا لا لسبب الا لأن الأقدار قد أفسحت مكانا فى الحاشية الملكية لأشخاص لا يستحقون هـــذا الشرف فأساءوا النصح وأساءوا التصرف ، بل منهم من حامت حول تصرفاتهم ظلال كثيفة من الشكوك والشبهات هى الآن مدار التحقيق الجنائى الخاص بأسلحة جيشنا الباسل ، حتى ساد الاعتقاد بين الناس أن يد العدالة ستقصر حتما عن تناولهم بحكم مراكزهم ، **كما ساد الاعتقاد من قبل أن الحكم لم يعد للدستور ، وأن النظام النيابى قد أضحى حبرا على ورق منذ أن عصفت العواصف بمجلس الشيوخ فصدرت مراسيم يونية سنة ١٩٥٠ التى قضت على حرية الرأى فيه ، وزيفت الانتخابات الأخيرة من قبل تكوين مجلس نوابنا .**

ومن المحزن أنه ترددت على الألسن والأقلام داخل البلاد وخارجها أنباء هـــذه المساوىء وغيرها من الشائعات الذائعات ، التى لا تتفق مع كرامة البلاد ، حتى أصبحت سمعة الحكم المصرى مضغة فى الأفواه ، وأمست صحافة العالم تصورنا فى صورة شعب مهين ، يسام الضيم فيسكت عليه ، بل ولا يتنبه اليـــه ، ويساق كمـــا تساق

الأنعام ، والله يعلم ان الصدور منطوية على غضب تغلي مراجله ، وما يمسكها الا بقية من أمل يعتصم به الصابرون ٠

يا صاحب الجلالة ٠٠

لقد كان حقا على حكومتكم (حكومة الوفد برئاسة مصطفى النحـــاس) أن تصارحكم بهذه الحقائق ، ولكنها درجت فى أكثر من مناسبة عـلى التخـــلص من مسئولياتها الوزارية ، بدعوة التوجيهات الملكية ، وهو ما يخالف روح الدستور ، وصدق الشعور ، ولو أنها فطنت لأدركت أن الملك الدستورى يملك ولا يحكم ، كما أنها توهمت أن فى رضاء الحاشية ضمانا لبقائها فى الحكم ٠ وسترا لما افتضح من تصرفاتها ٠ وما انغمست فيه من سيئاتها ـ وهى لا تزال أشد حرصا على البقاء على الحكم وعلى مغانمه منها على نزاهته ـ ولهذا لم نر بدا من أن ننهض بهـــذا الواجب ابتغاء وجه الله والوطن ، لا ابتغاء حكم ولا سلطان ، وبرا بالقسم الذى أديناه أن نكون مخلصين للوطن والملك والدستور وقوانين البلاد وما الاخلاص لهـــذه الشعائر السامية الا اخلاص الأحرار الذى يوجب علينا التقدم بالنصيحة كلما اقتضاها الحال ٠

يا صاحب الجلالة :

ان احتمال الشعب مهما طال فهو لا بد منته الى حد ، واننا لنخشى أن تقوم فى البلاد فتنة لا تصيبن الذين ظلموا وحدهم ، بل تتعرض فيها البلاد الى افلاس مالى وسياسى وخلقى ، فتنتشر فيها المذاهب الهدامة ، بعد أن مهدت لها آفة استغلال الحكم أسوأ تمهيد ٠

لهذا كله نرجو مخلصين أن تصحح الأوضاع الدستورية تصحيحا شامـــلا ، وعاجلا ، فترد الأمور الى نصابها ، وتعالج المساوىء التى تعانيها مصر عـلى أساس وطيد من احترام الدستور ، وطهارة الحكم ، وسيادة القانون ، بعد استبعـــاد من أساءوا الى البلاد وسمعتها ، ومن غضوا من قدر مصر وهيبتها ، وفشلوا فشلا سحيقا فى استكمال حريتها ووحدتها ونهضتها ، حتى بلغ بهم الفشل أن زلزلوا قواعد حكمها وأمنها فأهدروه فوق اهدار اقتصادها القومى ، فاستفحل الغلاء الى حد لم يسبق له مثيل ، وحرموا الفقير قوته اليومى ٠

ولا ريب أنه ما من سبيل الى اطمئنان أية أمة لحاضرها ومستقبلهـــا الا اذا اطمأنت لاستقامة حكمها ، فيسير الحاكمون جميعا فى طريق الأمانة على اختـــلاف صورها ، متقين الله فى وطنهم ، ومتقين الوطن فى سرهم وعلنهم ٠

والله جلت قدرته هو الكفيل بان يكلأ الوطن برعايتـه ، فيسير شعب الوادى قدما الى غايته ٠

١٨ أكتوبر ١٩٥٠ امضاءات ٠

ابراهيم عبد الهادى ـ محمد حسين هيكل ، مكرم عبيد ، حافظ رمضـــان ، عبد الســـلام الشاذلى ، طه الســـباعى ، مصطفى مرعى ، عبد الرحمن الرافعى ، ابراهيم دسوقى أباظه ، أحمد عبد الغفار ، على عبد الرازق ، رشـــوان محفوظ ،

حامد محمود ، نجيب اسكندر ، زكى ميخائيل بشارة ، السيد سليم) (١١٦) ٠

وللحقيقة فان كتاب المعارضة عن حكومة الوفد الموجه للملك فاروق كان يمثل الحقيقة تماما ٠

ولكن هل الأسماء التى وقعت على هذا الكتاب ، ومنها رؤساء أحزاب الأحرار الدستوريين والسعديين والكتلة الوفدية والحزب الوطنى وغيرهم ٠

هل هذه الأسماء أصلحت أمور البـــلاد عندما أسندت اليها أمور حكم مصر قبل ذلك ٠ بالطبع لا ٠

كانوا جميعا ينقمون على الحزب أو الأفراد الذين يلون الحكم ، ومن يكن منهم خارج الحكم يدعى على من فى الحكم بنفس ما جاء فى هذا الكتاب ٠

انما هى وسيلة من وسائل الوصول الى الحكم مغلفة فى شعارات وقوالب العصر الحديث٠

واليك نماذج من قيادات ٥٢ ـ ١٩٧٠ :

عندما شعر عبد الحكيم عامر بالرقابة عليه ، عمل من جانبه على اجتذاب عناصر المخابرات وقادتهم المنتشرين حوله وحول أعوانه ـ وليس سرا أن منافســة ضخمة قامت بين عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ، على صلاح نصر ، كل منهما يبذل جهده لكى يبقى مدير المخابرات العامة رجله دون الآخر ، وفى عام ٦٧/٦٦ كان عامر يردد فى سهراته بين خلاصة أصدقائه ساخرا من عبد الناصر ٠

« الريس فاكر انه أخذ منى صلاح نصر ٠٠ وأنا سايبه يفكر زى ما يعجبه » ٠

ويرد (أفراد الشله) على المشـــير عامر فى نفاق مدفوع الثمن وهم ينادونه (يا ريس) ٠

(يا ريس) الى متى تترك هــذا الرجــل يا ريس ، انه لا يدرك ان وجوده رئيســا للجمهورية حتى الآن مرتبط بك وبرضائك عنه ٠

ويقول آخـــر ٠

آن الأوان ياريس لتاخذ مكانك الحقيقى ٠٠ كفايه كده عليه ٠

ويضحك عبد الحكيم فى سعادة محاولا اخفاءها ، ويقول لرجاله وكانه يؤنبهم ٠

اختشى ياواد منك له ، ايه اللى جرى لعقولكم ٠

كان لعبد الحكيم عامر مجموعة من الفيلات والشقق الفاخـــرة فى القاهــرة والاسكندرية بحجة تامين حياته ، وفى كل ليلة يقضى سهراته بين شلته ، يدور مثل هذا الحديث ، واذات يوم فوجىء عامر بعبد الناصر يدير أمامه عدة أشرطة لتسجيلات

مختلفة دارت فى شقق وفيلات المشير . وأمسكت المفاجأة بعامر فظل صامتا مستمعا للأشرطة . وفى النهاية أراد بخبث أن يخرج من المأزق فثار على عبد الناصر لأنه يقوم بمثل هذه الاعمال الصبيانية بدلا من الاهتمام بمشاكل الجماهير وشكواهم من حكومة زكريا محى الدين .

واندفع واقفا فى غضب مفتعل .. بينما خشى عبد الناصر أن يكون قد أغضب عامر حقيقة . فأخذ يعتذر له معاتبا مستعيدا ذكريات صداقتهما القديمة النادرة ، مستنكرا أن يسمح (عبد الحكيم) لأحد محاسيبه بالخوض فى مثل هذه الموضوعات والحديث عن عبد الناصر بهذا المستوى) (١١٧) .

ومن سلسلة مقالات الدكتور عبد العظيم رمضان فى مجلة أكتوبر عن قصة حرب يونية سنة ١٩٦٧ ننقل بعض ما جاء بها عن صراعات القيـــادة الحاكمة ، فى هذه الفترة ، للانفراد بحكم مصر .

(تعرضنا فى مقالنا الســابق للمواجهة التى وقعت بين عبد الناصر والمشير عامر يوم ٨ يونيه . والاتفاق الذى تم بينهما على التنحى وترشيح شمس بدران لرئاسة الجمهــورية ، وأوضحنا أن عبــد الناصر . منذ اللحظة الأولى . كان يبيت النية على التخلص من المشير وحكم الجيش . اذا جدد الشعب ثقته به . ولذلك قصر خبر التنحى فى خطابه عليه وحده دون المشير . حتى اذا حدثت المبايعة تكون مقصورة عليه ! . وفى الوقت نفسه ترك المشير تحت الاعتقاد بأن شمس بدران سوف يكون خلفا له فى رئاسة الجمهورية . بينما كان يختار اسم زكريا محيى الدين لطرحه امام الشعب ! ولهذا السبب لم تنتهى الخطبة حتى بدأ الصراع المكشوف بين السلطتين اللتين كانتا تقتسمان الحــكم فى مصر منذ ثورة ٢٣ يوليــو . وهما سلطة الجيش وعلى رأســه المشير عامر ومجموعته العسكرية . وسلطة رئاسة الجمهورية وعلى رأسها عبد الناصر وأجهزته السياسية والشعبية .

هذه الحقيقة ، وهى عزم عبد الناصر منذ البداية على التخلص من المشير عامر ومجموعته العسكرية اذا جدد الشعب ثقته به ، هى التى جعلت أنصار المشير يشبهون الاتفاق الذى تم بينهما على التنحى : باتفــاق موسى الأشعرى وعمرو بن العاص ، عندما خلع موسى الأشعرى على بن طالب وثبت عمرو بن العاص معاوية !

على أن المشير كان له رأى آخر . فقد شــبه ما وقع بينــه وبين عبد الناصر بما يحدث فى أفلام رعاة البقر ! فقال : « أنا رميت المسدس فى الأرض . ومشيت ! . وأنا ماشى ، راح واخده وضاربنى بيه ! . تماما زى أفلام الكاوبوى . لما تلاقى فارس لا يمكن أن يضرب من الخلف . وآخر لا يضرب أبدا وجها لوجه ! » .

وكان تحليل المشير لما حدث ـ كما رواه لعبد الصمد محمــد عبد الصمد أن الفرصة سنحت لعبد الناصر لازاحته ! : كان أبعادى من الجيش هى أمنية جمال من حداشر سنة وتحققت برضائى ! . لما استقلت (سنة ١٩٦٢) لو كان قادر يقبل

الاستقالة . كان قبلها ! . ولو كان قادر يعزلني . كان عزلني ! . فالمسألة مش زى الناس ما هم فاهمين . وهو أن اللى بيننا صلات وعواطف . اللى بيننا » فرض وجود « على ارادته » !

وفى العدد التالى من مجلة اكتوبر يستطرد الدكتور عبد العظيم رمضان : فى مقالنا السابق تتبعنا التحركات التى قامت بين ضباط وقادة الجيش الموالين للمشير عامر . وأوضحنا كيف بدأت هذه التحركات « بحسن نية » أولا . بهدف مطالبة المشير بالضغط على عبد الناصر للعدول عن الاستقالة . ثم انتقلت الى مطالبة الاثنين بالبقاء معا . بعدما تبين أن المشير قد قدم استقالته هو الآخر . ثم تحولت الى مطالبة المشير عامر بالبقاء . عندما عدل عبد الناصر عن استقالته . ثم تطورت لتتخذ شكلا من أشكال التمرد والثورة . تمثل فى « هرج ومرج وتوتر » . و « خروج عن اللياقة العسكرية » . و « ترديد عبارات قاسية وسباب للفريق محمد فوزى رئيس الاركان » . و « محاولات تكتل » . وانتهت الى صيغة كتابة عريضة لعبد الناصر تطلب منه ضرورة عودة المشير . وتكوين وفد عن الضباط لمقابلة عبد الناصر لتقديم هذه العريضة . كان واضحا أن الحركة . على هذا النحو . تحذو حذو الحركة العرابية فى صدامها مع الخديو توفيق ! فعندما أفلح هذا فى اسقاط حكومة البارودى فى ٢٦ مايو ١٨٨٢ - وكان عرابى فيها وزيرا للحربية والبحرية - بعث الضباط العرابيون الى الخديو توفيق فى اليوم التالى . يبلغونه « انهم لا يرضون البتة بغير عرابى ناظرا للجهادية . وأنه اذا لم يرجع الى منصبه فى خلال اثنى عشرة ساعة . فانهم سيكونون غير مسئولين عما يحدث مما لا يستحب وقوعه » ! .

لذلك فحين عرف عبد الناصر - الذى كان قارئا جيدا للتاريخ - بهذه العريضة ووفد الضباط الذى يريد مقابلته لتقديمها . رفض الاجتماع بهذا الوفد . وقال لشمس بدران . الذى اتصل به لهذا الغرض . أنه « لن يكون مثل الخديو توفيق . ولن يقابل أحدا ! »

على أن الأمور كانت فى تلك الاثناء تتطور الى الأسوأ فلم يكد يذاع قرار تعيين الفريق أول محمد فوزى قائدا عاما . حتى خرج ضباط مكتب المشير . فيما وصفه أحمد أبو نار مساعد مدير مكتب المشير . بأنه « مسيرة عسكرية » ! وكانت الفكرة أن تتجه الى بيت عبد الناصر فى منشية البكرى . للانضمام الى الوحدات الأخرى ! فاما تبين عدم وجود مثل تلك الوحدات . اتجهت المسيرة الى مبنى القيادة العامة . وكانت تتكون من سرية . بها ست سيارات مدرعة من طراز « وليد » وثلاث عربات جيب . استقلها الضباط الى مبنى القيادة العامة . للتعبير عن تمسكهم بالمشير ! .

وقد كان على عبد الناصر مواجهة الموقف بحزم . والا أسلم البلاد للفوضى . فعندما عرف أن قوة الحرس الجمهورى الموجودة لديه لا تتجاوز ٣٥٠ جنديا . طلب من العميد محمد الليثى رئيس الحرس الجمهورى . سرعة استدعاء وحدات دبابات

كتيبة الحرس الجمهورى من مواقعها الدفاعية على القناة ; الى القاهرة • وعندما سأله العميد الليثى : « هل تترك مواقعها الدفاعية ؟ » •• رد عبد الناصر قائلا : « نعم ! •• مادام عاوزين يحاربونا فى الداخل ، فسأريهم كيف تكون الحرب » ! (١١٨) •

ومع تسلط مراكز القوى وانتشـــار المظهرية والنفاق السياسى ، انكمشت ضمانات الحرية حتى تلاشت ، ولم يتكلم كثيرون حيث كان واجبا عليهم أن يتكلموا •

فخلصت مراكز القوى باسم حماية الثورة من أعدائها الشخصيين مستخدمين سلاح (القوى المضادة للثورة) فى الوقت الذى استطاعت فيه القوى المضادة للثورة من التسلل الى كثير من مواقع القيادة •

اتسع نطاق سلاح (القوى المضادة للثورة) ليشمل كل من يرفع صوته بالنقد أو الرأى الحر الصحيح •

اتخذت مراكز القوى من عملية التحول الاشتراكى سلاحا تشهره فى وجه من تريد وعلى سبيل المثال فان بعض قرارات الضم الى القطاع العام قد دفعت اليها نزعة عقابية شوهت فكرة القطاع العام التى لا تمت الى العقاب بصلة •

تحول جهاز المخابرات تحت سيطرة مراكز القوى عن عمله الطبيعى فى تقصى أخبار العدو الى سلاح مخيف يرعبون به المواطنين نهارا ويذلونهم ليلا •• مما صادر معه كل أصول الحريات •

التدخل فى شئون القضاء ، وعزل القضاه بالتحايل على الدســـتور فيما سمى بقوانين الاصلاح القضائى التى صدرت فى ١٩٦٩/٨/٣٠ •

فرضت مراكز القوى وصـــايتها على الجماهير وتعـــددت القيود والاجــراءات الاستثنائية ومنها :

قوانين (تدابير أمن الدولة) وبمقتضاها أصبح من حق السلطات القبض على من تشاء ، واعتقاله ، لأية مدة بدون أن يكون للمواطنين حق الدفاع أو التظلم •

قوانين الحراسة رقم ١٦٢ لسنة ١٩٥٨ و ١١٩ لسنة ١٩٥٤ و ٥٠ لســــــنة ١٩٦٥ أعطت حق فرض الحراسة على أى مواطن بقرار نهائى من رئيس الجمهورية ، وهو أمر يجب أن يترك أصلا للسلطة القضائية ـ وعلى سبيل المثال كانت الفنانة برلنتى عبد الحميد تستقل ســـيارة برفقة صلاح نصر مدير المخابرات العامة ـ فى طريقها من الاسكندرية للقاهرة ليلا ـ وعند الكيلو ١٠ بالقرب من ميناهاوس توقفت برلنتى أمام فيلا مضاءة وأبدت اعجابها بها ثم طلبت من صلاح نصر ان يدخل معها لمشاهدتها من الداخل والتعرف باصحابها •

ودخلا ٠٠ وعرفا ان صاحب الفيلا هو الدكتـــور زهير جرانه الوزير السابق فى بداية الثورة والمحامى المعروف ٠

وبعد أيام قليلة فرضت الحراسة على الدكتور جرانة ، واكتشف مندوبو مكتب المشير عامر الذين رافقوا رجال الحراسة لاستلام الفيلا ، ان الدكتور جرانة يملك حديقة الفيلا فقط بينما الفيلا ملك للسيدة زوجته فعادوا ليستصدروا فى اليوم التالى قرارا بفرض الحراسة على السيدة زوجة الدكتور جرانه وأولادها أيضا ــ وأخليت الفيلا اجباريا ٠٠ وجاءت الفنانة برلنتى عبد الحميد زوجة المشير عامر لتسكن بها ، أقصد لتقضى بها بعض الوقت ، فكما هو معروف كانت تملك السكن فى أكثر من شقة وفيللا فى أنحاء البلاد ٠

ثم فصل الموظفين بغير الطريق التاديبى ، بمقتضى القانون رقم ٣١ لسنة ١٩٦٣ والذى اعتبر فصل الموظفين من أعمال الســـيادة التى لاتدخـل فى اختصـــاص القضاء عموما ٠

فرض الرقابة على جميع وسائل النشر والتعبير ومنها الصحافة ٠

وأمام كل هذا كان لابد أن تنمو المظهرية على حساب العمل الجاد ، والانتهازية على حساب شجاعة الرأى ، ومنطق التبرير والخداع على حساب الحقيقة والنقد البناء ٠

وتوارت ارادة الجماهير التى أحست بأنواع شتى من الاحباط ومشاعر العجز وخيبة الأمل ، وهى تجد نفسها مجردة فى النهاية من أى سلاح نستطيع به أن تفرض ارادتها المشروعة على كل ما يتصل بحياتها ومستقبلها من أمور ٠

ودفعت الاشتراكية ، وحرية الرأى ، وكرامة الانسان فى النهاية ثمن هذا كله٠

ولعل هزيمة ٥ يونيو تعتبر أكبر وصمة على جبين القيادة السياسية والعسكرية التى واجهت الموقف ، وهذه الهزيمة يبرأ منها جيش مصر الذى لم تساعده الظروف على خوض غمار حرب حقيقية يثبت فيها كفاءته ٠

وتحت شعار (لا صوت يعلو على صوت المعركة) كادت الحياة أن تتوقف ، وعلى سبيل المثال صرف النظر نهائيا فى ذلك الوقت ، تحت نفس الشعار ٠ عن وضع دستور للبلاد) (١١٩) ٠

واستمرت حالة الطوارىء بمـا تسـتدعيه من تركيز فى السلطة ورقابة على الصحف ووسائل النشر وأجهزة الاتصـال والاجتماع وتحركات الوافدين والمقيمين واستبدال المحاكم العسكرية بالمحاكم المدنية وتجاوزت اجراءات التحقيق العلنية الى التحقيقات السرية ، والاعتقال ، والحبس المطلق ٠

وصعدت القوات المسلحة الى المركز الأول من مراكز القوى فى الدولة على أساس أنها المسئولة الأولى عن سلامة الوطن ، واكتسابها ــ بحجة الحرب أو الاســـتعداد

للحرب أو مخاطر الحرب ـ سلطة تعلو فى كثير من الحالات على السا المدنية التى. تصبح احدى وظائفها الأساسية تنفيذ متطلبات القوات المسلحة ما واقتصـاديا وبشريا وتأمينيا وأمنا ، وتحصينها ضد المعرفة والنشر أو النقد ٠

أى قيام دولة عسكرية فوق الدولة المدنية ٠

ومنها مصيبة العصر فى العالم كله ـ تضخم أجهزة الأمن الدا (أمن الدولة) والخارجى (المخابرات العامة) وتزويدها بامكانيـات مالية غير ه رفة من الشعب وغير قابلة للمعرفة ، وسلطات مطلقة الا من حد الحفاظ على أمز دولة وبمعـدات خيالية تسمح لها بأن تضع كل مواطن ـ من حيث لايدرى ـ تحد مجهرها وبالقدرة على أن تباشر مهمتها خفية ، تراقب خفية ، وتدرس خفية ، وتتابع ية ، وتقرر خفية، وتنفذ خفية كأنها أشباح محيطة ؛ وذلك لتستطيع أن تصارع باحا لا تقل عنها خفاء تمثلها أجهزة التجسس والتخريب التابعة للدولة المعـادية كثر مالا وأدوات ورجال موزعين خفية فى قلب المجتمع) (١٢٠) ٠

« ليس هناك من لا يذهب الى العالم الآخر ،
لن يبقى خالدا احد فى أرض مصر »
من الشعر المصرى القديم

● الفصل الثـانى

فى مكاسب القيادات المفروضة

بعد ان حصلت القيادات المفروضة على السلطة وتمكنت وحدها من السيطرة على انفس ونتاج عمل الناس بالأساليب السابق بيانهـا فانها تشبع هواياتها ، عادة فى الترفه والتنعم ·

واليك بيان باسلوب انفاق هذه القيـادات للأموال التى اغتصبـتها من جماهير الأمة المصرية ·

(أ) فترة الحكم الوطنى :

١ ـ الملك :

فى عهد الامبراطورية ، سعت الدنيا الى بلاط امنحوتب الثالث تحمل (جزيتها) الى الامبراطور العظيم ومؤملة أن تعود ومعها بعض ذهب النوبة ، وتثبت لنا تلك الاحتجاجات المتذللة التى نقرؤها ، والتى كان يرسلها أصحابها يؤكدون فيها ولاءهم وخضوعهم ، تسلط مصر على العالم ، فحق لفرعون أن يطمئن على أن عرشه أصبح فى سماء الدنيا ، وحق له أن يلقى بنظرة على معبده الجنازى فيشعر بأنه خليق بأن يبقى على ضخامته أبد الدهر « ان مصانعه ملأى بالأرقاء من ذكور وأناث ، من ابناء أمراء جميع الأمم الذين أسرهم جلالته · وتملأ مخازنه الأشياء الحســـنة التى لا يمـكن حصرها · انها محاطة بمنازل السوريين الذين يعيشون هناك مـــع أبناء الأمراء · ومواشيه مثل رمال الشاطىء ، انها ملايين » ، ولم ينس فرعون فضل الله الامبراطورية الذى ضمن له الحصول على مثل هذه الثروة فشيد مبانى أخرى لآمون لم يشيد مثلها من قبل ·

وعنـدما سرق اللصـوص فى العهد المتاخـر مقبرة ملكة من الملكات تبين أن الذهب المسروق من هذه المقبرة وحدها يبلغ أربعين رطلا من الذهب ·

ولك أن تضرب هذا الرقم فى آلاف المقابر الملكية لتعرف أطنان الذهب التى نعم بها الملوك فى حياتهم واللصوص بعد مماتهم ·

وكان الملك توت عنخ آمون من أقل الملوك شأنا ولم يرفع من شأنه الا عـدم سرقة مقبرته واكتشاف ما لها من أبهة الملوك وثرواتهم بعد الموت ·

وفى عام ١٢٦٧ ق·م تزوج رمسيس الثانى من ابنة ملـك الحيثيين وتروى النصوص المصرية قصة هذا الزواج ·

يقول ملك الحيثيين عندما حل القحط ببلاده « ما هذا ، لقد تخربت بلادنا ، والهناسست غاضب علينا ، ولا ترسل السماء ماءها علينا ٠٠ فلنحرم أنفسنا من كل ما نملكه ، وفي مقدمة ذلك ابنتى الكبرى ، ولتحمل هدايا الصداقة الى الاله الطيب ، حتى يمن علينا بالسلام ، وحتى نعيش ، ٠٠٠٠ ثم جعلهم يحضرون ابنته الكبرى ومعها جزية فخمة ، من الذهب والفضة والخامات الثمينة الكثيرة والخيل التى لا حصر لها ، وعشرات الآلاف من الماشية ، والماعز والغنم ، وما لا يمـــكن حصره من محاصيل ٠

وأرسل رمسيس الثانى حرسا رسميا ليقابل القادمين الحيثيين فى آسيا ، ولما كان الوقت فى أوائل شهور الشتاء ، فقد توسل رمسيس الى ست الـــه العواصف « ليتك تتأخر فلا ترسل المطر والرياح الباردة والثلج ، حتى تصلنا تلك العجـائب التى جعلتها من نصيبى » وفى مثل هذه الرعاية سارت ابنــة أمير خيتا العظيم الى مصر ، يرافقها المشاة والفرسان وموظفو جلالته ، ومعهم مشاة وفرسان خيتا ٠٠ وعندما وصلت الأميرة وأدخلوها على فرعون الذى قارب الكهولة « رأى أنها كانت جميلة الوجه كأنها آلهه ، حقا لقد كان ذلك شيئا عظيما لامثيل له ، فخما وموفقا كان شيئا لم يعرفه أحد ، ولم يسمع به أو تناقله انسان ، ولم يرد فى كتابات الأقدمين ٠٠ لقد وقع جمالها فى قلب جلالته وأحبها أكثر من أى شئ آخر) وقارن ذلك بما كلفه خمارويه لتجهيز ابنته عند زفافها الى الخليفـــة العبـــاسى بعد ذلـــك بآلاف السنين (١٢١) ٠

وكان لرمسيس الثانى بضع مئات من الزوجات ، وخلف بعد وفاته مائة وخمسين ابنا فظل يتم اختيار حكام مصر منهم لمدة قرن من الزمان ٠

وكان أمنحوتب الثالث (١٤١٧ ــ ١٣٧٩) يلبى ــ أغلب الظن ، كل طلبـات زوجته الملكة (تى) اذ نعرف من نقش على جعران أنه أمر أن تحفر لها بركة كبيرة مساحتها ٣٧٠٠ × ٧٠٠ ذراع مصرى (الذراع المصرى ٥٢ سم) لكى تتنزه فيهـــا بزورقها هى ووصيفاتها ٠ وقد تم حفر البركة فى اسبوعين ٠ وهو أمر قد يصعب تصديقه وخاصة اذا أخذنا فى الأعتبار أن البركة المشار اليها هى بركة هابو الواقعة فى البر الغربى بطيبة ٠

ونعرف أيضا من نقش على جعران أن الملك كان فى بداية حكمه مولعا بصيد الأسود اذ يذكر النقش أن الملك أمنحوتب استطاع فى العشر سنوات الأولى من حكمه من صيد ١٠٢ من الأسود المتوحشة ، وهى رواية أيضا ليس من سبيل الى تصديقها أو تكذيبها ٠

كل هذا يوضح لنا حياة الترف والدعة والاستغراق فى الملذات والميل الى حياة النعومة التى عاشها الملك وأتباعه ٠

فقد فاضت خزانة الدولة بعد أن استتب الأمن فى الامبراطورية وتجمعت فى مصر ثروات العالم القديم لأرضاء فرعونها (١٢٢) ٠

٢ ـ رجال الدين :

وقد استفاد آمون من انتصارات تحوتمس الثالث (في عهد الامبراطورية) فقد وعدهم بالنصر وكان الجنود يحملون تمثالا له عند خروجهم للحرب ، وكان له نصيب الأسد من الغنيمة ، وكان آمون شريكا للملك ، بل هو الشريك الأهم ، فيما تغله مناجم الذهب في النوبة والسودان . وفي العام الرابع والثلاثين تلقى آمون ما يزيد عن ٧٠٠ رطل من الذهب من تلك المناجم . وفي العام الثامن والثلاثين تلقى القيمة نفسها وفي العام الواحد والأربعين تلقى ما يزيد عن ٨٠٠ رطل ذهب .

وفي عهد رمسيس الثالث كانت أملاك معبد آمون من الأزفاء الأجانب ٢٦٠٧ (سوري وازنجي من أسرى جلالتـه) وكان في أمـلاك رع ٢٠٩٣ وفي أملاك الاله بتـاح ٢٠٥ .

كانت المعابد تمتلك ، في عصر الامبراطورية ، ١٦٩ مدينة منها ٩ في سوريا وتملك أكثر من ٥٠٠ حديقة وكرم ، وأكثر من ٥٠ ترسانة لبناء السفن ، وثمـانية وثمانين سفينة ، وما يقرب من نصف مليون من المواشي .. الخ .

وبلغ عدد من كانت تمتلكهم المعابد من العمـال من الرجال والنساء والأطفال ٤٥٠,٠٠٠ شخصا و ١١٠٠ ميلا مربعا من الأراضي تزيد عن ثمن الأراضي المنزرعة في مصر .

وبطبيعة الحال كان نصيب آمون وكهنته هو نصيب الأسد من كل ذلك .

ومن بين ما ورد في وثائق الهبات التي أغدقها رمسيس الثالث على الآلهة ، بيان بالدخل السنوي للمعابد الرئيسية ومعها الكميات الآتي ذكرها من المعـادن محولة الى أرطال :

المعبد	ذهب	فضه	نحاس
معبد آمـون	١٣٩	٢٦٧٥	٦٤٢٢
معبـد رع	—	١٤٣	٣٠٧
معبـد بتاح	—	٠٢٤	—
مجموع الدخل السنوي	١٣٩	٢٨٤٢	٦٧٢٩

لقد كانت المعابد تمتلك فردا من بين كل عشرة من السكان وفدانا من بين كل ثمانية أفدنه .

هذا عدا الدخل السنوي وغير ذلك من الأملاك السابق بيانها) (١٢٣) .

٣ ـ كبار رجال القوات المسلحة :

منذ أن تم طرد الهكسوس من مصر على أيدى أحمس منشىء الدولة الحديثة أصبح للجيش مكانة كبرى فى الدولة ـ والدفع المصرى فى حماسة تفوق الوصف فى التيار العسكرى وتسلطت على عقله عوامل الحرب ، واستطاع بقيادة فراعنة الامبراطورية أن يهيمن على بلاد غربى آسيا وأن يصل الى أعالى الفرات شمالا والى الشلال الرابع جنوبا وأن يخضع ليبيا ٠

وأخذ المصريون بنظام اعطاء كل جندى عامل مساحه معينة من الأرض يعيش هو وأسرته من ريعها) (١٢٤) ٠

واستطاع قدماء العسكريين الذين قاموا بحملات حربية فى سوريا والنوبة وليبيا أن يعودوا الى بلادهم بعد أن أنهوا مدة خدمتهم ومنحوا معاشا مجزيا مثل أحمس ابن أبانا أو نالوا منصبا فى البلاط الملكى مثل أحمس بن نخبيث ، ويقول ابن أبانا (ان ذكرى الانسان الذى يقوم بأعمال البطولة ان تمحى أبدا من هذه الأرض) ٠

(ب) فترة الحكم غير الوطنى

عندما اراد بطليموس الأول ان يولم وليمة لأصدقائه اضطر أن يقترض آنيتهم الفضية وطنافسهم ٠

أما بطليموس الثانى فقد أنفق فى آخر حفلات تتويجه ما قيمته مليونين ونصف ريال أمريكى (بسعر الريال الأمريكى فى الأربعينات وقت تأليف كتاب قصة الحضارة الذى نقلنا عنه هذا البيان) (١٢٥) ٠

وعندما رفع بطليموس الثانى أباه الى مصاف الآلهة عقب وفاته عام ٢٨٣ ق٠م أنشأ فى الاسكندرية حفلا اغريقيا كان يقام كل أربعة أعوام ويعرف باسم الطولمايا اجلالا لذكرى أبيه المؤله بطليموس سوتير ٠

وقد أنفق الملك حوالى نصف مليون جنيه على التكاليف ، وانتهز هذه الفرصة لعرض قواته وثروته أمام شعبه وبعوث الدول الأجنبية ٠ وكانت الوفود الرسمية تحج الى الاسكندرية بمناسبة اقامة هذا الحفل من كل أنحاء العالم الاغريقى لأنه كان يعتبر فى مرتبة الألعاب الأوليمبية (١٢٦) ٠

وقد قدرت ثروة ابن طولون (بعد وفاته) كما احصاها ابن سعيد كالآتى(١٢٧)

١٠ر٠٠٠ر٠٠٠	دينـــار
٧٠٠٠ر	من الموالى
٢٤٠٠٠	من الغلمان
٧٠٠٠	من الخيل
٢٧٠٠	من الجمال
٦٠٠	من البغال

ولم تكن للاخشيديين فى أثناء حكمهم مصر عناية حقيقية الا بشئون جمع المال ، وقد وفقوا فى ذلك بفضـــل المادرائيين (الذين تولوا ذلك) وظلوا يجبون من مال مصر كل ســنة نحو مليــونين من الدنانيز على قول و ٣٫٢٧٠٫٠٠٠ على قول آخر ، والراجح القول الأخير ، وقد تشدد الأخشيديون فى ذلك حتى أرهقوا الناس بالمغارم والجبايات ، حتى كان الجباه يستخرجون ضرائب على أراضى بور ـ وكانت الضرائب والمكوس ثقيلة وبخاصة فى تنيس ودمياط وعلى ساحل النيل ـ وكان الاخشيد لا يتورع عن مصادرة الأموال ، أما كافور فقد كف يده عن ذلك ، ثم عادت المصـــادرات بعد وفاته ـ وأسرف ابن الفرات فى ذلك وأهملوا صـــيانة المرافق وتوالت على البـــلاد الفلوات ، وفى السنة التى دخل الفاطميون فيها مصر كانت الحالة قد بلغت مبلغا جعل البلاد على حافة الخراب ٠

وبلغ من خصال محمد بن طغج الاخشيد فى جشعه للمال واستهانته بما فى أيدى الناس وقلة تعففه مما جعله موضع الزراية والتندر أنه كان يطمع فى القليل حتى لقد طمع فى فرو كان يلبسه أحد رجاله فجعل يعرض له به لعل الرجل يهديه اياه ولكنه لم يفعل فلما آيس منه حرض بعض غلمانه فقبضوا على الرجل وأخذوا الفرو وهو خارج منعند الاخشيد ثم أنكروه ثم أراد الاخشيد أن يتظرففلبس الفرو فلما دخلعليه الرجل مرة أخرى ورآه عليه ضحك الاخشيد وقال (كيف رأيت ، ما أصفق وجهك ٠ وكم عرضت لك وأنت لا تستحى فلم تفعل حتى أخذناه منك بلا شكر ولا منة (١٢٨) ٠

وفى عهد خمارويه (ابن أحمد بن طولون) قدر لحياة مدينة القطائع أن تنطلق كما انطلقت حياة خمارويه وكما انطلق عصره ، وأن يظهر فيها الترف الذى شاع فى حياته ،فقد أضاف اليها اضافات لا تضيفها الايد فنان ذواقة ، فقد زاد فى القصر الذى بناه أبوه ، ووسع فيه الى أبعد الحدود واضاف اليه قصرا جديدا خصصه لزوجات أبيه وأفرد لكل منهن جناحا خاصا ٠

ثم تجلى ولعه بالبساتين حين حول الميدان الى بستان كبير زرع فيه أنواعا فريدة من الزهور ، وبالغ فى تزيين بستانه العجيب ، فكسا أجسام النخيل نحاسا مذهبا ، وجعل بين النحاس وأجسام النخيل انابيب الرصـــاص ينحدر فيها الماء الى أحواض كبيرة ، ثم ينحدر الماء من هذه الأحواض ليسقى أرض البستان ٠ ثم مضى فى التجميل حيث بنى للطيور برجا من خشب الساج وبلط أرضه وجعل فيها مجارى الماء واطلق فيه جميع أنواع الطيور ٠

وجعل فى هذا البستان مجلسا له أسماه دار الذهب طلى حيطانه كلها بالذهب واللازورد فى أحسن نقش ٠

ثم بنى فى القصر قبة سماها (الدكة) وجعل لها الستور التى تقى الحر والبرد ٠ ولم يقف فى ترفه عند هذا الحد ٠ فقد اتخذ دارا للسباع ، وعمل فيها بيوتا لكل سبع بيت خاص ، كلها تفضى الى قاعة فسيحـة فيهـا رمل مفروش وتفتح أبواب الأقفاص لتخرج منها السباع ٠

ثم وسع خمارويه اصطبلاته لكثرة دوابه ، وعمل لكل صنف من الدواب اصطبلا للجمال والفهود والنمور والفيلة والزرافات ، ولم يغفل أن يتخذ فى هذا القصر حوضا طوله خمسون ذراعا فى خمسين ذراعا قد ملىء بالزئبق (١٢٩) ٠

ويزداد البذخ فى الدولة الفاطمية ويعظم غناها وتفخم مظـــاهرها فى معيشـــة خلفائها ووزرائها وقوادهم (أى مجموعة المنتفعين دون الشعب الفقير المتخلف) ٠

كما يظهر البذخ فيما ابتنوا من قصور واقتنوا من نفائس ، وملكوا من عبيد وما خلفوا بعد موتهم من نفائس ٠

ورد فى المقريزى (أن الفاطميين رصعوا بالجواهر آنيـــة المطبخ واتخذوا كوز الزير من البلـــور مرصعا كذلك المزيرة بحب اللؤلؤ النفيس ٠ وصاغوا من الذهب المرصع تماثيل انسية ووحشية من الفيلة والزرافات وغيرها ٠

وكانت لهم دور فى القاهرة يختزنون فيها أدوات الترف ويسمونها بالخزائن فمما أخرجوه من خزانة الجوهر أيام الشدة على عهد المستنصر بالله (سنة ٤٨٧ هـ) صندوق فيه سبعة أمراد زمرد ، سألوا الصياغ عن قيمتها فقالوا ــ انما نعرف قيمة الشىء اذا كان مثله موجودا ــ وخلفت رشيدة بنت المعز ما قيمته ألف ألف وسبعمائة ألف دينـــار ٠

وأهدت السيدة الشريفة ست الملك أخت الحاكم بأمر الله الى أخيها هدايا من جملتها ثلاثون فرسا من الذهب بمراكبها منها مركب واحد مرصع ومركب من البللور ، وتاج مرصع بنفيس الجواهر وبستان من الفضة مزروع بأنواع الشجر ٠

ولا موضع للعجب فى هذا فقد رواه الثقات بل شهده بعضهم ، ومنهم ابن الأثير المؤرخ المشهور فقد ذكروا فى حوادث ســنة ٥٦٧ هـ التى أقام فيها السلطان صلاح الدين الخطبة للعباسيين واستولى على ما كان باقيـــا فى قصـــور الخلافة من التحف والجوهر بعد ما أصابها من النهب فى فتنة المستنصر وغيره ، قال (وحمل الجميـــع الى صلاح الدين ، وكان من كثرته يخرج عن الاحصاء وفيه من الاعلاق النفيسة والأشياء الغريبة ما تخلو الدنيا من مثله ، فمنه حبل الياقوت وزنه سبعة عشر درهما أو سبعة عشر مثقالا أنا لا اشك لأنى رأيته ووزنته (١٣٠) ٠

وعندما وصل الفرنج الى القصر الكبير حيث يقطن الخليفة الفاطمى لاحظوا أن هذا القصر فاق كل ما رأوه قبل ذلك وكانت أقبيته تفيض بالمحـاربين المسلحين مقلدين أسلحتهم وعليهم الزرد والدروع تلمع بالذهب والفضة ٠٠٠٠ وأدخل المبعوثون فى قاعة واسعة تقسمها ستارة كبيرة من خيوط الذهب والحرير المختلف الألوان وعليها رسوم الحيوانات والطيور وبعض صور آدمية وكانت تلمع بما عليها من الياقوت والزمرد والأحجار النفيسة ، ولم يكن فى هذه القاعة أحد ولكن الوزير شاور خر راكعا كعادته فور دخوله ثم نهض واقفا ثم قبل الأرض ثانية وخلع السيف الذى كان يلبسه فى عنقه ثم خر ساجدا مرة ثالثة فى ذله وخشوع كأنه يسجد لله وارتفعت فجأة الحبال فانكشفت الستارة الحريرية الذهبية بسرعة البرق كأنها ملاءة خفيفة وظهر الخليفة

الطفل « القاصد » لأعين الفرنج المبعوثين وكان على وجه هذا الامير حجاب يخفيه تماما وهو جالس على عرش من الذهب مرصع بالجواهر والاحجار الثمينة (١٣١) ٠

وشهد الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر فى عصر المماليك ، مثل فرسكو بالدى، الذى جاء الى مصر سنة ١٣٨٤ م - بضخامة الثروة التى تمتع بها أمراء المماليك ومظاهر الترف والنعيم التى نطقت بها قصورهم - وأفاض المقريزى فى شرح هذه الناحية . فوصف قصور الأمراء وما احتوت عليه من ثروة وتحف ، حتى أن سعر الذهب هبط فى الديار المصرية بعد نهب قصر الأمير قوصون سنة ٧٤٢هـ لكثرة ما وصل من الانهاب الذهبية الى أيدى الناس ٠

كذلك ذكر المقريزى عن الأمير شمس الدين بيسرى أن عليق خيله وخيل مماليكه بلغ فى اليوم الواحد ثلاثة آلاف عليقه ، وأن راتب كل واحد من مماليكه بلغ فى اليوم مائة رطل لحم ، وأنه اعتاد أن ينعم بالألف دينار مرة واحدة ٠

أما مصدر هذه الثروة فهى الاقطاعات السخية التى أجراها السلطان على الامراء والجند كل حسب درجته ورتبته ، فبلغ متوسط اقطاع الأمير مساحة تتراوح بين زمام قرية وعشرة قرى ، أما المملوك السلطانى فيتراوح اقطاعه بين زمام قرية ونصف قرية ، فى حين لم يقل اقطاع جندى الحلقة عن نصف زمام قرية ٠

وقد قدر القلقشندى اقطاع الأمير الكبير بمائتى ألف دينار واقطاع أمير الطبلخاناه بين ثلاثين ألف دينار وثلاثة وعشرين ألف دينار ، وأجناد الحلقة أعلاها ألف وخمسمائة دينار ٠

وكان السلطان يتولى بنفسه ، عادة ، توزيع الاقطاعات ، فاذا تقدم اليه المملوك سأله عن اسمه وأصله وتاريخ قدومه الى الديار المصرية وأستاذه الذى اشتراه من تاجره . وعن حياته التعليمية من الكتاب فى الطباق الى ميدان الفروسية ، فاذا وقع اختياره عليه ليمنحه اقطاعا أمر ناظر الجيش بأن يكتب ورقة مختصرة تسمى (المثال) مضمونها خيرُ فلان كذا ويكتب اسم المقطع ثم يناولها للسلطان ٠

وظلت القاعدة العامة أن يكون الاقطاع شخصيا بحتا ، لا دخل لحقوق الملكية أو لأحكام الوراثة فيه ، بل يستغله المقطع بدل السلطان ، ثم يؤول كله للسلطان بمجرد انتهاء مدة الاقطاع المتفق عليها ، أو بسبب وفاة المقطع أو بسبب عزله أو اخلاله بشروط العقد القائم ٠

ولم تكن الاقطاعات المصدر الوحيد لثروة الامراء وأرزاقهم ، بل رتب السلطان للأمراء الرواتب الجارية من اللحم والتوابل والخبز والعليق والزيت والشمع هذا عدا الكسوة ، مع تفاوت مقادير كل ذلك بحسب المراتب ٠

وقد تمتع أمراء المماليك بمكانة كبيرة فى المجتمع ومنزلة رفيعه عند السلاطين ، كما يبدو ذلك جليا فى العهد الصادر عن السلطان قلاوون الى ولدة الاشرف خليل

وفيه يوصيه برعاية الأمراء (فهم السور الواقى .. وهم ذخائر الملوك وجواهر السلوك .. فكن لجنودهم متجببا ، ولمصالحهم وأمرائهم مستصوبا . وفى شكرهم مسهبا ... الخ .

أما أهم ما امتازت به حياة السلاطين فكانت الثروة العظيمة ، والشواهد على ثروة سلاطين المماليك . كثيرة فى المراجع المعاصرة ، وحسبنا ما خلفه الواحد منهم عند وفاته من القناطير المقنطرة من الذهب ، عدا الفراء الثمينة والخيل المسومة وآلاف المماليك المشتراه ، ومن الأمثلة على هذه الثروة أن أنوك بن السلطان الناصر محمد بن قلاوون بلغ جهاز زواجه حمولة ثمانمائة جمل وستة وثلاثين قنطارا من البغال ، كما بلغ الذهب فى المصاغ والملابس الزركش ثمانين قنطارا ، ومع كل ذلك استصغر والده السلطان الناصر هذا الجهاز عندما رآه وقال أنه رأى شوار بنت الأمير سلار أحسن منه وأكثر .

ولا عجب اذا استكملت القصور السلطانية جميع مظاهر الترف والعظمة من أثاث ورياش ونافورات وصنابير للمياه الباردة أو الساخنة حسب الحاجة بل بلغ الامر بالسلاطين ان جلبوا الثلج من جبال الشام لتبريد الماء زمن الحر صيفا .. وذلك (لكمال الرفاهية والأبهة) فقرروا له هجنا تحمله فى البروسفنا تحمله فى البحر حتى يصل الى القلعة حيث يحفظه بالشراب ـ خاناه (١٣٢) .

وفى عهد السلطان حسام الدين لاجين سنة ٦٩٧ هـ تتبين أن الروك الحسامى ، حسب ما نقله ابن اياس قسم مصر الى أربعة وعشرين قيراطا ، أربعة للسلطان ، وعشرة للأمراء والاطلاقات ، وعشرة للجند .

أما نصيب الشعب المصرى ومرافقة العامة فلا شىء على الاطلاق .

وقس على هذه النسبة ما نهج عليه كل من ولى أمر مصر طوال فترة الحكم غير الوطنى لها .

وعندما غزا السلطان سليم مصر سنة ١٥١٧ م وضمها الى الدولة العثمانية ، حملت مراكبه حتى الشبابيك الحديد والطيغان والأبواب والسقوف .

وحمل معه ، بطريق البر ، على ألف جمل ـ كما أشيع ، أحمالا من الذهب والفضة والتحف والسلاح الصينى والنحاس المكفت ، ثم أخذ الخيول والبغال والجمال والرخام الفاخر ، ومن كل شىء أحسنه ، وكذلك غنم وزراؤه من الأموال الجزيلة ، وكذلك عسكره فانهم غنموا من النهب ما لا يحصى ، وصار أقل فرد منهم أعظم من أمير مائة ، مقدم ألف .

ونزع رخام القلعة ووضع فى صناديق وحمل الى المراكب ، وهو الرخام الذى أمر ابن عثمان بفكه من قاعة البيسرية والدهيشة والبحرة والقصر الكبير ، وغير ذلك من أماكن بالقلعة ، وفك العواميد السماقية التى كانت فى الايوان الكبير (١٣٣) .

وبنى الخديو اسماعيل نحو ثلاثين قصرا من القصور الفخمة . فلم هذا العدد ومالية البلاد لا تسمح به ؟ وكان دائم الرغبة فى التغيير والتبديل ، وكان بعض القصور التى يبنيها لا يكاد يتم بناؤها وتأثيثها حتى يعرض عنها ويهبها لاحد أنجاله أو حاشيته ٠

ذكر العلامة على باشا مبارك عن قصرى الجزيرة والجيزة (أنهما من أعظم المبانى الفخيمة التى لم يبن مثلها ، وتحتاج ما اشتملت عليه من المحلات والزينة والزخرفة والمفروشات ، وما فى بساتينها من الأشجار والأزهار والرياحين والبرك والقناطر والجبالايات الى مجلد كبير) ــ وذكر أن أرض الجزيرة مساحتها ستون فدانا ، وأن ما صرف عليها على كثرته قليل بالنسبة لما صرف على سراى الجيزة ، وكانت هذه السراى فى منشئها قصرا صغيرا وحماما بناهما سعيد باشا ، ثم اشتراهما اسماعيل من ابنه طوسون مع ما يتبعهما من الأرض ومساحتها ثلاثون فدانا ، ثم هدم القصر وبناه من جديد ، واضاف اليه أراضى أخرى ، وأحضر المهندسين والعمال من الافرنج لبناء القصر وملحقاته ، وأنشأ بستانه العظيم وبستان الأورمان ، وبلغت مساحة الأرض التى شغلتها سراى الجيزة وسراى الجزيرة وحدائقهما ٤٦٥ فدان ٠ وبلغ ما أنفق على انشاء سراى الجيزة ١ر٣٩٣ر٣٧٤ جنيه ٠

وسراى عابدين	٥٦٥ر٥٧٠ جنيه ٠
وسراى الجزيرة	٨٦٨ر٦٩١ جنيه ٠
وسراى الاسماعلية الصغيرة	٢٠١ر٢٨٦ جنيه ٠
وباقى القصور	٢ر٣٣١ر٦٧٩ جنيه ٠
من ذلك سراى الرمل	٤٧٣ر٣٩٩ ر جنيه ٠

(ويلاحظ أن هذه الجنيهات بقيمة الجنيه فى عصر اسماعيل (*) ٠

وبالرغم مما وصلت اليه حالة الحكومة المالية والارتباك وتوقفها عن الدفع فى سنة ١٨٧٦ ، فان الخديو استمر فى تلك السنة يكمل سراى الجيزة الفخمة التى لم تتم الا قبيل خلعه ٠

وتكلف تجميل هذه القصور وتأثيثها مالا يحصى من الملايين ، فقد بلغت النقوش والرسوم فى قصور الجيزة والجزيرة وعابدين مليونى جنيه ونيفا ، وبلغت تكاليف الستارة الواحدة ألف جنيه ، أما الطنافس والأرائك والأبسطة والتحف والطرف والأوانى الفاخرة ، فلا يتصور العقل مبلغ ما تكلفته من ملايين الجنيهات ٠

ومن أسباب اسراف اسماعيل ميله الى الملذات ٠

ومما يؤسف له أن أمواله التى كانت تنفق ذات اليمين وذات الشمال لم يكن ينال الوطنيين منها الا النزر اليسير ، بالنسبة لما ينال الأجانب الذين يحيطون به ويشملهم بثقته ورعايته ــ قال المسيو جابرييل شارم فى هذا الصدد ٠

(*) هذه الاضافة من عند الكاتب وليست واردة فى المرجع ٠

(كان اسماعيل يغترف المـال من الخزانه العامة بكلتا يديه ، لا ليرضى أهواءه الشخصية فحسب ، بل ليسـد نهم الطامعين الملتفين حوله . فكم من الفرنسيين والايطاليين والانجليز تعساء فى بلادهم ، ثم نالوا بعد أن هبطوا مصر الرخـاء والنعيم، لقد كان الخديو مستعداً على الدوام أن يهبهم المراكز والقصور والمنح (والبقاشيش) ، أو يعهـد اليهم بالتوصيات على التـوريدات ، وما كان أشد دهشة السياح اذ يرون فى القاهرة أو الاسكندرية جماعة من الأوربيين ليس لهم من المزايا الا مظهر الرجـل الانيق ، يقومون بمهمة الموردين لنائب الملك (الخديو) ، ويربحون من هذه التجارة أرباحا باهظة ، لا يتصورها العقل ، فليس ثمة وسيلة لجمع الثروة الطائلة أسهل من الحصول على عطاء تاثيث احدى السرايات الخديوية أو توريد بعض الصور أو التحف والطرف ، وكم من اناس جاءوا من أوربا مثقلين بالديون ، فمـا كادوا يستقرون فى القاهرة ، ويأوون الى احدى قاعات الانتظار فى سراى عابدين ، حتى صاروا طفرة من أصحاب الملايين) .

وقد فحصت لجنة التحقيق الأوربية سنة ١٨٧٨ أسباب تراكم الديون والعجز فى ميزانية الحكومة ، فكشفت عن تصرفات مدهشـة تدل على أقصى أنواع الاسراف والتبـذير .

فمن ذلك أن احدى الأميرات من بيت اسماعيل بلغ المطلوب منها لخياط فرنسى ١٥٠ الف جنيه ، وأن مبالغ طائلة ضاعت فى الاستدانه دون أن تصرف فى أبواب انفاقها ، وأن الخديو كان يشترك مع اسماعيل باشا صديق (صديقه والمسئول عن ماليته) فى مضاربات البورصة ، وأن الحكومة أرادت يوما أن تؤدى بعض ما عليهـا من الدين لأحد البنوك المحلية ، فأعطته سندات من الدين الموحد قيمتها ٢٣٠ الف جنيه ، بحساب السند ٣١ جنيه وخمسة أثمان الجنيه ، أو بعبارة أخرى لكى تسدد دينا قدره ٧٢ الف جنيه حملت البلاد دينا مقداره ٢٣٠ر٠٠٠ جنيه (١٣٤) .

وبالرغم من الثراء الواسع للملك فاروق ، وضخامة موارده من مخصصاته فى الميزانية ومن أملاكه التى لا حصر لها ، وأمواله المودعة فى مختلف البنوك والتى تعد بعشرات الملايين من الجنيهات ، فانه كان دائم الجشع والنهم الى المال ، لا يشبع منه ، ويسعى الى الاستكثار منه بجميع الوسائل .

وزادت ثروته من الأراضى الزراعية عما كان قد اقتناه فؤاد وهو على العرش وورثه عنه ، وزادت أمواله فى البنوك عما كان لفؤاد من قبل .

وكان مع جشعه الى المال شحيحا بخيلا .

وكان يستغل سلطانه فى الاستزادة من الاملاك الزراعية .

كان اذا أعجبته أرض يملكها أحد المصريين سعى بمختلف الوسائل والمناورات والتهديدات الى اكراه صاحبها على بيعها له ، فى حين أنه ليس فى حاجة اليها .

(★) لعل الذين يتساءلون عن أسباب الفقر والتخلف يجدون أن السبب يكمن فى انفسهم لغيابهم ، عبر آلاف السنين عن مراقبة الايرادات والنفقات العامة .

وكان يسخر جهاز الدولة فى استصلاح أراضيه ، حتى أنه كان يستخـــدم المسجونين فى اصلاح بعضها .

وكان يستغل سلطاته فى بيع محصولاته ، فيبيعها بأثمان أغلى من سعر المثل ، ويضطر تجار الجملة الى محاباته لينالوا الحظوة لديه ، ولدى الحكومة .

وكانت الشركات المالية التى تبغى الحظوة لدى الحكومة ترشوه بعدد وفير من أسهمها تمنحه اياها مجانا أو بثمن صورى ، فتجاب طلباتها لدى الحكومة مثل شركة (سعيده) للطيران التى فازت سنة ١٩٥١ باعانة قدرها مائة وثلاثون ألف جنيه ، بالرغم مما ثبت للجان الحكومة من فساد ادارتها . وقد تبين أنها أهدت فاروقا جزءا من أسهمها وأنه كان الموعز بهذه الاعانة .

وكانت النفقات الباهظة التى تصرف على قصوره المملوكة للدولة وعلى صيانتها وتحسينها وتجميلها وتأثيثها تؤخذ كلها من ميزانية الدولة ، وقد بلغت الملايين من الجنيهات .

وامتنع عن دفع ضريبة الايراد العام المستحقة عليه للدولة ، والضريبة عـــلى سياراته ، والرسوم الجمركية على متعلقاته ، بالرغم من أن القانون لا يعفيه من هذه الضرائب وقد بلغ المستحق عليه من ذلك كله نيفا ومليونا من الجنيهات .

واستولى لنفسه من الأموال التى كانت تجمع للتبرعات الخيرية على مبلـــغ ٤٢٠ر٠٠٠ جنيه .

واستولى على كثير من الأوقاف بطرق غير مشروعة وطرد نظارها من ادارتهـــا وانتزع من وزارة الأوقاف أوقافا تبلغ مساحتها ٤٥٥١٩ فدانا .

ومنها وقف الأميرة زينب هانم كريمة محمد على المعروف بوقف شاوه ومساحته ٩٨٠ فدانا ، وقد انتزعه سنة ١٩٤٨ .

ووقف الخديو اسماعيل المعروف بتفتيش الوادى ومساحته ١٥٦٣٩ فدانا . وقد انتزعه سنة ١٩٤٥ ، ووقف آخر للخديو اسماعيل ومســـاحته ٢٠٥٠٠ فدان موزعة فى المنتزة والمنصورة ، والمعتمدية الخ وقد انتزعه سنة ١٩٤٨ ، وكان انتزاعه لهذين الوقفين بموجب « نطق سام » أبلغته الخاصة الملكية الى وزارة الأوقاف .

وقد أعيدت هذه الأوقاف الى الوزارة فى أغسطس وسبتمبر سنة ١٩٥٢ بعـــد خلع فاروق .

واختلس كثيرا من الآثار المصرية القديمة من المتاحف أو من الحفائر التى كان يجرى فيها التنقيب عن هذه الآثار ، واختلس بعض التحف من دار الآثار العربية ، وعاونه فى ذلك بعض الموظفين وخاصة دريتون المدير الفرنسى للمتحف المصرى ، ونال من أجل ذلك حظوة كبرى عنده (١٣٥) .

ج ــ وابتداء من يوليو ١٩٥٢ تشكلت طبقة جديدة ، حلت محل الطبقة التي هدمتها الثورة ، في حكم مصر وفي التسلط على قوت وأرزاق أبنائها وحيازة نصيب الأسد لنفسها كعادة القلة المتسلطة التي تقفز الى السلطة ٠

ولا جديد تحت الشمس ٠

وعن هذه الطبقة يقول الدكتور عصمت سيف الدولة :

« قيل عنها ــ فعلا ــ انها طبقة جديدة تلك التي سيطرت علي حياة مصر السياسية والاقتصادية في الفترة التي انتهت عام ١٩٦١ ٠ ولم يقل أحد لماذا هي طبقة جديدة ٠ ولقد يذهب الظن الى أنها طبقة نشأت حديثا ولم تكن موجودة من قبل ٠ ولكنا نعتقد أن مرجع جدتها الى (غرابتها) انها ليست طبقة بأى معنى اقتصادى لأنه ليس لها موقع من علاقة الانتاج ، اذ أنها أصلا غير منتجة ، ولكنها خليط غريب من البشر الذين لا ينتجون شيئا اجتمعوا حول الدولة وفي أجهزتها وتعاونوا جميعا على امتصاص مواردها ٠ منهم المؤسسة العسكرية التي تصاعدت سطوتها بعد عام ١٩٥٥ وأصبحت دولة فوق الدولة وامتصت قيادتها قدرا لا بأس به من الدخل القومي فأصبح قادة العسكريين من بين قمم الأثرياء والمترفين والوسطاء في الصفقات المدنية والعسكرية وابتزوا الشعب ابتزازا بدون حياء (كانت يغمه) فأفسدوا هم أولا وأفسدوا الحياة ثانيا وأدى الأول والثاني الى هزيمة ١٩٦٧ فيما بعد ــ ولقد سبق أن صدر القانون رقم ١٦٠ لسنة ١٩٦٢ الذي وضع جهاز الدولة المدني جميعه في خدمة القوات المسلحة (لاعطائه أفراد هذه القوات أولوية التعيين على زملائهم المدنيين) ٠ ولما كان كبار القادة لا يعملون بالتجارة والسمسرة بأنفسهم فقد عملوا بها من خلال زوجاتهم وأبنائهم وأقاربهم ، ولكن لحسابهم ٠ وكان قطاع آخر من كبار القادة أكثر شطارة فغادروا القوات المسلحة ، خاصة بعد ١٩٥٦ ، ليشتركوا في غنائم الحرب فأصبح منهم رؤساء مجالس الادارات والمديرون العامون ومديرو المصالح ، وانتقل واحد من أعضاء مجلس قيادة الثورة ليكون رئيسا للمؤسسة الاقتصادية ، هذه طائفة ٠

أما الطائفة الثانية فهم البيروقراطيون ٠ أولئك الذين كانوا موظفين تعساء في دولة راكدة قبل عام ١٩٥٢ ، قد أصبحت دولتهم الآن أكثر نشاطا وتدخلا ، وأصبحت مصالح الرأسماليين الأجانب والمصريين متوقفة الى حد كبير على دراساتهم وآرائهم وقراراتهم وتوصياتهم فأصبح عدد كبير منهم يجمعون بين وظيفتين : موظفون في الدولة يتبعونها وموظفون لدولة يتبعون الرأسماليين في الخارج ، ويقبضون من الطرفين ، ويشاركون الطرف الثاني ، ان لم يكن بأنفسهم فبواسطة زوجاتهم وابنائهم وأقاربهم، ولكن لحسابهم ٠ وهذه طائفة ٠ أما الطائفة الثالثة فهم الرأسماليون الذين لا ينتجون انما يقومون بالأعمال الطفيلية كالوساطة والمقاولة والسمسرة والاستيراد والتصدير لبضائع لا يحتاجها الا المترفون ٠

ولقـد كادت مكاتب الاستيراد والتصـدير والوسـاطة والاستشارة والوكالة التجارية فى القاهرة ـ فى تلك الفترة ـ أن تقارب المقاهى عددا ٠ وبرز فى مصر عدد من الأفاقين الدوليين لم يلبثوا أن أصبحوا من أصحاب الملايين ، كان أحدهم ـ وهو أجنبى ـ يستورد المآكل والمشرب و (التسالى) لولائمه من مطعم مكسيم فى باريس بالطائرة ٠ وهى ولائم مقصورة على الطوائف الأخرى السابقة ٠٠ ثم طائفة أخرى من الكتاب والصحفيين والمثقفين الانتهازيين الذين قدموا ما يملكون ـ اقلامهم وصحفهم وعقولهم فى مقابل أن يشتركوا فى مغانم الطبقة الجديدة فاصبحوا منهـا ٠ أولئـك الذين طبلوا وزمروا لكل كلمة ووافقوا على كل اجراء وصفقوا لكل متكلم وجروا وراء كل فرصة وبرروا كل شىء ٠٠ أما الامتداد الريفى لهذه الطبقة الجديدة فكان يمثلها أولئك الملاك الذين كانوا تابعين للاقطاعيين فاصبحوا هم سادة ٠

خدم الباشاوات السابقين ومديروا عزبهم ووكلاؤهم والصف الثانى من أسرهم . الآن خلى لهم مكان القمة فقفزوا اليه واصبح اتصالهم بالسلطة مباشرا ، وأصبحوا هم المرشحين فى الانتخابات بعد أن كانوا وسطاءها ٠ وأصبحوا هم أصدقاء السلطـة المحلية بعد أن كانوا لا يقتربون منها ، ولا يقبلون ، الا بتوصية من (فوق)(١٣٦) ٠

وبينما استمرت سياسة التنكيل بالضباط الشرفاء ما بين اعتقل واحالـة الى التقـاعد حتى يناير عـام ١٩٦٧ ، فى تصـاعد غريب ، بينما بعض ضباط مكتب عبد الحكيم عامر يعملون فى التجارة بكل شىء ، ويستوردون من اليمن فى الطائرات الحربية كل ما تعرضه الأسواق اليمنية لبيعه فى القاهرة عن طريق صغار الضباط ، الذين تحولوا الى مندوبى مبيعات ، وكان على رأس المكتب من هؤلاء الضباط (العقيد على شفيق) سكرتير عبد الحكيم عامر الخاص ، وضابط آخر من تحت السلاح حمل رتبة مقدم وهو (عبد المنعم أبو زيد) من الجنود الذين انضموا الى مجموعة حراسة الصاغ (الرائد) عبد الحكيم عامر فى بداية الثورة ـ واستطاع أن يصل الى قلب وغرائز الرجل بسهولة ، وحين حصل أبو زيد على رتبة (المقدم) ولم يكن بوسعه الحصول على ترقيات أخرى أكثر من ذلك بصفته من ضباط تحت السلاح أى ممن لم يتخرجوا فى الكلية الحربية ، أصدر المشير عبد الحكيم عامر قرارا باحالته الى المعاش ثم تعيينه فى وزارة الانتاج الحربى بدرجة (مدير عام) مع ندبه لمكتب المشير بعد ذلك ٠٠ ولكن رائحة (عبد المنعم أبو زيد) زكمت الأنوف ، وتحدثت قطاعات كبيرة عديدة من الشعب حوله وحول (على شفيق) قائده ، وكـان الاثنان قـد تزوجا بسيدتين من أهل الفن ، أحداهما أرسلوا بزوجها الى مستشفى خـاص للامـراض العصبية ، وحصلوا لها على حكم بالطلاق لمرض زوجها ، ثم تزوجها عبد المنعم أبو زيد ، وكان هذا الزوج هو الكاتب السينمائى محمد كامل حسن ، الذى غادر البلاد مقابل اخراجه من مستشفى بهمان للامراض العصبية ومات فى عام ١٩٧٩ بعد عودتـه للقاهرة والى زوجته الأولى (القديمة) ، وكانت الزوجة الثانية هى الممثلـة سهير فخرى ٠

ان قصة على شفيق وعبد المنعم أبو زيد هى بعض نماذج من فئات النماذج التى ارست الفساد فى القيادة العسكرية وحققت المناخ الذى انتهى بهزيمـــة يونيو سنة ١٩٦٧ ٠

هذا المناخ الذى استغله السوفييت أبرع استغلال وسط غيبة عشرات الضباط القياديين فى رحلات مستمرة الى أوربا طوال العام يطوفون أوربا للترفيه وشراء أحدث انتاج المصانع العالمية لبيوتهم ٠

كان هناك مثلا أحد الضباط مكلفا بشراء (الكريز) من أوربا مرتين كل شهر بتكليف من شمس بدران وزير الحربية المدلل ، وأحد أركان الفساد العسكرى فى مصر (١٣٧) ٠

وقارن ذلك بما كان يقوم به المماليك فى عهد سلاطينهم من استيراد الثلج من لبنان وكله على حساب قوت وكرامة الشعب المصرى) ٠

« لم نعد نحتمل »

من صرخات الشعب المصرى

تحت حكم الاغريق والرومان

« يا رب يا متجلى اهلك العثمانلى »

من صرخات الشعب المصرى

تحت الحكم العثمانى

« يا عزيز .... يا عزيز .... كبه تاخذ الانجليز »

« اخرس يا فلاح يا كلب »

من شتائم المماليك (وغيرهم)

فى المصرى

الباب الثالث

فى ثمرة النظم والقيادات المفروضة

دفعت هذه الصور المصرى الى تقديس حياته الخاصة فى أسرته وجعلته يضنى فى سبيل الابقاء على ترابطها وتكاملها .

ويقول العقاد عن ذلك (المصرى اجتماعى من ناحية الأسرة وعراقة المعيشة الحضرية ، أو اجتماعى من ناحية انتظام العادات والعلاقات منذ أجيال مديدة على نظم الأسرة والبيوت ، وهذا هو أقوى ما يربطه بالمجتمع أو يربطه بالأمة والحياة القومية ، وهو ارتباط أقوى فى نفسه جدا من ارتباط النظام السياسى والمراسم الحكومية ، فلم تكن الحكومة فى تلك الأزمان الطويلة لتمتزج بنفسه قط امتزاج الألفة والطواعية والمعاملة المشكورة . بل ربما صدوره عن الحكومة مما ضاعف اعتماده على الأسرة وحصر عواطفه الانسانية فى عواطفه البيتية لأنها ملجأ خفيض (ومهرب) أمين من القسوة والظلم . وغاية ما يخامره من أمر الحكومة انها شئ يدارى ما استطاع له المداراه ويستفاد من سطوته وجاهه ما تيسرت الفائدة ولا بأس بارضائها فى غير حفيظة ولا استكراه ، ولا عجب فى هذا الشعور المبهم فى زمن كان الناس فيه يعبدون آلهة الشر ويتزلفون اليها بالصلوات والقرابين . فعلاقته بالحكومة على الأغلب الأعم هى علاقة عداوة مريبة أو مهادنة محتملة لم تبلغ أن تكون علاقة ود يحرص عليه أو ضمانا يحميه الا فى الندرة التى لا يقاس عليها ، ومن ثم كان محافظا ومتحفزا للتغيير فى وقت واحد أو كان محافظا فى مسلكه الذى يدور على أصول الأسرة وعلاقات الرحم متمردا فى مسلكه من ناحية الشئون السياسية والمسائل الحكومية) (١٣٨) .

وعندما يتعرض أى شعب من الشعوب لما تعرض اه الشعب المصرى فانه من الطبيعى أن يصاب فى شخصيته بنفس السلبيات التى اصيبت بها الشخصية المصرية .

يقول الاستاذ احمد أمين عن أثر تعرض الشعوب لنظم الحكم المفروض المحتكره للأرزاق والمتسلطة على الرقاب (فى العصر العباسى الثانى وهو نموذج لكل العصور الخاصة بهذه المرحلة) .

(نشأ عن هذه الحالة الاجتماعية مظاهر متعددة ـ ترف لا حد له فى بيوت الخلفاء والأمراء وذوى المناصب ـ وفقر لا حد له فى عامة الشعب والعلماء والأدباء الذين لم يتصلوا بالأغنياء ، ثم المظاهر التى تنتج عادة من الافراط فى الترف كالتفنن فى اللذائذ والاستهتار والنعومة وفساد النفس ، وكل المظاهر التى تنشأ عن الفقر كالحقد والحسد والكذب والخبث والخديعة ، وكان من أثر هذا الفقر أيضا انتشار نزعة التصوف ، فالفشل فى الحياة قد يسلم صاحبه الى الزهد واقناع النفس

بأن نعيم الدنيا زائل ، واذا حرم الدنيا فليطلب الآخرة ، كما كان من آثاره انتشار الدجل والتخريف وتعلق الناس بالأسباب الموهومة فى الحصول على الغنى لعجزهم عن تحصيله بالوسائل المعقولة ، فتنجيم واعتقاد فى الطوالع التى تسعد وتشقى ، وانصراف الى الكيميا التى تقلب النحاس والقصدير ذهبا ، والالتجاء الى دعوات الأولياء لعل دعوتهم تتحقق فينقلب فقرهم غنى ، وهذا الى الاعتقاد فى السحر ... والبحث عن الكنوز المخبوءة ونحو ذلك) (١٣٩) .

ويقول الدكتور حمدان (لا يعرف تاريخ مصر من ينكر أن الطغيان والبطش من جانب ـ والاستكانة والذلفى من الجانب الآخر هو من أعمق وأسوأ خطوط الحياة المصرية عبر العصور ، فهى فى الحقيقة النغمة الحقيقية الدالة فى دراما التاريخ المصرى) .

ولقد سبق بيان أن هذا القول ينطبق على ما بعد الأسرة الثانية عشر وليس قبل ذلك .

ثم يستطرد الدكتور جمال حمدان ولكن هـذا الطغيان والبطش من جانب الحاكم ، والاستكانة من جانب المحكوم (لم يكن الا انحرافة اجتماعية من صنع الاقطاع والجغرافيا السياسية) (١٤٠) .

وقد سبق بيان أن سلبيات الشخصية المصرية بدأت مع النظام المفروض فى أوائل الدول الوسطى .

ويجب أن لا يغيب عن الذهن أبدا أن الثمرة فى النظم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية المفروضة من أعلى هى فى اصابة الشخصية المصرية بكل سلبياتها وأهمها الفرقة والانقسام والتفكك ، مما يؤدى بالتالى الى الفقر والتخلف .

وذلك أن النظم المفروضة تتجه ، بطبيعتها الى احتكار الحاكم ، بقوة تأثير الدين أو بالقوة المسلحة أو بهما معا ، للموارد الاقتصادية للدولة .

وبذلك يستمتع القلة بكل ملذات الحياة ورفاهيتها دون أن يبـالوا بصراخ الشعب الجوعان العريان المحروم .

بل ودون أن يسمح له بالصراخ والشكوى .

وليت الحاكم وقف عند هذا الحد فحسب ، بل انه زاول مضايقات للأهالى فى كرامتهم وفى أنفسهم وفى أرزاقهم حسب ما تشاء له نزواته فى أى وقت ..

ومن هنا كان لا بد أن يخاف الناس من الحكومة ومن الحكام الذين لا يعرف موعد لبطشهم .

كما تذلف آخرون للحكام ليتجسسوا على مواطنيهم رغبة أو رهبة .

ففقد الناس ثقتهم فى بعضهم ، بل فى الجماد أيضا حتى نشأ مثل قديم يقول (الحيطان لها ودان) .

كما اضطر الناس الى التعامل بضميرين ، ضـــمير يحمل التذلف والخضوع والتملق وكل المظاهر التى ترضى الحكام أو من يظن أنه من أذنابهم ·

وضمير باطن يخفى كل الكراهية والتشفى والاحتقار لا يستطيع أن يظهره الناس أبدا الا لأقرب أقربائهم ·

فنشأ الخبث الذى يعبر فعلا عن فرقة الأمة ··

كما لعلك لاحظت تعمد الحاكم نشر الجهـل وبث روح القناعة والاستسـلام والاستكانة وفقد الثقة بالنفس بين الناس خاصة فترة الاحتلال البريطانى ·

وسوف نعرض فى الأوراق التالية للجذور التاريخية لبعض سلبيات الشخصية المصرية التى أصيبت بها حتى الحكم الوطنى سنة ٣٣٢ ق·م ثم فى نهاية الحكم غير الوطنى سنة ١٧٩٨ م تاريخ الغزو الفرنسى لمصر ·

فى سلبيات الشخصية المصرية حتى نهاية الحكم الوطنى سنة ٣٣٢ ق٠م٠

١ ـ فى الملق والنفاق والكذب :

بعد أن أصبح الحاكم هو المتسلط والرزاق الأوحد والمتصل الأوحد بالذات الالهية ، أخذ الموظفون فى تملقه والتمسح فى أعتابه ، واختفت من لوحات الأفراد ، أو كادت ، تلك النغمة الجميلة وهى الاعلاء من قيمـة الفرد واعتماده على ما يقدمه من عمل صالح ليضمن النجاح فى الدنيا والآخرة ، وحلت محلها النغمة التقليدية الممقوته وهى أن الخير كل الخير فى عطف الحاكم ورضاه ٠٠٠

ومما يدلك على استقلال شخصية الفرد قبل الأسرة الثانية عشرة أن مقابر النبلاء كانت عظيمة الحجم وكانت النقوش التى على جدرانها تعبر عن استقلال أصحابها، واستخدم النبلاء القابا وأوصافا ملكية ، ولم يؤرخوا نقوشهم بحكم الملوك الحاكمين فقط ، بل أرخوها أيضا بحكم الأمراء المحليين ٠ وكلما تقدمت الأيام بالأسرة الحاكمة (الثانية عشرة) أصبحت كتابة النبلاء عن أنفسهم أكثر تواضعا ، كما أصبحت مقابرهم أصغر حجما وأقل وثوقا ، وفى الوقت ذاته صارت مقابر الملوك أكبر حجما وافخم مظهرا ٠

وها هى بعض النصوص لاظهار الفارق بين الروح الاستقلالية فى عصر الفترة الأولى ثم ما طرأ عليها بعد ذلك فى الدولة الوسطى ، فمن النوع الأول شاهد قبر من احد أقاليم مصر الوسطى ، يتحدث فيه صاحبه مؤكدا لنا بنفسه كفاءته الشخصية (كنت رجلا من العامة ذا سمعة طيبة ، عاش فى أملاكه ، وحرث بثيرانه ، وسافر بسفنه ولم يكن ذلك من شىء وجدته فى حيازة أبى ٠ الشخص المبجل (أوحا) ٠

والأن لنقرأ نصا نقشه أحد حكام الأقاليم فى عهد الملك سنوسرت الثانى من الأسرة الثانية عشرة وهو ضد النقش السابق فى تأكيده أن الحياة السعيدة هى التى يعيشها الانسان مكتفيا بما لديه (كان الرضاء على فى البلاد أكثر من أى نديم آخر ، وميزنى الملك عن جميع عظمائه ، عندما قدم الملك مكانى على من كانوا أرفع منى ٠ عينت من موظفى السراى وتلت المديح على ذلك ٠ كنت أنحنى كمـا يجب ، وكان الرضاء على فى الحضرة الملكية هو كلمة الملك نفسه ، لم يحدث مثل ذلك لخدم بمدحهم سادتهم ، لأنه عرف فصاحة لسانى وتواضع نفسى ٠ وكنت رجلا محترما من رجال الحضرة الملكية ، وكان تكريمى أمام (رجال) بلاطه ، وكانت المواده لشخصى أمام رفقائه ٠

عاد المد ثانيـة ، وان كان هذه المرة بسبب البطش فالاستكانة والنفاق وليس بسبب الايمان بالنظام وبممثل النظام كما كان عليه الحال حتى أواخر الدولة القديمة ·

ومن هنا أصبحت الحياة السعيدة هى الحياة التى يتمكن فيها الانســـان من الحصول على رضا الملك ، ولو كان ذلك على حساب الاكتفاء الذاتى والاستقلال ·

وعندما فر سنوهى هاربا الى منفاه ، كان ضميره يؤنبه ، وكان يخشى أن يتهم بعدم الولاء للملك الجديد ، وعندما سأله مضيفه الأسيوى ما الذى سيحدث لمصر بعد أن مات مليكها العجوز ؟ فتح سنوهى فمه ، فتناثرت منه خير المدائح فى الملك الجديد (هو اله ليس له نظير ، وليس هناك من يفوقه ، انه رب الفهم ، سديد الرأى ، المحسن فيما يقضى به ، وهو مع ذلك ، رجل قوى ، يستخدم ذراعه ، رجل كبير الهمه ، وليس هناك من يداينه) ·

والجملة التى نريد ان نبحث فى مدلولها هى (يستخدم ذراعه) ففى الوقت الذى ساد فيه مذهب تحرر الفرد من ربقة الجماعة فى مرحلة الثورة ، فان الفخر المستمر بأن الشخص الذى كان يسمى رجلا من العامة ذا سمعه طيبه (حرفيا — رجل فقير محسن فى عمله) · هو الذى (يتكلم بفمه ويعمل بذراعه) وبدأ يختفى وصف الأشخاص بأنه (رجل من العامة) فى الدولة الوسطى ، اللهم الا فى حالة واحدة فقط ، اذ اختاره الملوك واستخدموه لوصف أنفسهم ، أى أن اتصاف الشخص بالانفرادية والاستقلال أصبح موضع فخر الذين كانت لهم السلطة كاملة ··

وعلى كل حال فان هذا الوصف عندما يضيفه الملوك لأنفسهم يعنى البطش من جانبهم والاستكانة والنفاق بالنسبة للرعية ·

وخير مثل يثبت لنا استسلام النبلاء للملك هو ما نقرؤه فى نص منسوب الى أحد رؤساء الخزانه فى عهد الملك أمنمحات الثالث من الأسرة الثانية عشرة · ففى احدى التعاليم التى كان المصريون يلخصون فيها حكمتهم العملية فى أيامهم نصح هذا الرجل أبناءه ليرشدهم الى الحياة السعيدة (بداية التعاليم التى كتبها لأجل أولاده · انى أقص عليكم شيئا هاما فاستمعوا الى · انى أدلكم على نصيحة خالدة ووسيلة تجعلكم تعيشون الحياة الصحيحة ، وتقضون عمركم فى سلام ، اعبدوا الملك (أمنمحات الثالث) الذى يعيش مخلدا (يعيش) فى أجســـادكم ، واتحدوا مع جلالته فى قلوبكم ، انه الفطنة التى فى القلوب ، وعيناه تفحص كل جسم ، انه اله الشمس رع الذى يرى الانسان بأشعته انـــه يضىء الأرضين أكثر من قرص الشمس ، انه يعطى الطعام لمن فى خدمته ، ويزود بالقوت الذين يسيرون فى طريقه ، ان الملك ليس الا (كا) وفمه فيض ، ان كل ما يكون (ما هو الا) من خلقه لأنـــه (الاله) خنوم الذى يصنع جميع الأجسام ، الوالد الذى يلد الناس ·· انه الالهة سخمت ، ضد كل من يعصى أوامره ، والشخص الذى يكرهه فالويل له · حاربوا من أجل اسمه ، ودققوا عند القسم به ، حتى تكونوا أبرياء من وصمة عدم الولاء · ان الذى يحبه الملك ، يصبح شخصا مبجلا ، ولكن لن يكون للثائر ضـــد جلالته

قبر ، وتلقى جثته فى الماء . فاذا فعلتم ذلك ، فلن يكون فيكم عيب ، وتكونون كذلك الى الأبد) .

وعندما نراجع نصيحة بتاح حتب من الدولة القديمة لولده لا نجد شيئا من هذا التملق المركز كله على الملك الذى فرض ألوهيته فى الدولة الوسطى .

وعندما أراد مؤسس الأسرة الثانية عشرة ، وهو امنمحات الأول ، أن يضفى على استيلائه على عرش مصر صفة شرعية وهو أنه كان مقدرا له ، من قبل ، حكم مصر ، فعل ذلك بطريقة تنبوءية (دينية) تنبىء عن ذلك (ص ١٤٩) .

يقول المتنبىء (سأريك البلاد وقد صارت مغزوة تتالم ، وأن منطقة عين شمس لن تصير بعد مكان ولادة اله) ، ثم يحاول المتنبىء (نفر ـ روهو) اقناع الشعب بأن الآلهة اختارت امنمحات الأول لانقاذ مصر ، يقول النص (سيأتى ملك من الجنوب اسمه أمينى ، وهو ابن سيدة نوبية الأصل ، وقد ولد فى الوجه القبلى ، وسيتسلم التاج الأبيض ، ويلبس التاج الأحمر ، فيوحد بذلك التاج المزدوج ، سينشر السلام فى الأرضين (مصر) على الوجه الذى يحبه أهلها .

وسيفرح أهل زمانه ، وسيجعل الانسان اسمه باقيا أبد الأبدين ، أما الذين كانوا قد تآمروا على الشر ودبروا الفتنة فقد أطبقوا أفواههم خوفا منه ، والأسيويون سيقتلهم بسيفه .

وهو كذب على كل حال ..

وعندما حانت منية رمسيس الثانى وانضم الى آلهة العالم الآخر ، كان أكبر اثنى عشر من أبنائه قد ماتوا ، وخلفه على العرش ابنه الثالث عشر مرنبتاح ، وأسرع الشعراء (المتملقون) يضعون الأناشيد احتفاء بتولى ملك جديد يعيد الماعت (النظام ، الصدق ، العدل) الى الأرض ، كما كانوا يفعلون مع كل ملك جديد (لينشرح قلبك ، أيتها البلاد ، لقد حلت الأيام السعيدة ، وتولى سيد فى جميع البلاد .. انه أكثر نفعا من أى ملك آخر ، مرنبتاح .. أيها الصالحون تعالوا لتروا .. ان ماعت قد طردت الخداع ، وانكفأ الأشرار على وجوههم ، وتجاهل الناس جميع الجشعين ، ووقف جريان الماء ، ولكنه لم يجف ، ثم ارتفع الفيضان عاليا .. طالت الأيام ، وأصبح الليل ساعات ، وجاء القمر فى موعده المعتاد . والآلهة راضون مطمئنون القلب ، ويعيش الناس فى ضحك ودهشة) .

ولا يعنى ذلك ، ولم يقصدوا من كتابته ، انهم أرادوا القول أن حكم رمسيس انتهى بالغش وعمل السوء ، أو أن الجشع جعل النيل لا يفيض ، وأن الأيام أصبحت قصيرة ، وأصبح القمر غير منتظم ، ولكنها كانت التحية الواجبة لمعجزة اعادة الخلق عند تولى فرعون جديد ، ولم تكن بأية صورة من الصور اساءة لمن حكم قبله .

وهو نفاق على كل حال .

ولقد عاش رمسيس الثانى حياة ممتعة سهلة ، محوطا بالملق والمداهنة حتى أصبح كانما لن يضارعه فى مجده ملك آخر على البسيطة ثم لم يلبث بعد موته أن مدح الشعراء ابنه الملك مرنبتاح كأنه هو الذى سيصلح كل ما (فسد) ٠

ويقول الشعراء فى مدح مرنبتاح بعد انتصاره على الليبيين وحلفائهم من شعوب البحر :

والأمراء منطرحون على الأرض يصيحون الرحمة ٠
ولا يرفع واحد رأسه من أهالى الأقواس التسعة ٠
الخراب للتحنو ، وبلاد خيتا قد أسكتت ٠
ونهبت كنعان وأصابها شر ٠
وسيقت عسقلان ، وهجم على جزر ٠
وصارت ينعم (كبلد) لم يكن له وجود ٠
واسرائيل خربت ، وزالت بذرتها ٠
واصبحت فلسطين أرملة لمصر ٠
وجميع الأراضى أصبحت هادئة كلها
وكل من كان غير مستقر أصبح مرتبطا بمرنبتاح ٠

وهذا النشيد بالمديح لا يمت الى الحقيقة بسبب ٠ فقد كانت علاقة مرنبتاح بمملكة خيتا علاقة حسنة ، ولم تقم مصر بأية حمله حربية فى آسيا ، ولكن ذلك هو التمجيد المعتاد الذى يتحدث عن الالة الملك بأنه المنتصر على كل من يعارضه ، سواء حاربهم فى ميدان القتال أو لم يحاربهم ٠

٢ ـ فى التوكل والاستسلام واللجوء الى الغيبيات :

ولكى نفهم ما أصاب الروح المصرية من فقر يجب أن نعود القهقرى ونفحص بعض الأساليب الفنية والأدبية منذ أيام تحوتمس الثالث سنة ١٤٩٠ ق٠م قصاعدا

فنرى مثلا أنه كان هناك تغيير جارف فى نقوش المقابر المصرية بدأ يظهر فى الأسرتين التاسعة عشر والعشرين (من ١٣٠٨ ـ ١٠٩٠ ق٠م) ٠

كان الهدف الرئيسى لهذا التغيير هو انكار الموت عن طريق تأكيد المظاهر السعيدة الناجحة فى الحياة ٠

لم يعد هناك خوف من الموت آكثر من خوف الانسان من السير فى مكان يعرفه عندما يخيم الظلام ، فان معرفة ذلك المكان فى ضوء النهار وتأكده من أنه مكان مألوف لا خوف منه يساعده فى اجتيازه بأمان ٠ فلهذا نراهم غطوا جدران المقابر بمناظر تمثل حقولا ملونة بلون الذهب تملؤها محصولاتها ، وبسفن تسير على صفحة الماء

وقد ملأ النسيم شراعها ، وبمناظر ملأى بالتحمس والحركة للصيد فى الصحراء ، ومناظر للأطفال وهم يتصايحون أثناء اللعب ٠

كان الغرض من كل تلك المناظر غرضـا جنـازيا يتعلق بالموت ٠ فالنجـاح والسعادة فى هذه الدنيا ، كانا قوة دافعة نحو النعيم الأبدى فى الحيـاة الأخرى ، وكان لمناظر الحصاد ، أو تربية الحيوانات تأثير سـحرى لحصول النبيل على طعامه فى العالم الآخر ٠ وكانت مناظر السفن تساعده على أن يصبح أكثر حـركة وحرية هناك كما أن المناظر التى تمثل ثراءه فى الحياة وعلو قدره فيها تعطيه مركزا عاليا فى الجنة ، وهكذا ٠

والنقطة المهمة التى يجب ألا ننساها أن جميع المقابر ابتداء من الأسرة الرابعة حتى الأسرة التاسعه عشرة ، كانت تهتم اهتماما خاصـا بالدنيا وتنكر صحة الموت ، وهذا ما أمد مناظر المقابر بحيويتها المدهشة ، وحب الاستمتاع بالحياة والتفاؤل ٠

ونرى فى معظم مقابر الامبراطورية هذا التعلق بالحاية ، وجدران مقابر الأسرة الثامنة عشرة ملأى بمناظر الزراعة ، والكروم ، وصيد السمك ، وصـيد الطيور ، والصيد فى الصحراء ؛ ومناظر الصناع يؤدون عملهم ، والمآدب ، وتقديم الجزية من البلاد الأجنبية ، والمناظر التى تمثل الملك وهو يغدق انعاماته على بعض الناس ٠

واخذ شيء من الوقار يزحف بالتدريج ، فاكثروا من المناظر الخاصة بالموت، وفى اواخر أيام الأسرة الثامنة عشرة ، كانوا يرسمون مناظر محاكمة الميت أمام أوزريس وموكب الجنازة وهى فى طريقها الى القبر . كذلك اخذوا مرة أخرى يرسمون أرملة الميت فى حالة حزنها أو يعطون لهذا الموضوع أهمية خاصة ، ومع ذلك فقد عمدت الأسرة التاسعة عشرة الى تركيز اهتمامها على مباهج هذا العالم ، فنرى رسم حديقـة غناء وفيها الشادوف ، ومناظر عصير العنب بالضغط عليه بالاقدام ومناظر التجارة فى السوق ، أو تلقى المكافأة من الملك ، واصبحت نسبة المساحة المخصصة للمناظر المتصلة بالحياة ثلاثة أضعاف المسـاحة المخصصة للمناأر القاصرة على الموضـوعات الخاصة بالموت والدفن بعد أن كانت مساوية لها ، وكان أساس ذلك ، دون ريب هو التعبير عن حبهم للحياة ٠

وفجاة ، فى أواخر الأسرة التاسعة عشر نلاحظ تغييرا قويا ، ففى خلال جيل او جيلين أو ثلاثة لم تعد المقابر تحفل بالتعلق بهذه الدنيا فتركت ذلك تركا تاما ، وخصصوا كل مسطحات الجدران لمناظر الموت والحياة الأخرى ٠ لقد غرتهم الأبدية التى لا يعرف أحد كنهها ، وأتت بظلالها على ذلك السرور الباسم فى مصر ، وأصبحنا لا نرى الا المناظر التى تمثل جنازة الميت فى طريقها الى القبر المنحوت فى الجبل الغربى ، ومحاكمة الميت أمام أوزريس ، واطعام الهة شجرة الجميز للميت ، واعداد المومياء ومناظر الآلهة وشياطين العالم الآخر المخيفين و (خليطا من الأساطير المليئة بالمغالاة وبالتعاويذ التي يرجون منها الحماية) ٠

واختفت نصوص تراجم حياة الأشخاص وحل محلها الأناشيد والطقوس والنصوص الدينية الطويلة التى يرجون من ورائها الحماية السحرية ، أو النفع فى الحياة الأخرى • وسواء فى النصوص أو فى مناظر الجدران ، تركوا الحياة الدنيا جانبا على حين فجأة ، ورحبوا بالموت كشىء لا مفر منه • فقد زال سرور مصر الدائم، ونظر المصريون الى الحياة بعد الموت كمخرج من تلك الحياة ، وجزاء حسنا عن صبرهم ورضاهم بهمومها عندما عاشوا فيها •

ونرى آثار هذا الزهد فى الأسماء التى أخذت تظهر فى ذلك العهد ـ فالى جانب الاسماء التى كانت متأصلة وتقليدية فى مصر ، ظهرت أسماء جديدة تعبر عن الخوف والاتكال : (المنقذ) ، (المتواضع يبقى) ، (الأعمى) ، (عبد آمون) ، (يقول رع أنه سيعيش) ، (لا فائدة) ، لقد اختفت الاسماء التى كانوا يسمون بها الأطفال وكانت مليئة بالثقة ، وتهدف الى النجاح والقوة ليحل مكانها تسميات مليئة بالخوف والاسترحام •

ان ترويض النفس ، والمثابرة التى تطلبتها الدولة لأجل طرد الكهسوس ، ثم لتوسيع الامبراطورية والمحافظة عليها بعد ذلك ، قتل ذلك التسامح القديم ، وعدم التعفف فى الأمور والميل الى الفلسفة العملية فى الحياة ، وذلك عندما أصبح الفرد مطواعا ويفعل ما يملى عليه •

لقد تضاءلت شخصية الفرد عندما وجهوها لتصبح فى خدمة الجماعة ، وبعبارة أخرى فى خدمة الآلهة الذين كانوا يحكمون البلاد ومن بينهم الملك ، ولكنه فى حقيقة الأمر كان لخدمة الأقلية الحاكمة •

وعندما اشتد نفوذ الطبقة العليا من النبلاء أصبح من هم أقل منهم من النبلاء والطبقة الوسطى وأفراد الشعب أشد فقرا وأقل نفوذا • وعند ذلك أفهمهم رجال الدين أن ذلك هو المقدر عليهم ، وأنهم يجب أن يرضخوا لقدرهم صابرين عساهم أن ينالوا جزاءهم فى الجنة • لقد أخذت فكرة وجود (القدر) و (الحظ) كآلهة تسير الأمور تظهر لأول مرة فى عصر أخناتون ، عندما مدحوا آتون بقولهم (انه هو الذى خلق اله القدر ، وأوجد آلهة الحظ) وعندما أطلقوا على أخناتون (اله القدر الذى يمنح الحياة) • وفى نشيد من عصر متأخر عن عصر اخناتون نراهم يمدحون آمون بصفته الاله الخالق (ان القدر والحظ معه لأجل كل انسان) •

وفى مناظر محاكمة الميت يقف أحيانا اله القدر الى جانب كفتى الميزان الذى يوزن فيه قلب الانسان ، وعلى مقربة منه الهتا الحظ والولادة لكى يحولوا دون أى تصرف شخصى شاذ •

كان الرجل محاطا بحراس كثيرين يتحكمون فى تصرفاته ويحدون من حرية (قرينه) ، شاهد قبره الذى فى الجبانة ، قدره ، عمره ، قضاء مولده ، حظه والاله خنوم (الاله البادىء) •

لم يكن المصريون ، فى ذلك العهد ، يعتقدون أن القدر عليهم حتمى ولا يمكن تعديله أو تغييره • ففى أحـــد النصوص التى كتبت فى عهد الامبراطورية ، وتتحدث عن الحكمة نراهم ينصحون الشـــاب بالاصغاء الى كلمات أبيه لتكون هاديا له فى تصرفاته (فاذا فعل ذلك ، فما أعظم ما سيناله •• ولن يحق عليه ما كتبه القدر) •

فقد كان هناك اذن مخرج لمن يتبع تعاليم الماضى (ان جميع هذه الأشياء تحدث أثناء حياة الانسان ، ولا شأن لالهة الحظ بهـــا ، ودون أن يتحتم تنفيذ المقدر على المرء عند الولادة ، اللهـم فى اعطاء التنفس لخياشيمه) • بل هنـــاك ما هو أكثر من ذلك ، فالاله الرحيم يمكنه أن ينقذ الانسان من القدر ، اذا أراد الاله ذلك •

ومع ذلك فقد ظهرت هذه النصوص فى أيام الامبراطورية ، ويمكن عقد المقارنة بينها وبين بعض التعاليم الدينية التى كان يؤمن بها المصريون فى العصور السابقة ، والتى تجعل الهى القدر والحظ ذوى قوة كابحه قامعة فى حياة الانسان •

واستلزم هذا الاتجاه الجديد ، وهو القول بعدم كفاية الانسان ونقصه أن يصحبه شعور بالخطيئة •

أى اعتراف الانسان بأنه معرض للخطأ والفشل بطبيعته ، وأنه يستطيع الخلاص عن طريق الآلهة دون سواهم •

كان ذلك العهد عهدا تعرضت فيه الأمة للهزيمـة واضطرت للانطواء ، فطلب الآلهة من جميع الناس أن يكونوا فقراء الروح ، ونرى الدليل على ذلك مسطرا على عدد غير قليل من الآثار كتبها أصحابها استرحاما للآلهة — فمثلا اقترف ابن أحد الرسامين عملا فيه خروج على التقوى بشأن بقرة مما يمتلكها الاله آمون رع ، وربما لم يزد هذا الذنب عن أخذ لبن منها بحلبها ، ومرض الابن بعد ذلك ، واعترف الأب بخطيئة ابنه فشفى الابن وقدم أبوه نشيدا ملأه بالعرفان بالجميـــل لآمون رع (الذى يسمع التوسلات ، ويلبى دعوة الفقير المهموم ، والذى يمد بالنفس كل ضعيف) — ويقول هذا النشيد عن آمون (احذر منه ، كرر ذلك للابن والابنة ، للكبير والصغير ، وقله للأسماك فى أعماق (الماء) وللطيور فى السماء • كرره على أسماع من لا يعرفه ومن يعرفه • احذر منه ، انك آمون ، رب الرجل الصامت ، الاله الذى يلبى صيحة الفقير • فاذا دعوتك وأنا (غارق فى) الهم فانت الذى يأتى وينقذنى انك تمنح النفس لمن كان ضعيفا ، وتنقذ من كان سجينا) • ويشير نب — رع الى دعائه لآمون من أجل ابنه (عندما كان مريضا ، وفى حالة الموت ، وعندما كان فى قبضة آمون بسبب بقرته ، رأيت سيد الآلهة يأتى كريح الشمال يسبقه نسيمه العليل ، وأنقذ الابن من المرض (وبالرغم من أنه من شأن الخادم ان يخطىء فمن شأن السيد أن يكون رحيما ••) •

وهناك مثل آخر أذنب أحد صغار الرؤساء فى جبانة طيبة بأن اقسم يمينا كاذبا بالاله بتاح فاصابه العمى • فدعا الله تائبا نادما معترفا بخطيئته يطلب الرحمـــة (انني رجل حلف كاذبا ببتاح رب الحق ، فانظر كيف لا يغفل عما يفعله أى انسان •

احذر منفسك ، وحاذر أن تذكر اسم بتاح كذبا · وانظر كيف يكتب على وجهه من يقول الكذب · لقد جعلنى مثل كلب فى الطريق ، وأنا بين يديه ، انه جعل الناس والآلهة ينظرون الى كرجل اقترف الاثم ضد ربه ·انه بتاح رب الحق ، كان محقا فى معاقبته لى · ارفق بى ، وانظر الى ، وكن رحيما) ·

ومن أمثلة الندم والتوبه ، فان كل ما أتاه الرجل من ذنب هو عدم مراعاته (الصمت) أو الخنوع فأحس بحاجته الى الهه ·

(تعال الى – يارع ·· لترانى ، أنك أنت الفعال لما يريد ، ولا يمكن لأحد أن يعمل عملا بدونك ، اللهم اذا عملت معه ·· لا تعاقبنى على ذنوبى الكثيرة ، فانى امرؤ لا يعرف نفسه ، اننى شخص لا عقل له · أنى أقضى اليوم لا هم لى الا ملء فمى كما تفعل البقرة فى طلب الحشائش ·

تعال الى ·· انك أنت الذى يحمى الملايين وينقذ مئات الألواف ، ويحمى الذى يستغيث به) ·

وكانت أهم صفة يمدحها الناس فى ذلك العهد هى (الصمت) ويعنون بها الصبر ، التواضع ، الخنوع ، وأحيانا الاستسلام · لم يكن الصمت قبل عصر الامبراطورية ميزة من الميزات التى كان يقدرها المصرى المرح الثرثار تقديرا كبيرا ، بل كان على العكس من كل ذلك كانت مقدرة الانسان على التحدث بفصاحة لنيل مبتغاه ، من الصفات التى امتدحوها · وعندما تقدم الوزير بتاح حوتب الى الملك يسأله أن يسمح له بتعليم ابنه حتى يستطيع أن يخلفه فى وظيفته وافق الملك قائلا (علمه أولا كيف يتحدث) وعنوان تعاليمه التى كتبها بعد ذلك هو (بدء القول الحسن ·· فى تعريف الجاهل بالحكمة وقواعد حسن الحديث فيستفيد منها من يصغى اليها ، ويلحق الأذى بمن يهملها) ·

والمغزى الأهم من قصة الفلاح الفصيح ، أن القول المؤثر الصريح يمكن أن يأتى على لسان رجل تافه بسيط ، وقد جعلوا الفلاح المسكين يوالى شكاياته لأن الملك كان معجبا بأقواله ·

وهذا يتفق مع ما قاله بتاح حوتب (ان القول الجيد أكثر خفاء من الزمرد ، ولكنه يمكن أن يوجد مع الخادمات اللاتى يعملن على حجر المسن ·

ولم يتطلب الدين من الناس فى العصور المبكرة أن يجعلوا الخنوع الهادىء مذهبا يتبعونه · فعندما حاولوا أن يمنعوا الفلاح الفصيح من الكلام بتذكيره بأنه على مقربة من هيكل لأوزريس (رب الصمت) انتهز هذه الفرصة ليصرخ بالشكوى الى ذلك الاله (يارب الصمت ، رد على سلعى) ·

وفى عصر الثورة الاجتماعية الأولى وملوك اهناسيا ، كانوا يقدرون الفصاحة تقديرا كبيرا ، كما تقرأ فى التعاليم الموجهة الى الملك مريكا رع (كن فنانا فى الحديث لتصبح قويا · فان اللسان سيف للرجل ، والحديث أقوى من أى قتال · وفى الواقع

شجعت الروح الاستقلالية فكرة اقتدار الشخص العادى على الكلام والعمل من أجل مصلحته (رجل بسيط شجاع ، يتكلم بفمه ويعمل بذراعه) ٠

ومثل ذلك التقدير العظيم لحرية الكلام المفيد لا يمكن أن تقوى عليه الا ثقافة قوية وواثقة من نفسها ٠ ولكن فى عهد الامبراطورية (امتدادا لعهد احتلال الهكسوس وسقوط الدولة الوسطى) وعلى الأخص في أواخر أيامها ، لم يكن فى الاستطاعة السكوت على مثل هذه الشخصية الفردية ٠ لقد عكست مظاهر الثقافة نفسها ٠ فألغوا حرية القول (وأصبح الصمت) المفروض أعظم ما يرون فيه النجاح٠ وبينما نرى عنوان وغرض تعاليم بتاح حوتب نتحدث عن المركز الرفيع الذى يمكن الوصول اليه عن طريق الفصاحة ، نرى عنوان وغرض تعاليم أمنمثوويت التى يرجع تاريخها الى العصر المتأخر تدعو الى فضيلة التواضع ، ويصف أمنمثوويت نفسه بأنه (الصامت حقا) فى أبيدوس ، الذى وجه القول الى (ابنه ، الى أقل أبنائه ، الى أحقر تابعيه) — (اعط أذنيك ، واسمع ما يقال ٠٠ ففى الوقت الذى تقوم فيه عاصفة من الكلمات ، ضع وتدا تربط فيه لسانك) وبينما يحث بتاح حتب على الهجوم بجرأة ضد الخصم فى مناقشة (لا تلزم الصمت عندما يتكلم هو بالسوء) نرى أمنثوويت ينصح بالانسحاب (لا تشترك فى مناقشة مع شخص مندفع فى الكلام (فى الأصل — فمه حار) ولا تستثره بكلمة ٠٠ اقض ليلة قبل الكلام ٠٠ أما الرجل المندفع ، المتحمس فى كلامه ، فابتعد عنه واتركه لنفسه ٠ فان الله يعلم كيف يجيبه) ٠ وبينما يلقى بتاح حوتب بتعاليمه الى ابنه ليجعل زوجه (بعيدة عن أن تكون لها السلطة) نرى تعاليم آنى ، وهى من العصر المتأخر تقول غير ذلك (يجب عليك أن تراقب زوجتك فى منزلها وأنت تعلم أنها كفء لذلك — انظر بعينيك وأنت ملازم للصمت حتى تدرك مقدرتها) ٠ وبينما كانت النصوص القديمة تمجد السبق الفردى ، والاعتماد على النفس وتدعو الى ذلك بقولها (شهور المرء لن تنقص بسبب — ما قام به من أعمال) ، نرى النصوص الجديدة ننصح بأن يقف الانسان موقفا سلبيا ويترك المسئولية على الله (لا تحارب الذين يعادونك ، ولكن اجلس بين يدى الله ، وستهزمهم بصمتك) ٠

وابتداء من سنة ١٣٥٠ ق٠م أصبح المصريون خائفين مطيعين ، لأنه كان يلقى عليهم دائما أن الانسان لم يكن شيئا مذكورا ، ولا يستطيع أن يفعل شيئا بمفرده ، بل لا يمكن عمل شىء بغير رغبة الآلهة ، وكما أعلن نشيد الندم والتوبة ، بأن الانسان يقترف الخطيئة بطبعه ، بينما الاله رحيم بطبعه ، فكذلك ذكرت كتب الحكمة التى كتبت فى العصور المتأخرة ، أن الانسان بدون الله لا حول له ولا قوة ، ومقدر عليه قضاؤه منذ البداية (ان الله دائما فى نجاحه ، بينما المرء فى خيبته ، ان الانسان يقول شيئا ، ولكن الله يفعل شيئا آخر) ، (لأن الانسان ليس الا طينا وقشا ، والله هو الذى يبنيه ، وهو يهدم ويبنى كل يوم ٠ انه يصنع ألف رجل فقير كما يشاء ، أو يصنع ألف رئيس) ٠

وقضى مثل هذا التزمت على كل متعة فى الحياة ، فاختفت من النصوص تلك الروح المرحة ، وذلك الحب للحياة ، كما اختفت أيضا من مناظر المقابر · لقد أصبح الموت الآن مخرجا من الفراغ الروحى فى هذه الدنيا ، وها هو أمنمئويت يقول محزونا (ما أسعد الذى يصل الى الغرب) (الموت) فيصبح آمنا فى يد الله) ·

ولما تصلبت شرايين مصر ، أخذ يزداد التجاؤها الى الشكل عوضا عن الروح · واصبح الناس منصرفين الى المظاهر الطقسية ، لأنهم رأوا فى ذلك استمرارا لنشاط أيديهم وأفواههم التى حرموا عليها أن يكون لها نشاطها وحريتها الخاصة ·

وقضت التعاليم الدينية بأن الآلهـة يرون الخير كله فى الخنوع المتواضـع (احذر من رفع الصوت فى منزله ، فالله يحب الصمت) والله نفسه (يحب الصامت أكثر من الرجل عالى الصوت) ·

٣ ـ فى السـحر

وظهرت الشعوذة ، ومظاهر السحر الواقى والخوف من الشياطين ، والايمان بالفأل ، والاتجاه نحو الوحى ، والنبوءات ، فى صورة أعم ، وازدادت · ولقد شغل المصريون أنفسهم بهذه الأشياء واستطاعوا أن ينسـوا أنهم كان محالا بينهم وبين التعبير عن آرائهم الفردية ·

وكان السحر دائما جزءا من الحياة المصرية ، وكانت التمائم معـروفة منذ العصور الغابرة ، ونصوص الأهرام (من الأسرة الخامسـة) ملأى بالتعاويذ التى تساعد على نيل المطالب أو الحماية من المخاطر ·

ومع ذلك فقد لاحظنا عدم كثرة اللجوء الى السحر فى الحياة اليومية خاصة فى بردية أدوين سمث الطبية التى كانت تتجه من أولها الى آخرها اتجاها علميا فيما عدا حالة واحدة (ص ٥٣) ·

ولكن دخول السحر فى الحياة اليومية لم يشع بين الناس فى الحياة الا فى المرحلة التى تؤرخ لها ، أى مرحلة النظم والقيادات المفروضة من أعلى ·

(ومن العسير على الذهن المحدث أن يفهم كيف تغلغل الاعتقاد فى السـحر ، تغلغلا تاما فى كل جوهر الحياة ، وسـيطر على العادات الشعبية ، وكان يدأب على الظهور فى أبسط أعمال الحياة المنزليـة الرتيبة التى تؤدى كل يوم والتى تكون مسائل عادية كالنوم أو تحضير الطعام ·

وبينما كان ، على الأخص ضد المرض ، يتحتم اسـتخدام مثل هذه الوسائل فان العمليات النسقية العادية فى الحياة الاقتصادية والمنزلية كانت توضع باستمرار تحت حمايته · فما كانت الأم أبدا لتسكت رضيعها المريض وتهيىء له الراحة دون أن ترسل الدعاء الى قوى غير منظورة لتجنب الطفل من صور الشر الحالكة والحقد والمرض التى تتلبث منتظرة فى كل ركن معتم أو تتسلل خلسة خلال الباب ·

تقول الأم :

(عجلى بالخروج ، أنت التى تجيئين فى الظلام ، التى تدخلين خلسة وأنفها الىخلقها ، ووجهها متحول الى الوراء والتى تخسر ما أتت لأجله ٠

هل أتيت لتقبلى الطفل ، لا أدعك تقبلينه ٠

هل أتيت لتؤذيه ؟ لا أدعك تؤذينه ٠

هل أتيت لتحمليه بعيدا ؟ لا أدعك تأخذينه منى ٠

لقد صنعت هذه الوقاية (التحويطة) منك ومن عقب انت ، انها تجلب الألم ، لقد صنعتها من البصل الذى يؤذيك ومن العسل حلو المذاق للأحياء ومره للذين هناك (الموتى) من أجزاء سمكة أبدر السيئة ومن فك مرت ومن سلسلة فقار سمك الفرخ٠

ثم أصبح للسحر فى الحياة اليومية تأثيره الذى لاينى يتزايد على الآخرة ووضع فى خدمة الموتى ٠

كان الانسان المصرى يخاف ــ بتأثير من الكهنة طبعا ، فى هذه المرحلة ، مما كان ينتظره من مخاطر وهو فى طريقه الى عالم الآخرة الذى كان يظنه مسكونا بالأعداء ، ولم يكن يخاف فقط شر الجــوع والعطش والاختناق ، بل كان يخاف كذلك شر الثعابين وشر الجن والمردة الذين كانوا على زعمه سكان عالم الآخرة ، وهذا الفزع البين من الموت لم يحاربه الكهنة ، بل كانوا يبعثونه على العكس فى القلوب ٠ ذلك لأنه كلما زاد الخطر من هذه الشياطين ، زاد احتياج الناس لخدماتهم ، وبعبارة أخرى زاد احتياج الناس الى السحر والأعمال الجنازية ، ومن ثم لم يقبل أى انسان الذهاب الى عالم الآخرة دون أن يكون مزودا بمجموعة من التعاويذ السحرية التى كانت ترتب على هيئة أسئلة وأجوبة ٠

ومنذ أوائل الأسرة الثامنة عشرة نجد أن المصرى كان يضع مع المتوفى بردية تحتوى على عدد عظيم من التعاويذ والصيغ الدينية على غرار صــيغ وتعاويذ متــون التوابيت ، ولكن على نطاق أوسع خاصة فيما يتعلق بالسحر ٠

٤ ــ فى الخيانة (الرشاوى والسرقة) والظلم :

لعله من المفيد عرض صورة اضراب عمال احدى الجبانات فى عهد رمسيس الثالث حتى نعايش القوم فى تذمرهم وفى مطالبهم وفى آلامهم وفى كفاحهم لأجل فرض ارادتهم وفكرهم على القيادة الحاكمة مما يمثل (الصحة) لايجابيات الشخصية المصرية ولكن مثل هذه المحاولات كانت تقمع ، كما سبق البيان من القيادة الحاكمة مما عجل بدخول الخوف والتخاذل الى الأنفس ٠

وفيما يلى تفاصيل حوادث هذا الاضراب الذى هو أيضا أول اضراب للعمال فى العــالم ٠

صرخ العمال قائلين (نحن نموت جوعا ولا يزال أمامنا ثمانية عشر يوما حتى الشهر القادم) ويجتمع بعض العمال فى أحد الميادين على مقربة من أحد الصروح ويصيحون قائلين (لن نعود الى أعمالنا أبلغوا هذا لرؤسائكم المجتمعين هناك) ٠

(وجاء اليهم الرؤساء الثلاثة ومساعدوهم ليحملوهم على العودة الى داخل حرم الجبانة) وأقسموا أيمانا مغلظة ٠٠ (يمكنكم أن تعودوا فمعنا أمر الملك) ولكن هذا الوعد باسم الملك لم يكن كافيا وقضى العمال يومهم الى جانب الحائط الخلفى للمعبد ، ولم يعودوا الى منازلهم الا عندما حل الليل ٠

وخرجوا مرة أخرى فى صباح اليوم التالى ، وفى اليوم الثالث تجرأوا وهجموا على معبد رمسيس الثانى ، وعند ذلك هرع اليهم عدد كبير من الصرافين والحراس والشرطة ٠ ووعدهم كبير الشرطة بانه سيرفع الأمر الى عمدة طيبة ، الذى كان قد فضل الاختفاء عن الأنظار ٠ كان المضربون مصممين على موقفهم ولكنهم لم يخرجوا على النظام ، وكان هجومهم على المكان المقدس ذا أثر فعال أكثر من جلوسهم السابق خلف السور ٠ واستمع الموظفون الى احتجاجهم (لقد جئنا الى هذا المكان بسبب الجوع ٠ وبسبب العطش ، فنحن بدون ثياب وبدون زيت ، وبدون سمك وبدون خضروات ٠ أكتب الى فرعون ، سيدنا الطيب وأخبره بذلك ، أكتب الى الوزير الذى يشرف علينا ، افعل ذلك لكى نعيش) ٠ وفتحوا لهم الخزانة الملكية وصرفوا لهم مخصصات الشهر السابق ٠

وهدأت ثائرة العمال عندما تسلموا ذلك ، ولكن التجربة علمتهم ألا تثنيهم الترضية الجزئية عن عزمهم ، وطالبوا بأن تدفع لهم مخصصاتهم عن الشهر الحالى أيضا ٠ وفى اليوم التالى تجمعوا عند (حصن الجبانة) الذى كان على مايظهر مركز الشرطة فيها وهناك أخبرهم رئيس الشرطة بأنهم محقوق فى طلبهم ، ولكنه طلب منهم المحافظة على النظام — انظروا — انى أعطيكم جوابى ، اذهبوا (لمنازلكم واجمعو امتعتكم واغلقوا أبوابكم وخذوا زوجاتكم وأطفالكم ٠ وأتقدمكم الى معبد تحوتمس الثالث وسأجعلكم تجلسون هناك غدا) ٠ وأخيرا صرفت لهم مخصصاتهم فى اليوم الثامن من الاضراب ٠

وبعد مضى أسبوعين ، حل أول الشهر ولم تصرف لهم أجورهم ، فاضربوا عن العمل مرة أخرى ٠ ودفع بهم غضبهم الى تهديد رؤسائهم واتهموهم بأنهم يغشون الملك (لن نأتى ٠ قولوا ذلك لرؤسائكم وهم واقفون بين زملائهم ٠ قولوا لهم أننا لم نتخط الأسوار بسبب جوعنا (فقط ، ولكن) لدينا اتهام خطير ، فان جرائم ترتكب فى هذا المكان التابع للملك) ٠

وبعد شهرين جاء الوزير الى طيبة فى عمل رسمى ، وأرسل أحد ضباط الشرطة

ليعد رؤساء عمال الجبانة الثلاثة (اذا كان ينقص أى شيء ٠ فلن أتوانى فى المجيء واحضاره لكم ، أما عن قولكم (لا تأخذ منا مخصصاتنا) فلماذا (تقولون ذلك) ، انني الوزير الذى يعطى ولا يأخذ ٠٠٠ فاذا حدث وكانت شونة الغلال ذاتها فارغة فانى ساعطيكم ما عساه أن أجده) ٠

وبعد أحد عشر يوما ، اخترق فريق العمال مرة أخرى الأسوار صائحين (نحن جياع) ٠ وبينما كانوا متجمهرين خلف معبد مرنبتاح مر عمدة طيبة فشكوا اليه ووعدهم بالنجدة (انظروا) سأعطيكم هذه الغرارات الخمسين من الحبوب لتعيشوا بها حتى يصرف لكم الملك المخصصات) ٠ وكان مثل هذا العمل رحمة من جانب موظف ٠ ولكن بعد عدد قليل من الأيام نرى شكوى مقدمة من كبير كهنة آمون ، بأن عمدة طيبة أخذ قرابين معبد رمسيس الثانى ليطعم المضربين . ويصف عمله هذا (انها جريمة كبرى ، تلك التى فعلها) ٠

وكان من أثر الأزمة الاقتصادية فى السنين الأخيرة من حكم رمسيس الثالث ارتفاع أثمان الحاجات ، وبخاصة القمح ، مما تسبب فى اضرابات العمال اذ أن السعر العادى لغرارة القمح كان يعادل (دبن) من النحاس ولكن الأسعار ارتفعت بعد ذلك فكان هذا دليلا على اضطراب الحالة الاقتصادية فى بلد زراعى ٠ وظل ارتفاع السعر بتلك النسبة القليلة حتى منتصف أيام رمسيس السادس ولكن منذ هذا العهد أخذت الأسعار ترتفع ارتفاعا جنونيا فأصبح ثمن غرارة القمح ٢ دبن بعد أن كان ثمنها ٥ر١ دبن ثم ارتفعت مع مرور الوقت الى ٤ دبن وكذلك ارتفع ثمن الشعير فأصبح ثمن الغرارة الواحدة منه ٨ دبن فى عهد رمسيس السابع ولكن القمح عاد مرة ثانية وارتفع الى ٥ دبن فى عهد رمسيس التاسع ٠ أى أصبحت البلاد فى حالة افلاس وأضحى صغار موظفى الحكومة وعمالها فى حالة ضنك شديد لا يجدون ما يمسك رمقهم ، فلم يبق أمامهم الا السرقة والرشوة اللتين أصبحتا القاعدة فى كل شيء ، خصوصا وأن المحاكم أصبحت لا قيمة لها اذ كانت الكلمة العليا فى كل شكوى هى ما يحكم به الالة ، فاذا أتهم أحد الناس شخصا آخر بسرقة فان المتشابكين يذهبان الى المعبد ويضعان ورقة أمام تمثال الاله ويطلب الكاهن من ذلك التمثال أن يحكم بينهما ٠ ويبلغ الكاهن المتقاضين بعد ذلك بما حكم به الاله وهو حكم نهائى لا رجعة فيه ، ولا يعتمد الا على شيء واحد وهو الحصول على اقناع كهنة المعبد قبل التقدم بالشكوى أو عند عرضها وكانت وسيلة ذلك واحدة لا تتغير فالاله يحكم لمن يستطيع أن يثبت انه شخص تقى بتقديم ما يستطيع تقديمه من نقود أو هدايا للكهنة ٠ ولم يقتصر الأمر على ذلك أى القضايا التى كان يفصل فيها الكهنة وهى الشكايات أو المنازعات بين الأهالى ، بل وصل الأمر أن تعيين الموظفين فى وظائفهم ومحاكمة المذنبين منهم ترجع أخيرا الى وحى آلهة المعابد وحكمهم ٠ وبعبارة أخرى لم يكن هناك ضمان للعدل فى وقت مضطرب كريه ٠ وكان فى استطاعة المرتشين السارقين أن يستمروا فى ذلك طالما كانوا مطمئنين الى حسن صلتهم بكهنة المعبد أو المسيطرين عليه ، وكانوا

يؤكدون صداقتهم من آن لآخر بما يقدمونه لهم من هدايا وغيرها • ولذلك لا يدهشنا أن نرى هذا الانحلال يتسرب الى جميع مرافق الدولة • وكان من الصعب على العمال الجائعين الناقمين أن يناموا على الطوى بينما كان على مقربة منهم كنوز مكدسة من الذهب والفضة وغيرها من النفائس ، فى مقابر الأفراد ومقابر الملوك والملكات • وبدأت سرقة المقابر فى هذه المرحلة ولكنها زادت فى عهد الرعامسة ، وكانت فى البداية لمقابر الأفراد ثم تعدتها الى مقابر الملوك • ولم يكن ما يحدث سرا بل كان يحدث علنا لأن السارقين كانوا مطمئنين أن المسئولين سيغمضون أعينهم طالما أنهم يأخذون ثمن اغضائهم وسكوتهم ، الى أن لعب الحسد دوره بين حاكم‌شرق طيبة وبين حاكم غرب طيبة الذى كان مسئولا عن الأمن وصيانة المعابد والمقابر • كان كل من الرجلين يريد الحظوة لدى الوزير ولهذا لم (يتردد) (باسر) حاكم الشرق فى التقدم بتقرير للوزير ينبئه بالحالة السيئة التى وصلت اليها الجبانة التى يشرف عليها زميله (باورعا) ــ وكانت هناك تحقيقات أولية وعوينت المقابر • وانتهت التحقيقات (المغرضة) الى ادانة المبلغ عن السرقات رغم أمانته وصدق اتهاماته والى رفع شأن (باورعا) رغم أنه هو السارق مع من اصطنعهم لنفسه من اللصوص •

ولكن كان هذا هو الحال • الأمين يدان والسارق يرتفع نجمه بالقول عنه انه برىء وصادق ومظلوم •

٥ ــ السخرية واللامبالاة والنكتة الهادمة لقيم المجتمع :

عندما كانت المدنية فى دور التكوين ، كان المصريون يحاولون معرفة ما عساه أن تكون الآلهة قد منحته لهم • ويستطيع الانسان أن يقول أنهم كانوا يحاولون فى ذلك الوقت أن يكتبوا أساطيرهم • ولذلك أخرجت الأسرات الأولى أدق الصناعات ، كما وصلت الى أقرب ما يكون من الموقف العلمى ، وكذلك وصلت الى فلسفة الكون • فلما أتمت تكوين حضارتها ، وكان ذلك فى أول الأسرة الرابعة ، كانت الأساطير التى تحكمهم قد عرفت تماما ، وأصبح عمل أى تجارب أخرى أو عمل أى تغيير شيئا محرما •

لقد وضعوا نظامهم ليكون صالحا مدى الدهر ، وضمنوه ذلك التسامح الرقيق وتلك الفكاهة الخفيفة ، وهما سبب المرونة التى جعلت ذلك النظام يستمر وقتا طويلا •

وعندما اتصلت مصر بالعالم ، انتهت الى الأبد أيام آمنها التى ترتبت على عزلتها • فكانت فكاهتهم فى العصور المبكرة فكاهة بلطف ، فكاهة تقوم على المفارقة وعدم التناسب ، أما الفكاهة التى انتشرت فى مصر فيما بعد عندما صارت قوة عالمية ، فقد أصبحت أكثر ايلاما ، وملأى بالتهكم ، فكانت فى الواقع فكاهة هازئة ساخرة •

وبدلا من أن تمد النظام المصرى بالمرونة ، اتجهت لتقويض بعض الدعائم التى قامت عليها الأمة ٠

ففى أحد كتب الحكمة ، أراد والد أن يخفف من صرامة ألفاظ نصائحه لولده بالتلاعب فى كلمة (يسمع) اذ يقول ان الابن الذى يسمع متأدبا كلام من هم أسن منه سيصبح فى يوم من الأيام قاضيا يسمع القضايا (ان السمع مفيد للابن الذى يسمع فاذا دخل السمع فى (أذن) من يسمع ، فسيصبح السامع شخصا يسمع ٠ ان السمع طيب ، والقول طيب ، ولكن للسامع ميزة لأن السـمع مفيد للسامع ، والسمع خير من كل شىء) ، ان من يسمع أو يقرأ هذا الكلام يعتقد أنه كلام لا معنى له ، ولا قيمة ، واضاعة للأدب الصحيح ، ولكننا لا نستطيع أن ندرك تلك الأحاسيس الطبيعية البسيطة فى التلاعب بالألفاظ ، كما أننا لا نملك ما كان يمتاز به المصرى من المداعبة النفاذة ٠

وهذا التلاعب بالكلمات لم يكن أمرا عارضا يأتى فجأة ، بـل كان له تأثيره الدينى السحرى فى الحديث ، كما كان له تأثيره فى التورية ٠ فالثوريات تملأ الأدب الدينى المصرى ، وبعض هـذه التوريات متعمدة ، وبعضها يرتكز على المشـابهة فى الألفاظ ، للتدليل على أشياء دينية ٠ فعندما قدموا للملك قدرين من نبيـذ بوتو (امتى) قال الكاهن (خذ الفتاة التى فى (أميت) عين حورس) ، أو عندما قدموا له اناءين من نبيذ مريوط (حامو) (خذ عين حورس التى مسكها حام) ، أو عندما قدموا له اناءين من نبيذ بالوزيوم (سينو) (خذ عين حورس فهى لا تفترق (سنو) منك) لم يقصدوا الفكاهة من تلك التوريات ، بل كان هناك نوع من المهارة الخاصة ، حيث يتلاعب الناس باللغة ليرفهوا عن نفوس البشر والآلهة ٠

وهذه المداعبة ، وتلك الفكاهة غير اللاذعة ، وتلك الابتسامة التى ترتسم على الشفاه ، كلها مهمة لفهم ما كان قويا وما كان ضعيفا فى الحياة المصرية ٠ كان ذلك خفة فى اللمس وتسامحا أمد الحياة بشىء من الليونة ٠

ولقد ساعدت النكتة الهازئة والسخرية من القيم والأشخاص على تقويض المبادىء التى قامت عليها الأمة فى هذه المرحلة ٠

فقد كان من مميزات تلك الأيام حب السخرية اللاذعة ، والسرور مما يحدث من مضايقات للآخرين ، وكان ذلك موجها بنوع خاص الى أعداء مصر كما نرى فى مناظر القتال الصاخبة التى رسموها على جدران المعابد فى عصر الامبراطورية ، كما وجدت طريقها أيضا الى النصوص التاريخية ٠

ونرى ذلك السرور الشامت فى وصف الملك تحوتمس الثالث لمعركة مجدو ، عندما يصف كيف أقفلت المدينة أبوابها فى وجه العدو المنهزم ، ولم يجدوا وسيلة

لرفعهم الى أعلى الجدران الا بتدلية الملابس ليمسكوا بها ٠ أو مثل اعادة الأمراء الأعداء الى مدنهم على ظهور الخمير بعد أن خرجوا منها فخورين الى ميدان القتال يركبون عرباتهم ٠

وفى معركة قادش التى خاض غمارها رمسيس الثانى نرى مناظر الأعداء مرسومين وهم يغرقون فى مياه نهر العاص ، ولكن شدة وقع هذا المنظر خففها رسم يمثل أمير حلب ، وقد علقه الجنود من قدميه ، ورأسه الى أسفل لينزل من فمه ما ابتلعه من ماء ٠

ويملأ التهكم المر ذلك الخطاب الملئ بالسخرية الذى حرره الكاتب حورى يهاجم فيه صلاحية الكاتب أمنمؤويت مخاطبا له بقوله ((صديقه ، وأخوه العزيز ٠٠ الحكيم فى أفكاره ، الذى لا مثيل له بين الكتاب) وبعد الاكثار من التمنيات الحسنة له ، يخاطب حورى صديقه بأنه تلقى خطابه الذى أرسله اليه ، وقد وجده تافها غير مفهوم (لقد وجدت أنه ليس مدحا أو قدحا ٠ فان ما جاء فيه يخلط هذا بذاك ، وجميع كلماتك مقلوبة ، ولا رابط بينها ، ان خطابك أقل من أن يصغى اليه أحد ٠ فاذا كنت علمت أنه خطاب غير صالح ، فكان الأجدر بك ألا ترسله ٠ انى أكتب اليك الرد بالمثل ولكن فى خطاب لا نظير له منذ صفحته الأولى حتى النهاية) ثم يندفع بعد ذلك ويطيل فى المهاجمة الساخرة لأمنمؤويت هازئا من علمه ومن مقدرته ككاتب ، ومن كفاءته كصراف لمشروعات الحكومة ، ومن صلاحيته ليكون أحد حاملى البريد الملكيين فى آسيا ٠ وفى بعض المواقع يتعمد حورى تناسى اسم أمنمؤويت ، ويشير اليه بقوله (من هو هذا) ٠ وكان حورى يحافظ بصفة مستمرة فى جميع سخرياته على استخدام الألفاظ المؤذية التى تقطر سما ((أيها الكاتب اللبق ، ذو القلب الواعى ، والذى لا يمكن أن يسمى جاهلا أبدا ، فهو كالشعلة فى الظلام فى مقدمة الجنود ٠ ليست لديك فكرة عن قيادة وحدة من وحدات الجيش ٠

وليس من الضرورى أن نتابع تهجماته على منافسه ، ويكفى أن نذكر ما ختم به خطابه الملئ بالترفع والاعتداد بالنفس (والآن ماذا ستكون النهاية ؟ هل أنسحب ؟ ولكن لماذا ؟ اننى لم أكد أبدا — يجب أن تسلم ، لقد شذبت لك آخر خطابك حتى أجيب على ما كتبته ٠ أن أقوالك متجمعه مع بعضها على لسانى وباقية فوق شفتى ٠ انها لا معنى لها عندما تسمع ، ولا يوجد مترجم يستطيع أن يفك الغازها ٠ انها مثل كلمات رجل من مستنقعات الدلتا يتحدث الى رجل من جزيرة أسوان ((الفنتين) ٠ يجب ألا تقول ((لقد جعلت اسمى عفن الرائحة بين السوقة وبين جميع الناس) ٠ اننى لم أفعل شيئا أكثر من أنى أخبرتك ما هو عمل حامل البريد ، لقد قطعت من أجلك طرقات البلاد الأجنبية ، وعددت تلك الأمم الأجنبية ومدنها حسب ترتيبها ٠ أرجوك أن تتصفحها بهدوء حتى ترى نفسك قادرا على حفظها واعادتها لتصبح بيننا (كاتبا قديرا) ٠

ولا يدهشنا بعد أن رأينا ذلك التهكم والسخرية فى المناظر المرسومة وفى النصوص ، أن نرى ظهور عدم الاحترام نحو بعض ما كان ينظر اليه الشعب نظرة تقديس • فقد وصلت الى أيدينا رسوم كاريكاتيرية من ذلك العصر ، ونرى من بينها رسما يمثل فرعون المعتز بكرامته وهو يحارب أعداءه ، وقد أبى الرسام الا أن يسخر منه فيجعله قتالا بين القطط والفيران • ولم ينج الآلهة من هذا المزاح ، ففى قصة المخاصمة بين حورس وست لأجل (وظيفة) أوزوريس فى ملك مصر ، نجد قصة مضحكة الى أبعد الحدود ، وهى موجهة ضد مجمع الآلهة الذين يصورونهم فى صورة متخابثة صبيانية • فعندما صوت مجمع الآلهة لمصلحة حورس ، صاح الاله رع ، الذى كان يرأس المجمع ، وكان يمالىء ست ، متهما الطفل حورس بأن رائحة لبن أمه ما زالت نتنه فى فمه • وعند ذلك نهض فى القاعة الاله بابا ، الذى كان على هيئة قرد ، وصاح فى الاله رع (ان هيكلك أصبح فارغا) فتألم رئيس الآلهة من هـذه الاهانة الى حد جعله يغادر قاعة المحكمة ويذهب الى حجرته ، ويستلقى على ظهره متجهما • وعند ذلك أرسل الآلهة له الآلهة حتحور الهة الحب لتخرجه من وجومه ، وذلك بعرض محاسن جسدها عليه (وعند ذلك ضحك الاله العظيم منها ، ونهض وجلس مع التاسوع العظيم ، وقال مخاطبا حورس وست ــ (قل قولك) وبعد ذلك أخذت ايزيس أم حورس تضايق المحكمة حتى اضطرت الآلهة لتأجيل جلساتهم وذهبوا الى (جزيرة وسطى) للنزهة ، وأمروا المعداوى ألا يحمل فى قاربه امرأة تشـبه ايزيس ، ومن الطبيعى أن تتخفى ايزيس وتغرى المعداوى • وقد قصوا بتهكم لاذع ، كيف نهرها المعداوى فى البداية ، ولكن شيئا من الرشوة والملاطفة ، ثم الاستزادة من الرشوة ، جعلاه يقبل نقلها فى قاربه •

ولما اتفق حورس وست على التحكيم الذى تحولا بموجبه الى فرسى نهر ، وحاولا أن يعرفا أيهما يستطيع أن يبقى تحت الماء أكثر من الآخر ، تدخلت ايزيس لافساد ذلك التحكيم باستخدامها خطافا ، ثم أخذت تردد فيما اذا كان من اللائق أن تهاجم أخاها ست من أجل ابنها حورس • ولما استشار الآلهة فى آخر الأمر الاله أوزيريس فى العالم الآخر ، طلب اله الموتى غاضبا أن يعطوا لأبنه حورس حقوقـه وهددهم بقوله (ان الأرض التي أعيش عليها ملأى بحراس بشعى الوجوه ، لا يخشون الها أو آلهة ، وانى أستطيع أن أخرجهم فيحضرون قلب كل شخص يفعل الخطيئة ، ويرجعون الى هنا ليكونوا معى) فأسرع الآلهة وأعادوا الجلسـة وحكموا لحورس بالوظيفة وهدأوا من غضب ست بسماحهم له بأن يكون اله الرعد والسماء •

وهناك أيضا اسطورة رع وايزيس ، وهى لا تزيد الا قليلا جدا عن سابقتها فى احترام الآلهة • كان لرع اسم سرى لقوته ، أخفاه عن جميع الآلهة • ولما تقدم به العمر كثيرا ، وضعف جسمه الى الحد الذى جعل اللعاب يسـيل من فمه • واحتالت عليه ايزيس وأخذت لعابه ومزجته في سم عقرب لدغه فجعله يصرخ ألما • ورفضت ايزيس

ان تزيل السم حتى أخبرها باسـمه السرى • وكذلك فى أسـطورة أهلاك الجنس البشرى ، فقد وجدت حاتحور لذة فى قتل البشر ، وندم رع على غضبه (على الناس بسبب نكرانهم للجميل) ولم يتمكن من ردع الآلهـة (التى سبق أن أمرها باهلاك البشر) الا بعد أن خادعها وجعلها فى حالة سكر بين •

لم يكن الايمـان بأن الآلهـة يخضعون للنقائص ونقط الضعف البشرية شيئا جديدا فى مصر ، ولكن الاكثار من ذلك فى العصر المتأخر من أيام الامبراطورية يجعلنا نميل الى الاعتقاد بأنه لم يعد للمقدسات ما كان لها من احترام سابق ، **ان العماد الذى كانت تستند اليه الحضارة المصرية القديمة اخذ يتصدع ، واذا لم يعد هناك شيء ينظر اليه الناس نظرة جدية كاملة ، فما الذى سيحفظ على المجتمع تماسكه •**

وبهذا لم يفتقد المصريون القيادة القدوة فى البشر فحسب ، بل افتقدوا القيادة القدوة والمثل العليا فى مقدساتهم المتوارثة عن الآلهة •

وحدثت الفرقة وكل ما يترتب عليها من فقر وتخلف فلم يجد الآجنبى أى صعوبة ليس فى غزو مصر فحسب ، بل فى استمرار احتلاله لها لأطول فترة عرفها التاريخ فى احتلال الأمم والشعوب •

وكان هذا الاحتلال الدائم هو أهم ثمرة ترتبت على سلبيات الشخصية المصريـة وفرقتها •

وأيا كانت قيمة الثمرة التى حققتها مصر حضاريا فترة الامبراطورية ، فانها لم تكن فيها الثقة بالنفس وهذا الابداع المصرى الأصيل الذى لمسناه فى مرحلتى ايجابيات الشخصية المصرية ووحدتها •

وعلى كل حال ، فانه ابتداء من عهد الأسرة الواحد والعشرين سنة ١١٠٠ ق•م حيث استولى الكهنة على الحكم ــ وحتى نهاية مرحلة الحكم الوطنى فقد ماتت نهائيا ملكات الخلق والابداع فى الشعب المصرى لانهيار الروح المصرية والقوة الدافعة لها فى الصدق والصراحة والأمانة والثقة بالنفس •

لقد انتهت الروح المصرية والقوة الدافعة لها منذ أن أحكم ملوك الأسرة الثانية عشرة قبضتهم على كافة الانظمة وعلى رقاب الناس وثروات الأمة •

وبعد سنة ١١٠٠ ق•م أخذ المصريون يخبطون خبط عشواء لعلهم يحصلون ثانية على ما عرفوا أنه كان كنزا ، ولكن عناءهم ذهب أدراج الرياح ، فقد ماتت الروح الداخلية ، وما كان للمظهر الخارجى أن يعيد شيئا مما فقدوه •

نعم ، لقد أنشأت مصر امبراطوريتها فى الشام بعد طرد الهكسوس من مصر واكتسبت بسبب ذلك مع ملوكها شهرة عظيمة ومجدا لا يبارى فى الفترة من ١٥٥٠ ــ ١٣٧٥ ق•م ثم أعادت الامبراطورية لفترة وجيزة بعد ذلك ،

ولكن الشيء الذى يهمنا أكثر من غيره هو أثر انشاء تلك الامبراطورية علـــى الروح المصرية ، فقد كان الدافع الأصلى هو طرد الهكسوس الأنجاس ومعاقبتهم ، ولكنه بالرغم من ذلك فان الاحساس القديم بالأمن والطمأنينة قد تحطم نهائيا والى الأبد ، واستطابت الروح الاستعمارية لذة الاحساس بالسلطان ٠

كانت مصر فى العصور السابقة لعهد الامبراطورية مجتمعا شعبيا استكمـــل نموه ، ولكنه تحول فجاة الى مجتمع تغلغلت فيه الحياة المدنية وتاثر بثقافات البلاد الأخرى ، مجتمع متشعب غير متجانس ، أخذ يحطم تقاليده ، ويبتعد عن التمســك باهداب الدين ، ولم يكن هناك مناص من ان يكون لمثل هذا التغيير تاثير كبير على الروح المصرية (١٤١) ٠

(★) أرجو من القارىء ملاحظة أنه سيتم مناقشة عوامل بعث الأمة المصرية فى الجزء الثالث من هذا الكتاب بمراعاة هذه الدروس ٠

فى سلبيات الشخصية المصرية حتى سنة ١٧٩٨ م
تاريخ الغزو الفرنسى لمصر

١ ــ فى التواكل والاستسلام :

عرفت مصر فى عصر البطالمة لونين من حياة التنسك ، فالوثائق البردية تحدثنا عن نساك كانوا ينقطعون للعبادة فى معبد أو آخر مثل سرابيوم منف وكانوا يدعون (كاتوخوى) .

وانتشرت عادة التنسك بين المسيحيين فى مصر لأول مرة فى الأديرة بعيدا عن مشاغل الحياة وزخرفتها ، فاقيم عدد كبير منها ، بعضها فى المدن وبعضها فى قلب الصحراوين الشرقية والغربية .

وأقدم النساك المسيحيين الذين تمدنا المصادر القديمة بمعلومات عنهم كــانوا يعيشون عند التقاء القرنين الثالث والرابع .

وانتشرت الأديرة بسرعة فى أواخر القرن الرابع **تبعا لازدياد الاضــطهادات** الدينية)(١٤٢) .

والرهبنة صورة من صور هروب الانسان المصرى من الظلم ولجوئه الى خالقه لعله يجد عنده حسن المآب .

وثمة ظاهرة واضــحة اتصفت بها الحيــاة الدينية فى مصر فى عصر سلاطين المماليك ، وهى انتشار التصوف واتساع نطاقه ... ووفد على مصر فى القرن السابع الهجرى كثير من مشايخ الصوفية أمثال أبى الحسن الشاذلى وأبى العباس المرسى وأبى القاسم القبارى والسيد أحمد البدوى .. **فوجدوا عامة المصريين فى ضيق وكد بسبب سطوة المماليك وضغطهم على الشعب ، وكثرة الفتن واختلال الأمن ، هذا عدا كثرة المجاعات والاوبئة مما دفع كثيرين الى الدخول تحت لواء مشايخ الصوفية ..** وليس هذا يعنى أن التصوف لم يكن معروفا فى مصر حينذاك ولكنه كان تصوفــا هادئا قليل الأثر ولم يشتد تيــاره فى الحياتين الاجتمــاعية والدينية الا فى عصر المماليك ..

على أنه من الضرورى أن نشير الى أن انتشار التصــوف والمتصوفة فى مصر فى عصر سلاطين المماليك كان له أثر خطير فى الحياة الاجتماعية . **ذلك أنهم صبغوا**

القيم والمثل العليا بصبغة الزهد والرغبة عن الدنيا ومتاعها ، والاتجاه نحو الآخرة والعمل لها • وترتب على هذه الاتجاهات نشر روح الاستكانة والقناعة والتذلل بين عامة الناس ، مما ظلت بقاياه فى نفوس الكثيرين أمدا طويلا •

كما كان للحشيش شأن كبير فى عصر سلاطين المماليك ، وقد قال المقريزى عن الحشيش فى أيامه (فشت هذه الشجرة الخبيثة فشوا كبيرا وولع بها أهـــل الخلاعة والسخف ولوعا كثيرا ، وتظاهروا بها من غير احتشام) •

وفرض على الحشيش فى عصر المماليك ضريبة تمد الدولة (بجملة كافية) حتى الغيت سنة ٦٦٥ هـ • ولم يقتصر الحشيش على الطبقات الدنيا من الشعب ، بل تخطاه الى غيرها من الطبقات ، حتى شغف بها كثير من العلماء والقضاة ، بل أفتى بعض القضاة باباحة أكلها ، لذلك نظم كثير من أدباء عصر المماليك أشعارا الغرض منها ايضاح مزايا الحشيش وتفضيله على الخمر •

كذلك شغف الصوفية والفقراء بالحشيش شغفـــا كبيرا ، حتى نسب اليهم فاطلق عليه المعاصرون (حشيشة الفقراء) • وقال بعض المفسدين من المتصوفة أن الحشيشة (لقيمة الذكر والفكر) ، بل ان أحد صوفية خانقاة (سعيد السعداء) نظم شعرا فى تفضيل الحشيش على الخمر • وهناك أمثلة أخرى عديدة تدل عـــلى انتشار الحشيش بين الصوفية فى عصر سلاطين المماليك ، مما دفع بعض الكتاب الى الربط بين فشو الحشيش وانتشار التصوف ، فقالوا ان الظاهرتين سارتا فى مصر جنبا الى جنب (١٤٣) •

وقد لاحظ علماء الحملة الفرنسية وجود الظاهرتين معا عند غزوهم لمصر سنة ١٧٩٨ م اذ لاحظوا أن كثيرا من المقاهى يباع فيها الأفيون ، وقالوا عنه انه نوع من المعجون المخلوط بالأعشاب ، وتتخذ الطبقة الدنيا من الشعب هذه العقاقير وسيلة للسكر والانتشاء ، ويعتاد عليه ثلثا عدد الحرفيين وكذا الأمر بالنسبة للفئات الأخرى من السكان ، كما أنهم يسكرون داخل بيوتهم بالرغم من أن الدين يحرم ذلك •

كما لاحظ علماء الحملة الفرنسية أن حياة المصرى من أبناء الطبقة الميسورة تتوزع ما بين الصلاة والحمـــام والملذات الحسية والكســـل وتدخين الأرجيل وشرب القهوة ، وقد يجوز لنا (أى لعلماء الحملة الفرنسية) أن نقول بأن الشعب كله يقضى جل وقته فى التدخين ، ولا يستخدم الأثنياء الا تبغ اللاذقية الذى تستهلك منه كميات كبيرة فى مصر ، أما الفقراء فيقنعون بالتبغ المحلى الذى لا يمتاز بنفس المذاق اللذيذ الذى لتبغ اللاذقية لكن سعره مناسب ، وتشرب القهوة فى فناجين جد قصيرة وبدون سكر ، وهناك بعض من الياس يشرب ما يزيد على العشرين فنجانا من القهوة فى اليوم الواحد •

(★) لعل القارىء يتتبع الجذور التاريخية لسلبيات الشخصية المصرية وفى أسباب ظهورها

ويكون ابناء الطبقة الشعبية من خلاصة نوع من القنب الذى يسمونه الحشيش مستحضرا مخدرا يتعاطونه بلذة شديدة ويؤدى هذا المستحضر الى السكر أو بالأحرى الى احداث نوع من الخدر ، وفى هذه الحالة من الخدر الجسمانى والروحى يحصل البؤساء على هدنة من آلامهم ومضايقاتهم · أما الأغنياء فيبحثون عن هذا المخدر عن طريق خلاصة أو عصارة الخشخاش المطبوخ · ومن خاصية هذا المشروب أنه يسبب نوعا من الأسى العميق ويصبح الجسم والعقل بعد تناوله أكثر نهالكا عما كاناه من قبل ·

كما لاحظوا نظام الخلوات (للتصوف) وقالوا عنها انها تماثل الأديرة ، ويسمى المنتسبون اليها دراويش ، وهم يعيشون فى جماعه ويرحلون من خلوة الى اخرى ، كما ذكروا أن ثمة افرادا ينسب اليهم الولايه ، وبعضهم يتمتع بقدر ضئيل من المواهب الروحية والخلقية ، لكن هؤلاء ينسحبون الى الأماكن المعزولة ليعيشوا كنساك زاهدين وينهمكون فى الصلوات والتأمل ·

ويندلع الطاعون على فترات تتقارب أو تتباعد ، ويمكن القول بأنه نادرا ماينقطع فى القاهرة والاسكندرية بصفة خاصة ، فبعد أن ينكمش المرض بفعل الحرارة الشديدة أو برودة الشتاء القارسة ، فانه يعود ليتولد من جديد وتعود اليه قواه المهلكة فى الفصل الذى تميل فيه الحرارة الى الاعتدال ·

ويبدو تواكل المسلمين وعدم حيطتهم وسذاجتهم الروحية باعتبارها الأسباب الرئيسية لبقاء هذه الكوارث · فهؤلاء فى الواقع ، يتصورون أن ليس ثمة ما يحدث دون ارادة من الخالق ، وان ليس ثمة ما يمكنه أن يرد قضاءه ومشيئته التى لا محيص عنها ، لذا ينظرون الى الاحتياطات التى تم اللجوء اليها لمنع انتشار الطاعون كامور لا جدوى منها ، انهم لن يصابوا مطلقا بأذى اذا ما كان مقدرا لهم أن يعيشوا ، كما ان شيئا لا يمكن له أن يحميهم اذا ما كانت مشيئة الله قد أرادت لهم أن يموتوا · ويتذكر سكان القاهرة بفزع نوبة الطاعون التى حلت أيام على بك ، وتلك التى حلت أيام اسماعيل بك ، وقد أدت النوبة الأخيرة على وجه الخصوص ، وهى التى اندلعت فى ربيع ١٧٩١ ، الى حدوث فظائع كبرى ، فقد كانت تحصد الألوف فى كل يوم ، وكان اسماعيل وكبار المماليك من بيته من أوائل ضحاياها ، وقد كلفت هذه النوبة مدينة القاهرة ثلث سكانها)(١٤٤) ·

٢ ـ فى الاعتياد على السلبية وعدم الانتماء :

تقول الدكتور سيدة اسماعيل كاشف فى كتابها مصر فى عصر الأخشيد ·

(ويبدو أن النزعة الدينية فى مصر ـ وفى القرن الرابع الهجرى) بوجه عام كانت (أقوى منها) فى بلاد الشرق الاسلامى · ففى شرق العالم الاسلامى كانت نفوس العامة تثور على ما ينعم به الترك من ترف وما لهم من سلطان فى شئون الدولة ، وكان يعتقد كثير منهم أن الدين من شأن الطبقة الارستقراطية وأن الذين يجب عليهم أن يحافظوا على الصلاة هم الأغنياء والأمراء وأصحاب الضياع والأموال ·

اما فى مصر فكان القوم أكثر خضوعا لأولى الأمر ، وانصرفوا الى شئون دنياهم وآخرتهم .

وكان الاعتقاد بالخرافات والكرامات شائعا بين مختلف طبقات الشعب .

ففى سنة ٣٣١ هـ ورد خبر من دمياط الى مصر أن رجلا كان قد أخذ مع قوم انهموا بقطع الطريق وقطعت يده وغاب عن البلدة مدة ثم عاد ويده صحيحة .

كذلك كان يوجد الطلاسم والرموز السحرية للعلاج مثل اللدغه من لسعة العقرب .

وكان الشراب منتشرا رغم نهي القرآن عنه .

وكان الشعب المصرى خلال هذا العصر هادئا خاضعا ، يغلب على أفراده طابع الانصراف الى شئونهم الخاصة والعيش على هامش الحياة السياسية فى البلاد ـ ولا عجب فاننا لا نكاد نجد بمصر فى ذلك الوقت شعورا قوميا أو وطنيا اذ كان الشعب قد اعتاد أن يراقب عن كثب حكاما من خارج البلاد يفدون عليها بين حين وآخر ويجمعون للدفاع عنها جيوشا لم يكن للعنصر المصرى فيها الغلبة أو الشأن الأول ولم يكن المصريون فى ذلك العصر يستطيعون أن يجمعوا أمرهم على شيء يفرضونه على حكومة البلاد ـ ولم يكن أمام الحكومة رأى عام تحسب له أى حساب)(١٤٥) .

(ورغم خضوع مصر لأرستقراطية حاكمة من المماليك تفننت فى استغلال البلاد وأهلها وحرمان الأهالى من المشاركة فى حكم بلادهم وبالرغم من قسوة الحكام فى عقاب من يخرج عن طاعتهم من أبناء البلاد ، وانتشار الأوبئة بين حين وآخر فى عصر سلاطين المماليك ومنها الوباء الذى اجتاح البلاد سنة ٨٥٣ هـ ـ وهو الوباء الذى كان يحصد من أهل القاهرة فى اليوم الواحد عشرة آلاف شخص ، رغم كل ذلك فقد شوهد الناس فى شوارع القاهرة وهم يضحكون ويهزلون ومبدؤهم فى ذلك هو حمدا لله (الذى جعل فى المزاح سلوة الهم والارتواح) كذلك حكى المقريزى أنه عندما انتشر الوباء وتوقفت زيادة النيل وغلت الاسعار فى مصر سنة ٧٠٩ هـ كان العامة يغنون فى شوارع القاهرة (سلطاننا ركين « يقصدون ركن الدين بيبرس » ونائبنا دقين « يقصدون الأمير سلار ولم يكن بلحيته سوى شعيرات قليلة » ، يجينا الماء منين ؟ جيبوا لنا الأعرج (الناصر محمد) (يبجى الماء ويدحرج) وهكذا وجد الناس فى حياة المرح نوعا من التنفيس عما كانوا يتعرضون له من شدائد وحرمان ، وظهرت هذه الروح واضحة فى بعض الألقاب التى خلعها عامة الناس على بعض أمراء المماليك ، مثل الأمير عز الدين ايفان المعروف (بسم الموت) والامير قطلوبغا الفخرى (المعروف بالفول المقشر) والامير طشتمر البدرى (المعروف بحمص أخضر) .

ولا عجب اذ وصف ابن بطوطة أهل مصر بأنهم (ذوو طرب وسرور ولهو) فى

حين ذكر بيلوتى الكريتى أن ماء النيل من خصائصه أن يجعل الناس دائما مرحين فرحين بعيدين عن الهموم والأحزان)(١٤٦) ٠

٣ – فى سلبيات الشخصية المصرية كما لاحظها علماء الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ م (١٤٢)

(المصرى خجول بطبعه ، وهو يتفادى الخطر بقدر ما يستطيع ، لكنه ما ان يجد نفسه وسط المخاطر بالرغم من حيطته – يبدى همة ما كنت تظن فى البداية أنها لديه ، وليس ثمة ما يساوى رباطة جاشه وفى نفس الوقت تواكله ٠

وهذا يبرهن على ما سبق أن قلناه من أن **اصلاح مساوىء نظام الحكم** سوف يؤدى بسهولة فائقة ، الى أن يرد لهذا الشعب كل الفضائل التى فقدها ، **بل التى لا يظنها هو نفسه كامنة فيه** ٠ كما أن ذلك سوف يوقظ فيه كل مشاعر النبل والهمة وعظمة الروح التى خنقتها الى حين تلك الأنظمة الشيطانية التى يرزح تحت نيرها من البكوات المماليك ، اذ تعمل هذه الأنظمة الخبيثة على تدمير أخلاقيات الأفراد بشكل محزن ، من هنا ، ذلك الشح الوضيع الذى يلاحظ عند أبناء الطبقة الدنيا من المجتمع وذلك الرياء الذى تجده لدى كل أفراد المجتمع – فحيث أن المصرى يلقى الهوان فى طاعة الكبار ، الذين يعرفون تماما معنى تلك السلطة التى فى حوزتهم والتى لا حدود لها والذين يتحكم فيهم خيلاؤهم الشرس ، فانه أى المصرى ، يحمل بين جوانحه روحا منكسرة تشى عن نفسها فى كل تحركاته وايماءاته فيتذلل ويتحسس كلماته مع كل من يخشى قوتهم ونفوذهم وعندما يتاح له أن يدرج فى مصاف الاثرياء ، فانه يعمل على اشعار البائسين الذين يأتمرون بأمره بوطأة استعلائه وتحكمه ، وتلك نتيجة طبيعية للتربية التى تلقاها وللأمثلة التى رآها فى حياته والتى آن الأوان أن يحتذى بها (★) ٠

ولا يستحى الفلاح أو الحرفى – مهما كانت مهنته ، من أن يستجدى ، حيث لا يهمهم كثيرا ما سوف يقال عنهم وعن حالهم ، بل انهم يعملون كل ما فى وسعهم ليظهروا أمام الناس بمظهر البؤس والعوز بقدر الامكان ٠

وبهذه الطريقة فهم يقدمون الدليل على عوزهم فيتفادون تلك المظالم والمغارم التى تهدد على الدوام أولئك الذين يبدو عليهم أنهم يعيشون فى بحبوحة من العيش ٠

ولا يمكنك أن تكشف ما يعتمل فى نفس المصريين عن طريق ملامحهم فصورة الوجه ليست مرآة لأفكارهم ، فشكلهم الخارجى فى كل ظروف حياتهم يكاد يكون

(★) من وسائل بعث الامة المصرية التى سيتم عرضها فى الجزء الثالث من هذا الكتاب تجنب كل الانظمة السياسية والاقتصادية ولوعية القيادات التى تسببت فى اصابة الشخصية المصرية بكل سلبياتها عبر تاريخنا القومى بعد سنة ٢٠٠٠ ق٠م٠

هو نفسه اذ يحتفظون فى ملامحهم بنفس الحيدة وعدم التأثر سواء حين تأكلهم الهموم أو يصيبهم الندم أو كانوا فى نشوة من سعادة عارمة ، وسواء كانت تحطمهم تقلبات غير منتظرة أو كانت تنهشهم الغيرة والاحقاد أو يغلون فى داخلهم من الغضب أو يتحرقون للانتقام ·

فليس ثمة فعل منعكس : احمرار فى الوجه أو شحوب مفاجىء ، يستطيع أن يشى بصراع تلك العواطف العديدة التى تهزهم ـ ويمكننا أن نلتمس أسبابا عديدة لهذا الجمود المذهل فى الملامح ، ومع ذلك فان الأسباب الرئيسية لذلك تكمن بالتأكيد فى شكل التربية وفى الاعتقاد فى القضاء والقدر المنتشر بين كافة الناس كما تعود فى النهاية الى شعورهم أن يكونوا على الدوام عرضة لنزوات الطغاة الذين يعم ظلمهم البلاد ·

وسوف يكون من الظلم أن ننكر عليهم كل حساسية ، فعادة (الصمت) تجعل احاسيسهم على العكس ـ وحيث يمكن بذلك تركيزها ـ اكثر حدة كما أنها تعطى لأرواحهم دفعات من النشاط تجعلهم فى بعض الأحيان قادرين على الاتيان بأفعال بالغة الجرأة ، وفضلا عن ذلك فان الفكر يكسب بعمق ما كان يمكن أن يفقده لو كانت الروح متوترة ، ان ملكة الانتباه ، والقدرة على التذكر تذهب الى أبعد مدى عند هؤلاء الناس الذين نخالهم غارقينفى بلادة مطلقة ·

ففى كل يوم تنشأ أخطاء وبشاعات جديدة ، تصبح الغفلة معها بالنسبة للمصريين ـ والشرقيين عموما ـ نوعا من الحيلة لمواجهة هذا العسف ، فعندما يعاقب الانسان على حركة أو بسبب نظرة أو أحيانا لمجرد الاشتباه ، كما لو أنه قد ارتكب جريمة ، فانه يصبح وقد اكتسب مقدرة عميقة على الاستيعاب والتمثل بحيث تصبح هذه الأمور الجائرة حالات اعتيادية · لذا فلا ينبغى علينا أن نبحث عن مصدر آخر لأسباب هذا النوع من التسليم المستعذب للالم الذى يميز الشرقيين على وجه العموم: فالشكاوى والصيحات أمور لا فائدة منها أمام ارادة الطغاة ·

ويعرف المصرى كيف يمشى وقد أغضبه الالم ، وكيف يموت تحت عصا القواس دون أن يقول كلمة ، فهذه ارادة الله ، والله أكبر ، والله غفور ·· وتلك فقط هى الكلمات التى تأتى على لسانه عندما يبلغه نبأ نجاح لم يكن يؤمل فيه ، وهى نفسها التى تفلت منه عندما يبلغه نبأ كارثة كبرى ألمت به ·

بل ان غيبة القانون تكاد تشل مختلف ضروب الصناعة ·

ولنا أن نتساءل ، لماذا يكلف الفلاح نفسه كبير عناء فى بلد كهذا ليستالملكية فيه سوى ضرب من الأوهام ، كى يحسن من زراعاته اذا كانت جهوده تلك لن تؤدى

(★) لعل القارىء يلاحظ أن (عادة) الصمت نشأتبين أفراد الشعب المصرى ، لاول مرة ، فى العصر المتأخر وذلك بالمخالفة لما كانت عليه الشخصية المصرية قبل سنة ٢٠٠٠ ق·م· من تشجيع الكلام والفصاحة وابداء الرأى المقنع ·

بالضرورة الا الى اثراء مستغليه والى انتزاع مغارم جديدة منه ؟ ان المصرى يعرف حقيقة وضعه ، ويسير نتيجة لذلك ، أموره ، ويأتى الخوف ليضيف أثره الى فعل الطقس ليضعف من مقدرة جسمه بنفس القدر الذى تقيم به المعتقدات الدينية عقبة لا يمكن اجتيازها لتحول دون تقدم وتطوير أرضه ، وهكذا يظل الغنى ينتهب اللذات بينما يظل الفقير يروى بحبات عرقه أرضا خصبة معطاء ولكنه لا يستطيع أن يحصل منها الا على ما يقيم أوده .

ويمكن القول بأن كل فروع الصناعة بلا استثناء فريسة للاستبداد .

وانظروا اذن الى أى حد تضاءل سكان واحدة من أجمل بقاع الأرض تحت هذه السيطرة الأجنبية وغير المشروعة ؟

ان الكوارث التى تنال منهم اليوم سوف تظل تثقل عليهم طالما ظلت هذه العصا الغليظة لمستغليهم غير الجديرين تدور عليهم ، ولسوف يظل المصرى عبدا ، بائسا ، سلبيا ، خاملا ، تدور به دوامات الشك دون أن يفكر فى وضعه المحزن ، وربما تكون بلادته هبة من القدر ، اذ بفضلها لن يعذبه على الاطلاق ذلك الاحساس بالألم والمخاطر التى تهدده بلا انقطاع .

ويبدو خمول المصريين الملتصقين بمدنهم أمرا بالغ التناقض مع تقاليدنا حتى لنظنهم فى البداية بلهاء أو معتوهين ، فتحركاتهم وأحاديثهم وأبسط حركاتهم بل ومسراتهم ، كل ذلك يشى بعدم اكتراث مذهل فأنت تراهم ممددين لجزء طويل من النهار على أرائكهم أو على حصرهم حسب درجة ثرائهم حتى تظن أن ليس ثمة فى هذه الدنيا ما يشغلهم الا أن يملأوا ويفرغوا على التوالى أرجيلتهم الطويلة ، وتبدو مخيلتهم وكأنما قد تخدرت مثل أجسامهم لحد تخال معه - وهم فى حالة التنويم الروحى تلك - أن سماعهم لحكم بالموت صادر عليهم لن يكون بمقدوره أن يثير مجرد دهشتهم . وبرغم ذلك فتحت هذا القناع من السلبية البادية على ملامحهم يكمن خيال ملتهب)(١٤٧) .

(انتهى كلام علماء الحملة الفرنسية)

بعد أن استعرضنا ما سبق وهو أمر لم يستمر عاما أو اثنين ولكنه استمر لأكثر من ألفى عام فما هو المتوقع بالنسبة للانسان المصرى فى نهاية هذه المرحلة ؟

لا شىء غير (الاعتياد) على سلبيات الشخصية المصرية فى الخوف والملق والنفاق والتواكل والسلبية .. الخ .

فالفرقة ...

فالخوف هو النتيجة الطبيعية لقوى البطش والارهاب .

والملق والنفاق هو الحماية للضعيف من الظالم .

والسلبية واللامبالاة هما النتيجة الطبيعية لشعور المصرى بالغربة فى بلده وأن

ليس له من الأمر شيء فسواء ولى حكم مصر اغريقى أو رومانى ثم طولونى أو أخشيدى أو فاطمى أو عثمانى أو مملوكى ٠٠ فلا شيء من ذلك يثيره ٠

والهروب الى الأديرة أو التصوف والتنسك أو فى نطاق جدران البيت ومتطلبات الأسرة أو المخدرات هو الملجأ الامين من قوى البطش والاستغلال ٠

كما انه التعبير عن الاحساس بالغربة وعدم الانتماء ٠

والتواكل والقاء الانسان لأموره الى القضاء والقدر (وما سوف يأتيك سوف يأتيك) هو التعبير عن عجز الانسان عن تغيير أى شيء ، خارج نطاق أسرته ، بنفسه ٠

بل ان نفسه وأسرته لا ضمان لها من عسف الغير وظلمه ٠٠

ومن هنا يمكن أن نفهم قول العرب (قال العقل أنا لاحق بالشام فقالت الفتنة وأنا معك وقال الشفاء أنا لاحق بالبادية ، فقالت الصحة وأنا معك وقال الخصب أنا لاحق بمصر فقال الذل وأنا معك) ٠

والمقريزى يذكر من بين الصفات التى تغلب على أخلاق المصريين (فى هذه المرحلة من الفرقة) ـ (الدعة والجبن وسرعة الخوف والسعى لدى السلطان) ويقول (ولهم خبرة بالكيد والمكر وفيهم بالفطرة قوة عليه وتلطف فيه)(١٤٨) ٠

والدعة والجبن وسرعة الخوف هى ثمرة البطش والارهاب من الحاكم كما سبق البيان ٠

أما السعى لدى السلطان فهو لمداراته وللتقرب اليه وهو بيده قطع الرقاب والأرزاق ٠

وهنا كان عامل هام من عوامل فرقة الشعب المصرى بعضه عن بعض وعدم ثقته فى الغير واثارة العمل الفردى على العمل الجماعى ٠

والكذب والخبث هو ثمرة الرهبة أو الرغبة وكلاهما متعلقان بنظام الحكم المفروض المحتكر للرقاب وللارزاق ٠

كما أن ثمرتهما المزيد من عدم الثقة وفرقة الناس بعضهم عن بعض وعن القيم والأخلاق ٠

ولكن هناك كلمة نحب أن نتوقف عندها ، وهى هذه الكلمة التى ذكرها عمرو بن العاص فى كتابه للخليفة عمر بن الخطاب عن وسائل اصلاح حال مصر وهى (ألا يقبل قول خسيسها فى رئيسها) (١٤٩) ٠

وهذه الكلمة قيلت بالطبع فى الشخصية المصرية قبل دخول الاسلام الى مصر٠

وهذا يدلك على نجاح الاستعمار الاغريقى والرومانى فى مسخ الشخصية المصرية ٠

وسبق البيان أن سلبيات الشخصية المصرية قديمة ويمتد جـذورها الى بداية الأسرة الثانية عشرة سنة ٢٠٠٠ ق٠م ٠

ثم ما قاله المقريزى ان للمصريين خبرة بالكيد والمكر وفيهم بالفطرة قوة عليـه وتلطف فيه ٠

ثم يجيء علماء الحملة الفرنسية ويلاحظون أيضا كل ذلك ٠

وبهذا ليست الفرقة بين الناس مجرد تباعد بينهم وبين بعضهم وبعض وبينهم وبين القيادات والنظم والوطن والمال العام فحسب ، بل هى فرقة ايجابية تهدم الغير فى شخصه أو فى ثروته أو فى شرفه أو فى كرامته أو فى عقائده أو فى كل ما يحب الحفاظ عليه ٠

انها فرقة مدمرة لكل من هو خارج حدود الأسرة ثم بدأت تدخل (الآن) الى الأسر والبيـــــوت ٠

● الفصل الثالث

فى الفقر والتخلف

(الحضارة نظام اجتماعى يعين الانسان على الزيادة من انتاجه الثقافى .

وانما تتالف الحضارة من عناصر أربعة : الموارد الاقتصادية ، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية ، ومتابعة العلوم والفنون .

وهى تبدأ حيث ينتهى الاضطراب والقلق ، لأنه اذا أمن الانسان من الخوف ، تحررت فى نفسه دوافع التطلع وعوامل الابداع والانشاء ، وبعد ذلك لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضى فى طريقه الى فهم الحياة وازدهارها) (١٥٠) .

وعلى هذا فالتخلف يبدأ مع الاضطراب والقلق ، لأنه اذا خاف الانسان ، كبلت نفسه دون التطلع الا لأموره الضرورية فى الغذاء والكساء والمأوى واشباع الغرائز .

لذلك كان نتاج الحضارة المصرية ، فى مرحلة الوحدة ، دليلا على اطمئنان الانسان على نفسه وعلى رزقه كما هى دليل على شجاعته وتحرره مما هيأ له أجواء الفكر والابداع والانشاء .

فكان رائدا للبشرية فى كل ما وصلت اليه من علوم ومعارف سبق عرض بعضها فى الجزء الأول من هذا الكتاب .

وفى هذا يقول علماء الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨م(١٥١) :

(لا يمكن لملكات شعب من الشعوب ، ذهنية كانت أم روحية ، أن تنمو ، وأن يجنى هو بالتالى ثمرات ذلك ، الا فى ظل أنظمة ترعاها . وينطبق هذا القول على الصناعة ، والا فانها ستظل راكدة حيث لا اختراع ولا تحسن .. وهكذا .. فان الحرف والمنتجات الصناعية فى وادى النيل تشىء بحضارة لا تزال فى طور الطفولة ، أو تشى بالأحرى بتقاعس العمال وأصحاب الاعمال . فليس ثمة شىء دقيق ، أو معتنى به يخرج من المصانع المصرية اذا ما استثنينا التطريز . فالمنسوجات القطنية والصوفية وبقية الأشياء ذات الاستعمال الطويل ، تظهر بشكل خشن وغير دقيق ، لحد سوف يذهلنا اذا نحن لم نلق بالا لتلك الظروف التى يحياها الشعب الذى أنتجها . فلقد ظل المصريون المحدثون ، برغم كل العناصر التى كان يمكنها أن تؤدى للنماء والازدهار ، متخلفين ، لأن سطوة الطغيان قد حصرت عقولهم ، بل يمكن القول بأنها شلت قدرتهم على التفكير ، وليست مصر هى الدولة الوحيدة فى كل دول الشرق التى تحيا فى مثل هذه الحالة المحزنة) .

وقارن ذلك بما أثمرته الوحدة بين أبناء الشعب مما سبق بيانه فى الجزء الأول من هذا الكتاب ٠

وقد سبق بيان مظاهر الفقر والتخلف فى هذه المرحلة ٠

أما عن سلبيات الشخصية المصرية اليوم وحالة الفقر والتخلف الموجودة فى المجتمع المصرى فسيرد عنها مزيد من البيان فى الجزء الثالث من هذا الكتاب

مراجع وحواشى الجزء الثانى

١ ـ اخترنا سنة ٢٠٠٠ ق٠م٠ كتاريخ لبداية حكم الأسرة الثانية عشرة رغم مخالفة كثير من المؤرخين لهذا التحديد بمقدار حوالى عشرة أعوام ـ الا أنه نظرا لأن هذا التاريخ سيتردد كثيرا فى هذه الكتاب فقد استحسنا استعماله خاصة وأن الفرق ضئيل بالنسبة للتاريخ الذى حدده الكثير من المؤرخين لبداية الأسرة الثانية عشرة ـ ومن ناحية أخرى فان التغيرات التى طرأت على الشخصية المصرية لا تتم بين يوم وليلة ولكنها تتأثر تدريجيا بالنظم والقيادات المفروضة ٠

٢ ـ جان يويوت — مصر الفرعونية ـ الألف كتاب ـ مؤسسة سجل العرب ـ ١٩٦٦ ـ ص ٨٢ ٠

٣ ـ جون ولسون — الحضارة المصرية ـ مكتبة النهضة ـ ص ٢٣٩ ٠

٤ ـ مجموعة من العلماء — تاريخ الحضارة المصرية ـ العصر الفرعونى ـ ص ١٠٧ ـ مكتبة النهضة المصرية ـ المجلد الأول ٠

٥ ـ مجموعة من العلماء — الموسوعة المصرية ـ تاريخ مصر القديمة وآثارها ـ المجلد الأول ـ الهيئة العامة للكتاب٠

٦ ـ مجموعة من العلماء — الموسوعة المصرية ـ المرجع السابق ـ المجلد الثانى ٠

٧ ـ د٠ مصطفى العبادى — مصر من الاسكندر الأكبر الى الفتح العربى ـ مكتبة الأنجلو المصرية ٠

٨ ـ د٠ حسين فوزى — سندباد مصرى ـ دار المعارف الطبعة الثانية

٩ ـ د٠ حسين فوزى — المرجع السابق ـ ص ٣٠٥

١٠ ـ د٠ حسين فوزى — المرجع السابق ص ٢٦٦ ٠

١١ ـ أحمد حسين — موسوعة تاريخ مصر ـ ج ١ ـ مطبوعات الشعب ص ٣١٠ وما بعدها ـ ويلاحظ أننا أطلقنا على المذهب المسيحى المصرى لفظ الارثوذكسى والمذهب الرومانى لفظ الكاثوليك٠ وذلك قبل اقرار هذه التسمية منذ سنة ٤٥١م

وذلك لأن هذين اللفظين شائعين وأسهل فى النطق كما أن هذا لا يؤثر على سيرة الأحداث وخاصة أن الهدف كله هو ابراز الفرقة التى اكتوى بنارها الشعب المصرى منذ سنة ٢٠٠٠ ق٠م ٠

١٢ ــ مجموعة من العلماء — الموسوعة المصرية ــ العصر اليونانى الرومانى ــ المجلد الثانى ــ الهيئة العامة للكتاب ص ٤٨١ ٠

١٣ ــ مجموعة من العلماء — الهيئة العامة للكتاب ص ٤٦٥ ٠

ويلاحظ أننا قدمنا اسم آريوس حيث رأينا أن ذلك أفضل لتفهم موضوع الخلاف أولا والذى قام البطل المصرى بعد ذلك بتفنيده ٠

١٤ ــ د٠ حسين فوزى — المرجع السابق ص ١٣٥ ٠

١٥ ــ أحمد حسين — المرجع السابق ج ٢ ص ٣٩٦ ٠

١٦ ــ سيد قطب — نحو مجتمع اسلامى ــ دار الشروق الطبعة الرابعة ١٩٧٩ ــ ص ٤٠٥ ٠

١٧ ــ محمود لطفى — الأدب العربى فى مصر من الفتح الاسلامى الى نهاية العصر الأيوبى ــ ١٩٦٧ ــ وزارة الثقافة ص ٣٢ و ٣٨ ٠

١٨ ــ أحمد حسين — المرجع السابق ج ٢ ص ٤٢٢ ٠

١٩ ــ د٠ محمد الطيب النجار — الدولة الأموية فى الشرق بين عوامل البناء وعوامل الفناء ــ دار الاعتصام الطبعة الثالثة ١٩٧٧ ص ١٥٢ ٠

٢٠ ــ د٠ حسين فوزى — سندباد مصرى ــ المرجع السابق ص ٣٦ ٠

٢١ ــ عبد الرحمن الرافعى — مقدمات ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ الطبعة الثانية ١٩٦٤ ــ مكتبة نهضة مصر ٠

٢٢ ــ جان يويوت — مصر الفرعونية ــ المرجع السابق ــ ص ٨٢

٢٣ ــ مجموعة من العلماء — الموسوعة المصرية ــ المجلد الأول ــ المرجع السابق ٠

٢٤ ــ جون ولسون — المرجع السابق ص ٢٣٩ ٠

٢٥ ــ جون ولسون — المرجع السابق ص ٢٤٢ ٠

٢٦ ــ د٠ أحمد فخرى — مصر الفرعونية ــ الطبعة الرابعة ــ مكتبة

الانجلو المصريـــة ـ ١٩٧٨ ص ٣٤٠ و ٣٨٤ و ٤٢٣ ·

٢٧ ـ جون ولسون	المرجع السابق ص ١٤٣
٢٨ ـ جون ولسون	المرجع السابق ص ١٤٣ ·
٢٩ ـ جون ولسون	المرجع السابق ص ٢٨٤ ·
٣٠ ـ جون ولسون	المرجع السابق ص ٣٠٥
٣١ ـ جون ولسون	المرجع السابق ص ٣٠٦ ·
٣٢ ـ جون ولسون	المرجع السابق ص ٤١١ ·
٣٣ ـ جون ولسون	المرجع السابق ص ٣٠٦ و ٣٠٧ ·
٣٤ ـ مجموعة من العلماء	تاريخ الحضارة المصرية ـ العصر الفرعونى ـ المجلد الأول ـ المرجع السابق ـ ص ١٣١ ·
٣٥ ـ د· شفيق غربال	تكوين مصر ـ مكتبة النهضة المصريـــة ـ ١٩٥٧ ص ٦٤ وما بعدها ·
٣٦ ـ د· حسين فوزى	المرجع السابق ص ١٢٢ ·
٣٧ ـ د· حسين فوزى	المرجع السابق ص ١٢٥ ·
٣٨ ـ د· شفيق غربال	المرجع السابق
٣٩ ـ د· حسين فوزى	المرجع السابق ص ١٢٥ و ١٢٧ ·
٤٠ ـ د· محمد الطيب النجار	المرجع السابق ص ١٣٧ ·
٤١ ـ د· محمد الطيب النجار	المرجع السابق ص ١٠١ ·
٤٢ ـ أحمد أمين	ظهور الاسلام ج ١ الطبعة الخامسة ١٩٧٨ ص ١٤٠ ·
٤٣ ـ د· سعيد عبد الفتاح عاشور	المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليـك ـ دار النهضة العربية ـ الطبعة الأولى ١٩٦٢
٤٤ ـ علماء الحملة الفرنسية ترجمة زهير الشايب	مكتبة الخانجى ـ الطبعة الثانية المجلد (١) ـ ١٩٨٠ ـ المصريون المحدثون ·
٤٥ ـ د· حسين فوزى	المرجع السابق ·
٤٦ ـ أحمد حسين	المرجع السابق ج ٣ ص ٨٧٢ ·
٤٧ ـ عبد الرحمن الرافعى	تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحـــكم فى مصر ج ١ طبعة رابعة ـ مكتبة النهضـــة المصرية ص ١٠ ·

٤٨ ــ أحمد حسين — المرجع السابق جـ ٣ ص ٩٠٩ ٠

٤٩ ــ أحمد حسين — المرجع السابق جـ ٣ ص

٥٠ ــ أحمد حسين — المرجع السابق جـ ٣ ص ٩١٥ ٠

٥١ ــ عبد الرحمن الرافعى — المرجع السابق جـ ٢ ص ٣٣٦ وما بعدها ــ الطبعة الثالثة ٠

٥٢ ــ عبد الرحمن الرافعى — عصر محمد علي ــ ص ١٦ وما بعدها ــ الطبعة الثالثة ــ مكتبة النهضة المصرية ٠

٥٣ ــ عبد الرحمن الرافعى — المرجع السابق ص ١١٨ ٠

٥٤ ــ عبد الرحمن الرافعى — المراجع فى الأحـــــداث التالية هو كتاب الاستاذ عبد الرحمن الرافعى ــ عصر اسماعيل ــ جـ ٢ ــ الطبعة الثانية ــ مكتبة نهضة مصر ٠

٥٥ ــ شحاته عيسى ابراهيم — عظماء الوطنية فى مصر فى العصر الحديث ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ ١٩٧٧ ص ١٤٩ ٠

٥٦ ــ عبد الرحمن الرافعى — الثورة العرابية والاحتـــلال الانجليزى ــ الطبعة الثالثة ــ الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٦ ص ٥٩٥ ٠

٥٧ ــ عبد الرحمن الرافعى — ثورة ١٩١٩ جـ ١ ــ الطبعة الثانية ــ ١٩٥٥ ص ٢٣٥ ٠

٥٨ ــ شحاته عيسى ابراهيم — المرجع السابق ص ٢١٥ ٠

٥٩ ــ جون ولسون وأحمد فخرى — المرجعين السابقين ٠

٦٠ ــ ول ديورانت — قصة الحضارة ــ جـ ٣ من المجلد الثانى ــ حياة اليونان ص ٨٠ ــ المرجع السابق ٠

٦١ ــ مجموعة من العلماء — تاريخ الحضارة المصرية ــ المرجع السابق ــ المجلد الثانى ــ ص ٧٢ ٠

٦٢ ــ مرجريت مرى ترجمة محرم كمال ومراجعة نجيب ميخائيل ابراهيم — مصر ومجدها الغابر ــ مجموعة الألف كتاب ــ لجنـــة البيان العربى ١٩٥٧ ــ ص ١٤٣ و ١٥٧ ٠

٦٣ ــ ول ديورانت — قصة الحضارة ــ جـ ٣ من المجلد الثالث ــ قيصر والمسيح ص ٩٧ المرجع السابق ٠

٦٤ ــ د٠ سيدة اسماعيل الكاشف ود٠ حسن أحمد محمود — مصر فى عصر الطولونيين والاخشيديين ــ الألف كتاب ــ مكتبة الانجلو المصرية ص ٢٦٤ وما بعدها ٠

٦٥ ـ أحمد أمين ـ ظهور الاسلام جـ ١ الطبعة الخامسة ـ ٩٧٨ ص ١١٤ ٠

٦٦ ـ د٠ سعيد عبد الفتاح عاشور ـ المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ـ المرجع السابق ص ٣٥ و ٨٨ ٠

٦٧ ـ أحمد شلبى بن عبد الغنى الحنفى المصرى ـ تحقيق د٠ عبد الحليم عبد الرحمن عبد الرحيم ـ أوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشاوات الملقب بالتاريخ العينى ـ مكتبة الخانجى بمصر ـ ١٩٧٨ ٠

٦٨ ـ د٠ على لطفى ـ التطور الاقتصادى ـ مكتبة عين شمس ١٩٧٩ ٠

٦٩ ـ د٠ رفعت السعيد ـ الأساس الاجتماعى للثورة العرابية ـ مكتبة مدبولى ص ٢٧ وما بعدها ٠

٧٠ ـ جون مارلو ترجمة د٠ عبد العظيم رمضان ـ تاريخ النهب الاستعمارى لمصر (١٧٩٨ ـ ١٨٨٢) كتاب الساعة ـ الهيئة العامة للكتاب ص ١١٧ وما بعدها ـ طبعة ١٩٧٦ ٠

٧١ ـ عبد الرحمن الرافعى ـ عصر اسماعيل جـ ٢ ـ الطبعة الثانية مكتبة النهضة المصرية ٠

٧٢ ـ جون مارلو ـ المرجع السابق ص ١٥١ ٠

٧٣ ـ عبد الرحمن الرافعى ـ عصر اسماعيل جـ ٢ ـ الطبعة الثانية ـ المرجع السابق ـ ص ٢٥ ٠

٧٤ ـ د٠ عصمت سيف الدولة ـ الأحزاب ومشكلة الديمقراطية فى مصر ٠

٧٥ ـ د٠ عصمت سيف الدولة ـ المرجع السابق ٠

٧٦ ـ د٠ عاصم الدسوقى ـ نحو فهم تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى ـ دار الكتاب الجامعى ١٩٨١ الطبعة الأولى ـ ص ٤١ وما بعدها ٠

٧٧ ـ د٠ عاصم الدسوقى ـ المرجع السابق ص ٤٩ وما بعدها ٠

٧٨ ـ د٠ عصمت سيف الدولة ـ المرجع السابق

٧٩ ـ مجموعة القيادات السياسية ـ الديمقراطية فى مصر ـ ربع قرن بعد ثورة ٢٣ يوليو ـ مركز الدراسات الاستراتيجية بالأهرام ٠

٨٠ ـ د٠ على لطفى ـ دراسات فى التنمية الاقتصادية والاجتماعية ـ مكتبة عين شمس ـ ١٩٧٩ ـ ص ١٣٧ ٠

٨١ ـ د٠ سيد توفيق ود٠ سيد محمد على الناصرى — معالم وتاريخ حضارة مصر من أقدم العصور حتى الفتح العربى ـ دار النهضة العربية ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٧٧ ص ١٤٣ والموسوعة المصرية لمجموعة من العلماء ـ المرجع السابق ٠

٨٢ ـ مجموعة من العلماء — الموسوعة المصرية ـ العصر اليونانى الرومانى ـ المرجع السابق ـ ص ٦٢٢ ٠

٨٣ ـ مجموعة من العلماء — المرجع السابق ص ٦٢٢ ٠

٨٤ ـ مجموعة من العلماء — تاريخ الحضارة المصرية ـ المجلد الثانى ـ المرجع السابق ـ ص ١٨٦ ٠

٨٥ ـ ويلسون — المرجع السابق ص ٢٦٣ ٠

٨٦ ـ أحمد فخرى — المرجع السابق ـ ص ٢٣٧ ٠

٨٧ ـ د٠ عبد الحميد زايد — مصر الخالدة ـ دار النهضة العربية ـ ١٩٦٦ ـ ص ٤٥٦ ٠

٨٨ ـ ول برانت — قصة الحضارة جـ ٢ من المجلد الأول ـ ص ١٦٩ ـ المرجع السابق ٠

٨٩ ـ د٠ أحمد فخرى — المرجعين السابقين ٠

٩٠ ـ ويلسون — المرجع السابق ص ٢٣٦ ٠

٩١ ـ مجموعة من العلماء — المرجع السابق ص ٣٨٢ وما بعدها ٠

٩٢ ـ ويلسون وفخرى — تاريخ الحضارة المصرية ـ المرجع السابق ـ ص ٢٣٠ ٠

٩٣ ـ ويلسون وفخرى — المرجعين السابقين ٠

٩٤ ـ مجموعة من العلماء — الموسوعة المصرية ـ المرجع السابق ـ العصر اليونانى والرومانى ـ ص ٤٦٧ ٠

٩٥ ـ د٠ مصطفى العبادى — مصر من الاسكندر الأكبر الى الفتح العربى ـ مكتبة الانجلو ـ المرجع السابق ٠

٩٦ ـ مجموعة العلماء — الموسوعة المصرية ـ المجلد الثانى ـ المرجع السابق ٠

٩٧ ـ د٠ سيدة اسماعيل كاشف ود٠ حسن أحمد محمود — المرجع السابق ـ وبالنسبة لواقعة قيام كافور بقتل أبناء الاخشيد بالسم يراجع كتاب الحضارة المصرية لمجموعة من العلماء ـ المجلد الثانى ـ المرجع السابق ص ٤١٤ ٠

٩٨ ـ د٠ سعيد عبد الفتاح عاشور — العصر المماليكى فى مصر والشـــام ـ دار النهضة العربية ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٧٦ ـ ص ١٠٧ ٠

٩٩ ـ د٠ سيدة اســـماعيل ود٠ حسن أحمد محمود — المرجع السابق ص ٢٠١ ٠

١٠٠ـ د٠ سعيد عبد الفتاح عاشور — المرجع السابق ص ٢٠١ ٠

١٠١ـ د٠ سعيد عبد الفتاح عاشور — المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ـ ص ٩ و ٩٧ ٠

١٠٢ـ د٠ عبد الرحيم عبد الرحمن — التاريخ العينى ـ المرجع السابق ص ٥ ٠
المرجع السابق

١٠٣ـ علماء الحملة الفرنسية — المرجع السابق

١٠٤ـ ابراهيم أحمد شعلان — الشعب المصرى فى أمثالة العامية ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤ ص ٥٩ ٠

١٠٥ـ جون مارلو — تاريخ النهب الاستعمارى لمصر ـ الهيئـــة العامة للكتاب ـ المرجع السابق ـ ص ٦٣ ٠

١٠٦ـ ألبرت فارمان — مصر وكيف غدر بها ـ ترجمة عبد الفتــاح عنايت ـ المؤسسة المصريـــة العــامة للتأليف والترجمة والنشر ١٩٦٤ ٠

١٠٧ـ محمد عبد الرحمن حسين — كفـــاح شعب ـ المجلس الأعـــلى للشئون الاسلامية ـ ١٩٦٧ ـ ص ٩٢ و ١١٣ ٠

١٠٨ـ د٠ سامى عزيز — الصحافة المصرية وموقفهــــا من الاحتلال الانجليزى ـ دار الكاتب العربى للطباعـــة والنشر ١٩٦٨ ٠

١٠٩ـ عبد الرحمن الرافعى — ثورة ١٩١٩ ـ المرجع السابق ـ ج ٢ ص ٢٠٥ ٠

١١٠ـ د٠ زاهر رياض — المسيحيون والقومية المصرية ـ دار الثقافة القاهرة ٠

١١١ـ عبد الرحمن الرافعى — محمد فريد رمز الاخـــلاص والتضحية ـ الطبعة الثالثة ١٩٦٢ مكتبة النهضة المصريـــة ص ١٢٨ و ٢٠٤ ٠

١١٢ـ د٠ عصمت سيف الدولة — المرجع السابق ٠

١١٣ـ عبد الرحمن الرافعى — فى أعقاب الثورة المصرية ج ٣ الطبعة الأولى ١٩٥١ ـ مكتبة النهضة المصرية ٠

١١٤ـ مجموعة القيادات السياسية — الديمقراطية فى مصر ـ ربع قرن بعد ثورة يوليو ـ والمقالة للاستاذ حسن يوسف ـ مركز الدراسات الاستراتيجية بجريدة الاهرام ٠

١١٥ـ عبد الرحمن الرافعى — ثورة ١٩١٩ ـ المرجع السابق ٠

١١٦ـ عبد الرحمن الرافعى — فى أعقاب الثورة المصرية جـ ٣ ـ الطبعة الأولى ـ مكتبة النهضة المصرية ص ٢٢٥ ٠

١١٧ـ حمدى لطفى — مأساة عبد الحكيم عامر ـ كتاب الهلال ١٩٧٧ ٠

١١٨ـ د٠ عبد العظيم رمضان — مجلة أكتوبر اعداد ٣١١ و ٣١٤ سنة ١٩٨٢ ٠

١١٩ـ كتاب التعاون — ١٥ مايو الثورة والمستقبل وذلك عدا واقعة استيلاء الفنانة برلنتى عبد الحميد على فيلا الدكتور جرانه فهمى منقولة عن كتاب مأساة عبد الحكيم عامر للاستاذ حمدى لطفى ـ المرجع السابق ٠

١٢٠ـ د٠ عصمت سيف الدولة — المرجع السابق ٠

١٢١ـ جون ولسونه — المرجع السابق ص ٣٩٠ ٠

١٢٢ـ د٠ سيد توفيق ود٠ سيد محمد على الناصرى — معالم وتاريخ حضارة مصر من أقدم العصور حتى الفتح العربى ـ المرجع السابق ـ ص ١٧١ ٠

١٢٣ـ جون ويلسون — المرجع السابق ص ٣٠١ ٠

١٢٤ـ مجموعة من العلماء — الموسوعة المصرية ـ المجلد الأول ـ المرجع السابق ٠

١٢٥ـ ول ديورانت — المرجع السابق جـ ٣ ـ المجلد الثانى ص٦١

١٢٦ـ مجموعة من العلماء — الموسوعة المصرية ـ المجلد الثانى ـ ص ٥١٨ ـ المرجع السابق ٠

١٢٧ـ د٠ سيدة اسماعيل كاشف ود٠ حسن أحمد محمود — مصر فى عصر الطولونيين والأخشيديين ٠ المرجع السابق ٠

١٢٨ـ مجموعة من العلماء — تاريخ الحضارة المصرية ـ المجلد الثانى ـ المرجع السابق ٠

١٢٩ـ د٠ سيدة اسماعيل كاشف ود٠ حسن أحمد محود — المرجع السابق ٠

١٣٠ـ محمود مصطفى — الأدب العربى فى مصر من الفتح الاسلامى الى نهاية العصر الأيوبى ـ المرجع السابق ـ ص ٢٠٩ ٠

١٣١ـ أحمد حسين — موسوعة تاريخ مصر ـ المرجع السابق جـ ٢ ص ٦٠٢ ٠

١٣٢ـ د٠ سعيد عبد الفتاح عاشور — المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ـ المرجع السابق ٠

١٣٣ـ د٠ حسين فوزى — سندباد مصرى ـ المرجع السابق ٠

١٣٤ـ عبد الرحمن الرافعى — عصر اسماعيل ـ الطبعة الثانية ١٩٤٨ جـ٢ مكتبة النهضة المصرية ٠

١٣٥ـ عبد الرحمن الرافعى — مقدمات ثورة ٢٣ يوليـو ١٩٥٢ ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٦٤ ـ مكتبة النهضة المصرية ٠

١٣٦ـ د٠ عصمت سيف الدولة — الأحزاب ومشكلة الديمقراطيـة فى مصر ـ المرجع السابق ٠

١٣٧ـ حمدى لطفى — مأساة عبد الحكيم عامر ـ كتاب الهـلال ـ ١٩٧٧ ٠

١٣٨ـ ابراهيم أحمد شعلان — الشعب المصرى فى أمثاله العامية ـ الهيئـة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٧٤ ـ ص ٥٨ ـ نقلا عن كتاب سعد زغلول ـ للعقاد ـ القاهرة ١٩٣٦ ـ ص ٦٦ ٠

١٣٩ـ أحمد أمين — ظهر الاسلام ـ المرجع السابق ـ ص ١٢١ ٠

١٤٠ـ د٠ جمال حمدان — شخصية مصر ـ دراسة فى عبقرية المكان ـ دار الهلال ٠

١٤١ـ مراجع سلبيات الشخصية المصرية مأخوذة عن أحمد فخرى وويلسون وبرستيد (تطور الفكر والدين) من المراجع السابقة ٠

١٤٢ـ مجموعة من العلماء — الموسوعة المصرية ـ المجلـــد الثانى ـ العصر اليونانى الرومانى ـ المرجع السابق ص ٥٦٢ ٠

١٤٣ـ د٠ سعيد عبد الفتاح عاشور — المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ـ المرجع السابق ـ ص ١٦٨ و ٢٣٩ ٠

١٤٤ـ علماء الحملة الفرنسية — وصف مصر ـ ترجمـــة زهير الشايب ـ المصريون المحدثون ـ المرجع السابق ٠

١٤٥ــ د· سيدة اسماعيل كاشف ود· حسن أحمد محمود — مصر فى عصر الطولونيين والاخشيديين ــ المرجع السابق ــ ص ٢٢١ و ٢٨٢ ·

١٤٦ــ د· سعيد عبد الفتاح عاشور — المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ــ المرجع السابق ص ١٠٠ ·

١٤٧ــ علماء الحملة الفرنسية — وصف مصر ــ ترجمة زهير الشايب ــ المصريون المحدثون ــ المرجع السابق ·

١٤٨ــ د· جمال حمدان — المرجع السابق ·

١٤٩ــ محمود مصطفى — الأدب العربى فى مصر ــ المرجع السابق ·

١٥٠ــ ول برانت — قصة الحضارة ــ الجزء الأول ــ المجلد الأول ص ٣ ·

١٥١ــ علماء الحملة الفرنسية — وصف مصر ــ المرجع السابق ·

الجـــزء الثالث

فى وسائل بعث الأمة المصرية

مقدمة

فى الجزء الأول من هذا الكتاب تم استعراض عوامل قيام الحضارة المصرية من النشأة الأولى حتى سنة ٢٠٠٠ ق٠م ٠

وقد قدمنا الأدلة فى هذا الجزء على ان أساس قيام الحضارة المصرية يرجع الى وحدة الأمة حول نظامها (الدينى) الاقتصادى والسياسى والاجتماعى (المختار) وحول قيادتها التى اتصفت بتمثل هذا النظام فى تصرفاتها وكانت القدوة فى تقديم كل مبتكر وجديد ومفيد فى خدمة الأمة مما أثمر ايجابيـات الشخصية المصرية والثراء والحضارة ٠٠

وفى الجزء الثانى من هذا الكتاب تم استعراض أسباب انهيار الحضارة المصرية من سنة ٢٠٠٠ ق ٠ م حتى ثورة مايو ١٩٧١ ٠

وقد قدمنا الأدلة فى هذا الجزء أن السبب فى انهيار الحضارة المصرية يرجع الى فرقة الأمة عن النظم وعن القيادة المفروضـة والتى اتصفت بفرض النظم بقوة البطش والارهاب لتتسلط ولتحصل على ناتج عمل الشعب المصرى لتترفه مما أثمر سلبيات الشخصية المصرية والفقر والتخلف ٠

وفى الجزء الثالث من هذا الكتاب والذى أسميناه (فى وسائل بعث الأمة المصرية) يتم استعراض نظمنا الدينية والسياسية والاقتصادية وقيادتنا الحالية بهدف التعرف على العوامل التى تؤدى الى وحدة الجماهير حولهد لتعيد ، بايجابية ، الثراء والحضارة على ارض مصر ٠

ح ٠ ع

« ولولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم » .

« صدق الله العظيم »

الباب الأول

فى أسباب فرقة الجماهير عن النظم السارية والقيادات الحالية

فى المظاهر الحالية للفرقة وثمرتها

لعل الكثيرين يعرفون متوسط مستوى دخل الفرد فى مصر فاذا تمت مقارنة هذا الدخل بنصيب الفرد من الدخل القومى فى بعض البلاد المتقدمة ، فان هذا يلقى بعض الضوء على شدة هبوط مستوى الانسان المصرى فى الدخل . وفى مستوى المعيشة .

ففى بلجيكا يبلغ نصيب الفرد من الدخل القومى ٧٤٤٩ دولارا فى العام الواحد . أى أن نصيب الأسرة المكونة من خمسة أفراد من هذا الدخل يبلغ ٣٧٢٤٥ دولارا فى العام الواحد (١) .

ويبلغ متوسط دخل الفرد الواحد فى السويد ٨٠٠٠ جنيه فى العام وبذلك يبلغ متوسط دخل الأسرة المتوسطة (خمسة أفراد) ٤٠ر٠٠٠ ألف جنيه فى العام(٢) .

وبطبيعة الحال فان جميع الأسر فى هذه الشعوب تتمتع بسيارتها وبيبتها وبأحدث الأجهزة الحضارية وبوفرة فى الدخل تتيح لها السفر والنزهة والتمتع بمباهج الدنيا .

وليس هذا فحسب ، بل ان هذه البلاد يتمتع أفرادها بحياة سعيدة ، وذلك لحضارية ورفاهية الخدمات العامة بالدولة وعلو شأن انتاجها ووفرته وحسن أخلاق شعوبها .

فالثراء ينعكس على مستوى الاخلاق ، كما أن الاخلاق مع العلم هى التى تجلب الثراء .

وتتلخص مظاهر فقرنا وتخلفنا فى عدم كفاية الانتاج للاستهلاك مع عدم كفاية الخدمات وهبوط مستواها .

اذ تبلغ مساحة مصر حوالى مليون كيلو متر مربع ، كما يبلغ تعدادنا حسب احصاء سنة ١٩٨٠ ، ٤٢ مليون نسمة ونزيد فردا كل ٣٠ ثانية (٣) .

وهذا العدد يلزم انتاج ما يكفيه فى الغذاء والاسكان وكافة السلع والخدمات فى المواصلات والطرق والمستشفيات والأجهزة التعليمية وغيرها ... الخ .

فاذا كان انتاجنا من الغذاء والكساء والسكن والخدمات لا يكفينا بتعدادنا الحالى فكيف يتم تدبير كل ذلك لعدد مليون.وربع مليون نسمة يزيدون سنويا فى تعدادنا ؟

وبطبيعة الحال ، تقوم الحكومة ، مثلها مثل أى رب أسرة لا يكفيه دخله الى

الاقتراض مما قد يغرقنا فى الديون فى أى وقت ثم قد لا نجد من يقرضنا لاحتمال عجزنا عن السداد مستقبلا ...

والذى يجعل هذه الديون ثقيلة على مسيرتنا وعلى مستقبل اقتصادنا أنها فى الغالب تستعمل فى شراء ما يؤكل أو ما يلبس أو ما يستهلك من الخارج دون أن تستعمل هذه الديون فى انشاء وحدات تنتج الغذاء والكساء وكافة مستلزماتنا الخدمية والسلعية حتى يمكن استغلال جزء من انتاجها فى رفع مستوى معيشتنا وزيادة الدخول والباقى يسدد كأقساط للديون .

أى أننا نستدين لنأكل ، ثم فى العام التالى نستدين أيضا لنأكل ، وهكذا .

ولذلك وجب على الأسرة المصرية أن تكف عن الاستدانة للأكل ثم تزيد الاستدانة تبعا لزيادة مليون وربع مليون بطن كل عام تطلب الغذاء .. ثم من أين السداد والسماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ... ثم الى متى ...

أن أى زيادة فى تعدادنا تصاحبها زيادة فى الطلب على الغذاء وعلى الاسكان وعلى الملبس ... الخ . وذلك رغم عدم كفايتها للموجودين ، فتزداد الأسعار ...

ثم يزداد الطلب على العمل فى الحكومة والقطاع العام والخاص فتقل الأجور .

أى تقل القوة الشرائية للأجور مهما زادت أرقامها .

وذلك كله فى اطار مستوى هابط للمعيشة وللخدمات .

وبالنسبة للأرض الزراعية فهى تبلغ ٥ر٩ مليون فدان وبطبيعة الحال فان انتاجها لا يكفينا ولذلك نحن نضطر الى استيراد القمح والذرة والفول والعدس والسكر والزيوت واللحوم والدواجن والألبان والأسماك وتبلغ حاجتنا الى هذه المواد حسب بيانات سنة ١٩٨١ م ما يلى (٤) :

٥ر٤ مليون طن قمح .

١٩٠ الف طن ذرة شامية .

٤٠ الف طن فول .

٦٦ الف طن عدس .

٦٠٠ الف طن سكر .

٢٨٥ الف طن زيوت نباتية .

٧٢ الف طن لحوم حمراء .

٥٨ الف طن لحوم دواجن .

١٥٣ الف طن البان .

١٣٠ الف طن أسماك .

(★) الاهرام الاقتصادى ٦٠٦ فى ١٩٨٠/٨/٢٥ .

وقد بلغ ما استوردناه من مواد غذائية سنة ١٩٨٠ ، ٢ مليار جنيه (٥) .
وبطبيعة الحال نحن نستدين ونقترض للوفاء بجزء كبير من ثمن هذا السلع ..
وضاع نصف ايراد قناة السويس مقابل ما استوردناه من سكر فقط (٦) .

وكل هذا قابل للزيادة وللمزيد من الديون تبعا لزيادة مليون وربع نسمه كل عام .

وفى عام ١٩٨١ م استوردنا مواد غذائية قيمتها مليار و ٨٧ مليون دولار من الولايات المتحدة وحدها (٧) .

وبالنسبة للصناعة فنحن بحاجة الى ٤٠٩٣ مليون جنيه لاستثمارهـا لسد حاجتنا من الصناعات الغذائية من السكر والزيت والمسلى الصناعى (وصابون الغسيل) (٨) .

وسيصل العجز فى السكر ، لو استمر الحال على ما هو عليه الى ٥ر٥ مليون طن سنة ٢٠٠٠ وبسعر الطن الآن حوالى ٨٠٠ دولار (٩) .

ونحن بحاجة الى انتـاج ١٣ مليـون طن صلب سنة ٢٠٠٠ (١٠) وسترتفع احتياجاتنا من الورق من ٣٩٣ ألف طن سنة ١٩٨٠ م الى مليون و ٥١٦ ألف طن عام ٢٠٠٠ أى أربعة أضعاف استهلاكنا الحالى تقريبا (١١) .

ونحن بحاجة الى مضاعفة انتاجنا من الطاقة الكهربية وغيرها لمواجهة احتياجاتنا المتزايدة فى المصانع والورش والانارة ...

وما سبق بيانه هو بعض الأمثلة عن فقر العائلة المصرية وحاجتها الملحة الى مصادر لمضاعفة دخلها لاشباع حاجات الناس ورفع مستوى معيشتهم .

أما عن الخدمات والمبالغ اللازمة لاصلاحها وتجديدها وتطويرها والتوسع فيها لكفاية الأعداد الحالية والأعداد المتزايدة هذا فضلا عن الخدمات اللازم انشاؤها لخدمة الاستثمارات المطلوبة فى شتى المجالات فان تكاليفها لم تحسب بعد ، ولكن تقديرها يعد ببلايين الجنيهات مما يخرج عن امكانية دولة كل همها موجه الى غذاء واسكان شعبها .

أما عن الاسكان فنحن بحاجة الى ٨٣١٠٠٠ الف مسكن والى ٦ر٣ مليون سكن حتى سنة ٢٠٠٠ (١٢) فمن أين يتم تكلفة كل ذلك وغيره بينما عائد البترول وقناة السويس والسياحة والقطن يبلغ ٣ مليار و ٥٠٠ مليون جنيه فقط حسب بيانات سنة ١٩٨١ م (١٣) .

مع ملاحظة أن عائد قناة السويس كله يتجه الى تغطية تكاليف استيرادنا من السكر فى الزمن القصير .

وفى مقابل ذلك بلغت قيمة وارداتنا عام ٨٠ / ٨١ ، ٤ مليار و٧ر١٠٢ مليونا

ما أننا نستورد ما يزيد على ٦٠ فى المائة من احتياجاتنا من المواد الغذائية من
١٤) .

ل هذه النماذج توضح حالة الفقر التى يعانى منها المجتمع المصرى وملخصها
ا ينتج من أملاكنا فى نطاق دولتنا المصرية بالمقابلة الى حاجتنا الفعلية سواء
الغذائية أو الصناعية أو غيرها .

عن التخلف عن مسيرة الحضارة التى تقودها دول العالم الغربى واليابان
صة فهذا شىء يلمسه الجميع .

...

يوجـــد حل بالنسبة للأسرة الفقيرة التى تستدين لتأكل الا بأن يتعاون
ها لزيادة دخلها أو مضاعفته لتغطية كل تكاليفها .

لك الحال بالنســبة للأسرة المصرية فلا يوجـد أى أمل لمضاعفة دخــول
فع مســـتوى معيشــتهم الا بأن يتحد الجميع ، يدا واحدة ، للعمل فى
ات التى من انتاجها تضاعف الدخول ويرفع مستوى الخدمات .

ذه اليد الواحدة ذات القوة البشرية التى تبلغ قوتها ٤٣ مليون مصرى يجب
ـ مساحة الأرض الزراعية لتكون ١١ مليون فدان حتى سنة ٢٠٠٠ وذلك
مليون فدان المنزرعة حاليا والتى تنقص سنويا بمقدار ٦٠ ألف فدان نتيجة
لعمرانى .

ك عدا المياه اللازمة للرى .

ل الدكتور مصطفى الجبل صاحب هذا البيـــان أن نصيب الفــرد الآن
فقط لا يكفى بدليل أننا (بحساب سنة ٧٩) ننتج من القمح نحو ربع
ونستورد الباقى وهو ٤ مليون و ٨٥١ ألف طن ، ثم نستورد ستين ألف
، أى سبعة أمثال ما ننتجه تقريبا ، والفول أصبح لا يكفينا ونستورد منه
طن وسيأتى حين على الأرز أن لا يكفينا وسنضطر لاستيراده وهكذا (١٥) .

رض الممكن استصلاحها للزراعـــة موجودة بوفرة وبالملايين وكذلك ممكن
، اللازمة لريها .

سبيل المثـــال فقد تقدمت احـــدى الشركات بمشروع لنقل مياه النيـــل
طمى عن طريق فتحات مائية بطريق السيفون من الوادى الحالى لاستصلاح
ـ ٢٥ مليون فدان من الأراضى الزراعية الجديدة (١٦) .

ا أنه تم اختيار مساحات قدرها ٢ مليون و ٨١٨ ألف فدان لاستصلاحها
سيناء وشرق الدلتا ووسطها وغربها وفى مصر العليا والوسطى والوادى
(١٠ .

وبالنسبة للمياه اللازمة للرى فانه يمكن توفير حوالى نصف مليار متر مكعب من المياه الجوفيه بالصحراء الغربية وسيناء ، وكذلك حوالى تسعة مليارات متر مكعب بالاتفاق مع السودان لاستغلال مياه أعالى النيل (١٨) ٠

وهناك مشروعات لتحويل مياه البحر الى مياه عذبه صالحة للرى ٠

وذلك كله مع حسن الاستفادة بالمياه وعدم تبديدها ٠

وتقوم الحكومة حاليا باستصلاح آلاف الأفدنة بالصالحية ومنطقة غرب النوبارية (١٩) ٠

ولكن كل هذا الجهد تنفرد به الحكومة وحدها على رغم امكانياتها الضئيلة وتفرق الناس عن مساندة التعمير ٠

بل ، ورغم هذا الجهد وفى مثل هذه الظروف الا أنه لا يمثل علاجا جذريا لاستصلاح ١١ مليون فدان جديدة لزراعتها حتى سنة ٢٠٠٠ ٠

ويجب ألا يغيب عن الذهن أن تكاليف استصلاح ٥ مليون فدان لا تقل عن ١٠ مليار جنيه + طاقة بشرية هائلة واعية بمتطلبات بلدها ومدربة تدريبا عاليا (٢٠) ٠

ومن هنا ، كانت الوحدة بين جميع المصريين لانجاز هذه الأعمال مسألة حياة أو موت بالنسبة لهم ٠

ومع المشروعات الزراعية ستوجد حتما مشروعات اقامة المدن والقرى والمساكن الجديدة ومشروعات استغلال الثروات السمكية فى النيل والبحار الاقليمية والبحيرات الداخلية ومصادر ضخمة للعمل ذات الدخل المرتفع ٠

وبالنسبة للثروة التعدينية ، عدا احتمالات البترول ، فقد أكد العالم المصرى فاروق الباز أن الصور التى التقطتها سفن الفضاء فى رحلاتها أثبتت أن بمصر ٣٦٨ مليون طن حديد و ٥٠٠ ألف طن نحاس و ٢٦٣٠ مليون طن فوسفات كما أكد أن بها اليورانيوم الذى يكفى لتشغيل مصنع بطاقة ١٠٠ طن سنويا هذا فضلا على وجود الكثير من المعادن الأخرى التى اكتشفت والتى لم تكتشف بعد (٢١) ٠

وبطبيعة الحال فنحن بحاجة الى المال والى الطاقة البشرية الواعية بضرورة وحدتها لاستخلاص هذه الكنوز لخيرها ولخير الجميع ٠

وفى السياحة بلغ دخلنا منها فى عام ٨٠ مبلغ ٣١١ مليون جنيه كما يبلغ دخل انجلترا من السياحة ٣٫٨ مليار دولار (سنة ١٩٧٧ م) — وذلك رغم عدم وجود بلد فى العالم كله يضاهى مصر فى ثرائها بالأماكن والآثار السياحية (٢٢) ٠

وانه وان كانت وزارة السياحة تهدف الى زيادة دخل السياحة الى ٢ بليون جنيه بعد خمس سنوات (*) الا أن هذا الكلام ، على فرض امكانية تحقيقه فى ظروف

★ الاهرام الاقتصادى ٦٤٤ فى ١٠/٥/١٩٨١

حكومة وشعب فقير ومتخلف ومتفرق عن تنمية بلده الا أن السياحة هى كنز مصر الأكبر وهى أمل مصر على وجه محقق ، لجلب أكبر نقد أجنبى يمكن به الاسراع فى عملية التنمية الشاملة ٠

والسر فى ذلك أن مصر بدأت تاريخها منذ ٢٠ ألف سنة قبل الميلاد تاريخ ظهور الانسان بشكله الحالى ، وظل الانسان المصرى منذ ذلك التاريخ وحتى سنة ٦٠٠٠ ق ٠ م ٠ يعيش فى قبائل رحل بحثا عن القوت بينما الأمطار تنهمر معظم أيام السنة والأرض مليئة بالغابات والمستنقعات والوحوش والحيوانات ٠ ولم يكن نهر النيل قد حدد مجراه ، لذلك لم يكن هناك صحراء سواء فى الشرق أو الغرب ٠

وهذه هى المرحلة الأولى التى عاشها المصرى ٠

أما المرحلة الثانية فتبدأ من سنة ٦٠٠٠ ق٠ م٠ حيث بدأت تضاريس مصر وأجواؤها تتخذ الشكل الحالى تقريبا ، فاستقرت القبائل على ضفاف النيل بعد أن اكتشفف الزراعة وكونت قرى ظلت تتوسع على حساب من جاورها حتى تكونت دولة مصرية للشمال ودولة مصرية للجنوب لم تلبثا أن اتحدتا اتحادا نهائيا سنة ٣١٠٠ ق٠م ٠

ثم يبدأ تاريخ مصر الموحدة من سنة ٣١٠٠ ق٠م بدءا من الأسرة الأولى ويستمر حتى الأسرة الثلاثين ، وهى آخر أسرة حكمت مصر قبل احتلالها على يد الاسكندر المقدونى سنة ٣٣٢ ق ٠ م ٠

وهذه مرحلة الحكم الوطنى ٠

ثم تبدأ مرحلة الحكم الأجنبى لمصر من سنة ٣٣٢ ق ٠ م حتى مجىء الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٧ م حيث تبدأ القومية المصرية فى النهوض من سباتها لتبدأ مرحلة الكفاح الوطنى لتولى المصريين حكم أنفسهم مرة أخرى الى أن تنتهى هذه المرحلة فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ م على يد الثورة ٠

ومن ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ م وحتى الآن فهى مرحلة التجارب الوطنية للباوغ بالانسان المصرى الى الحياة الأفضل ، سواء فشلت كثير من هذه التجارب أو نجحت ٠

وهذه المراحل التى عايشها الانسان المصرى حدثت فيها أشياء وأشياء من الممكن اعادتها الى الحياة ، وفى نفس أماكن حدوثها على قدر الامكان ، وبالأجهزة والأدوات والملابس والأجواء التى كانت سائدة فى كل مرحلة حيث يقوم الممثلون بنفس الأدوار فى القبيلة ورئيسها والأساطير الدينية واجتهادات الملوك ومكائد الكهنة ومحاولات الوحدة والفرقة ، ونعرض ماذا أسعدنا وماذا أشقانا عبر القرون ٠٠٠٠

نعرض قصة مصر مع نظمها السياسية والإقتصادية والاجتماعية والدينية وتدرج هذه الأنظمة من واقع التجارب الفطرية للناس حتى أواخر الدولة القديمة ،

ثم نتعرض للثورة الاجتماعية الأولى وما حدث فيها وأقوال رجال الثورة وما انتهت اليه هذه المبادىء .

ثم نعرض كيف تم وأد هذه المبادىء فى الأسرة الثانية عشرة ثم ما أدى اليه ذلك من فرقة الشعب فغزوة الهكسوس فموت القوة الدافعة للروح المصرية .

ونعرض كيف نشأ السحر والكذب والنفاق والرهبنة والتصوف والمخدرات .

نعرض قصة سيدنا ابراهيم ويوسف وموسى فى مصر .

نعرض بطش وترف الغاصب بالمقابلة بخوف وفقر الشعب .

كل هذا وغيره ممكن أن نعايشه بنفس أجوائه مع تجديد آثارنا واعادة الحياة الى كل قطعة منها وتحسين وانشاء الخدمات المؤدية اليها ووسائل الترفيه حولها ونشاهد كل ذلك مع جميع الزائرين من جميع أنحاء العالم .

وأن عملية قلب مصر الى دولة سياحية لتتطلب تضافر جهود الأمة فكرا وجهدا ومالا .

فى معوقات حل مشكلة الفقر والتخلف

١ ـ فى نوعية القوى العاملة

الانسان المصرى هو ثروة مصر الأساسية وفى نفس الوقت هو مصدر شقائها وتخلفها .

فنحن نزيد بمقدار فرد كل ٣١ ثانية وبمقدار مليون وربع كل عام (٣) .

ومصدر شقاء مصر بهذه الزيادة أن كل مولود يحتاج الى غذاء وكساء والى دواء والى مكان فى المدرسة وفى المواصلات ويحتاج الى عمل فتكوين أسرة فمسكن له ولأولاده .

وهذا فى الوقت الذى لا تكفى فيه مواردنا وخدماتنا لاعدادنا الحاليا فما بالك بالمليون وربع الزيادة كل عام .

أما عن أن هذا الانسان ، فى الجانب الآخر ، هو الثروة الأساسية فى مصر فذلك لأن بيده وحدة اشباع حاجات نفسه وحاجات كل المصريين الآن ومستقبلا والى ما بعد سنة ٢٠٠٠ سواء فى غذائه أو كسائه أو سكنه أو خدماته ... الخ .

وأسباب شقاء مصر بأبنائها يرجع الى : ـ

١ ـ أنهم يزيدون بصورة لا تتفق مع الموارد المتاحة لهم .

فليس المفروض أن كل أسرة تحدد نسلها تبعا لامكانياتها المالية فحسب ، بل هذا أيضا مطلوب على نطاق جميع الأسر . أى على نطاق الدولة كلها .

٢ ــ أن مصر تعد من أكثر البلاد اعالة للغير بدون مشاركة هــذا الغــير فى الانتاج (٢٣) ٠

وذلك أن الأسرة ومعها الدولة تظل تنفق على المولود الجديد لمددا قد تطول الى سنوات طويلة حتى يتمكن من كسب قوته بنفسه ومشاركته فى الانتاج ٠

اى أن هؤلاء المواليد الجدد المتزايدين فى كل نصف دقيقة يظلون عاله على الانتاج والخدمات الحالية غير الكافية ويأخذون من كد الجيل العامل وأجر عمله (القليل) دون أن يبذلوا أى جهد فى الانتاج وذلك لمدد طويلة تفوق بكثير نسبة الاعالة فى البلاد المتقدمة ٠

وفى هذا افقار للانسان العامل وتضييق عليه فى حياته وحرمان له من الكثير من السلع والخدمات ٠

٣ ــ تبلغ نسبة الأمية فى مصر أكثر من ٧٠ فى المائة وبمصر أكثر من ٣٠ مليون أمى (٢٤) وهذا يعنى عدم مشاركة هذه القوة الهائلة فى الانتاج والخدمات التى تتطلب نوعا من المعارف الواجب قراءتها ٠

فهى عمالة يدوية وغير فنية فى غالب الأمر بينما التطور يتطلب تدريبا على استعمال الآلات والأجهزة الدقيقة ونوعا من المعارف المتخصصة التى لا يمكن هضمها الا بخلفية ثقافية ٠

٤ ــ ان انتشار الأمية والجهل بهذه الصورة يعنى وجود مجتمع غير متفاهم ٠

فالمثقف لا يتيسر له التعامل مع هذه النوعية من الناس مما لا يساعد على التقارب والانسجام بين القوى البشرية ٠

وذلك أن من طبيعة الحال أن يكون للأمى والجاهل مفهومه الخاص عن متطلبات الحياة وعن دور الحكومة ودور الناس ثم الجهل بكل ذلك وبتعاليم الدين بينما لو أمكن تعليمه وتثقيفه وتوعيته لانقلب الى طاقة هائلة جبارة ٠ تمد يدها باقتناع لكل المثقفين لاعادة بناء مصر الحديثة ٠

٥ ــ انه ليس معظم القوى البشرية فى مصر أميين وجزء كبير منهــا عالة على غيرها فحسب ، بل أيضا فان (معظم) الثروة البشرية فى مصر تكاد تكون معطلة تماما ٠

فالزراعة الحالية يعمل بها ٤ مليون رجل ممكن باستعمال الميكنة الحديثة توفير أكثر من النصف (٢٥) ٠

بل انه من الممكن ، حتى بدون الميكنة الحديثة ، توفير الكثير والكثير لعدم حاجة الانتاج الزراعى الى خدماتهم ٠

وفى السويد ١٣ مليون فدان للزراعة يقوم على زراعتها ٨٠٠٫٠٠٠ نسمه فقط لاستعمال الميكنة بينما يقوم عندنا ٤ مليون رجل لزراعة ٥٫٩ مليون فدان (٢٦) ٠

وبالنسبة للوظائف فى الحكومة والقطاع العام فان بها أكثر من مليونين من الموظفين يمكن توفير نصفهم على الأقل وذلك لأن المستغنى عنهم عمالة زائدة نتيجة لاضطرار الحكومة الى (تشغيلهم) بينما لا يوجد عمل لهم هذا عدا البطالة المقنعة المنتشرة فى الأعمال التافهة غير الانتاجية بين الباعة الجائلين وغيرهم (٢٧) ٠

٢ ـ فى الفرقة عن الحكومة والقيادة : ـ

يزود القطاع العام البلاد بما يزيد عن ٩٠ فى المائة من حجم الادخار المستثمر ويقع عليه أكبر عبء فى تطوير الانتاج وفى زيادته (٢٨) ٠

وليس هذا فحسب ، بل ان الحكومة هى المسئولة عن مصر كلها بثرواتها المستغلة والتى لم تستغل بعد وهى أيضا المهيمنة ، سواء بطريق مباشر أو غير مباشر ، على كافة الأنشطة العامة والخاصة ٠

وبهذا تكون فرقة الناس عن الحكومة وتباعدهم عنها انما هى ، فى واقع الأمر ، فرقة عن المثل الأوحد لهم فى ثرواتهم القومية والتى فى حسن استغلالها واستثمارها أملهم الأوحد فى الحياة الأفضل ٠

ولا نقول هذا الكلام الا لنواجه الحقيقة والواقع معا ٠

وذلك ان المصريين ، اذا أرادوا أن يعيشوا كالبشر الذين يعيشون فى بلجيكا وفى السويد فانه يلزمهم اعادة بناء بلادهم ، بسواعدهم الجماعية ، سواء لمضاعفة الرقعة الزراعية أو لانشاء المصانع اللازمة لاشباع حاجاتهم فى كافة السلع أو لعمل المنشآت الخدمية والاستثمارية فى كافة المجالات اللازمة لحياة انسان القرن العشرين ٠

وكل هذا ممسوك بمعرفة الحكومة ولا يمكن انجاز أى شىء فى المجالين المادى والبشرى الا بمعونتها ، بل وبقيادتها أيضا ٠

فاذا تفرق الناس عن الحكومة فان هذا يعنى تباعدهم عن ثرواتهم القومية وعن تنفيذ متطلبات التنمية الشاملة مما يؤكد فقدهم الأمل نهائيا فى أى تحسين لأحوالهم ٠٠٠

بل لعل المؤكد أن الأحوال ستسير عاجلا الى الأسوأ مع قدوم مليون وربع مصرى كل عام لا يوجد لهم سكن أو غذاء أو عمل أو منشآت تعليمية ٠٠٠ الخ ٠

ورغم هذه الحقيقة الواضحة للعيان فان الناس متفرقون عن الحكومة ومتباعدون عنها ٠٠٠

بل وأكثر من هذا ، فان الكثيرين ينظرون اليها نظرة عداء ويرون كل ما ينسب اليها من أملاك عامة أو قوانين أو تشريعات أو تصريحات أشياء يجب مهاجمتها بكل الوسائل العلنية أو الخفية ٠

وهناك (مثل) يتصف باستعمال ألفاظ جنسية غير لائقة عن كيفية تحطيم كل ما يتعلق بالحكومة خفيه دون أن تجعلها تكشف ذلك .

وقد يكون السبب فى ذلك النظرة المتوارثة عن حكومات الاحتلال ، أو بسبب عدم الثقة لكل من تولى السلطة تبعا لاستمرار حالة الفقر والتخلف .

وأيا كان السبب فان المحصلة النهائية هى استحالة تغيير وجه مصر الى الأفضل مع هذه الفرقة ، والعداء مع الجهاز المسئول عنا وعن ثرواتنا القومية .

ورغم أن الحكومة ، من الوجهة الفقهية ، هى جهاز تنفيذى للجهاز التشريعى بمجلس الشعب ، الا أن الناس اعتادت أن تنظر الى كافة القوانين والنظم واللوائح على أنها مفروضة من الحكومة ومن ثم (فحلال) مخالفتها .

ولما كانت معظم أجهزة الاعـلام فى الاذاعة والتليفزيون والصحافـة مملوكة للحكومة (دون اعتبار أنها من الممتلكات الشعبية القومية) فهى أيضا لا تسمع أو تقرأ بالجدية المتفقه مع خطورة ما يقال او يكتب فيها .

ثم تلصق كل أسباب الفقر والتخلف بالحكومة وحدها .

ولأسباب (نفسيه وتاريخية) يتناسى الناس أن أى حكومة ستكون عاجزة تماما عن ازالة وصمة الفقر والتخلف من كل أسرة على أرض مصر بدون وحدة جماعير الأمة المصرية فى يد واحدة لوضع خطة للتنمية الشاملة وتنفيذها بأنفسهم .

ولكن لعلهم يجدون فى لصق المسئولية عن فقر الأمة وتخلفها (بأى حكومة) راحة لضمائرهم أمام أنفسهم وأمام الغير وأمام خالقهم .

فهم المغلوبون على أمرهم رغم حكمتهم التى لم تتح لها الفرصة لرئاسة مجلس الوزراء لتحقيق الرخاء للأسرة المصرية التى يشكل معظم أفرادها قوة غير منتجة تأخذ ولا تعطى .

٣ ـ فى الفرقة عن النظام والقانون :

توضع نظم وقوانين اقتصادية وسياسية واجتماعية .

كذلك يتم الاستفتاء على الدستور وعلى الموضوعات القومية .

وتوضع قوانين فى المجالات المدنية والتجارية والجنائية ... الخ .

وتوجد قوانين تحدد علاقات الناس بعضهم مع بعض وعلاقاتهم مع الحكومة وعلاقات الأجهزة الحكومية بعضها مع بعض .

ولكن الانسان فى فرقة ، فى معظم الحالات ، عن هذه النظم والقوانين .

فهو يخالفها ان وجد فى ذلك مصلحة له أو مصلحة لأهوائه .

والواضح انه ليس هناك ما يحترم من كافه النظم والقوانين الا اذا تصادف أن اتفقت بعض بنودها مع مصالحنا الشخصيه ٠

أما اذا تعلق الموضوع بمصلحة عامة وفيه أداء تكاليف علينا لهذه المصلحه العامة فان أول ما يتبادر الى الذهن هو (المخالفة) ٠٠

وكل اتخذ الهه هواه ٠٠٠

وفي هذا يقول الحق تبارك وتعالى (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) أى التزموا بطاعة الصراط والنظم التى امر سبحانه وتعالى البشر باتباعها ولا تتفرقوا عنها ـ وذلك أن الوحدة لا تتحقق أبدا الا حول نظام حيث يلتزم الجميع بطاعته ولا يتفرقوا عنه ٠

هنا تكون الوحدة الحقيقية بين البشر أما الفرقة فهى أن يتخذ كل انسان الهه هواه ـ أى يتبع شهواته ومصالحه الشخصية وآراءه أيا كان فيها اضرار بالغير ٠

هنا تكون الفوضى والفرقة ٠

فالوحدة ، بطبيعتها ، لا يمكن تصورها الا حول نظام يلتزم الجميع بطاعته ٠

لذلك أنت تلاحظ أن الحق تبارك وتعالى قد صور الفرقة على أنها (حفرة من النار) أما الوحدة والاتحاد فقد صورها الرحمن على أنها نعمة ٠

ولقد كان العرب قبل دخولهم فى الاسلام فى فرقــة وفى صراعات وحروب وكراهية وتنابذ أشد مما نحن عليه اليوم فى فرقتنا ٠

وهذه الفرقة التى صورها الرحمن تبارك وتعالى فى كتابه العزيز على انها حفرة من النار انما كانت نارا فعلا فيما جلبتــه عليهــم من فقر وتخلف وآلام وهوان الى درجة أن كلا من شعبى دولتى الروم والفرس كانا متفقان تماما على احتقار كل ما هو عربى وكل من ينتسب الى جزيرة العرب ٠

ولكن الحق سبحانه وتعالى أنقذ هؤلاء القوم من حفرة الفرقة ونيرانها الى نعمه الوحدة حول صراطه المستقيم ٠

فأصبح هؤلاء المؤمنين ، بنعمة الالتفاف حول كتابه والعمل بأحكامه ، اخوانا متحابين لا يفرقهم دواعى البغضاء والتقاتل والتصارع التى كانوا عليها من قبل ٠

(واعتصموا) ـ وهذا أمر واجب النفاذ وحرام مخالفته ـ واعتصموا ـ أى التزموا بطاعة (حبل الله) أى ما أنزل من نظم وأحكام وتكاليف عقائديه وتعبدية وأخلاقية وفى المعاملات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ـ (ولا تفرقوا) أى لا تخالفوا هذه النظم حتى لا تعودوا الى فرقتكم الأولى فتشقوا بهــا ـ « واذكروا نعمــة الله عليكم اذ كنتم أعداء فالف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا » ٠

هنا نجد التصوير الحقيقى لما تحققه طاعة النظم والقوانين بين الناس ، اذ بمجرد

أن يصبح هذا التجمع مطيعا لنظمة فان الألفة والمحبة والوحدة تتحقق (تلقـائيا) بين الناس ٠

ولما كانت رسالة السماء تتناول كافة العلاقات الانسانية فى شتى المجالات وبدءا من علاقات الأسرة حتى علاقات الدولة ، وفى اطار من الايمان بالله سبحانه وتعالى ، فهنا يصبح المجتمع المؤمن بالرســالة يقـوم بمزاولة كافة مهامة وأعمـاله وتصرفاته فى حدود الصراط المستقيم ـ وهنـا ينتفى أى خلاف بين البشر ويطمئن الانسان على نفسه وعلى ماله وعلى عقيدته وعلى مشاعرة وعلى كرامته لأن كل ذلك محدد له أحكامه التى يلتزم بطاعتها الكافة ٠

فيسود العدل ويفشو الاطمئنان فى الأنفس ٠

وهنا تتحقق الوحدة والمحبة والتآلف بين الناس وهذه هى (النعمة) التى حلت بالناس بدلا من العداء والبغضاء الذى كان سائدا بينهم قبل التفافهم حول رسالة السماء ٠

ورغم ذلك فان المعروف أن هناك مبدأ فى رسالة السماء يقول انه لا تشريع الا بما يطاق ٠

اى أن الحق تبارك وتعالى لم يكلف الناس فى صراطه المستقيم الا بما يقدرون على أدائه فعلا فى حدود طاقتهم التى هو ، جل شـــأنه ، العليم بهـا بحكم خلقه للانسان ٠٠٠ (ولا يكلف الله نفسا الا وسعها) ٠

وعلى هذا فان وحدة البشرية حول رسالة السماء ليست من الأعمال الشاقة التى تخرج عن طاقة الانسان ، ولكنها وحدة حول (حبل) و (صراط) و (شريعة) راعى واضعها سبحانه وتعالى انها تدخل فى طاقة وفى قدرة الانسان ٠

٤ ـ فى غياب مفاهيم الوحدة والتعاون :

يقول الله سبحانه وتعالى « يا أيها الناس أنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم » ٠٠

ويقول عليه الصلاة والسلام (خير الناس أنفعهم للناس) و « الله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه » ٠

ويقول الله ســبحانه وتعالى « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونـوا على الأثم والعدوان واتقوا الله ان الله شديد العقاب » ٠

« ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين » .

ولكن ، هل هذه الوحدة قاصرة على المسلمين فقط ؟

اذا كان الأمر كذلك فكأننا لم نفعل شيئا الا أن فرقنا بين أولاد العمومة وأولاد الوطن الواحد وهو ما يتنافى مع عوامل بعث الأمة المصرية .

انما الوحدة والاتحاد تشمل كل اتباع الدين الواحد أى اتباع الشرائع السماوية كلها كما سيرد عن ذلك مزيد من البيان .

ونعود الى عوامل بعث هذه الأمة التى هى جزء من البشر فى كل مكان وفى كل زمان ولا تختلف فى شىء ، ان لم تزد فى نواح كثيرة ، عن القبائل المتنابذة المتصارعة، المتقاتلة ، فى جزيرة العرب ثم انقلب ذلك كله الى وحدة حول نظام الرحمن فحلت المحبة والألفة بينهم حيث تمكنوا بهذه الوحدة من صنع الرخاء والتقدم والعزة والمنعة لأنفسهم .

ولهذا قلنا أن مشكلة الفقر والتخلف ليس سببها الا الفرقة الموجودة فعلا داخل الأمة المصرية ، وأنه لو تم علاج مشكلة الفرقة لما استحال على وحدة الأمة المصرية أن تصل الى ما يزيد عما بلغتها أعظم دول عالم اليوم من رفاهية وعلوم ومعارف .

ولقد سبق أن تعرض هذا الكتاب لفترة (مصر المسيحية) وأيا كانت الدوافع التى أملت على السلف موقفهم بالنسبة للمحتل الرومانى ، الا أن المسيحية ، فى بدء انتشارها ، حققت الوحدة بين أتباعها حيث أدت بهم الى الاستهانة بالموت فى سبيل سيادة كلمة الله .

ولو اتجهت وحدة السلف فى مصر المسيحية الى النواحى السياسية ، أى لطرد الغازى الرومانى وتحقيق الاستقلال لمصر ، لتغير وجه التاريخ تماما .

وذلك أنه لا يوجد ما يسمى بالمستحيل فى مواجهة وحدة أى أمة .

وليس هذا الكلام قاصرا على رسالات السماء فحسب ، بل انه ينطبق ، بلا جدال ، على العقائد (والايديولوجيات) الوضعية أيضا .

وعلى سبيل المثال فاذا تأملنا فى اتباع المذاهب الشيوعية فانك تجدهم يشكلون الخلايا السرية .

ثم تجد أنهم يطلقون على بعضهم لفظ (رفيق) أى زميل وحتى يوهمون أنفسهم والأعضاء الجدد أن الكل سواسية والكل عمال دون أى تفرقة بين الناس .

وهم يتحدون حول الفكر الشيوعى الخاص بهم .

ونفس الشىء بالنسبة للأحزاب الحرة فى الدول الديمقراطية ، فلولا التفاف أعضائها حول نظام الحزب وحول القيادات لما قامت لهذه الدول قائمة .

ولقد سبق بيان ما انتهى اليه المؤرخ الفيلسوف أرنولد توينبى من أن السر فى قيام الحضارات يرجع الى التفاف الجماهير حول قيادتها القدوة (ص من الكتاب) ، ومن طبيعة الأمور أن تكون هذه الوحدة على أساس التزام الكافة بطاعة نظامها - اذ لا وحدة بلا نظام كما سبق البيان ٠

ولقد قدمنا الدليل العملى على ذلك من واقع تاريخنا القومى من النشأة الأولى وحتى سنة ٢٠٠٠ ق ٠ م - اذ فى هذه المرحلة نجد تحقق وحدة الأمة المصرية حول النظام (الماعث) بصدق وعدالة وحول قياداتها القدوة ٠

ثم قدمنا بعض ما انجزته هذه الوحدة من أعمال يكاد يعجز عن اتيان مثلها عالم اليوم رغم تفوقة العلمى والتكنولوجى ٠

وكل ذلك تم بفكر وبجهد وبمال مصرى خالص وفى وقت كان سكان الكرة الأرضية يعيشون فى بدائيتهم الأولى ٠

وهنا لعلك تلاحظ (خطورة) وحدة الأمة المصرية فى عالمنا المعاصر اذ لو تمت لتغيرت موازين القوى فى هذا الكوكب ٠

ولعل ذلك يرجع الى أشياء لم نتوصل بعد الى معرفتها فى أنفسنا ، اذ الملاحظ ، أنه فور انجاز وحدتنا ، خاصة وحدتنا الدينية فى الأسرة الثانية من العصر العتيق ، (ص ٧٩) انطلق الفكر الخلاق النابع من بيئة يسودها الاطمئنان على النفس وعلى الرزق وعلى العقيدة وعلى كرامة الانسان ومشاعره ٠

وهنا حققت مصر ما كان يعد مستحيلا فى نظر شعوب الأمس وشعوب عالمنا المعاصر ٠

ورغم وضوح كل ذلك ، فـانك تجد أن غالبية الأمة المصرية تنفر من الوحدة وتؤثر العمل الفردى لجلب الكسب أو القوت والرزق لنفسها فقط دون النظر الى ما وراء ذلك مما كان سببا فى تخلفها وفقرها وهوانها ٠

ولا يعنى ذلك أن هذا الشعب لا يعرف أن سر ثراء كل أسرة يكمن فى وحدة (الجميع) فكرا وقلبا وجهدا لاستصلاح خمسة ملايين أفدنه وقلب مصر الى دولة سياحية مع الشباء وتجديد ما يلزم من خدمات ومؤسسات استثمارية واعداد الانسا المصرى نفسيا وفكريا ومهنيا لانجاز كل ذلك ، ولكن الناس تعلم أن هذه الو- رغم أنها السبيل الأوحد للقضاء على مشكلتى الفقر والتخلف ، الا أنها (مستحيلا التحقيق فى نظرهم وذلك لوجود عوائق تحول دون تحقيقها ٠

ومن هنا يكون تحقيق الوحدة متوقفا أولا على القضاء على العوائق التى ير الناس أنها تحول دون تحقيقها ٠

وكما سبق البيان فى الجزئين السابقين فان معيار الوحدة أو الفرقة يكمن فى مدى التفاف الناس حول النظام والقيادة أو فى فرقتهم عنها ٠

وهنا يكون عندنا ثلاثة أطراف :

١ ــ النظام ٠

٢ ــ القيادة ٠

٣ ــ الناس ــ أى أنا وأنت ٠

فهل عوائق وحدة الناس كامنة فى النظم السارية الآن سواء فى المجالات السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الدينية ؟

أو ان عوائق الوحدة كامنة فى القيادة الحاكمة ؟

أو أن عوائق الوحدة كامنة فى أنفسنا ؟

وهنا لا بد أن نتناول كل طرف فى هذا الموضوع لعلنا نجد فى ذلك العائق الذى ينفر الناس من الوحدة ويجعل تحقيقها من (المستحيلات) وذلك فى ضوء الدروس المستفادة من تاريخنا القومى السابق بيانه فى الجزئين الأول والثانى من هذا الكتاب ٠

فى النظام الحالى

سوف نتكلم عن النظام الحالى من زاويتين ، الأولى خاصة بالمصدر ، أى بواضع النظام والثانية خاصة بالخطوط الأساسية للنظام فى كافة المجالات أى فى مضمون النظم السارية وذلك دون الدخول فى التفاصيل لأن هذا يخرج عن مجال هذا الكتاب مع ملاحظة التزام الكاتب باستعمال الألفاظ التى تؤدى الى المعنى مباشرة دون التقيد بالألفاظ والمصطلحات الأكاديمية .

اولا : فى الفرقة تبعا لتعدد مصادر التشريع :

سبق أن ذكرنا فى الجزء الأول من هذا الكتاب أن الانسان المصرى آمن ، منذ أكثر من ستة آلاف سنة على الأقل ، أن كل ما توصل اليه بفكره وبتجاربه الدنيوية فى شتى المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية انما هو صادر من الاله (رع) نفسه .

وبطبيعة الحال لم يقم الانسان المصرى بصنع هذه العقيدة ، انما اتجه الى الايمان بها ، وعلى التدرج ، وفقا لفكر الكهنة والأساطير المتوارثة .

وهذا يفسر لك اعتقاد القوم أن الاله (رع) هو خالق مصر وأول حاكم لها (بعدالة) وفقا للقانون الذى سنه — وفى الحقيقة لم يكن هذا القانون الذى سنه الاله (رع) الا ثمرة تجارب السلف مع كافة النظم الى أن انتهوا الى النظام الأصلح فى شتى المجالات وفقا للانتخاب الطبيعى بين النظم ثم أضفيت على هذه الأنظمة القدسية الدينية .

ويرادف كل ذلك كلمة (الماعت) وهى تعنى أيضا نفس الشىء من حيث نظام الكون ونظام المعاملات الشخصية والعامة ، ونظام الأخلاق خاصة أخلاق الصدق والصراحة والأمانة .. والعدل .

وكل هذا سنه الاله رع حسب عقيدة القوم أو سنه الناس وفقا لتجاربهم الدنيوية حسب علمنا المعاصر .

ومنذ القدم كان الانسان المصرى يؤمن أن طاعته لأبيه واحترامه لأمه ومحبته لأخوته واحترامه لكبار السن وللجيران مع التزامه بعدم الاضرار بالغير واعطاء كل ذى حق حقه .. انما كان يتبع ما يأمر به الاله .

وأكثر من هذا فان علاقته بالدولة ويمثلها الملك نفسه انما كانت علاقة الطاعة والولاء الدينى الشديد خاصة وأننا نعرف أن الملك ، ممثل الحكومة الدنيوية كان أيضا ممثل الاله نفسه ، مالك الملك فى الآخرة .

وهنا لم يكن هناك أى انفصال فى الشخصية المصرية بين ما اصطلح على تسميته بالنظم والقوانين الوضعية ، أى من صنع البشر . وبين ما يرجع مصدره الى الخالق نفسه .

فكل من عند (الله) .

وبهذا الفهم يمكن أن نقرر أن مصر كانت دولة دينية سواء فى مجالات الحكم أو السياسة أو فى العلاقات الاجتماعية .

ولقد استمرت الصبغة الدينية ملازمة لكافة التشريعات والنظم منذ فجر التاريخ المصرى وحتى تولى محمد على حكم مصر فى مايو سنة ١٨٠٥ حيث بدأت ، على التدرج، تحل القوانين الوضعية محل القوانين والنظم الدينية .

وفى الجزء الأول من هذا الكتاب قدمنا ان أساس حضارة مصر ورفاهيتها وتقدمها حتى سنة ٢٠٠٠ ق.م كان بسبب ايمان القوم بأن كافة النظم والتشريعات الموجودة فى بلادهم كان مصدرها الدين .

وهنا تحقق للنفس المصرية وحدتها وهذا هو مايجب السعى الى استعادة تطبيقه وبمراعاة ظروف العصر بطبيعة الحال .

وذلك انه عندما تتفرق الشخصية المصرية بين نظم وتشريعات مصادرها دينية وبين نظم وتشريعات مصادرها وضعية وبين عادات وتقاليد وأعراف ، فهنا تحدث الفرقة داخل الشخصية المصرية ذاتها بين ما هو واجب العمل به دينيا ثم هو غير واجب العمل به بالنسبة للتشريعات الوضعية وما جرى عليه العرف ، وبين ما هو مباح العمل به حسب التشريعات الوضعية وما جرى عليه العرف وبين ما هو محظور حسب التشريع الدينى .

هنا يمكن مخالفة النظام والقانون الوضعي والعرفى دون خوف من الرحمن ، كما يمكن مخالفة التشريع الدينى دون خوف من البشر .. وهكذا .

وعندما (نؤمن) جميعا بالدين كمصدر أوحد لتشريعاتنا فهنا تتحقق وحدة النفس المصرية فحضارتها وتقدمها .

وهذا هو قدرنا لو (أردنا) بعث أمتنا .

أى أن (العيب) الأول الموجود فى نظامنا الحالى (الرسمى وغير الرسمى) من ناحية المصدر ، يكمن فى تعدد مصادر التشريع بين ما هو دينى وبين ما هو وضعى وبين ما هو نابع من العادات والتقاليد وبين ما هو نابع من اختلافات رهيبة داخل التشريعات الدينية (اسلامية ومسيحية) والتشريعات والأفكار والعقائد الوضعية .

وتعدد مصادر التشريع بين ماهو دينى وما هو وضعى وبين ما هو نابع من اختلافات دينية سواء داخل الشريعة الاسلامية أو المسيحية أو نابع من اختلافات داخل التشريع الوضعى والعادات والتقاليد والأعراف ٠٠ الخ ٠

هذا التعدد فى مصادر التشريع يمثل السبب الأول ، بلا جدال فى الفرقة بين الناس بعضهم وبعض وبينهم وبين النظم الحالية حيث أجاز لهم هذا التعدد أن يتخذ كل سنده فى تصرفه من مصدر يختلف عما استند اليه الآخرون ، فتتضارب المصالح ، وتنعدم الثقة بين الناس سواء بالنسبة للنفس أو المال أو العقيدة ٠٠ الخ ٠

يقول الأستاذ سيد قطب (ان الانعزال بين العقيدة والنظام فى العالم الذى يسمى العالم المسيحى ، يحرم الفرد ذلك التناسق الذاتى بين ضميره والنظام الذى يعيش فى ظله ، كما يحرم المجتمع تلك الايحاءات السامية المنبعثة من روح الدين ٠٠ وعلى اية حال فهذا موقف اضطرارى فى العالم المسيحى ، لأن المسيحية لم تتضمن شريعة تنظم المجتمع عن طريق القانون) (٢٩) ٠

(أ) فى تحقيق الوحدة بين الناس عن طريق وحدة مصدر كافة التشريعات

نعود فنقول أن الكثير ، خاصة من الشيوعيين والمقلدين لمظاهر الحضارة الأجنبية ، أو من بعض المسيحيين والمسلمين ، يرون أن الأحسن هو أن يكون مصدر كافة التشريعات هو ما يتواضع عليه الناس فى أمور معاشهم ٠

ولكل أسبابه التى يبديها ٠

فالشيوعيون لا يعترفون بالله سبحانه وتعالى وبالتالى لا يؤمنون بأى شريعة ابلغها الى البشر ٠

ومن هنا فهم يرون أن الفكر الانسانى (يجب) أن ينطلق من كافة القيود (الوهمية) التى (اخترعها) الناس فيما سلف مع النظر فى أمور مصالحهم الدنيوية فقط دون أى ايمان بأى غيبيات الا بما يلمسه المرء بحواسه الخمسة فقط ٠

والمقلدون للحضارة الأجنبية يأخذون منها القشور والمظهرية فى الحرية والانطلاق و (الايجابية) بعيدا عما يعتقده هم وزملاؤهم الشيوعيون من أن الدين يدعو الى التواكل والقناعة والرضا بالمكتوب وقبول الذل الذى يفرضه الأغنياء وأصحاب السلطة على الفقراء المحرومين من كل سلطة أو تأثير فى مجريات الأمور ٠

اى أن الدين فى اعتقادهم ، خاصة الاسلامى والمذاهب الدينية المسيحية الشرقية، هى السبب الأوحد فى فقر وتخلف الشعوب الاسلامية والمسيحية على المذاهب غير الكاثوليكية والبروتستانتية ٠

وبالنسبة لبعض المسيحيين المصريين فانهم يرون أن فى سيادة (الله) فى أمور الدولة المصرية وفقا للشريعة الاسلامية فيه اهدار من شأن (الله) وفقا للمفهوم السائد الآن عند المسيحيين ٠

وبتعبير آخر مستقى من تاريخنا القومى فان سيادة آمون فى أمور الدولة المصرية سيقابل بنفور وبفرقة من أتباع رع ... الخ .

والحقيقة فان جيلنا الحالى ليس أول من واجه هذه المشكلة ، أى مشكلة تقسيم الشعب المصرى فى العقيدة الدينية الى قسمين رئيسيين . ان لم يحدث بينهما ما يوحد القلوب والأنفس والأفكار فان الوحدة تكون مستحيلة وبالتالى يستحيل أيضا تحقيق أى تقدم أو ازدهار ويظل الناس ، من جميع المذاهب الدينية ، فى فقر وتخلف وهوان.

ولقد عالج الملك (خع سخموى) فى الأسرة الثانية فى العصر العتيق موضوع فرقة الشعب المصرى بين اتباع حور المنتشرين فى الوجه البحرى وبين أتباع ست المنتشرين فى الوجه القبلى باعتناقه ، أى باعتناق الجهاز الحاكم ، لكلا المذهبين ووضع شعارا بهما على القصر الملكى .

وعندما قام الجهاز الحاكم بعدم تمييز أصحاب مذهب دينى معين (حور) على مذهب دينى آخر (ست) ومعاملته لكلا المذهبين وأتباعهما على قدم المساواة ، بل واعتراف الجهاز الحاكم بالوضع المقدس لمذهبى حور وست ، قامت النهضة المصرية ، أى وحدة الأمة المصرية ، لتحقق أساس حضارتها فى شتى المجالات والذى استمر لآلاف السنين بعد ذلك .

ثم يتوج كل ذلك بالايمان باله واحد (رع) ليس هو حور وليس هو ست ليكون له السيادة فى أمور الدولة المصرية وذلك ابتداء من الأسرة الثالثة .

ويضاف الى هذه المحاولات للوحدة الدينية ما غرسه الكهنة فى الأنفس من (تأليه) الجالس على العرش وذلك منعا للعداوات التى كانت تنشأ بسبب أن هذا الملك منتم الى الوجه القبلى (موطنا) فلا يجد طاعة له من أهالى الوجه البحرى .. والعكس صحيح .

ولو استمر الحال على ذلك لما انهارت الوحدة فالحضارة المصرية .

الا أن كهنة (رع) غالوا فى (سرقاتهم) وفى مخالفاتهم على حساب قوت الأمة مما عجل بالفرقة فالثورة الاجتماعية الأولى .

ثم تضع مصر بفكرها الواعى الاطار الدينى الصحيح الذى يجب أن يتصرف الإنسان من خلاله فى الفترة الأولى الى أن يتم هدم كل ذلك على أيدى ملوك الدولة الوسطى الذين جعلوا لآمون السيادة فى أمور مصر باعتباره الاله المحلى الخاص بالأسرة الطيبية التى قامت بفرض الوحدة حول النظم المفروضة على الشعب المصرى (*) .

ومن هنا بدأ التفكك والانقسام داخل الشعب المصرى والذى استمر معظم تاريخنا القومى .

(*) ص ١٣٠ من الجزء الثانى من الكتاب .

ولقد سبق البيان أن البطالمة والرومان استغلوا فرقة الشعب المصرى بين أتباع رع فى الشمال وأتباع آمون فى الجنوب لاعمال مبدأهم المعروف (فرق تسد) ثم يعود الانجليز لعمل نفس الأسلوب بين المسلمين والمسيحيين ٠

وقبل ذلك يقوم بعض الحكام المسلمين بالهاء الشعب عن ظلمهم بافتعال ما يوجب العداوات بين المسلمين والمسيحيين عن طريق منح الأولين ما يسمح لهم بالتعالى على الآخرين ، وغير ذلك من وسائل صلحت مع عقول جاهلة ومتخلفة ٠

وقبل ذلك أيضا ، أى فى مصر المسيحية ، تجد الفرقة تصل الى القتل الجماعى للآلاف ٠

هذا عن الجذور التاريخية لنفور أتباع مذهب دين معين من سيادة مذهب دينى آخر فى شئون الدولة المصرية ٠

أما عن المخاوف الأخرى التى تشمل الكثير من المسلمين والمسيحيين وعلى اختلاف مذاهبهم السياسية والدينية فان هذه المخاوف ترجع الى ما هو شائع عندهم من أن فى الرجوع الى الخالق سبحانه وتعالى كمصدر أوحد للتشريع يعنى العودة الى الرجعية والى الجمود والى حكم الكهنة ورجال الدين الذى عانت منه مصر معظم تاريخها الوطنى حتى سنة ٣٣٢ ق٠م وما بعد ذلك أيضا مما سبق بيانه فى هذا الكتاب ٠

ثم هناك المخاوف من تكفير من يحيد عن الصراط الذى يضعه رجال الدين ومخاوف من قسوة العقوبات الدينية ومخاوف من القيود الشخصية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية التى يضعها الدين حول فكر وتصرفات الناس مما يجعل الحياة (جحيما) لا يطاق ٠

ونبدأ الرد على هذه الاتهامات وغيرها بأنه لا مناص من وحدة المصدر الذى تستقى منه كافة التشريعات اذا (رؤى) وحدة الشخصية المصرية (أولا) مع نفسها قبل أن تتحد وتتآلف مع غيرها ٠

وعلى من يشك فى ذلك فليتأمل فى أفكار وأقوال وتصرفات نفسه والآخرين حيث سيجد أن كلا اتخذ الهه هواه حسب المصدر الذى يحقق مصالحه أو انتصاره على غريمه ٠

وهنا الفرقة والتفكك والانقسام فى أبشع صورها مما هو أول عامل فى فقر وتخلف هذه الأمة ٠

فاذا (آمنا) بضرورة وحدة المصدر لكافة التشريعات والنظم والعادات والاعراف فهنا ما المانع أن يكون ذلك كله نابعا منا أنفسنا وبتشريعاتنا الوضعية وعن طريق ممثلينا فى المجالس المنتخبة ٠

الموانع كثيرة ، واهمها ، كما سبق البيان ، اننا شعب متدين بطبعه وهذا

لا يمكن تغييره من الأنفس على وجه الاطلاق وخاصة أن الدين به أحكام وتكاليف دنيوية عديدة وفي تجاهلها تحقيق لازدواج الشخصية المصرية ولضميرها بين ما هو ديني وما هو غير ديني ٠

ولكن أهم سبب في العودة الى الله كمصدر أوحد لكافة التشريعات وفي جميع المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية هو ما ثبت من أن القوة الدافعة لحضارتنا الزاهرة وفقا لما هو ثابت في تاريخنا القومي انما ترجع الى الدين وهو ما سبق اثباته في نهاية الجزء الأول من الكتاب ٠

ونعيد ما سبق ان ذكرناه عن جون ويلسون (كانت مصر في العصور السابقة لعهد الامبراطورية مجتمعا شعبيا استكمل نموه ، ولكنه تحول فجاة الى مجتمع تغلغلت فيه الحياة المدنية بثقافات البلاد الأخرى ، مجتمع متشعب وغير متجانس ، اخذ يحطم تقاليده ، ويبتعد عن التمسك باهداب الدين ، ولم يكن هناك مناص من ان يكون لمثل هذا التغيير تاثير كبير على الروح المصرية (٣٠) ٠

ويقول ول ديورانت (تعاون الدين المصري مع الثروة المصرية على الايحاء بالفن وانمائه ، وتعاون مع غنى مصر وضياع امبراطوريتها على اماتته) ٠

لقد كان الدين يقدم للفنانين الحوافز والأفكار ، ويوحي اليهم بروائع فنهم ، ولكنه فرض عليهم من العرف والقيود ما شده الى الكنيسة (يعني المعبد) بأقوى الروابط ـ فلما أن مات بين الفنانين الدين الخالص ، ماتت بموته الفنون التي كانت تعيش على هذا الدين ٠

تلك هي المأساة التي لاتكاد تنجو من شرها اية مدنية ، وهي ان روحها في عقيدتها ـ وان هذه الروح قلما تبقى بعد فناء فلسفتها (الدينية) (٣١) ٠

ولكن ذلك كله يتطلب الرد على مخاوف البعض ، سواء من المسلمين أو المسيحيين عما هو شائع ، بطريق الخطأ ، بالنسبة للمصدر الأوحد للمبدأ الواحد لكافة التشريعات وفي كافة الأنشطة الانسانية ٠٠ وهو الله سبحانه وتعالى عما يصفون ٠

وبدءا بذي بدء فان كافة المؤمنين بالرسالات السماوية في اليهودية والمسيحية والاسلام يؤمنون بعقيدة واحدة هي أهم وأقوى ما يربطهم ببعضهم ٠

(أ) فهم أولا يؤمنون بوجود خالق للكون وللانسان ٠

(ب) وأن هذا الخالق قد وضع نظاما لحياة الناس في سلام ومحبة على الأرض٠

(ج) وأن (أساس) هذا النظام هو الالتزام بطاعة مكارم الأخلاق ٠

(د) وأنه رقيب وحسيب عند البعث على مدى التزام عبادة باقامة هذا النظام أو مخالفته حيث يثاب المطيع بالجنة والعاصي بعذاب النار ٠

(هـ) وأن هذا الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ هو نفسه الذي يؤمن به جميع أتباع الشرائع الصادرة منه ٠

بل هو نفسه خالق كل من يؤمن به وكل من لا يؤمن به ·

فالكل يشترك فى الايمان به وبقدراته وبنظامه وببعثه وبحسابه ومن لا يؤمنون به انما هم صم بكم لا يبصرون ·

وبعد هذه المقدمة الكفيلة بأن يعرف الجميع أنه لا يوجد اله للمسلمين وآخر لغيرهم تقدم التوضيحات السابق التنويه عنها بالنسبة للشريعة الاسلامية مقارنة بالشريعة المسيحية مع ملاحظة أن المسلمين يتعرفون على أحكام دينهم من القرآن الكريم ومما ثبت من أقوال الرسول عليه الصلاة والسلام وتصرفاته أى من السنة المطهرة ·

تنقسم الشريعة الاسلامية الى المباحث الأربعة التالية :

١ ـ الأحكام الاعتقادية :

وهى التى تتعلق بذات الله وصفاته ، والايمان به وبرسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر ، الى غير ذلك من الأبحاث التى هى موضوع علم الكلام ·

والمسيحية نفسها عندها نفس هذه الأحكام عدا الاختلافات المعروفة ·

وفى جميع الأحوال فان الأحكام الاعتقادية فى كلا الدينين الاسلامى والمسيحى هى علاقة بين الانسان وخالقه وان كان لها تأثير فى العلاقات الدنيوية بين البشر فهى تلزم باتباع قواعد الأخلاق اعمالا للمبدأ الذى يؤمن به جميع أتباع الرسالات السماوية ان الله يسمع ويرى وعند البعث هو الحسيب فاما اثابة لأهل الطاعة واما العقاب للعصاة ·

وهنا لا نجد موضعا للتنافر بين المسلم والمسيحى أبدا مادام كل طرف يلتزم باحترام عقائد الآخرين وهو الشىء الذى لا خلاف عليه ·

٢ ـ احكام العبادات :

وهى التى يقصد بها التقرب الى الله وحده ، كالصلاة والصيام والحج والزكاة،

وهذه أيضا لها نظير فى المسيحية وان اختلفت الكيفية ·

كما أنها تعبر عن الصلة بين الانسان وخالقه مما لا شأن له باتباع الشرائع الأخرى ·

وكما ان الاسلام يحترم عقائد الآخرين (السماوية) فهو أيضا يحترم أحكام عباداتهم ·

ولا تجد فى المسيحية ما يدعو الى (كراهية) الآخرين بسبب خلاف فى العقيدة أو فى وسائل العبادة ـ بل على العكس نجد الأمر بالمحبة للغير ، وأيا كان ذلك الغير·

٣ ـ الأحكام التهذيبية :

وهى التى تتعلق ببيان الفضائل التى يجب أن يتحلى بها الانسان حتى يكون المثل الأعلى للانسان الكامل . وذلك مثل الصـــدق ، والوفاء بالعهد ، والأمانة وأخذ الناس بالصبر وغير ذلك مما يرمى الى تهذيب النفس وتقويمها ، والابتعاد عن الصفات المرذولة ، مثل الكذب ، والخيانة ، والغدر ، وغيرها من النقائص الخلقيـة ، وذلك تكفل به علم الأخلاق .

وهنا يحدث الاتفاق التام بين المسيحية والاســلام وذلك أنه لاخلاف أبدا على مبادىء الأخلاق وهذا هو أقوى ما يربط بين أتباع الشريعتين لأن الأخلاق هى الدعامة الوحيدة لسيادة أى نظام وضعى أو من عند الله سبحانه وتعالى .

والله رقيب وحسيب على قيام عباده بالتزام مبادىء الأخلاق فى جميع الأديان .

والأخلاق ، ويدخل فيها ايجابيات الشخصية الانسانية ، هى ما يهمنا فى حياتنا الدنيا وفى معاملاتنا المادية والشخصية وبدون الالتزام بها ، بل والتضحية بكل نفس ونفيس فى سبيل اقامتها ، بنهار كل شىء وذلك لأن الأخلاق وايجابيات الشخصية الانسانية هى الدعامة الوحيــدة لسيادة نظام وحدة الأمة ، فاذا تهاونت الأمة فى التمسك بالدعامة ، انهار النظام وعادت الفرقة والصراعات كما هو حالنا اليوم .

ولهذا فان الأمة المصرية كلها ، بشريعتيها فى الاسلام والمسيحية ، مكلفة من الله سبحانه وتعالى بالأمر باقامة الأخلاق والنهى عن مخالفتها فى أى موقع ومهما كانت الأطراف والا حق العقاب على الجميع يوم الحساب .

ولعل فيما سبق بيانه الكفاية لهدم الحواجز الوهمية الخاطئة والمتوارثة والتى تحول دون تآلف القلوب والأفكار دون خوف على العقيدة أو على أماكن اقامتها أو على اتباعها من اتباع الشريعة الأخرى .

ويبقى بعد ذلك القسم الرابع والأخير من الشريعة الاسلامية وهو القسم الخاص بالمعاملات .

٤ ـ فى أحكام المعاملات :

وهذا القسم هو الذى يثير قلق الكثير ين لمساسه بأمورهم فى الحياة الدنيا وفى كافة التصرفات ، ولعل ما سيرد فى الكلام عنه ما يؤكد أن هــذا القسم هــو أقل الأقسام فى الشريعة الاسلامية من ناحية النصوص الامرة والناهيــة حيث أن معظم أحكامه تصدر **من البشر أنفسهم** ولكن فى اطار من القدسية الدينية .

ويقصد بالمعاملات الأحكام التى تتعلق بجميع أعمال الانسان وتصرفاته فيما وراء قسمى العبادات والأخلاق .

وهنا يكون القصد هو قضاء مصالح الانسان وتحقيق النفع له فى حياته الدنيوية ٠

وقسم المعاملات هو الذى يثير بعض المخاوف سواء لدى بعض المسيحيين أو بعض المسلمين كما سبق البيان ٠

وهى مخاوف خاطئة وليس لها أساس الا بسبب عدم مكاشفتنا لبعضنا بجوهر نظم شرائعنا من ناحية ، ومن جهة أخرى بسبب هذه العادة الذميمة التى تخلط دائما بين النظام وبين أتباعه ٠

وعلى سبيل المثال ، فقد تصرف الكثير من باباوات روما ورؤساء المذهب الكاثوليكى حتى عصر النهضة فى أوربا تصرفات غير أخلاقية لا تتفق أبدا مع المسيحية فهل يعنى هذا أن تصرفات هؤلاء الناس تمثل المسيحية الصحيحة ؟

ونفس هذا القول ينطبق على الكثير من اتباع الشرائع الأخرى ٠

نقول هذا لأن البعض أما تأخذهم الحماسة أو يأخذهم التعصب الجاهلى الى التصرف تصرفات معينة ويؤكدون انها هى الاسلام أو المسيحية مما يثير مخاوف وشكوك الناس كلهم ٠

ومن هنا لزم التوضيح والسماح لضوء الشمس بالدخول الى أغوار أنفسنا وأفكارنا وعقائدنا حتى نأمن الى بعضنا ونثق فى وحدتنا مع الغير على أساس وحدة المصدر لكافة التشريعات ٠

وفيما يلى بيان بأهم ما فى قسم المعاملات :

وأهم العقوبات فى الاسلام القصاص ، وحد السرقة ، وحد الزنا ، وحد القذف ٠

والقصاص أى الحكم فى القتل العمد لا خلاف عليه فى أن من قتل يقتل ٠

وحد السرقة وهو قطع اليد لا يخشى تطبيقه الا السارق ولعل جميع الشرفاء يودون لو شمل حد السرقة جرائم الرشوة والمحسوبية وتحطيم المال العام سواء بالسرقة أو بالاهمال فى آداء الخدمات المطلوبة أو عدم تحقيق الانتاج الذى تحتاجه الأمة ٠

ولعل عقوبة قطع اليد لو طبقت على الكثير مما يضايق الناس فى معاشهم لاستراحوا ٠

وحد الزنا وهو الرجم حتى الموت بالنسبة للمتزوجين ومائة جلدة بالنسبة للأعزب لا يخشى تطبيقه أيضا الا من يعيشون على سلب الغير لشرفهم ولكرامتهم ـ ولأعراضهم ٠

ولقد سمح الاسلام بالطلاق وبالتطليق فى حالات وبتعدد الزوجات ومن هنا كان العقاب شديدا مع كل هذه الوسائل المتعددة للاتصال بالجنس الآخر ٠

وعلى كل حال فان الشريعة المسيحية تقول أن من نظر الى امرأة واشتهاها فكأنه زنى بها .

بل انها لم تكن تسمح بالطلاق الا فى حالة الزنا وهنا يبين لك اتفاق نظرة الشريعتين الاسلامية والمسيحية الى بشاعة هذا الجرم (*) .

أما عن (وحشية) عقوبة الرجم فلعلها تكون كذلك فى نظر من اعتاد الزنا ولكن بالنسبة لأصحاب المبادىء والمعتدى عليهم فى كرامتهم وفى أعراضهم فلهم رأى آخر .

وحد القذف متعلق أيضا بجريمة الزنا ، اذ هو ادعاء انسان على آخر بدون دليل ، بارتكاب جريمة الزنا .

مثل هذا الادعاء وترويجه فى المجتمع كفيل بالقضاء على سمعة وكرامة وشرف انسانة (بريئة) مادام لم يثبت ذلك بدليل .

ولذلك فقد حدد الشارع عقوبة الجلد ثمانين جلدة على من يشيع ، بدون دليل ، ان انسانة ما قد زنت .

وهذا الجرم لا يختلف على بشاعته اثنان حتى ممن لا يدينون بأى دين

أما عن العقوبة فلعل هذا أقل ما يجب وليتصور كل منا أن أحدا من أهله تعرض لهذا الموقف فماذا سيكون شعوره وماذا ستكون نفسيته .

أما عقوبة شارب الخمر فهى الجلد وهو مختلف فى عدده ويمكن للامة تحديد العقوبة التى تراها .

هذه هى أهم الجرائم وعقوباتها فى الاسلام .

أى هذا هو القانون الجنائى الاسلامى ولعل ما جاء فيه لا ينفر الا الفاسقين الذين يرتضون شيوع القتل والسرقة والدعارة والفوضى .

أما عن وحشية العقوبات فقد يكون ذلك فى نظر الكثيرين ضرورة تحتمها تفشى التصرفات غير الأخلاقية فى المجتمع مما يحول دون وقوع الجريمة نفسها خشية العقوبة .

وفى هذا راحة لمجتمع الشرفاء .

وبهذه المناسبة فان الأمة بامكانها (تاجيل) تطبيق بعض العقوبات واستبدالها بغيرها لفترة محددة من الزمن قياسا على عدم توقيع عمر بن الخطاب لحد السرقة فى فترة المجاعة فقط .

بل لعل مواجهة هذه المواضيع بصراحة أفضل من التجاهل التام الذى تبديه القوانين الوضعية ازاء تشريعات السماء فى هذا المجال .

ولعل فترة التأجيل لن تتعدى الفترة التى يستكمل فيها المجتمع المصرى لعوامل نهضته باذن الله .

(★) توجد أسباب أخرى للطلاق فى الشريعة المسيحية ليس هنا مجال لذكرها .

هذا عن العقوبات فى الاسلام وليس فيها ما يفرق بين المسلم والمسيحى لان الشرفاء فى كلا الشريعتين سيفيدون من تطبيقها ٠

كما أنها لا تتناول الا جرائم قليلة وعلى سبيل الحصر ويمكن للمجتمع اضافة ما يشاء من جرائم وعقوبات أخرى دون أى قيود ٠

وفى هذه الحالة يكون لمثل هذه التشريعات نفس القدسية الدينية ٠

أما عن المعاملات فهى خمسة : التركات ، والزواج وما يتصل به ، والمعاوضات المالية ، والأمانات ، والمخاصمات ٠

ويضاف الى ذلك أحكام نظم الحكم والنظم الاقتصادية ٠

وبالنسبة لأحكام المواريث فهى معروفة وليس فى المسيحية أحكام تناقضها بل لعل استمرار تطبيقها لما يقرب من أربعة عشر قرنا من الزمان ما جعلها فى حكم العرف الثابت عند المسيحيين ٠

وبالنسبة للزواج وما يتصل به فكل محكوم بشريعته ٠

أما عن النظم السياسية والاقتصادية فقد سبقت النظم الاسلامية أحدث النظم الحالية (الوضعية) فى الحرية الاقتصادية والديمقراطية السياسية مع كفالة حياة كريمة لكل من لم تسعفه ظروفه للحاق بالسوق الحر للعمل والمال ٠

وبالنسبة للمعاوضات المالية ، والأمانات ، والمخاصمات وغيرها فان العقل ومصلحة المجتمع له الدور الأول فى تحديد النظام والقانون الواجب التطبيق كما سيرد مزيد من البيان ٠

فى تصحيح بعض المفاهيم عن الشريعة الاسلامية :

يقول الامام الشيخ محمد عبده (يجب تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف هذه الأمة قبل ظهور الخلاف والرجوع فى كسب معارفه الى ينابيعها الأولى ٠٠ والنظر الى العقل باعتباره قوة من أفضل القوى الانسانية ، بل هو أفضلها على الحقيقة (٣٢) ٠

وفى موضع آخر يقول هذا الرجل فى مجال تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض : **واتفق أهل الملة الاسلامية الا قليلا ممن لا ينظر اليه على انه اذا تعارض العقل والنقل (من القرآن والسنة) أخذ بما دل عليه العقل ، وبقى فى النقل طريقان : طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه ، وتفويض الأمر الى الله فى علمه ، وطريق تاويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل ٠**

وبهذا الأصل الذي قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبى صلى الله عليه وسلم مهدت بين يدى العقل كل سبيل ، وأزيلت من سبيله جميع العقبات ، واتسع له المجال الى غير حد ، فماذا عساه أن يبلغ نظر الفيلسوف حتى يذهب الى ما هو

أبعد من هذا ؟ ان لم يكن فى هذا متسع لهم فلا وسعتهم أرض بجبالها ووهادها ولا سماء بأجرامها وأبعادها)(٣٣) ·

انتهى كلام الامام الشيخ محمد عبده رحمه الله ·

ولعل فى هذا الكلام خاصة عن أحكام المعاملات التى تهمنا فى حياتنا الدنيا كمسلمين ومسيحيين هو فصل الخطاب بالنسبة لمن يتخوفون من اعتبار الشريعة الاسلامية مصدر للتشريعات فى مجال (المعاملات) ·

فالأمة كلها مسلميها ومسيحيها مدعوة لابداء الرأى بكل الحرية وبكل الشجاعة بما قد يرى فيه المرء الخير للناس وبمراعاة الاعلاء من شأن العقل ونبذ التقليد ·

وتناقش الأمة ، بكل حرية الاقتراحات المعروضة ، ثم تتفق الأغلبية على نظام أو قانون معين ترى فيه مصلحتها ـ وهنا قد يختلف ما اتفقت الأمة مع نص فى القرآن أو السنة ، وهنا يكون للامة أن تعمل بالرأى المتفق مع العقل ومع مصالحها لعلها عجزت عن تفهم النص ، وللاسباب التى أبداها الاستاذ الامام ·

وهنا يكون التشريع له أيضا الصبغة الدينية ·

ويرى الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده من واقع تفهمه لحقيقة الاسلام أن الحاكم هو حاكم مدنى من جميع الوجوه · وأن اختياره وعزله انما هما أمران خاضعان لرأى البشر لا لحق الهى يتمتع به هذا الحاكم بحكم الايمان ·· وهو يرى أن تقريره (مدنية) السلطة السياسية فى المجتمع لا تتنافى بحال من الأحوال مع وجود (الشرع) الى جانب (الدين) فى الاسلام ، فيقول (··· ولكن الاسلام دين وشرع ، فقد وضع حدودا ، ورسم حقوقا ؛ وليس كل معتقد فى ظاهر أمره بحكم يجرى عليه فى عمله ، فقد يغلب الهوى ، وتتحكم الشهوة فيغمط الحق ، ويتعدى المعتدى الحد · فلا تكمل الحكمة من تشريع الأحكام الا اذا وجدت قوة لاقامة الحدود؛ وتنفيذ حكم القاضى بالحق · وصون نظام الجماعة ··· والأمة هى صاحبة الحق فى اختيار نائبها وفى خلعه ان رأت ذلك) ـ فهو حاكم مدنى من جميع الوجوه)(٣٤)·

ولكن ما هى الحدود التى وضعها الاسلام ، وما هى الحقوق التى رسمها ويجب العمل بها حتى فى اطار السلطة المدنية ، للحكم ·

المعروف أن المسلمين يتعرفون على الأحكام المكلفين للعمل بموجبها من الله سبحانه وتعالى عن طريق القرآن والأحاديث والتصرفات الموثوق بصحتها عن الرسول عليه الصلاة والسلام ·

وليس فى الاسلام كهانة أو رهينة أو طوائف رجال الدين التى يخشى منها عادة أن تستأثر بالحكم فتعيد عقارب الساعة الى الوراء ·

وعلى هذا فالاسلام يفصل بطبيعته بين رجال الدين والسياسة وذلك لسبب بسيط هو عدم وجود هذه الطائفة فى كيان الدين الاسلامى أبدا ·

انما الانفصال ، من وجهة النظر الاسلامية ، بين الدين والدولة وهذه النظر تعبر عن نفس عقيدة المصرى القديم تجاه الدولة وعبر آلاف السنين ٠

يقول الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده (ليس فى الاسلام سلطة دينية ، سوى سلطة الموعظة الحسنة والدعوة الى الخير والتنفير من الشر ، وهى سلطة خولها الله لادنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم ، كما خولها لأعلاهم ليتناول بها من أدناهم ٠

بل يذهب الأستاذ الامام الى ما هو أبعد من هذا ، فيرى أن احدى المهام التى جاء بها الاسلام ، ونهض بها فى المجتمع الذى ظهر فيه ؛ والتى تعتبر أصلا من أصوله ، هى قلب السلطة الدينية واقتلاعها من الجذور ، فيقول : (٠٠ أصل من أصول الاسلام ٠٠ قلب السلطة الدينية والاتيان عليها من أساسها ٠ هدم الاسلام بناء تلك السلطة ومحى اثرها ، حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ولا رسم ٠ لم يدع الاسلام لأحد بعد الله ورسوله سلطانا على عقيدة أحد ولا سيطرة على ايمانه ٠ على أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان مبلغا ومذكرا لا مهيمنا ولا مسيطرا ٠٠ وليس لمسلم ، مهما علا كعبه فى الاسلام ، على آخر ، مهما انحطت منزلته فيه ، الا حق النصيحة والارشا د٠٠ فالمسلمون يتناصحون ، وهم يقيمون أمة تدعو الى الخير ، وهم المراقبون عليها ، يردونها الى السبيل السوى اذا انحرفت عنه ، وتلك الأمة ليس لها عليهم الا الدعوة والتذكير والانذار ، ولا يجوز لهاولا لأحد من الناس أن يتتبع عورة أحد ، ولا يسوغ لقوى ولا لضعيف أن يتجسس على عقيدة أحد ، وليس على مسلم أن يأخذ عقيدته أو يتلقى أصول ما يعمل به من أحد ، الا عن كتاب الله وسنة رسوله ، صلى الله عليه وسلم ، لكل مسلم أن يفهم عن الله من كتاب الله وعن رسوله من كلام رسوله ، بدون توسيط أحد من سلف ولا خلف ، وانما يجب عليه قبل ذلك أن يحصل من وسائله ما يؤهله للفهم ٠٠ فليس فى الاسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه ٠٠ ولم يعرف المسلمون فى عصر من الاعصر تلك السلطة الدينية التى كانت للبابا عند المسيحية (فى أوربا) عندما كان يعزل الملوك ، ويحرم الأمراء ، ويقرر الضرائب على الممالك ، ويضم لها القوانين الالهية)(٣٥) ٠

ولقد أدى ما ظهر من رقى الفكر الفقهى الاسلامى وتحرره من كافة القيود الا قيود العقل ومصلحة المجتمع أن (ذهب كثير من العلماء الأجانب الى القول بأنه مشتق من القانون الرومانى البيزنطى) والذى هو الأساس الذى تستمد منه التشريعات الأوربية)(٣٦) ٠

وليس فى هذا الكتاب مجال للرد على ادعاءات هؤلاء العلماء ، ولكن ما يهم ابرازه هو نفى الجمود (نهائيا) عن فقه المعاملات وذلك بالمخالفة لما يعتقده البعض من اتسام هذا الفقه بالجمود والرجعية وعدم مسايرته لحاجاتالمجتمع المتطورة والمتجددة ٠

ويقول الدكتور محمود حلمى فى كتابه عن نظم الحكم الاسلامى مقارنا بالنظم المعاصرة(٣٧) :

(ان السيادة فى الدولة الاسلامية هى أصلا لمجموع الأفراد والحكام ليسوا الا وكلاء عن مجموع الشعب ، يستمدون سلطاتهم منه ، فللامة اختيار الخليفة (رئيس الجمهورية) وتقويمه ولها عزله من منصبه اذا حدث ما يوجب عزله ٠

والأمة الاسلامية هى مصدر السلطات ، وليس للملوك ولا للرؤساء فى الدولة الاسلامية من الأمر الا ما تريده الأمة وترضاه ، فهى التى تقيم الدولة وهى التى تختار أولياء الأمر فيها وهى التى تقدر مصالحها وتدرأ مفاسدها ، فهى فى هذا كله مصدر السلطات ٠

أما عن حدود سيادة الدولة ، أو سيادة مجموع الأفراد المكونين للدولة الاسلامية ، فهى القيود والحدود التى فرضتها الشريعة الاسلامية على ممارسة هذه السيادة ٠ وليس للامة مجتمعة أو متفرقة ، متفقة مع رئيس الدولة أو مختلفة معه ، ممثلة فى هيئة تاسيسية أو غير ممثلة ، أن تتصرف فيما جعله الله حقا للأفراد أو واجبا على الأفراد أو الجماعات فى وطن ما أو للناس كافة فى الدنيا كلها ٠ اذ الشريعة الاسلامية القائمة على ما شرع الله من حقوق وواجبات السيادة والخلود ، لأنها دائمة بارادة الله لا غير ٠٠

وللامة الاسلامية أن تكيف نظمها وتضع القوانين والدساتير فى حدود هذه السيادة ــ تلك الحدود التى تفرضها الشريعة الاسلامية وتبينها ــ وللأمة داخل هذه الحدود كامل الحرية ، ولا تحد ارادتها الا ارادة عليا ، هى ارادة الله مصدر الوجود ، الذى استخلف الانسان فى الأرض وحمله أمانة الحكم وجعل هذه الخلافة تقصد الى العدل والحق) ٠

وفى هذا يقول سبحانه وتعالى « ياداود انا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ٠ ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » ٠

ووسيلة اجتماع الأمة على رأى واحد فى أمور معاشها يرجع الى الديمقراطية أى الى الشورى ورقابة المحكوم لحاكمه أو الاصيل لوكيله ، والتى أمرنا بها الله سبحانه وتعالى ٠

ولعل خطاب أبى بكر الصديق عندما آلت اليه الخلافة عن طريق البيعة خير مثال على ديمقراطية الاسلام ، اذ قال (لقد وليت عليكم ولست بخيركم، فان رأيتمونى على حق فاعينونى ، وان رأيتمونى على باطل فسددونى ، أطيعونى ما أطعت الله فيكم، فان عصيته فلا طاعة لى عليكم) ٠

ويقول الله سبحانه وتعالى فى سورة آل عمران (١٥٩) « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله » .

وجعل الله سبحانه وتعالى الشورى من مقتضيات الاسلام وشئون الايمان . كما جعلها أوصاف المسلمين حتى يقول تعالى فى سورة الشورى (٣٨) :

« والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون » .

ولقد سار الرسول على مبدأ الشورى وطبقها طوال حياته ، ولقد روى عن أبى هريرة أنه قال (لم يكن أحد أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ، والسنة العملية مليئة بالشواهد التى تدل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان دائم التشاور مع أصحابه ، ولقد سار الخلفاء الراشدون على هذا الهدى فلم يكونوا ليبرموا أمرا الا بعد المشاورة . والرأى الراجح ان الشورى تعد واجبة ومخالفتها (حرام) .

والمقصود بأهل الشورى ، فى نظامنا الحالى ، هم وكلاؤنا فى مجلس الشعب والمجالس المنتخبة وأصحاب الرأى وقادة الفكر من كل جانب من جوانب الحياة .

وفى النهاية فان الأمة نفسها هى الرقيبة على نفاذ النظام الذى اتفقت عليه بأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر وبمشاركتها فى القضاء وفى التنفيذ وفى وسائل الاعلام المختلفة .

واليك بعض احكام الشريعة الاسلامية عن الطاعة وعن المسئولية :

يقول الله سبحانه وتعالى : بلسان رسوله عليه الصلاة والسلام كما جاء فى صحيح البخارى :

من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن عصانى فقد عصى الله ــ ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى ، ومن عصى أميرى فقد عصانى .

الا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالامام الذى على الناس راع وهو مسئول عن رعيته والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده وهى مسئولة عنهم ، وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسئول عنه ، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته .

اسمعوا وأطيعوا وان استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة .

من رأى من أميره شيئا فكرهه فليصبر فانه ليس أحد يفارق الجماعة شبرا فيموت الا مات ميتة جاهلية .

ويقول الامام أبو حنيفة رضى الله عنه (علمنا هذا رأى فمن جاءنا بافضل منه قبلناه) .

(ب) فى حقيقة العلاقة بين شريعتى الاسلام والمسيحية

جاء بانجيل متى :

« فجاء واحد من الكتبة وسمعهم يتحاورون فلما رأى أنه أجابهم حسنا سأله : أية وصية هى أولى الكل · فأجابه يسوع ان أول كل الوصايا هى : اسمع يا اسرائيل : الرب الهنا رب واحد ، وتحب الرب الهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك · هذه هى الوصية الأولى · وثانية مثلها هى : تحب قريبك كنفسك. ليس وصية أخرى أعظم من هاتين فقال له الكاتب : جيدا يا معلم بالحق قلت لأنه الله واحد وليس آخر سواه · ومحبته من كل القلب ومن كل الفهم ومن كل النفس ومن كل القدرة ·· » ·

ويقول الأستاذ سيد قطب : (ان الاسلام ، تمشيا مع طبيعته العالمية ، قد احتضن الرسالات والديانات كلها من قبله وقرر مع وحدة الاله ، وحدة العقيدة ، ووحدة الدين الذى أرسل به رسله جميعا ، فكل الرسل جاءوا بدين واحد ، هو الاسلام ، اسلام القلب لله وحده بلا شريك ، وهذا هو أساس العقيدة الذى لا يتبدل) (٣٨) ·

فالله واحد والدين واحد وان تعددت شرائعه بين اليهودية والمسيحية والاسلام·

وبهذا الفهم لحقيقة الدين تنهدم أى عوائق تحول دون الوحدة القلبية والفكرية بين أبناء الوطن الواحد ·

(ولم يكن موقف الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، من الوحدة الوطنية والقومية لأبناء الأمة ، على اختلاف شرائعهم الدينية مجرد موقف (سياسى) تمليه ظروف (سياسية) ، طارئه أو دائمة ، وانما كان موقفا (فكريا — اسلاميا) ، مؤسسا على ما ذهب اليه الاسلام من وحدة الدين الالهى ، المقتضية اخاء اتباع الشرائع السماوية الذين اقتضت حكمة الله لجعلهم أمة واحدة ، ولكن لا يزالون مختلفين ·· فالاختلاف والتعدد والتنوع فى الشرائع ، بين أمم الرسالات السماوية ، هو ارادة كونية لله ، وعندما ينظر اليه ويوضع فى الاطار الذى عينه الاسلام ، وهو : (وحدة الدين ، وتعدد الشرائع ، **فان الوحدة القومية والوطنية للأمة تصبح كما أصبحت عند الأستاذ الامام — مؤسسة على الدين وليست مجرد موقف سياسى ، يقصد الالتزام به — وفقا للمقتضيات — أول يطول — كما تصبح الطائفية والشقاق الدينى ردة عن الدين الصحيح،وليس مجرد ضيق أفق فى عالم السياسة والسياسيين)** ·

فبهذه الوحدة على أساس نظرة الاسلام الى وحدة الدين الالهى ، تبنى وحدة المتدينين بهذا الدين الواحد ، مع تعدد الشرائع ، هى طرق يسلكونها للتدين بالأصول المتحدة للدين الواحد ، فنحن نبنى وحدتنا القومية بالدين ، لا على انقاض الدين ·

وحدة الدين ·· ونجاة أبناء الشرائع المختلفة ان هم تدينوا بأصوله الواحدة ، التى هى : الألوهية الواحدة ·· والايمان بالبعث والجزاء ·· والعمل الصالح ··

ويقول الأستاذ الامام عندما يعرض لتفسير آيات القرآن « ليسوا سواء · من اهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله اناء الليل وهم يسجدون · يؤمنون بالله ، واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات . وأولئك من الصالحين · وما يفعلوا من خير فلن يكفروه ، والله عليم بالمتقين » ·

يقول الأستاذ الامام :

هذه الآية من العدل الالهى فى بيان حقيقة الواقع ·· وهى دليل على أن دين الله واحد على السنة جميع الأنبياء ، وأن كل من أخذه باذعان . وعمل فيه باخلاص . فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، فهو من الصالحين · وفى هذا العدل قطع لاحتجاج أهل الكتاب الذين يعرفون من أنفسهم الايمان والاخلاص فى العمل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وفيه استمالة لهم ، وانثناء عن التفرقة بين الأمم والملل التى لم يكن يعترف فيها أحد الفريقين بفضيلة ولا مزية للآخر ، كأنه بمجرد مخالفته له فى بعض الأشياء ، وان كان معذورا ، تتبدل حسناته سيئات ·

وقد عرض الأستاذ الامام للفروق بين المسلمين وأهل الكتــاب ورأى أنها ليست من الخطر بحيث تخرج الكتابيين من اطار الايمان والتدين بالدين الالهى ·

ولقد عرض الأستاذ الامام لهذه القضية الهامة ، والشديدة الحساسية ، عندما تحدث عن حكمة اباحة الاسلام لبنيه أن يتزوجوا بالكتابيات ، فقال :

(ان الكتابية ليس بينها وبين المؤمن كبير مباينة فانهـا تؤمن بالله وتعبده ، وتؤمن بالأنبياء ، وبالحياة الأخرى وما فيها من الجزاء ، وتدين بوجوب عمل الخير وتحريم الشر ، والفرق الجوهرى العظيم بينهما هو الايمـان بنبوة محمد ، صلى الله عليه وسلم ، ومزاياها فى التوحيد والتعبد والتهذيب · والذى يؤمن بالنبوة العامة لا يمنعه من الايمان بنبوة خاتم النبيين الا الجهل بما جاء به ·· أو المعاندة والجحود فى الظاهر ، مع الاعتقاد فى الباطن ، وهذان أى الجحود ـ قليل ، والأكثر الأول ، أى الجهل ـ فاذا كان الفرق بيننا وبين أهل الكتاب يشبه الفرق بين الموحدين ، المخلصين العاملين بالكتاب والسنة ، وبين المبتدعة ، الذين انحرفوا عنهما ·· فكيف يكون أهل الكتاب بالمشركين فى حكمه تعالى ··· لقد أرشدتنا التجربة الى أن كل عارف بحقيقة الدين الاسلامى كان أوسع نظرا فى الأمور ، وأطهر قلبا من التعصب الجاهلى ، وأقرب الى الألفة مع أبناء الملل المختلفة ، وأسبق الناس الى ترقية المعاملة بين البشر ، وانما يبعد المسلم عن غيره جهله بحقيقة دينه ·· ان القرآن ، وهو منبع الدين ، يقارب بين المسلمين وأهل الكتاب حتى يظن المتأمل فيه أنهم منهم ، لا يختلفون عنهم الا فى بعض أحكام قليلة · ولكن عرض على الدين زوائد أدخلها عليه اللابسون ثياب أحبائه فأفسدوا قلوب أهليه ··) ·

و (المودة) ، و (الرحمة) هما طبيعة العلاقة بين المسلمين والكتابيين ·· وهما ، أى المودة والرحمة ـ طبيعة العلاقة ، أيضا بين المسلمين والمسلمين أما الطائفية والشقاق الدينى فمصدرهما : السياسة والملوك ورؤساء الاديان ·

ولو أقمنا الكتاب وأقاموه ، لتقاربنا ، ورجعنا جميعا الى الأصل الذى أرشدنا اليه القرآن العزيز ٠٠٠ (٣٩) ٠

والغريب الذى قد لا يعرفه الكثيرون ان الاسلام لم يتبنى مبدأ ترك المسيحيين وغيرهم من أهل الكتاب آمنون بعقيدتهم وبعبادتهم وفى كنائسهم فحسب ، بل أن الشريعة الاسلامية تلتزم بحماية هذه العقيدة ودور عبادتها ضد أى أعتداء ٠

ذكر ول ديورانت أنه فى عهد بنى أمية تم تخصيص قوة عسكرية لحماية بعض الكنائس فى الشام وذلك لرد ما كان يتهددها من اعتداءات المسيحيين المخالفين فى المذاهب ٠

والآن هل بدأنا نعرف أن الاسلام برىء تماما من تهمة التعصب ضـــد أى شريعة مخالفة له ، بل هو يحتم الحفاظ عليها وعلى اقامة شعائرها ٠

ومن هنا فاذا تصرف انسان ينتسب الى الاسلام على خلاف ذلك فهو يتصرف بصفته الشخصية وليس بصفته الدينية ٠

وهكذا الحال ، اذا تصرف مسيحى أو مسلم بعصبية ضد أتباع شريعة أخرى فهو هنا يتصرف بصفته الشخصية وليس ممثلا لشريعته الداعية الى المحبة ٠

وكتب الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده مقـــالا فى مجلة (ثمرات الفنون) البيروتية حذر فيه من الانسياق الى الطريق الطائفى غير القومى ، ولفت الأنظار الى وجوب التفرقة بين من هو أجنبى ، ففى حالة الأجانب ممكن ان نأخذ الكل بذنب البعض ، لجواز أن يكون ذلك موقفا جماعيا لهذه الفئة من الأجانب ٠٠ أما بالنسبة لطائفة هى جزء من الوطن والمواطنين فان أخطاء البعض منها لا تنسحب على هـذه الطائفة كلها ، بل المسئولية فردية ، بصرف النظر عن عقيدة المخطىء الدينية ٠٠ لأن الرباط القومى والجامعة الوطنية تشمل الجميع ٠٠ كتب الرجل يقول (٠٠٠ ان التحامل على شخص بعينه لا ينبغى أن يتخذ ذريعه للطعن فى طائفة أو أمة أو ملة ، فان ذلك اعتداء على غير معتد ، ومحاربة لغير محارب . أو كما يقال جهاد فى غـــير عدو ، وهو مما خاسره أكثر من نفعه ، ان كان له نفع ٠٠ فليس من اللائق بأصحاب الجرائد أن يعمدوا الى احدى الطوائف المتوطنة فى أرض واحدة فيشملوها بشىء من الطعن متعللا بأن رجلا أو رجالا منها قد استهدفوا لذلك ٠٠ فاذا تنافرت الطوائف تشاغلت كل منهم بما يحط شأن الأخرى ، فكانت كل مساعيهم ضررا على أوطانهم ٠٠ نعم ٠٠ ان كانت الطائفة أو الأمة من قوم أجانب عن البلاد ، متغلبين عليها بقوة قاهرة ، أو حيلة غادرة ، وكانت أعمال آحادها مبنية على أصول سنها المتغلبون ، فيكون عمل الواحـد كأنه صادر عن الجملة ، كمـا فى أعمال الانجليز بمصر ، جاز للناقد أن يأخذ الجماعة باثم الواحد منهم ، ويستصرخ أبناء الوطن جميعا لكشفهم عن بلاده ، واستخلاص الحق منهم لأربابه) (٤٠) ٠

والآن ، هل تم التعارف بين حقيقة الاســـلام وحقيقة المسيحية فيما يختص بالعقيدة والعبادات وبالأخلاق وبالمعاملات ٠

ولقد جاء في الأمثال ، فلان تعرفه ، قال نعم أعرفه ، فقيل له ، هل عاشرته ، فرد بالنفي ٠٠ فقال له الآخر فكأنك لا تعرفه ٠

وذلك أن المعرفة الحقة تكون بالمعاشرة وبالمناظرة وبمكاشفة دخيلة أنفسنــا وحقيقة أفكارنا للآخرين بدون أى حجاب لأن هذا هو السبيل الأوحـــد للتعــارف فالتآلف فالوحدة ٠٠

وفي تقرير صـــدر عن الكنيسة الكاثوليكية بشأن الدين الاسلامي ـ عن المجمع الفاتيكاني الثاني في ٢٨ أكتوبر ١٩٦٥ جاء فيه :

« وتنظر الكنيسة أيضا بعين الاعتبار الى المسلمين ، الذين يعبدون الله الأحد ، الحي القيوم ، الرحمن القدير ، فاطر السماء والأرض ٠٠٠ والذى خاطب البشر ٠ والذين يجتهـــدون في أن يخضعوا من صميم الفؤاد لأحـكام الله ، حتى ولو كانت خفية ، كما خضع له ابراهيم الذى يشير أليه الايمان الاسلامى بطيب خاطر ، وهم وان كانوا لا يعترفون بالمسيح كاله ، الا أنهم يجلونه كنبى ويكرمون والدته العذراء مريم ، بل وأحيانا يبتهلون اليها بتقوى ، وعلاوة على ذلك فانهم يترقبون يوم الدينونة حيث يجازى الله جميع الناس الذين يقومون من بين الأمـوات ٠ وهـــذا ما يجعلهم يقدرون الحياة الأبدية ويعبدون الله خاصة بالصلاة والزكاة والصوم ٠

وان كانت قد نشبت منازعات وعداوات غير قليلة بين المسلمين والمسيحيين على مدى الاجيال ، فان المجمع يهيب بالجميع أن ينسوا الماضى ويعملوا باخلاص على احلال التفاهم المتبادل بينهم ٠ ويتعاونوا على حماية وتعزيز العدالة الاجتماعية والقيم الأدبية والسلام والحرية للناس أجمع ٠

٠٠٠ (من لا يحب فانه لا يعرف الله) (١ ـ يوحنا ٤ : ٨) وهذا يكفى لهدم اساس كل نظرية أو تصرف يرمى الى ايجاد التفرقة بين انسان وانسان ، وبين أمة وأمة ، فيما يتعلق بالكرامة الانسانية والحقوق النابعة منها (٤١) ٠

وللحقيقة فانه للقضاء على الفرقة بين أبناء الوطن الواحد ، فلابد من وجـــود نظام يلتزم الكافة بطاعته على اختلاف مذاهبهم وآراءهم الدينية والوضعية والعرفية ٠

ولابد أن يكون هذا النظـام غير متناقض أو متعارض مع أنظمة أخـرى دينية أو غير دينية وذلك حتى لا يحدث طاعة نظام على حساب نظم وتشريعات آخرى ٠

أى لابد من الاتفاق على وحـدة مصدر كافة التشريعات والانظمة حتى يتم القضاء نهائيا على كافة النظم والتشريعات والأعراف والعادات والتقاليد التى تتعارض أو لا تتفق مع الشرائع والنظم النابعة من المصدر الواحد المتفق عليه ٠

اذ بهذا تتحقق وحدة الأمة حول مصدر واحد لكافة نظمها وتشريعاتها ٠

وهنا لا يوجد غير الأمة المصرية نفسها ، لتكون المصدر الوحيد لكـــافة النظم والتشريعـات التى تصـــدر فى مصر وفى شتى المجـالات السياسية والاقتصـادية والاجتماعيـة ٠

وهنا ماذا يمنع ، بعد موافقة الامة على كافة نظمها وتشريعاتها ، **أن يكون ذلك كله باسم الله وأن يكون مخالفة هذه الأنظمة والتشريعات ليست جريمة فى حق البشر فحسب ، بل هى جريمة يحاسب عليها أيضا الرحمن نفسه تبارك وتعالى ؟**

الا يعطى ذلك كله قوة وقدسية للنظم والتشريعات مما يقلل كثيرا من نسـبة مخالفيها ويكثر من تعداد المعتصمين بطاعتها وبذلك تتحقق سيادة النظم والتشريعات مما يثمر ـ عاجلا ـ وحدة هذه الأمة ٠

قد يقال أن ما يمنع من ذلك هو فى وجود أغلبية عددية (مسلمة) سيكون لها الرأى الأول والأخير فى كافة التشريعات والنظم وبدون مراعاة مصالح (الأقليات) الأخرى ٠

والرد على ذلك أن المناقشات والقرارات والنظم تنصب على المعاملات السياسية والاقتصادية والاجتماعية بدون النظر الا لمصلحة الجماعة المصرية وهذا لا شأن لـه بموضوع اختلاف الشرائع فيما يتعلق بالعقائد والعبادات فضلا عن أن الشريعـة المسيحية قد خلت من تكاليف المعـاملات عـدا ما يتعلق بالأحوال الشخصية التى لأتباعها الحرية الكاملة فى تشريعاتها ٠

وقد يكون هناك تخوف من التزام الأغلبية المسلمة بالنصـوص الدينية فى القرآن والسنة ، وأنه وان كان قد سبق الرد على ذلك حسبما أوضحه الامام الشيخ محمد عبده ، الا أن النصوص الآمرة والناهية فى الشريعة الاسلامية فيمـا يتعلق بالمعاملات ، قليلة ومعظمها تناول المشاكل بطريقة اجمالية حيث للبشر الحرية فى وضع تفاصيل الأحكام وذلك فضلا عن اتفاق هذه النصوص مع مصلحة الجمـاعة الانسانية كلها بدون تفرقه ٠

وعلى سبيل المثـال ، فالشورى ، أى الديمقراطية وهى الأساس لكافة النظـم الراقية في الحكم ، فانها واجبة فى الشريعة الاسلامية ٠

والحرية الاقتصادية أيضا تتبناها الشريعة الاسلامية وبمراعاة مصلحة الجماعة ووجوب الزكاة ومساعدة من لم تسعفهم ظروفهم للحاق بالسوق الحر للعمل والمال ٠

وقس على ذلك مبادىء الحرية والمساواة ، والأخوة الانسانية ، والحفاظ على

كرامة الانسان وعلى عقيدته وعلى مشاعرة ، والتكافل الاجتماعى بين الجميـــع بدون تفرقة بسبب الدين أو الجنس ... الخ .

بل وأكثر من هذا ، فان وسائل بعث الأمة المصرية والتى سيرد الكلام عنهــا فى المباحث التالية تحض عليها أوامر الحق تبارك وتعالى التى تبرأ من سيطرة الفقر والتخلف والهوان على أيا من عباده .

كل هذا وغيره يأمر به الحق تبارك وتعالى فلماذا هذا التخوف من أن تكـــون كافة تشريعاتنا ونظمنا التى نتفق عليها صادرة باسمه سبحانه وتعالى ؟

بل ان الشريعة الاسلامية لم تتناول الكثير من الموضوعات مثل قوانين الاجراءات وقوانين العمل وقوانين المرور ... الخ .

وهنا ، اذا اتفقت الأمة المصرية على نظم وتشريعات تتفق مع مصالحها وليس لها نص فى الدين .

فهل الأفضـــل لوحـــدة الشخصية المصرية أن يكون كل ما تتفق عليه من نظم وتشريعات نابعا من نفسها ومصالحها ومجالسها المنتخبة دون دخل للرقابة الالهيــة والحساب والبعث فى ذلك تحقيقا لرغبات البعض وعلى حســاب تجـــاهل الظروف الدينية (الحتمية) للشريعة الاسلامية التى توجب على اتباعها أن يكون الحـــكم كله لله ؟

أم من الأفضل لوحـــدة الشخصية المصرية ان يكون كل ما تتفق عليه الأمـــة ومجالسها المنتخبة من نظم وتشريعات بمراعاة مصالحها صادر باسم الله سبحـــانه وتعالى نفسه الرقيب والحسيب على طاعة ما تتفق عليه الأمة مع ما فى ذلك من تحقيق للظروف الدينية (الحتمية) لاتباع الشريعة الاسلامية التى توجب عليهم بأن يكون الحكم كله لله .

هذا هو (المشكل) الواجب مواجهته بكل صراحة تحقيقا لوحدة النفس المصرية تبعا لوحدة مصدر كافة تشريعاتها ونظمها .

وكما سبق البيان ، فان الذى يرجح كفة وحدة مصدر كافة النظم والتشريعات الى جانب الحق تبارك وتعالى هو أن لا قومة لهذه الأمة الا على أساس دينى .

فهكذا تعلمنا من عبرة التاريخ .

اذ بهذا فقط يستحيل على الأغلبية مخالفة ما تتفق عليه الأمة من نظم وتشريعات لأن المخالفة هنا تعد (حرام) .

وهذا هو المطلوب لتحقيق وحدة هذه الأمة .

ونعـود فنكرر كلمات المسيحية الحقة (من لا يحب فانه لا يعرف الله) .

وبالحب وبالفهم المتبادل ، وبالاستفادة من دروس التاريخ يمكن تحقيق الوحدة المقدسة لهذه الأمة حول المصدر الواحد المقدس لكافة تشريعاتها .

وكل شيء يهون في سبيل تحقيق الثراء والتقدم والسعادة لكل أسرة مصرية .

فى وحدة الكلمة :

هذا عن وحدة مصدر التشريع ، أما عن فرقة الناس تبعا للخلافات بينهم فى فهم الشريعة التى يؤمنون بها فقد حذرنا الرسول عليه الصلاة والسلام من الفرقة فى ديننا كما تفرقت اليهود والنصارى .

وليس هناك شك فى تشجيع أحكام الشريعة الاسلامية لاتباعها على حرية الرأى والفكر وابداء ما يشاؤون من اجتهادات فى التكاليف الشرعية ولكن هذا الخلاف كله ينتهى عند الرأى الواحد والمبدأ الواحد الذى تخرج به الجماعة الاسلامية أو ممثليها حيث يلتزم الجميع بهذا المبدأ ونبذ أى خلاف بعد ذلك .

يقول الامام الشيخ محمد عبده (وأعظم جنايه ، جناية التفريق وتمزيق نظام الأمة فيما وقع فيه من سبقها من الاختلاف وتفرق المذاهب والشيع فى الدين . كان اختلاف السلف فى الفتيا يرجع الى اختلاف أفهام الافراد ، وكل يرجع الى أصل واحد لا يختلفون فيه ، وهو كتاب الله وما صح من السنة ، فلا مذهب ولا شيعة ، ولا عصبية تقاوم عصبية ، ولو عرف بعضهم صحة ما يقول الآخر لأسرع الى موافقته كما صرح به جميعهم ..

كان الاختلاف فى العقائد على نحو الاختلاف فى الفتيا تخالف أشخاص فى النظر والرأى ، وكان كل فريق يأخذ عن الآخر ولا يبالى بمخالفته له فى رأيه ، مسجدهم واحد ـ وامامهم وخطيبهم واحد ، فلما جاء دور الجمود ـ دور السياسة ـ أخذ المتخالفون فى التنطع وأخذت الصلات تنقطع وامتازت فرق وتألفت شيع كل ذلك على خلاف ما يدعو اليه الدين ، وقد بذل قوم وسعهم فى تمييز الفرق تمييزا حقيقيا فما استطاعوا وانما هو تمييز وهمى ، وخلاف فى أكثر المسائل لفظى . وانما هو الشهوات وضروب السياسات . أشعلت نيران الحرب بين المنتسبين الى تلك الشيع حتى آل الأمر الى هذه الفرقة التى يظن فيها أنها لا دواء لها .

ولقد نسوا ما جاء فى الكتاب وأيدته السنة من أن الايمان يعتمد على اليقين ، ولا يجوز الأخذ فيه بالظن ، وأن العقل هو ينبوع اليقين فى الايمان بالله وعلمه وقدرته والتصديق بالرسالة وأن النقل ينبوع له فيما بعد ذلك من علم الغيب كأحوال الآخرة وفرض العبادات وهيآتها ، وأن العقل ان لم يستقل وحدة فى ادراك ما لابد فيه من النقل فهو مستقل لا محالة فى الاعتقاد بوجود الله وبأنه يجوز أن يرسل الرسل فتأتينا عنه بالمنقول ـ نسوا ذلك كله وقالوا : لابد من اتباع مذهب خاص فى العقيدة ، وافترقوا فرقا وتمزقوا شيعا ... » (٤٢) .

ثانيا : فى الفرقة بسبب فرض النظم من اعلى :

انتهينا فى الأوراق السابقة الى أن السبب الأول فى فرقة الأمة المصرية من حيث مصدر النظام يرجع الى تعدد المصادر التى تستقى منها التشريعات بين مصادر دينية مختلفة ومصادر وضعية متضاربة ومصادر عادات وتقاليد خاطئه أو صائبة ... الخ .

كما انتهينا أن الحل هو فى توحيد مصدر كافة التشريعات والنظم والعادات والتقاليد لتكون نابعة من مصدر واحد وهو الله سبحانه وتعالى . وبدون أى خلاف على المبدأ الواحد الذى تتفق عليه الجماعة خاصة بالنسبة للمعاملات .

أما فى هذا البحث فاننا سنقدم دليلا آخر ، عن فرقة هذه الأمة من حيث أن مصدر النظم الحالية (الوضعية) فى المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية انما يرجع الى اعتقاد غالبية الناس أنها مفروضة من أعلى - أى من الجهاز الحاكم نفسه .

ولدينا الدستور الدائم ولدينا قوانين ونظم فى المجالات الجنائية والادارية والتجارية والمدنية والدولية العامة والخاصة وقوانين للأحوال الشخصية .. الخ .

ولا يكاد يمر يوم دون أن يصدر قانون أو قرار يفرض على الناس أداء عمل أو الامتناع عن أداء عمل .

فمن هو واضع هذه القوانين والنظم ؟

من الناحية (القانونية) فان الذى وضع الدستور هو الشعب نفسه عن طريق الاستفتاء ، ثم ان كافة القوانين والنظم يصدرها الشعب نفسه عن طريق ممثلية فى مجلس الشعب .

وهنا يكمن السبب الثانى فى الفرقة عن النظم والقوانين الحالية من ناحية مصدرها وذلك لأن الشعب نفسه يؤمن تماما أنه لم يكن له وجود فى معظم الاستفتاءات وفى اختيار معظم ممثلية وبالتالى فيما يصدر بموافقتهم من قوانين فى المجالس الشعبية .

ولقد سبق أن تتبعنا وجود القاعدة الشعبية عند اختيار النظم و (المبادىء) التى تلتزم الأمة بطاعتها والعمل بها فى كافة الأنشطة الانسانية وذلك بدءا من النشأة الأولى وحتى سنة ٢٠٠٠ ق.م حيث بدأ كل ذلك عن طريق التجربة والخطأ الى أن استقر الانسان على النظام الأصلح وفقا للانتخاب الطبيعى بين النظم ثم قيام الانسان المصرى فى أورثه الاجتماعية الأولى بوضع نظامه الدينى والاقتصادى والسياسى والاجتماعى الذى استمر حتى أوائل الأسرة الثانية عشرة .

وهنا تحققت وحدة الأمة المصرية حول نظامها المختار (وقيادتها القدوة) ٠

ويجب أن لا يغيب عن الذهن أن الشعب المصرى كان على وعى بنظمه الدينيـة والسياسية والاقتصـادية والاجتماعية فى مرحلة وحـدته حتى سـنة ٢٠٠٠ ق٠م وذلك لبساطة هذه النظم (وفطريتها) وعدم الاختلاط بالأجانب وعدم وجود تعقيدات فى هذه النظم ٠

ثم تتبعنا عملية (غياب) الشعب المصرى والارادة المصرية ابتداء من سـنة ٢٠٠٠ ق٠م تاريخ فرض النظم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية من أعلى فى الأسرة الثانية عشرة وذلك بقيادة البطش والاستغلال مما أدى (تلقائيا) الى فرقة الشعب المصرى عن النظم وعن القيادات ثم الى موت الروح المصرية والقوة الدافعة لها ٠

وعلى هذا فقد استمر غياب الارادة المصرية والقاعدة الشعبية عن النظم والقوانين المفروضة من أعلى وعن قياداتها من سنة ٢٠٠٠ ق٠م حتى مايو سنة ١٨٠٥ م عندما حاولت الارادة المصرية للقاعدة الشعبية العريضة فرض نظمها على الحاكم وتوجيه أمور الدولة فى شتى المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية لمصلحتها ٠

ولكن هذه الصحوة لم تستمر الا عدة أشهر ثم فرضت القوانين والنظم والقيادات من أعلى فى غياب القاعدة الشعبية حتى أواخر عصر اسماعيل حيث تكرر نفس الموقف اذ حوربت الارادة الشعبية الوليدة من الحاكم (شبه الوطنى) والاستعمار الفرنسى والبريطانى حيث تمكنوا من اماتتها بعد بضعة أشهر من ظهورها أنتهت بالاحتلال البريطانى سنة ١٨٨٢ ٠

واستمرت الارادة الشعبية فى غيابها وفى فرقتها عن النظم والقيادات المفروضة من أعلى حتى صدور دستور سنة ١٩٢٣ ٠

وابتداء من هذا التاريخ ننقل ما ذكره الدكتور بطرس غالى عن غيـاب الارادة الشعبية عن النظم وعن القيادات المفروضة من أعلى من سـنة ١٩٢٣ حتى ما قبـل ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ ونتبع ذلك باقوال كبار السياسيين عن فترة حكم الراحل جمال عبد الناصر حتى يتبين للناس صدق ما قدمناه من دليل عن أن سبب الفرقة عن النظم الحالية ، من ناحية المصدر ، انما يرجع أساسا الى ما استقر فى الأفكـار والأنفس ومن واقع السرد التاريخى أن هذه النظم وهذه القيادات مفروضة من أعلى ٠

ولنتابع الأدلة ابتـداء من سـنة ١٩٢٣ وهو التاريخ الذى حدده العلماء لبدء حكم الشعب نفسه بنفسه وتوجيه الجهاز الحاكم وفقـا للارادة الشعبية التى هى مصدر كل سلطة ومصدر كل نظام وقانون أى الديمقراطية ٠

« يقول الدكتور بطرس غالى :

« بالنسبة للديمقراطية البرلمانية ، فقد بدأت بدستور ١٩٢٣ وانتهت بقيام ثورة يوليو ١٩٥٢ ، ونستطيع أن نقول أن هذه التجربة لم تنجح النجاح المرجو ٠

فالسلطة التنفيذية اتسمت بعـدم الاستقرار . اذ بلغ عدد الوزارات خلال ٢٨ سنة ٣٨ وزارة وعطل الدستور ثلاث مرات ، ولم يكمل جميع البرلمانات المدد الدستورية المحددة لها . اذا استثنينا برلمان ١٩٤٠ .

ويرجع اخفاق التجربة الديمقراطية الى عوامل كثيرة فى مقدمتهـا أن النظم السياسية البرلمانية التى وضعت فى مصر نقلت حرفيا عن النظم الدستورية الاوربية، على الرغم من أن المجتمع المصرى كان يختلف كل الاختـلاف عن المجتمع البلجيكى أو الفرنسى .

وكان هناك ايضـا سلطة الاحتلال البريطـانى وتدخلها المستمر فى الحيـاة السياسية المصرية ، سـواء كان هذا التدخل سافرا أم خفيا ، وقد زاد هذا التدخل اثناء الحرب العالمية الثانية ، ولم تكن مصر قد اسـتعدت لتحديات مرحلة ما بعد الحرب ـ حتى وجدت نفسها تدخل غمار الحرب الفلسطينية الأولى ، **وما كان من نتائج هذه الحرب أضعف التجربة الديمقراطية المصرية أكثر مما كانت ضعيفة » .**

ويضاف الى ذلك قيام الجهاز الحاكم بتزييف الانتخابات لصالح الموالين له .

وعن مرحلة الراحل جمال عبد الناصر يقول المهندس سيد مرعى :

« فى الانتخابات السابقة كلها كان الاتحاد الإشتراكى هو الذى يتولى عملية الترشيح ومن كان يقوم بترشـيحه لابـد أن ينجح . وكذلك كان الحال فى ظل الاتحاد القومى وفى ظل هذا النمط من الترشيح يكون المنافس ضعيفا كذلك فان عدد الحاضرين فى التصويت لم يكن يمثل عدد من حضروا فعلا .

واستمر الاتحاد الاشتراكى فى ممارسة نشاطه على النحو المبين فى الدسـتور غير أنه كان من الواضح **أنه لم يستطع ان يظهر الراى الآخـر فى المناقشة ، بل ظل يقوم على الراى الواحد . ليس هذا فقط . بل يمكننا القول ان جميع القرارات التى كانت تصدر عن الاتحاد الاشتراكى كانت كما يسمونها قرارات فوقيه . وليست ممثلة لرغبات الجماهير ، مع أن تلك الجماهير منتمية ولو اسميا الى الاتحاد الاشتراكى ومن هنا فقدت القنوات الموصلة بين الاتحاد الاشتراكى كقمة سياسية وبين الجماهير وكان ذلك سببا لظهور مراكز القوى » .**

ويقول الدكتور مصطفى خليل :

« قام الاتحاد الاشتراكى على مفارقات عديدة ، فبينما كان فى الشكل متماثلا مع الأحزاب الشيوعية ، الا أنه افتقد العديد من العناصر التى تؤهله لممارسة دور مماثل مثل عدم اسهامه فى عملية صنع القرار السياسى . أضف الى ذلك أن الاتحاد **الاشتراكى لم يسمح بالتعبير عن المعارضة او وجهة النظر الأخرى فى داخله ، كما ان الانتخابات التى كانت تتم فى داخله اتسمت بشكل غير ديمقراطى وكانت نتائجها تعبيرا عن مصالح قيادات التنظيم . وهكذا ، بدلا من أن يكون قناة لتوصيل رغبات**

واماني الشعب الى الحكومة ، فقد كان الاتحاد الاشتراكي العربي اداة للتحكم وللتعبير عن مصالح فئة محدودة • ومن ثم فتح الباب واسعا امام الفساد السياسي ، فقد استخدم بواسطة العناصر الانتهازية للحصول على مزيد من السلطة والتغلغل الى المناصب الهامة في داخل الدولة وهكذا ، فقد تحول •• الاتحاد الاشتراكي عن الهدف الأساسي الذي انشيء من اجله ـ (والغريب) انه كان جهازا لتوصيل افكار السلطة الى الشعب وليس العكس » (٤٣) •

والآن بعد عرض هذه الأدلة فهل هناك شك في أسباب فرقة الجماهير عن النظم والقوانين السارية **ابتداء من سنة ٢٠٠٠ ق٠م وحتى ١٥ مايو سنة ١٩٧١ ؟**

ان الفرقة نابعة من ان هذه القوانين وهذه النظم وهذه القيادات انما فرضت من اعلى وبمعرفة القلة المتسلطة المتصارعة المتعالية المميزة بنصيب الأسد من الدخل القومي والمتحكمة في ارزاق الناس وفي انفسهم بدءا من سنة ٢٠٠٠ ق٠م وحتى ١٥ مايو سنة ١٩٧١ •

ثم نصل الى ما بعد ١٥ مايو حتى الآن ، **فهل المطلوب من الشعب أن ينقلب بين يوم وليلة الى تغيير كل ما وقر في نفسه من تعمد الجهاز الحاكم في جميع المراحل السابقة على ١٥ مايو سنة ١٩٧١ من ابعاده عن فرض ما يشاء من نظم وقوانين وقيادات ؟**

هذا من ناحية (ايمان) الناس بأن اليوم ليس بأفضل من الأمس ، فالكل سواء في فرض النظم والقيادات من أعلى •

فهكذا تعلموا من التاريخ ومن أقوال كبار السن •

ومن هنا نشأت الأمثلة (الشعبية) التي تجعل من الجهاز الحاكم في اي وقت، عدوا للناس •

ولكن هل الشعب على خطأ أم على صواب في اعتقاده في أن كافة النظم والقوانين الحالية انما هي مفروضة من القلة الحاكمة (قياسا) لما كان عليه الحال من سنة ٢٠٠٠ ق٠م حتى ١٥ مايو سنة ١٩٧١ ؟

الحقيقة أن الشعب على صواب في ذلك للأسباب التالية :

١ ـ غياب الوعي السياسي والثقافي عند غالبية القاعدة الشعبية :

ان أكثر من ٧٠٪ من الشعب أمي لا يعرف القراءة والكتابة وان الـ ٣٠٪ من الشعب غير الأمي اغلبيته في أمية ثقافية وسياسية •

فاذا كان المقيدون في جداول الانتخابات ٩ مليون نسمة سنة ١٩٧٦ ، يذهب منهم الثلث الى صناديق الانتخابات ، أي ثلاثة ملايين نسمة ـ ثم اذا افترضنا مع (المجاملة) أن نصف هذا العدد (أي مليون ونصف) هم فقط عندهم الوعي السياسي

لأن يختاروا الدستور الملائم والقيادات الصالحة ، فان هذا يعنى أن عملية فرض النظم والقيادات من أعلى لا زالت سارية لأن مليون ونصف ليس هم الشعب المصرى بأى حال من الأحوال ٠

٢ ـ قلة وعى الكثير من ممثلى القاعدة الشعبية فى المجالس النيابية :

وحتى يتبين للناس خطورة هذا السبب وتأثيره المدمر فى استمرار فرقة الشعب عن النظم والقوانين والقيادات نقول انه فى مواجهة تطور العلوم والمعارف وتعقدها فقد اضطر ممثلى الشعب فى المجالس المختلفة بالدول المتقدمة الى الاستعانة بأجهزة متخصصة من العلماء فى كافة العلوم السياسية والاقتصادية والاجتماعية لاعداد الدراسات عن كافة الموضوعات التى تعرض على المجالس الشعبية وبهذا يكون ممثلى الشعب على دراية تامة بما يعرض من موضوعات تمس أمور الأمة وذلك بعد تفهمهم لهذه الموضوعات من الأجهزة المتخصصة وبطريقة مبسطة) (٤٤) ٠

ونجد هذا النظام فى أمريكا ، أما فى انجلترا وبعض الدول المتقدمة فانه نظرا لضعف امكانيات النواب المادية فانه يراعى اعداد دراسات مبسطة وفى متناول فهم كل نائب حتى يشترك فى مناقشة الأمور التى تمس الأمة بطريقة واعية سليمة تتيح له أن يقترح الرفض أو الموافقة أو التعديل لما يعرض من نظم وقوانين فى شتى الموضوعات ٠

وبهذا يكون النائب ممثلا فعلا لمصالح الجماهير عن علم وعن وعى ٠

ولعلك تلاحظ ليس غياب غالبية الشعب عما يصدر من نظم وقوانين فحسب كما سبق البيان ، بل وغياب كثير من ممثليه أيضا عن ذلك ٠

٣ ـ فى اسلوب اصدار التشريعات والنظم :

سبق بيان غياب القاعدة الشعبية عند اصدار النظم والقوانين قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ (*) ٠

وقبل أن ينقضى عام ١٩٥٢ رأت قيادة الثورة اسقاط دستور سنة ١٩٢٣ فى ١٠ ديسمبر سنة ١٩٥٢ وذلك بقرار أعلنه القائد العام للقوات المسلحة (محمد نجيب) جاء فيه ٠

(أعلن باسم الشعب سقوط ذلك الدستور ، دستور سنة ١٩٢٣ ، وانه ليسعدنى أن أعلن فى نفس الوقت الى بنى وطنى أن الحكومة آخذة فى تأليف لجنة تضع مشروع دستور جديد يقره الشعب ويكون منزها عن عيوب الدستور الزائل

(*) ص ٢٠٨ من الجزء الثانى من الكتاب

محققا لآمال الامة فى حكم نيابى نظيف وسليم) . وبعد أن أسقطت دستور الملك فى ١٠ ديسمبر سنة ١٩٥٢ لم تعلن سقوط الملكية وقيام الجمهورية الا بعد ستة أشهر تقريبا فى ١٨ يونيو سنة ١٩٥٣ .

ثم انها بعد أن ارتضت من الاحزاب تطهير نفسها واعادة صياغة برامجها أصدرت يوم ١٦ يناير سنة ١٩٥٣ اعلانا بحل الاحزاب السياسية قال فيه معلنه (محمد نجيب أيضا) :

(اتضح لنا أن الشهوات الشخصية والمصالح الحزبية التى أفسدت ثورة سنة ١٩١٩ تريد أن تسعى بالتفرقة فى هذا الوقت الخطير من تاريخ الوطن فلم نتورع بعض العناصر عن الاتصال بدولة أجنبية وتدبير ما من شأنه الرجوع بالبلاد الى حالة الفساد السابقة) ..

وبناء عليه صدر المرسوم بقانون رقم ٣٧ لسنة ١٩٥٣ بحظر النشاط الحزبى بالنسبة الى أعضاء الأحزاب المنحلة (المادة ٢) وحظر تكوين أحزاب سياسية جديدة (المادة ٦) .

ثم انها أصدرت يوم ١٣ يناير ١٩٥٣ مرسوما بتشكيل لجنة من خمسين عضوا لتعمل فى (وضع مشروع دستور يتفق مع أهداف الثورة) . ومع انها لم توقف عمل اللجنة ولم تلغها الا انها لم تصبر الا يومين حتى أصدرت اعلان ١٦ يناير سنة ١٩٥٣ (بتحديد فترة انتقال لمدة ثلاث سنوات) . وأصدرت فى ١٠ فبراير سنة ١٩٥٣ اعلانا دستوريا ببيان نظام الحكم فى فترة الانتقال عهد الى مجلس قيادة الثورة بأعمال السيادة العليا (المادة ٨) وعهد بالسلطة التشريعية الى مجلس الوزراء وعهد بالمراقبة والمتابعة الى مؤتمر يتألف من مجلس الوزراء ومجلس قيادة الثورة مجتمعين (المادة ١١) ، غير أنه لم يمض عام واحد على هذا الموقف حتى أصدرت الثورة فى مارس ١٩٥٤ قرارا ينص على (اتخاذ الاجراءات فورا (لاحظ فورا ..) لعقد جمعية تأسيسية تنتخب عن طريق الاقتراع العام المباشر على أن تجتمع خلال شهر يوليو ١٩٥٤ وتكون لها مهمتان : الأولى مناقشة مشروع الدستور الجديد واقراره والثانية القيام بمهمة البرلمان الى الوقت الذى يتم فيه عقد البرلمان الجديد وفقا لأحكام الدستور الذى ستقره الجمعية التأسيسية) .

(والغريب) أن هذا القرار لم ينفذ ، اذ ما لبثت الثورة ، وقبل مرور شهر واحد على اصداره ، أن أصدرت يوم ٢٩ مارس ١٩٥٤ قرارا آخر جاء فيه (أولا — ارجاء تنفيذ القرارات التى صدرت يوم ٥ مارس الحالى حتى نهاية فترة الانتقال) .

ثم ان قرار ٢٩ مارس سنة ١٩٥٤ هذا قد أضاف (ثانيا — يشكل فورا (فورا أيضا) مجلس وطنى استشارى يراعى فى تمثيله الطوائف والهيئات والمناطق المختلفة ويحدد تكوينه واختصاصاته بقانون . وهو قرار مستخرج من عصور ما قبل

الديمقراطية يوم ان كان الملوك يختـــارون ممثلين للطوائف والمنـــاطق فى مجالس استشارية تكون مهمتها مقصورة على ابداء الراى والنصيحة بدون التزام أو الزام . ولسنا فى حاجة الى القول بأن قانون تكوين ذلك المجلس الوطنى الاستشـــارى لم يصدر وبالتالى فان قرار ٢٩ مارس ١٩٥٤ فى هذه الجزئية لم ينفذ .

ثم اخيرا ـ وليس آخرا ـ ان لجنة الخمسين التى كانت قد تشكلت بمرسوم ١٣ يناير ١٩٥٣ لوضع مشروع دستور (يتفق مع مبادىء الثورة) كما جاء فى قرار تشكيلها أو دستور يحقق آمال الأمة (فى حـكم نيابى نظيف وسليم) كما جـاء فى اعلان الغاء دستور ١٩٢٣ ، قد أعدت مشروعها وقدمته فعلا الى مجلس الوزراء يوم ١٧ يناير ١٩٥٥ . ولكن قيادة الثورة لم تقبله بحجة أن نظام الحكم فيه نيابى أكثر مما يجب . ووضعت بدلا منه دستورا أعلنته يوم ١٦ يناير ١٩٥٦ آخر يوم فى فترة الانتقال وأرجأت العمل به الى يونيو سنة ١٩٥٦ التاريخ الذى كان محددا لتمام جلاء قوات الاحتلال البريطانى .. ولم يكن دستور ١٩٥٦ هو آخر المواقف ، فهــو ذاته قد ألغى قبل مرور عامين (٥ مارس ١٩٥٨) بمناسبة الوحدة بين مصر وسورية ثم عاد ذاته بعد أربعة أعوام تقريبا (٢٧ سبتمبر ١٩٦٢) بمناسبة الانفصال ، ثم ألغى مرة أخرى بعد عامين ، بصدور دستور جديد مؤقت (مارس ١٩٦٤)(٤٥) .

وكل هذا يثبت لك كيفية صدور القرارات والنظم التى تمس شئون كل أسرة فى مستوى معيشتها وفى مستقبلها .

القرارات التى تمس الناس فى معايشهم وفى تقدمهم تصـــدر من أعلى ثم يتم الغاءها وتعديلها أيضا من أعلى دون أن يعطوا فرصة للناس حتى لتفهمها أو للعمـــل بموجبهـــا .

ومن هنا كانت الحكومة وقراراتها ونظمها وقوانينها فى واد والشعب فى واد آخر لايفكر الا فى القوت ولا شىء غير القوت .

وبالنسبة للتنظيمات السياسية التى حلت محل الأحزاب القديمة فقد فرضت وألغيت بقرارات من أعلى أيضا .. فبعد أسبوع واحد من حل الأحزاب فى ١٦ يناير سنة ١٩٥٣ أعلنت الثورة قيام (هيئة التحرير) فى ٢٣ ينـــاير ١٩٥٣ وصـــاحب انشاء هيئة التحرير نزول قيادة الثورة الى الشعب ، وشهد عام١٩٥٣ (طوافا) متصلا بين المحافظات والمراكز والقرى والمصـــانع على طول مصر وعرضها فى تجربة جديدة لم ينتقل فيها الشعب الى الحكام ليستمع اليهم بل انتقلوا اليه ليحدثوه .

وفى خطبة الراحل جمال عبد الناصر فى المنصورة فى ١٩ ابريل ١٩٥٣ يقول (ان هيئة التحرير ليست حزبا سياسيا يجر المغانم على الاعضاء أو يستهدف شهوة الحكم والسلطان وانما هى أداة لتنظيم قوى الشعب واعادة بناء مجتمعه على أسس جديدة صالحة ، أساسها الفرد . فنحن نؤمن بأن أى نهضة لا يمكن أن تقوم الا اذا آمن الفرد ببلده وقدرته . وان اعادة بناء الوطن لن تتم الا اذا قام كل فرد بواجبه ، فلن

نستطيع وحدنا أن نقيم هذا البناء · وان الفساد الذى عم جميع مرافق البلاد طوال عشرات السنين ليحتم علينا أن نعمل ، كل فى اتجاهه من أجل ازالتـه والقضاء عليه · واعلموا ان الطريق طويل وشاق · فعلينا أن نتذرع بالصبر ، فالارادة التى لا تعرف اليأس ليس أمامها عائق وسنصل باذن الله وسننتصر) ·

ثم الغيت هيئة التحرير بقرار من أعلى أيضا ليصدر قرارا آخر بانشاء الاتحاد القومى وهو كما جاء بدستور ١٩٥٦ (يكون المواطنون اتحادا قوميا للعمل على تحقيق الأهداف التى قامت من أجلها الثورة ولحث الجهود لبناء الأمة بناء سليما فى النواحى السياسية والاجتماعية والاقتصادية ·

واصبح الاتحاد القومى سلطة رابعة (نظريا) ·

وفى ٢٠ يوليو ١٩٦١ بدأت الثورة باصدار سلسلة القوانين (الاشتراكية) بتاميم جميع البنوك وشركات التامين ومنشئات أخرى بلغ عددها ٤٨٩ منشأة وشركة ومصنعا ·

وفى ٢١ مايو ١٩٦٢ قدم جمال عبد الناصر الى المؤتمـر الوطنى للقوى الشعبية الميثاق بقوله (الميثاق عبارة عن مبادىء عامة او اطار عمل أو اطار للخطة نتج عن ايه ·· نتج عن تجربة وممارسة لمدة عشرة سنوات ·· العشر سنين اللى فاتت كانت فترة تجربة وفترة ممارسة كانت فترة مشينا فيها بالتجربة وبالخطأ (جلسة ٢٦ مايو ١٩٦٢) واقره المؤتمر واصدره (ليكون اطارا لحياتنا وطريقا لثورتنا ودليلا لعملنـا من أجل المستقبل ·

وتمت انتخابات اعضـاء المؤتمر الوطنى للقـوى الشـعبية على اساس قانون الانتخاب رقم ٥٦/٧٣ والقانون رقم ٦٢/٣٤ ـ وانعقد فى المدة من ٢١ مايو سـنة ١٩٦٢ حتى ٣٠ يونيو ١٩٦٢ واقر الميثاق وأصدره بعد مناقشات طويلة واشترك فى رئاسته جمال عبد الناصر وأنور السادات وكمال الدين حسين ·

وبطبيعة الحـال كان فى ذلك الغاء الاتحـاد القـومى ليحـل محله الاتحـاد الاشتراكى)(٤٥) ·

ثم جاءت هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ لتمثل تاريخـا لدى الرأى العام المصرى نهاية الفصل بين المسألتين الوطنية والديمقراطية وليعودا الى سبق عهدهما عملية سياسية واحـدة · لقد تزعزعت الثقـة فى كفاءة النظام السـياسى وفى قدرته على ضـمان الاستقلال الوطنى والاقتصادى ، وبالهزيمة استرخت قوى التماسك فى هذا البناء السياسى ، وكان أول ما أظهر هذا الاتجاه الجديد كمنطلق شعبى هو مظاهرات الطلبة وحركة الشباب فى فبراير ونوفمبر ١٩٦٨) (٤٦) ·

ويقول الدكتور بطرس غالى :

« منذ أن بدأ الجيش بالتحرك فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ وحتى ثورة التصحيح

فى ١٥ مايو سنة ١٩٧١ ، والسلطة قد تركزت فى مجلس الثورة ثم فى يد الرئيس جمال عبد الناصر وذلك بعد أن كانت هذه السلطة موزعة ، قبل الثورة ، بين الملك وأحزاب الاقلية وسلطة الاحتلال وحزب الوفد والمصالح الاقتصادية الأجنبية) •

وبينما نقلت النظم والدساتير الأوربية للتطبيق قبل الثورة ، نقل النظام نقلا أعمى فى (تجارب الثورة) النظم الاشتراكية الشمولية الأوربية •

وبينما لعبت الاحزاب السياسية دورا هاما فيما قبل الثورة ، لعب النظام السياسى الواحد فى التجربة الثانية (مرحلة الثورة) دورا ثانويا هامشيا ، سواء سمى هيئة التحرير أو الاتحاد القومى أو الاتحاد الاشتراكى (٤٧) •

وفى تصريح للمرحوم الرئيس أنور السادات فى ١٩ مارس سنة ١٩٧٦ المنشور بجريدة الجمهورية يوم ٣٠ مارس ١٩٧٦ قال فيه (الميثاق وبيان ٣٠ مارس وورقة أكتوبر كل هذه مذكرات تفسيرية خلاص قديمة) (٤٨) •

ويقول المهندس سيد مرعى ••

أصدر الرئيس السادات قرارا فى يناير سنة ١٩٧٦ بتشكيل لجنة مستقبل العمل السياسى فى مصر (لدراسة موضوع المنابر ودورها فى دعم الديمقراطية وأثر ذلك على مستقبل العمل السياسى فى مصر واقتراح أفضل السبل والضوابط لقيامها مسترشدة فى ذلك بما جاء فى ورقة تطوير الاتحاد الاشتراكى وما يتجمع لديها من آراء وما يطرح من أفكار حول هذا الموضوع •

وفى الحقيقة لقد واجهت لجنة مستقبل العمل السياسى موقفا صعبا فى بداية عملها تمثل فى موجة الفكاهة التى تناول بها الشعب موضوع المنابر • فبعد انتهاء جلسات المؤتمر القومى وفتح الباب لموضوع تشكيل المنابر حتى أصبح هيكل الاتحاد الاشتراكى محل نقاش ، وبدأت التيارات تظهر على حقيقتها مباشرة ، ودل ذلك على أن ثقة الجماهير كانت مفقودة فعلا فى الاتحاد الاشتراكى •

ولكن المشكلة التى واجهتها اللجنة تمثلت فى عددالمنابر التى أعلن عن تشكيلها• لقد تكون فى البداية منبر واحد ، ولكن بعد ذلك بدأت المنابر تنهال بشكل غير طبيعى حتى وصلت الى ٤٠ منبرا ، تشكل بعضها على سبيل الفكاهة مثل منبر اخناتون • ومنبر خريجى المدارس المتوسطة ولقد تبع ذلك أن تسابق كتاب الكاريكاتير فى الصحف فى تناول الموضوع بشكل جعل الشعب كله مما عرف عنه من دقة وحساسية فى الانتقادات ، أن يجعل فيه مادة فكاهة • ولذلك فقد كان أول اقتراح دخلت به الى اللجنة هو تغيير اسمها من (لجنة المنابر) الى (لجنة مستقبل العمل السياسى) حتى تنزع عن هذا الموضوع الهام والجاد ما لحق به من فكاهات وتندر •

ويسلم المهندس سيد مرعى أن مثل هذا الاجراء كان لابد فيه من أن تكون اللجنة التى قامت بهذه المناقشات منتخبة انتخابا شعبيا بصفتها تقوم باجراء

سياسى ضخم يترتب عليه نتائج سياسية تمس الجماهير يجب أن تكون فعلا محل استفتاء شعبى ــ الا انه يرى أيضا أن هذه القرارات حازت موافقة مجلس الشعب المنتخب فى ذلك الوقت ٠

وفى ١١ نوفمبر ١٩٧٦ ، وفى الجلسة الأولى لمجلس الشعب الجديد ، عبر الرئيس السادات عن ظاهرة الانتخابات النظيفة التى أفرزت ذلك المجلس ثم أعلن أمام مجلس الشعب انه (اتخذت قرارا شكلته وأملته معركتكم الانتخابية وما أبرزه الشعب فيها من ارادة ، هذا القرار هو أن تتحول التنظيمات السياسية الثلاثة ابتداء من اليوم الى أحزاب) ، وهذا التحول يترتب عليه اجراء بعض التعديلات التشريعية خاصة الغاء النص فى قانون حل الاحزاب على حظر انشاء أحزاب سياسية ٠٠ الخ ٠

وأجاب المهندس سيد مرعى عن سؤال وجه اليه ان وجود ١٦٠٠ مرشح يتنافسون على ١٧٥ دائرة هو دليل على اقبال الشعب المصرى على التجربة الديمقراطية وفى الواقع يمكن القول أن مقياس مشاركة الشعب واهتمامه بالديمقراطية ليس بعدد المرشحين وانما هو بعدد المساهمين فى الادلاء بأصواتهم والاختيار بين هؤلاء المرشحين ومن الاحصاءات الرسمية نجد أن عدد الناخبين المصريين ٩ر٤٦٢ر٠٠٠ تقريبا وان عدد من أدلوا بأصواتهم بالفعل لا يتجاوز ٣ر٨٠ر٠٠٠ تقريبا وبالتالى اعتقد انه من المطلوب اعادة تقييم مقياس المشاركة المطروح(٤٩) ٠

ومن هذا العرض يتبين السبب فى الفرقة والانقسام الموجودة بين الناس وبين الحكومة والنظم والقوانين والاحزاب السياسية بل وعن وطنهم ومتطلبات تنميته واعادة بنائه وذلك حتى فى مرحلة المرحوم أنور السادات ــ رحمه الله ٠

اذ رغم أن النظم التى أصدرها المرحوم أنور السادات فيها كل المصلحة لهذه الأمة حيث قضت على أخطاء النظم فى المرحلة السابقة ، الا انها قد اتخذت الشكل المفروض من أعلى ٠

ومثلها فى ذلك مثل النظم التى أصدرها الملك اخناتون والتى كانت فيها كل المصلحة للامة المصرية الا أن انفضاض الشعب عنها كان يرجع أساسا الى أنها اتخذت الشكل المفروض من أعلى ــ فلم تجد أى تجاوب شعبى معها ٠

ويوم يتحد الشعب المصرى حول نظمه المختارة وقياداته القدوة لن يظهر على السطح الا الصحيح والمفيد والمثمر لكل أسرة على أرض مصر ٠

ان الغنى فى غير حاجة الى محاباة غيره ، اما الفقير ، فانه لا يقول الحق الذى يؤمن به وانما يحابى من يملك شيئا يعطيه له

من نصائح الملك اختوى

لوله مرى ـ كا ـ رع (قبل سنة ٢٠٠٠ ق٠م٠)

ثالثا : الفرقة بسبب مضمون النظام :

فى الحقيقة فان ما جرى عليه البعض فى البدء باختيار النظام الأصلح لأحوال الناس هو الخطأ عينه ٠

وذلك ان البداية يجب ان تكون فى اختيار النظام الأصلح ليجد دعامته فى الأخلاق وفى ايجابيات الشخصية الانسانية ٠

فكثيرا ما نقرأ ونسمع أن صلاح الحال يكون فى تطبيق الشريعة الاسلامية أو فى النظام الرأسمالى أو فى النظام الشيوعى أو فى النظام الاشتراكى المتطرف ٠٠ وهكذا ٠

والذين ينادون بتطبيق أيا من هذه الأنظمة الاقتصادية والسياسية يعتقدون انها تحقق مضاعفة فى الدخول ورفعا لمستوى المعيشة لكل أسرة ٠

وهذا هو الخطأ ٠

وذلك أن التطبيق العملى لبعض هذه النظم يكشف عن عدم تحقيقها الا للمزيد من الفقر وللمزيد من التخلف على الرغم من محاسنها النظرية وأهدافها المتفقة مع مصالح الناس ٠

فاذا بحثت عن أسباب فشل هذه النظم عند التطبيق ستجد أن السبب الأوحد يرجع الى مخالفة الأغلبية لأحكامها نصا أو روحا وفى الخفاء أو جهارا ٠

ومن هنا تحدث الفرقة عن النظم وعن القيادة الحاكمة وبين الناس بعضهم وبعض فيزداد الفقر والتخلف ٠

ولما كانت مخالفة النظام السياسى أو الاقتصادى أو الاجتماعى هى عملية غير اخلاقية ، ضرورة أن أخلاق الصدق والصراحة والأمانة والشجاعة تحتم عدم مخالفة نظام الجماعة فان رؤى أن فى طاعته ضرر على النفس أو على المال أو على الكرامة ٠٠ كان حتما عرض الموقف بصراحة على المجتمع صاحب النظام لايجاد حل لمشاكل التطبيق ٠

لذلك كان الفيصل فى تحديد مدى صلاحية النظام لتحقيق الوحدة بين الناس يرجع الى امكانية الناس لطاعته ، أى لامكانية ظهور أخلاق الصدق والصراحة والامانة والشجاعة وايجابيات الشخصية الانسانية لمساندة هذا النظام وسيادته فى أمور الأسرة والدولة ٠

وذلك أنه بدون مساندة أخلاق الصدق والصراحة والأمانة للنظام فسينهار النظام تلقائيا .

أما الجرى وراء ما هو شائع من اختيار النظام الأصلح لأحوال الناس المادية من الناحية النظرية دون النظر عن امكانية مساندة الاخلاق لسيادة هذا النظام فهذا هو الخطأ الواجب تداركه .

ولقد كان أزهى عصور التاريخ المصرى فى الوحدة هى العصور التى نعمت فيها الدولة بسيادة القانون حتى الأسرة الرابعة وبمساندة أخلاق الصدق والصراحة والأمانة والشجاعة وايجابيات الشخصية الانسانية (الفطرية) .

أما أسوأ العصور التي شقيت فيها مصر بالفقر والتخلف فهى العصور التى تفرق فيها الناس عن النظم والقوانين والقيادات وحلول سلبيات الشخصية الانسانية فى الكذب والخيانة والخوف والملق والاستكانة .

ومن ثم تمت مخالفة النظم والقوانين فحدثت الفرقة .

فاذا فهمنا الأمور على هذا الوجه ، فاننا نبحث معا عن النظم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التى ستجد لها مساندة (تلقائية) فى ايجابيات الشخصية المصرية عند تطبيقها .

واتباعا لما درج عليه هذا الكتاب فى عدم التقيد بالألفاظ الأكاديمية ، فاننا سنراعى استعمال الالفاظ المؤدية الى المعنى مباشرة .

وبدءا ذى بدء ، وباستبعاد فترة تاريخنا القومى حتى سنة ٢٠٠٠ ق.م. التى اتسمت بايمان السلف بنظامهم المختار بصفة عامة ، فان النظم الاقتصادية والسياسية التى تتحكم فيها (الحكومية) أو القلة فى السلطة وفي اقتصاديات الدولة تؤدى فورا الى ظهور سلبيات الشخصية المصرية فى الخوف والملق والاستكانة والكذب والخيانة والنفاق .. الخ .

وهنا تتم مخالفة هذه النظم ظاهرا أو باطنا وتتفرق الأمة عنها وعن قياداتها وعن نفسها فيزداد الفقر والتخلف .

وقد عايشت مصر هذه النظم ، ابتداء من فرض النظم والقيادات من أعلى سنة ٢٠٠٠ ق.م وحتى ١٥ مايو سنة ١٩٧١ .

وطوال هذه المرحلة التى امتدت لما يزيد عن تسعة وثلاثين قرنا من الزمان تسلطت القلة الحاكمة على اقتصاد الدولة وعلى كل سلطاتها وبهذا أصبح الانسان

المصرى مضطرا الى أن يتلون فى أخلاقه وفى شخصيته تبعا للجهة المتحكمة فى الأرزاق والقابضة على كافة السلطات .

ومن هنا كانت العبرة المستفادة من تاريخنا القومي كله هو فى كف يد القلة الحاكمة من التحكم فى الأرزاق وفى الأنفس .

اى فى ان يكون غالبية الشعب المصرى مالكا لأرزاقه ملكية خاصة مصانة بعيدا عن سيطرة الجهاز الحاكم .

ثم ان يكون الجهاز الحاكم نفسه محكوما من الشعب نفسه وتابعا لتوجيهات واوامر الرغبات الشعبية .

وممكن أن نقول كل ذلك بالكلمات الشائعة فى ان النظام الذى يجد سنده فى الأخلاق وفى ايجابيات الشخصية الانسانية هو النظام الحر حيث تكون اغلبية الناس مالكة لارزاقها ملكية خاصة مصانة وهنا لن يضطر الانسان لان يخاف او يستكين او يتملق او يكذب تبعا للجهة القابضة على الرزق لأنه هو نفسه مالك لرزقه ملكية خاصة مصانة .

كما انه بالديمقراطية ، اى بان يكون الشعب هو الذى ينتخب ممثليه فى المجالس المنتخبة وهو صاحب القضاء الشعبى وهو الموجه للحكومة وهو صاحب الكلمة الأولى والأخيرة فى كافة ما يصدر من نظم وتشريعات ، وهنا لن يظهر فى هذه الأجواء الا ايجابيات الشخصية المصرية حيث انتهت الى الأبد الصراعات التاريخية بين الناس وبين الجهاز الحاكم الذى كان سببا فى كل ما اصاب الشخصية المصرية من سلبيات عبر القرون الماضية .

فبالحرية الاقتصادية وبالملكية الخاصة لكافة الأنشطة لغالبية الناس .

وبالديمقراطية السياسية التى يصبح فيها الناس موجهين وآمرين للجهاز الحاكم سوف تختفى كل سلبيات الشخصية المصرية لاختفاء عوامل ظهورها التى تشكلت عبر تاريخنا كله من تحكم الجهاز الحاكم فى أرزاق الناس وفى أنفسهم .

وهنا ستنطلق ايجابيات الشخصية المصرية من عقالها لمساندة النظام المنبثق من ارادتها الحرة .

فتتحقق الوحدة التى يمكن بها صنع ما كان يعد مستحيلا فى يوم من الأيام .

وقد يقول قائل انك بهذا تهدم النظام الاشتراكى الذى تقوم عليه الدولة .

ثم ينبرى آخرون للقول بأن النظام الحر قد فشل فى الفترة من عصر اسماعيل حتى عصر فاروق .

ثم يأتى آخرون للقول أن هذا الكلام يتفق مع كثير مما هو مطبق حاليا ..الخ.

وقبل أن نرد على مثل هذه الاعتراضات فانه من الواجب أن نعرف أن ما نعرضه في هذه الأوراق ليس الا النتيجة الحقيقية من الدروس التي تعلمناها من التاريخ أي اننا لم نكتشف شيئا جديدا ، انما هو اتجاه أملته تجاربنا ومعاناتنا مع كافة الأنظمة التي عايشناها عبر تاريخنا القومي .

اما أن هذا الكلام يهدم الأساس الاشتراكي الذي يقوم عليه النظام الحالي للدولة المصرية بما فيه من انتشار القطاع العام المحتكر لغالبية انتاجنا وخدماتنا فان هـذا كله لن يكون معوقا لنا أبدا عن ذكر الحقيقة في أن الشخصية المصرية تتلون تبعـا للجهة القابضة على الأرزاق وعلى كافة السلطات وبهذا يتم مخالفة النظام والتفرق عنه وان ظهر للنظرة السطحية غير ذلك .

والرئيس الحكومي سواء في المجالات الانتاجية أو الخـدمية هو الذي يجعـل الأخلاق تتلون وفقا لاتجاهاته .

ثم ينعكس كل ذلك على علاقات العمل والإنتاج .

ثم تأمل في أسـباب نشأة الـكذب والنفـاق والوقيعة والنميمة والكيـد لدى السلطات منذ آلاف السنين وحتى الآن وستجد أن كل ذلك مرجعه الى جلب منفعة أو دفع ضرر بالنسبة للمال أو للنفس لدى الرئيس الحكومي (وغيره) المتحكم في كل ذلك .

بل والمحتكر للعمل وللسلطة .

وأكثر من ذلك ، فقد تعمد من حكموا مصر من غير المصريين حرمان الشعب المصري من الملكيـة العقارية الخاصـة ومن الملكيـة الخاصة المصانة في الأنشطة الاقتصادية الأخرى ليس بهدف الحصول على ثمار كل ذلك لأنفسـهم فحسب ؛ بل للمزيد من اخضاع الانسان المصري لأوامرهم ولاتجاهاتهم وحتى يكون على الدوام (كلبا) يتبعهم .

وجوع كلبك يتبعك .

ولا يستطيع الحاكم الأجنبي أن يجعل المصري يتبعه ويطيعه الا عن طريق سلب هذا المصري كل حقوقه في الملكية الخاصة المصانة ومن ثم يكون رزقه على الحاكم .

ولاثبات ذلك سوف نقدم الجذور التاريخية لفرض الخوف والاستكانة والخضوع على الشعب المصري عن طريق حرمانه من الملكية الخاصة المصانة في كافة الأنشطة الاقتصادية اذ بهذا أصبح الاله الفعلي بالنسبة للمصريين هو الجهاز الحاكم المتحكم في الرقاب وفي الأرزاق .

وبهذا انهارت الشخصية المصرية وتحققت فرقتها .

فى الجذور التاريخية لحرمان الشعب المصرى من الملكية الخاصة المصانة :

يقول الدكتور رفعت السعيد : (٥٠) .

((وللحقيقة فان ظاهرة انعدام الملكية الفردية للأرض قد أثرت كثيرا فى التكوين الاجتماعى للمصريين وفى قدرتهم على الصراع من أجل استخلاص حقوقهم) .

وموضوع حرمان الشعب المصرى من التملك للأرض الزراعية ، استلفت نظر كثير من المفكرين العالميين ابتداء من آدم سميث الى ستيوارت ميل .. الى ماركس .

ويكتب ماركس فى يونيو ١٨٥٣ الى انجلز قائلا :

(ان عدم وجود ملكية فردية للأرض هو فى الواقع مفتاح المسالة الشرقية كلها .. ففى هذه المسألة يكمن كل التاريخ السياسى والاجتماعى للشرق) .

والحق ما قاله ماركس ، فان حرمان الشعب المصرى من الملكية الخاصة المصانة هو السبب الأساسى فى عدم قدرة المصرى على رد ما وقع عليه من ظلم عبر آلاف السنين .

كما انه هو السبب فى اضطرار المصرى الى ذاد كل مثله وايجابياته امام احتياجه الى مداراة الحاكم فى كل شئون معيشته .

ولا ادل على ذلك من ان الثمانين عاما التى قضاها المصريين فى ملكيـة خاصة عقارية ومنقولة من اواخر عهد الخديو اسماعيل حتى آخـر عهد فاروق هى ازهى عصور التاريخ المصرى ، من بعد الثورة الاجتماعى الأولى ، فى الكفاح ضد الحاكم الوطنى والأجنبى لاستخلاص الحقوق المسلوبة بالمقارنة بما سبقها من آلاف السنين ومرحلة الراحل جمال عبد الناصر .

انها فترة ظهر فيها الكثير من ايجابيـــات الشخصية المصرية حيث ظهر الرأى الحر الشجاع المستند الى الرزق الخاص المصان .

انها فترة ظهور القيادة القدوة من أمثال أحمد عرابى ومحمد فريد ومصطفى كامل وسعد زغلول والشيخ محمد عبده وغيرهم .

ويتساءل ماركس عن سبب عجز ((الشرقيين) عن الوصول إلى الملكية الفردية للأرض حتى ولا فى شكلها الاقطاعى ويعلل ذلك بالأسباب التالية .

.. انني أعتقد ان السبب الرئيسى لذلك يرجع الى المناخ وطبيعة التربة ، وخاصة بالنسبة لتلك المساحات الواسعة من الأراضى الممتدة من الصحراء الكبرى الى الجزيرة العربية فبلاد فارس والهند وتركستان ثم الى الهضبة الآسيوية الوسطى .

ففى كل هذه المنطقة نجد أن الرى الصناعى هو الشرط الاول للزراعة وهو أمر لا يمكن أن تقوم به الا الجماعات المنظمة وخاصة الحكومة المركزية ٠

وفى مكان آخر يعود ماركس فيؤكد :

(ان الضرورة الحتمية لاستخدام المياه بطريقة اقتصادية وجماعية هى التى أدت فى الغرب الى تحول المزارع الفردية فى اتجاه تكوين نوع من الجماعية الاختيارية كما حدث فى أراضى الفلاندرز بايطاليا ٠٠ وهى التى تطلبت فى الشرق ــ حيث المستوى الحضارى متخلف والمساحات شاسعة وتحقيق التجمع الاختيارى مسألة صعبة ــ تطلبت تدخل القوة المركزية للحكومة ومن ثم فقد وقع على كاهل الحكومات فى الشرق واجب اقتصادى هو تنظيم أعمال الرى والصرف) ٠

ويعقب الدكتور رفعت السيد على ذلك بقوله (وهكذا ظلت الدولة ممثلة فى الحاكم ٠ مالكة للأرض ما دامت هى التى تتحكم فى مشاريع الرى والصرف ٠

ولكن للكاتب تعليق على ذلك :

وذلك إنه (بفرض) أن دواعى تنظيم الرى والصرف الصناعى على نطاق الدولة كلها تطلب وجود سلطة مركزية ، وهى الدولة ، تقوم بكل ذلك ، فان هذا لا يعد سببا فى حرمان المصرى من ملكية الأرض الزراعية ٠

ومن ناحية اخرى ، لماذا انصرف الحاكم الأجنبى الى احتكار التجارة الخارجية وهيمنته على التجارة الداخلية وتدخله فى (بقايا) الصناعة لما ينيف على ألفى عام ؟

كان من الممكن للمصرى المحروم من تملك الاراضى الزراعية أن يركز نشاطه فى التجارة والصناعة والشركات المالية (لو سمح) له النظام الأجنبى بذلك حتى أوائل عهد اسماعيل ٠

ولكن النظام الذى بدأ من عهد البطالمة سنة ٣٣٢ ق٠م حتى أوائل عهد اسماعيل لم يسمح للمصرى بذلك أبدا ٠

ثم جاءت فترة الراحل جمال عبد الناصر واعادت عقارب الساعة مرة أخرى الى الوراء تحت شعارات الاشتراكية وتحالف قوى الشعب العاملة ٠٠ الخ ٠

ــ وعن هذه يقول الدكتور سعد الدين هلال :

(اذا ما حاولنا دراسة ما يمكن أن نطلق عليها التنظيم القانونى للريف المصرى **فان الفلاح يكاد يكون موظفا لدى الحكومة ، أى يقوم بالانتاج الزراعى لحساب الحكومة،** لأننا اذا درسنا القرارات والقوانين والتشريعات التى تحدد نوع الانتاج وكميته

ومواعيده نجد أن هناك هامشا بالغ الضآلة للفلاح المصرى كمنتج فى اتخاذ القرارات الفردية الخاصة وبتوزيع انتاجه ٠٠ ومن المفهوم أنه يحدث فى هذا الاطار وتحت زعم الكفاءة الاقتصـادية والمصلحة العليـا درجة عالية من القهر وفرض سياسـة معينة لم يستشر فيها الفلاح فى شأن نوعية المحاصيل التى يزرعها أو كيفية تنظيم الجمعيات التعاونية ٠٠٠ الخ) (٥١) ٠

وانه على رغم حسن نوايا الراحل جمال عبد الناصر فى الأخذ بنظـام حرمان الشعب المصرى من الملكية الخاصة للأرض الزراعية ولمعظم الأنشطة الخاصة ، فقد تعرضت الشخصية المصرية لنفس السلبيات التى تعرضت لها من قبل وهى (تلونها) تبعا للجهة القابضة على كافة السلطات والمهيمنة على كافة الأرزاق وهى هنا الجهاز الحاكم أيا كان اسمه أو جنسيته أو ديانته ٠

وفى هذه المرحلة لم تظهر أى قيادة شعبية على وجه الاطلاق ٠

ولكن سوء النية لازم حكام مصر الأجانب فى حرمان المصرى من الملكية العقارية الخاصة ومن كافة الأنشطة الخاصة التى تؤدى الى شيء من الثراء وذلك كما سيبين من بداية هذه (المؤامرة) التى كان الاغارقة أول من نسج خيوطها سنة ٣٣٢ ق٠م ٠ ثم تابعهم فى ذلك كل من استولى بعدهم على مصر حتى بداية عصر اسماعيل اذ ساروا على نفس النظام الذى وجدوه فى مصر والذى كان للاغارقة (فضل) ارسائه لأول مرة ٠

ولنتابع بداية قصة تعمد الحاكم الأجنبى حرمان المصرى من الملكية العقاريـة الخاصة ومن كافة الأنشطة الأخرى الخاصة التى تؤدى الى شيء من الثراء وذلك بهدف تقليم أظافر المصرى واسكاته عن مطاولة ظلم الحكام ، وحضه على الاستكانة لحاجته الى عطائهم أو لمداراتهم ٠

يقول الدكتور مصطفى العبادى :

(المتتبع للنظام الذى وضعه الاسكندر الأكبر لحكم مصر (سنة ٣٣٢ ق٠م) يلاحظ عدم تخصيصه لحاكم عام للبلاد ، وانما قام بتوزيع السلطة بعناية شديدة بين المشرقين على الادارة والشئون العسكرية والشئون المالية ٠

وقد كان أرياتوس أول من لاحظ هذه الحقيقة وفسرها بأن الاسكندر فعل ذلك عامدا ليمنع أى حاكم بمفرده من أن يقوى سلطانه ويتمكن من الاستقلال بمصر(★) ٠

(★) على القارىء ملاحظة تعمد الاغارقة والرومان والخلافة الاسلامية الأموية والعباسـية والعثمانية توزيع السلطات فى مصر بين عدة جهات حتى تتصارع ولا يستقل أحد بمصر ــ وبهذا وضعوا أساس فرقة القيادة نفسها لألفى عام ٠

ورغم أن أحدا لم يستقل بمصر أثناء حياة الاسكندر . ولكن ما أن غادر مصر حتى وجدنا المشرف على الشئون المالية كلومنيس النقراطيسى يظهر فوق كل الموظفين والقادة الآخرين وبدا كأنه والى مصر الفعلى .

والمتتبع لأعمال كليومنيس منذ أن تولى منصبه يلحظ أنه انتهج سياسة مقصودة لاقامة احتكار لتجارة القمح عن طريق السيطرة على السوق المصرية بأن يصبح هو المصدر الوحيد للقمح المصرى ..

وعن طريق احتكار كليومنيس لتجارة القمح استطاع التحكم فى تجارته العالمية وتحديد أسعاره فى الخارج على نحو يحقق له الربح الوفير .

وقد ابتدأ بفرض سيطرته على سوق القمح المصرية بأن قضى على سائر المنافسين الذين كانوا ينحصرون فى **الكهنة وكبار المزارعين والمصدرين** .

ويستطرد الدكتور مصطفى العبادى (**فى عرض قصة بداية احتكار الجهاز الحاكم لكل المقدرات الاقتصادية فى عهد البطالمة والتى نهج عليها كل من تسلموا مصر بعد ذلك**) (*) .

وقد اشتهر كليومنيس بين القدماء بالخديعة والحيلة اللتين استخدمهما بنجاح لتحقيق أهدافه .

ابتدأ كليومنيس بطبقة الكهنة التى سعى الى أن يضعف من مركزها عن طريق اضعاف قدرتها المالية .

وكانت محاولة كليومنيس الأولى على فئة من الكهنة فى منطقة الفيوم كانت تقدس التمساح .

فادعى أنه أثناء زيارة له لمنطقة الفيوم ابتلع تمساح أحد أتباعه وأنه انتقاما من هذه الحادثة سوف يتصيد التماسيح فى الفيوم ويقضى عليها . فخشى الكهنة على الهم من الاهانة (وذلك قبل ظهور المسيحية بالطبع) ، فجمعوا ما استطاعوا من المال وقدموه لكليومنيس تعويضا عن خسارته فى أحد أتباعه ؛ فرضى كليومنيس وهدأت ثورته .

بعد ذلك قام بمحاولة استهدف بها طبقة (رجال الدين) بأسرهم ، اذ جمع ممثلين من جميع المعابد وأعلنهم أن المعابد تتكلف الكثير من المال ولذلك **يجب القضاء على بعضها** .

فخاف الكهنة على معابدهم واتفقوا على جمع مبلغ كبير من المال سواء من أملاكهم الخاصة أو من أموال المعابد وقدموها الى كليومنيس .

(*) هذه الاضافة ما بين القوسين عن عند الكاتب .

كانت هذه الجولة الأولى وكان الغرض منها اخضاع الكهنة سياسيا واقتصادية ٠

بعد ذلك اتجه كلومنيس نحو طبقة المزارعين ونجح فى التخلص من منافستهم بأن اتفق معهم على أن يبيعوا له جميع محصولهم من القمح بالسعر الذى كانوا يصدرون به ، وبذلك احتكر تجارة القمح وأصبح المصدر الوحيد لهذه السلعة فى مصر ٠

أما عن تحكمه فى الأسواق الخارجية العالمية فقد كان ذلك عن طريق شبكـــة متقنة من السماسرة والوكلاء بثهم فى موان البحر الأبيض المتوسط الهامة (كما فعل محمد على بعد ذلك) ٠

وهؤلاء الوكلاء الذين كانوا يخبرونه أولا بأول عن أسعار القمح فى الأســـواق المختلفة ٠

وحينما يخبره هؤلاء الوكلاء عن الأماكن التى يشح فيها القمح ، يقوم الرجـــل فورا بارسال القمح الى هذه الأماكن حيث يرتفع سعر القمح ويبيعه بالسعر الذى يفرضه هو نظرا لندرته فى ذلك المكان ، حتى ليقال أنه باع الكيل من القمح فى بعض الأزمات بمبلغ ٣٢ دراخمة بينما السعر العادى كان يتراوح بين ٥ ــ ١٠ درخمات فقط ٠

والحقيقة فان ممارسة الاحتكار لم تكن جديدة على مصر ، فقد مارسها الفراعنة من قبل فى بعض السلع للتجارة الداخلية ٠

ولكن محاولـــة كليومنيس انشـــــاء تجـــارة احتكاريـــة دولية هى الأولى فى التاريخ (٥٢) ٠

انتهى كلام الدكتور مصطفى العبادى ، ومن عرضه التاريخى تتمثل بداية حرمان الشعب المصرى من كافة الانشطة الخاصة المصانة وخاصة الملكية العقارية والذى سار عليه كل من جاء بعد الاغارقة من حكام حتى عهد اسماعيل ــ نتبين الأسباب التى دعت الأجنبى الى قبضه على الأرزاق واحتكاره لكافة السلطات ٠

فهو أولا ضمن (موت) المعارضة التى كانت متمثلة فى رجال الدين المصريين والتى كانت أملاك معابدهم مقدسة لا تمس ٠

بل ضمن استمرار ولائهم له باستمرار حاجتهم الى عطائه بعد أن تملك كـــل شىء ٠

وهو ثانيا ضمن « موت » معارضة غير رجال الدين من أصحاب الملكيـــــات الخاصـــة فى الأنشطة العقارية والتجارية من الوطنيين بعـــــد أن أصبحوا مجـــرد « عبيد » فى الاقطاعية المصرية المملوكة له ٠

بل هو ضمن أيضا سكوتهم وخنوعهم طمعا ورهبة ٠

وهو ثالثا حصـــل بهذا التأميم على أموال المعابد وأموال التجار وأموال أصحاب الملكيات الخاصة ٠

وهو رابعا وضع أساس تنازع القوى بين كافة القيادات (الأجنبية) لتصارعهم على نهب الشعب المصرى ٠

وبهذا تفشت الاستكانة وانتشر الخوف وعم الفقر واشتعلت الفرقة ٠٠

ولقد تابع البطالمة فى هذه السياسة لتحقيق نفس الأهداف كل من ولى حكم مصر بعدهم حتى أوائل عهد اسماعيل ٠

أما عن فترة الحكم الوطنى قبل سنة ٣٣٢ ق٠م فلم يكن تملك (الملك) لأرض مصر بسبب مركزية الرى والصرف وضرورة هيمنة الحكومة عليه كما ذهب ماركس وغيره من العلماء ٠

ولكن السبب فى ذلك يرجع أساسا الى رغبة الملوك ، ابتداء من ملوك الأسرة الثانية عشرة ، فى العودة الى نظام (السلف) فى الدولة القديمة (*) ، كما سبق البيان أن فترة ملوك اهناسيا وأوائل الدولة الوسطى كانت تتجه الى اللامركزية والى تشجيع الملكية الخاصة والى توزيع القوى الاقتصادية والسياسية ٠

بل ان الملكية العقارية الخاصة كانت موجودة عند بدء احتلال الاغريق لمصر وان كان الأساس (النظرى) هو أن الأرض مملوكة للملك وفقا للعقيدة الدينية ليس غير ٠

وفى هذا تقول السيدة / مرجريت مرى (كان المصريون تحت حكم الفراعنة الوطنيين رعايا حاكم مقدس يحسون بتملكه لهم ولمتاعهم ، وكانت هذه علاقة شخصية بحتة ، ومن الممكن أن يصل للاله أى فرد ــ حتى أفقر الفقرا ءــ ويشرح له شكواه ٠ وكانت سياسة التوكل طريقة من طرق الادارة تناسب البلاد ٠ ومع أنها كانت تعتمد الى حد كبير على الخلق الشخصى لمدير كل اقليم ، الا أنه كان من الممكن لأفراد كل طبقة أن يحصلوا على درجة معتدلة من الراحة والرخاء ويحيوا حياة سعيدة نسبيا ٠

بيد أن العاقبة كانت وخيمة عندما ترجمت الأفكار المصرية الى طرائق يونانية فى الحكم ، فقد غير الاغريق المبدأ الذاتى فى حكم فرعون الى حكم الدولة ذى السيادة الذى لا يحمل أى تآلف روحى ، وذلك بتغيير علاقة الود التى كانت بين فرعون وشعبه **الى حكم الدولة الذى يملك كل الأشخاص والأشياء ٠ فكانت سياسة رزينة محكمة التدبير نفذت بقوة وقسوة ٠ وكان البطالمة يعملون على مبدأ التركيز والاستغلال ٠ وبذلك انتقلت ثروة البلاد الى أيدى القلة ٠**

(★) يراجع صفحة ٢٥ وما بعدها من هذا الكتاب حيث يتبين أن جذور تملك الدولة ويمثلها الملك فى الدولة القديمة والعصر العتيق وما قبله للأرض ولوسائل الانتاج والاستهلاك ترجع الى اصطحاب المجتمع المصرى لنظامه القبلى (الشيوعية الفطرية) بعد استقراره على الأرض سنة ٦٠٠٠ ق٠م٠ بعد اكتشافه للزراعة ٠ كما يراجع أيضا النظرية الدينية التى آمن بها القوم فى هذا المجال ٠

... وتم هذا من البطالة بتفسير ماكر لنظرية سلطة فرعون المطلقة ، **فمن الناحية (النظرية) كان فرعون المالك الوحيد لمصر وكل ما فيها (حسب العقيدة الدينية فى ذلك الوقت) ، الا أنه من الناحية العملية كان كباقى الحكام رئيس فى بلاد تحترم فيها الملكية الخاصة والحقوق الخاصة ، ولكن الناحية النظرية استغل البطالة وجودها على هذه الصورة) (٥٣) .**

وعندما ولى محمد على حكم مصر كان النظام الذى وضع أساسه البطالة لا يزال ساريا فى حرمان الشعب المصرى من الملكية العقارية ومن الأنشطة الخاصة التى تؤدى الى شىء من الثراء ، والا صودرت الأموال اذا ظهر ثراء على أصحابها كما سبق بيان ذلك فى الجزء الثانى من هذا الكتاب .

ولعلك لاحظت كيف أن الرجل استغل هيمنته على الاقتصاد المصرى فى اذلال القيادات المصرية وفى اغرائها ولم ينج من هذه الفتنة الا السيد عمر مكرم رحمه الله .

ولعل ما سبق يثبت لك أن الحكم الأجنبى (تعمد) حرمان المصرى من الملكية العقارية الخاصة ومن الأنشطة الخاصة المؤدية الى الثراء وطوال المدة من ٣٣٢ق.م حتى بداية القرن التاسع عشر الميلادى ولم يكن ذلك راجعا أبدا الى مركزية الرى والصرف .

بل ان الكثير من حكام هذه الفترة قد (أهملوا) أمور الرى والصرف .

انما كان السبب فى هذا الحرمان احكام القبض على الرقاب عن طريق التحكم فى الأرزاق بالاضافة الى احتكار كافة السلطات .

اذ بهذا فقط يضمنون الحصول على نتاج عمل الناس بدون أى ازعاج من جانبهم .

وبالرغم من أنه واضح تماما لكل من يطلع على أسباب (موت) الشخصية المصرية وأسباب معاناة الشعب المصرى عبر تاريخه الطويل وأن ذلك كله راجع الى حرمان المصرى من الملكية العقارية الخاصة ومن الملكية الخاصة المصانة التى تؤدى الى شىء من الثراء .

بالرغم من كل ذلك ، نجد أن الكثيرين ، مع كل أسف ، يتجهون الى (ضرورة) اعادة حرمان المصرى من الملكية الخاصة فى كافة الانشطة تحت شعارات العصر الحديث وهى الشيوعية أو الاشتراكية (المتطرفة) .

أما القول بأن الشيوعية أو الاشتراكية المتطرفة هى غير النظم التى كانت سائدة فى مصر عبر تاريخها الطويل ، وأن الفكر المعاصر يعتبر الانسان مالكا لمقدرات بلده ولكل السلطات فيها ومن ثم هو الذى يدير ويعمل وينتج ويحكم ... الخ ثم يحصل على ناتج عمله كل على قدر حاجته .

يرد على ذلك أن العبرة بالنظام الذى يجد سنده ودعامته فى ظهور الأخلاق وايجابيات الشخصية الانسانية .

وقد ملأ النسيم شراعها ، وبمناظر ملأى بالتحمس والحركة للصيد فى الصحراء ، ومناظر للأطفال وهم يتصايحون أثناء اللعب ٠

كان الغرض من كل تلك المناظر غرضــــا جنــازيا يتعلق بالموت ٠ فالنجــاح والسعادة فى هذه الدنيا ، كانا قوة دافعة نحو النعيم الأبدى فى الحيــاة الأخرى ، وكان لمناظر الحصاد ، أو تربية الحيوانات تأثير سـحرى لحصول النبيل على طعامه فى العالم الآخر ٠ وكانت مناظر السفن تساعده على أن يصبح أكثر حــركة وحرية هناك كما أن المناظر التى تمثل ثراءه فى الحياة وعلو قدره فيها تعطيه مركزا عاليا فى الجنة ، وهكذا ٠

والنقطة المهمة التى يجب ألا ننساها أن جميع المقابر ابتداء من الأسرة الرابعة حتى الأسرة التاسعه عشرة ، كانت تهتم اهتماما خاصــــا بالدنيا وتنكر صحة الموت ، وهذا ما أمد مناظر المقابر بحيويتها المدهشة ، وحب الاستمتاع بالحياة والتفاؤل ٠

ونرى فى معظم مقابر الامبراطورية هذا التعلق بالحاية ، وجدران مقابر الأسرة الثامنة عشرة ملأى بمناظر الزراعة ، والكروم ، وصيد السمك ، وصــــيد الطيور ، والصيد فى الصحراء ؛ ومناظر الصناع يؤدون عملهم ، والمآدب ، وتقديم الجزية من البلاد الأجنبية ، والمناظر التى تمثل الملك وهو يغدق انعاماته على بعض الناس ٠

وأخذ شيء من الوقار يزحف بالتدريج ، فاكثروا من المناظر الخاصة بالموت، وفى اواخر أيام الأسرة الثامنة عشرة ، كانوا يرسمون مناظر محاكمة الميت أمام أوزريس وموكب الجنازة وهى فى طريقها الى القبر . كذلك أخذوا مرة أخرى يرسمون أرملة الميت فى حالة حزنها أو يعطون لهذا الموضوع اهمية خاصة ، ومع ذلك فقد عمدت الأسرة التاسعة عشرة الى تركيز اهتمامها على مباهج هذا العالم ، فنرى رسم حديقــة غناء وفيها الشادوف ، ومناظر عصير العنب بالضغط عليه بالاقدام ومناظر التجارة فى السوق ، أو تلقى المكافأة من الملك ، وأصبحت نسبة المساحة المخصصة للمناظر المتصلة بالحياة ثلاثة أضعاف المســاحة المخصصة للمناأر القاصرة على الموضــوعات الخاصة بالموت والدفن بعد أن كانت مساوية لها ، وكان أساس ذلك ، دون ريب هو التعبير عن حبهم للحياة ٠

وفجأة ، فى أواخر الأسرة التاسعة عشر نلاحظ تغييرا قويا ، ففى خلال جيل أو جيلين أو ثلاثة لم تعد المقابر تحفل بالتعلق بهذه الدنيا فتركت ذلك تركا تاما ، وخصصوا كل مسطحات الجدران لمناظر الموت والحياة الأخرى ٠ لقد غرتهم الأبدية التى لا يعرف أحد كنهها ، وأتت بظلالها على ذلك السرور الباسم فى مصر ، وأصبحنا لا نرى الا المناظر التى تمثل جنازة الميت فى طريقها الى القبر المنحوت فى الجبل الغربى ، ومحاكمة الميت امام أوزريس ، واطعام الهة شجرة الجميز للميت ، واعداد المومياء ومناظر الآلهة وشياطين العالم الآخر المخيفين و (خليطا من الأساطير المليئة بالمغالاة وبالتعاويذ التي يرجون منها الحماية) ٠

كما يقول الدكتور يوسف القرضاوى عن تأثير هذه النظم على شخصية الانسان: **« تخنق حرية الشعب وتفرض دكتاتورية عاتيه مستبده ، تتحكم فى ارزاقه واقواته. ولا تدع فرصــة لحرية العمــل أو التملك او التصرف . ومعنى هذا بعبارة أخرى : فرض عبودية عامة على الشعب كله : عبودية يصبح المواطنون معها رقيقــا يملكهم سيد واحد . هو الجهاز الحزبى الحاكم المسيطر على الناس ببوليسه وجواسيسه وسجونه ومنافيه . والناس أمام جبروته وارهابه مكرهون على الســمع والطاعة . بل على التاييد والتصفيق ، عاجزون عن قول (لم) فضلا عن قول (لا) . اذ كيف يعارضون من يملك أقواتهم وأقوات أولادهم فى قبضته ، وهم لا يملكون شيئا » (٥٥) .**

فى نشر الملكية الخاصة المصانة للغالبية الشعبية :

ان السند الأوحد لظهور ايجابيـــات الشخصية المصرية يكمن فى تملكهــا لأرزاقها ملكية خاصة مصانة وهنا سنجد أن بمصر حوالى خمسة ملايين من الأفدنة من الأرض الزراعية .

ويبلغ نصيب الفرد من هذه الأفدنة حوالى ⅛ فدان وهذا أقل بكثير مما يحتاجه الفرد لمعيشته لهذا نســتورد من الخارج معظم حاجتنـا من القمح والفول والعدس والسكر وكافة المواد الغذائية مما سبق بيانه فى ص ٣٣٠ ، وما بعدها من هذا الكتاب .

والمفروض أن يصل نصيب الفرد من الأراضى الزراعية الى ½ فدان ثم قام الدكتور الجبلى الى تخفيض الرقم الى النصف ليكون نصيب الفرد ¼ فدان .

وهذا التخفيض لتقريب الفجوة بين الموجود واقل ما يمكن لتحقيق المرغوب .

وبهذا فنحن بحاجة الى خمسة ملايين فدان مزروعة (فورا) والى استصلاح ربع مليون فدان على الأقل سنويا لمواجهة الزيادة السنوية فى تعداد السكان .

ولكن اذا أحببنا الرفاهية الحقيقية فنحن بحاجة الى عشرة ملايين أفدنه صالحة للزراعة فورا والى استصلاح نصف مليون فدان ســنويا لمواجهة الزيادة السنوية فى تعدادنا .

وكل هذه الزيادات هى التى يجب أن تكون مملوكة ملكية خاصة مصانة .

ولما كانت الأغلبية الشعبية حاليا غير مالكه لأراضى زراعية ، فهى ستكون لأول مــرة فى التاريخ ، هى المالكة لكل الأرض الزراعيــة (بعد الاستصلاحات) ملكيــة خاصة مصانة .

وبهذا تتحقق ايجابيات الشخصية المصرية لدى الأغلبية تبعا لتملكها لوسائل رزقها ملكية خاصة مصانة .

ثم نأتى الى موضوع قلب مصر الى دولة سياحية فانه من المسلم به أن تكون آثارنا كلهــا ملكيــة عامة لكل المصريين ، ولكن تجديد هذه الآثار لتكون على نفس

حالتها التى كانت عليها عند انشائها لأول مرة ، ثم اعداد المناظر والأشخاص لأداء العادات والتقاليد والنظم التى كانت سارية فى مختلف الفترات التاريخية وانشاء الفنادق والطرق والمتنزهات حولها .. الخ .

كل هذا تقوم به الأغلبية غير المالكة لأرزاقها ملكية خاصة لتصبح بعد ذلك هى المالكة للمنشآت (غير الأثرية) وهى المستفيده من عائد السياحة .

ومن طبيعة الأمور أن يتم ذلك كله فى اطار خطة للتنمية الشاملة تحدد حقوق والتزامات العاملين فى اعادة بناء مصر الحديثة .

وبهذا فليس لهذا الكلام اى علاقة بنظام القطاع العام أو الملكية العامة الموجودة حاليا وذلك لأن هذا كله أصبح لا يكفى المصريين انتاجا أو خدمة بتعدادهم الحالى فضلا عن ان المنافسة الحرة عليه غير مجدية بل ستشعل الصراع بين الناس على الفتات الذى لا يكفى .

انما الاتجاه كله الى الملكية الخاصة لما وراء الموارد الاقتصادية المستقلة والمستثمرة حاليا .

وكما أن الغالبية الشعبية غير مالكة لارزاقها ملكية خاصة مصانة ، فان غالبية الموارد الاقتصادية التى لم تستغل الاستغلال الأمثل أو لم تستغل بعد يجب أن تؤول فى النهاية الى الملكية الخاصة المصانة لغالبية الأمة المصرية .

وبهذا تعود للشخصية المصرية ايجابياتها فى الشجاعة والصدق والأمانة .. فالوحدة وذلك تبعا لتملكها لأرزاقها ملكية خاصة مصانة .

فتكون سندا ودعامة للنظم المختارة ومنقادة لقيادتها القدوة .

أما التخوف من ظهور دولة الأغنياء التى تتحكم فى الأرزاق والانفس كما كان الحال قبل ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ فقد سبق البيان فى الجزء الثانى من هذا الكتاب أن هذه الدولة كانت نشأتها ، فى البداية (مصنوعة) بمعرفة محمد على الذى أغدق من مال الشعب على المقربين لديه ثم تابعه فى ذلك من أتوا بعده حتى عصر اسماعيل .

فهى دولة لم تنشأ تبعا (لشطارتها) ولكنها نشأت بمساندة وبصنع الحاكم نفسه .

وعلى كل حال فان الناس أنفسهم سيضعون من القيود ما يكفل عدم بروز دولة للأغنياء فيما بينهم حتى لا تتكرر مآسى التاريخ .

يقول الامام الشيخ محمد عبده (ان أغنى البلاد وأسعدها هى البلاد التى **توزعت ثروتها على غالب أهاليها (*) .**

ورحمة الله على هذا الرجل ، فكأنه اطلع على سبب بلاء هذه الأمة والذى استمر جاثما على صدرها لآلاف من السنين .

(*) تجديد الفكر الاسلامى (محمد عبده ومدرسته) د. محمد عمارة ص ١٢٩ .

لقد أعطيت خبزا لكل الجائعين فى جبل الثعبان (ضيعته) وكسوت من كان عريانا فيها ، وملأت الشواطىء بالماشية الكبيرة وأراضيها المنخفضة بالماشية الصغيرة، واشبعت كل ذئاب الجبل وطيور السماء بلحوم الحيوان الصغير ٠٠ ولم أظلم أحدا قط فى ممتلكاته حتى يدعوه ذلك الى ان يشكونى لاله مدينتى ، ولكنى قلت وتحدثت بما هو خير ٠ ولم يوجد انسان كان يخاف غيره ممن هم أقوى منه حتى جعله ذلك يشكو للاله ٠ ولقد كنت محسنا لأهل ضيعتى بما فى حظائر ماشيتى وفى مساكن صيادى الطيور ، وانى لم انطق كذبا لأنى كنت امرأ محبوبا من والده ممدوحا من والدته رفيع الأخلاق مع أخيه ، وودودا لأخته ٠

(حاكم احد أقاليم مصر فى القرن السابع والعشرين ق٠م)

لقد بلغت من العمر العاشرة بعد المائة منحنى الملك فى خلالها هبات تفوق هبات الأجداد لأنى اقمت العدل للملك حتى القبر ٠

الوزير بتاح حتب
من الدولة القديمة

لا توجد سيئة اقترفها الملك بيبى وهذه الكلمة ذات وزن فى نظرك يا (رع) ٠
من الدولة القديمة

لقد اوفدتك لتجز صوف الشاه لا لتسلخها ٠
(من توجيهات امبراطور روما لواليه على مصر)

(اخرس يا فلاح يا كلب)

من شتائم المماليك وغيرهم من الأجانب فى المصرى
الغاية الدين أن تحفوا شواربكم

يا أمة قد ضحكت من جهلها الأمم
أبو الطيب المتنبى يعيب على المصريين
رضاءهم (بالظلم)

يقول البك الألفى لجليسه عن شعب مصر (الانسان الذى يكون له ماشية يقتات هو وعياله من لبنها وجبنها ، يلزمه ان يترفق بها فى العلف ، حتى تدر وتسمن وتلد له النعاج ، بخلاف ما اذا أجاعها وأجحفها واتعبها واشقاها واضعفها ، حتى اذا ذبحها لا يجد بها لحما ولا دهنا) ٠

(ان ما جباه محمد على من الأهالى لاقامة سد ترعة الفرعونية يزيد كثيرا عما صرفه عليها واما غير ذلك فكله كذب لا اصل له وان وجد من يحاسبه على ما اخذه من القطر المصرى من الضرائب والمظالم لما وسعته الدفاتر ٠٠) ٠

عمر مكرم

(الآن طابت لى مصر)

محمـــد عـلى
عندما علم بوفاة منافسيه
على حكم مصر

« لقد بدأت بظليل ظل الحضرة السنية الملوكانية بمباشرة أمور الخديوية عالما علم اليقين أن سـلامة الخديوية المصرية تحصـل بالثبات على قدم العبودية والتابعية للسلطة السنية » .

رد توفيق على فرمان
السلطان بتوليته خديويا

(كم اتمنى أن أرى عرش السلطان وهو ينهار فوق رأسه) .

عبد الله النديم

« ما أنا الا أحد خدام هذه الأمة ، الذين يدينون لبلادهم بحياتهم . وليست هذه الحياة الا وقفا على الوطن العزيز . فاذا وهبته اياها ، وضحيت فى سبيل اسعاده لا أكون قد قمت الا بالواجب المفروض على كل مصرى » .

محمـد فريد

« أيها الأخوة والأخوات فى كل موقع : ان المستقبل مفتوح أمامكم ولن يكون الا بعقولكم وتضحياتكم . ان اخوتكم وأبناءكم الذين استشهدوا وهم يعبرون كانوا يعرفون أنهم لا يعبرون مجرد حاجز مائى ولا يدكون مجرد معاقل العدو ، ولكنهم كانوا يعبرون ببلادهم وأمتهم الى أمل جديد وحياة جديدة ، ولن نكون أوفياء حقـا لأرواح هؤلاء الشهداء الأبرار ولروح اكتوبر العظيم الا اذا أقمنا ذلك الوطن العزيز والمجتمع القوى الذى استشهدوا وهم يحلمون به .

محمـد أنور السادات

فى القيادة الحالية

(فى كتاب الأخلاق للأستاذ (صمويل سميلز) فصل كتبه عن الشجاعه ، يقول (لذوى الشجاعة من رجال ونساء الفضل على العالم · وليس المراد من قولنا الشجاعة الجسدية التى يستوى فيها الانسان وذلك النوع من الكلاب ، وانما مرادنا بالشجاعة نكلم الشجاعة التى تظهـــر فى الكد والسعى الخفيفين ، والتى يستطيع صاحبها أن يتحمل المصاعب وان ثقلت ، ويكابد المشـــاق مهما عظمت فى سبيل الحق والواجب · فان ذلك النوع من الشــجاعة أجـل من اتيان خوارق الأعمـال الجسمانية التى ينال أصحابها من أجلها الألقاب والتبجيل والشرف الرفيع) ·

(تلكم الشجاعة المعنـــوية ميزة فيمن بلغ من الرجال والنســاء أرقى درجات الانسانية . هى الشجاعة التى تدعو صاحبها الى قول الحق والسعى وراءه وتوحى اليه أن يكون عادة أمينا مغالبا لهوى النفس شــديد الحرص على القيام بما يفرضه عليه الواجب · فمن لم يتصف بهــذه الخلة ، رجلا كان أو امرأة ، فهو خليق أن لا يتحلى بغيرها) ·

(واذا قلبنا صحائف تاريخ البشر راينا كل حركة فى سبيل الرقى صادفت من المصاعب ما يعوق سيرها . ومن الحاكمين الجامدين من وضعوا العراقيــل فى سبيلها · وما كانت لتتخطى هذه العقبات لولا زعماؤها اولو الجراة والاقدام وقادة الأفكار من الكاشفين والوطنيين وغيرهم من العاملين فى سبيل الحياة على اختلافها ·
وما من عقيدة صحيحة أو حقيقة ناصعة الا ولاقى الداعون اليها وهم يجاهدون فى سبيل حمل العالم على الاعتراف بها شيئا كثيرا من الهمز والاضطهاد) (٥٦) ·

ولاحظ ما سبق بيانه عن تأثير مذبحة القلعــة فى بث الخوف والاستكانة فى النفس المصرية لما ينيف على أربعين عاما ؟

وانظر وتأمل فى شجاعة حورس وهو يقاتل بشجاعة فى سبيل نصرة المبدأ ·

وفيما يلى نعرض بعض النصوص التاريخية التى تصور لك الكثير عن ملامح القيادة القدوة فى مصـــر وقت ازدهار حضـــارتها حتى أواخر الدولة القديمة ثم فى الفترة الأولى (عصر ملوك اهناسيا) (٥٧) ·

ولعلك تجد فى ذلك بعض الأســـباب التى من أجلها التف الناس حول هذه القيادات وذلك اضافة لما سبق تقديمه فى الجزء الأول من هذا الكتاب ·

يقول أحد الأشراف فى نقش على قبره انه كان انسانا **يفصل بين المتخاصمين دون محاباه** ، (لأنى كنت ثريا وما أكرهه هو الكذب ، وكنت متزن العقل من غير ميل) .

ويقول آخر (لقد كنت امرأ يستمع للقضايا حسب الحقائق دون اظهار محاباه لمن يحمل الهدية (يعنى الرشوة) لأنى كنت صاحب ثراء أرفل فى بحبوحة النعيم) .

ولقد اتخذ الحق والعدالة مكانة فى (نصائح بتاح حتب) حيث تسامت على كل مكانه ، حيث يقول **(اذا كنت حاكما تصدر الأوامر للشعب فابحث لنفسك عن كل سابقة حسنة حتى تستمر أوامرك ثابتة لا غبار عليها ، ان الحق جميل وقيمته خالده ، ولم يتزحزح من مكانه منذ خلق لأن العقاب يحل بمن يعبث بقوانينه ، وقد تذهب المصائب بالثروة ولكن الحق لا يذهب بل يمكث ويبقى ، والرجل** المستقيم يقول عنه (انه متاع والدى قد ورثته عنه) .

ويقول بتاح حتب **(اذا كنت حاكما فكن شفيقا حينما تسمع كلام المتظلم ، ولا تسىء اليه قبل ان يغسل بطنه ويفرغ من قوله ما قد جاء من اجله .. وانها لفضيلة يزدان بها القلب ان يستمع مشفقا) .**

(على أن الوازع الخلقى لم يبق منحصرا نفوذه فى العوامل الشخصية ، مقتصرا على علاقة الانسان بأسرته وجيرانه أو المجتمع الذى يعيش فيه فحسب ، بل كان قد بدأ تأثيره يظهر فى ذلك الزمان فى الأوساط العليا من المجتمع البشرى ، حتى صار تأثيره يظهر فى واجبات الحكومة نحو عامة الشعب ، **ولو ادى تنفيذ تلك الواجبات الى عدم رعاية حقوق الأسرة اصلا .**

فقد وجدنا فى عصر مبكر مثل عصر الاهرام أن الوزير العادل (خيتى) قد صار مضرب الأمثال بسبب الحكم الذى اصدره ضد اقاربه عندما كان يرأس جلسة للتقاضى كانوا فيها احد الطرفين المتخاصمين ، اذ أصدر حكمه ضد قريبه دون ان يفحص وقائع الحال ، وكان ذلك منه تورعا عن ان يتهم بمحاباة اسرته او مولاتها ضد خصومها ، وقد جاء فى احد النقوش القديمة التى تعرضت لاعادة ذكر الحادث (وحينما اراد واحد منهم أن يستانف الحكم .. فانه (أى الوزير) صمم على رأيه الأول) .

وبعد مضى ألف وخمسمائة سنة على ذلك الحادث كان اسم (خيتى) المذكور يقتبس فى الحياة الحكومية مثلا للاجحاف بالغير يجب الا يحتذى حذوه .. وقد أخبر الفرعون وزراء القرن الخامس عشر ق.م (ان الحكم المشهور الذى أصدره (خيتى) السالف الذكر كان أكثر من العدالة ، لما فيه من الشطط فى التحرز من محاباة الأقارب) .

وقد سبق بيان الخطاب الذى كان يوجهه الملك عند تولية الوزير للحكم (ص ٩٥) .

ويقول الفلاح فى خطابه للحاكم (اقض على الظلم واقم العدل وقدم كل ما هو خير وامح كل سيء ، حتى تكون كالشبع الذى يقضى على الجوع . أو كاللباس الذى يخفى العرى ، أو كالسماء الصافية بعد سكون العاصفة الشديدة . أو كالنار التى تطهو الطعام . أو كالماء الذى يطفيء الغلة) ٠

ولما لم يجب الفلاح الى طلبانه فى رد مسروقاته غير لهجته وجعل ينتقد نصرفات الحاكم بطريقة لازعة مؤلمة والحاكم يسمع كل ذلك ويأمر بكتابة انتقادات هـذا الفلاح لتكون بعد ذلك مما تتناقله الأجيال ٠

(لقد نصبت لتسمع الشكاوى ، وتفصل بين المتخاصمين وتضرب على يد السارق ، ولكنك تتحالف مع السارق والناس تحبك رغم أنك معتد ٠ ولقد نصبت لتكون سندا للرجل الفقير يحميه من الغرق ، ولكن انظر فانك أنت الفيضان الجارف)٠

(انك متعلم ، انك مهذب ، لقد تعلمت ولكن لا لتكون سارقا ، انك متعود لأن تفعل ما يفعله كل الناس وقد وقع مثلك أقاربك فى نفس الأحبولة ، وأنت يا من تمثل الاستقامة بين كل الناس قد صرت على رأس البغاة فى كل البلاد ، ان البستان الذى يزرع الشر ، يروى حقله بالعسف ليثمر زرعة البهتان ، وبذلك تغمر الضيعة بالشر) ٠

ولما استمر الحاكم فى صمته دون أن يرد قال الفلاح صائحا ٠

لا يوجد فرد صامت لا تحفزه حالتك على الكلام ، ولا من نائم لا تجعله حالتك يستيقظ من رقدته ، ولا من انسان مكتئب الا جعلته يثور ، ولا من فم ارتج عليه الا افترت شفتاه ، ولا من جاهل الا صيرته حكيما ، ولا من غبى الا جعلته حالتك يتعلم ٠

(أقم العدل لرب العدل وهو الذى أصبح عدله حقا ، أنت يا من تمثل القلم والقرطاس واللوح ، بل تمثل تحوت (اله القضاء) لأنك بعيد عن عمل السوء ٠

على ان العدل عندما يكون قائما يكون حقيقه عدلا ، لأن العدالة (يعنى ماعت) ابدية ، فهى تنزل مع من يقيمها الى القبر عندما يوضع فى تابوته ويثوى على الأديم ، واسمه لا يمحى من الأرض بل يذكر بسبب عدله ، وهكذا تكون استقامة كلمة الله) ٠

(انك لم تجازنى حسب الكلمة الطيبة التى خرجت من فم رع (الاله) ٠

(تكلم الصدق وافعل الصدق لأنه عظيم ولأنه قوى ثابت والجزاء سيلاقيك وسيتبعك حتى الشيخوخة الموقرة) ٠

(لا صديق لمن يصم أذنه عن الحق ، والجشع لا يحظى بيوم سعيد) ٠

ولعل ما جاء باقوال هذا الفلاح يوضح نوعية القيادة التى تمناها المصرى منذ النشأة الأولى حتى الآن ٠

ولقد عرضنا الكثير من نماذج القيادات وأسباب التفاف الجماهير حولها بالولاء والطاعة ٠ وذلك فى الجزء الأول من هذا الكتاب ٠

كما سبق عرض بيان بالقيادات التى تفرقت عنها الجماهير وأسباب هذه الفرقة فى الجزء الثانى من هذا الكتاب ٠

وعن دور القيادة فى قيام الحضارات وفى انهيارها ، سبق عرض ما انتهى اليه الدين الاسلامى فى ذلك ، وهو نفس الشىء الذى اكتشفه المؤرخ الفيلسوف أرنولد توينبس بعد الاسلام بأربعة عشر قرنا ٠

وبعد هذا العرض ، نعود الى التساؤل عن أسباب فرقة الأمة المصرية عن قياداتها الحالية ؟؟ ٠

وفى ضوء الدروس المستفادة من تاريخنا القومى ومما جاء فى هذا الكتاب فان أسباب الفرقة ترجع الى ٠

١ ــ لا تظهر القيادة القدوة الا فى أجواء الحرية الاقتصاديه والديمقراطية السياسية ٠ اذ أنه فى هذه الأجواء يمكن للجماهير التعرف ، بحرية ، على القيادة الصالحة من حيث التزامها بالنظام ولو على نفسها ومن حيث تضحياتها وفكرها المتجدد فى خدمة الأمة ٠

كما أن هذه القيادات تجد فرصتها للعطاء وللظهور فى أجواء الاطمئنان التى لا تسود أبدا الا فى أجواء الحرية ٠

هنا تقوم الجماهير بتعيين القادة وليس الحكام ٠

أما فى الأجواء التى تتحكم فيها القلة الحاكمة فى أرزاق وفى أنفس الناس سواء تحت مسميات شيوعية أو اشتراكية متطرفة ٠٠ فان هذه الأجواء تحول دون ظهور القيادة القدوة وان كانت تسمح بظهور القيادات الصادر بتعيينها فى مواقعها قرار من الحاكم ٠

والشعب لا يلتف الا حول القيادة التى يصدر هو بنفسه قرار تعينها فى موقعها كما سبق البيان ٠

٢ ــ ان معيار النجاح فى الانتخابات لازال يرجع الى المعيار الشخصى دون المعيار الوضوعى ٠

وذلك أن القيادة القدوة التى يلتف حولها الجماهير عن طاعة وولاء واقتداء هى القيادة التى تقدم العطاء والبذل والتضحية وكل جديد مبتكر لحل مشاكل الجماعة مع التزامها ، ولو على نفسها ، بالنظم والقوانين التى ارتضتها الجماعة ٠

فهذه النوعية من القيادة هى التى تثمر الخير لهذه الأمة كما تثمر الوحدة حولها ٠

وبعبارة أخرى ، فان (المفروض) أن يتم اختيار القيادة على أساس برنامج عملى مبتكر يتضمن حل مشاكل الأمة المصرية فى الفقر والتخلف ٠

وهذا هو المعيار الموضوعى ٠

أما الشائع حاليا فهو انتخاب فلان لأنه من أسرة كذا أو من بلدة كذا أو لأنه عصامى أو لأنه متعلم أو لأنه صاحب دعاية عظيمة ، أو لأنه يحل المشاكل الشخصية عند الحكومة ... وهكذا ...

وهذا هو المعيار الشخصى الذى لا يفرخ الا النوعية الحالية من القيادات التى لم تسمح لغالبيتها اى مساهمة بنفسه أو بفكره أو بجهده أو بماله فى محو الأمية أو التوعية أو التدريب على متطلبات اعادة بناء مصر واعدادها للاستثمارات العامة والخاصة .

والنتيجة أن يشعر الناس أن ممثليهم فى المجالس المنتخبه لم يفعلوا شيئا بعد انتخابهم الا بالسماح للمزيد من الفقر والمزيد من التخلف والمزيد من الغلاء فينفضوا عنهم ثم يعودون الى انتخاب غيرهم فى الانتخابات القادمة واتباعا أيضا للمعيار الشخصى ولا أحد يستفيد من عبرة التاريخ .

ولكن ما السبب فى اتجاه الناس الى اختيار ممثليهم على أساس المعيار الشخصى دون المعيار الموضوعى .

ان السبب فى ذلك يرجع الى الأسباب التى سيتم بيانها فى البند التالى .

٣ ـ القيادات الحالية هى جزء لا يتجزأ من أعضاء الأمة المصرية . فهى لم تنجو من السلبيات التى أصابت الشخصية المصرية والسابق بيانها فى هذا الكتاب والتى يلمسها الناس فى أمورهم اليومية .

ولعل افضل تصوير لذلك ما جاء فى الامثال من أن الناس على دين ملوكهم ، وبمعنى آخر فان القيادة أيضا على نفس سلبيات الشخصية الانسانية الموجودة لدى كل انسان على أرض مصر .

وفى هذه الأجواء لا يمكن فصل القيادة الحالية عن جذورها الوطنية ثم نطالبها ، وحدها ، لتغيير نفسها من كل الأمراض الاجتماعية التى أصابت الشخصية المصرية كلها .

فاذا ثبت ذلك ، فيكون اختيارنا لممثلينا فى المجالس المنتخبه اتباعا للمعيار الشخصى ، يرجع الى افتقارنا حكاما ومحكومين الى الوجود العملى للمعيار الموضوعى تبعا لشيوع سلبيات الشخصية المصرية عند الجميع .

ومن ثم كان التجائنا لاختيار ممثلينا تبعا للمعيار الشخصى هو الاختيار (لافضل) الموجود وليس لأنسب انسان فى قيادة عملية اعادة بناء مصر واعدادها للاستثمارات العامة والخاصة .

وكل هذا أدى الى أن تكون عملية الانتخاب عملية آلية (وخلاص) دون أن يفكر أيامنا ، ناخبين أو منتخبين ، أنه عقب عملية الانتخاب ونجاح مرشح الشعب (يجب) أن يتم تلقائيا ، التفاف الناخبين حول نائبهم فكرا وقلبا وأداء لازاحة كابوس الفقر والتخلف من كل أسرة مصرية .

٤ ـ استمرار العقيدة المتوارثة عن القيادة امتدادا لما كانت عليه القيادة المفروضة في مراكز القوى فترة الراحل جمال عبد الناصر وما قبله .

٥ ـ غياب الوعى الثقافى والسياسى لدى الكثير من القيادات الحاليا .

والحقيقة فان أهم اختبار لتعرف الجماهير على القيادة القدوة وعلى امكاناتها فى الفكر والعطاء يكمن فى مرحلة اعادة بناء مصر بشريا وماديا واعدادها للاستثمارات الخاصة والعامة اذ فى ضوء عمل وأداء وتصرفات هذه القيادات سيتاح للجماهير التعرف على القيادة التى ترى ان فى اتباعها وفى الاقتداء بها وطاعة أوامرها صلاح احوالها .

ثم ، وبعد تحقيق المجتمع الذى تصبح فيه الأغلبية هى المالكة لأرزاقها ملكية خاصة مصانة وهى المتولية كافة السلطات فى هذه الأمة ، فان القيادة القدوة ستجد اجوائها الطبيعية فى الظهور وفى الازدهار .

ولكن هناك درس قاس تعلمناه من التاريخ يجب أن نعمل جميعا على عدم تكراره .

وهذا الدرس لاحظناه فى استغلال القيادات المفروضة لسلطاتها فى التسلط او فى سلب أموال الشعب المصرى وناتج عمله حتى آخر قرش لتترفه بأحسن المأكولات والمشروبات والملابس ولتتنعم فى أفخم القصور والمبانى ولتتزين بأندر الجواهر واللآلىء ولتقضى حياتها بين النساء والخمور والصيد والقنص وكل ما تشتهيه النفس من محرم أو محلل .

ثم هى تحاول عادة أن يكون الحكم لها وحدها بدون أى مشاركة شعبية وتتبع لتحقيق ذلك كل الأساليب الدكتاتورية ومنها ، بطبيعة الحال ، ترك الشعب فى جهالته العلمية والسياسية اتباعا للمثل القائل ، الأمة الجاهلة أسلس قيادة من الأمة المتعلمة .

ثم هى لا تعجز عن الحصول على التشريعات والفتاوى الوضعية والدينية لاضفاء الشرعية على تصرفاتها الظالمة .

ولقد سبق عرض بعض مظاهر رفاهية هذه القيادات وبعض نماذج من صراعاتها على السلطة ، وبعض وسائلها فى البطش والاستغلال .

كما سبق عرض بعض نماذج لخيانة الكثير من هذه القيادات حتى وصل ببعضها الأمر الى بيع مصر نفسها مثلما فعل آخر حكام البطالمة عندما باع مصر للاحتلال الرومانى الذى جثم على صدر مصر ما ينيف على ستة قرون ، ثم لعلنا لاحظنا بعض القيادات التى باعت بلادها للمحتل نكاية فى مواطنيهم الذين قاموا بالثورة لطرد المحتل سواء فى ظل الحكم الاغريقى أو الرومانى أو فترة الثورة العرابية ٠

ولعل آخر خيانة وأشنعها هى التى ارتكبها رئيس الدولة المصرية الملك فاروق عندما تاجر فى الأسلحة الفاسدة التى كانت من الأسباب الأساسية فى هزيمة الجيش المصرى سنة ١٩٤٨ وقيام دولة اسرائيل التى كلفت حروبها بعد ذلك الشعب المصرى البلايين من الجنيهات ومئات الألوف من الشهداء وذلك فى مقابل بضعة ملايين من الجنيهات اضافها رئيس الدولة الملك فاروق الى رصيده فى البنوك الأجنبية ٠

ومن هنا كان واجبا استمرار مراقبة ومحاسبة القيادة فى أموالها وفى سلطاتها٠

فمن أين اتت بهذه الأموال وكيف حصلت على هذه السلطات ٠

وقد جاء فى صحيح البخارى ان النبى عليه الصلاة والسلام استعمل رجلا من بنى أسد يقال له ابن الأتبية على صدقة فلما قدم قال هذا لكم وهذا أهدى لى ، فقام النبى صلى الله عليه وسلم على المنبر ٠٠ فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : ما بال العامل نبعثه فيأتى فيقول هذا لك وهذا لى فهلا جلس فى بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى له أو لا والذى نفسى بيده لا يأتى بشىء الا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته ان كان بعيرا له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر ، ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتى ابطيه ألا هل بلغت ثلاثا) ٠

ومن هذا الحديث الشريف ، ومن الدروس المستفادة عن قيادات البطش والاستغلال **فلا بد من أن يضع الشعب النظم الكفيلة باستمرار رقابته على اعمال القيادة وعلى تصرفاتها حتى لا يستغل أيا منهم الفرصة ليستولى على أموال الناس بدون وجه حق أو يستأثر لنفسه بكافة السلطات دون الغالبية الشعبية ٠**

ومن طبيعة الامور أن الرقابة الفعالة على قيادات هذه الامة لن تتاتى الا من الغالبية الشعبية (الواعية) (الشجاعة) ، (لأنها مالكة لارزاقها ملكية خاصة مصانة) وغير مضطرة لذلك الى مدارة القيادات أو السير فى فلكها ٠

ثم ان هذه الأغلبية ستملك حتما كافة السلطات فى الدولة والتى تجعلها دائما صاحبة الكلمة الأولى والأخيرة فى انتخاب قيادة معينة أو اسقاطها ٠

بل لعل هذه الارادة الشعبية ستجعل معظم القيادات بالانتخاب حتى تكون دائما تحت امرة الجماهير ٠

وبهذا يتم الاستفادة من دروس التاريخ ، ثم لا تتكرر نفس الأخطاء التى تسببت فى استمرار مأساة الفقر والتخلف والهوان على أرض مصر لما ينيف على ثمانية وثلاثين قرنا من الزمان ٠

ماذا يفعلون

وعن ماذا يتكلمون

يا عم سيبك من كلام الجرائد وتعالى نشوف حاجة فى الجمعية ، يمكن يكونوا جابوا اللحمة الرخيصة .

قول يا باسط .. ربك يسويها .. كانت نار وبكره تصبح رماد .. ما ضاقت الا لما افرجت ...

يا عم ، لا حيلة فى الرزق ولا شفاعة فى الموت ، كل واحد مش ممكن ياخد أكثر من نصيبه .. اللى مكتوب له لازم يشوفه ..

الحكومة هى السبب فى البلاوى دى كلها .. هيه اللى بترفع الأسعار .. وهيه السبب فى أزمة المساكن وهيه السبب فى اختفاء الأدوية ..

أصل السياسة بتاعتها كلها غلط فى غلط ..

آه لو كان فيه ضمير .. كان كل شىء اتصلح ..

ومنين ييجى الضمير .. الناس بتاكل بعض .

بلاش كلام فى السياسة احسن نروح ورا الشمس .

احنا مالنا والكلام ده .. خلينا فى المفيد .. نشوف العيال عاوزه ايه .. وتتدبر باذن الله ..

بلاش كلام عن الشغل ، احنا بنشتغل على قد فلوسهم وخلاص .

هيه الماهيه مقضية حاجه ... ؟

البلد ماشيه بمعجزة ، لا حد بيشتغل بضمير ولا حد بيقول الحقيقة أبدا ..

الشعب المصرى طول عمره كده .. مايمشيش الا بالعافيه .. من أيام الفراعنه .

يا سلام على أيام عبد الناصر ..

أيام عبد الناصر ايه ، هو حد كان يقدر يتكلم ، دا السلف من البنوك ما اتعرفشى الا أيام عبد الناصر ..

مفيش غير أيام الملك فاروق .. يا سلام ..

يا سلام على ايه ؟ .. على الفقر والا على الذل من البهوات والباشاوات وأصحاب الدم الأزرق .

ما قلنــــا ان الشعب المصرى طــول عمــره مــكتوب عليــه الفقر والذل ..
ما صدقتوناش ..

ما قلنا بلاش كلام فى السياسة وخلينا فى أكل عيشنا أحسن ..

اهو هوه ده الكلام المظبوط ..

مظبوط ايه ، دا الحكاية زادت أوى دا احنــــا حتى مش عارفين ندبر نفسنا
لا فى الأكل ولا فى اللبس ولا فى السكن ...

يعنى نعمل ايه ..

يا عالم فيه ناس فى الدنيا كلها كل همهم الأكل والشرب والسكن والملبس
وما يفكروش فى الحروب والنــــار اللى حوالين بلادهم فى لبنــــان وايران والعراق
وافغانستان ولازم هتحصلهم قريب ..

هو احنــــا قدهم ، خليهم يعملوا فينــــا زى ما هم عاوزين .. ياخدوا اللى
عاوزينه ..

ويمكن ياخدوا كمان مكه زى ما أخدوا القدس ..

للبيت رب يحميه ــ ربنا هوه اللى يحمى بيته .

يا ناس ، دا زمن المعجزات انتهى من زمان .

خلينا فى حالنا احسن.. وبلاش دوشة ... اللى عاوزه ربنا هوه اللى هيكون .

الباب الثانى

فى وســائل بعث الأمة المصرية

● **الفصل الرابع :**

فى الانســان المصرى :

هذا هو الطرف الثالث فى مشكلة الفقر والتخلف ، أى فى مشكلة الفرقة عن النظم والقوانين السارية والقيادة الحالية ٠

هذا هو الانســان الذى اضطر الكثير من أفراده ، تحت ضغط قوى البطش والاستغلال والظلم بدءا من سنة ٢٠٠٠ ق٠م وحتى عهد الراحل عبد الناصر الى أن يخاف ، ويكذب ، وينافق ، ويستكين ، ويتزلف ، ويتملق ويفقد الثقة فى نفسه وفى الآخرين ، ويتصرف ويقول غير ما يبطن ٠

هذا الانسان الذى نسبة كبيرة منه جعلته قوى البطش والاستغلال والظلم ، انسانا سلبيا ، متواكلا ، لا يفكر الا فى غذاء يومه واشباع غرائز جسده فحسب ، يؤثر العمل الفردى على العمل الجماعى ، ولا يلتزم بمبادىء أو نظم وضعية أو أخلاقية أو دينية اذا تعلق الأمر بالمال أو بالنفس ٠٠٠ الخ ٠

هذا الانسان الذى لا زال قطاع كبير منه يسعى بالكيد ضد زملائه وأبناء وطنه ورؤسائه لدى الحــكام كما لاحظ ذلك عمرو بن العاص عنــد فتحه لمصر والمؤرخ والمقريزى ٠

هذا الانسان الذى تكاد تنعدم عند الكثير من القيم الدينية والخلقية والاجتماعية ويكاد يهدم ما بقى عن هذه القيم بمعاول النكات الهازلة والسخرية اللاذعة والمخالفات المكشوفة الفاجرة الداعرة ٠

هذا الانسان نتاج هذا المجتمع وظروفه السياسية والاقتصادية (*) ٠

ولأجل أن نعود الى أخلاقيات ومبادىء وحدتنا التى بها نضاعف مساحة الأرض الزراعية ونقلب المجتمع المصرى الى مجتمع من المنتجين الأثرياء (لابد) من طاعة النظم والقوانين السارية والقيادات الحالية بصدق وبصراحة وبامانة (بصورة مؤقتة) الى أن يتم محو أمية وتوعية جميع القادرين من أفراد هذا الشعب ليقوموا بعد ذلك باختيار ما يشاءون من نظم وقوانين تتفق مع مصالحهم وانتخاب القيادات الممثلة لأمانيهم فى تحقيق مجتمع التعمير والرخاء والسلام ووفقا لما تعلمناه جميعا من دروس عبر آلاف السنين ٠

وقد يقول قائل كيف يلتزم الناس بطاعة النظم والقيادات الحالية رغم وجود ما يحض الناس على مخالفتها كما سبق عرضه فى الأوراق السابقة ٠

(★) الكلام هنا عن البعض وفى الحقيقة فان الدنيا ما زالت بخير وما زال يوجد الكثيرين ممن هم مفخرة فى الأخلاق والاستقامة ٠

والرد على ذلك أن هذه الطاعة مؤقته حتى يتم تقديم أغلبية شعبية واعية بمتطلبات هذه الأمة وقادرة على اختيار ما تشاء من نظم وقيادات تعبر عن حقيقة مصالحها فى الحياة الأفضل .

فاذا تم محو أمية هذا الشعب وتوعيته خلال فترة زمنية محددة تحدد انتخابات جديدة بالاتفاق مع الجهاز الحاكم حيث يتقدم الشعب الواعى المتحمل مسئولية بلده وأمته ، بما يشاء من نظم وقيادات يرى فى طاعتها تحقيق مصالحه .

أما البديل عن ذلك فهو :

أما استمرار الفرقة والتباعد عن النظم والقوانين والقيادات الحالية فتستمر حالة الفقر والتخلف مع المزيد من الانهيار وتزداد الأسعار ويفشو القلق والتوتر وتنهار الأخلاق .

وأما أن تستغل بعض القوى العسكرية معاناة هذه الأمة وتفككها فيحدث انقلاب عسكرى ليوهم باصلاح الحال وتكون نتيجته سيطرة المؤسسة العسكرية على الحكم وتحكمها فى الأرزاق عودا الى ما كان عليه الحال فترة الراحل جمال عبد الناصر وحكم محمد على وحكم المماليك والبطالمه ... الخ .

وأما أن ينتهز الشيوعيون الفرصة فى اثراء البلد بالاشاعات والحض على الاضطرابات والتخريب فتحدث الفوضى التى من خلالها يتمكنون من الاستيلاء على الحكم ليعيدوا حكم وتسلط القلة من الموظفين فى مقدرات الدولة وفى أنفس الناس وبقوة المخابرات والجاسوسية والمعتقلات والبطش والارهاب كما لاحظنا ذلك فى تاريخنا القومى .

واما أن يكسب الجولة أصحاب الأفكار والآراء المتطرفة ويدعون كذبا أنها نابعة من الدين الاسلامى فيبثون الخوف منهم ومن نظامهم فى أنفس كلا من المسلمين والمسيحيين على السواء .

وتكون النتيجة لو تحقق أيا من هذه الاحتمالات ، لا قدر الله ، هو المزيد من الفرقة والتباعد عن النظم وعن (القلة) التى ستقفز الى الحكم لتتحكم فى الأنفس وفى الرقاب .

لهذا قلنا (بحتمية) طاعة النظم والقيادات الحالية بصفة مؤقته الى أن يصبح كلا من الناخبين والمرشحين للمجالس النيابية على وعى تام بحاجات وطنهم وأن يكونوا ممثلين فعلا لجميع الأمة المصرية .

هنا يحدث الاختبار الحقيقى للنظم وللقيادات فتحدث الطاعة التلقائية فتعود للأمة المصرية وحدتها التى لمسناها ولمسنا ثمارها الفكرية والمادية حتى أواخر الدولة القديمة وفى عصر الفترة الأولى حتى أوائل الدولة الوسطى .

وفى هذه الأجواء ستعود الرقابة على النظم والقوانين وعلى أعمال القيادات نفسها الى الرقابة الشعبية للحفاظ على نظامها السياسى والاقتصادى والاجتماعى من

الانهيار بسبب ما قد يقوم به البعض من مخالفات قد تستشرى لتشمل المجتمع كله فتحدث الفرقة فالفقر والتخلف ان لم يكن الشعب نفســه آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر وصاحب القضاء الشعبى وفى معظم المجالات .

ومن طبيعة الأمور ان لا يتم كل ذلك الا فى أجواء سيادة ايجابيات الشخصية المصرية أى فى أجواء شــيوع الملكية الخاصة المصــانة للرزق وفى انتشــار مفهوم الديمقراطية بين كل الناس .

ومن حسن الحظ أن النظام السياسى الحالى يسمح بكل ذلك فى نطاق الأحزاب الحالية او فى نطاق ما قد يرى الناس انشاءه من أحزاب أخرى .

هذا وان كان الكاتب يحبذ انضمام الكافة الى الجهاز الحاكم اختصارا للوقت وللاجراءات حيث أن مشكلة الفقر والتخلف تكاد تاخذ بخناق كل أسرة .

فاذا تأخرنا عن هذه المسيرة ، فقد تحدث أمور قد يكون منها تغير الظروف التى تجعل من المستحيل قيام الشعب فى وحدة واحدة لاعادة بناء الانسان المصرى فكريا ومهنيا لانشاء مصر الحديثة واعدادها للاستثمارات العامة والخاصة .

والطريق المستقيم هو أقرب الطرق .

واذا كان الجهــاز الحــاكم يهيىء الفرص اللازمة لمحــو أميــة الناس وتوعيتهــم تمهيدا لاختيارهم النظام الأصلح لحياتهم على الأرض وتدريبهم لاستصــلاح ملايين الأفدنة وقلب مصر الى دولة سياحية وانشــاء وتجديد ما يلزم من خدمات واجهزة استثمارية ليتملكها الأغلبية العاملة ملكية خاصة مصانة فانه من الحرام عدم انتهاز هذه الفرصة (فورا) والا فلا نلومن الا أنفسنا .

أما من يرتضى لنفسه استمرار الفقر والتخلف والهوان لأن نظام الحكم ليس على ما تشتهى نفسه ، أو معتقداته أو أن القيادة الحالية ليست على الصورة التى يبغيها فليس لنا الا رد واحد وهو أن كل شىء سيعود فى النهاية وباسلوب سلمى قانونى ديمقراطى الى الشعب نفسه بعد محو أميته وتوعيته ، فان أصروا على موقفهم فهم ليسوا أوصياء أبدا على ارادة هذه الأمة ولعل فى تجنبهم وفضحهم من القاعدة الشعبية هو أفضل السبل لتفادى شرور فتنهم ودسائسهم .

(وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) .

« ان الحاكم يجب أن يكون رجلا يستطيع أن يجعل اللهب بردا وسلاما ، ويمكن ان يعتبره قومه راعيا للناس أجمعين ، ليس فى قلبه ضغينة واذا تفرقت رعيته قضى يومه فى جمعها » .

الحكيم المصرى ايبـور
سنة ٢٢٠٠ ق.م

« لا تنس أن تحكم بعدالة ، انه ممقوت لدى الاله اظهار التحيز » ..

من توجيهات ملوك مصر القدماء
الى وزرائهم

« اننى ابن الحكماء ابن الملوك القدماء » ..

المصرى منذ آلاف السنين .

« لو لم أكن مصريا ، لوددت ان أكون مصريا » ..

مصطفى كامل

والآن فقد جئنا الى نهاية هذه الرحلة مع قصة حياتنا على هذه الأرض لنقترح الوسائل العملية لبعث الأمة المصرية أى لوحدتها حول النظم والقيادة وبمراعاة تجاربنا ومعاناتنا عبر تاريخنا القومى والذى استمر لما ينيف على ثمانية آلاف عام ٠

وليتنا نتعلم من عبرة التاريخ ، وليتنا نفكر بجدية فى قوله سبحانه وتعالى « ان فى قصصهم لعبرة لأولى الالباب » ٠

ليتنا لا نكرر أخطاء الماضى ٠

ليتنا نؤمن بمعنى القول الشريف (لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين) ٠

فاذا لم نتعلم ونأخذ العبر من أخطاء الماضى فيستحيل علينا التخلص من مآسى الفقر والتخلف الى الأبد ٠

ليتنا نؤمن بأن وسائل بعث الأمة المصرية والتى سيرد بيانها هى دستور مقدس (يجب) على كل منا أن يكون على استعداد تام للتضحية بكل ما يملك من جهد وفكر ومال ٠٠ بل وبالروح نفسها فى سبيل اقامتها ومنع أى مخالفة لها ٠

ليتنا نقصر فكرنا وجهدنا على وسائل تحقيق بعث هذه الأمة ؟

ليتنا نتعلم انه لا وجود لأى مجتمع منظم ان لم يكن عنده مجموعة من القيم محرم مخالفتها وأن الأمة كلها تجتمع يدا واحدة لمنع أى تطاول على هذه القيم أو المساس بها سواء بالسخرية أو بالنكات الفارغة أو باهمال العمل بها ٠

وليتنا نقصر هذه القيم ، بصفة مبدئية ، على وسائل بعث هذه الآمة ٠

وليس لدى الكاتب أكثر من هذا الكلام للتنويه باستحالة تقدم هذه الأمة الا اذا أصبحت وسائل بعثها من وهده الفقر والتخلف والهوان هى عقيدتها المقدسة التى لا يتهاون أيا منا فى الدفاع عن اقامتها وسيادتها بجهده وبماله وبروحه فى أى موقع ومهما كانت الأطراف ٠

هذا واما الاستمرار فى المزيد مما نحن فيه ٠

١ ــ فى الاعتماد على النفس :

أول وسائل بعث هذه الأمة هى أن تعتمد على نفسها وعلى قدراتها البشرية فكرا ، ومالا ، وجهدا ، لتحقيق رفعتها وتقدمها ٠

وعملية ازالة وصمة الفقر والتخلف تتطلب الوحدة حول النظم وحول القيادة (المختارة) أولا حيث يتم بهذه الوحدة استصلاح ملايين الأفدنة وقلب مصر الى دولة سياحية وانشاء وتجديد ما يلزم من وسائل للخدمات وللمنشآت الاستثمارية ٠

وهذه العملية تتطلب أولا اعداد الانسان المصرى للقيام بكل ذلك ، ثم تتطلب ثانيا اختيار النظم والقيادات الصالحة ثم تتطلب ثالثا اعداد خطة شعبية للتنمية الشاملة ثم تتطلب رابعا أجهزة وأدوات ومعدات وأموال لانجاز برنامج اعادة بناء مصر واعدادها للاستثمارات العامة والخاصة ٠

وهنا لابد أن يتم كل ذلك فى اطار من الاعتماد على النفس وعلى الامكانيات المحلية بقدر الاستطاعة ٠

وذلك أن الاعتماد على الأجنبى فى ذلك أو فى جزء كبير منه سيؤدى الى التواكل كما أن الأجنبى لن يعطى أو يساعد الا بالقدر الذى لا يجعلك ترتفع الى مستواه أو الى مستوى يقرب من الند له حتى لا يكون لك بعد ذلك التأثير على قراراته فى هذه المنطقة ٠

لذلك لعلك لاحظت أن الكثير من المساعدات والقروض الأجنبية تتجه الى المجالات الاستهلاكية التى لا تؤثر فى عملية ازالة الفقر والتخلف من على أرض مصر ٠

ومن ناحية أخرى فانه طالما أنت بحاجة الى المساعدة الأجنبية فانك ستخضع حتما لشروط الأجنبى سواء فى مجال هذه المساعدات أو فى التنازل عن بعض المواقف التى تمليها مصلحة هذه الأمة ٠

وأيا كان الحال ، فان المعروف أن من يحتاج الى المساعدة يخضع لتأثيرات من معه المال ٠

ولقد أنشأ المصريون بلادهم من العدم مرتين ، المرة الأولى بدءا من سنة ٦٠٠٠ ق٠م، عند استقرارهم على الأرض للزراعة وانتهى الأمر بهم بعد ألفى سنة من ذلك التاريخ (٤٢٠٠ ق٠م) الى انشاء الدولة المصرية الموحدة التى تجمع الوجه البحرى والوجه القبلى وهذا بعد أول تنظيم لملايين من البشر على هذه الأرض ٠

وفى المرة الثانية كانت عقب الثورة الاجتماعية الأولى التى قضت على كل شئ ، بما فيها النظم والتقاليد والعادات والعقائد الدينية المتوارثة ثم قام الانسان المصرى باعادة بناء مصر مرة أخرى ماديا وبشريا وعقائديا وثقافيا ٠

وكان كل ذلك بفكر وبجهد مصرى ٠

فالبيئة المصرية الخالصة بكل ما يعنى ذلك من اعتماد على النفس فكرا ومالا وجهدا وبدون السماح للمؤثرات الأجنبية الفكرية أو الاقتصادية أو غيرها بالتأثير فى مسيرة بناء مصر الرخاء ومصر الحضارة هى الاطار الذى تمت فيه وحدة الأمة المصرية حول نظامها المختار وقيادتها القدوة حتى سنة ٢٠٠٠ ق٠م ٠

وبهذه الوحدة تم بناء مصر من العدم مرتين وصنع أول وأطول حضارة عرفها الانسان ٠

ولقد ساعد القوم على الابتعاد عن المؤثرات الأجنبية سواء فى المجالات السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الثقافية ما حبته الطبيعة لمصر من موقع جغرافى جعلها فى عزلة عما جاورها من الأمم حيث الصحراء تحدها من الجانبين والبحر الابيض والشلالات والصحارى تحدها من الشمال والجنوب ٠

وفى اطار هذه العزلة الطبيعية اعتمد السلف على أنفسهم فكرا وجهدا لصنع مصر الرخاء ومصر الحضارة ٠

(وبمجرد) أن انفتحت مصر على الأجنبى ابتــداء من غزو الهكســوس وعصر الامبراطورية حدث التصدع فى البيئة المصرية وفى فكرها وفى عاداتها وتقاليدها ، بل وفى عقيدتها الدينية • وقد سبق بيان كل ذلك فى الجزء الثانى من هذا الكتاب •

وانتهى الأمر بموت الروح المصرية الخالصة وفقدان المجتمع لتماسكه ، مما أدى الى سيطرة الأجنبى بعساكره على مقدرات الشعب المصرى •

وتاريخ المتاعب التى عاناها الشعب المصرى يبدأ مع التأثير الاجنبى والســيطرة الأجنبية والتى لازلنا لم نستطع حتى الآن التخلص منها •

وانه من المهم أن يتمعن القارىء فيما جاء بهذا الكتاب فيما يخص التأثير الأجنبى فى شئون الشعب المصرى ، وسواء كان هذا التأثير من الأجانب لفترة الحكم الوطنى او كحاكمين فترة الحكم غير الوطنى أو كمســيطرين على القــرار المصرى حتى فترة الراحل جمال عبد الناصر •

واذا تم حساب فترة تخلص مصر من التأثير الأجنبى فى مسيرة الأمة المصرية بدءا من غزو الهكسوس سنة ١٥٩٤ ق•م وحتى الآن فلن يجد المرء أى فترة (تمتعت) خلالها مصر بالبعد عن المؤثرات الأجنبية •

ولعل أول مصرى تنبه الى خطورة اختلاط البيئــة المصرية بالأجنبى هى الملكة حتشبسوت •

وفى هذا يقول جون ويلسون : ان ما لدينا من أدلة عن الفترة المعروفة تحت اسم (النزاع بين أفراد عائلة تحوتمس) معقدة وغير واضحة ولكن يكفينا منها مظهر واحد هو تنافسهم على السلطة • وكان تحوتمس الثالث (زوج الملكة) صغيرا جدا عندما تولى العرش عند وفاة أبيه •• فاغتصبت منه عمته (الملكة حتشبسوت) الحكم •

ولو عقدنا مقارنة بين حكمى حتشبسوت . وتحوتمس الثالث (زوجها والذى حكم مصر فعلا بعد وفاتها) ، لوجدنا تباينا شديدا بينهما فى نشاط الدولة ، فهى لا تسجل أى حملات حربية أو غزوات ، بينما أصبح تحوتمس المحارب الأعظم ومنظم الامبراطورية كانت حتشبسوت تفخر بما تبذله فى اصلاح الأمور الداخلية فى البلاد، بينما كان هو يفخر بتوســعه خارج مصر وبأعماله الحربيــة • كان ذلك صراعا بين المبدأ القديم للدولة المصرية ، ذلك المبدأ الذى كان ينشد رقيا ســاميا مع العزلة عن الخارج ، ولا يعير الأمم الأخرى اهتماما كبيرا لأنه ليس من بينها واحدة تنازع مصر فى سيادتها ، وبين المبدأ الجديد الذى أخذ يظهر فى الدولة المصرية ، وهو أن مصر اخذت تحس بانها مضطرة لتاكيد ســموها على سائر الأمم بغزو واحتــلال الأقطار الأجنبية •

وكانت صلة مصر بالأمم الأجنبية أثناء حــكم حتشبسوت ترمى الى التــوغل التجارى والثقافى لمنفعة الطرفين ، أما تحوتمس الثالث فقد رأى اتباع سياسة رسمية مستمرة فى انشاء امبراطورية حربية وسياسية لتطمئن مصر على سلامتها ، وذلــك

بتوسيع أطرافها وراء حدودها الجغرافية • ولكي تضمن السيطرة على التجارة الخارجية عن طريق جيشها وأسطولها •

قضت هذه النزعة في التوسع الاستعماري على سياسة مصر في العزلة ، وكان لذلك أثره في حالة مصر النفسية ، وكان سببا في وضع نهاية لما كانت تمتاز به مصر من قبل •

ويستطرد جون ويلسون : والذي نراه من ذلك هو أنه كان على مصر أن تختار بين حزبين مختلفين ، فالفريق الذي يؤيد حتشبسوت ، كان يؤمن ببذل مجهود قليل كما كان الأمر في الأيام الماضية • أما فريق تحوتمس الثالث فكان يؤمن بعمل مغامرة جديدة وهامة ذات طابع دولي • فقد رأت الأجيال الثلاثة التي مرت على مصر منذ طرد الهكسوس • الشيء الكثير من الجهود الحربية في آسيا وأفريقيا ، وعلى الأخص غارات أحمس الاول وتحوتمس الأول والحملات المتفرقة التي لفتت أنظار الآسيوية والافريقيين الى أن مصر يجب أن تظل بلدا لا يمكن أن تنتهك حرمته • ويلوح أن حتشبسوت لم تواصل هذا النشاط المتأرجح ، وذلك بتنحيها عن المجهود الحربي وتركيز قواها في الاغراض السلمية **ولكن تحوتمس الثالث نبذ تقاليد الماضي وجعل النشاط الحربي سياسة دائمة ، ذات أهداف محددة •**

وليس لدينا معلومات كافية عن تنظيمات الحزبين ، ويحق لنا أن نظن أن العائلة المالكة كانت منقسمة ، كان لحتشبسوت الغلبة على (زوجها) تحوتمس الثالث ، لأنه كان صغيرا ، وفي الوقت ذاته ابن لملكة من فرع أقل في المنزلة ، وأن الجيش في ذلك الوقت كان يميل الى عمل مجهودات استعمارية ، ولكن الموظفين المدنيين كانوا يؤيدون حتشبسوت في برنامجها الداخلي ، أما العامل السياسي الآخر ، ذو الأهمية الكبيرة ، فكان كبار رجال الكهنوت • يقص علينا تحوتمس الثالث ، أن الاله آمون نفسه اختاره عندما كان صبيا ليكون (ملك) مصر في المستقبل ، ومن ذلك نرجح أن أولئك الكهنة كانوا ميالين الى تأييد التوسع الاستعماري في المستقبل (وخاصة وأنهم مع رجال الجيش هم الذين استفادوا ماديا وسلطويا من انشاء الامبراطورية) •

ولكننا لا نعرف ميول كهنة الآلهة الأخرى • وعلى أى حال ، فان تأكيد حتشبسوت بانها كانت أول من رمم المعابد المصرية بعد طرد الهكسوس ، وانها شيدت كثيرا من المعابد لاعلاء شأن آمون له دلالته ، ومن المرجح جدا أن تكون قد فعلت ذلك لتكسب الكهنة الى حزبها ، ومن الأمور ذات الدلالة أيضا ، أن حابو - سنب ، وزير حتشبسوت ، كان كبير كهنة آمون ، وبذلك ضمت اليها الموظفين المدنيين ورجال الكهنوت •

قدمت حتشبسوت لمصر أمجادا في الداخل بدلا من انتصارات في الخارج •

كانت سياسة مصر في ذلك العصر ، هي أنه على مصر أن تقوى أواصر المودة بينها وبين أصدقائها القدامى (في الجنوب) ، وأن تترك الاسيويين الذين كانوا معادين لمصر ، يحملون وزر عدائهم العنيد ، وذلك بالا تتعامل معهم •

لقد حاولت حتشبسوت العودة الى سياسة مصر القديمة ، سياسة المسا
والتسامح ·

وجاءت نهاية حتشبسوت فجاة بعد ان ظلت تحكم (كملك) مدى سبعه عش عاما ومن الجائز انها ماتت ميتة طبيعية ، وان حزبها انهار عندما انقطعت مؤازرة له · ومن الجائز ايضا أنهم ازاحوها من الطريق على اثر تدبير سياسي · وعلى ك حال فالدليل واضح على غضبة تحوتمس الثالث (زوجها) وانصاره · فقد ذهب انصاره مثلا الى الدير البحرى ، وحطموا تماثيل حتشبسوت وقذفوا بقطعها الصغير الى محجر قريب ·

وهكذا قدر لحزب السلام أن يختفى وأن يكون اختفاؤه فجائيا وعنيفا ·

ولم يضع تحوتمس الثالث وقتا ، بل تقدم على وجه السرعة ليهزم أولئك الثائرين على مصر ، وليوسع حدود البلاد (جهة الشرق) ، لقد أصبح متوليا وحد زمام الملك حوالى أول فبراير عام ١٤٦٨ ق·م ·

وحوالى منتصف **ابريل اى بعد خمسة وسبعين يوما فقط** ، نراه قد جمع الجيش وسار على رأسه من الحدود على مقربة من السويس ، (لم يتأخر جلالته فى التقد نحو بلاد زاهى (فلسطين – سوريا) ليقتل الخائنين الذين فيها ، وليكافئ الموالين له) (٥٨) ·

وبهذا تم انشاء أول امبراطورية منظمة عرفها الكوكب الأرضى بفكر مصرى وبتخطيط وبجهد مصرى مما لازلنا نفاخر به حتى اليوم ·

ولكن انشاء هذه الامبراطورية كلفنا غاليا لازلنا نعانى منه حتى اليوم – وهو انها ، فى النهاية جلبت الأجنبى ومعه مؤثراته ومطامعه وسلاحه كما أنهت العزلة الطبيعية التى وفرت الاعتماد على النفس لصنع الرخاء والحضارة ·

وحاول الشعب المصرى ، فى أواخر الحكم الوطنى التخلص من السيادة الأجنبية فى شئونه لعله يستعيد البيئة القومية لازدهار الحضارة المصرية ·

ويقول الدكتور أحمد فخرى عن الملك بسمتك محرر مصر من الاشوريين (من الأسرة السادسة والعشرين (٦٦٣ – ٥٢٥ ق·م) ·

(اذا كنا نحمد لبسمتك الاول جهاده لتحرير البلاد من الاشوريين ونحمد له همته وكفاءته فى القبض على ناصية الأمور ، فاننا لا نحمد له استمراره فى استخدام الجنود اليونانيين الى مصر وتشجيعه بكل الوسائل للتجار اليونانيين) ·

اذ أن نتيجة ذلك كانت ابعاد المصريين الوطنيين عن حياة الجندية الصحيحة واعتماد ملوكها على الأجانب بصفة عامة لحفظ الأمن ، وفى ذلك دون شك اضعاف للروح القومية·كما أخذت الثروة تتكدس فى أيدى التجار اليونانيين الذين انتشروا فى طول البلاد وعرضها يحميهم نفوذ الحاميات من أبناء جلدتهم ، فلم يستطع التجار الوطنيون مجاراتهم فى ذلك الوقت ، أما فى الفنون فاننا نعرف أن التقاليد الفنية لم

تندثر فى أى وقت من الأوقات .. ولكننا نرى فى الوقت نفسه اتجاها جديدا فى الفن والأدب وهو الرجوع لمحاكاة القديم وخاصة ما كان من **الدولة القديمة واحيانا من الأسرة الثانية عشر (٥٩) .**

وقد سبق بيان أن الدولة القديمة وحضارتها الزاهرة كانت نتاج وحدة الشعب المصرى حول نظامه المختار بالفطرة والتجارب وأن نتاج الأسرة الثانية عشرة انما كان من ثمرة وحدة الشعب المصرى حول نظامه المختار فى ثورته الاجتماعية الأولى .

ويقول الدكتور أحمد فخرى (ان هذا التقليد أو المحاكاة كان صدى الشعور بالألم الذى أخذ يحس به الكهنة والفنانون المصريون عندما رأوا اليونانيين يقيمون بين ظهراتيهم فخشوا على تراثهم القديم من الضياع اذا هم تركوا للداعين الى التجديد ثغرة ينفذون منها ..) (٥٩) .

ثم تتطور الأحداث الى أن يصبح اليونانيون هم حكام مصر سنة ٣٣٢ ق.م بعد أن دخلوها أولا كتجار وجند مرتزقة .

ثم تتكرر الصورة فى القرن التاسع عشر الميلادى عندما تبدأ علاقة انجلترا بمصر بالتجارة ثم لا تلبث هذه التجارة أن تتطور الى احتلال الانجليز لمصر .

وبعد ذلك لاحظنا فى الأمس القريب أن بداية علاقة مصر بالروس بدأت على أساس تجارى (صفقات أسلحة) ثم لم تلبث أن تطورت الى احتلال عسكرى على شكل قدوم الآلاف والآلاف الى مصر مما سمى بالخبراء ..

وعلى كل حال فالبداية كانت عندما اتجهت مصر الى التوسع ناحية الشرق وعندما استعانت الامبراطورية المصرية بالأجانب كجنود مرتزقة ثم ما سمح به حكام مصر لهم من الانتشار كتجار منافسين للمصرى فى تجارته الوطنية .

هذه هى البداية التى (يجب) أن لا تغيب عن ذهن اى مصرى ابدا .

فالذى سمح للاجانب بالدخول والانتشار فى مصر ، لأول مرة ، هو الذى يتحمل أكبر مسئولية تاريخية .

وذلك أنه بعد احتلال اغريقى لمصر دام حوالى ثلاثة قرون تلقف مصر الاجانب فيما بينهم وتمكنوا فى أثناء ذلك من اماتة الشخصية المصرية .

ومنهم من فعل ذلك عن عمد مثل الأغارقة والرومان .

ومنهم من تلقف مصر وقد (اعتادت) شخصيتها ، بعد طول الزمن ، على الاستكانة ..

وقد جاء الأجنبى ومعه فكره وثقافته وعاداته وتقاليده ومصنوعاته وانتاجه ليشل **حركة الفكر المصرى والثقافة المصرية والنتاج المصرى كما يؤثر على العادات والاخلاق لتتلاءم مع اتجاهاته .**

وبذلك تصبح مصر كالغراب الذى ارتدى لباس الطاووس ، فلا هــو احتفظ بشخصية الغراب ولا هو تمكن من تقمص شخصية الطاووس ·

واذا طالعت أى كتاب عن التنمية الشاملة وعن اعادة بناء الأمم والشعوب فلن تجد الا نداء موجها من كافة العلماء الى شعوب الدول الفقيرة بعدم وجود أى أمل فى انهاضها الا باعتمادها على نفسها وعلى قدراتها الذاتية ·

ويراجع فى ذلك ، على سبيل المثال ، ما كتبه الدكتور على لطفى فى كتابه عن (الدراسات فى التنمية الاقتصادية والاجتماعية) وكتاب محبــوب جاد الحق عن (تحت ستار الفقر) وكتاب الدكتور على الجرتيل فى (٢٥ عاما دراسة عن الاقتصاد المصرى) ·

الاعتماد على النفس وعلى القدرات والامكانيات الذاتية الوطنية المادية والبشرية هو أول لبنة فى بعث الأمة المصرية واستعادة ايجابيات شخصيتها ·

وبدون ذلك ستظل الشخصية المصرية تتجه الى الاعتماد على الفــكر والثقــافة الأجنبية وستظل تقلد الأجانب ، وستظل متواكلة عليهم فى حمايتها وفى اطعامها ·

وستستمر فى وضعها الممسوخ ليس لهــا لون ولا طعم ، فلا هى تمكنت من الذوبان فى شخصية الأجنبى ولا هى استمسكت بشخصيتها ·

وبين هذا وذاك تفقد الشخصية المصرية الاحســاس بالأســلوب والاحســاس بالانتماء كما تفقد ثقتها بنفسها وبقدراتها أمام كل ما هو أجنبى ·

بينما السلف كانوا يعتبرون الاجنبى فى مستوى أقل من البشر أما هم وحدهم فهم الناس ·

وهذا هو أول درس مستفاد من عبرة التــاريخ لبعث الأمة المصرية وان كان قد كلفنا غاليا لأجل أن نتعلمه ·

كلفنــا قرونا من التوقف عن اللحاق بمســيرة الحضارة الانسانية بعد أن كنا روادها الأوائل ·

كلفنا الكثير والكثير من الأموال التى نهبت عبر آلاف السنين ·

كلفنا الــكثير من الفقر والضــعف حتى نظل فى حاجة الى حماية الأجنبى وفى نهاية الأمر احتجنا الى غذائه بعد أن كنا مصدر غذائه وقوته طوال قرون وقرون ·

ولهذا يجب أن تعتمد مصر على نفسها اقتصاديا وأن يكون سلاح جيشها نابعا من الفكر المصرى ومن المواد المحلية ·

أى الاكتفاء الذاتى اقتصاديا وعسكريا وبدون الحــاجة الى معــونة الغير فى هذين المجالين أبدا ٠

اذ بهذا فقط يتحقق الاعتماد على النفس والتخلص ، لاول مرة منذ ما ينيف على الفى عام ، من التأثير الأجنبى .

وبهذا فقط تجد الشخصية المصرية بيئتها الوطنية للظهور وللازدهار ولتقديم أبدع وأرقى ما عرفته الانسانية من فكر خلاق متلما فعلت ذلك من قبل .

٢ ـ محو الأمية والتوعية :

لن يستقيم حال هذه الأمة أبدا الا اذا عرف صغيرها وكبيرها الكتابة والقراءة ثم علم بنفسه واجباته فى مسيرة صنع الرخاء والحضارة المصرية .

وذلك أن بعث الأمة المصرية لن يتحقق أبدا الا بوحدة أبنائها حول طاعة ما يختارونه من أنظمة سياسية واقتصادية واجتماعية .

فكيف تقوم الأمة باختيار أنظمة لا تفهم حتى معناها .

ولقد سبق البيان أن القلة من المقيدين في جداول الانتخاب هى التى تذهب لتدلى برأيها فى صناديق الانتخاب .

فاذا كان معظم هذه القلة لا يفهم شيئا عن النظم والبرامج التى تعرض عليها فى الاستفتاءات أو لا تعلم من أمور الانتخاب الا أسماء الاشخاص دون ما يمثلونه من برامج فانك بذلك يمكن أن نستنتج أن الشعب المصرى لازال بعيدا ، حتى الآن ، عن ممارسة حقوقه السياسية رغم كثرة الشعارات عن الديمقراطية والحرية .. الخ .

وليس المقصود من هذا الكلام الهدم بطبيعة الحال ، وذلك أن التركة ثقيلة ولم يتسبب فيها النظام الحالى بأى حال من الأحوال .

ولكن فى ضوء المشكلة المزمنة للفرقة المصرية فانه من المعروف أن علاجها لن يتأتى الا عن طريق ارادة شعبية حرة واعية تقوم بوضع ما تراه صالحا لها من نظم وقوانين تحكم مسيرتها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية فتتحقق الثقة بين المتعاملين فى الثروة المصرية وفى شئون الحكم وغيره .. فتحدث الوحدة القومية التى لن تعجز أبدا عن تحقيق الرفاهية لكل بيت .

وفى ضوء ذلك فان البداية ، بداهة ، تكون فى محو الأمية حتى يقرأ الناس ويتعرفوا على مشاكل بلادهم ليشاركوا فى حلها بأنفسهم فيلتزموا عند ذلك بكل القرارات الصادرة منهم ويكونوا الرقباء على سلامة التنفيذ . وهنا يحق للمرء أن يتساءل ، هل كان هناك تعمد من الأنظمة السابقة فى ترك أكثر من ٧٠٪ من الشعب المصرى فى أمية القراءة والكتابة وأكثر من هذا العدد بكثير فى أمية سياسية ؟

ولقد سبق البيان أن الاحتلال البريطانى تعمد حرمان الشعب من التعليم فهل تعمد الحكام من الباشاوات أيضا أن تستمر هذه الأمية حتى نهاية حكم فاروق وبذلك

يتجنبون زيادة نسبة القوى الواعية بحقوقها التى سلبها الملك والأمراء والباشاوات والأجانب وغيرهم ؟

ثم يجىء عهد الراحل جمال عبد الناصر وقد حصل على تأييد شعبى هائل لعدة سنوات من حكمه ، كيف لم يستغل رجال الثورة هذه الحماسة الشعبية للقضاء على الأمية فى مصر ؟

فاذا استمر الوضع على ما هو عليه فان هذا يعنى أن الأمة المصرية يقل تعدادها كثيرا عن تعداد اسرائيل بمراعاة عدم حساب القوى الضائعة فى الأمية والجهالة السياسية ٠

ومن هنا يكمن السر الخطير فى التخلف ٠

وقد جاء فى كتاب الجامع لأحكام القرآن للقرطبى :

(يقول الله سبحانه وتعالى « اقرأ وربك الاكرم ، الذى علم بالقلم ») يعنى الخط والكتابة ، أى علم الانسان الخط بالقلم ٠ وروى سعيد عن قتادة قال : **القلم نعمة من الله تعالى عظيمة ، لولا ذلك لم يقم دين ، ولم يصلح عيش ٠ فدل على كمال كرمه سبحانه ، بانه علم عباده ما لم يعلموا ، ونقلهم من ظلمة الجهل الى نور العلم ، ونبه على فضل علم الكتابة ، لما فيه من المنافع العظيمة ، التى لايحيط بها الا هو٠ وما دونت العلوم ، ولا قيدت الحكم ، ولا ضبطت اخبار الأولين ومقالاتهم ، وكتب الله المنزلة الا بالكتابة ، ولولا هى ما استقامت أمور الدين والدنيا) ٠**

ورغم أهمية تعلم الكتابة للتعرف على سائر العلوم والمعارف (ولاستقامة أمور الدين والدنيا) فان الجاهلين بها يزيدون عن ٧٠٪ من المصريين ٠

ولقد تم عرض موجز لرحلة الشخصية المصرية مع كافة النظم السياسية والاقتصادية والدينية وقياداتها عبر التاريخ فى هذا الكتاب وذلك بهدف الاستفادة من تجارب السلف فتتجنب ما كان سببا فى فرقتهم وتعاستهم ، ونعمل بما كان مؤديا الى وحدتهم وهنائهم ٠

وكل هذا ضرورى لأن يقرأه كل مصرى حتى لا ينفصل عن التجارب الماضية وحتى لا يبدأ مسيرته بدون تجارب ، أى مع التجربة والخطأ مثلما فعل عصر الراحل جمال عبد الناصر ، ومع ما ترتب على ذلك من خراب الاقتصاد المصرى واحتلال جزء من الأرض ، بل وتحطيم الشخصية المصرية نفسها بما دخل عليها من خوف واستكانة ٠٠ الخ ٠

فاذا كان هذا الكتاب وغيره ، لن يقرأه الا القلة من العارفين للقراءة والكتابة وعلى شىء من العلم والثقافة ، فهذا يعنى انعزال غالبية القوى العامله المصرية عن مسيرة اعادة بناء مصر الرخاء ومصر العزة والكرامة ؟

وهذا كله يتعارض تماما مع دعوة الوحدة الشاملة لكل القادرين على العمل على أرض هذا الوطن ٠

وليس خافيا على أحد ، أن القلة التى قد تقرأ ثم قد يخرج منها من يحاول المشاركة فى رفع الغمة عن هذا الوطن ، ولكنه لن يجد من يشاركه فى فكره وفى جهده الا القليل من الناس وهم جميعا ليس باستطاعتهم فعل أى شىء ٠

انما البداية فى محو الأمية لكل القادرين على العمل حتى يقرءوا ويفهموا ثم ليقتنعوا ثم ليتقدموا بأغلبية تزيد عن عشرة مليون نسمة لاعادة النضارة والشباب الى أرض مصر عن اقتناع فكرى ورضى نفسى بأن هذا هو الطريق الأوحد لمضاعفة دخل كل أسرة ورفع مستوى ما تحتاجه من خدمات كما وكيفا ٠

ولحسن الحظ فأن تكاليف محو الأمية والتوعية ليست ذات بال ، فهى لا تتطلب الا أماكن للدراسة وهذه موجودة بوفرة فى دور العبادة وفى المرافق الحكومية التى لا تعمل بعد الظهر وفى ما يقدمه أصحاب الضمائر الحية من امكانيات ٠

أما عن أدوات الدراسة فى الكتب والكراريس والأوراق والأقلام فلن تعجز كل قرية وكل حى وكل منطقة عن جمع بضعة قروش من كل فرد تكفى لشراء لوازم الدراسة ٠

أما عن المعلمين والمدربين فهم كثير وكثير وبوفرة فى كل مكان ٠

ويقصد بالتوعية أن تفهم جميعا عبر التاريخ وتجارب الحاضر فى مجال وحدة الشعوب وفرقتها وعلاقة ذلك بالدخل المضاعف والرفاهية لكل أسرة والعزة والمنعة والتقدم والحضارة لمجموع الأسر المصرية حالة الوحدة ثم حتمية حلول الفقر والتخلف والهوان حالة الفرقة ٠

ومن حسن الحظ أيضا أن مصر غنية بالعلماء المتخصصين فى هذه المجالات وأن عملية التوعية ، وهى عملية تالية لمحو الأمية ، لا تتكلف من الماديات الا القليل الذى يمكن للحكومة وللشعب توفيره سواء من ناحية الأماكن أو الأجهزة والأدوات المطلوبة ٠

وأن أشق عملية ستواجهها النفس المصرية لتنفتح على الغير هو بسبب ما أصابها من عقائد وأفكار خاطئة ترسبت فى الأنفس فجعلتها تتعصب تعصبا أعمى لفرقتها عن الغير بسبب ما اخترعوه فى الأديان وبسبب تباعدها عن النظم والقيادات الحالية وأهم من ذلك كله بسبب عدم احساسها بالخطر الوشيك على نفسها وعلى عقيدتها وعلى وطنها أى على وجودها كله ٠

كما أن هناك ثلاث ظواهر دخلت النفس المصرية بسبب حياة القهر والظلم التى عاناها المصريون عبر تاريخهم الطويل وهى التواكل والقناعة والتباعد عن العمل العام ٠

ولقد كان المصرى القديم ، وقت ازدهار الحضـــارة المصريه ، يتجه الى المادية والسعى للكسب والمركز المرموق اذ هذا هو ما كانت تحض عليه عقيدته الدينية .

اذ كان للنجاح الدنيوى المكانة السامية اذ ذاك ، وكانت السبيل للتحقق من الوصول اليه عظيمة الأهمية ، ولذلك شغلت هذه الأمـــور نحو ثلث نصائح الوزير بتاح حتب .

والدافع البديهى لمثل تلك النصائح هو اتباع سياسة دنيوية مبنية على اليقظة والتفطن ، (وذلك فى اطار الأخلاق والماعت أى النظام والصدق والعدالة) .

هذا عن الأمس البعيد ...

ولكن انسان اليوم (أصيب) بالتواكل والقناعة والسلبية ، والرضا بالفقـــر والمعيشة الضنك استنادا الى المقسوم والمكتوب ... الخ .

بل هو فى كثير من الاحيان ، قد استمرأ حالة الاعسار التى يعيشها .

والخطورة هنا ان هـــذا يعنى موت الأمة لعدم وجود تطلعات عنـــدها لتغيير احوالها الى الأفضـــل مما يجعلها فريســــة لالتهام الأجنبى الذى تدفعه أيديولوجيته وعقيدته الى السعى لبلوغ الثراء والتقدم والحضارة على حساب حطام الشعوب الفقيرة المتخلفـــة .

وكل هذا فى منتهى الخطورة على الانسان المصرى وعلى عقيـــدته الدينية ، بل وعلى وجوده نفسه .

ولسنا ندرى ، الى متى يلتزم الأجنبى بقواعد (الأخلاق) فى عدم نســـف الشعوب الفقيرة ، المتخلفة بسبب تواكل أهلها وقناعاتهم ما دام يملك كل امكانيات المـــال والتقدم الحضارى ليفعل بهم ما يريد .

روى أن عمر رأى بعد الصلاة قوما قابعين في المسجد بدعوى التوكل على الله فعلاهم بدرته ، وقال كلمته الشهيرة (لا يقعدن أحـــدكم من طلب الرزق ويقـــول ـ اللهم ارزقنى ـ وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ، وان الله تعالى يقـــول « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله » .

وروى عنه أيضا أنه قال (ما من حال يأتينى عليها الموت . بعد الجهـــاد فى سبيل الله ـ أحب الى من أن يأتينى وأنا ألتمس من فضـــل الله) ثم تـــلا الآية : « وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله ، وآخرون يقاتلون فى سبيـــل الله » .

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الحث على التجارة (التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء) .

وقال فى الحث على الزراعة والغرس والعمار (من أحيا أرضا مواتا فهى له) -

وقال فى الحث على الصناعات والحرف ـ (ما أكل أحد طعاما خير من أن يأكل من عمل يده) ٠

والأحاديث النبوية تعتبر الفقر آفة خطيرة يخشى ســوء أثرها على الفرد وعلى المجتمع معا ، على العقيدة والايمان ، وعلى الخلق والسلوك ، وعلى الفكر والثقافة وعلى الاسرة والأمة جميعا ٠

١ ـ وقال عليه الصلاة والسلام (كاد الفقر أن يكون كفرا) و (اللهم انى أعوذ بك من الكفر والفقر) ويقول (اللهم انى أعوذ بك من الفقر والذلة ، وأعوذ بك من أن أظلم أو أظلم) ٠

٢ ـ وقال (ان الرجل اذا غرم ـ استدان ـ حدث فكذب ووعد فأخلف) (٦٠) ٠

كما أن الفقر يؤثر على فكر الانسان فيجعله مشتت الفكر مشغول البـال ، فلا يكون حكمه سديدا ، وذلك أن الانفعال الحاد يؤثر على سلامة الادراك وصحـة الرأى كما يقرر علماء النفس ، وكما جاء به الحديث الصحيح (لا يقض القاضى وهو غضبان) وقاس الفقهاء على الغضب شدة الجوع وشدة العطش وغيرهما من الانفعالات المؤثرة ٠

٤ ـ وخطورة الفقر على الاسرة فى احجام الشباب عن الزواج ثم فى المشاكل التى تنشأ بعده مما قد يؤدى الى الطلاق « أبغض الحلال الى الله » ٠

٥ ـ روى عن أبى ذر أنه قال (عجبت لمن لا يجد القــوت في بيته ، كيف لا يخرج على الناس شاهرا سيفه) ٠

فى معنى القناعة والرضا بما قسم الله :

ولقد تناول هذا الموضوع الدكتور يوسف الفرضاوى فى كتابه عن مشكلـة الفقر وكيف عالجها الاسلام وأوفاه حقه من البحث ، ولقد استحسنا أن نعـرض كلماته كما هى ٠

« أما ما جاءت به الأحاديث من حث على القناعة والرضا بما قسم الله ، فليس معناها ترضية الفقراء بالعيش الدون والحياة الهون ٠ ولا القعود عن السعى عن الغنى الحـلال ، والحيـاة الطيبة ، والعيش الرغيـد ، ولا ترك الأغنياء فى سرفهم وترفهم يعيشون ويعبثون ٠

ان القناعة والرضا بما قسم الله لا تعنى شيئا مما ذكرنا ، فان الرسول صلى الله عليه وسلم كان يسأل الله الغنى ، كما يسأله التقى ، ودعا لصاحبه وخادمه أنس

فكان مما قاله (اللهم أكثر ماله) وأثنى على صاحبه أبى بكر الصديق فقال (ما نفعنى مال كمال أبى بكر) ، فماذا تعنى القناعة اذن ·

انها تعنى أمرين :

أولهما — أن الانسان بطبيعته شديد الطمع والحرص على الدنيا ، لا يكـــاد يشبع منها أو يرتوى وقد صور ذلك الحديث النبوى (لو كان لابن آدم واديان من ذهب لا بتغى ثالثا — ولا يملأ عين ابن آدم الا التراب) ·

وكان لابد للدين أن يهديه الى الاعتدال فى السعى للغنى ، والاجمال فى طلب الرزق ، وبذلك يقيم التوازن فى نفسه وفى حياته ، ويمنحه السكينة التى هى من السعادة . ويجنبه الافراط والغلو ، الذى يرهق النفس والبدن معا · ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم (ان روح القدس نفث فى روعى أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب) ·

ولو ترك الانسان يستسلم لنزعات حرصه وطمعه لأصبح خطرا على نفسه وعلى جماعته ، فكان لابد من توجيه طموحه الى قيم أرفع ، ومعان أخلد ، ورزق أبقى ، وذلك وظيفة الدين معه « ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحيــاة الدنيا لنفتنهم فيه ، ورزق ربك خير وأبقى » و « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومه والأنعـــام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب ، قل أؤنبيكم بخير من ذلكم ؟ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وأزواج مطهرة ورضوان من الله » ·

وظيفة الايمان هنا أن يحد من سورة الحرص والطمـــع ، وطغيان الشراهـة والجشع على النفس البشرية ، فلا تستبد بها ، وتجعلها تحيا فى قلق دائم ، لا تكتفى بقليل ، ولا تشبع من كثير · لا يطفىء غلة طمعها ما عندها ، فتمتد عينها الى ما عند غيرها ، ولا يشبعها الحلال فيسيل لعابها الى الحرام ·· مثل هذه النفس لا ترضى ولا تستريح ، انها كجهنم — تلتهم الملايين فى جوفها ، ثم يقال لها : هل امتلأت ؟ وتقول — هل من مزيد ؟ —

وظيفة الايمان أن يوجه النفوس الى القيم المعنوية الخالدة ، والى الدار الآخـرة الباقية ، والى الله الحى الذى لا يمـــوت ، ويعلم المؤمن أن الغنى — ان كان ينشـد الغنى — ليس فى وفرة المال ، وكثرة المتاع ، وانما هو فى داخل النفس أصـــلا ، وبذلك ورد الحديث (ليس الغنى عن كثرة العرض ، انما الغنى غنى النفس) ·

وثانى ما تعنيه القناعة والرضا بما قسم الله : أن تفاضل الناس فى الأرزاق كتفاضلهم فى المواهب والملكات سنة مطردة ، اقتضتها طبيعة هذه الحياة ، ووظيفة الانسان فيها ، وما منحه الله من ارادة واختيار ، وما حفه به من ابتلاء واختبار ·

قال تعالى « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق » « ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، انه كان بعباده خبيرا بصيرا » « وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم » .

فكما أن فى الناس القصير والطويل ، والدميم والجميل والغبى والذكى ، والضعيف والقوى ، كذلك يوجد الموسع له والمضيق عليه ، هذه طبيعة الحياة وهذه سنة الله التى لم يستطع الشيوعيون أنفسهم أن يغيروها ، رغم تشدقهم بالمساواة ومحو الفوارق الاقتصادية بين الناس .

فالاسلام يريد من المسلم أن يكون واقعيا ، يعترف بالحياة كما هى ، ولا يعيش حياته فى هم ناصب ، وتعب واصب ، جريا وراء وهم كاذب ...

فمعنى القناعة هنا أن يرضى الانسان بما وهب الله له مما لا يستطيع تغييره ، فالمرء تحكمه مواريث جسمية وعقلية ونفسية ، وتحده البيئة والخبرة والظروف القاهرة .

وفى حدود ما قدر له يجب أن يكون نشاطه وطموحه فلا يعيش متمنيا مالا يتيسر له ، متطلعا الى ما وهب لغيره ، ولم يوهب له ، كتمنى الشيخ ان يكون له قوة الشباب ، وتطلع المرأة الدميمة الى الحسناء فى غيره وحسد .

وكما حدث فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم من تمنى النساء أن يكون لهن ما للرجال فانزل الله « ولا تتمنوا ما فضل الله بعضكم على بعض ، للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن ، واسئلوا الله من فضله » .

وهؤلاء فى حاجة أن يعلموا ويوقنوا أن السعادة ليست فى وفرة أعراض الحياة ولكنها فى داخل النفس ، وأول ما يقال لهم « ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس » و « قد أفلح من هدى للاسلام وكان رزقه كفافا وقنع به » و « ما قل وكفى خير مما كثر وألهى » .

اذن .. فالقناعة ألا تكون جشعا شرها ولا حسودا ، ولا متطلعا الى ما ليس لك ولا فى طاقة مثلك ، وبذلك تستروح نسمات الحياة الطيبة التى جعلها الله جزاء العاملين فى الدنيا (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة) وقد فسر على بن أبى طالب رضى الله عنه الحياة الطيبة بالقناعة أ.هـ (٦٠) .

فى السلبية والانعزال عن العمل العام :

« الشريعة الاسلامية لم تجعل قاعدتها الرئيسية فى وضع الأحكام فكرة (الحقية) أو الامتلاك ، ولكن جعلت القاعدة الاساسية ، وهى بصدد تنظيم النشاط السياسى ، أو تحديد صلة الفرد بالمجتمع — جعلت القاعدة الأساسية فكرة (الوجوبية) والالتزام ، أكثر من فكرة الحقية والاستحواذ ، فالانسان فى عرف الشرع لا ينظر

«اليه على أنه صاحب حق ، ولكن ينظر اليه على أنه يتحمل مسئولية ، أو ملزم بأداء واجب أو طائفة من الواجبات ٠٠٠٠ » ٠

والمسئولية والواجبات المكلف بها الانسان من الله سبحانه وتعالى لها نزعتها الجماعيـــة ٠

ونجد هذه النزعة الجماعية للتشريع الاسلامي فيما جاء به الاسلام من عبادات، كما هي واضحة فيما أتى به الاسلام من أحكام المعاملات ، فجميع التشريعات الاسلامية تهدف الى تهذيب الفرد وصالحه والصالح العام للمجتمع بأسره » ٠

ويستهدف الشارع مصلحة الناس كافة ، لا فرق بين أجناسهم وأديانهم وفى هذا يقول الامام الشاطبى (ومن المعروف أن المصالح تتضارب كثيرا ، فربما كان الخير لهذا فى ضرر يصيب ذاك ، وهنا بنى التشريع الاسلامى فى تقديم المصلحـــة الخاصة ، وعلى ازالة الضرر الأكبر بالضرر الأدنى) (*) ٠

ويقول الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده (ان الديانة الاسلامية وضع أساسها على طلب الغلبة والشوكة والاقتناع والعدة ورفض كل قانون يخالف شريعتهـــا ونبذ كل سلطة لا يكون القائم بها صاحب الولاية على تنفيذ أحكامها ، فالناظر فى أصول هذه الديانة ومن يقرأ سورة من كتابها المنزل ، يحكم حكما لا ريبة فيه بأن المعتقدين بها لابد أن يكونوا أول ملة حربية فى العالم ، وأن يسبقوا جميع الملل الى اختراع الآلات القاتلة واتقان العلوم العسكرية والتبحر فيما يلزمها من الفنـــون كالطبيعة والكيمياء وجر الاثقال والهندسة وغيرها ٠ ومن تأمل فى آية : « وأعـــدوا لهم ما استطعتم من قوة » أيقن أن من صبغ بهذا الدين ، فقد صبغ بحب الغلبة وطلب كل وسيلة الى ما يسهل له سبيلها ٠٠٠ ومن لاحظ أن الشرع الاسلامى حرم المراهنة الا فى السباقة والرماية انكشف مقدار رغبة الشارع فى معرفة الفنون العســـكرية والتمرن عليها ، ولكن مع ذلك تأخذه الدهشة من أحوال المتمسكين بهذا الدين لهذه الاوقات ٠٠ اذ يراهم يتهاونون بالقوة ويتساهلون فى طلب لوازمها وليست لهـــم عنـــاية بالبراعة فى فنـــون القتال ، ولا فى اختراع الآلات ، حتى فاقتهم الأمم سواهم فيما كان أول واجب عليهم ، واضطروا لتقليدها فيما يحتاجون اليه من تلك الفنون والآلات وسقط كثير منهم تحت سلطة مخالفيهم واستكانوا لها ورضخوا لأحكامها(٦١) ٠

ولهذا وجب على الأمة دراسة الكثير من الأفكار والتصرفات والعادات الضـــارة لمسيرة اعادة البناء ، والمخالفة لحقيقة الدين بهدف التخلص منها ٠

والحقيقة فان كل الأفكار والعادات والتصرفات التى تجعل الانسان قاعـــدا دون مشاركته فى بعث أمتـــه هى أفكار وعادات وتصرفات ضـــد الدين بشريعتيه الاسلامية والمسيحية وضد منطق الأشياء وضد مصلحته وضـــد مصلحة كل الأسر المصرية ٠

(*) نظام الحكم فى الاسلام مقارنا بالنظم المعاصرة للدكتور محمد حلمى ص ١٥٧ ٠

وبالاضافة الى ذلك فقد دخلت علينا عادات واعراف ضارة بنا ماديا وبشريا مثل قيام بعض الناس بالتسلية أو قطع الوقت والتلهى عن مضى الساعات والليالى والايام بالجلوس على المقاهى وغيرها ساعات طويلة مع أفراد من نفس المستوى الفكرى المنخفض لتبادل وجهات النظر الضيقة عن مشاكل الأسرة . وتبادل الاشاعات والشكوى من سوء الحال بدلا من قيامهم بأداء التكاليف التى فرضها الله سبحانه وتعالى عليهم فى تهيئة الأمة لعمار الأرض والمشاركة فى نشر نظم المحبة والسلام بين الناس .

وبعض الناس بحاجة الى اعادة النظر فى ترفعهم عن القيام بالأعمال اليدوية بصفة عامة أو بعضا منها بصفة خاصة ، أو قد لا يرتضون تغيير أعمالهم لما فى ذلك من مهانة يحسون بها أن أصبح صاحب المؤهل العالى مثلا بائعا أو تاجرا أو عاملا على رصف طريق أو مستصلحا لأرض موات أو منظفا لمستشفى أو طريق .

وقد روى البخارى عن الزبير بن العوام أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأن يأخذ أحدكم حبلة ، فيأتى بحزمة الحطب على ظهره ، فيبيعها فيكف الله بها وجهه ، خير من أن يسأل الناس ، أعطوه أو منعوه) .

فبين الحديث أن مهنة الاحتطاب على ما فيها من مشقه ، وما يحوطها من نظرات الازدراء ، وما يرجى فيها من ربح ضئيل خير من البطالة وتكفف الناس .

ولم يكتف بهذا البيان النظرى ، فضرب لهم مثلا بنفسه وبالرسل الكرام من قبله فقال « ما بعث الله نبيا الا ورعى الغنم ، قالوا ـ وأنت يا رسول الله . قال ـ نعم ـ كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة » .

وقال (ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وأن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده » .

وذكر الحاكم من حديث ابن عباس ان داود كان زرادا (يصنع الزرد والدروع) وكان آدم حراثا ، وكان نوح نجارا ، وكان ادريس خياطا ، وكان موسى راعيا .

ولا عجب أن رأينا فى أئمة الاسلام وأكابر علمائه والذين سارت بذكرهم الركبان . وخلدتهم آثارهم ومؤلفاتهم العلمية والأدبية ــ كثيرين لم ينسبوا لآبائهم وأجدادهم وقبائلهم ، بل نسبوا الى حرف وصناعات كانوا يتعيشون منها ــ أو ــ على أبعد تقدير ــ كان يتعيش منها آباؤهم ، ولم يجدوا هم ، كما لم يجد المجتمع الاسلامى على مر الاعصار أى غضاضة أو مهانة فى الانتساب الى تلك الحرف والصناعات ، ولازلنا نقرأ أسماء عن البزاز ، والقفال ، والزجاج ، والخراز ؛ والجصاص ، والخواص ، والخياط ، والصبان ، والقطان و ... وغيرهم من الفقهاء والمؤلفين ، والعلماء المتبحرين فى شتى جوانب الثقافة الاسلامية والعربية .

يقول الله سبحانه وتعالى « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » الملك / ١٥ ٠

وبهذا فان كل انسان مطالب بان يعمل ، مأمور أن يمشى فى مناكب الأرض ويأكل من رزق الله ٠

والمراد بالعمل : المجهود الواعى الذى يقوم به الانسان ـ وحده أو مع غيره لانتاج سلعة أو خدمة ٠

« والعمل هو السلاح الأول لمحاربة الفقر ، وهو السبب الأول فى جلب الثروة ، وهو العنصر الأول فى عمارة الأرض التى استخلف الله فيها الانسان ، وأمره أن يعمرها ، كما قال تعالى على لسان صالح لقومه (يا قوم أعبدوا الله ما لكم من اله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » ٠

وقد قرن الله سبحانه وتعالى بين سعى الانسان لمعاشه ليعف نفسه أو يعول اهله ، أو يحسن الى أرحامه وجيرانه ، أو ليعاون فى عمل الخير ونصرة الحق ، وبين الجهاد فى سبيل الله فى قوله تعالى « وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله ، وآخرون يقاتلون فى سبيل الله » (٦٢) ٠

٣ ـ فى اختيار النظم والقيادة القدوة :

بعد تضافر جهود أبناء هذه الأمة لانجاز عمليتى محو الأمية والتوعية سيكون الناس فى هذه اللحظة (فقط) قادرين على اختيار ما يشاؤون من نظم وقوانين يرون فيها وسيلتهم الوحيدة للتجمع والوحدة حولها ٠

كما أن انجاز عمليتى محو الأمية والتوعية ستكون فرصة لظهور قيادة البذل والعطاء والتضحية والتى سيرى فيها الجماهير صلاحيتها لتمثيلها فى المجالس النيابية للتعبير عن مصالحها ٠

ومن المسلم به أن هذا كله سيتم بعد التراضى مع الجهاز الحاكم على اجراء انتخابات جديدة فور انجاز عمليتى محو الأمية والتوعية التى نأمل ألا تزيد على عامين ٠

٤ ـ فى وضع خطة التنمية الشاملة والتدريب :

قد يصل عدد القوى العاملة الواعية سياسيا وثقافيا بمتطلبات حياة هذه الأمة الى ما يربو على خمسة عشر مليونا من الأنفس ، كما سيكون لها قياداتها التى ظهرت بجهدها وبعملها فى خدمة الجماعة المصرية فى كل موقع والتى انتخبتها الجماهير لهذه الاسباب لتمثلها فى المجالس الشعبية ٠

وهنا ستتجه هذه القوة الهائلة الواعية بقيادة البذل والعطاء الى حصر كافة

الامكانيات الاستثمارية والخدمية المتوفرة فى كل شبر من القطر المصرى لتقـــوم بعد ذلك باعداد الدراسات والابحاث عن اعادة بناء مصر واعدادها للاستثمارات العامة والخاصة فى كل موقع وتحديد القوى البشرية المطلوبة وتخصصاتها لانجاز كـــافة المشروعات الخدمية والاستثمارية .

وبهذا يجتمع الشعب بنفسه ، فى كل موقع وبقيادته المختارة ، وفى نطـــاق مساعدة ومعاونة الجهاز الحاكم نفسه ، لوضع خطط استصلاح ملايين الأفدنة وقلب مصر الى دولة سياحية واقامة وتجديد المبانى والمنشآت والطرق اللازمة لكافة المشروعات الخدمية والاستثمارية .

كما أنه من البديهى أن تشمل هذه الخطة نظاما للتدريب على كافة التخصصات والمهن المطلوبة وأن تشمل بيان واضح بالمقابل المادى لكل العاملين فى تنفيذ متطلبات التنمية الشاملة وان كان هذا المقابل سيكون مؤجل الدفع الى حين انجاز الخطة ثم يتحول هذا المقابل الى أسهم والى مشاركة فى الملكية الخاصة لكل ما تم انجازه من مشروعات خدمية واستثمارية وكل على حسب عمله الذى يحـــدده الشعب المصرى نفســـه .

وبهذا يتحدد دور كل قادر على العمل بين محاضر ومدرب ودارس ومتدرب على كافة المهن والتخصصات اللازمة لتنفيذ الخطة الشعبية للتنمية الشاملة ـ كما تتحدد مواعيد أداء هذه التكاليف ومواقع العمل لتنفيذ الخطة وذلك كله أما يؤديه الناس مع التفريغ الكامل أو بعض الوقت حسب الظروف التى يقدرها الجميع وذلـــك تمهيدا لأن يتخلص معظم العاملين فى الحكومة والقطاع العام من الاعتماد فى أرزاقهم على غير مواردهم المالية الخاصة ـ وذلك فضلا عن دخول معظم القوى العاملة فى مصر كملاك أو مشاركين فى ملكيـــة المنشآت الاستثمارية والخدمية التى سيقوم الجميع بانشائها .

٥ ـ فى (حتمية) الاتحاد مع الجهاز الحاكم :

الجهاز الحاكم هو الذى يسيطر بطريق مباشر أو غير مباشر على جميع الموارد الاقتصادية الموجودة فىمصر كما أنه هو وحده الذى له كافة السلطات القانونية على جميع أفراد الأمة المصرية .

الجهاز الحاكم عنده العمالة المطلوبة للقيام باعمال محو الأمية والتوعية والتدريبية على كافة التخصصات التى تتطلبها عملية استصلاح خمسة ملايين أفدنة وقلب مصر الى دولة سياحية وانشاء وتجديد ما يلزم من منشآت خدمية واستثمارية .

الجهاز الحاكم عنده (وحده) كل الامكانيات لجعل عملية ازالة وصحة الفقر والتخلف من على أرض مصر حقيقة واقعة ·

وبدون معاونة الجهاز الحاكم ومشاركته بقوانينه وامكانياته المادية والبشرية فلن يتم أى شيء ·

أما من يرى غير ذلك انتظارا لقلب نظام الحكم وتكرار (اسطوانة) تغيير الاشخاص فقط مع استمرار الداء والتى لمسناها فى الخمسين سنة الاخيرة فهذا شيء لا يصح أن يصدقه عاقل أبدا ·

وذلك أن الداء موجود فى عدم كفاية انتاج الأرض الزراعية بمساحتها الحالية لغذاء ولكساء ولاشباع حاجات ٤٣ مليون نسمة يزيدون مليون وربع كل عام ·

والداء موجود فى عدم كفاية أجهزة ووسائل الخدمات لتعدادنا الحالى والذى يزيد فرد كل نصف دقيقة ·

والداء موجود فى سيطرة الفقر والتخلف على كل أسرة مما حقق لها القلق والاضطراب بالنسبة للحاضر والمستقبل فماتت ملكات الخلق والابداع التى لا تنشأ الا فى أجواء الاطمئنان على الفس وعلى القوت وذلك رغم حاجة هذه الأمة الى توافر الفكر الخلاق بين أبنائها لتقديم ابتكاراتهم لتوفير الحماية العسكرية للأمة بسلاح تكون كل مواده وقطعه وأجزائه من التربة المصرية مع توفير أسرع الاساليب وأكثرها اقتصادا فى النفقات لنشر الخضرة فى الصحراء المصرية وقلب مصر الى دولة سياحية ·

والداء موجود فى أن أكثر من ٧٠٪ من القوى العاملة يكاد يكون معطلا تماما عن اشباع حاجاتها وحاجات باقى الأمة المصرية فى الغذاء والكساء والسكن وكافة احتياجات انسان القرن العشرين وحل مشاكل المجتمع المتطورة والمتجددة وذلك لاميتها ونقص وعيها السياسى والثقافى وافتقارها للتدريب المتخصص لتنفيذ خطة التنمية الشاملة ·

والداء موجود فى فرقتنا عن أنفسنا وعن النظم والقوانين والقيادة بل وعن المصدر الوحيد لاشباع كافة احتياجاتنا والموجود فى التربة المصرية ·

وهنا فان اليد التى تتيح للانسان المصرى تحقيق وحدته حول النظم والتشريعات والقيادات التى يرى فيها وسيلته الوحيدة للقضاء على عوامل الفقر والتخلف ، بل وتساعده بامكانياتها الهائلة على تحقيق الثراء والتقدم لكل أسرة مصرية ، فانها يد يجب انتهاز الفرصة (الذهبية) للتعاون معها والقضاء على كل ما يثير أى شك حول علاقة الأمة بها ·

أى يجب العمل بكل جهد على عدم اتاحة أى فرصة لأى انسان لتكدير الصفو

بين الجهاز الحاكم وبين العاملين فى صنع مصر الرخاء ومصر الحضارة وذلك تحت أى شعار ٠

يجب تحريم أى خلاف أو أى بلبلة تجعل الجهاز الحاكم (يضطر) الى كف يده عن معاونة عملية اعادة بناء مصر ، أو وضع القيود الفكرية أو القانونية التى تعوق المسيرة ٠

أما من عندهم آراء أخرى فلعل من الافضل لهم الانتظار لحين أن تصل مصر الى مرحلة القضاء على عوامل الفقر والتخلف وهنا ينفتح لهم المجال للخلاف وللصياح وللتهجم وللتحزب وللتطرف وللتشنيع وللهدم ما شاءت لهم أخلاقهم ومبادئهم ٠

أما قبل ذلك فكلا ، والا كان مثلنا كمثل سكان احدى العمارات التى فاجأتهم النيران وهم يتشاجرون ففضلوا الاستمرار فى شجارهم (وردحهم) على التعاون للقضاء أولا على الحريق الذى يوشك أن يلتهمهم جميعا ٠

انما العقل والمنطق فى أن يتعاون كل أبناء هذه الأمة لدرء مخاطر الفقر والتخلف التى تكاد تقضى على الانسان وعلى العقيدة الدينية وعلى الوطن كله ثم بعد ذلك يتم تصفية الحسابات بين السادة العقلاء أصحاب المذاهب السياسية أو الدينية (الذهبية) ٠

ويعلم الله أن أمثال هؤلاء المتصارعين فى مرحلة الفقر والتخلف والهوان أما يكون مأواهم مستشفى المجاذيب أو أن يتم تكفيرهم من كل ملة ودين أو أن يتم حرمانهم من شرف الانتساب الى الانسانية والى الوطن ٠

ولكن كيف تكون البداية ؟ ٠

لعل البداية تكون فى أن يتقدم كل من يستشعر المخاطر المحدقة بهذه الأمة الى الجهاز الحاكم بطلبات للبدء فى عملية التنمية الشعبية الشاملة للانسان المصرى وللتربة المصرية ٠

فهذا هو الطريق الطبيعى ٠

وذلك أنه حالة اعلان الحكومة من جانبها فقط عن خطة للتنمية الشاملة وتطالب فيها باشتراك الأمة فى انجازها فان هذا الطلب سيتخذ الشكل المفروض من الجهاز الحاكم ومن ثم لن يجد الاستجابة من القاعدة الشعبية وللاسباب السابق بيانها فى هذا الكتاب ٠

ولذلك فلا مفر أمام أبناء هذه الأمة من أن تكون البداية من عندهم أنفسهم ٠

وكلما كثرت الطلبات وازداد أصرار اصحابها على البدء (فورا) فى معركة اعادة بناء مصر بشريا وماديا واعدادها للاستثمارات العامة والخاصة كلما كان ذلك مدعاة للاستجابة الى هذه الطلبات ٠

ونعود فنذكر أبناء هذه الأمة بالمستقبل القريب حيث قام آباءهم ، والكثير لازالوا أحياء يرزقون ، بالتوقيع على مطالبهم بالدستور بقيادة المرحوم محمد فر ثم بالآلاف التوقيعات والطلبات التى قدمتها الأمة لتوكيل سعد زغلول فى المط بحقوق الأمة المصرية .

وأنظر فى العرائض التى قدمتها الأمة لحاكم مصر (الخديوى اسماعيل) التزمت فيها الأمة بسداد الديون للاجانب حتى نقطع عليهم أى حجة فى التدخ فى شئون مصر .

ونأمل فى أن الطلبات التى سبق أن قدمتها الأمة سواء لدرء خط التدخ الاجنبى أو للمطالبة بالدستور أو بتوكيل سعد زغلول فى المطالبة بحقوق الأمة آتت ثمارها فعلا ولم يكن الفشل الا بسبب المؤامرات الاجنبية كما سبق بيـــان فى موضعــــه .

فاذا ظلت الأمة على غفلتها ، أو على صراعاتها ، أو على فرقتها ولم تتشكل مطالبة جمــاعية جادة من كل المتفهمين لخطورة الأوضاع لتطالب الحكومة (ف باتاحة الفرصة للشعب لوضع خطته (العملية) لازاحة كابوس الفقر والتخلف وا من على أرض مصر .

فهنا لا نلو من الا أنفسنا .

« وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

ولكن اذا تمكنت الأمة بمختلف الضغوط والوسائل القانونية السلمية من الجهاز الحاكم للبدء فى مشاركة الشعب فى انهاض مصر من كبوتها ، فهنا ست مصر ، ولعدة سنوات تالية ، الى خلية نحل ، حيث الجميع يعمل ، والجميع ي والجميع يقدم أقصى ما عنده من جهد وعطاء ومال .

هنا لن يظهر فى وسائل الاعلام المختلفة الا أنباء المتابعة والتشجيع لعملية بناء مصر الحضارة ومصر العزة ومصر الكرامة .

هنا لن يظهر فى وسائل الاعلام المختلفة الا أبناء المتابعة والتشجيع لعملية بناء مصر وأعدادها للاستثمارات العامة والخاصة .

هنا ستختفى التمثيليات والاغانى والمسرحيات والافلام المأخــــوذة عن البـ المرفهة حضاريا لتحل محلها التمثيليات والاغانى والمسرحيات والافلام النابعة من الشعب فى معركة التعمير والبناء .

هنا ستتغير لغة الكلام وأنواع التصرفات والاعمال حيث تســـــود لغــة الا وحساب المكاسب المادية والادبية التى ستجنيها الأمة وسيحصل عليها كل فرد انجاز عملية اعادة بناء مصر وأعدادها للاستثمارات العامة والخاصة .

هنا سيتشكل مجتمع العطـــاء من كل قادر على اى عطاء انتظارا لمقابل مادى محقق .

ولكن ، متى يستشعر كل منا بثمرة عمله وجهده وعطائه فى انهاض مصر من كبوتهـــا ؟ ٠

ان الموعد لذلك تحدده الأمة نفسها وكلنا على استعداد لبذل أقصى عطـــاء حتى نحصل على الثمرة فى أقصر وقت ٠

وعندما يتم انجاز المطلوب لتحقيق السعادة والسلام لكل أسرة والعزة المنبعـــة للأمة المصرية فان هذا يعنى ، فى الجانب الآخر ، أن مصر قد استعادت موقعهـــا (الطبيعى والتاريخى) فى قيادة حضارة بنى الانسان ٠

وذلك أنه فور تحقق الوحدة بين فكر وانفس أبناء هذه الأمة فان القوة الدافعة التى أملت عليها هذه الوحدة ستظل تستنهضها للمزيد من التقدم وللمزيد من الرقى لتأخذ موقعها القيادى ، والتقليدى ، على هذا الكوكب ٠

وحتى يثق الناس أن عملهم وجهدهم وأموالهم وتضحياتهم لن تضيع تحت أى شعار أو أى تصرف غير أخلاقى فهم الذين سيضعون نظام الأجر المؤجل ونظام الرقابة على أداء الأعمـــال وهم أنفسهم الذين سيقومون بحساب المقصرين وتوقيع العقوبات عليهم ٠

هم أصحاب مشروع تمليك مازاد عن المشروعات الخدمية والاستثمارية الحاليـــة ملكية خاصة للعاملين فيها وهم واضعو نظام العمل ونظام الملكية الخاصة فى المشروعات الجديدة مقابل العمل المؤدى وهم الرقباء على جدية التنفيذ وهم أيضا أصحاب السلطة فى حساب المقصرين ٠

وكل شيء على المكشوف وبطريقة محددة ومبسطة ومفهومة للجميع تدعيما للثقة بين الشركاء أصحاب الملكية الخاصة لكل استثمار جديد ولكل مشروعات خدميـــة جديدة ٠

وكل متاح له الفرصة ليقدم ما فى طاقته من جهد أو مال فى صنع مصر الرخاء مصر الحضارة ومصر العزة ومصر الكرامة لكل مصرى ومصرية ٠

ولا يعتقد الكاتب أن عنده من القدرات ما يسمح له باضافة جديد على ما سبق تقديمه فى هذه الكتـــاب ٠

ولكن المؤكد أن مصر غنية بأصحاب الفكر الافضل فلعلهم يتقدمون بما عندهم لنتبعهم فى مسيرة احلال الوحدة محل الفرقة حول النظام والقانون والقيادة أى فى مسيرة احلال الثراء والحضارة والعزة للأمة المصرية محل الفقر والتخلف والهوان ٠

ولعلنا نتوقف عن الليونة والتواكل وأخذ الامور بالهذل ودفن الفكر والجهـد فى مشاكل أكل العيش والغلاء والغذاء والملبس والاجور والعلاوات ومشاكل العمل والجيران ونتنبه الى أصل الداء الكامن فى فرقتنا عن النظم والقوانين وعن القيادة وعن المال العام وعن أنفسنا ٠

لعلنا نتنبه الى الكنز المملوك لنا فى كل أرجـــاء مصر والذى لا يستخرجه من موقعه الا وحدتنا ·

ثم ليتنا نطأ كل الافكار والعقائد الداعية الى فرقتنا لنبنى وحدتنا على أساس جديد من صنعنا ومن اختيارنا الواعى وبارادتنا الحرة ·

ألا ليت رجال وقادة الفكر الدينى والسياسى والاقتصادى والثقافى والاجتماعى والعلمى يقصرون جهدهم وفكرهم وقيادتهم على الوسائل العملية لبعث الأمة المصرية عن طريق تحقيق وحدتها حول النظم وحول القيادات بمراعاة الدروس المستفادة من تاريخنا القومى ·

الا ليتهم يفعلون ذلك فى الجوامع والكنائس والصحافة المرئية والمسموعة ·

ألا ليت الضاحكين والهازلين والقاعدين والراقصين والمغنين والثرثارين والمترهبين والمتعبدين والمتسامرين بالمقاهى و (الكباريهات) ومدمنى الحشيش والخمور والبرشام والمتشاغلين بالتعصبات الدينية والسياسية والمتسابقين على الوقيعة والنميمة والتحاسد والبغضاء وقطع صلات الرحم والقرابة والجيرة وزمالة العمل وزمالة الوطن ··

ألا ليت هؤلاء وغيرهم يؤمنون أن الحرام فى كل شريعة سماوية وأخلاقية هو انشغال البال أو الفكر أو النفس أو الجهد عن مسيرة اقالة هذه الامة من وهدة الفقر والتخلف والهوان ·

نعم ، ان الحرام هو أن يعلو أى صـوت فوق صـوت معركة الوحدة لتعمير الأرض وتحقيق السلام لكل نفس مصرية ·

مراجع وحواشي الجزء الثالث

١ ـ الاهرام الاقتصادى — العدد ٦٢٦ فى ١٢/١٪١٩٨١

٢ ـ الاهرام الاقتصادى — العدد ٦٢٦ فى ١٢/١/١٩٨١

٣ ـ الاهرام الاقتصادى — العدد ٦٦٦ فى ١٩/١٠/١٩٨١
العدد ٥٥٦ فى ١٥/١٠/١٩٧٨

٤ ـ الاهرام الاقتصادى — العدد ٦٦٤ فى ٥/١٠/١٩٨١

٥ ـ الأهرام الاقتصادى — العدد ٦٦٥ فى ١٢/١٠/١٩٨١

٦ ـ يراجع البيان الذى القاه السيد / حسنى مبارك رئيس الجمهورية فى ذكرى ثورة يوليو ١٩٥٢ والذى ألقاه فى يوليو ١٩٨٢ حيث فاق ما نستورده من السكر هذا البيان بكثير .

٧ ـ الاهرام الاقتصادى — ٦٣٧ فى ٣٠/٣/١٩٨١

٨ ـ الاهرام الاقتصادى — ٦٥٧ فى ١٧/٨/١٩٨١

٩ ـ الاهرام الاقتصادى — ٦١٣ فى ١٣/١٠/١٩٨٠

١٠ ـ الاهرام الاقتصادى — ٦٦٠ فى سبتمبر ١٩٨١

١١ ـ الاهرام الاقتصادى — ٦٥٨ فى ٢٤/٨/١٩٨١

١٢ ـ الاهرام الاقتصادى — ملحق أول فبراير سنة ١٩٨٠

ويلاحظ عدم دقة البيانات الرسمية فى هذا الموضوع ، ففى الأهرام الاقتصادى رقم ٦٢٤ فى ٢٩٪١٢/١٩٨٠ نطالع بيان يقول ان مشكلة الاسكان فى مصر تتطلب بناء حوالى ٣ر٥ مليون مسكن على مستوى الجمهورية حتى عام ٢٠٠٠ أى بمتوسط ٥٠٠ مسكن يوميا ـ وفى الأهرام الاقتصادى رقم ٦٥٧ فى ١٧ اغسطس ١٩٨١ يقول البيان (ليس صعبا تحديد النقص الحالى فى الوحدات السكنية فى مصر فقد أكدت جميع الجهات التى تتصدى لهذه المشكلة أن هذا النقص يبلغ حاليا حوالى مليون وحدة سكنية فاذا أضفنا اليه عدد

الوحدات اللازمة للأجيال القادمة والتى تبلغ ٢٠٠٠٠٠ وحدة سكنية سنويا فان عدد الوحدات السكنية المطلوب بنائها حتى سنة ٢٠٠٠ خمسة ملايين وحدة سكنية) .

١٣ ـ الاهرام الاقتصادى ٦٢٢ فى ١٩٨٠/١٢/١٥
٦٦٥ فى ١٩٨١/١٠/١

١٤ ـ الاهرام الاقتصادى ٦٦٥ فى ١٩٨١/١٠/١

١٥ ـ الاهرام الاقتصادى ٦٠٥ فى ١٩٨٠/٨/١٨

١٦ ـ الاهرام الاقتصادى ٥٦٠ فى ١٩٧٨/١٢/١٥

١٧ ـ الاهرام الاقتصادى فى أكتوبر ١٩٨١

١٨ ـ الاهرام الاقتصادى ٦٠٥ فى ١٩٨٠/٨/٢٨

١٩ ـ الاهرام الاقتصادى ٦٦٦ فى ١٩٨١/١٠/١٩

٢٠ ـ الاهرام الاقتصادى ٦٠٥ فى ١٩٨١/٨/١٨

٢١ ـ جريدة الاخبار فى ١٩٨١/١٠/١٧

٢٢ ـ الاهرام الاقتصادى ٥٣٠ فى ١٩٧٨/٩/١

٢٣ ـ موضوع زيادة نسبة الاعالة بين أفراد الشعب المصرى تناوله الكثير من العلماء كما أنه ظاهرة يلحظها الجميع حيث تقوم الأسرة المصريـــة بالاستمرار فى الانفاق على أولادها حتى ما بعد الحصول على المؤهلات الدراسية ـ بل الى ما بعد الزواج فى أحيان كثيرة ـ ويراجع فى ذلك الدكتور على لطفى ـ دراسات فى التنمية الاقتصادية والاجتماعية ـ مكتبة عين شمس ـ ١٩٧٨ ص ٦٥ .

٢٤ ـ الاهرام الاقتصادى ٦٠٣ فى ١٩٨٠/٨/٤

٢٥ ـ الاهرام الاقتصادى ٦٠٦ فى ١٩٨٠/٨/٢٥

٢٦ ـ الاهرام الاقتصادى ٦٠٦ فى ١٩٨٠/٨/٢٥
وفى تصريح للمهندس سعد هجـــرس أن لدينا ٤ر٥ مليون عامل زراعى يزرعون نحـو ستة ملايين فدان بينما السويـــد ٢٠٠ ألف عامل فقط يزرعون ثمانية ملايين فدان ـ وفى هولندا ٤٠٠ ألف يزرعون ١٦ مليون فدان ـ وكل هذا له أسباب كثيرة من أهمها انتشار استعمال الميكنة الزراعية .

٢٧ ـ الاهرام الاقتصادى ٦٢٤ فى ١٩٨٠/١٢/٢٩

٢٨ ـ الاهرام الاقتصادى ٥٨٧ فى ١٩٨٠/٢/١

٢٩ ـ سيد قطب نحو مجتمع اسلامى ـ دار الشروق ـ الطبعة الرابعة ١٩٧٩ ـ ص ١٣٣ ·

٣٠ ـ جون ويلسون ترجمة د· أحمد فخرى الحضارة المصرية ـ مكتبة النهضة ·

٣١ ـ ول ديورانت قصة الحضارة ـ لجنة التاليف والترجمة والنشر ـ الطبعة الرابعة ـ جـ ٣ من المجلد الأول ·

٣٢ ـ د · محمد عمارة تجديد الفكر الاسلامى ـ محمد عبده ومدرسته ـ كتاب الهلال ـ العدد ٣٦٠ ·

٣٣ ـ الامام الشيخ محمد عبده الاسلام دين العلم والمدنية ـ عرض طاهر الطناحى ـ دار الهلال ـ ص ٩٦ ·

٣٤ ـ د· محمد عماره المرجع السابق ·

٣٥ ـ د· محمد عماره المرجع السابق ·

٣٦ ـ د· صوفى أبو طالب تاريخ النظم القانونية والاجتماعية ـ مكتبة النهضة المصرية ـ ١٩٥٤ ·

٣٧ ـ د· محمود حلمى نظام الحكم الاسلامى مقارنا بالنظم المعاصرة الطبعة الثالثة ـ ١٩٧٥ ص ٣٩ ·

٣٨ ـ سيد قطب المرجع السابق ص ١١٠ ·

٣٩ ـ د· محمد عماره المرجع السابق ص ٧٩ وما بعدها ·

٤٠ ـ د· محمد عماره المرجع السابق ص ٧٨ ·

٤١ ـ جان أحمرايتان اللقاء المسيحى الاسلامى ـ حوار ـ مبادىء ـ تاريخ ـ مقترحات ـ القاهرة ١٩٨٠ ص ١٠٧ ·

٤٢ ـ الشيخ محمد عبده الاسلام دين العلم والمدنية ـ المرجع السابق ·

٤٣ ـ مجموعة من القيادات السياسية الديمقراطية فى مصر ـ ربع قرن بعد ثورة

يوليو ـ مركز الدراسات الاستراتيجية بجريدة الأهرام .

٤٤ ـ د. أبو المعاطى أبو الفتوح — حتمية الحل الاسلامى ١٩٧٧ ص ٥٠ .

٤٥ ـ د. عصمت سيف الدولة — الأحزاب ومشكلة الديمقراطية فى مصر ـ المرجع السابق .

٤٦ ـ مجموعة من القيادات السياسية — الديمقراطية فى مصر ـ مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام ـ ٢٣ يوليو ١٩٧٧ ـ مقالة الأستاذ طارق البشرى .

٤٧ ـ مجموعة القيادات السياسية — المرجع السابق .

٤٨ ـ د. عصمت سيف الدولة — المرجع السابق .

٤٩ ـ مجموعة من القيادات السياسية — المرجع السابق .

٥٠ ـ د. رفعت السعيد — الأساس الاجتماعى للثورة العرابية ـ مكتبة مدبولى ـ ص ٢٢

٥١ ـ مجموعة من القيادات السياسية — الديمقراطية فى مصر ـ المرجع السابق

٥٢ ـ د. مصطفى العبادى — مصر من الاسكندر الأكبر الى الفتح العربى ـ مكتبة الانجلو المصرية ص ٢٢ .

٥٣ ـ مرجريت مرسى — مصر ومجدها الغابر ـ مجموعة الألف كتاب ـ لجنة البيان العربى ١٩٥٧ .
ترجمة محرم كمال
ومراجعة نجيب ميخائيل ابراهيم

٥٤ ـ مجموعة القيادات السياسية — المرجع السابق .

٥٥ ـ د. يوسف القرضاوى — مشكلة الفقر وكيف عالجها الاسلام ـ مكتبة وهبه ص ٢٨ (طبعة مزيدة ومنقحة) .

٥٦ ـ الاستاذ أبو ذكرى — تاريخ النظريات الاخلاقية وتطبيقاتها العملية ـ الطبعة الرابعة ـ ١٩٦٥ ـ دار الفكر العربى .

٥٧ ـ جيمس هنرى برستيد — فجر الضمير ـ مكتبة مصر .
ترجمة د. سليم حسن

٥٨ ـ جون ويلسون — الحضارة المصرية .
ترجمة د. أحمد فخرى — مكتبة النهضة ـ ص ٢٨٩ .

٥٩ ـ د. أحمد فخرى — مصر الفرعونية ـ الطبعة الرابعة . مكتبة الأنجلو المصرية ـ ١٩٧٨ ـ ص ٤٢٣ .

٦٠ ـ د. يوسف القرضاوى — المرجع السابق

فهرس

طابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٤/٥٢٥٧

ISBN ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ٠٤٦٧ ـ ١

يلاحظ المتتبع لفكر الكثيرين وتصرفاتهم الاتجاه إلى اليأس من تحسين أحوالهم المعيشية داخل حدود بلادهم .

لهذا يلجأ البعض إلى الهجرة الدائمة أو المؤقتة خارج بلاده عله يستطيع أن يحصل على الدخل الملائم .

ولقد بحث هذا الكتاب هذه المشكلة متتبعا جذورها التاريخية من النشأة الأولى للشعب المصرى وعبر آلاف السنين وحتى الآن .. ثم ، لينتهى الكتاب ، بعد تقديم الأدلة من واقع تاريخنا القومى ، إلى إمكانية القضاء على جميع المشاكل التى يعانى منها المصريون وتوفير الحياة المرفهة لهم داخل حدود بلادهم مع استعادة موقعهم القيادى لحضارة بنى الانسان .

إذا ... اتحدوا ...

فما وسيلة ذلك ؟

هذا ما يجيب عليه هذا الكتاب

٣٠٠ قرش
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب